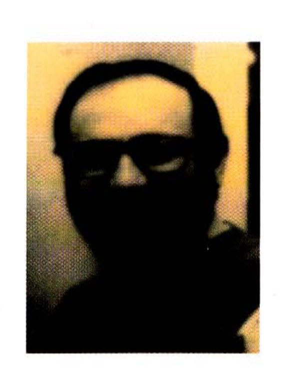

أومبرتو إيكو
جزيرة اليوم السابق
نقله عن الإيطالية
د. أحمد الصمعي
أويا



أومبرتو إيكو (أليسّاندريا (ايطاليا) - 1932)

تحصل على الأستاذية في الفلسفة بجامعة تورينو سنة 1954 برسالة حول «الجمالية عند توما الأكويني» أعادت نشرها دار بومبياني تحت عنوان «المسألة الجمالية عند توما الأكويني» (1970). اشتغل في الإذاعة والتلفزة الإيطالية (RAI) الى حدود سنة 1959 مهتمّا بالبرامج الثقافية، وقام بدروس حرّة في جامعة تورينو الى أن عهدت اليه جامعة بولونيا سنة 1971 استاذية السيميوطيقا. الى جانب نشاطه الجامعي يساهم ايكو بصفة متواصلة في صحيفتي «La Repubblica» و«L'Espresso»، وقد صدرت له مجموعة أولى من هذه المساهمات في كتاب يحمل عنوان «سبع سنوات من الأماني «Sette anni di desiderio، 1983»، بينما مقالاته في مجلة L'Espresso الأسبوعية نشرت أخيرا لدى بومبياني بعنوان «رسالة مينارفا» (La bustine di Minerva, 2000).
بدأ منذ سنة 1971 في نشر المجلة الدولية للدراسات السيميوطيقية «VS».
من أهمّ مؤلفاته النظريّة: Opera aperta، 1962 (العمل المفتوح)، La struttura assente، 1968 (البنية الغائبة)، Trattato di semiotica general، 1975 (دراسة في السيميوطيقا العامّة)، Lector in fabula، 1979 (ترجم الى العربية بعنوان القارىء في الحكاية، عن المركز الثقافي العربي-الدار البيضاء وبيروت، 1996)، I limiti dell'interpretazione 1990 (حدود التأويل) Sei passeggiate nei boschi narrativi، 1994 (ستّ رحلات في أدغال السردية). وأخيراً ترجم له كتاب بعنوان - «التأويل بين السيميائيات والتفكيكية».
نشر أولّ رواية له سنة Il nome della rosa 1980، (جائزة ستريغا 1981) (ترجمت الى العربية بعنوان اسم الوردة عن دار التركي للنشر-تونس 1991, ثم عن دار أويا-طرابلس ليبيا 1998)، ثم Il pendolo di Foucault، 1988 (جائزة بانكاريلا 1989) (بندول فوكو) وأخيرا L'isola del giorno prima، 1994 (جزيرة اليوم السابق).

جزيرة
اليوم السابق



أومبرتو إيكو

جزيرة اليوم السابق

نقله عن الإيطالية
أحمد الصمعي

دار أويـــا للنشر

الطبعة الأولى

نيسان/ابريل/الطير 2000 إفرنجي

رقم الإيداع المحلي 4789/ 2000
رقم الإيداع الدولي (ردمك) **ISBN 9959-29-034-4**
دار الكتب الوطنية/ بنغازي ـ ليبيا

تصميم الغلاف : محمد حماده

دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية

زاوية الدهماني، السوق الأخضر، هاتف: 4448750 ـ 4449903 ـ 3338571. 21 . 00218 ـ
فاكس: 4442758 . 21 . 00218، ـ ص.ب.: 13498 ـ طرابلس ـ الجماهيرية العظمى

توزيع **دار الكتاب الجديد المتحدة** أوتوستراد شاتيلا ـ الطيونة، شارع هادي نصر الله ـ بناية فرحات وحجيج، طابق 5، خليوي: 933989ـ03 ـ هاتف وفاكس: 542778ـ1ـ00961 ـ بيروت ـ لبنان

في البال جزيرة

من منّا لم يحلم يوماً بجزيرة نائية، واقعة في أطراف الدنيا، نائمة بين زرقة السماء ولازورد البحر؟ «أين منّي جزيرة نائية لم تطأها قدم رجل؟» كما يقول أحد أبطال نجيب محفوظ في رواية السراب.

الخيال الإنساني، والأدبي، عامر بالجزر. فهي إمّا فضاءات للوحدة والتأمل، أو سجون مفتوحة يقصى إليها من حكمت عليه عدالة الإنسان بالنفي والحرمان، أو مخبأ لكنوز يعجز عن وصفها اللسان أو وكر للقراصنة والمتوحشين آكلي لحوم البشر. هذه الجزر تطلّ علينا من صفحات الكتب ومن خرافات الجدّات فتجعلنا نحلم بالطبيعة العذراء وبالمخلوقات العجيبة وتحيي فينا روح المغامرة. وجميعنا يتذكر مغامرات جزيرة الكنز ورحلات السندباد وأوليس بجزرها الغريبة ومخلوقاتها الخيالية. فالجزيرة مثل الوردة صارت موقعاً ثرياً بالمعاني والرموز والخيالات.

كل منا يبحث عن جزيرته، وكل منا يريدها ويتصورها حسب الآمال التي يجري وراءها، دون الفوز بها. فمثلنا مثل «الفارس المالطي» في هذه الرواية، الذي يبحث عن جزيرة «إسكونديدا» وكلما بدا له أنه عثر عليها، بقي شيء في دخيلته يتنازعه ويجعله يقطع بأن تلك الجزيرة ليست «إسكونديدا» التي يبحث عنها، أو أولئك الذي يبحثون عن جزيرة سليمان للظفر بالكنز العظيم الذي يقال أن سيدنا سليمان جمّعه فيها، فيقضون حياتهم وراء هذا الأمل ويموتون من أجله. وجميعنا يقضي كامل العمر في البحث عن جزيرته دون بلوغها، وكثيرون تقف مراكبهم أمام الجزيرة المأمولة، دون القدرة على النزول إليها، فتمر بهم الأيام بين الحسرة على الأمس وحيرة اليوم والرجاء في الغد.

هكذا يقف روبارتو في الرواية متأملاً جزيرته، دون أن يتمكن من بلوغها، فتصير الجزيرة رمزاً لماضيه، بما أنها تقع وراء خط الهاجرة الذي يفصل يومه عن أمسه، وأملاً في إعادة كتابة حياته لو تمكن من عبور خط الزمن، وتصير دافني، السفينة المهجورة التي يجد روبرتو نفسه على متنها،

النقطة الثابتة التي تبثّ فيها بندول حياته بين ماضيه وحاضره ومستقبله، فتعود إليه ذكريات طفولته في «مونفيراتو» وحصار «كزالي» الذي شارك فيه صحبة أبيه. وأيام باريس وصالوناتها التي عرّفته بحبيبته «ليليا» إلى أن يصل إلى الظروف التي جعلته يركب البحر، إلى أن غرقت سفينته وقذفت به الأمواج فوق سفينة أخرى راسية أمام جزيرة. وهنا يرتبط الماضي بالحاضر ويعيش روبارتو تجربة حياتية جديدة صحبة شيخ عالم كان مختفياً في السفينة، فيفسّر له الشيخ الكون من منظار جديد، ويكشف له أسرار الدنيا من زوايا لم تكن تخطر له على بال وبعد وفاة الشيخ أثناء تجربة علمية يعود روبارتو إلى سابق وحدته فيتصور تواصلاً لقصته ليصبح لها غد، ويصير بهذه الطريقة مؤلفاً لرواية داخل الرواية. فها هو إذن يتحرّر من قيود الزمن التي تربطه إلى ماضيه وحاضره، ويعبر بخياله خط الهاجرة الذي يفصل يومه عن أمسه ليعيد كتابة حياته، وليعطيها الخاتمة التي تليق بها.

ما هي العبرة من كل هذا؟ ربما ليست هناك أي عبرة، أو أن كل واحد منا يستخلص العبرة التي تتماشى أكثر من تطلّعاته. ربما نحن مثل «روبارتو» نعيش حياتنا فوق سفينة لا نقدر على الابتعاد عنها، ونأمل في بلوغ جزيرة لا نستطيع الوصول إليها إلى أن نرمي بأنفسنا إلى البحر ليفعل بنا ما يشاء.

اسم الوردة (1981)، بندول فوكو (1989)(*) وأخيراً جزيرة اليوم السابق (1994): ثلاث روايات «ضخمة»، ثلاثة عوالم لامتناهية، ماذا يربط بينها. كل شيء ولا شيء. ما يربط بينها هو إيكو السيميوطيقي، ذو الاطلاع الموسوعي والتقنية السردية الدقيقة. اللغة كعادتها ثرية فوق اللزوم كأن صاحبها يريد أن يبهر بسعة علمه وببلاغته ولكنه ليس تبجحاً أو زخرفاً مجانياً، بل مجاراة لإسلوب العصور التي خلقت منها ووضعت في إطارها قصة «أدسو» في اسم الوردة، وقصة «ياكوبو بالبو» في بندول فوكو، وأخيراً قصة «روبارتو» في جزيرة اليوم السابق. وفي جميع هذه العوالم يتحرك إيكو بخفة من اعتاد على الأمكنة وتعرف على أسرارها. فكأنه في اسم الوردة واحد من رهبان الدير، وفي بندول فوكو عضو في مؤامرة كونية، وفي جزيرة اليوم السابق جاسوس أو عالم يبحث عن خط الهاجرة. ومن اختلاف هذه العوالم تنشأ قصص مختلفة،

(*) يعكف الدكتور أحمد الصمعي على ترجمة «بندول فوكو» بتكليف من دار أويا.

منها ما هو قروسطي ومنها ما هو حديث ومنها ما هو معاصر، أو امتزاج لكل هذا. وفي جميع هذه البيئات، ريفية كانت أم حضرية، برية كانت أم بحرية، يقف البطل موقف الحائر، يتساءل ماذا يفعل في هذه الدنيا، وأين مكانه من الكون وأين نقطته في مسار الزمن، ويضع محل الشك معتقداته وثوابته.

ماذا أراد أ. إيكو أن يبلغنا من خلال رواياته الثلاث؟ فكرة أن الكون متعدد وليس واحداً؟ أو أن اليقين ينتج من ألف شك؟ أو انعدام فكرة قوية صالحة لكل زمان ومكان لفائدة أفكار ضعيفة متعددة ومتجددة حسب المكان والزمان؟ أم أنه أراد أن ينظر إلى مشكلات العصر من خلال دروس الماضي وبواسطة روايات تبدو في الظاهر بعيدة في الزمن وفي الأحداث عن مشاغلنا ولكنها في الواقع تجترّ هواجس راسبة في أعماق الذات البشرية؟ جميع هذه الافتراضات مقبولة وهذه الروايات تبقى «أعمالاً مفتوحة» قابلة لشتى القراءات ولأبعد التأويلات. وليس من الصعب علينا تصور الابتسامة الماكرة التي ترتسم على شفتي المؤلف وهو يقرأ جميع الآراء والافتراضات والتأويلات التي أحدثتها روايته الأولى «اسم الوردة» ويهز رأسه أحياناً متعجباً وأحياناً مستنكراً وأحياناً أخرى متشككاً، ولكنه يشعر في قرارة ذاته بأنه نجح في صنع «آلة لخلق المعاني» أو في وضع «مخبر» يتأكد من خلاله من صحة نظرياته السيميوطيقية، أو يوفر له مادة جديدة لمواصلة البحث النظري.

وفعلاً تقع هذه الروايات في منتصف المسار الدراسي ـ الإبداعي لإيكو. فرواياته جاءت دون سابق إنذار، أي دون محاولات سردية تمهّد لعمل كبير، وجاءت في حين كانت شهرته كباحث قد عبرت حدود إيطاليا وأوروبا إلى أمريكا واليابان وغيرهما من البلدان. ولا شك أن فعل المفاجأة إضافة إلى صيته يفسّران القبول الذي حضيت به رواية اسم الوردة، وبنسبة أقل بندول فوكو وجزيرة اليوم السابق. وجاءت في منتصف مساره لتكون حلقة وصل بين التنظير والإبداع، أي لتكتمل عبر النص الروائي وعبر الخلق ما عجز عنه لسان التنظير، وجاءت في منتصف مساره الحياتي والدراسي لتكون أعمالاً ناضجة دسمة، موسوعية تتطلب قارئاً ناضجاً، مستعداً للقيام بهذه الرحلات الشاقة.

كان هذا واحداً من أغراض الكاتب: أن يصنع نصاً يستثير فضول القارئ وحبّ اطلاعه ويشحذ قدراته التأويلية وأن يجرّب بنفسه، وعلى نفسه، إمكانات التأويل ليرى إلى أي مدى يتحرر النص من سلطة مؤلفه وينتج معانيه حسب

القراءات التي تجرى عليه. رواياته ليست «بريئة» وليست «عفوية» بل صنع محكم دقيق حسب فيها المؤلف حساباً لكل شيء وجعل من القارئ مخاطبه المباشر في لعبة يتحداه فيها، أي يستنفد جميع المفاهيم والتلميحات والرموز. وهي مخابر يجرّب فيها إيكو السيميوطيقي تفاعلات القارئ. وليس أدلّ على ذلك من أنه نشر بعد اسم الوردة وبندول فوكو كتابين في العلاقة بين النص والقارئ هما «حدود التأويل [I limiti dell'interpretazione] (1990)، وست رحلات في غابات السردية [Sei passeggiate nei boshi narrativi]، (1994).

إلى جانب كل هذا صنع إيكو رواياته، وخاصة منها الأولى، حسب وصفة تشتمل على جل المكونات التي تستجيب لذوق القارئ المعاصر والتي تجعل من الكتاب، إضافة إلى قيمته الأدبية والفنية، منتوجاً تجارياً رابحاً. فالروايات الثلاث تقوم على حكايات فيها كثير من التشويق البوليسي: سبع جرائم في دير في اسم الوردة، مؤامرة كونية في بندول فوكو، جوسسة دولية للعثور على خط الهاجرة في جزيرة اليوم السابق. وفي جميعها يختفي الكاتب وراء مخطوط عثر عليه، أو وراء ملف في جهاز حاسوب أو وراء يومية تركها المسافر كأنه يقول «لست المسؤول عن هذه البدع» أو «ما ذنبي أنا إن كان الناس يتكلمون بهذه الطريقة في تلك العصور ويعجبهم أن يبهروا الآخرين بسعة علمهم؟» وفي الأثناء يملأ صفحاته بجميع ما يخطر له من أفكار فلسفية وطبيعية ورياضية وفلكية، وبمصطلحات قديمة وحديثة ومعاصرة، نادرة في كثير من الأحيان وأحياناً أخرى منحوتة نحتاً، مما يجعل مهمة القراءة (والترجمة) عسيرة، تكاد تكون مستحيلة.

فكم من قارئ ترك روايات إيكو قبل تجاوز الصفحات الأولى، وكثيرون لم يقدروا تماماً على قراءة بندول فوكو، لما تتطلبة هذه الكتب من جهد ومن طول نفس. ولا يعني هذا أن إيكو أخطأ المرمى بل هذا يؤكد رأيه أن الكتاب رحلة ينبغي أن يستعد لها القارئ وتلك الصفحات المشبعة بالتعاليق والهواجس والأفكار هي مثل الحركات التسخينية التي تهيئ اللاعب لمباراة صعبة. هي فعلاً رحلات شاقة ولكنها جعلت من روايات إيكو غلة غريبة ونادرة لا يلتذ بها إلى المغرمون بالألوان المجهولة من الطعام.

أحمد الصمعي

تونس، مارس 2000

1

دا فـــنـــي

«ومع ذلك فأنا أزدهي بذلّتي، وبما أنه حكم عليّ بمثل هذا الحظ، فأنا أكاد ألتذّ بنجاة مقيتة: إذ أنني، حسب اعتقادي، ومنذ أن خلقت البشرية، أول إنسان ينجو من الغرق فوق سفينة مهجورة.»

هذا ما كتبه روبارتو دي لاغريف، بصياغة البليغ المسرف، على ما أظن بين يوليو وأغسطس من سنة 1643.

كم مرّ عليه من يوم والأمواج تتقاذفه، وهو موثوق إلى لوحة، ووجهه نحوالأسفل حتى لا تعميه أشعة الشمس، وعنقه ممتدة بطريقة غير طبيعية حتى لا يبتلع ماء البحر، وقد أحرقه الملح، وبات دون شك فريسة للحمّى؟ لا تذكر رسائله ذلك وتوحي بأنه قضى زمنا لا نهاية له، ولكنني أظن انه لم يتجاوز اليومين على الأكثر، والا لما استطاع ان يبقى على قيد الحياة تحت سطوة فيبو (كما كان يتشكى ببلاغة في الخيال) ـ وهو ضعيف البدن كما يصف نفسه، وحيوان يسعى أثناء الليل لعاهة طبيعية فيه.

لم يكن بوسعه ان يقدّر الزمن، ولكنني أظن ان البحر هدأ حالا بعد العاصفة التي رمت به من على متن أماريلّي، وتلك العوامة أو ما يشبهها التي صنعها له البحار على قياسه حملته مسافة أميال غير كثيرة،

تدفعها الرياح فوق بحر جميل، في فصل يكون فيه الشتاء تحت خط الإستواء معتدلا جدا، إلى أن ساقه التيار إلى ذلك الخليج.

كان الوقت ليلا، وأخذته غفوة، فلم يتفطن إلى اقترابه من السفينة إلى ان اصطدمت اللوحة بمقدمة دافني.

ولما وجد نفسه يطفو تحت الصاري ـ في نور القمر الذي كان ليلتها في تمامه ـ محاذيا طرف السفينة الأمامي الذي كان يتدلى منه سلماً صغيراً من الحبال غير بعيد عن سلسلة المرساة (أو سلّم يعقوب حسب عبارة الأب كسبار!)، عندئذ رجع اليه في الحال إدراكه كاملا. قد يكون ذلك نابعا من شدة اليأس: وتساءل إن كانت له القوة لكي يصيح (ولكن حلقه كان جافا ملتهبا) ام يتحرّر قبل كلّ شيء من الحبال التي جرحت بدنه بخطوط داكنة ويحاول تسلق السلم. أظن انه في مثل تلك الحالات يتحول المحتضر إلى هرقل يخنق التنانين وهو لا يزال في المهد. يروي روبارتو كلّ هذا بصفة غامضة، الا انه لا يمكننا الاّ قبول فكرة انه بحال من الأحوال تسلق ذلك السلم، بما اننا نجده في نهاية الأمر فوق مقدمة السفينة. ربما صعد على عدة مراحل، ينهكه التعب في كل مرحلة، إلى ان رمى نفسه وراء الحاجز، ثم زحف فوق الحبال، ووجد باب طرف السفينة مفتوحا... وقادته غريزته في الظلام إلى برميل الماء، فأمسك بحرفه لينتصب واقفا ثمّ وجد طستا مربوطا بسلسة صغيرة. وشرب قدر ما استطاع، إلى ان سقط متخما، وقد يكون بالمعنى الصحيح للكلمة، ربما لأن ذلك الماء كان يحتوي على عدد لا حدّ له من مختلف الحشرات التي غرقت فيه فكان له طعاما وشرابا في الآن نفسه.

قد يكون نام لمدة اربع وعشرين ساعة، وهو حساب صحيح بما انه استفاق عندما كان الوقت ليلا، ولكنه كان كمن ولد من جديد. اذن كان ليلا من جديد.

ولكنه ظن انها نفس الليلة، والا فبعد مضي يوم كامل يكون قد

انتبه أحد لوجوده. وكان نور القمر ينفذ من سطح السفينة، وينير ذلك المكان، الذي بان كأنه المطبخ، بقدره المعلقة فوق الفرن.

وكان للمكان بابان، واحد يفتح ناحية الصاري المائل، والآخر على السطح. وأطل من الباب الثاني، فرأى بوضوح كما لو كان نهارا، أكبال الأعمدة في نظام جميل، والرافعة، والصواري بأشرعتها المطوية، ومدافع قليلة في الكوَّات، وشبح طرف المؤخرة. أحدث ضجيجا ولكن لم يجبه أحد. وأطل من الحاجز، فرأى على يمينه، على بعد ميل تقريبا، ملامح الجزيرة، بنخلاتها على الشاطىء تحركها النسمة البحرية.

كانت اليابسة تكوّن شبه منعطف يحده شريط من الرمال يتراءى بياضه في العتمة الشاحبة، إلا أنه، كما يحدث لمن نجا من الغرق، لم يكن روبارتو يعرف ان كانت جزيرة أم قارة.

ثم انتقل إلى الجانب المقابل وهنالك بدت له ـ ولكن هذه المرة من بعيد، كأنها على خط الأفق ـ قمم ربوع اخرى، يحدها هي الأخرى مرتفعان والباقي بحر، مما يجعل المرء يتصور ان السفينة توقفت في مرسى بعد عبورها قناة واسعة تفصل بين اليابستين. واستخلص روبارتو من ذلك انه، ان لم تكونا جزيرتين، فهي دون شك جزيرة مواجهة لأرض اكثر اتساعا. ولا أظنه جازف بافتراض آخر، بما انه لم ير قط في حياته جوناً في مثل ذلك الإتساع مما يوحي لمن يجد نفسه في وسطه انه تجاه يابستين متماثلتين. وهكذا، لجهله بقارات شاسعة، كان تخمينه صحيحا.

شيء جميل بالنسبة لإنسان نجا من الغرق: قدماه على متن راسخ واليابسة في متناول يده. ولكن روبارتو لم يكن يتقن السباحة، وسيكتشف بعد حين انه لا يوجد فوق السفينة أي قارب نجاة، وفي الأثناء كان التيار قد أبعد اللوحة التي حملته إلى السفينة. مما جعل عزاؤه بالنجاة من الموت يترك المجال الآن للهلع، للوحدة التي يجد

نفسه ثلاث مرات فيها: وحدته في البحر، وفي الجزيرة القريبة، وفي السفينة. ربما صاح عدة مرات مناديا أهل السفينة، بجميع اللغات التي كان يعرفها، مكتشفا نفسه ضعيفا جدا. لم يجبه الا الصمت. كما لو كان جميع نوتييها قد فقدوا الحياة. ولم يعبّر قط ـ وهو الذي لا يبخل قط بالصور المجازية ـ تعبيرا أكثر مطابقة للحرف. أو كاد ـ وبخصوص هذا الإحتراز أريد أن أتحدّث، ولكنني لا أدري من اين أبدأ.

ومع ذلك فقد بدأت. انسان يطفو منهك القوى وسط المحيط والمياه بإشفاق منها ترميه فوق سفينة تبدو خالية. خالية كما لو هجرها ملاحوها منذ وقت قريب، لأن روبارتو يعود بمشقة إلى المطبخ ويجد هنالك قنديلا وقداحة، كما لو وضعها الطباخ في مكانها قبل الذهاب للنوم. ولكنه يجد قرب المدفأة فراشين أحدهما فوق الأخر، خاليين. ويشعل روبارتو القنديل، وينظر حواليه، فيعثر على كمية كبيرة من المؤن: سمك مجفف، وخبز مجفف، كسته الرطوبة بقشرة زرقاء رقيقة تكفيها كشطة خفيفة بالموسى. كان السمك مالحاً جداً، ولكن الماء موجود بكمية وافرة.

قد يكون استعاد قواه في وقت قليل، ام انه كان بعافية عندما كتب ذلك، بما أنه يطيل ـ ببلاغة الأديب الكبير ـ في سرد مأدبته، التي لم ير أولمب مثلها في مآدبه، رحيق عذب حمل اليّ من أعماق البحر، وحوش صار موتها مصدر حياة لي... ولكن هذا ما كان روبارتو يكتب إلى سيّدة فؤاده:

يا شمسي المضيئة، يا قمري المنير،

لماذا لم تأخذني السماء في تلك العاصفة التي أثارتها بمثل تلك الشدة؟ لماذا حرمت البحر الجشع من جسدي، لكي ترميني بعد ذلك في هذه الوحدة الموحشة لتغرق فيها روحي غرقة شنيعة؟

ربما لن تقرئي ابدا هذه الرسالة التي أكتبها اليك، إذا لم ترسل

السماء الرحيمة اليّ بعون، وأنا محترق مثل شعلة ألهبها ضياء هذه البحار تفقد نورها أمام عينيك، تماما مثل سيلين، التي، واحسرتاه، بعد ان شبعت من نور شمسها، كلّما ابتعد الكوكب في سفرته إلى ما وراء أفق كوكبنا وسرقت منها اشعّة الكوكب ملكها، في البداية تصير نحيلة مثل المنجل الذي يحصد حياتها، ثمّ، فتيلة تذبل شيئا فشيئا إلى ان تذوب تماما في ذلك الدرع اللازوردي الشاسع، حيث ترسم الطبيعة الآريبة شعارات بطولية ورموزا غامضة من أسرارها. محروم من نظرك، فأنا أعمى لأنك لا ترينني، أبكم لأنك لا تتحدّثين اليّ، دون ذاكرة لأنك لا تتذكرينني.

وأحيا فقط، عتامة ملتهبة وشعلة معتمة، خيالا غامضا تتصوّره روحي دائما متساويا في هذه الكتلة المناوئة من الأضداد، وتودّ أن تنسبه اليك. بنجاتي فوق هذه القلعة من خشب، فوق هذا البرج العائم، سجين بحر يحميني من البحر، قد عاقبني رفق السماء، وأخفاني في هذا التابوت العميق المفتوح لجميع الشموس، في هذا الدهليز الفضائي، في هذا السجن المنيع الذي يمنحني الفرار من كلّ الجهات، فأنا أيأس من أن أراك يوما.

سيدتي، إنني أكتب اليك كما لو أهديك، هبة لا تليق بك، وردة يأسي الذابلة. ومع ذلك فأنا أزدهي بذلّتي، وبما أنه حكم عليّ بمثل هذا الحظّ، فأنا أكاد ألتذّ بنجاة مقيتة: اذ انني حسب اعتقادي، ومنذ ان خلقت البشرية، أول انسان ينجو من الغرق فوق سفينة مهجورة.

أيكون ذلك ممكنا؟ حسب التاريخ الموجود فوق هذه الرسالة الأولى، أخذ روبارتو في الكتابة فورا بعد وصوله إلى السفينة، ما ان وجد ورقا وقلما في غرفة القبطان، وقبل ان يشرع في استكشاف باقي السفينة. ومع ذلك فقد كان عليه ان يقضي بعض الوقت وان يسترجع شيئا من قواه، اذ كان كالحيوان الجريح. أم انها كانت حيلة العاشق، الذي يحاول قبل كل شيء ان يعرف اين رمت به المقادير، ثم يكتب،

متظاهرا انه قام بالمراسلة قبل ذلك. كيف ذلك، وهو يعرف، او يخمن، او يخشى ان لا تصل رسائله ابدا وانه يكتبها فقط لتعذيب نفسه (لسلوان معذّب، حسب اسلوبه، ولكن لا ينبغي ان تطغى علينا طريقته في الكلام)؟ انه لمن الصعب ان نعيد تركيب حركات وعواطف شخص تضطرم نفسه بنار وجد حقيقية، ولكننا لا نعرف ان كان يعبر عما يحس ام عما تمليه عليه قواعد الخطاب الغرامي - ولكن من ناحية اخرى ماذا نعرف نحن عن الفارق بين الهوى الذي يحسنه المرء والهوى الذي يعبّر عنه، وايهما يأتي قبل الآخر؟ كان في ذلك الوقت يكتب لنفسه، لم يكن أدبا، كان فعلا جالسا هناك يكتب كالمراهق الذي يجري وراء حلم مستحيل، مبللا الورقة بالدموع، لا لغياب الحبيبة، التي كانت مجرد صورة حتى في حضورها، ولكن لتعاطفه مع نفسه، عاشق للهوى...

يمكن ان نستمدّ من كلّ هذا مادّة لرواية، ولكنني أتساءل من جديد، من اين سأبدأ؟

أقول انه كتب هذه الرسالة الأولى من بعد، وقبل ان يفعل ذلك اطّلع على ما يوجد حوله - وما رآه سيذكره في الرسائل الموالية. ولكن هنا أيضاً كيف يمكننا ان نترجم يوميات شخص يريد ان يجعل - من خلال استعارات ذكية - ما كان يراه بصعوبة مرئياً، وهو يطوف أثناء الليل وعيناه مريضتان؟

سيقول روبارتو من بعد انه مرض من عينيه منذ أن اصابته تلك الرصاصة جانبيا على صدغه اثناء حصار «كزالي». ربما كان ذلك صحيحا، ولكنه يقول في مواضع اخرى ان عينيه ضعفتا اكثر من جراء الوباء. كان روبارتو دون شك ذا صحة ضعيفة، وحسب ما بدا لي كان مصابا أيضاً بوسواس المرض - وان كان بصفة معقولة؛ نصف خوفه من نور الشمس هو ربما ناتج من سواد المرّة، والنصف الآخر من بعض اشكال التهيج، قد تكون زادت من حدّتها مستحضرات السيّد ديغبي.

يبدو من المؤكد انه قضى كامل السفرة فوق أماريلّي دائما تحت سطح السفينة، بما ان دور الخائف من النور، ان لم يكن في طبيعته اصلا، فهو يتماشى مع مهمة مراقبة التجارب التي كانت تجرى في قاع السفينة. بضعة أشهر اذن قضاها جميعها في الظلمة او على نور فتيلة ـ وما قضاه بعد ذلك من وقت كان فوق تلك العوامة، تبهره اشعة الشمس لا يهم ان كانت استوائية او غير ذلك. عندما وصل إلى دافني، مريضا كان ام لا، اصبح يكره نور الشمس، وقضّى الليلة الأولى في المطبخ، يستعيد قواه ثم حاول في الليلة الموالية القيام باستكشاف أوليّ، وتتوالى الأحداث على هذا المنوال. كان يخاف النهار خوفا شديدا، ليس فقط لأن عينيه لا تطيقانه، بل وللحروق التي توجع ظهره، فكان يختبيء. كان يطمئنه ذلك القمر الجميل الذي يصفه في تلك الليالي، فأثناء النهار تبدو السماء كما هي عليه في كل مكان، بينما اثناء الليل كان يكتشف مجموعات جديدة من النجوم (اعمال بطولية ورموز غامضة، فعلا)، كما لو كان في مسرح: ويترسخ فيه الاعتقاد ان تلك ستكون حياته لأمد طويل وربما حتى الموت، فها هو اذن يخلق من جديد صورة حبيبته على القرطاس حتى لا تضيع منه، ويؤمن انه لم يضع منه أكثر بكثير مما كان في حوزته من قبل.

عند ذلك يلوذ بسهراته الليلية يحتمي بها كما لو كان في رحم أمه، ويستمد منها باعثا أقوى للهروب من الشمس. ربما كان قد قرأ شيئا عن «أشباح موتى اونغاريا»، أو «ليفونيا" أو «فلاكيا»، الذين يطوفون مضطربين بين الغروب والفجر، ويختبئون في قبورهم عند صياح الديكة: ربما كان يعجبه أن يتقمّص ذلك الدور...

ربما بدأ روبارتو استطلاعه في الليلة الثانية. لقد صاح الآن بما فيه الكفاية ليتأكد من عدم وجود أي كان فوق السفينة. ولكن، وهذا ما يخيفه، كان عليه أن يعثر على جثث، او على بعض العلامات التي تبرّر ذلك الغياب. كان حذرا في تحرّكاته، ومن خلال رسائله يصعب التكهن

بالاتجاه الذي أخذه: فهو يسمي السفينة، وأجزاءها والأشياء الموجودة فيها بدون دقة. أجزاء منها كان يعرفها وتعوّد على سماع اسمها من طرف البحارة، وأخرى كانت مجهولة لديه، ويصفها كما كانت تبدو له. ولكن حتى الأشياء المعروفة، وهذا دليل على ان نوتية أماريلّي كانوا لقيطا من البحار السبعة، سمع بعضهم يشير اليها بالفرنسية، وآخر بالهولندية، وثالث بالإنجليزيّة. فكان يقول في بعض الأحيان - staffe كما علّمه ربما الدكتور بيرد ـ للدلالة على البلاسترية ؛ ويصعب في بعض الأحيان ان نفهم ان كان فوق الكوثل أو «القصر" وأحيانا اخرى فوق طرف المؤخرة، وهي طريقة فرنسية للتعبير عن نفس الشيء؛ ويستعمل كلمة sabordi بمعنى كوّات السفينة، وأقبل منه هذا عن طيب خاطر اذ يذكرني بكتب البحارة التي كنا نقرأها في صغرنا؛ ويذكر كلمة «parrocchetto»، التي تعني بالنسبة الينا شراع الميزان (في مقدمة السفينة)، ولكن بما انه بالنسبة إلى الفرنسيين «perruche» تعني شراع بلفيدير المشدود إلى صاري المؤخرة، فنحن لا ندري إلى ماذا يشير عندما يقول انه كان تحت «parrucchetta». اضف إلى ذلك انه كان احيانا يسمي صاري المؤخرة «artimone»، على الطريقة الفرنسية، ولكن ماذا يعني اذن عندما يكتب «mizzana»، التي هي بالنسبة إلى الفرنسيين شراع الميزان (ولكن بالنسبة إلى الإنجليز، للأسف، هي غير ذلك، اذ يسمون «mizzenmast» صاري المؤخرة، كما هو طبيعي)؟ وعندما يذكر كلمة «gronda» فهو يعني ربما ما نشير اليه نحن بكلمة «ombrinale» أي مصرف المياه على سطح السفينة. مما جعلني اتخذ قرارا: سأحاول فهم ما ينوي قوله، ثم استعمل العبارات التي تعودت على سماعها أكثر. وإن أخطأت فلا بأس: لن يغير شيئا من القصة.

بعد كل هذا، لنقل انه في تلك الليلة الثانية، بعد ان وجد ذخيرة من المؤن في المطبخ، قام روبارتو تحت نور القمر بجولة فوق سطح السفينة.

استحضر ذاكرته بخصوص مقدّمة السفينة وجانبيها الممتلئين، كما تراءت له في الليلة الأولى، وبعد أن تمعن في سطح السفينة الضيق، وفي شكل طرفها وفي مؤخرتها الضيقة والمستديرة، وقارن بينها وبين أماريلّي، استنتج روبارتو ان دافني هي أيضاً «fluyt» هولندية، أو flauto أو flute، أو fluste، أو flyboat، أو fliebote، كما تسمى بطرق مختلفة تلك السفن التجارية ذات الحمولة المتوسطة، والمسلحة في العادة بحوالي عشرة مدافع، للدفاع في حالة تعرضها لهجومات القراصنة، وهي لحجمها المتواضع تكتفي بحوالي اثني عشر من النوتية، ويمكنها ان تحمل الكثير من المسافرين على شرط أن يعدلوا عن أسباب الرفاهية (وهي قليلة)، فتتراكم فيها المراقد حتى يتعثر فيها الركّاب ـ وبعد ذلك، تكثر الوفيات من جراء العفونات من كل شكل ولون ان لم تكن هناك سطول بقدر الحاجة. هي اذن من نوع «فلويت» حتى وان كانت أكبر من أماريلّي، قد اكتفى سطحها بمشبّك واحد، كما لو أن قبطانها أراد تغرف الماء عند أول موجة قوية.

على كل حال، شاء حسن حظ روبارتو أن كانت دافني هي الأخرى من نوع «فلويت»، اذ أمكنه ذلك من التنقل فيها وهو على معرفة بتركيبة الأماكن. كان من المفروض، مثلا، ان يجد وسط السطح قارب النجاة الكبير الذي بإمكانه ان يحمل جميع ملاحي السفينة: وغياب القارب يوحي بأن النوتية ذهبوا إلى مكان آخر. لكن هذا الأمر لم يكن يطمئن روبارتو: لا يترك النوتية أبدا السفينة دون حراسة تحت رحمة البحر حتى وان كانت راسية وأشرعتها مشدودة في خليج آمن.

تلك الليلة قرر ان يبدأ حالا باستكشاف ركن مؤخرة السفينة. فتح باب الحجرة بحذر، كما لو كان يطلب الإذن بالدخول... قرب مقبض الدفة، أفادته البوصلة ان القناة بين اليابستين تمتدّ من الجنوب إلى الشمال. ثم وجد نفسه فيما يسمّى اليوم بالمربّع، وهي قاعة في شكل «L»، وهناك باب آخر دخل منه إلى حجرة القبطان، بشباكها الواسع

فوق الدفة وفتحتيها الجانبيتين على الرواق. فوق أماريلّي لم تكن قاعة القيادة هي نفسها التي ينام فيها القبطان، بينما يبدو هنا انهم حاولوا الاقتصاد في الفضاءات لتوفير مكان لشيء آخر. وفعلا بينما توجد على اليسار غرفتان صغيرتان لإيواء ضابطين، على اليمين هيّئ فضاء آخر، يكاد يكون أوسع من حجرة القبطان، في ركن منه فراش متواضع، ولكنه مرتب كمكان للعمل.

كانت الطاولة محملة بالخرائط، وبدت هذه الأخيرة لروبارتو أكبر عددا من تلك التي تصلح عادة في السفن لقطع البحار. كان ذلك الفضاء يبدو مكان عمل خصّص لبحّاثة: وكانت هناك مع الخرائط، في اوضاع مختلفة، مناظير، ونكترلاب جميل من النحاس يبعث بوميض محمّر كما لو كان هو نفسه مصدر نور، ومحلقة مركزة إلى سطح الطاولة، وأوراق أخرى مليئة بالحسابات، وورقٌ عليه رسوم مستديرة بالأسود والأحمر، فهم منها، لأنه كان قد شاهد نسخا منها فوق أماريلّي (ولكنها كانت اقل جودة من هذه)، انها رسم للكسوف القمري لريجيومونتانوس.

بعد ذلك عاد إلى قاعة القيادة: عند الخروج من الرواق كان بإمكانه رؤية الجزيرة، بالإمكان - حسب قول روبارتو - التحديق في صمتها بعيني نمر. باختصار، كانت الجزيرة هنالك، كما كانت من قبل.

أظن انه وصل إلى السفينة وهو يكاد يكون عاريا: وأعتقد ان أول ما فعله لإزالة ملوحة البحر التي علقت به هو انه اغتسل في المطبخ، دون ان يتساءل ان كان ذلك الماء هو الوحيد فوق السفينة، ثم وجد في أحد الصناديق ثوبا انيقا كان للقبطان، ذلك الذي يلبسه للنزول على اليابسة عند انتهاء الرحلة. ربما تبختر متباهيا في زي القيادة، وأحس، عندما احتذى الجزمتين، انه عاد من جديد إلى عالمه. عند ذلك فقط يمكن لرجل شريف، بلباس محترم - لا غريقا هزيلا - ان يتملّك رسميا سفينة مهجورة، دون ان يبدو له ذلك اعتداء، بل حقا من حقوقه، وهذا ما فعل روبارتو: بحث فوق الطاولة، وعثر على يوميات السفينة،

مفتوحة كما لو قاطعتها حادثة، بجانب ريشة الإوز والمحبرة. وحال قراءته للورقة الأولى تمكّن من معرفة اسم السفينة، أما ما عدا ذلك فسلسلة غامضة من anker, passer, sterre-kyker,roer، ولم ينفعه شيئا معرفة ان القبطان كان فنلنديا. الا ان السطر الأخير كان يحمل تاريخا يعود إلى قبل ذلك ببضعة اسابيع، وبعد كلمات قليلة غير مفهومة وجد جملة باللاتينية مسطرة: pestis, quae dicitur bubonica.

ها انه قد وجد اثرا، او بداية تفسير. لقد انتشر الوباء على السفينة. وهذا الخبر لم يقلق روبارتو: لقد أصيب بالوباء منذ ثلاث عشرة سنة، والجميع يعرف ان من اصيب مرة بالمرض يحصل على نوع من الحصانة، كما لو ان تلك الحية لا تتجرأ على الدخول ثانية في أحشاء من هزمها في المرة الأولى.

ومن ناحية اخرى كانت تلك الإشارة إلى الوباء لا تفسر شيئا كثيرا، وتترك المجال لتخوفات اخرى. فحتى لو افترضنا انهم هلكوا جميعا، لوجد روبارتو هنا وهنالك على سطح السفينة جثث الموتى الأخيرين، لو قبلنا فكرة انهم رموا قبل ذلك بموتاهم في البحر.

ثم هناك غياب قارب النجاة: آخر من بقي على قيد الحياة، أو جميعهم، ابتعدوا عن السفينة. ماذا يجعل من سفينة موبوئين مكانا لا يقهر خطره؟ فئران، ربما؟ بدا لروبارتو من خلال تأويله لكتابة القبطان الأستروقوطية انه يقرأ كلمة «rottnest»، فأر كبير، أو فأر بالوعة ـ ونظر حواليه رافعا نور القنديل، كأنه سيرى من لحظة إلى أخرى شيئا يسري على جوانب السفينة، وسيسمع ذلك الصفير الذي جمّد دمه عندما كان على متن أماريلّي. ومرّت ببدنه قشعريرة حينما تذكر انه ذات ليلة احس بكائن مشعّر يلمس وجهه بينما كان النوم يراود جفنيه، وانطلقت منه صيحة فزع هرع لها الدكتور بيرد. ثم ضحك منه الجميع: حتى دون طاعون، يوجد دائما في السفن عدد من الفئران يضاهي عدد العصافير في الغابة، ويجب لمن يريد أن يجوب البحار أن يتعوّد على مرافقة الفئران.

الاّ أنه لا رائحة، في طرف السفينة، لوجود فئران. ربما تجمّعت في الفنطاس، تنتظر، وعيونها الحمراء تشع في الظلمة، لحما طازجا. وقال روبارتو في نفسه، ان كانت موجودة فينبغي معرفة ذلك في الحال. وان كانت فئرانا عادية وبعدد مقبول، فبالإمكان التعايش معها. ومن ناحية أخرى، هل يمكن ان تكون غير ذلك؟ طرح السؤال على نفسه، ولم يرد الإجابة عنه.

وجد روبارتو بندقية، وسيفاً عريضاً وموسى قديمة. كان فيما مضى جنديا: كانت البندقية من نوع كاليفار ـ كما يقول الإنجليز ـ يمكن تصويبها دون مثبّت ؛ وتحقق من ان الزند صالح للاستعمال، ليدخل الإطمئنان على نفسه أكثر من ان تكون لديه نية في استعمالها لإبادة الفئران، وفعلا رشق أيضاً في حزامه الموسى، مع انها ذات نفع قليل ضد الفئران.

وقرر ان يستكشف هيكل السفينة من مقدمتها إلى مؤخرتها. بعد ان عاد إلى المطبخ، ونزل سلما صغيرا وراء معلاق صاري المقدّمة، وجد نفسه في الأنبار (أو في المخزن، حسبما أظن)، حيث جمّعت كميات من المؤن لرحلة طويلة. وبما انها كانت غير كافية لإتمام الرحلة، قام النوتية بتزويد السفينة عند وصولها إلى أرض صديقة.

كانت هنالك سلال من السمك، دخّن منذ وقت غير بعيد، وأكوام من جوز الهند، وبراميل من الدرنة ذات شكل غريب ولكنها تبدو صالحة للأكل، وقابلة للاحتفاظ لمدة طويلة. ثم غلال، من تلك التي رآها روبارتو تحمل فوق أماريلّي عند المحطات الأولى في البقاع الإستوائية، وهي أيضاً تصمد تحت تأثير الفصول، مغلّفة بالشوك أو بحراشف، ولكنها ذات رائحة نفّاذة تخفي ثمرة في مأمن من التلف، وعصارة سكرية مغلقة. ومن بعض منتوجات الجزر كانت تأتي ربما تلك الأكياس من الدقيق الرمادي اللون، ذي الرائحة الفليسية، الذي صنع منه

أيضاً على ما يبدو ذلك الخبز، الذي يذكر طعمه بتلك العقد التي لا لذة لها والتي يسميها هنود العالم الجديد بطاطة.

في قاع المخزن رأى أيضاً حوالي عشرة براميل صغيرة ذات حنفية. استمدّ شيئا من الأول فاذا به ماء لم يتعفن بعد، بل العكس، كان يبدو أنه جمّع منذ وقت قريب وتمّت مداواته بالكبريت حتى يحتفظ به لمدة طويلة. لم تكن الكمية كبيرة، ولكن اذا ما اعتبر ان الثمار أيضا ستروي عطشه، بإمكانه ان يبقى وقتا غير قليل فوق السفينة. ومع ذلك فالإكتشافات، التي كانت مبدئيا تطمئنه إلى انه لن يموت جوعا، كانت تزيد من مخاوفه ـ كما يحدث دائما عند ذوي المزاج السوداوي، الذين يرون في كل علامة حظ نذير عواقب مشؤومة.

أن ينجو من الغرق فوق سفينة مهجورة فذلك في حد ذاته أمر غير طبيعي، ولكن لو كانت السفينة قد تركها العباد والربّ كحطام غير قابل للإستعمال، دون اشياء طبيعية أو مصنوعة فوقها تجعل منها ملاذا مقبولا، لكان ذلك من طبيعة الأشياء، وضمن الروايات التي يتناقلها البحارة؛ أما أن تكون مهيأة بتلك الصفة كما لو أعدّت لضيف مستحبّ ومترقّب، او كما لو كانت هبة خداعة، فهذا ما كان ينفح برائحة الكبريت، أكثر من الماء. وتذكر روبارتو عندئذ حكايات مختلفة كانت جدته تقصها عليه، وأخرى بأسلوب أكثر بلاغة كانت تقرأ على مسامع الحاضرين في صالونات باريس، حيث يروى عن أميرات ضللن السبيل في الغاب ثم دخلن إلى مغارات وجدن فيها غرفات ذات كساء وأثاث فاخر فيها أسرَّة مفروشة فوقها القباب، وخزائن تطفح بالألبسة الفاخرة، وحتى الموائد المعدة بأشهى المأكولات... ويعلم الجميع، بطبيعة الحال، ان الغرفة الأخيرة تحوي الحقيقة الشيطانية التي تكشف العقل الشرير الذي أعدّ الفخ.

لمس دون قصد جوزة هند في أسفل الكوم، فتخلخل توازن المجموعة، وإذا بتلك الأشكال الكروية المشعرة تتدحرج كلها، كأنها

فئران انتظرت في صمت قابعة على الأرض (او خفافيش معلقة في السقف ورأسها إلى أسفل)، متأهبة لتسلّق جسمه وتشمّم وجهه المالح بالعرق.

كان عليه ان يتأكد انه ليس سحرا: وكان روبارتو قد تعلم في رحلته كيفية تحضير الغلال الآتية من وراء البحار. استعمل الموسى الكبيرة كما لو كانت بلطة، وبضربة واحدة قسم الجوزة، وشرب السائل البارد، ثم كسر القشرة اطرافا وقضم الثمرة العالقة بها. كان كل شيء على غاية من اللذة مما زاد في ارتيابه. وقال لنفسه انه ربما كان فريسة وهم، وأنه قد عضّ بعض القواضم وتخيل انه يأكل جوزا، وربما امتصّ ماهيّتها، وعما قليل ستصبح يداه نحيفتين، ذات مخالب ومعقوفتين، وسيتغلف جسده بزغب كريه الرائحة، وسيتقوس ظهره، ويدخل في العالم التعيس الذي يسكنه أهالي زورق «أكيرونت" المشعّرين.

الا انه، وحتى نتم الحديث بخصوص الليلة الأولى، كان على كشّافتنا ان يواجه نذيرا آخر مفزعا. فكأنما ايقظ تدحرج الجوز بعض الكائنات النائمة، إذ سمع، من وراء الفاصل بين المخزن وباقي الفضاءات تحت سطح السفينة، ان لم يكن صفيرا، أو زقزقة، أو تغريدا، فحكيك قوائم. إذن الخدعة موجودة، هناك مخلوقات ليلية تجتمع في بعض المخابىء.

وتساءل روبارتو ان كان من الأفضل، والبندقية في يده، أن يواجه حالا ذلك «الأرماجدّون». كان قلبه يخفق بشدة، واتهم نفسه بالجبن، وقال في نفسه انه، سواء كان هذه الليلة أو في ليلة أخرى، الآن أو في وقت لاحق، عليه ان يواجه هؤلاء. بقي يتردد، ثم صعد فوق السطح، ولحسن الحظ تراءى له الفجر، يسيل شحوبه على معدن المدافع، التي داعبتها إلى ذلك الحين انعكاسات نور القمر. فقال لنفسه بارتياح ان النهار وشيك، وأن من واجبه ان يهرب من ضيائه.

وكما يفعل «أشباح موتى اونغاريا» عبر بسرعة سطح السفينة للعودة إلى طرف المؤخرة، ودخل إلى الحجرة التي صارت الآن حجرته، ثم أوصد الباب، وأغلق المنافذ التي تؤدي إلى الرواق، ووضع اسلحته في متناول يده، وتهيأ للنوم حتى لا يرى الشمس، ذلك الجلاد الذي يقطع بسيف أشعته أعناق الظلال.

نام نوما مضطربا، وعاوده حلم غرق السفينة، وحلم به كما يحلم أهل العقول النابغة، الذين حتى في أحلامهم، وخاصة في أحلامهم، يعملون بشكل تزيد فيه الجمل من رونق الفحوى، والتفاصيل من حيويته، والصلات الغامضة من كثافته، والاعتبارات من عمقه، والمغالاة من رفعته، والتلميحات من سريته، والإحالات من نفاذه.

أتصور أنه في تلك العصور، وفي تلك البحار، كانت السفن التي تغرق أكثر من تلك التي تعود إلى مرافئها؛ ولكن لمن يعيش ذلك للمرة الأولى، تصبح تجربته مبعث احلام مزعجة متتالية، تجعلها القدرة على التصور بعبقرية مثيرة كأنها يوم الحساب.

منذ الليلة السابقة للغرق بدا وكأن الهواء أصيب بزكام شديد، وبدت عين السماء مليئة بالدموع، عاجزة عن التحديق في امتداد الأمواج. كانت ريشة الطبيعة قد مسحت ألوان خط الأفق ورسمت ابعادا غير محدّدة.

وروبارتو، الذي تكهنت أمعاؤه بالرجفة الوشيكة، ارتمى فوق الفراش، وقد صارت تهدهده الآن أم السيكلوبات، وأخذته غفوة تقطعها أحلام مضطربة من بينها ما حلم به في الحلم الذي يقصه، وتلقى في كيانه الكون المرتاع. واستفاق على ضجة الرعد وصياح النوتية، ثم اجتاحت المياه فراشه، وظهر الدكتور بيرد يعدو ويصيح به كي يصعد على السطح، ويوثق نفسه وثاقا شديدا إلى أي شيء يجده اكثر رسوخا ولو بقليل.

فوق السطح، وجد فوضى، وصراخا، وأجسادا، كأنما رفعتها يد الإله، ورمت بها في البحر. وتمسك روبارتو بعض الوقت بشراع صاري المؤخرة (حسب ما فهمت)، إلى ان تمزق، تحت ضربات الصواعق، وأخذ الدوقل يميل مع ميلان النجوم وقذف بروبارتو عند اسفل الصاري الكبير. وهنا رآه بحار طيب القلب، كان قد ربط نفسه إلى الصاري، وبما ان المكان لم يكن متسعا لكليهما رمى اليه بحبل وصاح به ان يوثق نفسه إلى باب، اقتلعته العاصفة آنذاك من طرف المؤخرة، ومن حسن حظ روبارتو بعد ذلك، ان انساب الباب من الحاجز وهو متعلق به كالطفيلي، لأنه في تلك الأثناء انقسم الصاري إلى نصفين، وهوى الدوقل على رأس الرجل الذي أسعفه فشطره.

ومن فتحة في جانب السفينة، رأى روبارتو، أو خيل له انه رأى، جزرا من أشباح تجوب تلك التلال المائية، وهذا يبدو لي من قبيل الاستسلام للعبارة المتحذلقة. ولكن لا علينا، الواقع ان أماريلّي مالت إلى ناحية الغريق وقد استهواها الغرق، وانساب روبارتو مع لوحته في لجّ وشاهد، في نزوله إلى الأعماق، المحيط قد تحرر من قيوده وتعالى يماثل الجبال الوعرة، وفي انحدار القمم رأى اهراما تسقط، واذا به يرى نفسه كوكبا مائيا يسري في مدار إعصار تلك السماوات المبلّلة. وبينما كانت كل موجة تشع بنور متقطع، كان يميل بخار هنا وتغلي دوامة هنالك وتنفتح هوّة. فيالق من الشهب المجنونة تتعاقب في الأجواء المتمردة تكسرها الرعود، والسماء تتتالى عليها أنوار بعيدة وظلمات متساقطة، وقال روبارتو انه رأى جبال الألب تكسوها الرغوة وسط أغوار مزبدة قد تحولت إلى بيادر، والآلهة «سيريس» مكللة بالأزهار وسط بيارق من اللازورد، ومن حين لآخر تتهاوى مزمجرة احجار الياقوت، كما لو ان البنت الأرضية «بروزاربين» قد استولت على القيادة بعد ان طردت أمها المثمرة.

وبينما كانت الوحوش تزأر من حوله في حين تغلي السوائل الفضية

في يأسها العاصف، كف روبارتو فجأة عن متابعة المشهد، الذي أصبح فيه ممثّلا فاقد الحس، وهوى لا يعي من نفسه شيئا. غير انه بعد ذلك كما توقع ربما في حلمه سايرت اللوحة تلك الرقصة، إما بمشيئة من الرحمة الإلهية، أو بقانون يحكم الأشياء العائمة، وكما غاصت في الأعماق، صعدت طبيعيا لتطفو، منساقة إلى دوران بطيء ـ بما انه حتى في غضب العناصر تنقلب قواعد الرقصات المتعاقبة ـ أبعدها بدوائر كانت تتسع شيئا فشيئا عن بجرة الدوامة، بينما هوت فيها، مثل خذروف بين أيدي أطفال «ايولو»، أماريلي التعيسة وطرف مقدّمتها إلى السماء. وهوت معها جميع الكائنات الحية التي كانت تسكن في جوفها، ذلك اليهودي الذي قدر عليه ان يجد في القدس السماوية تلك القدس الأرضية التي لن يصلها أبدا، وذلك الفارس المالطي الذي سيبقى ابد الدهر بعيدا عن جزيرة «اسكونديدا»، والدكتور بيرد وأصحابه وأخيرا ـ بعد ان انقذته الطبيعة الرحيمة من منافع الفن الطبي ـ ذلك الكلب المسكين المجرّح إلى ما لا نهاية له، والذي لم اتمكن بعد من الحديث عنه لأن روبارتو سيكتب بشأنه فيما بعد.

بإيجاز، أظن ان الحلم والعاصفة أثّرا على نوم روبارتو تأثيرا جعله لا يدوم الا وقتا وجيزا، عقبه أرق عدواني. وفعلا، بعد أن قبل فكرة أن في الخارج نهارا، معزيا نفسه ان قليلا من النور فحسب ينفذ من بلور طرف المقدّمة، اقتنع انه بإمكانه ان ينزل تحت سطح السفينة من سلم داخلي. عند ذلك تشجع وأخذ سلاحه ثم مضى بخوف جسور لاكتشاف مصدر تلك الأصوات الليلية.

أو بالأحرى، لم يذهب في الحال. أرجو المعذرة، ولكن روبارتو في سرد قصته على حبيبته هو الذي يتناقض ـ وهذا يدل على انه لا يقص ما حدث له بحذافيره، ولكنه يحاول ان يصوغ رسالته في شكل قصة، أو بالأحرى، في شكل مزيج سيصير بعد ذلك ربما رسالة

وقصة، ويكتب دون ان يقرر ماذا سيختار، ويرسم ان أردنا قطع رقعته دون ان يحدد حالا ما سيحرك منها وكيف سينظمها.

في احدى رسائله يقول انه خرج ليغامر بالنزول تحت السطح. ولكنه في رسالة أخرى يقول انه حالما ايقظه ضياء الصباح بلغ سمعه مزيج من الألحان آت من بعيد. كانت أصوات آتية دون شك من الجزيرة. في بادىء الأمر تصور روبارتو زمرة من اهالي الجزيرة مجمعة فوق زوارق طويلة تتأهب للهجوم على السفينة، وشد بقوة على بندقيته، ثم بدا له ان الأصوات المختلطة كانت ذات طبيعة مسالمة.

كان الوقت فجرا، وأشعة الشمس لم تضرب بعد زجاج النوافذ: تحول إلى الرواق، وبلغت خياشيمه رائحة البحر، ففتح قليلا مصراع النافذة، وبعينين نصف مغمضتين حاول التحديق في الساحل.

فوق أماريلّي، حيث كان لا يصعد فوق السطح خلال النهار، سمع روبارتو البحارة يتكلمون عن أسحار ملتهبة كما لو ان الشمس كانت تتلهف لضرب الأرض بأشعتها، بينما الآن كان يشاهد دون ان تدمع عيناه ألوانا من البستل: السماء ملبدة بغيوم قاتمة موشحة الأطراف قليلا ببياض لؤلؤي، بينما كان ظل رقيق أو شبح وردة يصعد من خلف الجزيرة، التي كانت تبدو فيروزية اللون فوق صفحة من الورق الخشن.

ولكن تلك اللوحة التي تكاد توحي بمنظر شمالي كانت كافية ليتيقن ان ذلك الرسم، الذي بدا له منسجما أثناء الليل، كان يتبع حدود تل غابي ينتهي بانحدار سريع إلى حزام ساحلي تغطيه أشجار عالية، بينما خط من النخيل كان يتوج الشاطىء الأبيض.

كانت الرمال تزداد ضياء، وعلى طول السواحل كانت تظهر على الحواف شبه عناكب عظيمة حنطت بينما كانت تحرك قوائمها العظمية في الماء. بدت لروبارتو من بعيد وكأنها « نبات متنقل»، ولكن في تلك الآونة اصبح انعكاس النور على الرمال قويا فتقهقر إلى الداخل.

واكتشف انه حيث كانت لا تفيده عيناه، كان سمعه يفيده، وعهد بنفسه إلى السمع، مغلقا تماما أو يكاد مصراع النافذة ومرهفا سمعه إلى الأصوات الآتية من اليابسة.

ومع انه كان متعودا على طلوع الفجر في الهضبة التي نشأ فيها، انتبه إلى انه للمرة الأولى في حياته يسمع حقيقة شدو الطيور، وانه على كل حال لم يسمعها ابدا بذلك العدد وبذلك الاختلاف.

كانت آلاف الطيور تحيي بزوغ الشمس: وبدا له انه يسمع وسط صياح الببغاء، شدو العندليب، والشحرور، والعلعلة، وعدداً لا حد له من الخطاف، وحتى الأصوات الحادة التي يلقي بها الزيز والجدجد، متسائلا ان كان يسمع حقيقة حيوانات من تلك الفصيلة، ام انها قريباتها في المتقاطرات... كانت الجزيرة بعيدة، ومع ذلك شعر وكأن الأصوات تحمل معها رائحة ليمون وريحان، كما لو كان هواء الخليج كله مشبعا بالعطر ـ ولم لا بما ان السيد ديغبي حكى له ذات مرة كيف انه، في احدى رحلاته، أحس بقرب اليابسة من خلال ذرات فائحة تحملها الرياح...

ولكنه، في حين كان يستنشق تلك الروائح كان يولي سمعه إلى تلك الجموع الخفية، كأنما من خلال شرفات القلعة أو كوات الحصن كان ينظر إلى جيش صاخب يتخذ مواقعه في شكل نصف دائرة على منحدرات الهضبة، وفي السهل المواجه، وعلى طول النهر الذي يحمي الأسوار، وانتابه شعور بأنه رأى من قبل ذلك الذي كان سمعه يوحي به، وإزاء الفضاء اللامتناهي الذي كان يحاصره أحس بنفسه محاصرا وكاد، مدفوعا بالغريزة، ان يصوب بندقيته. ها هو الآن في «كزالي»، وأمامه يمتد الجيش الإسباني، بضجيج عرباته، ودق أسلحته، وأصوات القشتاليين الصادحة، وصياح النابوليين، ونخير المرتزقة الألمان الخشن، وأصوات أبواق كانت تصل من بعيد ضعيفة، وبعض طلقات قربينة

ضائعة في الهواء، طق،بوف،طا ـ بوم، كالمفرقعات في حفلة بعض الأولياء الصالحين.

كان وكأن حياته انقضت بين حصارين، احدهما صورة من الآخر، مع الفارق الوحيد ان النهر الآن،في التئام دائرة عقدين وفيرين، كان أوسع بكثير وفي شكل دائرة هو الآخر ـ مما يحول دون أي امكانية للخروج ـ وهكذا عاش روبارتو من جديد أيام «كزالي».

2

حول ما حدث في «مونفيرّاتو»

لا يمدّنا روبارتو الا بالشيء القليل عن الست عشرة سنة من حياته قبل تلك الصائفة من سنة 1630. ولا يذكر أحداثا من الماضي الا عندما يبدو له انها تبرز علاقة مع حاضره فوق دافني، ومن يدوّن روايته الشحيحة ينبغي عليه ان يقرأ بين طيّات خطابه. ولو نحا أحد منحاه، لبدا مثل كاتب يريد ان يؤخر الكشف عن القاتل، فلا يمنح القارىء الاّ معلومات قليلة. وهكذا أسرق أنا بعض الإشارات، مثل واش نمّام.

كانت عائلة «بوتسو دي سان باتريتسيو" تنتمي إلى النبالة الصغيرة وتملك أراضي «لاغريف" على حدود مقاطعة «اليساندريا" (في ذلك الوقت كانت جزءا من دوقية ميلانو، واذن ترابا اسبانيا)، ولكن ربما من حيث الجغرافيا السياسية أو الإرادة الشخصية كانت تعتبر خاضعة لمركيز «مونفيرّاتو». وأبوه ـ الذي كان يستعمل الفرنسية مع زوجته، واللهجة العامية مع الفلاحين، والإيطالية مع الأجانب ـ كان مع روبارتو يتكلم بطرق مختلفة حسب ما يمليه الوضع، إن كان يلقنه ضربة سيف، أو يحمله معه على جواده عبر الحقول وهو يلعن الطيور التي تضر بالمحصول. ما عدا ذلك كان الولد يقضي وقته دون رفقة خلاّن، متخيّلا أماكن بعيدة عند تجواله المضجر عبر الكروم، متصورا نفسه يصطاد بالباز بينما كان يتصيّد الخطاف، ويصارع التنين بينما كان يلعب مع

الكلب، ويحلم بكنوز خفية بينما كان يستكشف قاعات القليعة أو القلعة المتواضعة التي كانت محل سكناهم. وكانت تذكي شرود خياله تلك الروايات والأشعار الفروسية التي كان يعثر عليها مغبّرة في البرج الجنوبي.

لم يكن إذن عديم الثقافة، بل كان لديه مدرّس، حتى وان كان يأتيه بين فصل وآخر. كان المدرس كرملياً، يقال انه سافر إلى الشرق - ثم تضيف امه بصوت خافت بعد رسم علامة الصليب - حيث يتهامس البعض انه اعتنق الديانة الإسلامية، وكان يصل مرة في العام إلى الضيعة مع خادم واربعة من الحمير محملة بالكتب وبأوراق أخرى، وتدوم إقامته هنالك ثلاثة أشهر. لا أدري ماذا كان يلقن تلميذه، ولكن عندما وصل روبارتو إلى باريس كان يترك اثرا طيبا حيثما حلّ، وعلى كل حال كان يتعلم بسرعة كلّ ما كان يسمع.

حول هذا الكرمليّ نعرف شيئا واحدا، وليس من قبيل الصدفة ان يذكر روبارتو ذلك. ذات يوم بينما كان بوتسو الأب ينظف سيفه اذ جرح نفسه، ولعل السيف كان صدئا، أو ان الضرر مس جزءا حساسا من اليد أو من الأصابع، لأن الجرح كان مؤلما جدا. عند ذلك أخذ الكرمليّ السيف، ونثر عليه مسحوقا كان يحتفظ به في حقة صغيرة، وعلى الفور أكد السيد بوتسو انه أحس ببعض الراحة. ومهما كان الأمر بدأ الجرح يلتئم منذ اليوم الموالي.

وسرّ الكرمليّ باندهاش الجميع، وقال ان عالما عربيا أطلعه على سر تلك المادة، وانه دواء أقوى بكثير من ذلك الذي يسميه الكيميائيون المسيحيون «unguentum armarium». وعندما سألوه لماذا لا يوضع المسحوق فوق الجرح وإنما فوق الشفرة التي كانت سببا فيه، أجاب ان الطبيعة تعمل بتلك الطريقة، ومن بين قواها الكبيرة نجد الجاذبية الكونية التي تحكم القوى عن بعد. وأضاف انه إن كان يبدو من الصعب قبول ذلك فيكفي ان نفكر في المغناطيس، وهي حجرة تجذب اليها سحالة

المعدن، أو في جبال الحديد العظيمة، التي تغطي شمال كوكبنا، وتجذب ابرة البوصلة. وهكذا يفعل «المرهم السلاحي»، في التحامه الوثيق بالسيف، يجذب اليه فاعلية الحديد التي تركها السيف في الجرح والتي تحول دون شفائه.

ومن كان في طفولته شاهدا على مثل هذه الأحداث، لا يمكن الا ان يبقى متأثرا بها طول حياته، وسنرى بعد قليل كيف ان مصير روبارتو سيتحدد من خلال اهتمامه بجاذبية المساحيق والمراهم.

ومن ناحية أخرى ليس هذا الحدث هو الذي أثر أكثر في طفولة روبارتو. هناك حدث آخر، وفي حقيقة الأمر ليس حدثا، بل هو نوع من الترداد ترك في نفس الولد اثر ارتياب. يبدو إذن ان اباه، الذي كان دون شك يكنّ حبا عميقا لابنه حتى وان كان يعامله بتلك الفظاظة المعهودة في رجال تلك البقاع، كان احيانا ـ خاصة في السنوات الخمس الأولى من حياته ـ يرفعه من الأرض صائحا باعتزاز: «أنت بكر أولادي!» لا غرابة في ذلك، في الحقيقة، ما عدا عيب طفيف يميل إلى الإسهاب، بما ان روبارتو كان الإبن الوحيد. الا انه مع تقدمه في السن بدأ روبارتو يتذكّر (أو اقتنع بأنه يتذكر) انه عند عبارات الزهو الأبوي تلك كان وجه أمه يتغير بين منشغل وسعيد، كما لو ان اباه كان يحسن بقول تلك الجملة، ولكن تكرارها ربما كان يحيي فيها ألما قديماً. وتاه خيال روبارتو كثيرا حول نبرة تلك الجملة، مستخلصا ان أباه لم يكن ينطق بها كحقيقة بديهية بل كتوظيف جديد، مفخما كلمة «أنت»، كما لو أراد ان يقول: «أنت، ولا أحد آخر غير انت، ابني البكر».

لا أحد آخر أو ليس الآخر؟ في رسائل روبارتو نجد دائما اشارات إلى شخص «آخر» يستحوذ على فكره، ويبدو ان هذه الفكرة نشأت لديه في ذلك الوقت، عندما اقتنع (وبماذا سيحلم طفل تائه بين ابراج قلعة مليئة بالخفافيش، والكروم، والعظايا والخيول، لا صلة له بأبناء الفلاحين من سنه لأنهم دون منزلته، وعندما كان لا يصغي لخرافات

جدته كان يصغي لخرافات الكرمليّ؟) انه في مكان ما يطوف أخ له آخر غير معترف به، ذو طبيعة ربما شريرة، بما ان أباه طرده. في بداية الأمر كان روبارتو صغير السن، ثم صار من الحياء لا يتجرأ على السؤال ان كان هذا الأخ من جهة أبيه أم من جهة أمه (وفي كلتا الحالتين سيمتد على أحد الأبوين ظل هفوة قديمة لا تغتفر): كان على كل حال أخا، (ربما ذو طبيعة خارقة للطبيعة) وكان بدون شك مذنبا ويستحقّ ان يجازى بالطرد، وأكيد انه لهذا السبب بالذات كان يكره روبارتو، الإبن المفضل.

وشبح هذا الأخ العدو (الذي كان يود مع ذلك ان يتعرف عليه لمبادلته المحبة) كدّر عليه ليالي طفولته؛ بعد ذلك، عندما بلغ طور المراهقة، كان يتصفح في المكتبة مجلدات قديمة ليعثر بين صفحاتها على ورقة مخبأة، على صورة أو على شهادة سلمها القسّ، أو على اعتراف صريح. وكان يتجول في تسقيفات القصر ويفتح خزائن قديمة مليئة بأثواب كانت لأجداد أجداده، فيعثر فيها على أوسمة غطاها الصدأ أو على خنجر عربي ويتوقف مسائلا بأصابعه المرتبكة أقمصة من الكتان الخفيف لفت دون شك فيما مضى رضيعا، ولكن من يدري ان كان قبل ذلك بسنوات أو بقرون.

وانتهى به الأمر شيئا فشيئا إلى أن اعطى لذلك الأخ المفقود اسما، «فيرّانتي»، وتعود على ان ينسب اليه هفوات صغيرة كانوا يتهمونه بها ظلما، كسرقة بعض الحلويات أو فك كلب من سلسلته. فيرّانتي، بفضل انعدام وجوده كان يعمل من ورائه، وكان هو يختفي وراء فيرّانتي. بل وأكثر، شيئا فشيئا تحولت العادة في ان ينسب إلى اخيه اللاموجود الأفعال التي لم يرتكبها، إلى عادة اخرى تكمن في ان ينسب روبارتو اليه تلك الأفعال التي ارتكبها حقيقة، والتي ندم على ارتكابها.

ولا يعني ذلك ان روبارتو كان يكذب: ففي حين كان ينال صامتا

وعيونه تكبت بكاءه ـ العقاب جزاء الغلطات التي اقترفها، فقد كان بوسعه ان يقنع نفسه بانه بريء وان يحس بنفسه ضحية ظُلم سافر.

ذات مرة، مثلا، اراد روبارتو ان يجرب فأسا جديدة سلمها الحداد منذ قليل، وليثأر أيضاً لنفسه لا أدري من أي مظلمة، قطع شجيرة مثمرة كان ابوه قد زرعها وعقد عليها آمالا كبيرة في الفصول القادمة. وعندما تفطن روبارتو إلى شناعة فعلته، تصور ان العقاب سيكون شديدا، اقل ما يمكن تصوره انه سيباع إلى الأتراك الذين سيحملونه ليجذف على مراكبهم، وفكر في الفرار ليقضي بقية حياته متشردا فوق الهضاب. وأخذ يبحث عن مبرر، واقتنع بسرعة ان من قطع الشجرة كان بكل تأكيد فيرّانتي.

ولكن أباه، عندما تفطن للجرم، جمع كل اطفال الضيعة وأعلن انه لتفادي سخطه الأعمى من الأفضل ان يعترف الجاني بفعلته. عند ذلك أحس روبارتو بشفقة كريمة تغمره: لو اتهم فيرّانتي فسيتكبد المسكين عناء طرد جديد، في نهاية الأمر كان ذلك البائس يرتكب المعاصي لسد نقص حنان ابويه اللذين تركاه وأغدقا حنانهما على طفل آخر... تقدم إذن خطوة إلى الأمام وأعلن وهو يرتعد من الخوف والاعتزاز انه لا يريد ان يُتهم شخصاً آخر عوضه. واعتبر هذا التأكيد، حتى وان لم يكن كذلك، على انه اعتراف. عند ذلك قال ابوه، وهو يمسح شاربه وينظر إلى زوجته وبعد نحنحات طويلة وعميقة، ان الجرم دون شك فظيع، والعقاب لا مفر منه، ولكن ليس بوسعه الا ان يقدر سلوك «السيد دي لاغريف» الأصغر، الذي شرَّف تقاليد العائلة، وانه هكذا ينبغي ان يتصرف كل رجل نبيل، حتى وان كان في سن الثامنة. ثم اصدر حكمه معلنا ان روبارتو لن يشارك في زيارة منتصف اغسطس إلى ابناء عمه من آل سان سلفاتوري، وهي دون شك عقوبة صارمة (يوجد في سان سلفاتوري كويرينو، وهو زارع كروم كان كل مرة يرفع روبارتو فوق تينة عالية جداً)، ولكنها بكل تأكيد أخف من التجذيف فوق مراكب سلطان الأتراك.

تبدو لنا الحكاية بسيطة: الأب فخور لأن له ابنا لا يكذب، وينظر إلى الأم برضى لا يخفى عن أحد، ويعاقبه عقابا خفيفا يكفي لإنقاذ المظاهر. الا ان روبارتو نسج طويلا حول هذا الحدث، مستخلصا ان اباه وامه تفطنا بكل تأكيد إلى ان الجاني هو فيرّانتي، وانهما اعجبا بالبطولة الأخوية التي اظهرها ابنهما المفضل، وشعرا بالراحة لأن سرّ العائلة لم يكشف.

ربما غاليت في استغلال بعض الإشارات، ولكن حضور هذا الأخ الغائب سيكون له وزن في هذه القصة. سنجد من هذه اللعبة الصبيانية اثرا في سلوك روبارتو الرجل ـ أو على الأقل لدى روبارتو عندما نجده فوق دافني، في ظرف، والحق يقال، يدخل البلبلة على كل عاقل.

وعلى كل حال أنا أهذي ؛ يجب ان نحدد كيف وصل روبارتو إلى حصار «كزالي». وهنا يستحسن ان نطلق عنان الخيال وان نتصور كيف يمكن ان يكون حدث كلّ ذلك.

لم تكن الأنباء تصل إلى «لاغريف" بسرعة كبيرة، ولكن منذ سنتين على الأقل كان الجميع يعرف ان الخلافة على دوقية «مانتوفا" كانت تثير العديد من المشاكل في «مونفيرّاتو»، مما أدى إلى شبه حصار. باختصار ـ وهي واقعة قصها آخرون من قبل، وان كان بطريقة غير متكاملة ـ في ديسمبر من سنة 1627 توفي الدوق فينشانسو الثاني دي مانتوفا، وحول فراش موت ذلك الفاسق الذي لم يعرف كيف ينجب أبناء التأم حفل يضم اربعة طامحين في الخلافة، مع اعوانهم وحماتهم. انتصر من بينهم مركيز سان شارمون الذي تمكن من اقناع فينشانسو ان الإرث من نصيب ابن عم له من فرع فرنسي، كارلو دي قونزاقا، دوق نيفارس. وفينشانسو الشيخ، بين شهقة وأخرى، زوّج أو ترك نيفارس يتزوج ابنة اخته ماريا قونزاقا، ولفظ انفاسه الأخيرة تاركا له الدوقية.

الخلاصة، ان نيفارس كان فرنسيا، والدوقية التي ورثها تشتمل

أيضاً على مركيزية «مونفيرّاتو» بعاصمتها «كزالي»، أعظم القلاع شأنا في ايطاليا الشمالية. ونظرا لموقعها بين منطقة ميلانو الخاضعة لإسبانيا وأراضي آل سافويا، كانت «مونفيرّاتو» تضمن مراقبة المجرى الأعلى لنهر «بو»، والممرات بين جبال «الألب» والجنوب، والطريق بين ميلانو وجنوة، وتفصل كوسادة واقية بين فرنسا واسبانيا ـ اللتين كانتا لا تثقان بتلك الوسادة الأخرى أي دوقية سافويا، حيث كان كارل ايمانويال الأول ينتهج سياسة اقل ما يقال فيها انها مزدوجة. لو استحوذ نيفارس على «مونفيرّاتو» فسيكون كما لو امتلكها ريشليو؛ فكان من الطبيعي إذن ان تفضل اسبانيا ان يكون احد آخر سيداً على تلك البقاع، لنقل مثلا دوق قواستالاّ. هذا مع اعتبار ان لدوق سافويا أيضاً بعض الحق في الخلافة. ولكن بما ان هناك وصية، والوصية تعين نيفارس، لم يبق للمطالبين الآخرين الا الأمل في ان لا يصادق الإمبراطور الجرماني الروماني المقدس على الخلافة، إذ كان دوق مانتوفا شكليا من إقطاعييه.

إلا ان صبر الإسبانيين نفد، وفي انتظار ان يتخذ الإمبراطور قراره، تم حصار «كزالي» مرة اولى على يد قونزالو دي قرطبة والآن، للمرة الثانية، من قبل جيش كبير من الإسبان ومن الإمبراطوريين يقودهم سبينولا. وفي الأثناء استعدت الحامية للصمود، في انتظار وصول قوة فرنسية لنجدتها، كانت في مهمّة في الشمال، والله وحده يدري ان كانت ستصل في الوقت المناسب.

كانت الأمور على هذه الحال عندما جمّع السيد بوتسو في منتصف أفريل امام القصر الشبان من بين خدمه والناشطين من بين فلاحيه، وفرق عليهم كل الأسلحة الموجودة في الضيعة، ثم نادى روبارتو وتوجه إلى الجميع بهذا الخطاب، الذي أعده حسب اعتقادي أثناء الليل: «ايها الناس، استمعوا. ان أرض «لا غريف» هذه دفعت الخراج منذ قديم الزمان إلى مركيز مونفيراتو، الذي اصبح منذ وقت قليل بمثابة دوق مانتوفا، الذي هو الآن السيد دي نيفارس، ومن يقول لي ان نيفارس

ليس مانتوفانياً ولا مونفيرانتياً سيذوق استه طعم ركلاتي، لأنكم أغبياء جاهلون ولا تفهمون من هذه الأشياء شيئا ولذا من الأفضل ان تغلقوا افواهكم وان تتركوا الأمر لسيدكم لأنه هو على الأقل يفهم ما معنى الشرف. وبما انكم تضعون الشرف في ذلك الموضع الذي يعرفه الجميع، اعلموا انه لو وصل الإمبراطوريون إلى «كزالي» فهؤلاء لا يقدرون لأحد قدرا، ستذهب كرومكم رمادا اما عن نسائكم فمن الأفضل ان لا أقول شيئا. ولذا سنذهب للدفاع عن «كزالي». وأنا لا أرغم أحدا. فإن كان هنا جبان متخاذل لا يشاطرني الرأي ليتكلم حالا وسأشنقه إلى شجرة البلوط تلك». لا احد من الحاضرين كان قد شاهد رسوم كايّو التي تمثل عناقيد من العباد مثلهم مشنوقين إلى أشجار اخرى، ولكن شيئا من ذلك مّر بخيالهم: رفع جميعهم ما كان لديهم من سلاح، بندقية كانت أو معولا أو عصا طويلة شد اليها منجل وصاحوا بصوت واحد لتحيا «كزالي»، الموت للإمبراطوريين.

وبينما كان السيد بوتسو وروبارتو يشقان الهضاب على فرسيهما يتبعهما جيشهما الصغير على الأقدام قال الأب: «يا ولدي، ان نيفارس هذا لا يساوي خصية من خصيتيّ، وفينشانسو عندما عيّنه على الدوقية اضافة إلى ان ذكره كان عاجزا فقد صار مخّه أيضاً عاجزا، والحقيقة انه كان عاجزا من قبل. ولكنه عيّن نيفارس لا ذلك الأحمق قواستالا، وآل بوتسو هم مقطعو اسياد «مونفيرّاتو» الشرعيين منذ العهود الغابرة. ولذا سنذهب إلى «كزالي» وان اقتضى الأمر سنضحي هنالك بحياتنا لأنه، تبّا لهذه الدنيا الغادرة، ليس معقولا ان نبقى مع شخص ما دامت الظروف طيبة ثم نهجره عندما يجد نفسه في البراز حتى العنق. ولكن لو أمكننا ان ننجو بحياتنا فسيكون ذلك أفضل، إذن كن يقظا».

كانت رحلة اولئك المتطوعين، من حدود جهة «اليساندريا» إلى «كزالي»، دون شك أطول رحلة عرفها التاريخ. كانت الفكرة التي اعتمدها السيد بوتسو في حد ذاتها مثالية: «انني أعرف الإسبان»، هكذا قال، «وهم

اناس يحبذون السفر المريح. واذن سيتجهون نحو «كزالي» عابرين السهل من جهة الجنوب، تيسيرا لمرور العربات والمدافع والآلات الحربية المختلفة. واذن لو اتجهنا نحن، حالا قبل الوصول إلى «ميرابولّو»، نحو الغرب ومررنا عبر الهضاب، سنمشي يوما أو يومين اضافيين، ولكننا سنصل دون ان تعترضنا صعوبات، وقبل ان يصل العدو».

ولكن لسوء الحظ كان سبينولا ذا افكار ملتوية بخصوص الكيفية التي يقام بها الحصار، وفي حين استحوذ في جنوب شرقيّ «كزالي» على «فالنسا» و «أوتشيميان»، كان قد أرسل منذ بضعة اسابيع إلى غرب المدينة دوق لارما، اوتافيو سفورتسا والكونت دي جامبورغ، مع حوالي سبعة آلاف من المشاة، لمحاولة الاستيلاء على قلاع «روزينيانو»، «بونتاستورا» و «سان جيورجيو»، لمنع وصول اية اغاثة من قبل القوات الفرنسية، وفي الآن نفسه أغلق الكماشة والي «أليساندريا»، دون جيرونيمو أوغوستان، قادما من الشمال بعد عبور نهر «بو» نحو الجنوب، مع خمسة آلاف رجل. واصطفوا كلهم على طول المسافة التي كان السيد بوتسو يظنها بكل سذاجة خالية. ولم يكن بإمكان رجلنا النبيل، عندما أخبره بعض الفلاحين بحقيقة الوضع، ان يغير طريقه، لأن الإمبراطوريين كانوا أكثر عددا شرقا ممّا كانوا عليه غربا.

وقال بوتسو بكل بساطة: «لن نغير مسيرتنا ولو خطوة. أنا أعرف هذه البقاع احسن منهم، وسننساب بينهم مثلما ينساب النمس». وهذا يعني ان مسيرتهم دارت والتوت كثيرا. ناهيك أنهم من كثرة الدوران اعترضوا حتى فرنسيّو «بونتاستورا»، الذين كانوا في الأثناء قد سلموا انفسهم، وحتى لا يذهبوا إلى «كزالي»، سمح لهم بالنزول إلى «فينالي»، ومن هنالك بامكانهم شق البحر نحو فرنسا. وجماعة لاغريف اعترضوا في ضواحي «اوتيليا»، وكادوا يتبادلون الطلق الناري، وقد ظن كلاهما ان الآخرين اعداء، وعرف بوتسو من طرف قائدهم ان من بين

شروط الاستسلام بيع قمح «بونتاستورا» للإسبان، ويتولى الأخيرون ارسال المقابل من النقود إلى الكزاليين.

«الإسبان اسياد نبلاء، يا ولدي»، أعلن بوتسو، « ومحاربتهم يقبلها المرء بكل سرور. من حسن الحظ اننا لسنا في عهد شارلمان وحربه ضد العرب عندما كانت الحرب تقتيلا من الجانبين والمنتصر هو من يقتل أعداء اكثر من منافسه. هذه حروب بين مسيحيين متحضرين، ايه والله ! الآن اولئك منشغلون في «روزينيانو»، نحن سنمرّ من خلفهم، وسنتسلّل بين «روزينيانو» و «بونتاستورا»، وسنكون في «كزالي» في ظرف ثلاثة ايام».

كان هذا الحديث في أواخر أفريل، وبوتسو وجماعته أشرفوا على كزالي في الرابع والعشرين من ماي. كانت، على الأقل في ذكرى روبارتو، مسيرة لا تنسى تركوا فيها الطرقات والدروب وشقوا الحقول، وقد قال السيد بوتسو ان الحرب تتلف كل شيء، وان لم نتلف نحن المحصول فسيتلفه الآخرون. ولسدّ رمق المحاربين اغاروا على ضيعات الكروم، والغلال ومرابض الدجاج: ومن الطبيعي، أكّد بوتسو، بما ان هذه الأرض تابعة «لمونفيرّاتو»، ان تغذي مدافعيها. وعندما احتج فلاح من «مونبيلو» أمر بإعطائه ثلاثين جلدة، قائلا انه اذا انعدم الإنضباط خلال الحرب فسينتصر فيها الآخرون.

أما روبارتو فقد بدأت الحرب تبدو له تجربة جميلة؛ كانت تصله من المسافرين والرحّل قصصاً ذات عبرة، مثل قصة ذلك الفارس الفرنسي الذي جرح وسقط اسيرا في «سان جيورجيو»، واشتكى ان جنديا سرق منه صورة كانت غالية جدا عليه؛ وعندما سمع دوق لارما ذلك، امر ان تعاد اليه الصورة، ثم عالجه وارسله على جواد إلى «كزالي». ومن ناحية أخرى، حتى وان قام بدورات ومنعرجات لا تنتهي مما تضيع معها تماما قدرة التوجه، فقد تمكن السيد بوتسو من ان لا ترى جماعته إلى تلك الآونة حربا محاربة.

وتنفس الجميع الصعداء وقد غمرتهم لهفة من يريد المشاركة في حفل طال انتظاره عندما رأوا المدينة ذات يوم من قمة تل، يحدّها من الشمال، على يسارهم، المجرى الواسع لنهر «بو»، الذي كان امام القلعة بالذات يحيط بجزيرتين صغيرتين وسط النهر، وتنتهي في جنوبها في شبه شوكة مع كتلة الحصن في شكل نجمة. كانت «كزالي» من الداخل تبدو بهيجة بأبراجها وأجراسها، ومن الخارج كانت تبدو بحق منيعة، بأبراجها العالية المدببة كأسنان المنشار، حتى انها تبدو مثل تلك التنانين الموجودة في الكتب.

كان حقيقة منظرا رائعا. حول المدينة، كان الجنود بأزيائهم المختلفة الألوان يجرون عربات حصارية، بين مجموعات من الخيام رفعت فوقها الأعلام وفرسان بقبعات مزدانة بالريش. ومن حين لآخر كنت ترى وسط اخضرار الغابة أو اصفرار الحقول ضياء ساطعا يخطف الأنظار، ليس الا لمعان دروع بعض الفرسان الأشراف الذين كانوا يتسلون تحت أشعة الشمس، ولا يدري أحد إلى أين كانوا متجهين، وربما كانوا يتراكضون لمجرد الاستعراض.

كان المنظر يبدو للجميع على غاية من الجمال، الا السيد بوتسو الذي انزعج وقال: «يا قوم، هذه المرة قضي الأمر فينا». وعندما سأله روبارتو لماذا، ضربه على رقبته قائلا: «لا تكن غبيا، هؤلاء هم الإمبراطوريون، أم أنك تظن ان الكزاليين بذلك العدد وانهم يتفسحون خارج الأسوار. الكزاليون والفرنسيون داخل المدينة يرصفون أكياس التبن ويبولون في سراويلهم من الخوف لأن عددهم لا يزيد عن الألفين، بينما هؤلاء تحت الأسوار يبلغ عددهم على الأقل مائة الف رجل، انظر أيضاً فوق تلك الهضبات المقابلة.» كان يغالي، لأن جيش سبينولا لا يزيد عن ثمانية عشر الفا من المشاة وستة آلاف فارس، ولكن ذلك يكفي ويزيد عن الحاجة.

فسأله روبارتو: «ماذا نفعل يا أبتاه؟» فأجاب الأب « ما نفعله هو

ان نتثبت جيدا من موقع اللوثريين، ليس بالإمكان المرور وسطهم: أولا، لا نفهم حرفا من حديثهم، وثانيا لأنهم يقتلونك ثم يسألونك من أنت. أنظروا جيدا اين يوجد أولئك الذين يبدون اسبانيين: كلّنا يعلم انهم أناس يمكن التفاوض معهم. وينبغي ان يكونوا اسبانيين من عائلات شريفة. في مثل هذه الحالات ما يهمّ أكثر هو التربية».

ثم أبصروا ممرا وسط معسكر يحمل رايات الإمبراطوريين، حيث تلمع دروع أكثر من باقي المعسكرات، ونزلوا مسلمين امرهم لله. وتمكنوا من المضي وسط الفوضى شوطا طويلا بين صفوف العدو، لأنه في ذلك الوقت لا يلبس الزي العسكري الا الفيالق المختارة مثل الفرسان الملكيين، اما ما عدا ذلك فلا تعرف من معك ومن ضدك. الا أنه، بعد هنيهة، وبينما لم يبق الا اجتياز منطقة ليست تحت سلطة أحد، اعترضتهم كتيبة متقدمة وأوقفهم ضابطها طالبا منهم بكل أدب من يكونون وإلى اين يذهبون، بينما وراءه كانت مجموعة من الجنود على اهبة.

قال بوتسو: «سيدي، ارجوك ان تتفضل وتتركنا نمرّ، مع العلم اننا سنذهب لنتخذ موقعنا حتى نتمكن بعد ذلك من محاربتكم». فخلع الضابط قبعته، وانحنى في تحية مسحت الغبار على بعد مترين وقال: «Senor, no es menor gloria vencer al enemigo con la cortesia en la paz que con las armas en la guerra». ثم أضاف بلغة ايطالية جيدة: «سيدي، تفضل. لو كان لربع رجالنا شجاعتك، فسيكون النصر من نصيبنا. ولترد السماء ان ألاقيك في ساحة القتال، وان يكون لي شرف قتلك».

فتمتم بوتسو بين اسنانه قائلاً: «Fisti orb d'an fisti secc,» وهي في لهجة بلدته عبارة تمنّ لا تزال مستعملة إلى الآن، يتمنى بها القائل، حسب التقريب، ان يحرم مخاطبه اولا من البصر ثم ان يختنق. ولكنه اجاب بصوت عال، مستنجدا بكل إمكانيّاته اللغوية وقدراته الخطابية: «Yo tambien !»، ورد التحية بقبعته ثم همز جواده، منطلقا بركض اقل

فخامة مما يتطلبه المقام، حتى يتسنى لرجاله ان يتبعوه على الأقدام، واتجه نحو الأسوار.

ثم قال ملتفتا إلى روبارتو: « قل ما تريد، ولكنهم اناس ذوو شرف» وكان من حسن حظه ان استدار اذ تفادى طلقة نارية آتية من الأسوار. عندئذ صاح قائلاً: «Ne tirez pas, cornichons, on est des amis, Nevers, Nevers!» والتفت إلى روبارتو قائلاً: «أرأيت، انهم ناكرو معروف. لست مخطئا، الإسبان أفضل منهم».

دخلوا المدينة. وكان أحدهم قد أعلن قدومهم إلى قائد الحامية، السيد دي توراس، وهو رفيق سلاح قديم للسيد بوتسو. وتعانق الرفيقان طويلا ثم قاما بجولة فوق الأسوار.

«يا صديقي العزيز،» كان يقول توراس «في دفاتر باريس يتضح انني املك خمسة أفواج من المشاة، كل فوج يتكون من عشر سرايا، بمجموع عشرة آلاف من المشاة. ولكن السيد دي لا قرونج لا يملك الا خمسمائة رجل، ومونشا مائتين وخمسين، وفي المجموع لا أحصل الا على الف وسبعمائة من المشاة. ثم لدي ست سرايا من الفرسان، أي اربعمائة رجل في الجملة، حتى وان كانوا مجهزين بصفة جيدة. والكاردينال يعرف ان لدي اقل ممّا يجب من الرجال، ولكنه يؤكد انني املك ثلاثة آلاف وثمانمائة رجل. أكاتبه مبينا له بكل ما املك من حجج ان الواقع عكس ذلك ونيافة الكاردينال يتظاهر بأنه لا يفهم. فالتجأت إلى تجنيد فوج من الإيطاليين كما أمكن، من «كورسيكا» و «مونفيراتو»، ولكن اعذرني لو قلت لك انهم جنود سيئون، وتصور انني أمرت الضباط بتأطير خدمهم في فوج مستقل. سيلتحق رجالك بفوج الإيطاليين، تحت أوامر القائد باسياني، وهو جندي ممتاز. سنرسل اليه أيضاً الشاب دي لا غريف، حتى يذهب للقتال وهو على علم بالأوامر. أما أنت، يا صديقي العزيز، فستلتحق بمجموعة من الأسياد الأشراف

الذين تطوعوا والتحقوا بنا، مثلما فعلت أنت، وهم تحت أوامري. وأنت تعرف البلاد جيدا وبإمكانك ان تمدني بنصائح ثمينة».

كان جون دي سان بوني، سيد تواراس، رجلا طويل القامة، اسمر اللون مع عينين زرقاوين، وكان في تمام نضج سنواته الخمس والأربعين، سريع الغضب ولكن كريم النفس مع ميل إلى المصالحة، خشن الطبع ولكنه في الجملة لطيف، حتى مع الجنود. وكان صيته قد ذاع عند الدفاع عن جزيرة «ري» اثناء الحرب ضد الإنجليز، ولكن يبدو انه كان غير محبوب من قبل ريشليو والبلاط. وكان أصدقاؤه يتناقلون قصة حوار دار بينه وبين رئيس القضاء دي ماریاك الذي قال له يوما بكل احتقار انه يوجد الفا سيد من الأشراف في فرنسا قادرون على أداء المهمة بنفس النجاح في قضية جزيرة «ري»، وأجابه هو انه بالإمكان العثور على اربعة آلاف قادرين على إدارة العدل أفضل منه. ويسند اليه ضباطه ردا آخر ثاقبا (ولكن حسب آخرين قاله قائد اسكتلندي): في مجلس حربي دار في «روشال»، وضع الأب جيوزيبي، الذي كان الموجّه الخفي الشهير ويدعي المعرفة في الإستراتيجية، إصبعه على الخارطة قائلا «سنمرّ من هنا»، فأجابه تواراس بكل برودة: «أيها الأب الموقر، اصبعك مع الأسف ليس جسرا».

«هذا هو الوضع، يا صديقي العزيز،» كان تواراس يواصل حديثه وهو يطوف بالأسوار مشيرا إلى المنظر الطبيعي المحيط بالمدينة «المسرح رائع والممثلون من خيرة ما تملكه امبراطوريتان والعديد من السيادات: تصور، هنالك في الجبهة المقابلة يوجد فوج فلورنسي، ويقوده أيضاً سيد من عائلة ميديسيس. نحن نثق بكزالي، أعني المدينة: القلعة، التي نراقب منها جزءا من النهر، حصن منيع، يحميه خندق لا بأس به، وفوق الأسوار جعلنا سطحا يمكّن المدافعين من العمل في ظروف طيبة. والقلعة مجهزة بستين مدفعا وبأبراج محصنة لا ينقصها شيء. تشكو نقصا في بعض النقاط ولكنني قويتها بكوات ومدرعات. كل

هذا مناسب للصمود امام هجوم جبهي، ولكن سبينولا ليس من المبتدئين: أرأيت تلك التحركات هنالك، انهم بصدد اعداد انفاق ملغمة، وعندما سيصلون تحت الأسوار سيكون كما لو فتحت أمامهم الأبواب. لإيقاف الأشغال يجب ان نواجههم خارج الأسوار، ولكننا في تلك الحالة أضعف منهم. وما ان يحمل العدو تلك المدافع إلى موقع متقدم سيبدأ في قصف المدينة، وهنا يدخل في الاعتبار طبع الكزاليين، وأنا لا أثق به الا قليلا. ومن ناحية أخرى افهم موقفهم: يهمّهم انقاذ مدينتهم أكثر من السيد دي نيفارس وليسوا مقتنعين إلى حد الآن انه من الأفضل لهم ان يموتوا في سبيل الزنبق الفرنسي. ينبغي ان نفهمهم انه تحت آل سافويا أو تحت الإسبان سيخسرون حرياتهم و"كزالي» لن تبقى عاصمة بل ستصبح قلعة كالقلاع العديدة الأخرى مثل «سوزا»، التي يهمّ سافويا ببيعها مقابل حفنة من النقود. ما عدا ذلك نرتجل، والا لن تكون كوميديا ايطالية. بالأمس خرجت مع اربعمائة رجل نحو «فراسينيتو»، حيث كان يتجمّع الإمبراطوريون، وارغمناهم على التراجع. ولكن بينما كنت منشغلا هنالك، احتل بعض النابوليين تلك الهضبة، في الشريط المقابل. أمرت بقصفهم بالمدفعية لمدة سويعات وأظن انني الحقت بهم اضرارا فادحة في الأرواح، ولكنهم لم يتركوا الهضبة. من خرج منتصرا ذلك اليوم؟ أقسم بسيدنا المسيح انني لا أدري، ولا حتى سبينولا يدري. ولكنني أعرف ماذا سنفعل يوم غد. أرأيت تلك البيوت هنالك في السهل؟ لو استولينا عليها لأمكننا ان نضرب عدة مواقع للعدو. لقد أخبرني جاسوس ان تلك البيوت خالية، وفي هذا دليل كاف للظن ان العدو مختبىء فيها ـ ولا تستغربن يا سيد روبارتو الشاب من سوء ظني به واعلم، كقاعدة اولى، ان القائد القدير يربح المعارك باستعمال الجواسيس استعمالا محكما، وكقاعدة ثانية، اعلم انه بما ان الجاسوس بطبيعته خائن، فمن المحتمل جدا ان يخون من يؤجره لخيانة ذويه. على كل حال، غدا سأرسل بعض المشاة لاحتلال تلك البيوت. عوض ان يبقى الجند خاملين داخل الأسوار، من الأفضل ان أعرضهم

لنار المعركة، وفي هذا تمرين جيد بالنسبة اليهم. لا تتسرّع يا سيد روبارتو، لم يأت بعد يوم مشاركتك: ولكن بعد غد سيتحتّم على فوج باسّياني ان يجتاز نهر «بو». أرأيتما تلك الأسوار هناك؟ انها جزء من حصن صغير شرعنا في بنائه قبل ان يصل هؤلاء. ضباطي لا يشاطرونني الرأي، ولكنني اظن انه من الأفضل ان نسترجعه قبل ان يحتلّه الإمبراطوريون. من هنالك سنضعهم تحت رحمة نيراننا، بطريقة تجعلنا نضايقهم ونؤخر بذلك بناء الأنفاق. بإيجاز، سيكون في كل هذا فخر للجميع. أما الآن فقد حان وقت العشاء. الحصار في بدايته ولا تنقصنا المؤن. سنأكل الفئران في وقت لاحق».

3

أروقة العجائب

ما معنى ان ينجو من حصار كزالي، اين نجا في نهاية الأمر من أكل الفئران، لينتهي به الأمر فوق دافني حيث سيصير هو ربما طعاما للفئران؟... فكر روبارتو مليا وبتخوف في هذا التناقض وتهيأ في نهاية الأمر لاستكشاف تلك الأماكن التي بلغته منها في الليلة الماضية تلك الأصوات الغريبة.

قرر ان ينزل من الكوثل، وان كان كل شيء في نفس موضع أماريلّي، فسيجد حوالي اثني عشر مدفعا على الجانبين، ومراقد أو أسرَّة البحارة المعلقة. دخل من حجرة الدفة إلى الغرفة الموجودة تحتها، يخترقها المقبض الذي كان يتأرجح بأنين ضعيف، وكان بإمكانه ان يخرج حالا من الباب الذي يفضي إلى الفضاء تحت سطح السفينة. ولكنه، كمن يريد ان يتعود على تلك المناطق العميقة قبل ان يواجه عدوه المجهول، واصل نزوله عبر فتحة ارضية إلى مكان سفلي كان من المفروض ان توجد فيه مؤن أخرى. ولكنه وجد هنالك، منظمة باقتصاد كبير في الفضاء، افرشة لحوالي اثني عشر رجلا. كان جل الطاقم إذن ينام هنا، كما لو كان باقي السفينة مخصّصاً لأغراض أخرى. كانت المضاجع في تمام النظام. هذا يعني، في حالة تفشي وباء، انه كلما توفي أحد قام الذين بقوا على قيد الحياة بترتيب كل شيء على أحسن

وجه، بطريقة تجعل الآخرين لا يتفطنون لأي شيء... ولكن، من قال ان النوتية هلكوا، جميعهم؟ ومرّة أخرى أقلقته هذه الفكرة: ان يقضي الطاعون على جميع البحارة، أمر طبيعي، وحسب بعض علماء اللاهوت يكون في بعض الأحيان مرسلا بحكمة من الإله؛ ولكنّ حدثا يجعل البحارة يفرون، تاركين السفينة في ذلك النظام اللاطبيعي، فذلك أمر يدعو حقيقة لانشغال اكبر.

ربما يكون تفسير كل ذلك تحت سطح السفينة. تسلّح روبارتو بما لديه من شجاعة، وصعد من جديد ثم فتح الباب المؤدي إلى ذلك المكان المخيف.

عند ذلك فهم روبارتو وظيفة تلك المشبكات العريضة التي تثقب سطح السفينة. بتلك الطريقة تحول ما تحت السطح إلى شبه رواق فسيح، يضيئه من خلال تلك الثقوب نور النهار الذي صار في أوجه والذي كان ينفذ جانبيا، يلاقيه النور الآتي من الكوات، وقد لوَّنه بريق المدافع بشعاع ذهبي عنبري.

في بداية الأمر لم ير روبارتو شيئا غير رماح الشمس تتحرك فيها جسيمات لا نهاية لها، وعند رؤيتها لم يتمالك ان تذكّر (وكم يسهب في سرد ذكرياته العلمية، لإدهاش حبيبته، عوض ان يوجز القول) الكلمات التي كان قسّ «دينيو» يدعوه بها لمشاهدة شلالات النور المتدفقة في عتمة الكاتدرائية، تتحرك في داخلها الجموع اللامحدودة من العناصر الفردية، والبذور، والكائنات اللامتجزئة، وقطرات من البخور التي كانت تتفرقع تلقائيا، ذرات أولية تواجه حروبا، ومعارك ومناوشات في جموع تلتحم وتنفصل دون هوادة ـ دليل واضح على مكونات عالمنا هذا، الذي لا يعدو أن يكون اجساما فردية سابحة في الفراغ.

فورا بعد ذلك، كمن يريد ان يؤكد له ان الكون ليس الا رقصة ذرات سرمدية، أحس بنفسه وكأنه في بستان وأدرك انه، منذ دخوله إلى

ذلك المكان، هاجمته جملة من الروائح، أقوى بكثير من تلك التي كانت قد بلغته قبل ذلك من الساحل.

كانت حديقة، أو روضة مغطاة: هذا ما أنجز رجال دافني المختفون، في ذلك المكان من السفينة، لكي يحملوا إلى وطنهم أزهار ونباتات الجزر التي كانوا يزورونها، تاركين الشمس، والرياح والأمطار تنفذ وتحفظ النباتات على قيد الحياة. كيف تمكنت السفينة من الحفاظ طيلة أشهر عديدة على تلك الغنيمة النباتية، وكيف لم تسمّمها أول عاصفة بالملح، هذا ما كان روبارتو عاجزا عن تفسيره، ولكن من الأكيد ان تلك النباتات التي كانت لا تزال طرية وحية تؤكد ـ كما هو الأمر بالنسبة للطعام ـ ان حفظها قد تمّ منذ وقت قريب.

أزهار، ونباتات وشجيرات جلبت هنالك بجذورها وبترابها، ووضعت في سلال وصناديق صنعت بطريقة مرتجلة. ولكن الكثير من تلك الحاويات تآكلت، وانكب ترابها مكونا بين الواحدة والأخرى طبقة من التربة الرطبة بدأت تستقرّ فيها فروع بعض النباتات، حتى انه يخيل لك انك في عدن كانت تنشأ من نفس ألواح دافني.

لم تكن الشمس من القوة بحيث تقلق عيني روبارتو، إلا ان نورها كان كافيا لإبراز ألوان الأوراق ولتفتح الأزهار الأولى. وسقط نظر روبارتو على ورقتين كانتا من أول وهلة تشبهان ذيل جراد البحر، تنشأ منهما زهور بيضاء، ثم تحول إلى ورقة ذات اخضرار لين تتولد منها شبه نصف زهرة وسط جنبة من العناب في لون العاج. وجلبته نفحة قوية نحو أذن صفراء غرست فيها سبلة صغيرة، وبجانبها كانت تتساقط اكاليل من قوقعات خزفية ناصعة ذات طرف وردي، ومن عنقود آخر كانت تتدلى مزامير أو نواقيس مقلوبة، تبعث برائحة طحلب خفيفة. ورأى زهرة في لون الليمون سيلاحظ، خلال الأيام القادمة، تغير ألوانها، لأنها ستصبح في لون المشمش في العشية ثم حمراء قانية عند غروب الشمس، وأزهاراً أخرى، وسطها في لون الزعفران، ثم تميل إلى بياض

الزنبق. واكتشف ثمارا ذات غلاف خشن لم يكن ليجرؤ على لمسها لو لم تسقط احداها على الأرض وتنفلق من فرط نضجها كاشفة عن باطن في لون الرمان. وأقدم على تذوق غلال اخرى، وحكم على طعمها باللسان الناطق اكثر منه باللسان الذائق، بما انه يصف احداها كيسا من العسل، أو نرجينا مجمدا في خصوبة جذعه، تحفة من الزمرد مليئة بحبات صغيرة من الياقوت. ولعله، كما اتضح لي من القراءات الموالية، اكتشف شيئا يشبه كثيرا ثمار التين.

لم يكن يعرف واحدة من تلك الأزهار أو من تلك الثمار، كانت تبدو وليدة خيال رسّام أراد ان يقلب نواميس الطبيعة ليخلق عجائب معقولة، قطعا من لذائذ وكذائب لذيذة: نورة مغطاة بزغب مائل للبياض تتفتح وسط باقة من الريش البنفسجي، أم لا، زغدة شاحبة تبرز نتوءا فاحشا، بل قناع يحجب وجها شيّبته لحية ماعز. ثم من خلق تلك الشجيرة ذات الأوراق القاتمة الاخضرار بزينة بريّة حمراء ـ صفراء، من جهة، ومن جهة أخرى لامعة، تحف بها أوراق ذات خضرة رقيقة مثل خضرة الجلبان، مادتها لحمة وبوقية الشكل في هيئة حوض، مما يجعلها لا تزال تحوي ماء المطرة الأخيرة؟

ومن فرط ايحائية ذلك المكان لم يتساءل روبارتو من أي مطر كانت تلك الأوراق تحتفظ بالماء، بما انها بكل تأكيد لم تمطر منذ ثلاثة أيام. تلك الروائح التي تسكره كانت تجعله قابلا لأن يجد كل ضرب من ضروب السحر طبيعيا.

كان يبدو له طبيعيا ان تبعث تلك الفاكهة الذابلة والساقطة برائحة جبن متخمر، وأن يحرّك ذلك النوع من الرمان ذي اللون شبه البنفسجي، بثقب في قاعه، فيسمع في داخله صوت نواة ترقص، كما لو لم يكن زهرة بل لعبة، وما كان يستغرب وجودَ زهرة في شكل سنّ، أسفلها صلب ومكوّر. ولم ير روبارتو قط في حياته نخلة متدلية كما لو كانت صفصافة، وها هي أمامه، تقف على جذورها المتعددة ويتفرع

منها جذع ينبت وسط أجمة واحدة، بينما كانت اوراق النبتة تتدلّى منهكة من ازدهارها نفسه؛ ولم ير روبارتو من قبل أجمة مثل هذه تتفرّع منها أوراق عريضة ولحيمة، يتوسّطها عرق يبدو من حديد يجعلها صلبة وجاهزة للاستعمال كصحون وأطباق، بينما كانت تنبت بجانبها أوراق أخرى كانت بدورها في شكل ملاعق ليّنة.

كان لا يدري إن كان يتجوّل في غابة ميكانيكية أو في جنّة أرضية مختفية في باطن الأرض، كان روبارتو يطوف في جنة عدن التي كانت تجعله يتوه في هذيان فائح.

وعندما يقص ذلك على حبيبته، كان يتحدث عن جنونيات ريفية، عن نزعات الجنائن، عن «بروتيات» وارفة، عن أرز (أرز؟) جنّت بجنون هادىء...، أم كان يعيش ذلك من جديد كأنه في مغارة عائمة غنية بالآليات الخادعة أين كانت تبرز، مغللة بحبال فظيعة الإلتواء، ازهار سلبوت متعصبة، أو ركزات كافرة من أدغال همجية... ويكتب عن خدر الأحاسيس، عن زمرة من العناصر العفنة التي حملته، في خلاصتها المغشوشة، إلى حدود الإدراك.

في بداية الأمر بدا له ان الشدو الآتي إلى سمعه من الجزيرة، كأنه صوت بعض الطيور نابع من بين الأزهار والنباتات: ولكن بدنه اقشعرّ فجأة عند مرور وطواط كاد ان يلمس وجهه، وفورا بعد ذلك كان عليه ان يتنحى جانبا تفاديا لصقر ارتمى على فريسته مطيحا بها بضربة من منقاره.

توغل روبارتو تحت سطح السفينة وهو لا يزال يسمع من بعيد طيور الجزيرة، مقتنعا انها لا تزال تصله من بين فتحات الصالب، وإذا به يسمع تلك الأصوات كما لو كانت قريبة جدا. لا يمكن ان تكون آتية من الساحل: هناك إذن طيور أخرى، غير بعيدة، كانت تشدو وراء تلك النباتات، نحو الجؤجؤ، في اتجاه ذلك المخزن الذي بلغته منه في الليلة السابقة تلك الأصوات.

بدا له، وهو يتقدم، ان الحديقة تنتهي عند جذع كبير يثقب السطح الأعلى، ثم فهم انه وصل تقريبا إلى وسط السفينة، حيث ينزل الصاري الكبير إلى اسفل غاطس. ولكن في تلك النقطة كان الإصطناع والطبيعة يلتحمان إلى حدّ يجوز ان يجعلنا نبرّر حيرة بطلنا. وذلك راجع أيضاً إلى أنه في تلك النقطة بالذات وصل إلى خياشيمه مزيج من الروائح، والعفونة الترابية، ونتونة حيوانية، كأنه ينتقل شيئا فشيئا من حقل إلى موضع زبل.

وعندما اجتاز قاعدة الصاري الكبير، في اتجاه مقدمة السفينة، شاهد المطيرة.

لم يقدر على التعريف بطريقة مختلفة بتلك المجموعة من الأقفاص المصنوعة من القصب تخترقها جذوع قوية تقوم مقام الركائز، آهلة بالحيوانات الطائرة، تتحسّس ذلك الفجر الذي يصلها منه بصيص من النور، وتجيب بأصوات مختلفة نداء شبيهاتها التي تشدو حرة طليقة فوق الجزيرة. كانت الأقفاص الموضوعة على الأرض أو المعلقة في تشبيك السطح تمتد في هذا الجناح الآخر كالرواسب الهابطة والصاعدة، وتجعل من ذلك المكان مغارة عجائب، أين كانت الحيوانات في طيرانها تحرك الأقفاص فتتأرجح وتتلاقى مع أشعة الشمس فتحدث انبهارا ملونا، أو شلالات قزحية.

وان كان روبارتو لا يستطيع القول انه إلى ذلك اليوم سمع بحق تغريد الطيور، فليس بإمكانه أيضاً ان يقول انه شاهدها أبدا، على الأقل بمثل ذلك التنوع في الزينة، حتى أنه تساءل ان كانت من صنع الطبيعة أو ان يد فنان زينتها والبستها الحلل لبعض العروض الإيمائية، أو لتمثيل جيش استعراضي، حيث يلبس كل نبّال وكل فارس زيّه الخاص.

وها أن آدم في أشد الحيرة، لا يملك أسماء لتلك المخلوقات، ما عدا أسماء الطيور التي تعيش في النصف الكروي الذي يعيش فيه؛ وراح

يقول في نفسه: هذا بلشون، وهذا كركي، وهذه سمانى... ولكنه كان مثل من يسمّي التمّ إوزة.

هنا مطارنة يجرون ذيول برانيسهم الكاردينالية ومناقيرهم في شكل الأنابيق، يفتحون جوانح في لون الحشائش، نافخين حلوقا ارجوانية ومبرزين صدورا زرقاء، يرتلون كأنهم بشر، وهنالك مجموعات مختلفة تتظاهر في دوائر كبيرة وتحاول اجتياز تلك القباب المنخفضة التي تحدّد حلبتهم، بين بوارق يمامية وخواطف حمراء وصفراء، كراية يرميها حاملها ثم يتلقفها في الهواء. وفرسان غاضبون، يضربون بسيقانهم الطويلة المضطربة في فضاء ضيق، ويصهلون ساخطين كرا ـ كرا ـ كرا، واقفين أحيانا على ساق واحدة ينظرون حولهم بريبة، ويحركون طررهم فوق رؤوسهم المشرئبة... وهنا، وحيدا في قفص صنع على قياسه، قبطان كبير، في معطف سماوي، ودثار قرمزي في لون عينيه، وقنبرة زنبقية فوق رأسه، كان يبعث بأنين حمامة. وفي قفص صغير بجانبه ثلاثة مشاة لا يبرحون الأرض، عديمو الجوانح، كرات من الصوف الملوث بالطين، بخرطوم فأر، وشوارب في أسفل منقار طويل ومنحن ذي خياشيم تستعملها تلك الوحوش الصغيرة لتشمّ وتلتقط الديدان التي تعترض طريقها... وفي قفص ملتو كالمصران، لقلق صغير ذو ساقين قصيرتين في لون الجزر، بينما صدره في زرقة البحر وجناحاه ومنقاره قانيان، ينتقل مترددا يتبعه صغاره في صف هندي وعند نهاية الطريق كان يتوقف وينعب حانقا، مصرا في البداية على كسر ما كان يعتبره اغصانا متشابكة، ثم يتقهقر ويقلب مساره، يتبعه صغاره وهم في حيرة لا يدرون أيمشون خلفه أم أمامه.

كانت نفس روبارتو فريسة عواطف متناقضة فقد أثاره ذلك الاكتشاف، ولكن حرك فيه الشفقة نحو اولئك المساجين، بينما شدته الرغبة في فتح الأقفاص ليرى قلعته مجتاحة بطلائع ذلك الجيش الجوي، وليحررهم من ذلك الحصار الذي فرضته عليهم دافني، التي

كانت بدورها محاصرة من شبيهاتهم في الخارج. وفكر ان الطيور كانت ربما جائعة، ورأى أنه في الأقفاص لا يوجد الا فتات طعام، بينما الأواني والصحاف المهيأة للماء كانت فارغة. إلا أنه رأى قرب الأقفاص اكياسا من الحبوب وشرائح من السمك المجفف، هيأها من كان يريد حمل تلك الغنيمة إلى أوروبا، اذ ان السفن لا تجوب بحار الجنوب دون ان تحمل إلى البلاطات أو إلى الأكاديميات شواهد على تلك العوالم.

ثم واصل متقدما فوجد فضاء مسيجا بقضبان بداخله حوالي اثنا عشر من الدواجن، عرفها على انها من فصيلة الدجاج، وإن لم ير أبدا في منزله دجاجا بمثل ذلك الريش. وهي أيضاً كانت تبدو جائعة، بينما الدجاجات كانت قد وضعت ست بيضات (وكانت تصدح بذلك الحدث مثل مثيلاتها في جميع انحاء الدنيا).

وعلى الفور أخذ روبارتو واحدة منها وثقبها بطرف سكينه ثم شربها، كما كان يفعل وهو صغير. ثم وضع البقية في قميصه، ولمجازاة الأناثي، وأزواجهن الفوالح الذين كانوا يرمقونه بعبوس كبير محركين عثانينهم، فرق عليهم الطعام والماء؛ وفعل الشيء نفسه لسائر الأقفاص، متسائلا أي قدر ساقه إلى دافني في وقت كانت فيه الحيوانات في آخر رمق. وفعلا فهو على السفينة منذ ليلتين ومن تعهد الأقفاص فعل ذلك على أكثر تقدير في اليوم السابق لوصوله. كان يحس بنفسه مثل الضيف الذي يصل فعلا متأخرا إلى حفلة، ولكن في اللحظة التي انصرف فيها الضيوف بينما لا تزال الموائد معدة.

ومن ناحية اخرى قد اصبح الآن من المؤكد انه كان هنا أحد والآن ترك السفينة. أكان ذلك قبل يوم أو عشرة ايام من وصولي، هكذا كان يقول، فذلك لا يغير شيئا من مصيري، بل ويزيد في سخرية الأقدار به: لو غرقت سفينتي قبل ذلك بيوم لتمكنت من الالتحاق بنوتية دافني، اينما كانوا. وربّما لا، وإلاّ لمتّ معهم إن كانوا قد ماتوا. وتنفس

الصعداء (على كل حال ليس الأمر متعلقا بالفئران) مستخلصا في النهاية انه ينعم أيضاً بالدجاج. وفكر في اطلاق سراح اكثر الحيوانات نبلا من ذوات القائمتين، الا انه خمن انه لو طال منفاه،حتى هي ربما تصبح صالحة للأكل.وقال في نفسه حتى اولئك الـ«hidalgos» أمام «كزالي» كانوا جميلين بحللهم المزدانة ومع ذلك فقد كنا نطلق عليهم الرصاص، ولو طال الحصار لربما أكلناهم. من كان جنديا في حرب الثلاثين سنة (أسميها أنا هكذا، أما من عاشها فلم يكن يسميها كذلك، أو ربما لم يفهم انها حرب طويلة واحدة يمضي فيها طرف من حين لآخر معاهدة سلام) تعلّم ان يكون قاسي القلب.

4

تـبيين القـلعة

لماذا يذكر روبارتو «كزالي» لوصف ايامه الأولى فوق السفينة؟ هناك دون شك الميل إلى التشبيه، كان محاصرا في كلتا الحالتين، ولكن من قبل رجل ينتمي إلى عصره ينبغي ان نطلب أكثر من ذلك. ففي حقيقة الأمر كانت تستهويه في اوجه الشبه الاختلافات المحمّلة بالتناقضات المعبرة: دخل إلى «كزالي» بمحض ارادته ليمنع ان يدخلها آخرون، ورمي به على دافني، وكل رجائه ان يخرج منها. ولكن يبدو لي أنه، بينما كان يعيش قصّة تلفّها العتمة، كانت خواطره تعود إلى أحداث مضطربة عاشها في وضح النهار، مما يجعل ايام الحصار المتوهجة، التي كانت الذاكرة تعيدها اليه، تعوض تفاهة ذلك التسكع. وهناك ربما شيء آخر. في الجزء الأول من حياته عاش روبارتو فترتين فقط تعلم فيهما شيئا عن الدنيا وعن طرق العيش فيها، أعني شهور الحصار القليلة والسنوات الأخيرة في باريس: كان الآن بصدد تجربة الفترة الثالثة من تكوينه، ربما الأخيرة، حيث يتوافق في خاتمتها النضج مع الاضمحلال، وكان يحاول التكهن برسالتها الخفية من خلال قراءة الماضي على أنه صورة من الحاضر.

كانت «كزالي» في البداية قصّة طلعات. كان روبارتو يحكيها لمولاته، مجمّلا اياها، كأنما كان يريد ان يقول انه، بما أنه عجز عن

افتكاك القلعة من ثلجها الناصع، وقد ضربتها دون أن تهزمها نار تشمسها، فقد قدر مع ذلك ان يواجه نار شمس أخرى مع من كان يحاصر قلعته المونفيرّاتية.

في الصباح الموالي لوصول جماعة «لاغريف»، أرسل تواراس بعض الضباط منفردين، وبندقياتهم على اكتافهم، ليعاينوا ماذا كان النابوليون يركزون فوق الهضبة التي استولوا عليها في اليوم السابق. واقترب الضباط اكثر مما يلزم، فنتج عن ذلك تبادل للطلق الناري، ذهب ضحيته ملازم شاب من فوج «بومبادور». وحمله رفاقه داخل الأسوار، وشاهد روبارتو أول ميت مقتول في حياته. فقرّر تواراس ان يستولي على تلك الديار التي أشار اليها في اليوم الفائت.

كان من السهل، من أعلى الأبراج، تتبّع تقدّم الفرسان العشرة، الذين في نقطة ما انفصلوا إلى قسمين في شكل كلابة حول الدار الأولى. ومن الأسوار انطلقت قذيفة مدفعية مرت فوق رؤوسهم وحطمت سقف الدار: ومثل سحابة من الحشرات خرج منها جمع من الإسبان وولوا هاربين. وتركهم الفرسان يهربون ثم احتلوا الدار وتحصنوا بها وأخذوا في تشويش العدو بإطلاق النار صوب الهضبة.

كان من الأفضل ان تعاد العملية على ديار أخرى: واتضح حتى من أعلى الأبراج ان الإسبان بدأوا في حفر الخنادق وحمايتها بالأكوام والمتاريس. الا ان الخنادق لم تكن تحيط بالهضبة فقط بل كانت تمتد نحو السهل. وعلم روبارتو انه بتلك الطريقة كانت تبدأ تهيئة الأنفاق الملغمة. عندما تصل إلى مستوى الأسوار يحشر طرفها الأخير ببراميل البارود. فكان ينبغي دائما أن يحولوا دون ان تبلغ أشغال الحفر مستوى كافيا لمواصلتها تحت الأرض، وإلا تمكن العدو عند ذلك من العمل في محمى من الهجومات. كانت كل اللعبة تكمن في ذلك: التصدي من الخارج وبطريقة مكشوفة لبناء الأنفاق، وحفر أنفاق مضادة للألغام، إلى ان يصل جيش الإغاثة، وإلى أن ينفد الزاد والذخيرة. هذا أقصى ما

يمكن عمله في حصار: تشويش عمل الآخرين، والانتظار.

في الصباح الموالي، كما كان مقرّرا، جاء دور القليعة. ووجد روبارتو نفسه ماسكا ببندقيته وسط جمع غير منضبط من الأشخاص تركوا «لو»، و«كوكارو» أو «اودولانقو» لقلة رغبتهم في العمل، ومن الكورسيكيين الصامتين، وازدحموا فوق بعض المراكب لعبور نهر «بو»، بعد ان وطأ فيلقان فرنسيان الضفة الأخرى. وكان تواراس يتابع مع مصاحبيه سير العملية من الضفة اليمنى، بينما لوّح بوتسو الشيخ بتحية لابنه، مشيرا اليه في البداية بيده ان «تقدّم، تقدّم»، ثم وضع سبابته تحت عينه، يعني بذلك ان «افتح عينيك!».

وتمركزت الفيالق الثلاثة داخل القليعة. لم يكن بناؤها قد تمّ، وجزء من الأشغال التي أنجزت صار متداعيا. وقضى الجند يومهم في سدّ الفتحات في الأسوار، ولكن القليعة كانت محمية بخندق، وأرسل بعض الجنود وراءه للمراقبة. عند هبوط الليل كانت السماء على غاية من الصفاء حتى ان النعاس أخذ حراس الخندق، والضباط انفسهم استبعدوا امكانية حصول هجوم. ولكن سمع فجأة نفير الهجوم وظهر الفرسان الإسبان.

روبارتو، الذي ركزه الضابط باسياني وراء بعض الأكياس من التبن كانت تسدّ جزءا متداعيا من الأسوار، لم يتسع له الوقت لفهم ما كان يجري: كان كل فارس يحمل وراءه جنديا وحين وصلوا قريبا من الخندق أخذوا يطوفون به في شكل دائرة بينما كان الراكبون من الخلف يطلقون الرصاص على الحراس ولما تمت تصفيتهم ارتموا من فوق الجياد متدحرجين داخل الخندق. عندئذ شكل الفرسان نصف دائرة أمام المدخل وبطلق ناري مكثف أجبروا المدافعين على الاحتماء، بينما بلغ المهاجمون بسلامة الباب والثغرات الأقل حراسة.

وأفرغت الكتيبة الإيطالية، التي كانت في موقع الحراسة، ما لديها من ذخيرة ثم تفرقت وقد انتابها الهلع، وقد كان في هذا ما جعلها لمدة

طويلة عرضة للتنديد، الا ان الكتائب الفرنسية لم تكن أفضل. من بداية الهجوم إلى تسلق الأسوار مرت بضع دقائق، وفوجىء الرجال بالمهاجمين وقد بلغوا داخل الحزام، قبل ان يهيئ الأولون أسلحتهم.

واستغل العدو فعل المفاجأة فحوّل القليعة إلى مذبحة، وكان عددهم من الكثرة مما مكن بعضهم من الارتماء على الموتى لنهب امتعتهم بينما كان رفقاؤهم يطيحون بما تبقى من المدافعين. أما روبارتو، فبعد ان اطلق الرصاص على المهاجمين وبينما كان يحشو من جديد بمشقة بندقيته وكتفه تؤلمه من أثر التراجع، اذ فوجىء بهجوم الفرسان الخفيفة، وحوافر جواد مرّ فوق رأسه عبر الثغرة ردمته تحت الأكياس التي كان محتميا بها. وكان ذلك من حسن حظه: نجّته الأكياس التي سقطت فوقه من عاقبة تلك الهجمة الدامية، وبقي ينظر من تحت كومة التبن بفظاعة إلى الأعداء وهم يجهلون على الجرحى، أو يقطعون اصبعا للظفر بخاتم، أو يدا للظفر بسوار.

والقائد باسّياني، لغسل فضيحة رجاله الفارين، بقي يحارب بشجاعة، ولكن العدو أحدق به وأرغمه على الاستسلام. واتضح لمن كان على ضفة النهر ان الوضعية حرجة، وكان الكولونال لاغرونج، الذي ترك منذ قليل القليعة بعد زيارة تفقدية عائدا إلى «كزالي»، يحاول ان يلحق لإغاثة المدافعين، بينما كان ضباطه يحاولون منعه، ناصحين بطلب امدادات من المدينة. ومن الضفة اليمنى انطلقت بعض الزوارق، في حين كان تواراس، الذي استيقظ في فزع، يلحق راكضا. وفهم الجميع بسرعة ان الفرنسيين خسروا المعركة ولم يبق الا مساعدة من بقي على قيد الحياة وتغطيتهم بطلق مكثف للنار حتى يبلغوا النهر.

في هذه الفوضى شوهد الشيخ بوتسو وهو يركض متنقلا بين مركز القيادة ومرسى القوارب بحثا عن روبارتو بين الفارين. وعندما تأكد لديه انه لم تعد هناك قوارب آتية من الضفة الأخرى، صدرت عنه لعنة كافرة «بئس ال..!» وكمن يعرف جيدا أهواء النهر، ويعتبر غبيا من كان يجهد

نفسه بالتجذيف الشاق قصد العبور، اختار نقطة أمام احدى الجزر ودفع جواده في الماء بقوة المهماز. عبر وسط المياه الضحلة إلى الضفة الأخرى دون ان يضطر جواده حتى إلى السباحة، واندفع كالمجنون، شاهرا سيفه، نحو القلعة.

وأقبلت نحوه مجموعة من الأعداء حاملي البنادق، بينما كان الفجر ينبلج، ولم يفهموا بعد من يكون هذا المقاتل الوحيد: وشق المحارب الوحيد طريقه بينهم مطيحا على الأقل بخمسة منهم بضربات محكمة، ووجد نفسه وجها لوجه مع فارسين، أطاح بأحد الجوادين وانحنى جانبا تفاديا لضربة ثم استقام بسرعة معملا سيفه في شكل دائرة: وانحنى أحد الفارسين على سرجه وأمعاؤه تسيل على ركبتيه وقد ولى الجواد فارّا، أما الثاني فبقي دون حراك وعيناه محملقتان وهو يتحسس أذنه، المشدودة إلى خده، وهي تتدلى تحت ذقنه.

بلغ بوتسو الحصن والغزاة، الذين كانوا منشغلين بسلب آخر من سقط من المدافعين، ففوجئوا ولم يفهموا من أين برز. وتوغل داخل الحزام مناديا بأعلى صوته ابنه، وأطاح بأربعة آخرين وهو يجول كأنه في حلبة وسيفه يضرب في جميع الاتجاهات؛ روبارتو، الذي خرج من كومة التبن، رآه من بعيد وقبل ان يتعرف عليه تعرف على بانيوفلي، جواد والده الذي كان يلاعبه منذ سنوات. عندئذ أدخل اصبعيه في فمه وأصدر صفيرا كان الجواد يعرفه جيدا، وفعلا استقام الجواد على قائمتيه الخلفيّتين ووقفت اذناه ثم حمل راكبه قرب الثغرة. رأى بوتسو روبارتو وصاح به: «أهذا المكان الذي اخترته؟ هيا، اصعد ايها الأبله !» وبينما كان روبارتو يمتطي الجواد مطوقا خصر والده قال له هذا الأخير: «تبا لك، لا أجدك أبدا في الموضع المناسب»، ثم همز بانيوفلي واندفع راكضا نحو النهر.

عندئذ تفطن البعض من بين الناهبين إلى ان ذلك الرجل في ذلك المكان كان في غير مكانه، وأشاروا اليه صائحين. فاندفع ضابط يحمل

درعا طبقتها الضربات يتبعه ثلاثة جنود وحاول ان يقطع عليه طريق الهرب. رآه بوتسو، وهمّ بتفادي ملاقاته، ثم شدّ عنان جواده وهتف قائلا: «ثم يقولون انها الأقدار !».نظر روبارتو أمامه وفهم ان الضابط هو ذلك الإسباني الذي سمح لهم بالمرور قبل ذلك بيومين. وتعرف هو الآخر على خصمه، وبوميض في عينيه تقدم نحوه شاهرا سيفه.

مرّر بوتسو بسرعة سيفه إلى يده اليسرى وسحب الغدارة من نطاقه، ورفع الديك ومدّ ذراعه، كل ذلك بسرعة أذهلت الإسباني، الذي أصبح من قوة اندفاعه تحت رحمة مسدّسه، ولكنه لم يطلق النار حالا. أخذ وقته ليقول له: «اعذرني ان لجأت إلى الغدارة، ولكنك على عكسي أنا، تحمل درعا، إذن من حقي..». وضغط على الزناد فأسقطه بطلقة في فمه. عندما رأى الجنود قائدهم قد سقط ولوا هاربين، وأعاد بوتسو الغدارة إلى مكانها قائلا: «من الأفضل ان نبتعد، قبل ان ينفد صبرهم... هيا، بانيُوفلي»!

وفي سحابة من الغبار اجتازا السهل، ثم عبرا النهر وسط رش المياه، بينما كان أحدهم يفرغ من بعيد رصاصه وراءهم.

ووصلا يحفهم التصفيق إلى الضفة اليمنى. وقال تواراس: «Très bien fait, mon cher ami» ثم توجه إلى روبارتو: «لاغريف، انت الوحيد الذي لم يبرح مكانه بينما ولى الجميع بالفرار. الدم النبيل لا يكذب. مكانك ليس مع اولئك الخونة. ستكون منذ اليوم من أتباعي».

شكره روبارتو ونزل عن الجواد ثم مد يده إلى ابيه، شاكرا اياه هو الآخر. فصافحه بوتسو وهو شارد ثم قال: «يؤسفني ما حصل لذلك الإسباني، فقد كان انسانا حقيقة طيبا. تبا للحرب فهي وحش فظيع. ولكن تذكر دائما يا بني: طيبة القلب شيء جميل، ولكن عندما يأتيك أحد يريد قتلك فهو الجاني. أم لا؟»

ودخلا المدينة، وسمع روبارتو اباه يغمغم دائما بينه وبين نفسه: «هو الذي رمى بنفسه عليّ..».

5

متاهة العالم

يبدو ان روبارتو كان يذكر هذه الواقعة، وقد تملكته لحظة من الحنين البنوي، متخيلا زمنا سعيدا فيه صورة كانت تحميه من متاهات الحصار، ولكنه لم يكن قادرا على نسيان ما حدث بعد ذلك. ولا يبدو لي ذلك طارئا عارضا من طوارىء الذاكرة. لقد سبق ان قلت ان روبارتو كان يبدو وكأنه يريد ان يجمع بين تلك الأحداث البعيدة وتجربته فوق دافني كمن يريد ان يجد علاقة، أو أسبابا، أو علامات رسمتها الأقدار. الا انه يبدو لي ان الرجوع إلى أيام «كزالي» كان يساعده، فوق السفينة، على تتبع المراحل التي مكنته، وهو شاب، من فهم ان العالم يتمفصل حسب تخطيط مشوش.

وكأني به يقول ان وجوده الآن ـ معلّق بين الماء والسماء ـ يمكن ان يبدو، من ناحية، كالنتيجة الأكثر منطقية للنمو الذي عاشه خلال عقود ثلاثة من التجوال في دنيا مصنوعة من الطرق المختصرة والمتشعبة؛ ومن ناحية أخرى، أظن أنه، ليعيد فعلا تاريخ المشاق التي عاشها، كان يبحث عن عزاء لحالته الراهنة، وكأن النجاة من الغرق أعادته إلى ذلك الفردوس الأرضي الذي عرفه في «لاغريف»، والذي ابتعد عنه بدخوله بين أسوار المدينة المحاصرة.

لم يعد روبارتو الآن يقاسم الجنود مساكنهم المقملة، بل تحول

إلى مائدة تواراس، وسط قوم من الأشراف جاؤوا من باريس، وكان يستمع لما يقصونه من اعمال جسورة، ولما يتذكرون من الحملات السابقة، وإلى احاديثهم التافهة المنمقة. فهم من تلك المحادثات ـ ومنذ المساء الأول ـ ان حصار «كزالي» ليس العملية التي ظن انه جاء من أجلها.

لقد جاء اليها ليحقق أحلامه الفروسيّة، غذتها الأشعار التي قرأها في «لاغريف»: دم شريف وسيف معلق إلى جانبه كان يعني انه أصبح فارسا يهب حياته فداء لملكه، أو لإنقاذ سيدة نبيلة. بعد وصوله، انكشف ان الجموع المقدسة التي ألحق بها لم تكن الا لمامة من الفلاحين الخاملين، يتحينون الفرصة للهرب عند أول مواجهة.

الآن تمّ قبوله بين مجموعة الأبطال الذين رحبوا به كواحد منهم. ولكنه كان يعرف ان مروءته ناتجة عن سوء تفاهم، وانه لم يهرب لأن خوفه كان أكبر من خوف الهاربين. وأدهى من ذلك انه، بينما كان الحاضرون، بعد ابتعاد السيد دي تواراس، يسهرون الليل ويطلقون العنان للغوهم، كان يدرك ان الحصار نفسه ليس الا بابا من قصة عديمة المعنى.

إذن، مات دون فينشانسو تاركا الدوقية لنيفارس، ولكن كان يكفي ان يراه أحد آخر في اللحظة الأخيرة من حياته كي تتغير القصة تماما. مثلا، كارلو ايمانويلي أيضاً كان يطالب ببعض الحقوق على «مونفيرّاتو» استنادا إلى واحدة من قريباته (كانوا يتزاوجون دائما فيما بينهم) وكان يريد منذ زمن ضمّ تلك المركيزية التي كانت كالشوكة في جنب دوقيته، تتوغل داخل ترابه إلى بضع عشرات من الأميال من تورينو. وهكذا، عندما تمّ تعيين نيفارس، استغل قونزالو دي قرطبة مطامح الدوق السباودي لإحباط مطامح الفرنسيين وعرض عليه ان يتحد مع الإسبان للاستحواذ على «مونفيراتو»، على ان يتقاسماها بعد ذلك. والإمبراطور، الذي كان له ما يكفي من المشاكل مع باقي اوروبا، لم يبد موافقته على

الغزوة، ولكنه لم يقف مع ذلك ضد نيفارس. قونزالو وكارلو ايمانويلي مرا إلى تنفيذ العملية، واستولى احدهما على «ألبا»، «ترينو» و«مونكالفو». وهنا تحرك الإمبراطور، الذي ربما كان طيب القلب ولكنه لم يكن غبيا، فوضع «مانتوفا» تحت سلطته، وعهد بها إلى مفوض امبراطوري.

وكان ذلك شبه انذار أوقف تطلعات الجميع، ولكن ريشيليو اعتبرها مهانة لفرنسا. أو كان في صالحه ان يعتبرها كذلك، ولكنه لم يتحرك لأنه كان بصدد محاصرة بروتستيني «لا روشال». وكانت اسبانيا تنظر بعين الرضا إلى ذلك الفتك بقبضة من الكافرين، ولكنها تركت قونزالو يستغل الفرصة لمحاصرة «كزالي» بثمانية آلاف رجل، بينما كان مدافعوها يفوقون بقليل مائتي جندي. وكان ذلك الحصار الأول لـ«كزالي».

ولكن بما ان الإمبراطور كان يبدو غير مستعد للعدول، بدأ كارلو ايمانويلي يحس ان الرياح اصبحت مناوئة له وبينما كان يواصل تعاونه مع الإسبان شرع في اتصالات سرية مع ريشليو. في هذه الأثناء سقطت «لا روشال»، وهنأت «مدريد» ريشوليو على هذا الانتصار المشهود على الكافرين، وشكر هذا الأخير البلاط الإسباني، ثم أعدّ من جديد الجيش ووضع على رأسه لويس الثالث عشر وجعله يعبر «مونجينيفرو» في فبراير من سنة 29، ونشره أمام «سوزا». وأدرك كارلو ايمانويلي ان لعبه على طاولتين قد لا يخسره «مونفيراتو» فحسب بل وحتى «سوزا»، فحاول ان يبيع ما كان بصدد فقدانه وعرض على ريشوليو ان يأخذ «سوزا» مقابل مدينة فرنسية.

وقصّ أحد مؤاكلي روبارتو تلك الواقعة بنبرة مسلّية. فقال ان ريشليو سأل الدوق بكثير من التهكم ان كان يفضل «اورليون» أو «بواتيي»، وفي الأثناء كان احد الضباط الفرنسيين يمثل امام حامية «سوزا» طالبا مأوى لملك فرنسا. وأجابه قائد الحامية، الذي كان رجلا

ظريفا، ان سموّ الدوق ربما سيسرّ باستضافة جلالة الملك، ولكن بما ان جلالته حضر صحبة ذلك العدد الوافر، فليسمح له قبل ذلك ان يستشير سموّه. وبنفس تلك اللياقة ركض الماريشال دي باسومبيار على الثلج وخلع قبعته أمام ملكه وقال له ان العازفين على أهبة والراقصين على الباب ويستسمحه للشروع في الباليه. وأقام ريشليو القداس بالساحة، وتقدمت كتائب المشاة الفرنسية وسقطت «سوزا».

وعندما آل الأمر إلى تلك الحال، أعلن كارلو ايمانويلي ان لويس الثالث عشر ضيفه المبجل، وذهب اليه ليرحب به وطلب منه ان لا يضيع وقته في «كزالي»، التي سيتولى هو أمرها، وان يعينه بالأحرى في الاستحواذ على جنوة. وهنا دعاه الفرنسيون إلى ان لا يتفوه بسخافات ووضعوا في يده ريشة اوزة لإمضاء معاهدة تجعل من الفرنسيين أصحاب الأمر والنهي في «بيومونتي»: وكبخشيش تحصل على «ترينو» وعلى ايجار سنوي يدفعه له دوق «مانتوفا» مقابل «مونفيراتو»: «وهكذا» كان يضيف المؤاكل «لكي يحتفظ نيفارس بملكه يجب عليه ان يدفع ايجارا إلى شخص لم يملكه أبدا!».

فأضاف آخر ضاحكا: «وقد دفع ذلك! يا له من مغفل»!

فقال قسّ قدّموه إلى روبارتو على أنه معرّف دي تواراس: «نيفارس دفع دائما ثمن حماقاته، نيفارس مجنون يظن نفسه القديس برنارد. كان همه الوحيد والدائم هو توحيد الملوك المسيحيين للقيام بصليبية جديدة. نحن نعيش زمنا يقاتل فيه المسيحيون بعضهم البعض، فأنّى لنا من يهتمّ بالكافرين. يا أسياد «كزالي»، لو بقيت من هذه المدينة الطيبة حجرة فسيدعوكم سيدكم الجديد إلى بيت المقدس!» اضاف القس ذلك وهو يبتسم متسليا، ويمسح شاربيه الأشقرين الممشطين في نظام جميل، وكان روبارتو يفكر: هوذا، لقد اوشكت هذا الصباح ان اموت من أجل مجنون، وهذا المجنون ينعتونه بالجنون لأنه يحلم، كما أحلم أنا بزمن ميليساندا الجميلة والملك المجذوم.

وما كانت الوقائع الموالية لتساعد روبارتو على أن يجد طريقه في بواعث تلك القصة المتشعبة. فبعد خيانة كارلو ايمانويلي فهم قونزالو دي قرطبة انه خسر المعركة، واعترف بمعاهدة «سوزا»، ثم حمل رجاله الثمانية آلاف إلى جهة ميلانو. واستقرت حامية فرنسية في «كزالي»، واخرى في «سوزا»، واجتاز ما تبقى من جيش لويس الثالث عشر من جديد جبال الألب للقضاء على آخر الهوغونوتيين في «لونغدوق» وفي وادي «الرون».

ولكن لا أحد من بين اولئك الأشراف كان عاقدا العزم على احترام المعاهدات، وكان المتحلقون على المائدة يقصون ذلك كما لو كان أمرا طبيعيا جداً، بل كان البعض منهم يبدي موافقته بتعلة «داعي المصلحة العليا، أي نعم، داعي المصلحة العليا». وداعي المصلحة العليا كان يجعل اوليفارس ـ وفهم روبارتو ان هذا الأخير هو نوع من ريشليو اسباني، ولكن اقل حظا ـ يرى في كل ذلك مسّاً بكرامته، فأبعد بدون مجاملة قونزالو، وعوضه بأمبروجيو سبينولا وجعل يقول ان الإهانة التي لحقت اسبانيا كانت تؤذي الكنيسة. «هراء،» كان يلاحظ القس، «اوربانس السابع مهّد لخلافة نيفارس». بينما كان روبارتو يتساءل ما دخل البابا في أحداث لا علاقة لها البتة بمسائل الدين.

في تلك الأثناء تذكر الإمبراطور ـ ومن يدري الطرق التي انتهجها اوليفارس للضغط عليه ـ ان «مانتوفا» لا تزال تحت سلطة المفوض، وان نيفارس لا يمكنه ان يدفع أو انه لن يدفع مقابل شيء لم يدخل بعد في حوزته؛ وها أنه يفقد صبره ويرسل عشرين الف رجل لمحاصرة المدينة. والبابا عندما رأى اولئك المرتزقة البروتستانتيين يجوبون ايطاليا، عادت إلى ذهنه في الحال صور نهب روما، فأرسل جيوشه على الحدود المانتوفية. وسبينولا، الذي كان اكثر طموحا وعزما من قونزالو، أعاد محاصرة «كزالي»، وكان الأمر هذه المرة أكثر جدية. باختصار، استنتج روبارتو، لتفادي الحروب ينبغي ان لا تمضى أبدا معاهدات سلم.

في ديسمبر 29 عبر الفرنسيون من جديد جبال الألب، وكارلو ايمانويلي حسب المعاهدات كان عليه ان يدعهم يمرون، ولكنه كي يبرهن عن صدقه عاد يطالب من جديد بحقوقه في مونفيرّاتو واستجدى ستة آلاف جندي فرنسي لمحاصرة جنوة، التي كانت فعلا همّه الدائم. وريشليو، الذي كان يعتبره ثعبانا، لم يقل «لا» ولا «نعم». وذكر أحد القواد، كان يلبس في «كزالي» اثوابا تليق ببلاط الملك، أحداث يوم من أيام فبراير الفائت: «حفل عظيم، ايها الأصدقاء، لا ينقصه الا عازفو القصر الملكي، ولكن الجوقة كانت حاضرة! والملك، يتبعه الجيش، يركض أمام «تورينو» في حلة سوداء مزركشة بالذهب، وريشة فوق قبعته ودرعه قد حك وأصبح لامعا!» وكان روبارتو ينتظر قصة معركة، ولكن لا، كان فقط موكبا استعراضيا؛ والملك لم يهاجم، بل قام بانعراج مفاجىء واستولى على «بنيرولو»، أو استولى عليها من جديد، بما انها قبل ذلك بمئة سنة كانت مدينة فرنسية. وكان روبارتو يعرف حسب التقريب اين توجد «بنيرولو»، ولكنه لا يفهم الباعث الذي يجعل من احتلالها تحريرا لـ«كزالي». وكان يسائل نفسه «ترى هل نحن محاصرون في «بنيرولو»؟»

والبابا، الذي شغلته تطورات الأحداث، أرسل مبعوثه إلى ريشليو يسأله ان يعيد المدينة إلى آل سافويا. وأسهب الجالسون إلى المائدة في اللغو حول ذلك المبعوث، وهو يدعى جيوليو مزاريني: صقلي النشأة، من سوقة روما، بل وأكثر ـ أضاف القس ـ ابن سفاح لواحد من «شوشاريا» مجهول النسب، اصبح قائدا لا يعرف أحد كيف، وكان يخدم البابا ولكنه كان يعمل ما في وسعه لربح ثقة ريشليو، الذي أصبح لا يخطو خطوة دون رأيه. وينبغي الحذر منه، بما انه في تلك الآونة كان في طريقه أو ربما وصل إلى «راتيسبونا»، التي هي في دار الشيطان، وهناك يتقرر مصير «كزالي»، لا هنا ببعض الأنفاق الملغمة والأنفاق المضادة للألغام.

في الأثناء، بما ان كارلو ايمانويلي كان يحاول قطع الطريق على الجنود الفرنسيين، استولى ريشليو أيضاً على «أنيسي» و«شومبيري» وتقاتل الفرنسيون والسافوايارديون في «أفيليانا». في هذه المنازعات البطيئة، أخذ الإمبراطوريون يهددون فرنسا ودخلوا في «لوران»، وكان فلانشتاين يتحرك لتقديم يد المساعدة إلى آل سافويا، وفي يوليو استحوذت مجموعة من الإمبراطوريين محملة فوق عوامات على هويس القناة في «مانتوفا»، ودخل الجيش بأكمله المدينة، ونهبها طيلة سبعين ساعة مفرغا القصر الدوقي من جميع متاعه لو حتى يطمئن البابا سلب لوثيريو الجيش الإمبراطوري جميع كنائس المدينة. نعم، اولئك المرتزقة الألمان الذين رآهم روبارتو، جاؤوا لمساعدة سبينولا.

وكان الجيش الفرنسي لا يزال مشغولا في الشمال ولا أحد يدري ان كان سيصل قبل سقوط «كزالي». لم يبق الا الرجاء في المعونة الإلهية، كما قال القس: «ايها السادة، ان الحنكة السياسية تقتضي ان نعتمد على الوسائل البشرية كما لو كانت الوسائل الإلهية غير موجودة، وان نتوكل على تلك الإلهية كما لو كانت البشرية غير موجودة».

فهتف أحد الأشراف «فلنأمل إذن في الوسائل الإلهية» ولكنه قالها بصوت لا ينم قط عن الأسف، وقد هز كأسه حتى ان الخمر سالت فوق جبة القسّ. فصاح القسّ وهو شاحب الوجه «سيدي، لقد لطختني بالخمر،» ـ وكانت تلك هي الطريقة في ذلك الزمن للتعبير عن السخط ـ فأجاب الآخر: «اعتبر انه سال على جبتك عند اقامة القداس. ذاك خمر، وهذا خمر».

فصاح القس وقد وقف حاملا يده إلى مقبض سيفه: «ايها السيد دي سان سافان، ليست هذه المرة الأولى التي تشين فيها باسمك مجدفا اسم سيدنا المسيح! كان افضل لك، وليسامحني الله على ما أقول، ان تبقى في باريس لتشويه سمعة السيدات، كما هي عادتكم انتم البيرونيون»!

«مهلا، مهلا،» أجاب سان سافان وقد بان واضحا انه مخمور، «نحن البيرونيون نذهب ليلا لنسمع بعض السيدات موسيقانا، ومن لديه الشجاعة للقيام بعملية جسورة ينضم الينا. ولكن، عندما لا تظهر لنا السيدة في نافذتها، كنا نعلم حق العلم انها تفعل ذلك لانها لا تريد ان تترك الفراش الذي دفأه لها كاهن العائلة».

عند ذلك نهض الضباط وأمسكوا بالقسّ الذي كان يريد ان يستلّ سيفه وهم يقولون له ان السيد دي سان سافان قد استحوذت عليه نشوة الخمر، وانه لا بدّ من التسامح مع رجل ابلى البلاء الحسن في تلك الأيام، ومن احترام ذكرى الرفاق الذين قتلوا منذ قليل.

فردّ القسّ مختتما «ليكن،» وترك القاعة مضيفا «يا سيد دي سان سافان، انني أدعوك لأن تمضي بقية هذه الليلة في انشاد «صلاة الأموات»، ترحما على ارواح اصدقائنا الراحلين، وسأعتبر نفسي راضيا.»

خرج القسّ، فمال سان سافان نحو روبارتو الذي كان جالسا حذوه، وعلّق قائلا: «ان الكلاب والأطيار التي تعيش في النهر لا تزعق أكثر مما نزعق نحن في انشاد «صلاة الأموات». لم كل هذا الضجيج وهذه الطقوس لإحياء الموتى؟» وأفرغ كأسه دفعة واحدة، ثم حذّر روبارتو رافعا اصبعه، كأنه يريد تلقينه اسس الحياة المستقيمة وأسرار الدين المقدس السامية: «سيدي، كن فخورا: اليوم كدت ان تموت موتة جميلة وليكن سلوكك في المستقبل بنفس تلك اللامبالاة، فالروح تموت مع الجسد. واذن اذهب إلى الموت بعد ان تكون قد تمتعت بالحياة. اننا حيوانات بين الحيوانات، جميعنا أبناء المادة، الفرق الوحيد هو اننا أضعف. ولكن بما أنه، خلافا للحيوانات، نحن نعرف اننا سنموت، فلنتهيأ لتلك اللحظة بالتمتع بالحياة التي وهبتنا اياها الصدفة عن طريق الصدفة. ولتعلّمنا الحكمة ان نمضي ايامنا في الشراب وفي المطارحات المؤنسة كما يجدر بالرجال الأشراف، وأن نزدري النفوس الجبانة. ايها الرفاق، للحياة دين علينا! اننا نتعفن من القبوع في «كزالي»، وولدنا في

وقت متأخر فلم نتمتع بعهد الملك الطيب «هنري»، عندما كنت تشاهد في «اللوفر» الهجان والقردة، والمعتوهين ومهرجي البلاط، والأقزام والكسحان، والموسيقيين والشعراء، وكان الملك يتسلى بحضورهم. الآن ها هم اليسوعيون الداعرون كالتيوس يرعدون ضدّ من يقرأ «رابلي» والشعراء اللاتينيين، ويريدوننا كلنا قدِّيسين لنطهر الأرض من الأوغونيين. رباه، الحرب شيء جميل، ولكنني اريد ان أقاتل لشيء يروقني لا لأن عدوي يأكل اللحم يوم الجمعة. كان الوثنيون أكثر حكمة منا. كانت لهم أيضاً ثلاث آلهات، ولكن أمهم «سيبال» على الأقلّ لم تدّع يوما انها انجبتهم وهي عذراء».

فاحتج روبارتو قائلا: «سيّدي»، بينما ضحك الآخرون.

«سيدي،» أجاب سان سافان «إن أول فضيلة ينبغي ان يتحلى بها الرجل الشريف هو ازدراء الدين، الذي يجعلنا نخاف من الشيء الأكثر طبيعية في الدنيا، وهو الموت، ويجعلنا نكره الشيء الوحيد الجميل الذي حبانا به القدر، وهو الحياة، ويجعلنا نتوق إلى سماء لا تعيش فيها في حبور دائم الا الكواكب، التي لا تنعم لا بثواب ولا بعقاب، بل بحركتها الدائمة في أحضان الفراغ. كونوا أقوياء كفلاسفة اليونان القدامى وانظروا إلى الموت بعين لا تزيغ ودون خوف. لقد تعب عيسى كثيرا وهو ينتظر الموت. ومن ناحية أخرى، ممّ كان يخاف، بما انه سيبعث حيا؟»

فقال أحد الضباط بلهجة تكاد تكون آمرة «كفى يا سيد دي سان سافان»، ثم أخذه من ذراعه مضيفا «لا تزعج صديقنا الشاب، فهو لا يعرف ان التجديف في باريس وفي هذا الوقت هو أليق شكل يتجلى فيه «le bon ton»، وقد يأخذ كلامك مأخذ الجدّ. ومن الأفضل لك أيضا يا سيد دي لاغريف ان تذهب للنوم. واعلم ان الرب في رحمته سيغفر أيضاً للسيد دي سان سافان. وكما كان يقول ذلك اللاهوتي، قويٌّ ذلك الملك الذي يدمر كل شيء، وأقوى منه المرأة التي تحصل على كل ما تريد، ولكن أقوى من كلّ ذلك الخمر التي تضبّب الإدراك».

فغمغم سان سافان «انك لم تكمل استشهادك يا سيدي»، بينما كان اثنان من رفاقه يجرانه خارجا وقد كادا يحملانه حملا، «تنسب هذه القولة إلى «اللسان»، الذي يضيف: وأقوى من ذلك كله هي الحقيقة وأنا الذي يعلنها. ولساني، حتى وان اصبحت أحركه بصعوبة، لن يسكت. على الحكيم ان يكافح البهتان لا بقوة السيف فحسب بل وأيضا بقوة اللسان. يا أصدقائي، كيف يمكنكم ان تسموا رحيما إلهاً يريد تعاستنا الأبدية فقط لتهدئة لحظة من غضبه؟ يجب علينا نحن ان نعفو عن امثالنا وهو لا؟ ويجب علينا ان نحب كائنا بهذه القساوة؟ لقد نعتني القس بالبيرونيّ، ولكننا نحن البيرونيون، كما أرادنا ان نكون، نعمل على مواساة ضحايا التضليل. ذات مرة وزعنا مع ثلاثة من رفاقي على بعض السيدات مسبحات تحمل صورا فاحشة. لا يمكنكم ان تتصوروا كيف اصبحن ورعات منذ ذلك اليوم»!

وخرج، ترافقه ضحكات جميع الحاضرين، وعلق الضابط قائلا: «ان لم يسامحه الله، فنحن على الأقل نسامح لسانه، لما لسيفه من مزايا جميلة.» ثم توجه إلى روبارتو قائلا: «اجعل منه صديقا لك، ولا تعارضه أكثر من اللزوم. لقد اسقط في باريس من الفرنسيين لأجل مسألة لاهوتية أكثر ممّا استطاعت كتيبتي ان تسقط من الإسبان في هذه الأيام. لا أريده بجانبي عند اقامة القداس، ولكني اعتبر نفسي محظوظا بصحبته في ساحة المعركة».

وهكذا تلقن روبارتو الشكوك الأولى، وكان عليه ان يتلقن شكوكا أخرى في اليوم الموالي. كان قد عاد إلى ذلك الجناح من القلعة حيث قضى الليلتين الأوليين صحبة من جاؤوا معه من «مونفيراتو»، ليأخذ كيسه، ولكنه كان يجد صعوبة في التعرف على وجهته بين تلك الساحات والأروقة. وكان ماضيا في احداها وقد تفطن إلى انه تاه في الطريق، عندما رأى في آخر الرواق مرآة داكنة اللون من فرط الأوساخ، وفيها رأى نفسه. ولكنه عندما اقترب اكثر تفطن إلى ان صورته في

المرآة، كانت فعلا تحمل وجهه، ولكن اللباس كان مزركشا على الطريقة الإسبانية، وكان يحمل شعره ملفوفا في شعرية. ولا يكفي ذلك، صورته تلك في لحظة ما لم تعد أمامه، بل اختفت جانبيا.

لم تكن إذن مرآة. وأدرك فعلا انها كانت نافذة كبيرة، اتسخ زجاجها بالغبار، تفضي إلى مسطح خارجي، يمكن النزول منه عبر مدرج إلى الساحة. إذن لم ير نفسه بل شخصا آخر، يشبهه كثيرا، قد فقد الآن أثره. بطبيعة الحال فكّر لفوره في فيرّانتي. إمّا ان فيرانتي تبعه إلى «كزالي» وإمّا انه سبقه اليها، ربما في كتيبة أخرى من نفس الفوج، أو ضمن احد الأفواج الفرنسية وبينما كان هو يغامر بحياته في القليعة، من يدري ماذا كان هو يجني من الحرب.

أصبح روبارتو في تلك السن يضحك من خيالاته الصبيانية حول فيرّانتي، وبعد اعادة التفكير في تلك الرؤيا اقتنع بسرعة انه بكل بساطة رأى شخصا ربما كان يشبهه قليلا.

أراد ان ينسى الحادثة. طيلة سنوات هتر بوجود اخ لامرئيّ، ظن تلك الليلة انه رآه ولكن (محاولا ان يقول بعقله عكس ما كان يقول بقلبه) ان كان قد رأى فعلا شخصا، فلا يمكن ان يكون خيالا، وبما ان فيرانتي خيال، ما رآه لا يمكن ان يكون فيرانتي.

ربما أبدى استاذ في المنطق اعتراضا على هذا الاستدلال الزائف، ولكن في الوقت الراهن كان ذلك يكفي روبارتو.

6

الفنّ العظيم للنور والظل

بعد ان كرّس روبارتو رسالته لأولى ذكرياته عن الحصار، عثر في حجرة القبطان على بعض القنينات من الخمر الإسباني. فلا يمكننا إذن ان نعيب عليه أن يشعل النار ويعدّ لنفسه مقلاة من البيض فتّت فيها قطعا من السمك المدخن، وأن يفتح قنينة من الخمر وأن يرضي نفسه بعشاء ملكي فوق طاولة هيئت حسب قواعد الفن. إن كان عليه ان يبقى وسط البحر مدّة طويلة فمن الأفضل له ان يحتفظ بالعادات الطيبة حتى لا يسقط في الهمجية. كان يذكر انه في «كزالي»، عندما أضحت الجروح والأمراض تجعل حتى الضباط يتصرفون كما لو نجوا من الغرق، طلب السيد دي تواراس من الجميع ان يتذكروا، على الأقل حول المائدة، ما تلقنوه في باريس: «المثول في ثياب نظيفة، عدم الشرب بعد كل لقمة، تنظيف الشاربين واللحية أولا، عدم لحس الأصابع، عدم البصق في الصحن، عدم مخط الأنف في المنديل. لسنا امبراطوريين، ايها السادة»!

استفاق في الصباح الموالي على صياح الديك، ولكنه تكاسل طويلا في الفراش. وعندما فتح من جديد نافذة الرواق أدرك انه نهض متأخرا بالمقارنة مع يوم أمس، والفجر كان يترك الأفق للشروق: وراء الهضاب كان شفق السماء يزيد من احمراره تحت بياض السحب المتناثرة.

وبما ان الأشعة الأولى ستضيء بعد حين الشاطىء وتجعل النظر لا يطيق نوره، فكر روبارتو في تأمل الساحل من الجهة التي لم تسيطر عليها بعد انوار الشمس، وعبر الرواق إلى طرف دافني الآخر، نحو الجهة الغربية من اليابسة. وبانت له على الفور صورة فيروزية اللون مسننة انقسمت بعد بضع دقائق إلى شريطين افقيين: فرشة فاتحة من الخضرة والنخيل تبهر العين تحت ظل الجبال القاتم، تسيطر عنيدة فوق قممها غيوم الليل. ولكن هذه الأخيرة، التي كان وسطها اسود قاتما، اخذت شيئا فشيئا تتلاشى في حواشيها في خليط بين ابيض ووردي.

كانت وكأنما الشمس، عوض ان تضربها من الخارج بأشعتها، تتحايل للبروز من داخلها وبدورها، بينما كانت تتلاشى نوراً من حواشيها، كانت تتصلب محمّلة بالضباب، لا تريد ان تذوب في السماء لتجعل منه مرآة خالصة للبحر، الذي صار الآن ساحر الضياء، يلمع ببقع باهرة، كأنما تمر فيه اسراب من السمك تشعّ بمصباح داخلي. ولكنها لبت بسرعة نداء النور، وتخففت من حملها ثم استسلمت فوق القنن، ومن جانب كانت تلتصق بالمنحدرات ملبدة ومتراكمة كالقشدة، خفيفة في سيلانها نحو الأسفل، أكثر كثافة نحو القمة اين تكوّن مجلدة، ومن جانب آخر، كانت مجلدة السحب مثل الطفح الواحد من الثلج، تتفرقع في الهواء في شكل فطر، فورات شهية في بلد النعيم.

ما شاهده كان يكفي ربما لتبرير حالته كناج من الغرق: ليس فقط لما كان يحدثه شكل الطبيعة المتغير في نفسه من شعور باللذة، بل للنور الذي كان يسلطه على كلمات سمعها من قسّ «دينيو».

كان إلى ذلك الحين يتساءل فعلا ان لم يكن يحلم. ما كان يحدث له لا يحدث في العادة للبشر، أو على الأكثر كان يذكره بروايات الصغر: كانت السفينة والمخلوقات التي تعيش فوقها مثل كائنات الأحلام. ومن نفس ماهية الأحلام كانت تبدو له الظلال التي كانت تغلفه

منذ ثلاثة ايام ويدرك، بعقل بارد، انه حتى الألوان التي تأملها بإعجاب في الحديقة وفي المطيرة كانت تبدو زاهية فقط لعينيه المتعجبتين، ولكنها في الواقع كانت تظهر من خلال ذلك الزنجار الذي يغلف جميع اجهزة السفينة، في نور كان يلمس الروافد والأضلاع من اللوح الذي جففه القدم، دهن بالزيوت، والبرنيق والقطران... ألا يكون حلما إذن ذلك المسرح العظيم من الفيالق السماوية الذي توهم رؤيته الآن في الأفق؟

كلا، كان يقول روبارتو في نفسه، إن الألم الذي يؤذي به هذا النور عيني يقول لي انني لا أحلم، بل أرى. إن حدقتيّ تتألمان من عاصفة الذرات التي كان ذلك الساحل، وكأنه من سفينة حربية عظيمة، يقذفني بها، وليس شيئا آخر رؤية هذا اللقاء للعين بغبار المادة الذي يضربها. من المؤكد، كما كان يقول القسّ، ان الأشياء من بعيد لا ترسل اليك، كما يريد ابيقور، صورا كاملة توحي بشكلها الخارجي وبجوهرها الخفي. أنت لا تستمد الا علامات، أو اشارات، تصنع منها ذلك الاحتمال الذي نسميه رؤية. ولكن الأمر نفسه الذي جعله قبل ذلك بقليل يسمي باستعارات مختلفة ما كان يتوهم مشاهدته، مكونا في شكل كلمات ما كان ذلك الشيء العديم الشكل يوحي به اليه، يؤكد انه فعلا كان يرى. ومن بين الثوابت التي نشكو من انعدامها، واحدة فقط كانت موجودة، وهي ان جميع الأشياء تبدو لنا كما تبدو، وليس ممكنا ان لا يكون حقيقيا جدا انها تبدو لنا فعلا هكذا.

لذا، بما انه كان يرى، وكان متأكدا من أنه يرى، كان روبارتو يملك اليقين الوحيد الذي يمكن لحواسّه ولعقله ان تعتمد عليه، وهو اليقين انه كان يشاهد شيئا: وذلك الشيء هو الشكل الوحيد من الوجود الذي يمكنه الحديث عنه، بما ان الوجود ليس الاّ المسرح العظيم للمرئيّ المنظّم في قوقعة الفضاء ـ وفي هذا ما يقول لنا الكثير عن ذلك القرن الغريب.

كان على قيد الحياة، في حالة يقظة، وهنالك، جزيرة كانت ام قارّة، يوجد شيء. ماذا يكون ذلك الشيء، كان لا يدري ذلك: بما ان الألوان تتوقّف على الشيء الذي يمسّها وعلى النور الذي ينعكس فوقها، وعلى العين التي تحدّق فيها، هكذا كانت تظهر له الأرض الأكثر بعدا في التقائها العرضي والمؤقت بالنور، وبالرياح، وبالسحب وبعينيه المهتاجتين والمتألمتين. ربما في يوم الغد، أو بعد بضع ساعات، ستصبح تلك الأرض مختلفة.

ما كان يراه لم يكن فقط الرسالة التي كانت السماء تبعث بها اليه، ولكنه كان نتيجة صداقة بين السماء والأرض والموقع (والساعة، والفصل، والزاوية) الذي كان يشاهده منه. من الأكيد أنه لو رست السفينة في مكان آخر من اتّجاه الرياح، لكان المنظر مختلفا، ولكانت الشمس والفجر والبحر والأرض شمسا أخرى، وفجرا آخر، وبحرا وأرضا توأمين ولكنهما مختلفا الشكل. تلك العوالم اللانهائية التي كان يحدّثه عنها سان سافان لا ينبغي البحث عنها فقط وراء مجموعات الكواكب، بل في نفس نقطة مركز تلك الدائرة من الفضاء التي صار فيها الآن، وقد أصبح عيناً بحتة، منبعاً لاختلاف لانهائي من المناظر.

ولنقبل من روبارتو إن هو، في خضمّ كلّ تلك الأحداث، لم يعمّق أكثر من هذا الحدّ تأمّلاته في الميتافيزيقا، أو في فيزيا الأجسام؛ وذلك أيضاً لأنه،كما سنرى، سيفعل ذلك من بعد، وأكثر من اللزوم؛ ولكننا حتى عند هذا الحدّ نجده يفكّر انه، إن كان يوجد عالم واحد تظهر فيه جزر متعدّدة (كثيرة في تلك اللحظة لكثير من الروبارتيين ينظرون من سفن كثيرة راسية على درجات مختلفة من الهواجر) إذن في هذا العالم الوحيد يمكن ان يظهر ويختلط روبارتيون كثيرون وفيرّانتيون كثيرون. ربّما ذلك اليوم في القلعة تحرّك هو، دون ان يتفطّن لذلك، بضع اذرعة بالنسبة إلى اعلى جبل في جزيرة الحديد، ورأى العالم الذي يسكنه روبارتو آخر، ليس محكوما عليه ان يحتلّ قليعة خارج الأسوار،

أو أنقذه أب آخر لم يقتل ذلك الإسباني النبيل.

ولكن روبارتو كان يرتدّ دون شكّ إلى هذه التأملات لكي لا يعترف ان ذلك الجسم البعيد، الذي كان يتركّب ويتفكّك في تحوّلات مثيرة، صار بالنسبة اليه جناسا تصحيفيا لجسم آخر، كان يشتهي ان يمتلكه؛ وبما أن الأرض كانت تبتسم له عاشقة، فقد كان يريد ان يبلغها وان يذوب فيها، قزما سعيدا فوق نهدي تلك العملاقة الجميلة.

الاّ انني أظن انه ليس الخجل، بل الخوف من قوّة النور هو الذي جعله يدخل - وربما دعاه أيضاً نداء آخر. وفعلا فقد سمع الدجاجات تؤذن بدفعة جديدة من البيض، وفكّر أن يمتع نفسه تلك الليلة بفرّوج على السفود. ولكنه أخذ وقته قبل ذلك ليشذّب، مستعملا مقصّ القبطان، شاربيه ولحيته وشعره، التي كانت لا تزال تبديه بمظهر الناجي من الغرق. لقد قرّر ان يعيش نجاته من الغرق كأنها عطلة في فيلاّ، تمنحه سلسلة ممتدّة من الأسحار، والأفجرة و(كان يلتذّ مسبّقا بذلك) من المغارب.

نزل إذن بعد أقلّ من ساعة منذ ان صاحت الدجاجات، وتفطّن على الفور انها، إن كانت قد باضت (ولا يمكن ان تكون شدت بذلك كذبا)، فقد كان لا يرى أثرا للبيض. وليس ذلك فقط بل جميع الطيور كانت مزوّدة بحبوب جديدة، وزّعت بنظام، كما لو أنها لم تنبش فيها بعد.

وخامره شكّ، فعاد إلى الحديقة، واكتشف انه مثل اليوم السابق وأكثر من اليوم السابق، كانت الأوراق لامعة من قطرات الندى، والنواقيس قد جمّعت ماء صافيا، والتراب عند جذورها كان رطبا، والوحل كان اكثر توحّلا: دليل على ان أحدا أثناء الليل جاء لسقي النباتات.

قد يبدو غريبا لو قلنا ان أول ردّ فعله كان نابعا من الغيرة: كانت

لأحد آخر سيادة على سفينته وكان يحرمه من العناية بها ومن حقّه في مزاياها. خسر العالم ليحتلّ سفينة مهجورة، وها هو يتفطّن الآن إلى ان أحدا غيره يسكنها. كان ذلك فوق احتماله بقدر خوفه من ان تصبح مولاته، موضع رغبته المستحيل إرضاؤها، فريسة رغبة شخص آخر.

ثمّ خامره ارتباك قياسيّ. مثلما كان عالم طفولته مسكونا من قبل شخص آخر، كان يسبقه أو يتبعه، من الواضح ان دافني كانت تملك عنابر ومخابىء لم يكتشفها بعد، يعيش فيها ضيف مختبىء، كان يجوب نفس المسالك التي كان هو يسير فيها، وذلك ما أن يبتعد هو أو لحظة قبل ان يسير فيها.

وهرع هو للاختباء في حجرته، مثل النعامة الإفريقية، التي تخفي رأسها وتظنّ انها بتلك الطريقة محت العالم.

ولبلوغ مقدمة السفينة مرّ أمام مدخل سلّم يقود إلى قاع السفينة: إن كان قد وجد تحت سطح السفينة جزيرة مصغّرة، ترى ماذا يمكن ان يوجد هنالك؟ أتكون تلك هي مملكة الدخيل؟ ولنلاحظ انه صار يتصرّف مع السفينة مثل موضوع حبّ، ما أن يكتشفه ويكتشف انه يحبّه، يصبح جميع من امتلكوه قبله مغتصبين. وعند هذا الحدّ فعلا يعترف روبارتو في رسالته إلى مولاته انه عندما رآها في المرّة الأولى، ورآها وهو يتبع فعلا انظار شخص آخر كانت تقع عليها، أحسّ باشمئزاز من يرى دودة فوق وردة.

هناك ما يبعث على الضحك أمام مثل هذه النوبة من الغيرة من أجل مركب نتن بالسمك، والدخان والبراز، ولكن كان روبارتو الآن وسط متاهة غير ثابتة، حيث كان كلّ مفترق يقوده دائما إلى صورة واحدة. كان يتألّم في نفس الوقت للجزيرة التي لا يملكها، وللسفينة التي كانت تملكه ـ كلاهما مستحيل المنال، الأولى لبعدها، والثانية لأسرارها ـ ولكن الاثنتين كانتا بمثابة المحبوبة التي كانت تتجنّبه ملاطفة

اياه بوعود كان يمنّي بها نفسه. ولا يمكنني ان أفسّر بغير ذلك هذه الرسالة التي يطيل فيها روبارتو من شكاويه المجمّلة فقط ليقول لها في نهاية الأمر ان أحدهم حرمه من فطور الصباح.

سيّدتي،

كيف لي أن أنتظر رحمة ممّن يضنيني؟ ومع ذلك إلى من ـ إن لم يكن إليك ـ أشكو عذابي متوسّلا التعزية، إن لم يكن في اصغائك، على الأقلّ في كلماتي اللامسموعة؟ إن كان الحبّ دواءً يشفي من كلّ الأوجاع بوجع أكبر، الا يمكنني ربما أن أفهمه على أنه مرض يقتل من فرط قوّته كل الأمراض الأخرى، حتى انه يصبح دواء كل الأمراض الأخرى، الاّ دواء نفسه؟ بما أنني إن كنت رأيت جمالا، وأردته، فلم يكن الاّ الحلم بجمالك، لماذا أتألم ان كان جمال آخر حلما من أحلامي؟ سيكون أسوأ لو أردته، ورضيت به، وانتهى عذابي لغياب صورتك: ستكون متعتي دواء حقيرا، وسيزيد عذابي من الندم على خيانتي. أفضل لي ان أحتفظ بصورتك، خاصّة الآن وقد تفطّنت مرّة أخرى لوجود عدوّ لا أعرف قسماته وربما لا أودّ أن أعرفها ابدا. ولكي أنسى ذلك الشبح الكريه، فليسعفني خيالك المحبوب. ليجعل مني الحبّ على الأقلّ شظية فاقدة الحسّ، لقّاحا، عيناً من الصخر تسكب من خلال بكائها ما في نفسها من جزع...

ولكنه في تعذيب نفسه مثلما كان يفعل، لم يصبح روبارتو عينا من الصخر، وها هو يحوّل ما كان يحسّ به من جزع إلى الجزع الذي أحسّه في «كزالي»، والذي كانت عواقبه ـ كما سنرى ذلك ـ وخيمة أكثر.

7

بافانية دمعية

القصة واضحة شفافة بقدر ما هي غامضة. بينما كانت تتوالى المناوشات الخفيفة، التي كان لها نفس الدور الذي تلعبه، في الشطرنج، لا النقلة نفسها، بل النظرة التي تعلق على الحركة التي يتهيأ لها المنافس، لحمله على العدول عن رهان رابح ـ رأى تواراس انه ينبغي أن يحاول القيام بخرجة أكثر قوة. كان من الواضح ان اللعبة اصبحت الآن تدور بين جواسيس وجواسيس مضادين: انتشر الخبر في «كزالي» ان جيش النجدة قد اقترب يقوده الملك نفسه، مع السيد دي مونمورانسي القادم من «آستي» ومع الماريشالين دي كريكي ودو لافورس القادمين من «إفريبا». ليس ذلك صحيحا، كما علم روبارتو من غضب تواراس عند استقباله لرسول قادم من الشمال: وفي هذا التبادل للرسائل كان تواراس يعلم ريشليو ان الزاد قد نفد وكان الكاردينال يجيبه بأن السيد أجونكورت قد عاين المخازن في وقت سابق وأعلن ان «كزالي» بإمكانها ان تصمد جيدا كامل الصيف. والجيش سيتحرك في شهر أغسطس، مستغلا في طريقه المحاصيل التي تم جمعها.

وكانت دهشة روبارتو كبيرة لما رأى ان تواراس اعطى تعليماته لمجموعة من الكورسيكيين بترك مواقعهم والاتصال بسبينولا لإبلاغه ان الجيش لن يصل قبل شهر سبتمبر. ولكنه سمعه يشرح لمجلس قيادته:

«لو اقتنع سبينولا بأن لديه متسعا من الوقت، لأخذ ما يكفيه من الوقت لصنع أنفاقه، ولأمكننا نحن ان نصنع انفاقا مضادة للألغام. أما اذا ايقن ان النجدة قريبة، ماذا سيبقى له ان يفعل؟ من المؤكد انه لن يذهب لمجابهة الجيش الفرنسي، لأنه يعلم انه ليست لديه قوات كافية؛ ولن ينتظره، لأنه سيصبح بدوره محاصرا؛ ولن يعود على أعقابه إلى ميلانو ليستعدّ للدفاع عن منطقتها، لأن عزة نفسه تمنعه من التراجع. لن يتبقى له إذن الا ان يستولي فورا على «كزالي». ولكن بما انه لا يقدر على تحقيق ذلك بهجوم جبهي، سيضطر إلى دفع اموال طائلة للتشجيع على الخيانة. ومنذ ذلك الحين كل صديق سيصير بالنسبة الينا عدوا محتملا. لنرسل إذن جواسيس إلى سبينولا لإقناعه بتأخر الإمدادات، لنتركه يصنع انفاقا ملغمة حيث لا يضرنا ذلك كثيرا، ولندمر تلك التي تهددنا فعلا، وبهذه الطريقة نجعله يستنفد قواه في هذه اللعبة. أيها السيد بوتسو، انت خبير بهذه الجهات: اين نتركه يفعل ما يريد وأين ينبغي علينا أن نسدّ طريقه مهما كلفنا ذلك؟»

وأشار بوتسو الشيخ، دون ان يولي بآلاً للخرائط (التي كانت تبدو له منمقة أكثر مما هي في الواقع) بيده إلى خارج النافذة وبيّن كيف انه في بعض المواضع صارت الأرض بطبيعتها تهدد بالانهيار لأنها مشبعة بماء النهر، وهنالك بإمكان سبينولا ان يحفر بالقدر الذي يريد وعمّاله سيدفنون احياء وسيختنقون بابتلاع الحلازين. بينما في مواضع اخرى سيكون حفر الأنفاق عملا سهلا، وهنالك ينبغي قصفهم بالمدفعية وتنظيم خرجات هجومية.

فأجاب تواراس: «حسنا، غدا سنجبرهم إذن على التحرك للدفاع عن مواقعهم خارج حصن «سان كارلو»، ثم نأخذهم على غرة خارج حصن «سان جيورجيو». وهيئت الخطة بإحكام، مع تعليمات دقيقة لجميع الأفواج.

وبما ان روبارتو اظهر أن خطه جميل، فقد ابقاه تواراس معه من

السادسة مساء إلى الثانية صباحا يملي عليه الرسائل، وطلب منه ان ينام بثيابه فوق كنبة أمام حجرته، لتلقي الأجوبة ولتفحصها، على ان يوقظه في حالة حدوث أمر طارىء. وذلك ما حدث أكثر من مرة من الثانية إلى طلوع الفجر.

في الصباح الموالي كانت الفرق تنتظر في الطرق المحمية في المنحدرات الخارجية وداخل الأسوار. وبإشارة من تواراس الذي كان يراقب العملية من القلعة تحرك فريق أول بعدد لا بأس به في الاتجاه المخادع: في المقدمة طليعة من الرماحين والفرسان، مع مجموعة خمسين من حاملي البندقيات يتبعهم على مسافة قريبة، ثم، بتحدّ واضح، فيلق من المشاة من خمسمائة رجل وفوجان من الفرسان. كان عرضا جميلا، وعند التفكير في ذلك من بعد يتجلى ان الإسبان فهموه على أنه عرض.

شاهد روبارتو خمسة وثلاثين رجلا كانوا تحت أوامر القائد كولومبات يهجمون بدون انتظام على خندق، والقائد الإسباني يبرز من وراء المتاريس ويؤدي لهم تحية جميلة. توقف كولومبات ومن معه، من باب الأخلاق، وردوا التحية بمثلها. بعد ذلك تراجع الإسبان بينما واصل الفرنسيون تقدمهم؛ ومن الأسوار أمر تواراس بإطلاق قذيفة مدفعية على الخندق، وفهم كولومبات الدعوة فأمر بالهجوم وتبعه الفرسان وهجموا على الخندق من الجانبين، واتخذ الإسبان، على كره، من جديد مواقعهم ولكنهم لم يصمدوا أمام الهجوم. كان الفرنسيون وكأنهم جنّوا وبعضهم كان عند ضربه للعدو يصيح بأسماء رفاقه الذين قتلوا في الخرجات السابقة: «هذه لبيسيّار، وهذه لخرجة دار «بريكيتّو»!» وبلغ الهيجان أوجه حتى ان كولومبات عندما أراد اعادة تنظيم فريقه لم يقدر على ذلك، وكان رجاله يتمادون في التنكيل بضراوة بالذين سقطوا، ملوحين نحو المدينة بالغنائم من أقراط، وأنطقة، وقبعات مرشوقة فوق الرماح المهتزة.

لم يحدث على الفور هجوم معاكس، وأخطأ تواراس عندما اعتبره خطأ، بينما كان حسابا. ظن ان الإمبراطوريين كانوا بصدد ارسال مجموعات أخرى للتصدي لذلك الهجوم، ورماهم بقذائف أخرى كأنه يدعوهم للإسراع بذلك، ولكنهم اكتفوا بقصف المدينة، وأصابت قذيفة كنيسة القديس انطونيو، قرب مركز القيادة.

وبدا تواراس راضيا على كل ذلك فأمر المجموعة الثانية بالتحرك انطلاقا من حصن «سان جيورجيو». افواج قليلة، ولكنها تحت قيادة السيد دي لاقرونج، الذي كان نشيطا كالشاب المراهق رغم الخمسة والخمسين عاما التي تثقل كاهله. وأعطى دي لاقرونج وهو يلوّح بسيفه نحو الأمام الأمر بالهجوم ضد كنيسة صغيرة مهجورة، كانت تسير حذوها أشغال حفر نفق متقدم، وفجأة ظهر من وراء هضبة صغيرة جلّ الجيش المعادي، الذي كان ينتظر منذ ساعات ذلك الموعد.

عندئذ صاح تواراس «انها خيانة!» ونزل إلى الباب وأرسل يأمر لاقرونج بالانسحاب.

بعد ذلك بقليل، قاد اليه بعض الجنود يحملون راية فوج «بومبادور» شابا من أبناء «كزالي»، موثوق اليدين، فوجيء في برج صغير قرب القلعة بينما كان يرسل بواسطة منديل أبيض إشارات إلى المحاصرين. فأمر تواراس بطرحه على الأرض وأقحم ابهام يد الشاب اليمنى تحت الديك المرفوع ووجه الأستون نحو يده اليسرى، ثم وضع اصبعه على الزناد وسأله: «والآن؟»

فهم الشاب بسرعة المأزق الذي وجد نفسه فيه وبدأ يعترف: في المساء الفائت وعده أحدهم يدعى القائد غمبيرو بست بستولات ذهبية أعطاه سلفاً اثنتين منها ان هو فعل ما فعل، عندما يترك الجنود الفرنسيون حصن «سان جيورجيو». والأدهى من ذلك أن الشاب كان يطالب بالبستولات المتبقية، دون ان يفهم شيئا من امور الحرب، كما لو كان تواراس سيسرّ للخدمة التي قدمها. وفجأة شاهد روبارتو وأخذ

يصيح انه هو ذلك الغمبيرو الذي تحدث عنه.

وبقي روبارتو مذهولا، بينما اندفع بوتسو الأب نحو المفتري البائس وكان سيخنقه لو لم يمسكه بعض الأسياد من أتباع تواراس. وهذا الأخير تذكر في الحين ان روبارتو قضى كامل الليل إلى جانبه وانه، مهما كان الأمر، لا يمكن لأحد ان يخلط بينه وبين قائد. وفي الأثناء أدت تحريات الآخرين إلى ان هذا القائد غمبيرو موجود حقا، وينتمي إلى فيلق باسياني، وأتوا به مدفوعا بالركل والضرب أمام تواراس. وكان غمبيرو يعلن براءته، وفعلا عندما رآه السجين أقر بأنه لا يعرفه، ولكن من باب الحيطة أمر تواراس بسجنه. ومما زاد الأمر فوضى ما بلّغه أحد الجنود من أنه، بينما كانت فرق لاقرونج تنسحب، خرج أحدهم فارا من حصن «سان جيورجيو» ملتحقا بصفوف الإسبان، الذين تلقوه وسط علامات الترحاب. لا أحد يعرف عنه شيئا، الا أنه شاب، يلبس على الطريقة الإسبانية وشعرية تغطي رأسه. وفكر روبارتو حالا في فيرّانتي. ولكن ما راعه أكثر هو تلك الريبة التي بات الفرنسيون ينظرون بها إلى الإيطاليين الذين كانوا في حاشية تواراس.

وسمع أباه يحتجّ: «أيكفي غادر لئيم لتعطيل جيش كامل؟» بينما كان يشير إلى الفرنسيين المتراجعين أمام الإسبان، ثم أضاف متوجها إلى تواراس: «أطلب المعذرة ايها الصديق ولكني أظن ان الجميع هنا يعتبرنا مثل ذلك الخائن غمبيرو، أم أنا مخطىء؟» وفي حين كان تواراس يؤكد له صداقته وتقديره بهيئة يغلب عليها الشرود، قال مواصلا: «دعنا من هذا. فهمت. أرى ان الجميع هنا يرتعدون من الخوف وأنا لا أحتمل مثل هذه المهازل. لقد نفد صبري من هؤلاء الإسبان الملعونين وإن سمحت سأصرع اثنين أو ثلاثة منهم، حتى يرى الجميع أننا عند الحاجة لا نهاب ولا نجفل، ومتى طاب لنا لا نبالي بأحد، أي والله»!

ثم خرج من باب المدينة وركض بجواده كالمجنون، وسيفه مشهور ضد صفوف العدوّ. أكيد انه لم يكن يريد ارغامهم على الفرار،

ولكن بدا له من المناسب ان يفعل حسب رأيه، حتى يرى الجميع ذلك.

كانت شاهدا طيبا على الشجاعة ولكنها كعملية عسكرية كانت كأسوأ ما يكون. أصابته رصاصة في جبينه جعلته ينهار على صهوة جواده بانيوفلي. وانطلقت نحو المنحدر شحنة أخرى من الطلقات، وأحس روبارتو بضربة حادة على صدغه، كأن حجراً أصابه، وكاد يفقد توازنه. أصيب جانبيا، ولكنه تملّص من يدي مسانده واستقام مناديا اسم والده، ثم شاهد الجواد بانيوفلي مترددا، يركض في أرض بلا سيّد حاملا جسم سيّده وقد فارقته الحياة.

ومرة أخرى حمل روبارتو اصبعيه إلى فمه وأطلق الصفير المعتاد. سمعه الجواد بانيوفلي وانطلق عائدا نحو الأسوار، ولكن ببطء، بركض خفيف كأنه في استعراض رسمي، حتى لا يقلب راكبه الذي لم يعد يشدّ بقوة على جانبيه. ودخل الأسوار وهو يصهل بافانيته على روح سيده الميت، مسلما جسده إلى روبارتو الذي أغمض العينين المفتوحتين ونشف ذلك الوجه الملطخ بالدم المتجمّد، بينما كان دمه هو يسيل ساخنا على وجنته.

لعلّ الضربة التي تلقاها أصابت أحد الأعصاب، من يدري؟: في اليوم الموالي، ما أن خرج من كاتدرائية القديس ايفازيو ـ حيث أقام تواراس مأتما رسميا للسيد بوتسو دي سان باتريتسيو دي لاغريف ـ حتى وجد صعوبة في تحمّل ضوء النهار. ربما كانت عيناه محمرّتين من جراء الدموع، على كل حال منذ ذلك الحين اصبحت عيناه تؤلمانه. اليوم يقول علماء النفس انه، بدخول أبيه عالم الظلام، يريد هو الآخر ان يدخل في الظلام. كان روبارتو لا يعرف كثيرا عن علم النفس، ولكن هذه الصورة الكلامية ربما هي التي جذبته، على الأقل إما إلى نور، أو إلى ظلمة، الأحداث الموالية.

أظن ان بوتسو مات استجابة لعزة نفسه، وهذا يبدو لي شيئا رائعا،

إلا ان روبارتو لم يستطع ان يقدّر ذلك حق قدره. كان الجميع يشيدون ببسالة والده، وكان عليه ان يتحمل الحداد برباطة جأش، بينما كان يشهق. وحين يتذكر ان اباه كان يقول له ان السيد الشريف يجب ان يعتاد على تحمل المصائب دون ان تبلل جفونه الدموع، كان يعتذر لما يبديه من ضعف (ازاء والده الذي لم يعد بإمكانه تأنيبه على ذلك)، معيدا بينه وبين نفسه انها المرة الأولى التي يصير فيها يتيما. كان يظن أنّ من واجبه ان يعتاد على هذه الفكرة، ولم يفهم انه من العبث ان يعتاد على فقدان ابيه، لأن ذلك لن يحدث مرة ثانية: فليترك إذن الجرح مفتوحا.

ولكن لكي يعطي معنى لكلّ ما حدث لم يقدر على الامتناع عن التفكير مرة أخرى في فيرّانتي. فيرّانتي، الذي تبعه عن قرب باع إلى العدو الأسرار التي كان مطلعا عليها، ثم التحق بكل رذالة بصفوف العدو ليجني ثمار خيانته: وأبوه، الذي فهم كل شيء، أراد بتلك الطريقة ان يغسل الفضيحة التي لطخت شرف العائلة، ويعكس على روبارتو نور شجاعته لتطهيره من ظل الريبة التي رمي بها بينما كان بريئا. وحتى لا يذهب موته هباء، كان على روبارتو ان يتحلى بالسلوك الذي ينتظره الجميع في «كزالي» من ابن البطل.

لم يكن بوسعه ان يفعل غير ذلك: وجد نفسه الآن السيد الشرعي دي لاغريف، وارث اسم العائلة وممتلكاتها، ولم يعد تواراس يجرؤ على تشغيله في الأمور الحقيرة ـ كما لم يكن بإمكانه تكليفه بتلك الهامة. وهكذا، بعد ان بقي وحيدا، وحتى يقوم بدوره الجديد كيتيم من نسل شريف وجد نفسه وحيدا أكثر من ذي قبل، وليس من حركة تخفف من تلك الوحدة. وفي خضم الحصار، وقد تخفف من كل عبء، كان يتساءل كيف يقضي أيامه كمحاصر.

8

المذهب الغريب لعقول ذلك الزمن الجميلة

أوقف روبارتو لحظة تيار الذكريات، وتفطن إلى أنه أعاد إلى ذهنه موت أبيه لا لنيّـة بارّة في ترك ذلك الجرح مفتوحا، ولكن عن غير قصد، بينما كان يعاوده شبح فيرانتي، وقد حرّكه شبح الدخيل الموجود على متن دافني. وبدا له ان الاثنين كانا توأمين إلى حدّ انه عزم على التخلص من الأضعف للتغلب بعد ذلك على الأقوى.

في نهاية الأمر، كان يقول لنفسه، هل حدث في تلك الأيام من الحصار أن سمعت من جديد شيئا عن فيرّانتي؟ كلاّ. بل ماذا حدث؟ حدث أن أقنعني سان سافان بعدم وجوده.

وفعلا قد ارتبط روبارتو بصداقة مع السيد دي سان سافان. رآه مرة أخرى أثناء الجنازة، ولمس منه تعبيرا صادقا عن العطف. وسان سافان، عندما لا يكون فريسة لنشوة الخمر، رجل شريف في منتهى اللياقة. كان قصير القامة، عصبيّ المزاج، ذا حيوية، يحمل على وجهه، ربما، آثار المجون الذي حكى انه عاشه في باريس، ولعله لم يتجاوز بعد سن الثلاثين.

عاب على نفسه الإفراط في الكلام أثناء ذلك العشاء، لا بخصوص ما قاله، بل بخصوص الكيفية غير اللائقة التي تكلم بها. وأراد

ان يحدثه روبارتو عن السيد دي بوتسو، وشكره روبارتو في دخيلته لأنه، على الأقل، أظهر اهتماما كبيرا. وروى له كيف ان أباه علّمه ما يحسن الآن في فن المسايفة، وألقى سان سافان عدة أسئلة وتحمس عندما وصف له روبارتو نوعا من الضربات، فاستلّ سيفه، هكذا وسط احدى الساحات، وأراد ان يريه روبارتو تلك الضربة. إما انه كان يعرفها أو أنه كان سريعا، لأنه تصدى لها برشاقة، ولكنه اعترف انها حيلة تنمّ عن مدرسة عالية.

واعترافا بالجميل كشف لروبارتو عن إحدى ضرباته. طلب منه ان يتهيأ، ثم تبادلا بعض الضربات الخادعة، انتظر الهجوم الأول، وفجأة بدا وكأن قدمه زلت به إلى الأرض، وعندما ترك روبارتو حذره متحيّرا، استقام بصفة غريبة وخلع له زرا من أزرار سترته ـ ممّا يدل على انه كان بوسعه ان يجرحه لو أغمد سيفه أكثر.

وقال سان سافان «هل أعجبتك هذه الضربة، أيها الصديق؟» بينما كان روبارتو يحييه معترفا بهزيمته «يسمّونها «Coup de la Mouette» أو «ضربة النورس»، كما تقولون. لو ركبت يوما البحر لرأيت هذه الطيور تنزل عموديا وتكاد تسقط في الماء، ولكنها ما أن تلمس سطح الماء حتى ترتفع من جديد والفريسة في منقارها. انها ضربة تتطلب تمرينا طويلا، ولا تنجح دائما. لم تنجح معي للمتهوّر الذي اخترعها. وهكذا أهداني حياته وسرّه. وأظن أن ندمه كان أكبر على فقدان الثاني من فقدانه للأولى».

وكانا سيتماديان أكثر لولا ان تجمّع حولهما جمع من المدنيين، فقال روبارتو: «لنتوقف. فلا أريد ان يذهب ظن البعض إلى إني نسيت حدادي».

فأجاب سان سافان: «إنك تكرم أباك الآن بتذكرك تعاليمه أحسن من اكرامك له قبل ذلك وأنت تنصت في الكنيسة إلى لاتينية رديئة».

فقال له روبارتو: «يا سيد دي سان سافان، ألا تخاف ان تنتهي يوما فوق المحرقة؟»

فتجهم وجه سان سافان لحظة ثم قال: «عندما كنت في سنك تقريبا كنت معجبا بشخص كان لديّ بمثابة أخي الكبير. على منوال الفلاسفة القدامى كنت أدعوه لوقريتيوس، وكان هو أيضاً فيلسوفا، وكان علاوة على ذلك كاهنا. كانت نهايته المحرقة، ولكن قبل ذلك قطعوا لسانه ثم خنقوه. وإذن، كما ترى نحن الفلاسفة عندما نحذق استعمال اللسان ليس فقط، كما قال ذلك السيد تلك الليلة، لنضفي على أنفسنا ما سمّاه bon ton. بل للإنتفاع به قبل ان يقطعوه. أو بالأحرى، وأترك المزاح جانبا، كي نضع حدا للأفكار المسبّقة ونكتشف علّة الوجود الطبيعية».

ـ «إذن انت لا تعتقد حقيقة في وجود الإله؟»

ـ «لا أجد علّة لذلك في الطبيعة. ولست الوحيد في هذه الحالة. يروي لنا سترابون ان الغاليسيين لم تكن لديهم اية فكرة عن كائن سام. وعندما أراد المبشرون في الهند الشرقية ان يحدثوا أهل البلاد عن الربّ، يروي لنا أكوستا (الذي كان مع ذلك عيسويا) انهم اضطروا إلى استعمال العبارة الإسبانية Dios. ربما لا تصدق، ولكن في لغتهم لا يوجد أي مصطلح ملائم. وإن كانت فكرة الإله غير معروفة طبيعيا فهذا يعني انها من اختراع الإنسان... ولكن لا تنظر اليّ كمن لا يملك مبادىء شريفة أو كمن لا يخدم ملكه خدمة صادقة. الفيلسوف الحق لا يطلب أبدا قلب النظام الذي تقوم عليه الأشياء. انه يقبله. يطلب فقط ان ينمّي افكاره فالأفكار عزاء المفكرين الوحيد. بالنسبة للآخرين، من حسن الحظ انه يوجد البابوات والأساقفة لمنع الرعاع من الثورة ومن ارتكاب الجرائم. إن نظام الكون يحتم سلوكا متماثلا، الدين ضروري للشعب وعلى الحكيم ان يضحي بجزء من حريته ليؤمن استقرار المجتمع. أما أنا، فأظن أنني رجل نزيه: انني مخلص لأصدقائي، لا أكذب، إلا

عندما أعلن حبي لبعض السيدات، أحب المعرفة وأصنع، حسب ما يقولون، شعرا جميلا. ولذلك تعتبرني السيدات رجلا ظريفا. أود ان أكتب روايات، التي هي موضة هذا العصر، ولكني أفكر في العديد منها، ولا أتهيأ لكتابة أي منها..».

ـ «ما هي الروايات التي تفكر فيها؟»

ـ «أحيانا أنظر إلى القمر، وأتصور ان تلك البقع مغارات، ومدن، وجزر، وان الأجزاء التي تلمع هي الأماكن التي يتلقى فيها البحر نور الشمس كبلور المرآة. أريد أن أقص حكايات ملوكهم، أن أروي اخبار حروبهم وثوراتهم، أو أن اروي شقاء المحبين هناك، الذين يتنهدون وأنظارهم معلقة بأرضنا. ويروقني أن أروي حكايات الحروب والصداقة بين مختلف أعضاء الجسم، الأيدي تتحارب مع الأرجل، والأوردة في وصال عشق مع الشرايين، أو العظام مع المخّ. جميع الروايات التي أودّ كتابتها تتابعني. عندما أنفرد بنفسي في حجرتي يبدو لي انها حولي، كجمع من الشياطين الصغيرة، هذه تجذبني من أذني، والآخرى من أنفي، وكل واحدة تقول لي: «سيدي، اكتبني، فأنا جميلة جداً،». ثم أتفطن إلى أنه يمكن رواية قصة جميلة بتصور مبارزة طريفة، مثلا أن تبارز ثم تقنع منافسك حتى ينكر وجود الإله وعند ذلك تطعنه في صدره مما يجعله يموت كافرا. هيّا، يا سيد دي لاغريف، أخرج سيفك مرة أخرى، نعم، هكذا، تصدّ لهذه، خذ! إنك تصع قدميك على نفس الخط: هذا خطأ، انك تفقد ثبات الساق. لا يجب ان ترفع رأسك كثيرا، لأن الطول بين الكتفين والرأس يعرض مساحة كبيرة لضربات المنافس..».

ـ «ولكني أغطي رأسي بسيفي المشهور في يدي الممتدة».

ـ «وهذا غلط، في تلك الوضعية يفقد المبارز من قوته. ثم، أنا افتتحت بتحدّ على الطريقة الألمانية، بينما تهيأت أنت على الطريقة الإيطالية. وهذا خطأ. ينبغي ان تحاكي أكثر ما يمكن نوع التحدي الذي

جاء به المنافس. ولكنك لم تحدثني عن نفسك، وعن الأحداث التي عشتها قبل مجيئك إلى هذا الوادي المغبرّ.»

لا شيء يمكن أن يفتن شابا مثل رجل بالغ تسطع شخصيته بتناقضات منحرفة، فإذا به يريد منافسته. وهكذا فتح روبارتو قلبه لسان سافان، وحتى يثير اهتمامه ـ بما ان سنواته الستّ عشرة الأولى لا تمنحه الا بعض الأحداث القليلة ـ حدثه عن وسواسه المتعلق بأخيه المجهول.

فقال له سان سافان «إنك أكثرت من قراءة الروايات، وها انك تحاول ان تعيش واحدة منها، لأن مهمة الرواية هي التعليم عن طريق التسلية، وما تعلّمه ايانا هو ان نتعرف على مكائد الدنيا».

ـ «وماذا يعلّمني ما سميّته برواية فيرانتي؟»

فشرح له سان سافان: «الرواية ينبغي ان تقوم دائما على لبس، اما في شخص، أو في فعل، أو مكان أو زمان أو ظرف، ومن هذه الالتباسات الأساسية تتولد التباسات عرضية، وتطورات، وانقلابات، وفي النهاية تعرّفات غير منتظرة وشيّقة. أعني باللبس مثلا موت البطل موتا غير حقيقي، أو ان يقتل شخص عوضا عن آخر، أو لبس في الكمّ، كالمرأة التي تظن ان عشيقها مات فتتزوج بآخر، أو في الكيف، عندما تخدعنا حواسنا، أو عندما يدفن أحد يبدو انه ميت، بينما هو في الواقع تحت تأثير مخدر منوّم؛ أو أيضاً لبس في العلاقة كأنْ يتهم أحد خطأ بجريمة قتل شخص ثان؛ أو في الأداة، مثل ان يتظاهر أحد بضرب الآخر بخنجر مستعملا سلاحا مصنوعا بطريقة تجعل الشفرة عوض ان تنغرس في العنق تدخل في المقبض، فتضغط على أسفنجة مبلّلة بالدم... ولا أتحدث عن الرسائل المغشوشة، والأصوات المزيفة، والرسائل التي لم تسلّم أو التي سلمت اما إلى مكان خاطىء أو إلى شخص آخر. ومن بين جميع هذه الحيل، تلك المفضلة أكثر، ولكنها أيضاً تلك الشائعة أكثر، التي تجعلنا نخلط شخصا بآخر، ويأتي الخلط

عن طريق الشبيه... الشبيه هو الظل الذي يجرّه البطل وراء ظهره أو الذي يسبقه في كل ظرف معين. انها خدعة شيطانية، تجعل القارىء يتقمص شخصية بطل الرواية، ويشاطرها ذلك الخوف الغامض من «الشقيق العدوّ». ولكن انظر كيف ان الإنسان أيضاً هو عبارة عن آلة، ويكفي ان تحرك لولبا سطحيا حتى يحرك بدوره لوالب أخرى بداخله: الشقيق والعداوة ليسا إلاّ انعكاس الخوف الذي يحسّه كل واحد من نفسه، وخبايا النفس، حيث تقبع الرغبات الشائنة، أو كما يقولون في باريس، أفكار صمّاء ولا يعبّر عنها. بما أنه اتضح انه توجد افكار غير محسوسة، تشغل النفس دون ان تشعر النفس بذلك، أفكار خفيّة يبرهن على وجودها أنه عندما يمتحن كل واحد منا نفسه، لا يفوته أن يتفطن إلى أنه يحمل في قلبه الحب والحقد، والفرح والحزن، دون أن يتذكر بوضوح الأفكار التي كانت سببا في تولّدها».

فجازف روبارتو متسائلا: «إذن فيرانتي..». وأتمّ سان سافان مختتما: «إذن فيرانتي هو مخاوفك وخجلك. غالبا، كي لا يقول الإنسان انه المسؤول عن مصيره، يرى ذلك المصير كأنه رواية، يحركها مؤلف صعلوك حالم».

- «ولكن ماذا يمكن أن يعني هذا المثال الذي يبدو انني صنعته لنفسي دون أن أدري؟»

- «من يدري؟ ربما كنت لا تحب أباك بالقدر الذي كنت تتصوره، وكنت ترهب الشدة التي كان يعاملك بها ليجعلك مستقيما، ونسبت اليه هفوة، لتعاقبه من بعد لا عن طريق هفواتك، بل من خلال هفوات الآخر».

- «سيدي، إنك تحادث ابنا لا يزال يبكي فقدان والده العزيز! أظن ان الحث على عقوق الوالدين اثم أشنع من التجديف باسم سيدنا المسيح»!

- «هوّن عليك، هوّن عليك، يا عزيزي لاغريف! ان الفيلسوف ينبغي ان تكون له الجرأة لانتقاد جميع التعاليم الكاذبة التي لقّنونا اياها، ومن بينها ذلك الإجلال الأحمق للشيخوخة، كما لو لم يكن الشباب خيرنا الأكبر وأفضله. أقول لك صادقا، عندما يكون الرجل الشاب قادرا على التصور، والحكم والعمل، أليس أفضل لتسيير شؤون العائلة من رجل في الستين أبله، قد أثلج الشيب الذي نبت على دماغه مخيِّلته؟ إن ما نقدّره في من يكبرنا على انه تعقّل، ليس في الواقع إلا خوفا واضحا من الفعل. تريد ان تخضع لهؤلاء عندما يكون الكسل قد أوهن عضلاتهم، وأيبس شرايينهم، وبخّر عقولهم وامتص نخاع عظامهم؟ إن أنت عشقت امرأة أليس لجمالها؟ لعلّك ستواصل عشقها بعد أن تكون الشيخوخة جعلت من ذلك الجسم شبحا، لا يصلح إلا ليذكرك بقرب الأجل؟ وإن كان هذا سلوكك مع خليلاتك لماذا لا يكون هو نفسه مع أولئك المسنّين؟ ستقول لي إن ذلك الشيخ هو ابوك وان السماء تعدك بعمر طويل إن أنت بجّلته. من قال ذلك؟ شيوخ يهود كانوا يظنون انه بإمكانهم ان يعيشوا في الصحراء فقط باستغلال ثمرة الصلب. إن كنت تظن ان السماء تهديك ولو يوما زائدا من الحياة لو سلمت نفسك نعجة في يد ابيك، فأنت مخطىء. أتظن ان تحيّة إجلال تمسح بها الأرض عند رجلي أبويك ستشفيك من ورم خبيث، أو ستدمل جرح طعنة أو أنها ستريحك من حصاة في المثانة؟ لو كان الأمر كذلك لما وصف لك الأطباء جرعاتهم المقززة، ولنصحوك لمداواتك من المرض الإيطالي ان تنحني إجلالا أربع مرات قبل العشاء أمام السيد أبيك، وان تقبل السيدة أمك قبلة قبل النوم. ستقول لي انه دون أبيك ما كنت ترى الوجود، ولا هو دون أبيه، وهكذا حتى نصل إلى ملكي صادق. ولكنه هو مدين لك بشيء، لا أنت: انت تدفع بسنوات طويلة من الدموع ثمن لحظة قضاها في المداعبة المسلية».

- «إنك لا تؤمن بما تقول.»

ـ «نعم، هذا صحيح. لا أكاد اؤمن أبدا بما أقول. ولكن الفيلسوف مثل الشاعر. هذا الأخير ينظم حروفا تصورية لحورية خيالية، ولا يبحث من خلال الكلمات الا عن سبر أعماق الهوى. الفيلسوف يمتحن برودة نظرته، ليرى إلى أي حدّ يمكن ان ينال من قلعة التزمت.لا أريد ان ينقص احترامك لأبيك، بما انك قلت لي انه لقنك تعاليم طيبة. ولكن لا ينبغي أن تحزنك ذكراه. أراك تدمع..».

ـ «اوه، ليس من جراء ألمي. ربما الجرح الذي أصبت به في رأسي قد أضعف نظري..».

ـ «اشرب القهوة».

ـ «القهوة؟»

ـ «أقسم أنها بعد وقت قليل ستصبح دارجة. إنها ترياق. سأحصل لك على شيء منها. إنها تجفف الأخلاط الرطبة، وتطرد الهواء من الجسم، وتقوي الكبد، انها علاج ناجع جدا لمرض الاستسقاء والجرب، تنعش القلب، وتخفف من آلام المعدة. وبخارها ينصح به فعلا في مداواة احتقان العينين، وطنين الأذنين، والزكام، والبرد أو نزلة الأنف كما تريد ان تسمي ذلك. ثم ادفن مع ابيك ذلك الشقيق المزعج الذي ابتكرته. وبالخصوص اعثر لنفسك على حبيب»

ـ «حبيب؟»

ـ «سيكون أفضل من القهوة. عندما ستتألم من أجل إنسان حيّ ستبخل بآلامك على مخلوق ميت».

فاعترف روبارتو وقد احمرّ وجهه من الخجل «ولكنني لم أعشق أبدا امرأة».

ـ «لم أقل امرأة. يمكن أن يكون رجلا».

فصاح به روبارتو: «يا سيد دي سان سافان»!

ـ «من الواضح انك تأتي من الريف».

اشتد الارتباك بروبارتو فاعتذر بأن عينيه اصبحتا تؤلمانه كثيرا ووضع حدا لذلك اللقاء.

وحتى يقنع نفسه بكل ما سمع من حديث، قال في نفسه ان سان سافان جعل منه ألهية: كما لو كانا في مبارزة، أراد ان يريه التحركات المعروفة في باريس. وظهر روبارتو بمظهر الآتي من الريف. بل وأكثر، في اتخاذه تلك الأقوال مأخذ الجدّ ارتكب خطيئة ما كان يرتكبها لو أخذها مأخذ الهزل. وأخذ يعرض على نفسه قائمة الخطايا التي ارتكبها وهو يستمع لتلك الأحاديث الكثيرة ضد العقيدة، والعرف، والدولة، والاحترام الواجب أداؤه نحو العائلة. وبينما كان يفكر في تهاونه، انتابه جزع آخر: تذكر أن أباه توفي وهو يجدّف.

9

المنظار الأرسطوطاليسي

في اليوم الموالي عاد روبارتو للصلاة في كاتدرائية القديس ايفازيو. وقد فعل ذلك ليخفف ما بنفسه: في تلك العشية من أوائل يونيو كانت الشمس تضرب بأشعتها الحارة الشوارع التي تكاد تكون خالية ـ كما كانت في تلك الآونة، وهو يشعر على متن دافني بالحرارة التي تشيعها في ذلك الخليج الصغير وقد عجزت جوانب السفينة على ردّها كما لو كان اللوح حاميا. ولكنه أحس أيضا بحاجة ملحة إلى الاعتراف بخطيئته وبخطيئة أبيه. فأوقف كاهنا في جناح الكنيسة وهذا الأخير قال له في بداية الأمر إنه لا ينتمي إلى الخورنية ثم، أمام نظرة الشاب المتوسلة، قبل وجلس على كرسي الاعتراف ودعاه للتوبة.

كان الأب إيمانويل لا يبدو طاعنا في السن، ربما ناهز الأربعين وكان، على حدّ تعبير روبارتو، «ذا وجه لطيف ومورّد تلوح عليه علامات الرقة والجلال»، ممّا شجع روبارتو على البوح له بجميع ما يشغله. وذكر له قبل كل شيء تجديف والده متسائلا ان كان ذلك باعثا كافيا كي لا ينعم والده الآن بين ذراعي «الأب»، وكي يتألم في قاع الجحيم؟ فألقى عليه المعرّف بعض الأسئلة وحث روبارتو على الإعتراف بأنه، مهما كان الظرف الذي لاقى فيه الشيخ بوتسو الموت، فمن المحتمل جدا انه لاقى حتفه بينما كان يذكر اسم الرب عبثا:

فالتجديف عادة سيئة تؤخذ عن الفلاحين والأسياد الذين يعيشون في أرياف «مونفيراتو» يعتبرون من قبيل احتقار الغير، ان يتكلموا أمام أندادهم، كما يتكلم فلاحوهم.

وختم المعرّف قائلا: «انظر يا ابني، إن أباك مات بينما كان يقوم بإحدى تلك الأعمال الكبيرة والنبيلة التي يقولون ان المرء يدخل من أجلها فردوس الأبطال. الآن، حتى وإن كنت لا أؤمن بوجود فردوس مثل هذا، وأعتقد انه في ملكوت السماء يعيش في انسجام مقدس شحاذون وملوك، أبطال وجبناء، من المؤكد ان الإله في طيبته لم يرفض أباك في ملكوته فقط لأن لسانه زلق بينما كان مشغولا بمهمة صعبة، بل وأجرؤ على القول انه في مثل تلك الحالات حتى مثل ذلك الهتاف يمكن ان يكون طريقة لدعوة الله ان يكون شاهدا وحكما على ذلك العمل العظيم. وإن كان هذا الأمر يزعجك حقا، فعليك ان تصلي ترحما على روح أبيك وأقم من حين لآخر قداسا، لا لحث الإله ان يغير من حكمه لأنه ليس راية تتحول حسب أهواء المتزمتين، بل ليشمل الخير روحك».

وحدثه عندئذ روبارتو عن الأقوال المتمردة التي سمعها من صديق له، ففتح الكاهن ذراعيه بتأسف وقال: «إنني يا بنيّ أعرف القليل عن باريس، ولكن ما سمعته عنها جعلني عالما بما يوجد في تلك ال«سدوم» الجديدة من طائشين، وطماعين، ومارقين، وجواسيس، وأهل خداع. ومن بينهم تجد من يشهد بالزور، ومن يسرق حقق القربان في الكنائس، ومن يدوس الصليب المقدس، وأولئك الذين يعطون النقود للشحاذين لحثهم على الكفر بالله، وحتى الذين يعمّدون الكلاب استهزاء بالدين... ويسمّون ذلك تجاوبا مع موضة العصر. ولم يعد الناس يؤمون الكنائس للصلاة، بل للهو وللاختباء وراء الأعمدة لإغواء السيدات، والضجيج متواصل حتى عند اقامة القداس، يدّعون الفلسفة ويلاحقونك بالأسئلة الخبيثة، لماذا أعطى الإله الشرائع للعالم؟، لماذا

يمنع الزنا؟، لماذا تجسّد المسيح؟، ويستعملون كل واحدة من أجوبتك لتحويلها إلى حجّة إلحاد. هي ذي عقول العصر النيرّة: ابيقوريون، بيرونيّون، ديوجينيون، وفاسقون! وإذن لا تصغ إلى تلك الإغراءات التي يأتي بها الشيطان».

لم يكن روبارتو يكثر في العادة من استعمال حرف البداية المضخم الذي كان كتاب عصره يبالغون في استعماله: ولكنه عندما ينقل اقوال الأب ايمانويل وحكمه كثيرا ما كان يضع حرف بداية مضخما كما لو كان الأب حاضرا لا عن طريق الكتابة فحسب بل وكأنما يتحدث مؤكدا على عظمة تلك الأشياء التي كان يقولها ـ دليل على انه كان رجلا ذا بلاغة في الكلام كبيرة وأخاذة. وفعلا ارتاح روبارتو لكلماته حتى إنه، عندما نهض من كرسي الاعتراف، أراد ان يتمادى قليلا في محادثته. وهكذا عرف انه عيسوي من جهة سافويا وأنه دون شك رجل ذو شأن، بما أنه يقيم في «كزالي» كملاحظ بتفويض من دوق سافويا؛ وليس هذا غريبا في ذلك الوقت عند اقامة حصار.

وكان الأب ايمانويل يقوم بمهمته عن طيب خاطر: فتلك الكآبة الحصارية كانت تسمح له بمواصلة دراساته بصفة مرضية ما كانت ممكنة وسط ملاهي مدينة مثل تورينو. وعندما سأله روبارتو عن أشغاله قال إنه هو أيضا مثل علماء الفلك كان بصدد صنع منظار.

ـ «إنك سمعت دون شك بذلك الفلكي الفلورنسي الذي فسَّر الكون مستعملا المنظار، وهو عبارة عن مكبر للعينين، وبواسطة المنظار رأى ما كانت العين تتصوره فقط. إنني أقدّر جدا استعمال الآلات الميكانيكية لكي نفهم، كما يقال، الكون المنبسط. ولكن لتفهم الكون الثقيل، أو بالأحرى طريقتنا في معرفة عالمنا، ليس بإمكاننا الا ان نستعمل منظارا آخر، نفس ذلك المنظار الذي استعمله ارسطو، والذي ليس أنبوبا ولا عدسة، بل نسيج من كلمات، ورأي ثاقب، لأنه ليس هناك الا هبة الفصاحة المصطنعة التي تمكننا من فهم هذا الكون.»

وأثناء الحديث كان الأب إيمانويل قد قاد روبارتو خارج الكنيسة وبينما كانا يتفسحان صعدا مدارج الأسوار، ووقفا في مكان كان في ذلك الصباح هادئا، بينما كانت اصداء طلقات مدفعية تصلهما من طرف المدينة المقابل. كان يمتدّ أمامهما بعيدا المعسكر الإمبراطوري، ولكن على مساحة كبيرة كانت الحقول خالية من الجنود والعربات، والمروج والهضاب كانت مشرقة تحت الشمس الربيعية.

عند ذلك سأله الأب إيمانويل: «ماذا ترى يابنيّ؟» وأجابه روبارتو، وهو لا يزال قليل الفصاحة: "المروج».

ـ «أكيد، كل انسان بإمكانه ان يرى هنالك مروجا. ولكنك تعلم جيدا انه حسب موقع الشمس، ولون السماء، وساعة النهار والفصل، فهي تبدو لك في أشكال مختلفة وتثير فيك عواطف مختلفة. فالفلاح المتعب من العمل يرى فيها مروجا ولا غير.ويحدث نفس الشيء لصيّاد السمك المتوحّش الذي تفزعه تلك الصور الليلية من النار التي تشقّ السماء فتبهره وترعبه؛ ولكن ما أن يتجرّأ دارسو الشّهب، الذين هم أيضاً شعراء، على تسميتها بشهب مشعّرة، وملتحية ومذنّبة، بالجدي، والمثلثات، والدروع، والشعل والومضات، هذه الصور الكلامية تبيّن لك عبر أي رموز ثاقبة تتكلّم الطبيعة، التي تستعمل هذه الصور مثل طلاسم، ترجع من ناحية إلى صور البروج ومن ناحية أخرى إلى أحداث ماضية أو مقبلة. والمروج؟ انظر كم يمكنك ان تتحدّث عن المروج، وكيف بحديثك عنها تراها أكثر وتفهمها أكثر: يهبّ النسيم، وتنفتح الأرض، وتبكي العنادل، وتتبختر الأشجار المكلّلة بالأوراق، وتكتشف المواهب الرائعة للمروج في تنوّع سلالات حشائشها تسقيها الجداول تترقرق في حبور بريء. المروج الحافلة تتهلّل بفرحة عارمة، وعند طلوع الشمس تفتح وجوهها فترى فيها قوس ابتسامة وتبتهج لعودة الكوكب، ثملة من قبلات الكوكب العذبة، ويرقص الضحك على الأرض نفسها التي تنفتح في حبور صامت، والدفء الصباحي يغدقها بالفرحة حتى انها

تبكي دموعا من ندى. المروج، متوّجة بالأزهار، تستسلم لمواهبها وتكوّن مبالغات ذكيّة من أقواس قزح. ولكن سرعان ما يعرف شبابها انه يسرع نحو الموت، فيتكدّر ضحكها بشحوب مفاجىء، وتفقد السماء الوانها والنسيم الذي يتباطأ يتنهّد فوق أرض واهنة، حتى اذا ظهرت بوادر غضب السماء الشتائي، ذبلت المروج، وجفّت تحت الصبر. هوذا يا ابني: لو قلت ببساطة ان المروج نزهة فأنت لم تفعل الا ان صوّرت لي خضرتها ـ وهو الشيء الذي أعرفه ـ ولكنك لو قلت لي ان المروج ضاحكة فأنت تصوّر لي الأرض كبشر حيّ، وفي المقابل سأتعلّم ان أرى في وجوه البشر كلّ الدرجات اللونية التي التقطتها من المروج... وهذه وظيفة الصورة الممتازة فوق جميع الصور، الإستعارة. إن كانت الموهبة، وإذن المعرفة، تتمثّل في الجمع بين مفاهيم متباعدة وفي ايجاد اوجه شبه بين اشياء لا تتشابه، الإستعارة، هي من بين الصور أحدّها وأغربها، وهي الوحيدة القادرة على خلق العجيب، الذي تنشأ منه المتعة، مثلما يحدث في تغييرات المناظر على المسرح. وإن كانت المتعة التي تعطينا اياها الصور هي أن نتعلّم اشياء جديدة دون تعب وكثيرا من الأشياء في كتاب صغير، فها إن الإستعارة، عندما تحلّق بفكرنا من نوع إلى آخر، تجعلنا نرى من خلال كلمة واحدة أكثر من شيء».

ـ «ولكن ينبغي ان يعرف الإنسان كيف يبتكر الاستعارات، وليس هذا بمتناول ريفي مثلي، كانت المروج طيلة حياته مكانا يصيد فيه الطيور بالحجارة».

ـ «أنت رجل من أصل نبيل، ولم يبق إلا قليل كي تصبح ما يسمونه في باريس رجلا شريفا، بارعا في الجدل بالكلام مثل براعتك في المبارزة بالسيف. وأن تحسن استعمال الاستعارات، وإذن ان ترى العالم متنوعا بصفة خارقة لا تخطر على بال من هو جاهل، فنّ يتعلّمه المرء. لأنه، إن شئت، في هذا العالم الذي فقد فيه الكثيرون صوابهم

أمام الآلات الكثيرة والعجيبة ـ وترى بعضها، للأسف حتى هنا في هذا الحصار ـ أنا أيضا أصنع آلات ارسطوطاليسية، تمكن كل شخص من أن يرى من خلال الكلمات..».

في الأيام الموالية تعرف روبارتو على السيّد ديلاّ ساليتّا، الذي كان الضابط المكلف بالاتصالات بين تواراس وأعيان المدينة. وكان قد بلغ إلى سمعه ان تواراس كان يتشكى من أهالي «كزالي» وأنه كان لا يثق في ولائهم وكان يقول بسخط: «ألا يفهمون أنه حتى في وقت السلم تجد المدينة نفسها في وضعية لا تمكنها من تمرير جندي أو سلّة من الزاد دون أن تطلب الإذن بالمرور من الوزراء الإسبان؟ وأنه دون الحماية الفرنسية ليس بإمكانها ان تضمن لنفسها احترام الآخرين؟» ولكنه الآن علم من السيّد ديلاّ ساليتّا ان «كزالي» لم تشعر بالاطمئنان حتى مع أدواق مانتوفا. وكانت سياسة آل قونزاقا تهدف دائما إلى الحدّ من معارضة الكزاليين، ومنذ ستين سنة عانت المدينة من التنقيص التدريجي من امتيازاتها.

ـ «أفهمت يا سيّد دي لاغريف،» كان ساليتّا يقول «قبل الآن كنا نشتكي من كثرة الأداءات، والآن ها نحن نتحمّل المصاريف لإعاشة الحامية. إننا لا نحب رؤية الإسبان في ديارنا، ولكن هل نحب حقا الفرنسيين؟ أنموت من أجلهم أم من أجلنا نحن؟»

فسأله روبارتو: «إذن من أجل من مات أبي؟» ولكن السيّد ديلاّ ساليتّا لم يجد جوابا لسؤاله.

اشمأزت نفس روبارتو من كل تلك الأحاديث السياسية فعاد بعد بضعة أيام لملاقاة الأب إيمانويل في الدير حيث كان يقيم، وهنالك وجّهوه لا نحو حجرة بل نحو ربع خصص لإقامته تحت قباب رواق يسوده الصمت. ووجده في محادثة مع رجلين نبيلين، كان أحدهما ذا لباس باذخ: كان يلبس ثوبا ارجوانيا مزخرفا ببرندبورية مذهبة، ومعطفا

مزركشا بشرائط ذهبية مبطنا بفرو ذي شعر قصير، وصديرية مكففة بسبيبة حمراء متقاطعة وشريط من الأحجار الصغيرة. وقدمه اليه الأب إيمانويل على انه الفارس دون غسبار دي سالزار، وعلى كل حال من طريقته المتعالية في الكلام ومن هيئة شاربيه وشعره كان روبارتو قد تكهن بأنه من أشراف جيش العدوّ. والرجل الآخر كان السيد ديلاّ ساليتا. وخامر روبارتو لحظة الشك في أنه يجد نفسه في وكر جواسيس، ثم علم، كما أعلم الآن بهذه المناسبة، أن بروتوكول الحصار يسمح لممثل عن الجيش المحاصر بدخول المدينة المحاصرة، قصد القيام باتصالات وبمفاوضات، كما ان السيد ديلاّ ساليتّا يتمتع بحرية الدخول إلى معسكر سبينولا.

وكان الأب إيمانويل يقول انه كان فعلا يتهيأ للكشف لزائريه عن «آلته الأرسطوطاليسية»: وقاد ضيوفه إلى حجرة كان يوجد بها أغرب أثاث يمكن ان يتصوره المرء ـ ولا أدري إن كان باستطاعتي أن أعيد تركيب شكله من خلال الوصف الذي وصفه روبارتو لمولاته، لأنه بكل تأكيد كان شيئا لم يسبق ان رآه من قبل ولا من بعد.

كانت القاعدة السفلى متكونة من صندوق ينفتح على واجهته، في شكل رقعة شطرنج، واحد وثمانون درجاً، تسعة صفوف أفقية على تسعة عمودية، كل صفّ في كلتا الجهتين يحمل حرفا محفورا (BCDEFGHIK). على سطح الصندوق كان يوجد على اليسار مقرأ وضع عليه كتاب كبير، مخطوط وبحروف تاجيّة ملوّنة. على يمين المقرأ، كانت هناك ثلاث اسطوانات معلّبة احداها في الأخرى، ينقص طولها بقدر ما يزيد عرضها (اقصرها هي اكبرها اتساعا، مجعولة لتحمل الاثنين الأكثر طولا)، بشكل يجعل مدوّرة مركزة على الجانب تديرها بقصور ذاتي احداها داخل الأخرى بسرعة تناسب الوزن. وكانت كل اسطوانة تحمل على الحاشية اليسارية نفس الحروف التسعة المحفورة على الأدراج. يكفي أن تشغّل المدوّرة حتى تتحرك الأسطوانات بصفة

مستقلّة، وعندما تتوقف يمكن ان نقرأ ثلاثيات من حروف جمعتها الصدفة، مثل CBD، KFE أو BGH.

وأخذ الأب إيمانويل يفسّر الفكرة التي ترتكز عليها آلته:

«كما يعلّمنا الفيلسوف، ليس العقل الاّ القدرة على النفاذ إلى الأشياء تحت عشرة اصناف، وهي الماهية، والكميّة، والصفة، والعلاقة، والحركة، والعاطفة، والموقع، والزمان، والمكان، والمظهر. والماهيات هي الموضوع نفسه لكلّ التماع وبخصوصها ينبغي ان نشدو بمشابهاتها الأريبة. مهما كانت الماهيات، فذلك ما سجّلته في هذا الكتاب تحت حرف A، وقد لا تكفي حياتي كلّها لوضع قائمة منها كاملة. مهما يكن من أمر فقد تمكّنت من جمع بضعة آلاف منها استمددتها من كتب الشعراء والعلماء، ومن هذا السجلّ العظيم الذي هو مصنع العالم للتلميذ. لذا من بين الماهيات نضع تحت الرب العظيم، الأشخاص الإلهيين، والأفكار، والآلهات الأسطورية، الكبيرة، والمتوسّطة والصغيرة، والآلهات السماوية، والهوائية والبحرية والأرضية والجهنمية، والأبطال المتألّهين، والملائكة، والشياطين، والقطارب، والسماء والنجوم السابحة، والعلامات السماوية والمجموعات الكوكبية، والبروج، والدوائر والكرات، والعناصر، والأبخرة، والروائح، ثمّ ـ وحتّى لا اذكرها جميعها ـ النيران التحتية والشرارات، والشهب، والبحار، والأنهار، والعيون والبحيرات والصخور... وهكذا دواليك من خلال الماهيات الاصطناعية، مع مصنوعات كلّ الفنون، والكتب، والأقلام، والحبر، والكرات، والفراجير، والزوايا، والقصور، والمعابد والأكواخ، والدروع، والسيوف، والطبول، واللوحات، والفرش، والتماثيل، والفؤوس والمناشير، وأخيرا الماهيات الميتافيزيقية مثل الجنس، والنوع، والخصوصيّ والعارض وما يشابهها من مفاهيم».

كان الأب يشير إلى أدراج صندوقه، وكان يفتحها ليظهر كيف ان كلّ درج منها يحتوي على ورقات مربعة من الرقّ الخشن جداً، من

ذلك الذي يستعمل لتجليد الكتب، مرصّفة حسب النظام الأبجدي: «كما تعرفون، كل صفّ عمودي يعود، من B إلى K، إلى واحد من الأصناف التسعة، وبالنسبة لكل صنف منها كل واحد من الأدراج الستّة يجمع عائلات من أعضاء. على سبيل المثال، بخصوص الكميّة نسجّل عائلة كميّة الأحجام، التي من أعضائها الصغير، والكبير، والطويل والقصير؛ أو عائلة الكميّة العددية، التي من اعضائها اللاشيء، والواحد، والاثنان وما يتبع، أو كثير وقليل. أو تحت صنف الصفة تجد عائلة الصفات المتعلّقة بالرؤية، مثل المرئي واللامرئي، والجميل، والدميم، والنيّر والمعتم؛ أو المتعلّقة بالشمّ، مثل الرائحة الفائحة والنتنة؛ أو صفات العواطف، مثل الفرح والحزن. ويمكن قول نفس الشيء بخصوص كل صنف. وكلّ ورقة تسجّل عضوا، وبخصوص ذلك العضو اسجّل جميع الأشياء المتعلّقة به. هل هذا واضح؟»

وأجاب الجميع بالإيجاب معجبين، وواصل الأب قائلا: «لنفتح الآن كما اتفق كتاب الماهيات الكبير، ولنبحث فيه عن واحدة مهما كانت... هوذا، قزم. ماذا يمكن أن نقول، قبل ان نتحدّث في ذلك بصفة ثاقبة، عن القزم؟

«Que es pequeno، صغير، petit»، أوعز دون غسبار دي سالزار، «y que es feo, y infeliz, y ridiculo...».

فاعترف الأب ايمانويل قائلا، «فعلا، ولكنني لا أعرف ماذا أختار، وإنني متأكد انه لو كان عليّ أن أتحدّث لا عن قزم بل، لنقل عن المرجان، هل سيمكنني ان أجد حالا خصوصيات في مثل هذا البروز؟ ثم، القصر له علاقة بالكميّة، والدمامة بالصفة، من اين ينبغي أن أبدأ؟ كلاّ، من الأفضل ان اعهد بذلك إلى الحظ، الذي خدمه هي اسطواناتي. الآن سأجعلها تدور وأحصل، كما يحصل بالصدفة الآن، على الثلاثية BBB. حرف B في الموقع الأول هي الكميّة، B في الموضع الثاني تحملني إلى البحث، في خط الكميّة، داخل درج

الحجم، وهنا، فعلا في بداية الأشياء B، أجد صغير. وفي هذه الورقة المخصّصة إلى «صغير» أجد ان الصغير هو الملاك، الذي تحتويه نقطة، والقطب، الذي هو نقطة ثابتة في الكرة، ومن بين الأشياء الأولية الشرارة، وقطرة الماء وسكروبل من حجرة، والذرّة، التي حسب ديمقريطس، يتكوّن منها كلّ شيء؛ بخصوص الأشياء الإنسانية، نجد الجنين، والمقلة، والكعب؛ بالنسبة للحيوان النملة والبرغوث، وبالنسبة للنبات الشجن، وحبّة الخردل وفتاتة الخبز؛ وبالنسبة للعلوم الرياضية النهاية الصغرى، وحرف I، والكتاب المجلّد في حجم السادس من العشر، أو درهم العطّار؛ وبالنسبة للهندسة علبة الجواهر أو المحور، أو بالنسبة للخرافات بسيكاباكس جنرال الفئران ضدّ الضفادع والميرميديون المولودون من النمل...ولكن لنكتف بهذا، اذ يمكنني ان اسميّ قزمنا علبة الطبيعة، رضّاعة الأطفال، فتاتا من انسان. مع الملاحظة أنه لو ادرنا من جديد الإسطوانات لتحصّلنا على العكس، مثلا هوذا، CBF، الحرف C يرجعني إلى الصفّة، والحرف B يوعز لي ان أبحث عن الأعضاء في الدرج الذي يخصّ الرؤية، وهنا يجعلني الحرف F التقي كعضو بالكائن اللامرئي. ومن بين الأشياء اللامرئية أجد، يا للصدفة الرائعة، الذرّة، والنقطة، اللتين تمكّنانني منذ الآن ان اصف قزمي على أنه ذرّة من انسان، أو نقطة من لحم».

كان الأب ايمانويل يدير اسطواناته ويورّق في أدراجه سريعا مثل لاعب الخفّة، ممّا يجعل الإستعارات تخرج كأنما بفاعل السحر دون ان نشعر بلهث الآلة التي كانت تنتجها. ولكنه لم يكن راضيا. وواصل قائلا:

«ايها السّادة، ان الإستعارة الذكية يجب ان تكون اكثر تعقيدا بكثير. كلّ الأشياء التي عثرت عليها يجب ان تحلّل بدورها حسب الأصناف العشرة التي ذكرناها، وكما يفسّر كتابي، لو كان علينا ان نتمعّن في شيء ينتمي إلى الصفة، يجب ان نرى ان كان مرئيّا، وعلى كم مسافة،

إلى أي حدّ هو جميل أو دميم، وما هو لونه؛ كيف صوته، وكيف رائحته، وكيف طعمه؛ إن كان محسوسا أو ملموسا، ان كان نادرا أو كثيفا، حارّا أم باردا، ومن أي صورة، وعاطفة، وهوى، وفنّ، وعلم، وصحّة، ومرض ؛ وإن كان من الممكن صنع علم بخصوصه. وأسمّي جميع هذه الأسئلة جزيئات. الآن أعرف ان محاولتنا الأولى قادتنا إلى العمل حول صفة الكميّة، التي تحتوي من بين أعضائها على صفة الصغير. الآن سأدير من جديد الإسطوانات، وأتحصّل على الثلاثية BKD. الحرف B، الذي كنّا قد قرّرنا انه يرجع إلى الكميّة، وإن أنا رجعت إلى كتابي لقال لي ان الجزيئة الأولى هي تحديد بأيّ شيء يجب قياسه. لو بحثت في الكتاب إلى ماذا يرجع القياس، لأعادني من جديد إلى درج الكميّة، تحت عائلة الكميّات بصفة عامّة. أعود إلى ورقة القياس وأختار منها الشيء K، الذي هو قياس الإصبع الهندسي. وهنا أنا استطيع الآن ان أكوّن تعريفا ثاقبا، مثل انني لو أردت أن اقيس رضّاعة الأطفال تلك، تلك الذّرة من انسان، لكان الإصبع الهندسي قياسا مفرطا، يقول لي الكثير، مضيفا إلى الإستعارة المبالغة أيضاً، في سوء حظّ القزم وهيئته المضحكة.

فقال السيّد ديلاّ ساليتّا «يا للروعة، ولكنك من الثلاثية الثانية التي تحصّلت عليها لم تستعمل بعد الحرف الأخير، حرف D»..

«لست انتظر اقلّ من هذا من فكر مثل فكرك، يا سيّدي»، أجاب الأب ايمانويل وعليه علامات الرضى، «ولكنك وضعت اصبعك على النقطة الرائعة في نظامي! إن هذا الحرف الذي تبقّى (والذي بإمكاني ان القي به لو سئمت، أو اعتبرت انني بلغت مرامي)، هو الذي يسمح لي بأن أواصل بحثي! هذا الحرف D يسمح لي بأن ابدأ من جديد مرحلة الجزيئات وتحملني إلى البحث في صنف المظهر (على سبيل المثال، أي مظهر يليق به، أو يمكن ان يكون رمزا لشيء ما)، ومن هنالك اواصل، مثلما فعلت مع الكميّة، فأدير وأدير الإسطوانات، مستعملا

الحرفين الأولين محتفظا بالحرف الثالث لمحاولة جديدة، وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية له، للحصول على الملايين من التركيبات المحتملة، حتى وإن بدا بعضها ثاقبا اكثر من الآخر، وسيكون لعقلي الحكم أيّها تكون أقدر من غيرها على إحداث الإعجاب. ولكنني لا أريد ان أكذب عليكم، يا حضرات السادة، لم أختر القزم عرضا: هذه الليلة بالذات تمرّنت بكثير من الدقّة على استمداد اكثر ما يمكن من هذه المادّة».

ولوّح بورقة وأخذ يقرأ سلسلة التعريفات التي كان يدفن تحتها قزمه المسكين، رجل صغير أقصر من اسمه، مضغة، شظية من مسخ، حتى ان الذرّات التي تنفذ مع النور من النافذة تبدو اكبر منه بكثير، جسم مع الملايين من أمثاله يشير إلى الساعة في حلق ساعة رملية، تركيبة يجد القدم فيها نفسه قريبا من الرأس، جزء من لحم يبدأ من حيث ينتهي، خطّ يتكتّل في نقطة، طرف ابرة، شخص ينبغي التحدّث اليه بهدوء لئلاّ يطيره النفس بعيدا، مادّة هي من الصغر حتى انها لا تملك لونا، شرارة من خردل، جسيم لا يملك أكثر ولا أقلّ ممّا كان له أبدا، مادّة دون شكل، شكل دون مادّة، جسم دون جسم، كنه بحت من عقل، ابتداع من الفكر منيع بقدر مناعته لصغر حجمه الذي يحميه من كلّ الضربات، بمقدوره ان يهرب عبر شقّ وأن يتغذّى عاما كاملا بحبّة واحدة من الشعير، موجز إلى حدّ انك لا تعرف ان كان جالساً، ام راقدا أم واقفا، يمكن ان يغرق في فوقعة حلزون، بذر، حبّة، عنبة، نقطة على i، فرد رياضي، لا شيء حسابي...

وكان سيواصل، لكثرة ما كان لديه من مادّة، لولا ان الحاضرين أوقفوه بتصفيقة .

10

جغرافيا وهيدروغرافيا مقوّمة

فهم روبارتو الآن ان الأب إيمانويل كان في الواقع يتصرف كما لو كان من أتباع ديمقريطس وأبيقور: كان يجمع ذرات من مفاهيم ويركبها في أشكال مختلفة لتكوين أشياء عديدة. وكما أن القسّ يؤكد ان عالما متكونا من ذرات لا يتناقض مع فكرة وجود اله ينظمه حسب العقل، كان الأب ايمانويل يقبل من الذرور من التصورات فقط التركيبات الذكية. ربما فعل الشيء نفسه لو كرس جهده لخلق مشاهد للمسرح: ألا يستمد المسرحيون فعلا أحداثا غريبة وطريفة من شتات أحداث واقعية ولكنها دون ذوق، لإمتاعنا بوقائع لامعقولة وغير منتظرة.

وإن كان الأمر هكذا، ألا تكون تلك الظروف التي خلقها وغرقه في البحر والحالة التي يجد فيها نفسه على متن دافني ـ كل تلك الأحداث الصغيرة التي هي محتملة مثل رائحة العفونة وصرير هيكل السفينة، ورائحة النباتات، وأصوات الطيور ـ جميع ذلك يساهم في خلق انطباع حول حضور لم يكن سوى نتيجة استشباح لا يبصره الا الذهن، كضحك المروج أو دموع الطلّ؟ إذن، كان شبح الدخيل المختفي متكونا من ذرات أحداث، مثل الشقيق المفقود، كلاهما متكون من أشلاء صورته نفسها ورغباته وأفكاره.

وفعلا بينما كان يسمع صوت رذاذ خفيف يسقط على النوافذ

مخففا من حرّ تلك العشية، كان يقول لنفسه: هل من الطبيعي أن أكون أنا، لا آخر، من يصعد فوق هذه السفينة كالمتطفل، ويقطع هذا الصمت بصدى خطواته، وها إني، ربما من خوفي ان أكون انتهكت حرم آخرين، صنعت من نفسي شخصا آخر يطوف تحت نفس الألواح. ما هي الأدلّة التي تثبت ان هناك شخصا آخر؟ بعض القطرات من الماء فوق الأوراق؟ ألا يمكن، كما هو الحال الآن، ان تكون قد أمطرت ولو قليلا في الليلة الماضية؟ والحبوب؟ ألا يمكن ان تكون الطيور قد حركت تلك الموجودة، فبدا لي ان احدهم رمى اليها بأخرى؟ ونقصان البيض؟ ولكن ألم أر بالأمس صقرا يلتهم فأرا طائرا! إنني أتوهم سكانا في قاع السفينة حيث لم أدخل بعد، وأفعل ذلك ربما لأطمئن نفسي، بما انه يذعرني ان أجد نفسي مهجورا وحيدا بين الماء والسماء. يا سيّد دي لاغريف، كان يعيد بينه وبين نفسه، إنك وحيد وربما ستبقى وحيدا إلى آخر يوم في حياتك، وقد تكون هذه النهاية وشيكة: المؤونة فوق السفينة وافرة، ولكنها تكفي لبضعة أسابيع لا لأشهر. وإذن اذهب وضع فوق سطح السفينة بعض الأواني لجمع أكثر ما يمكن من ماء المطر، وتعلم صيد السمك من فوق الحاجز، متحملا سطوة الشمس. وعليك في يوم من الأيام ان تجد طريقة للوصول إلى الجزيرة، لتعيش عليها ساكنا وحيدا. يجب أن تفكر في كل هذا لا أن تشغل بالك بحكايات متطفلين وأشقاء مفقودين.

جمع بعض البراميل الفارغة ورصفها فوق السطح، متحمّلا ضوء النهار الذي كان ينفذ من خلال السحب. وتفطن عند قيامه بهذه العملية إلى انه كان لا يزال واهنا. ثم نزل من جديد وأضاف الأكل للحيوانات (ربما لكي لا يترك الفرصة لغيره للقيام بذلك)، وعدل مرة أخرى عن النزول إلى الجزء السفلي من السفينة. دخل إلى حجرته وقضى بضع ساعات مستلقيا بينما كانت الأمطار لا تؤذن بالكفّ. ونفخت هبات من الريح، ولأول مرة تفطن إلى أنه فوق دار عائمة، تتحرك كما لو كانت

دوحا، بينما كانت الأبوابِ في انفتاحها وانغلاقها تضفي حياة على ذلك الحجر اللوحي.

وأعجبته هذه الصورة الأخيرة وتساءل كيف يمكن أن يقرأ الأب ايمانويل السفينة كمنبع لرموز غامضة. ثم فكر في الجزيرة وعرّفها على أنها قرب منيع. وبينت له هذه الصورة الجميلة، للمرة الثانية في ذلك اليوم، الشبه المختلف بين الجزيرة وحبيبته، وسهر حتى الليل وهو يكتب اليها الأشياء التي أذكرها في هذا الباب.

تأرجحت دافني طول الليل، وهدأ اهتزازها، مع هدوء الأمواج في الخليج، في الصباح الباكر. وأبصر روبارتو من النافذة علامات فجر بارد ولكنه صاف. وتذكر «مضخم العينين» الذي عاود ذكرياته في اليوم السابق، فقال لنفسه إنه بإمكانه أن يشاهد الساحل بالمنظار الذي رآه في الحجرة المجاورة: حافة العدسة والمشهد المحدود سيخففان من انعكاس نور الشمس.

ركّز إذن الأداة على حافة نافذة في الرواق وحدّق بكل جرأة في حدود الجون القصوى. وبدت له الجزيرة واضحة، تغطي قمّتها كبّة من الصوف الأبيض. وكما سبق ان عرف على متن أماريلّي، جزر المحيط تشدّ الرطوبة التي تدفعها الصابيات وتكثفها لتجعل منها كبّات سحابية، حتى أنه غالبا ما يتعرف البحارة على وجود جزيرة قبل ان تلوح لهم سواحلها، من هبات ذلك العنصر الهوائي المشدود اليها وكأنه راسٍ في مرافئها.

وكان قد حدّثه الدكتور بيرد عن الصابيات ـ وكان يسميها Trade-Winds، ولكن الفرنسيين كانوا يدعونها : alisées فوق تلك البحار توجد الرياح الشديدة التي تحكم في الأعاصير والنواسم، ولكن الصابيات تهزأ بها، لأنها رياح متقلبة، حتى ان الخرائط ترسم تجوالها في شكل رقصة من الخطوط المقوسة والتيارات، أو في شكل دوّارات حالمة وانعطافات

رقيقة. إنها تتسلّل في تيار الرياح الشديدة فتشوش مسارها، وتخترقها ميلاً، وتشبك فيها تيارات. إنها عظايا تنساب عبر دروب غير متوقعة، تتلاقى وتتفادى دورا بدور، كما لو أن في «بحر النقيض» كانت تصلح فقط قوانين الفن دون نواميس الطبيعة. لها صورة الأشياء المصطنعة وتأخذ شكلها لا من التنظيم المنسجم الذي يحكم الأشياء الآتية من الأرض والسماء، مثل الثلج أو البلّور، بل من الطيّات الحلزونية التي يمليها المهندسون على القباب وتيجان الأعمدة.

وفعلا خامر روبارتو الشك ان ذلك البحر ليس الا بحر الخدعة، وهذا ما يفسر له كيف ان الكسموغرافيين تصوروا دائما هنالك كائنات تناقض نواميس الطبيعة، كأن تسير وسيقانها إلى أعلى.

والفنانون الذين كانوا يصنعون في بلاطات اوروبا مغارات مرصعة باللازورد وفيها نافورات تحركها مضخات خفية، لم يوحوا إلى الطبيعة في خلقها لأراضي هذه البحار؛ كما أن طبيعة «القطب المجهول» لم تلهم اولئك الفنانين. ذلك ان الفن والطبيعة على حدّ السواء، كان يقول روبارتو في نفسه، يميلان إلى الإبداع، وهكذا تفعل أيضاً الذرات عندما تتكتّل طورا على نحو وطورا على نحو آخر. أهناك أعجوبة أكثر اصطناعا من السلحفاة، من عمل جواهري خلقها منذ آلاف وآلاف سنين مضت، درع أخيل نقش بصبر طويل يسجن بداخله ثعبانا له أرجل؟

عندنا، يقولون، ما هو نباتي له رقة الورقة بتعاريقها ورقّة الزهرة التي تعيش مدى صبيحة، بينما النباتي هنا يبدو جلداً، مادة غليظة وزيتية، حراشف جعلت لمقاومة أشعة الشمس الضارية. كل ورقة ـ في هذه الأراضي التي دون شك لا يعرف فيها الأهالي المتوحشون فن المعادن والخزف ـ يمكن ان تصبح أداة، موسى، كأسا، ملعقة، وحيث ترى أوراق الأزهار كما لو طليت بالبرنيق. كل ما هو نباتي تجده هنا قويا، وتجد ضعيفا جميع ما هو حيواني، حسب ما يظهر من الطيور

التي شاهدتها، كأنها صبّت من البلّور ذي الألوان المختلفة، بينما عندنا الحيواني هو قوة الحصان أو صلابة الثور البليدة...

والغلال؟ عندنا ثمرة التفاحة، بلونها الموحي بالصحة، تشير إلى طعمها الصديق، بينما لون الفقاع الشاحب يدلنا على سمّها. ولكن هنا، ورأيت ذلك بالأمس، وأثناء رحلة أماريلّي، تستهويك لعبة النقائض الطريفة: الأبيض الجنائزي يؤكد لذة الغلة المفعمة بالحياة بينما الغلال ذات الألوان الزاهية يمكن أن تحوي شرابا مميتا.

من خلال المنظار كان يتفحص الساحل ويشاهد بين الأرض والبحر تلك الجذور المتسلّقة التي تبدو وكأنها تقفز نحو فضاءات السماء، وعراجن من الغلال المستطيلة التي تكشف نضجها العسلي وهي تبدو عنبية فجّة. وتعرَّف في نخلات أخرى على جوز أصفر اللون مثل بطيخ الصيف، بينما كان يعرف جيدا انها لن تشدو بنضجها الا عندما يصير لونها في لون التراب الميت.

إذن لكي يعيش في هذا العالم الأرضي الآخر ـ وكان عليه ان يتذكر ذلك، إن أراد ان يتصالح مع الطبيعة ـ ينبغي ان يعمل بنقيض ما تمليه عليه غريزته، بما أن الغريزة هي ربما التعرّف من جديد على أولئك العمالقة الأوائل الذين حاولوا ان يتأقلموا مع طبيعة الجزء الآخر من الأرض وبما انهم كانوا يظنون ان الطبيعة الأكثر طبيعية هي تلك التي تكيفوا معها، كانوا يفكرون فيها كما لو انها نشأت لتتكيّف معهم. لذا ظنوا ان الشمس صغيرة الحجم لأنها هكذا تبدو لهم، وان بعض النباتات عظيمة لأنهم ينظرون اليها وعيونهم مثبتة على الأرض.

الحياة في المتقاطرات تعني إذن اعادة صنع الغريزة، وان يجعل من الشيء العجيب طبيعة ومن الطبيعة شيئا عجيبا، وأن يكتشف كم ان العالم غير مستقرّ، وكيف أنه في نصفه الأول يتبع نواميس معيّنة وفي النصف الآخر نواميس معاكسة .

كان يسمع من جديد استفاقة الطيور، هنالك على الجزيرة، وخلافا لليوم الأول، تفطن إلى مدى تفنّن ذلك الشدو، بالمقارنة مع الزقزقة التي تعوّد عليها في بلاده: فهي قرقرات وتصفير وغليان وشقشقة وقرقعة ألسنة، وعواء، وطلقات ضعيفة، وسلالم ملونة من الطقطقات، وأحيانا تسمع معها شبه نقنقة ضفادع مختفية بين أوراق الشجر، في حوار هوميري متواصل.

وكان المنظار يمكّنه من مشاهدة مغازل وكرات من الريش، ورعشات سوداء أو في الوان غير بيّنة، تسقط من أعالي الأشجار نحو الأرض وكأن كلاها «ايكار» مجنون يسارع إلى هلاكه. وفجأة بدا له ان شجرة، ربما شجرة من النارنج الصيني، أطلقت في الهواء أحد ثمارها، كرة زعفرانية متألقة، خرجت سريعا من حدقة المنظار. أقنع نفسه انها نتيجة انعكاس ولم يشغل باله بذلك، أو على الأقل هذا ما ذهب بظنه. سنرى من بعد، كيف انه بخصوص الأفكار الغامضة، كان سان سافان على حق.

وخطر بباله ان تلك الكائنات المجنحة ذات الطبيعة اللاطبيعية ترمز إلى المجتمعات الباريسية التي تركها منذ شهور عديدة: في ذلك الكون الخالي من البشر، حيث الكائنات الحية الوحيدة، ودون شك الكائنات الناطقة الوحيدة هي الطيور، كان يجد نفسه وكأنه في ذلك الصالون، حيث عند دخوله أول مرة لم يلتقط سمعه سوى لغط مبهم في لغة مجهولة، كان يتذوق طعمها بحياء ـ حتى وإن هو، حسب رأيي، تشرّب في نهاية الأمر من علم ذلك الطعام، والاّ ما استطاع أن يتحدّث عنه كما يفعل الآن. ولكنه، تذكر انه لاقى هناك مولاته ـ واذن لو كان هناك مكان أعلى من كلّ الأمكنة الأخرى فهو ذلك المكان لا هذا ـ واستنتج انه لا تحاكى هنالك طيور الجزيرة، ولكن هنا على الجزيرة تحاول الحيوانات ان تحاكي لغة الطيور البشرية.

وبينما كان يفكر في حبيبته وفي بعدها عنه، الذي شبهه في اليوم

الفائت ببعد تلك الأرض المتعذّرة المنال نحو الغرب، عاد إلى مشاهدة الجزيرة، التي كان المنظار يكشف له منها فقط عن ملامح محدودة وشاحبة، ولكن كما يحدث للصور التي تشاهد في المرايا المحدبة التي عندما تعكس جانبا فقط من حجرة صغيرة، توحي بكون كروي لانهائي ومدهش.

كيف ستبدو له الجزيرة لو وطئها ذات يوم؟ من خلال المشهد الذي كان يراه من شرفته، ومن العينات التي وجدها في السفينة، ربما كانت جنة عدن التي تجري انهارها بالحليب والعسل، وسط غدق من الثمار والحيوانات الوديعة؟ علامَ كانوا يبحثون في تلك الجزر في الجنوب المعاكس اولئك الجسورين الذين يبحرون مجابهين أنواء محيط خادع الهدوء؟ أليس هذا ما كان يريده الكاردينال عندما أرسله في مهمّة ليكشف سرّ أماريلّي، إمكانية ان يحمل زنابق فرنسا فوق أرض مجهولة تجدد أخيرا هبات واد لم تدنسه لا خطيئة بابل، ولا الطوفان الكوني، ولا الخطيئة الآدمية الأولى؟ العنصر البشري فيها دون شك أمين صادق، أسود البشرة ولكنه أبيض القلب، لا يعبأ بجبال الذهب وبالبلاسم التي كانت في حفظه وهو لا يدرك.

وفي هذه الحالة، ألا يجدد هو خطيئة المذنب الأول في محاولته اغتصاب عذرية الجزيرة؟ ربما أرادت حكمة المقادير ان يبقى شاهدا طاهرا على جمال لا ينبغي عليه ابدا ان يدنسه. ألا يكون في هذا أجلى تعبير عن الحب الخالص، كالحب الذي كان يصارح به مولاته، أن يحب عن بعد، عادلا عن مغريات الهيمنة؟ أيكون محبا من تاق إلى الغزو؟ إن كانت الجزيرة تظهر له شيئا واحدا مع المحب، فعليه ان يجلّ الجزيرة قدر اجلاله للحبيب. الغيرة الجنونية نفسها التي تملكته كلما خاف أن ينتهك نظر شخص آخر ذلك المعبد الموصد، لا يجب ان تفهم على انها نزعة لفرض حق من حقوقه، بل على انها إنكار حق الآخر، وعلى انها واجب كان حبه يفرضه عليه كحارس لذلك

الـ«قرال». وكان يحس بنفسه ملزما بنفس الطهارة حيال الجزيرة التي كلما تأكد لديه ثراها بالوعود ألزم نفسه بعدم المسّ منها. بعيد هو عن حبيبته، بعيد أيضا عن الجزيرة، وعن كليهما، كان عليه فقط ان يتحدث، لأنه يريدهما طاهرتين حتى تبقيا طاهرتين، لا تمسهما الا لمسات العناصر. إن كان هناك جمال في مكان ما، فهدفه هو أن يبقى دون هدف.

أهكذا كانت فعلا الجزيرة التي كان يشاهدها؟ ما الذي يحثّه على فك رموزها بهذه الطريقة؟ يعلم الجميع، منذ الرحلات الأولى إلى هذه الجزر التي ترسمها الخرائط على انها اماكن غير محددة، انه يترك فوقها المتمردون واذا بها تصبح سجونا ذات قضبان هوائية، مسجونوها سجناء انفسهم، يعاقب احدهم الآخر. عدم بلوغها، عدم اكتشاف سرها، ليس واجبا، بل حق في الفرار من أهوال لا نهاية لها.

ولكن لا، الحقيقة الوحيدة في الجزيرة هو ان في وسطها تقوم، مغرية بألوانها الشاحبة، «شجرة النسيان»، التي بأكل ثمارها سيمكن لروبارتو ان يجد أخيرا راحة النفس.

النسيان. وهكذا قضى يومه، خاملا في الظاهر، شديد النشاط جاهدا في محو كل شيء. وكما يحدث لمن يريد أن ينسى، كلما اجتهد في بلوغ ذلك كلما توقدت فيه جذوة الذكرى.

كان يحاول ان يطبق جميع التوصيات التي سمع بها. كان يتصور نفسه في حجرة مليئة بأشياء تذكره بشيء ما، خمار سيدة قلبه، الأوراق التي كان يبعث عليها صورتها من خلال شكواه لغيابها، أثاث وزرابي القصر الذي تعرف فيه عليها، وكان يتمثل نفسه وهو يلقي بجميع تلك الأشياء من النافذة، إلى ان تصبح الحجرة (ومع الحجرة فكره) فارغة عارية. كان يبذل عناء كبيرا في حمل تلك الأشياء إلى حافة النافذة، أوان من الخزف، وخزائن، كراسي وشكك، وعكس ما قيل له، كلما زاد

تكدّره في القيام بتلك الأشغال المرهقة، تضاعفت صورة حبيبته، ومن زوايا مختلفة كانت تتبعه وعلى شفتيها ابتسامة ماكرة.

وهكذا، بعد ان قضى يومه يجرّ ويحمل أشياء، لم ينس شيئا. بل العكس. كانت اياما يفكر فيها في ماضيه مركزا أنظاره على المشهد الوحيد الذي كان أمامه، مشهد السفينة دافني، وكانت دافني تتحول إلى "مسرح الذكريات»، كما كان يتصوره معاصروه، كل جزء فيه يذكره بحدث قديم أو جديد من تاريخه: الصاري كان يذكره بوصوله بعد الغرق، عندما فهم انه لن يرى بعد ذلك حبيبته؛ الأشرعة المشدودة، التي من خلالها كان يفكر في فقدان الحبيبة، كانت تذكره بالحبيبة المفقودة؛ الرواق، الذي كان يكتشف منه الجزيرة البعيدة، كان يذكره ببعدها... ولكنه كرس لها الكثير من التأملات مما.يجعل كل زاوية من تلك الدار البحرية، على مدى الوقت الذي سيقضيه فيها، تذكره لحظة بلحظة بكل ما كان يريد نسيانه.

وتأكد له ذلك عندما خرج على سطح السفينة، للترويح عن نفسه مستقبلا هبات الريح. تلك كانت غابته، اين يتمشى كما يتمشى المحبون التعساء في الغابات؛ هي ذي الطبيعة المصطنعة التي تحيط به، أشجار صقلها نجارو «أنفارسا»، وأنهار من الكتان الخام في مهب الريح، ومغارات مجلفطة، ونجوم اسطرلابية. وكما يرى المحب حبيبته في كل زهرة، وفي حفيف أوراق الشجر وفي الدروب، كان هو يرى نفسه يموت عشقا وهو يمسح فوهة مدفع...

ألم يكن الشعراء يمجدون الحبيبة مشبهين شفتيها بالياقوت، وعينيها بالفحم الأسود، ونهديها بالرخام وقلبها بالماس؟ وإذن، هو أيضاً، في سجنه وسط ذلك المنجم من التنوب المتحجرّ - ستشتعل نفسه فقط بالأشواق المعدنية، وستبدو له الحبال ذات الخواتم من العقد جدائل حبيبته، والمسامير اللامعة عينيها المنسيتين، وصفّ المزاريب أسنانها التي تقطر لعابا فائحا، والملفاف ذو البكرات جيدها المحلى

بقلائد القنّب، وسيجد سلام النفس في توهمه انه عشق عمل صانع آليات.

ثم ندم على معاملته الشديدة في تصور شدتها، وقال لنفسه انه عندما يحجّر ملامحها انما يحجّر تشوقه ـ بينما كان يريده حيّاً نابضاً ـ وبما ان المساء قد هبط، أدار نظره نحو قبة السماء الفسيحة المنقطة بالمجرات المبهمة. إلا بتأمل الأجرام السماوية سيتمكن من تصور أفكار سماوية تليق بمن حكم عليه، بمشيئة سماوية، ان يحب أسمى مخلوق بشري.

أميرة الغابات، التي في ثوبها الأبيض تضيء الأدغال والحقول، لم تظهر بعد فوق الجزيرة، ملتفة بالأكفان. كانت بقية السماء ملتهبة وواضحة وفي الطرف الجنوبي الغربي، على مستوى سطح البحر وراء الأرض الكبيرة، رأى كتلة من النجوم علّمه الدكتور بيرد ان يتعرف عليها: كانت «صليب الجنوب». ومن شاعر منسي، لقنه معلمه الكرملي عن ظهر قلب بعض اشعاره، تذكر روبارتو رؤيا سحرته في طفولته عن زائر في عوالم ما بعد الموت خرج فعلا فوق ذلك الشاطىء المجهول، ورأى تلك النجوم الأربعة، التي لم يشاهدها أي كان ما عدا أول (وآخر) من سكن الفردوس الأرضي.

11

فن الحذر

أكان يراها لأنه غرق حقيقة عند حدود جنة عدن أم لأنه خرج من بطن السفينة كمن يخرج من قمقم الجحيم؟ ربما كلا الأمرين. غرقه، الذي أعاده إلى مشهد طبيعة مختلفة، انتزعه من «جحيم العالم» الذي ولجه، بعد ان فقد أوهام الطفولة، في أيام «كزالي».

هنالك أيضاً، بعد أن بدأ روبارتو يفهم ان التاريخ انما هو مسرح للأهواء، ولمكائد غامضة يفرضها «داعي المصلحة العليا»، أفهمه سان سافان كيف ان آلة العالم الكبيرة كلها خداع، يحكمها جور الصدف. انتهى منذ بضعة ايام حلم الأعمال البطولية الذي راوده في طور المراهقة، ومع الأب ايمانويل فهم انه ينبغي ان يتحمس للأعمال البطولية - وانه يمكن ان تدفع حياة لا لمقاتلة عملاق بل لتسمية قزم بعدة طرق.

ترك الدير رفقة السيد ديلاّ ساليتا، الذي كان يصاحب بدوره السيد دي سالزار خارج الأسوار. ولبلوغ ما كان سالزار يسميه «Puerta de Estopa» قطعوا جزءا من البرج.

وكان الرجلان النبيلان يثنيان على آلة الأب إيمانويل فسأل روبارتو بسذاجة ما نفع كل ذلك العلم في تقرير مصير حصار.

فأجابه السيد دي سالزار ضاحكا: «يا صديقي الشاب، جميعنا هنا، في خدمة ملوك مختلفين، نعمل من أجل ان تنتهي هذه الحرب بطريقة عادلة ومشرفة. ولكننا لم نعد في زمن يمكن ان يغير فيه مسار القدر بقوة السيف. لقد انتهى الزمن الذي كان فيه النبلاء يخلقون الملوك؛ الآن أصبح الملوك يخلقون النبلاء. في وقت مضى كانت الحياة في البلاط هي انتظار اللحظة التي سيظهر فيها الرجل الشريف نبله في الحرب. الآن، جميع النبلاء الذين تراهم هنالك»، وأشار إلى الخيام الإسبانية، «وهنا»، وأشار إلى المعسكر الفرنسي، «يعيشون هذه الحرب ليتمكنوا بعد ذلك من الرجوع إلى مكانهم الطبيعي، الذي هو البلاط، وفي البلاط، يا صديقي، لم يعد الأشراف يتنافسون لمضاهاة الملك في الفضائل، وإنما للحصول على رضاه. ترى اليوم في مدريد أشرافا لم يستلّوا يوما سيوفهم، ولا يبتعدون عن المدينة، وإن تركوها، لمجابهة غبار المعركة في ساحات المجد، فهي تبقى بين ايدي بورجوازيين اثرياء ونبلاء ذوي مال ودون نسب حتى الملك اصبح الآن يوليهم شأنا كبيرا. لم يبق للمحارب اليوم الا ان يترك البسالة ليتبع الحذر.

فسأله روبارتو «الحذر؟»

عند ذلك دعاه سالزار لمشاهدة السهل. كان الفريقان يتبادلان بعض المناوشات الضعيفة وكان الغبار يرتفع من افواه الأنفاق حيث كانت تقع قذائف المدافع. في الجهة الشمالية الغربية كان الإمبراطوريون يدفعون نقالا: كانت عربة قوية، ذات مناجل كبيرة على جانبيها، تنتهي في مقدمتها بحاجز من أضلاع صنعت من البلوط القوي مدرعة بالحديد المثبت بالمسامير. وكانت تفتح على تلك الواجهة كوّات تبرز منها رماح، وحنشيّات، وقرابينات، وعلى جانب كنت تشاهد المرتزقة محصّنين بداخلها. كانت الآلة الشائكة بالأوتاد في مقدّمتها وبالأمواس على جانبيها، تتقدّم بصرير سلاسلها وتنفث أحيانا أنفاسا من نار من احد أفواهها. لا شكّ في ان العدوّ لن يستعملها في الحال، لأنها كانت

آلة تستخدم تحت الأسوار عندما تكون الألغام قد فرغت من مهمّتها، ولكنهم كانوا دون شكّ أيضاً يعرضونها بقصد بعث الرعب في المحاصرين.

كان سالزار يقول: «أرأيت؟ ستقرر الآلات مصير الحرب أكانت هي عربات مسلحة بالمناجل أم أنفاقا ملغمة. والبعض من رفاقنا الكرام، من كلا الجانبين، من الذين عرّضوا صدورهم للعدو، إن لم يموتوا خطأ، فقصدهم من ذلك ليس الانتصار، بل الحصول على فخر يتباهون به في البلاطات عند عودتهم. ومن كان منهم أكثر شجاعة فسيختار أن يقوم ببعض العمليات الباهرة ولكنه يقيس النسبة بين مقدار المجازفة ومقدار الربح الذي سيعود عليه..».

فقال روبارتو، وهو يتيم بطل لم يقرأ حسابا لشيء، «وأبي...»، فقاطعه سالزار: «أبوك هو فعلا رجل من رجال الأزمنة الغابرة. لا تظنني غير آسف عليه، ولكن أينفع القيام بعمل جسور عندما يصبح التراجع المتبصر أفضل من الهجوم الجريء؟ ألم تر منذ قليل آلة حربية مستعدّة لتقرير مصير حصار أفضل مما يمكن ان تقرّره السيوف؟ ثمّ ألم تترك السيوف منذ عدة سنين مكانها للبندقية؟ نحن لا زلنا نحمل الدروع، ولكن سيتعلّم متسكّع في يوم واحد أن يثقب درع بياردو العظيم».

- «ماذا بقي إذن للرجل الشريف؟»

- «بقيت له الحكمة، يا سيّد دي لاغريف. لم يعد الفوز يحمل لون الشمس، بل بات ينمو على ضوء القمر، ولم يقل أحد ان هذا الكوكب الثاني مستكره لدى خالق جميع الأشياء. وعيسى نفسه أعمل الرأي، وهو في بستان الزياتين، أثناء الليل».

- «ولكنه أخذ بعد ذلك قرارا كأروع ما يكون، ودون احتراس..».

- «ولكننا لسنا مثل ابن الرب، إننا أبناء الدنيا. عندما سينتهي هذا الحصار، إن لم تخطف آلة حربية حياتك، ماذا ستفعل يا سيد دي

لاغريف؟ هل ستعود إلى غاباتك، حيث لن تتوفّر لك فرصة للظهور جديرا بأبيك؟ منذ بضعة ايام وأنت تعيش بين أشراف باريسيين ها إنك تبدو منذ الآن أسير عاداتهم. أنت تريد ان تجرب حظك في المدينة الكبيرة، وتعرف جيدا ان هنالك فقط يمكنك ان تنشر ذلك الإشعاع من الفخر الذي منحتك اياه هذه الأيام وأنت سجين هذه الأسوار. ستبحث أنت أيضا عن الحظ، ويجب ان تكون ماهرا في الحصول عليه. إن أنت تعلمت هنا ان تتفادى رصاصة بندقية، هنالك يجب ان تتعلم كيف تحاذر من الحسد، والغيرة، والطمع، وان تقاوم بنفس الأسلحة منافسيك، أي جميع الآخرين. إذن اصغ اليّ. منذ نصف ساعة وأنت تقاطعني مصرحا بما تعتقد، وبينما تلقي علي أسئلتك تريد ان تظهر لي انني مخطىء. لا تفعل ذلك ابدا، خاصة مع ذوي النفوذ. أحيانا تدفعك الثقة في بعد رأيك وحبك في اظهار الحقيقة إلى نصح من هو أعلى منك مقاما. لا تفعل ذلك ابدا. ان كل فوز يثير الحقد في المغلوب، وان كان ذلك الفوز على حساب وليّ امرك فإما ان يكون ضارا أو أحمق. الأمراء يريدون من يساعدهم لا من يتفوّق عليهم. ولكن يجب ان تكون حذرا أيضاً مع أندادك. لا تذلهم بفضائلك. لا تتحدث ابدا عن نفسك: إما انك ستمدح خصالك، وهذا غرور، أو انك ستثلب نفسك، وهذا حمق. اترك الآخرين يكشفون البعض من خطاياك الطفيفة، وينهشونك بحسدهم دون ضرر بليغ. يجب ان تكون من أهل الكثير وان تبدو مع ذلك من أهل القليل. لا تطمع النعامة في ان تطير في الهواء، لئلا تسقط سقوطا شنيعا: انها تكشف عن جمال ريشها شيئا فشيئا. وبالخصوص، ان كانت لك عواطف، لا تظهرها، مهما بدت لك نبيلة. لا ينبغي ان تفتح للجميع باب قلبك. الصمت المتبصر والحذر هما صندوق الحكمة».

ـ «سيدي، انت تقول لي ان واجب الرجل الشريف الأول هو ان يتعلم كيف يتصنع»!

عند ذلك تدخل السيد ديلا ساليتا مبتسما: «انظر، يا عزيزي روبارتو، لم يقل السيد دي سالزار ان على الحكيم ان يتصنع. إنه يقول لك، إن كان فهمي صحيحا، إنه يجب ان يتعلم كيف يخفي ما بدخيلته. من يتصنع يتظاهر بغير ما هو عليه، من يخفي فهو يخفي ما هو فعلا موجود. إن تباهيت بعمل لم تقم به فأنت تتصنّع. ولكنك ان أبيت الكشف عمّا أنجزت، دون ان يبدو ذلك عليك، فأنت تخفي. واكبر الخصال ان تخفي خصلة. السيد دي سالزار كان يلقنك طريقة متبصرة لتكون فاضلا، أو ان تكون فاضلا باتّباع البصيرة. منذ ان فتح الإنسان الأول عينيه وعرف انه كان عاريا، أعمل فكره لستر عريه حتى عن خالقه: وهكذا نشأت العناية بالتستّر منذ ان نشأ الكون. التكتّم هو مدّ ستار من العتمة الشريفة، لا ينتج منها الزيف ولكنها تعطي بعض الراحة للحقيقة. الوردة تبدو جميلة لأنها تخفي من أول وهلة انها شيء سريع الزوال، ورغم انه يقال عادة عن الجمال الفاني انه لا يبدو شيئا دنيويا، فهي ليست الا جثمانا يخفيه فضل السنّ عليه. في هذه الحياة لا ينبغي ان يكون القلب دائما مفتوحا، والحقائق التي تهمّنا أكثر لا ينبغي أن تكشف كليّا. الكتمان ليس غشا. انها مهارة في اظهار الأشياء خلافا لما هي عليه. وهي مهارة صعبة: كي يتقنها المرء يجب ان لا يتفطن الآخرون إلى مهارته فيها. لو اشتهر أحد بمهارته في فن التقنع، مثل الممثلين، لعرف الجميع انه غير ما يريد ان يبدو. ولكن عن المتكتّمين العظام، الذين عاشوا في السابق ويعيشون اليوم، لا أحد يعرف شيئا».

ثم أضاف السيد دي سالزار: «وألفت نظرك مع ذلك، إلى انني عندما أدعوك إلى التكتم فأنا لا أدعوك إلى البقاء صامتا مثل الأبله. بل العكس. يجب ان تحذق استعمال الكلمة الموحية اكثر من حذقك للكلمة المفصحة ؛ وأن تتعلم ان تتحرك في عالم، يؤثر المظاهر، بكل ما تملك فصاحتك من خفة، وان تنسج كلمات من حرير. ان كانت النبال تنفذ إلى الجسم، فالكلمات تنفذ إلى الروح. ما هو في آلة الأب

إيمانويل فنّ ميكانيكي، اجعل منه أنت طبيعة مغروسة في نفسك.»

فقال روبارتو: «ولكن، يا سيدي، آلة الأب ايمانويل تبدو لي صورة من «العقل»، الذي لا يبحث عن الزهو أو الإغراء، بل يبين ويكشف ترابطا بين الأشياء، ليصبح أداة جديدة لخدمة الحقيقة».

ـ «هذا للفلاسفة. ولكن للحمقى، استعمل «العقل» لإثارة الإعجاب، وستجد منهم الرضا. الناس يحبون من يثير فيهم الإعجاب. لو تقرر مصيرك وكان حظك لا على ساحة المعركة، بل في صالونات البلاط، فسيكون ردّ بليغ في مناقشة اكثر ربحا من هجوم جميل في معركة. الرجل الحصيف، بجملة ذكية يخلص نفسه من كل مأزق، ويحذق استعمال لسانه بخفة الريشة. جلّ الأشياء يمكن شراؤها بالكلام».

عند ذلك قال ساليتا: «سالزار، انهم ينتظرونك عند الباب،». وهكذا انتهى ما كان بالنسبة لروبارتو درسا غير منتظر في الحياة وفي الحكمة. لم يجد في كل ذلك مثالا وعبرة، ولكنه اعترف بالجميل لأستاذيه. لقد شرحا له كثيرا من الأمور الغامضة، لم يسبق في «لا غريف» ان قال له أحد شيئا عنها.

12

أهواء النفس

وفي ذلك الانهيار لجميع أوهامه، سقط روبارتو ضحية هوس غرامي.

الآن أشرف شهر يونيو على نهايته وصار الحرّ شديدا؛ منذ عشرة ايام تقريبا بدأت تذيع الأخبار الأولى حول تفشي الوباء في المعسكر الإسباني. في المدينة بدأ الزاد ينفد، وكانت لا توزع على الجنود أكثر من 14 اوقية من الخبز الأسود، ولا تجد بنتة من الخمر لدى الكزاليين بأقل من 3 فلورينات، أي ما يعادل 12 نقدا ملكيا. وتوالت زيارات سالزار إلى المدينة وساليتا إلى المعسكر للتباحث بخصوص فداء الضباط الذين اسروا من الجانبين اثناء المواجهات، والذين كان عليهم ان يتعهدوا بعدم المشاركة في أي قتال بعد ذلك. وعاد الحديث من جديد بخصوص ذلك القائد مزاريني الذي كان صيته ينتشر يوما بعد يوم في المحافل الدبلوماسية، والذي عهد اليه البابا بإجراء المفاوضات.

ما عدا ذلك، بعض الأمل، بعض الهجمات،ولعبة متواصلة بين الطرفين لتدمير الأنفاق، هكذا كان يتواصل ذلك الحصار الخامل.

في انتظار المفاوضات، أو وصول فرق العون، هدأت حمّى العداوة في النفوس. وبعض الكزاليين قرروا الخروج وراء الأسوار

لحصاد القمح من تلك الحقول التي نجت من العربات ومن الخيول، غير آبهين بتلك الطلقات الواهنة التي كان الإسبان يطلقونها من بعيد. ولكنهم لم يكونوا جميعهم عزّلاً من السلاح: فقد شاهد روبارتو فلاحة طويلة القامة صهباء كانت من حين لآخر تتوقف عن العمل بالمنجل، وتنحني بين السنابل، ثم ترفع بندقية وتسددها كأنها جندي مجرب مركزة اياها على وجنتها المحمرة وتطلق النار في اتجاه المشاكسين. والإسبان الذين كدرتهم طلقات تلك «السيراس» المحاربة، ردوا بالمثل، وإحدى الطلقات أصابتها جانبيا في احد ساعديها. فها هي تتقهقر والدم يسيل من الجرح، ولكنها لم تكف عن شحن البندقية وإطلاق النار، صائحة ببعض الشتائم نحو العدو. وعندما أصبحت تحت الأسوار، صاح بها بعض الإسبان: «Puta de los franceses!» فأجابتهم قائلة: «Si, a sun la putan'na dei frances, ma ad vui no !»(*).

تلك الصورة العذرية، تلك الخلاصة من الجمال الخصيب والغليان الحربي، اضافة إلى تلك اللمسة من الفحش التي ندت من شتمتها وزادت من انوثتها الحيوانية، أذكت حواس المراهق.

ذلك اليوم جاب شوارع «كزالي» ليجدد تلك الرؤيا؛ وسأل بعض الفلاحين فعرف ان الفتاة تدعى، حسب البعض، آنّا ماريا نوفاريزي، وحسب البعض الآخر، فرانشسكا، وفي احدى الحانات قالوا له ان لها من السن عشرين سنة، وهي آتية من الريف ولها علاقة مع احد الجنود الفرنسيين «L'e' brava la Francesca, se l'e' brava,». كانوا يقولون وعلى وجوههم ابتسامة من يعرف كل شيء، وأذكى ذلك من رغبة روبارتو لما كانت تضفيه على الحبيبة كل تلك الإشارات الإباحية.

* ـ يا عاهرة الفرنسيين.

ـ نعم، أنا عاهرة الفرنسيين، ولكنني لست عاهرتكم.

بعد ذلك ببضع ليال، كان مارا أمام دار فلحظها في غرفة معتمة

على المستوى الأرضي. كانت جالسة قرب النافذة تستقبل نسمة لا تخفف الا قليلا من حرّ «مونفيراتو»، يضيئها نور مصباح، لا يراه من الخارج، كان موضوعا قرب الحافة. لم يتعرف عليها من أول وهلة لأن شعرها الجميل كان مجمعا فوق رأسها، الا من خصلتين تدلّتا على اذنيها. كان لا يرى منها الا الوجه، منحنيا قليلا، في شكل بيضوي خالص النقاء، مع قطرات من العرق كأنها لآلىء، حتى انها كانت تبدو المصباح الوحيد الحقيقي في تلك العتمة.

كانت تخيط على طاولة صغيرة قصيرة، ونظرها مركّز عليها، حتى انها لم تنتبه إلى الشاب، الذي تراجع ليبصرها جانبيا، ملتصقا إلى الحائط. كان قلبه يرتجف في صدره وهو يلحظ شفتها المظللة بغشاوة شقراء. وفجأة رفعت يدا أكثر اشعاعا من الوجه، وحملت إلى فمها خيطا داكنا: أدخلته بين شفتيها الحمراوين كاشفة عن اسنان ناصعة وقطعته بقضمة واحدة، بحركة وحش جميل، وهي تبتسم راضية عن قساوتها الوديعة.

ربما انتظر روبارتو الليل كله، بينما كان لا يكاد يتنفس، خوفا من ان يكشف ولأن الانفعال كان يشلّه. ولكن بعد هنيهة اطفأت الصبية المصباح، واضمحلت الرؤيا.

في الأيام الموالية مرّ من جديد بذلك الشارع دون ان يشاهدها، ما عدا مرة، ولكنه لم يكن متأكدا من ذلك لأنها، كانت جالسة منحنية الرأس، ورقبتها الوردية عارية، وشلاّل من الشعر يغطي وجهها، وامرأة وراءها كانت تجوب تلك الأمواج من الشعر بمشط من أمشاط الرعاة، تتركه من حين لآخر لتقبض بإصبعيها على حيوان صغير يهم بالفرار، وتفرقعه بقرصة واحدة بين أظافرها.

لم تكن عادة التنظيف من القمل جديدة على روبارتو، الا انه كان يكتشف لأول مرة ما كان في ذلك من جمال، ويتصور يديه وهما

تسبحان في ذلك البحر من الحرير، واصابعه وهي تضغط على تلك الرقبة، وفمه وهو يشبع بالقبل تلك الثنايا، ويتصور نفسه وهو يبيد بيديه تلك القطعان التي تسرح فيها.

واضطر إلى الابتعاد عن ذلك الحلم لاقتراب زمرة صاخبة من ذلك الشارع، وكانت تلك آخر مرة منّت فيها عليه تلك النافذة برؤى غرامية.

في بعض العشيات واللّيالي الأخرى رأى هنالك المرأة، وفتاة أخرى، أما هي فلم يرها. واستنتج ان تلك لم تكن دارها، بل دار اقارب، قصدتها للقيام ببعض الأشغال فقط. ومرت ايام طويلة دون ان يعرف اين ذهبت.

وبما ان سقام العشق خمرة تزيد قوتها اذا ما أفرغت في أذن صديق، بينما كان يوما يجوب «كزالي» دون جدوى، وقد أهزله البحث، لم يقدر روبارتو على اخفاء امره عن سان سافان. وأطلعه على سره بدافع الغرور، لأن كل محب يزدان بجمال حبيبته ـ وهو لا يشك لحظة في حقيقة ذلك الجمال.

ـ «الأمر واضح، أنت عاشق»، أجاب سان سافان بكل بساطة «ليس هذا بالأمر الجديد. يبدو ان الإنسان، خلافا للحيوان، يجد متعة في ذلك».

ـ «الحيوانات لا تعشق؟»

ـ «كلا، الآلات البسيطة لا تعشق. ماذا تفعل عجلات العربة في منحدر؟ انها تتدحرج نحو الأسفل. الآلة ثقل، والثقل يميل، وهو اسير الحاجة العمياء التي تجذبه نحو السقوط. وهكذا الحيوان: يجذبه السفاد، ولا يهدأ الا عندما ينال غرضه».

ـ «ولكن ألم تقل لي بالأمس ان الإنسان أيضاً آلة؟»

ـ «صحيح، ولكن الآلة البشرية أكثر تعقيدا من الآلة المعدنية، أو تلك الحيوانية، ويلذ لها ان تعيش في حالة تأرجح».

ـ «ماذا يعني؟»

ـ «يعني انك عاشق، وأنت إذن ترغب ولا ترغب. الحب يجعلنا أعداء نفوسنا. أنت تخشى الخيبة لو بلغت المرام. واذن تلتذ in limine كما يقول اللاهوتيون، تلتذّ بالتأخير».

ـ «كلا، ليس صحيحا، أنا... أنا اريدها حالا!»

ـ «ان كان الأمر هكذا، فذلك يعني انك لا زلت قرويا لا غير. ولكنك رجل نبيه. لو كنت تريدها حقا لأخذتها ـ ولكنت آنذاك انسانا فظا. كلا، انك تريد ان يزداد شوقك توقدا، وفي الأثناء يتوقد أيضاً شوقها هي. لو التهب شوقها إلى حد يجعلها تخضع لك فورا، ربما رفضتها آنذاك. الحب ينمو مع الانتظار. والانتظار يسرح في فضاءات الزمن الفسيحة نحو الفرصة».

ـ «ولكن ماذا أفعل في هذه الأثناء؟»

ـ «تغازلها».

ـ «ولكن... انها تجهل كل شيء، وأصارحك انني أجد صعوبة في الاقتراب منها..».

ـ «اكتب لها رسالة وصارحها بحبك.»

ـ «ولكنني لم اكتب أبدا رسائل غرامية! بل، يخجلني ان اقول انني لم اكتب ابدا رسائل».

ـ «عندما تخلّ بنا طبيعتنا، فلنتوجّه إلى الفن. سأمليها عليك انا. غالبا ما يلذّ للرجل الشريف ان يحرر رسائل لسيّدة لم يسبق له ان رآها، ولا تنقصني الخبرة لذلك. أنا لا أحب، واحسن الحديث في الحب افضل منك، لأن الحب جعلك أبكم.»

ـ «ولكنني اظن ان كل شخص يحب بطريقة مختلفة... سيبدو ذلك مصطنعا.»

ـ «لو بحت لها بحبك بعبارات صادقة لظهرت بمظهر مضحك».

ـ «ولكنني اصارحها بالحقيقة..».

ـ «الحقيقة هي كالصبية التي يضاهي جمالها عفتها ولذا يجب ان تكون دائما ملتفة بحجابها».

ـ «ولكنني اريد ان ابوح لها بحبي، لا بالحب الذي ستصفه أنت!»

ـ «اذن، كي تصدقك يجب ان تتظاهر. ليس هناك كمال دون رونق التحايل.»

ـ «ولكنها ستفهم ان الرسالة لا تتحدث عنها».

ـ «لا تخف. ستظن ان ما سأمليه عليك قد صنع على قياسها. هيا، اجلس واكتب. انتظر فقط ان استلهم خيالي».

وأخذ سان سافان يجوب الغرفة كما لو كان، حسب قول روبارتو، يحاكي طيران نحلة تعود إلى قرص عسل. كأنما كان يرقص، وعيناه سابحتان كأنه يقرأ في الفضاء تلك الرسالة، التي لم تكتب بعد. ثم بدأ.

ـ «سيدتي..».

ـ «سيدتي؟»

ـ «وماذا تريد ان تقول لها؟ ربما تريد ان تناديها: يا هذه، يا عاهرة كزالي؟»

ولم يتمالك روبارتو من ان يهمس لنفسه «Puta de los franceses»، وقد راعه كيف اقترب سان سافان بتلك الصفة وبطريقة عفوية ان لم نقل من الحقيقة، على الأقل من النميمة.

ـ «ماذا قلت؟»

ـ «لا شيء. حسنا. سيدتي. وبعد؟»

ـ «سيدتي، لقد كتب في هندسة الكون الرائعة،منذ اليوم الأول الذي خلق فيه،انني سألاقيك وأنني سأحبك. ولكن منذ السطر الأول من هذه الرسالة أحس ان روحي تفيض حتى انني لست أدري ان كانت لن تفارقني قبل ان ينهي قلمي..».

ـ «...ينهي. ولكنني لا أدري ان كانت ستفهم..».

ـ «الحقيقة تحلو أكثر عندما تكون محفوفة بالصعوبات الشائكة، والسرّ يعجبنا أكثر عندما يصعب علينا كشفه. بل أرى ان نرفع اكثر من النبرة. لنقل اذن... سيدتي..».

ـ «ثانية؟»

ـ «نعم. سيدتي، لإمرأة جميلة مثل «ألسيديانا»، كان يجدر بك دون شك، مثل تلك البطلة، مقام منيع. أظن أن سحراً حملك إلى مكان آخر وان بلدك صار جزيرة ثانية عائمة تبعدها رياح تأوّهاتي كلّما حاولت الاقتراب منها، بلد المتقاطرات، أرضاً يمنع الجليد من أن تطأها الأقدام. أراك حائرا، يا لاغريف: هل يبدو لك هذا رديئا؟»

ـ «كلاّ، إنه... يبدو لي على العكس».

ـ «لا تخف»، أجاب سان سافان وقد أساء الفهم، «لن تنقص الطباقات من الأضداد. لنواصل. ربما يحقّ لمحاسنك أن تجعلك بعيدة المنال كما يجدر بالآلهة. ولكن ألا تعرفين أن الآلهة تتقبّل برضى على الأقلّ البخور الذي نحرقه تقرّبا اليها؟ وإذن لا ترفضي ولعي: إن كنت تملكين اعلى درجة من الجمال ومن الروعة، فستحمليني على الكفر لو أنت منعتني من عشق شيئين في شخصك هما من أكبر الصفات الإلهية... هل يبدو لك هذا أحسن؟»

عند ذلك الحدّ كان روبارتو يفكّر في أن المشكل الوحيد الذي بقي هو أن تكون النوفاريّة تعرف القراءة. ما عدا هذه العقبة، كلّ ما ستقرأه سيجعلها دون شك ثملة، بما أنني أنا أيضا أثمل وأنا أكتب.

ثم قال «يا إلهي، ستجنّ..».

«دعها تجنّ. واصل الكتابة. وعوض أن أفقد قلبي عندما أهديتك حرّيتي، ها أنا أجده منذ ذلك اليوم أكبر بكثير، قد تضاعف إلى حدّ أنه، كما لو أن قلبا واحدا لا يكفي لحبّك، قد تكاثر في جميع عروقي حيث أحسّ به ينبض».

«يا إلهي..».

«إهدأ. إنك تتحدّث عن الحبّ، لا أنك تحبّ. اعذري يا سيّدتي جنون يائس، أو بالأحرى، لا تحملي غمّا: لم يسمع قطّ ان الملوك يسألون عن موت عبيدهم. إيه نعم، يجب أن أعتبر نفسي محظوظا، عندما عزمت على هلاكي: لو وهبتني على الأقلّ كرهك، لأظهر لي ذلك انك لا تتجاهلينني. كذلك الموت الذي تظنين انك عاقبتني به، سيكون لي مصدر بهجة. نعم الموت: إن كان الحب هو الاقتناع ان روحين خلقتا لتكونا موصولتين، عندما تشعر واحدة أن الأخرى لا تحسّ، لم يبق لها الا أن تموت. لذا ـ بينما لا يزال جسمي يحيا، ولوقت قصير ـ فإن روحي، التي انفصلت عنه، تعطيك خبرا».

ـ «...التي انفصلت عنه، تعطيك؟»

ـ «خبرا».

ـ «اتركني استرجع انفاسي. احسّ برأسي يحترق..».

ـ «تحكّم في نفسك. لا تخلط بين الحبّ والفنّ».

ـ «ولكنني أحبّها! أحبّها، هل فهمت؟»

ـ «أنا لا أحبّها. لذا عهدت اليّ بأمرك. اكتب دون التفكير فيها. فكّر، لنقل، في السيّد دي تواراس..».

ـ «أرجوك!»

ـ «لا داعي لأن تنظر إليّ بهذا الشكل. إنه في نهاية الأمر رجل جميل. ولكن اكتب. سيّدتي..».

ـ «مرّة أخرى؟»

ـ «مرّة أخرى. سيّدتي، لقد قدّر عليّ، إضافة إلى ذلك، أن أموت أعمى. ألم تجعلي أنت من عينيّ إنبيقين تقطّرين منهما حياتي؟ وكيف يحدث أنّه كلّما ابتلّت عيناي، زاد احتراقي؟ ربما لم يصنعني أبي من الطين الذي خلق منه الإنسان الأول، بل من الجير، بما أن الماء الذي أسكبه يحرقني. وكيف أمكن انني مع احتراقي لا زلت أحيا، مسيلا دموعا أخرى لكي أحترق من جديد؟»

ـ «أليس مبالغا؟»

ـ «في المناسبات العظيمة حتى الأفكار ينبغي أن تكون عظيمة».

الآن صار روبارتو لا يحتجّ. كان يبدو له أنه صار الفتاة النوفاريّة وأنه اصبح يحسّ ما كانت ستحسّه لو قرأت تلك الصفحات. وكان سان سافان يملي:

«لقد تركت في قلبي، بعد ان هجرته، لئيمة، هي صورتك، تتباهى بامتلاكها عليّ حقّ الحياة والموت. وأنت ابتعدت عنّي مثلما يفعل الملوك الذين يبتعدون عن مكان الإعدام لئلاّ تحرجهم طلبات العفو. إن كانت روحي وحبّي يتكوّنان من نفسين، عندما أموت أترجّى الاحتضار ان يكون نفس حبّي هو الأخير الذي يتركني، وستتحقّق عندئذ ـ كآخر هبة منّي اليك ـ المعجزة التي ستجعلك تسيرين فخورة، وهي انه على الأقلّ لمدّة لحظة صعد نفس متشوّق اليك من جسم كان قد مات».

ـ «مات. انتهى؟»

ـ «كلاّ. دعني أفكّر، يجب ان نجد عبارة فيها une pointe...»

ـ «..une puen . ماذا يعني؟»

ـ «نعم، ابتداع من الفكر يبدو انه يعبّر عن تطابق غريب بين شيئين، يفوق قدرتنا على التصديق، حتى انه في هذه اللعبة التي تشوّق الفكر يضيع لحسن الحظ كلّ اعتبار لجوهر الأشياء».

ـ «لا أفهم..».

ـ «ستفهم. هوذا: لنقلب قبل كلّ شيء معنى النداء، أنت فعلا لم تمت بعد، لنعطها امكانية ان تسرع لإغاثة هذا المحتضر. اكتب. بإمكانك، سيّدتي، أن تنقذيني. لقد وهبتك قلبي. ولكن كيف لي أن أعيش دون محرّك الحياة نفسه؟ لا اطلب منك ان تعيديه اليّ، اذ هو في سجنك فقط يستمتع بالحرية، ولكنني أترجّاك أن ترسلي اليّ في المقابل قلبك، لأنه لن يجد بيتا اكثر استعدادا لقبوله. لكي تعيشي لست بحاجة إلى قلبين، وقلبي ينبض بقوّة تجعله يضمن لك أكثر الأشواق سرمديّة».

ثمّ، بعد أن قام باستدارة وانحناءة، مثل ممثّل ينتظر هتاف الجمهور ختم قائلا: «أليس جميلا؟»

ـ «جميلا؟ ولكنني أجده... كيف أقول... سخيفا. ألا يبدو لك انك ترى هذه السيدة وهي تجري عبر «كزالي» تتسلّم وتبلّغ القلوب، مثل الساعي؟»

ـ «أتريد ان تحبّ رجلا يتكلّم مثل ايّ بورجوازي؟ وقّع وضع الختم».

ـ «ولكنني لا أفكّر في السيّدة، أفكّر لو أنها أطلعت أحدا آخر على الرسالة، لمتّ من الخجل».

ـ «لن تفعل ذلك. ستحتفظ بالرسالة في حضنها وستشعل كلّ ليلة شمعة قرب فراشها لقراءتها من جديد، ولتغمرها بالقبل. وقّع وضع الختم».

ـ «ولكن لنتصوّر، واقول ذلك على سبيل المثال، انها لا تعرف القراءة. ستطلب من أحد ان يقرأها عليها..».

ـ «ماذا يا سيّد دي لاغريف! أظنك تريد ان تقول لي انك شغفت بفلاّحة؟ وأنك بدّدت إلهامي لتحرج به فظّة خشنة؟ لم يبق الاّ أن نتبارز».

ـ «كان فقط على سبيل المثال. كنت أمزح. ولكنهم علّموني انه على الرجل الحذر ان يعتبر جميع الحالات، والظروف، ومن المحتملة حتى تلك الأبعد احتمالا..».

ـ «أرأيت أنك تعلّمت كيف تعبّر كما ينبغي. ولكنك أخطأت الاعتبار واخترت أسخف الاحتمالات. على كلّ حال، أنا لا أريد أن أجبرك. امح الجملة الأخيرة، وواصل حسب ما سأملي عليك..».

ـ «ولكن لو محوتها لوجب أن أعيد كتابة الرسالة».

ـ «أنت كسول أيضا. ولكن على الحكيم ان يستمدّ الفائدة من المآسي. امح...هل فعلت؟ انتظر». وغمس سان سافان اصبعه في إبريق ثم ترك قطرة تسيل فوق الفقرة الممحاة، متحصّلا على بقعة صغيرة من البلل، كانت حواشيها تتلوّن شيئا فشيئا بسواد الحبر. «والآن اكتب. اعذريني يا سيّدتي، إن لم أجسر على إبقاء خاطر، مع أنه سلب منّي عبرة، فقد راعني لجرأته. كما يحدث أن تخلق نار بركانية نهرا عذبا من ماء أجاج. ولكن، يا سيّدتي، قلبي هو مثل قوقعة البحر، التي تشرب عرق الفجر الجميل فتنتج اللؤلؤة، وتكبر في جسم واحد معها. عند التفكير في ان لامبالاتك ستأخذ من قلبي اللؤلؤة التي غذّاها بكلّ غيرة، فإن قلبي يسيل من مقلتيّ... نعم، يا لاغريف، هذا دون شكّ أفضل، لقد أنقصنا من المبالغات. من الأفضل التنقيص من مغالاة العاشق، لتضخيم تأثّر المحبوبة. وقّع، واغلق الرسالة وبلّغها اليها. ثم انتظر».

ـ «أنتظر ماذا؟»

ـ «شمال بوصلة الحذر يكمن في حلّ الأشرعة للريح في الوقت المناسب. في هذه الحالات الانتظار لا يضرّ أبدا. القرب ينقص من

الصيت والبعد يزيد فيه. عندما تكون بعيدا يحسب لك حساب الأسد، وعندما تكون حاضرا يمكن ان تصبح فأرا تمخّض عنه جبل. انك دون شك تملك خصالا جميلة، ولكن الخصال تفقد من رونقها عندما يكثر لمسها، بينما الخيال يصل إلى أبعد من العين».

شكره روبارتو وسارع إلى بيته مخفيا الرسالة طيّ صدره كما لو كان قد سرقها. كان يخاف ان يسرق أحد غنيمة سرقته.

سأعثر عليها، كان يقول في نفسه، سأنحني أمامها وسأسلّمها الرسالة. كان يتململ في فراشه وهو يفكّر في الطريقة التي ستقرأ بها الرسالة محركة شفتيها. الآن اصبح يتصور أنّا ماريا نوفاريزي متحلية بجميع تلك الخصال التي خصها بها سان سافان. الآن وقد باح بحبه، وان كان عن طريق شخص آخر، أحس بنفسه عاشقا أكثر من ذي قبل. بقيامه بشيء ضدّ مشيئته، ابتسمت له المشيئة. الآن بات يحب نوفاريزي بنفس تلك القوّة الجميلة التي كانت تذكرها الرسالة.

ومضى يبحث عن تلك التي كان مستعدا كل الاستعداد للبقاء بعيدا عنها، بينما كانت تسقط على المدينة بعض القذائف المدفعية، غير عابىء بالخطر، إلى ان شاهدها بعد بضعة ايام عند منعطف شارع، محملة بالسنابل مثل تلك المخلوقات الميثولوجية. جرى وراءها وكيانه يرتجف وقد نسي ماذا يجب ان يفعل أو ان يقول. اقترب منها وهو يرتعد ثم وقف امامها وقال لها: «ايتها الآنسة..».

ـ «من، أنا»؟ أجابت الفتاة وهي تضحك، ثم أضافت: «وبعد؟»

ـ «وبعد»، لم يجد روبارتو إجابة افضل، «أيمكنك ان ترشديني إلى طريق القلعة؟» فأجابت الفتاة وقد أمالت رأسها إلى الخلف، محركة شعرها الغزير: «ألا ترى؟ من هناك»، ثم اختفت وراء المنعطف. عند تلك الزاوية من الشارع، بينما كان روبارتو مترددا ايتبعها ام لا، سقطت قذيفة بصفير حاد، فدمرت جدار حديقة ورفعت سحابة من الغبار. سعل

روبارتو وانتظر ان يتلاشى الغبار ثم فهم انه بسيره المتردد في فضاءات الزمن الفسيحة قد أضاع «الفرصة».

وعقابا لنفسه مزّق بألم الرسالة ومضى نحو بيته، بينما كانت مزق نفسه تتلوّى على الأرض.

أقنعه حبّه الأول الغامض بصفة نهائية ان موضوع الحبّ يكمن في البعد، وأظن ان هذه القناعة حددت مصيره كعاشق. في الأيام الموالية عاد ليزور كل زاوية وكل منعطف (اين بلغه عنها خبر، أو لمس منها أثرا، أو سمع عنها حديثا أو رآها) ليعيد رسم منظر للذاكرة. وهكذا رسم «كزالي» أخرى نشأ من غرامه، محولا الأزقة، والعيون، والساحات إلى «نهر الميل»، إلى «بحيرة اللامبالاة» أو إلى «بحر العداء» ؛ جعل من المدينة المجروحة «موطنا» لحنانه المتعطش، جزيرة (منذ ذلك الحين، حسب ظني) لوحدته.

13

خارطة المشتاق

ليلة التاسع والعشرين من يونيو ايقظت المحاصرين فرقعة هائلة، تبعتها دقات الطبول: انفجر اللغم الأول الذي تمكن العدو من وضعه تحت الأسوار، مدمراً نصف دائرة رُدم تحتها خمسة وعشرون جنديا. في اليوم الموالي، حوالي السادسة مساء، سمع مثل الرعد نحو الغرب، وعند الشرق ظهر قرن، أكثر ضياء من السماء، كان طرفه أحيانا يطول وأحيانا يقصر. كان مذنّبا، أدخل الروع في قلوب المسلحين وألزم سكان المدينة ديارهم. في الأسابيع الموالية تهدمت جوانب اخرى من الأسوار، بينما كان المحاصرون يطلقون النار دون هدف، لأن الأعداء كانوا يتحركون تحت الأرض، والأنفاق المضادة للألغام لم تعد قادرة على ردّهم.

كان روبارتو يعيش تلك الكارثة كمن كان مسافرا غريبا. كان يقضي الساعات الطوال يتحادث مع الأب ايمانويل حول افضل الطرق لوصف نيران الحصار، ولكنه كان يخالط دائما اكثر سان سافان ليخلق معه صورا تجسم بنفس البلاغة نيران غرامه ـ الذي لم يتجرأ ان يبوح بفشله. كان سان سافان يمدّه بمشهد تسير فيه مغامرته العاطفية نحو آفاق سعيدة؛ وكان يتحمل بصمت خزيه وهو يحرر مع صديقه رسائل اخرى، كان يتظاهر بعد ذلك بتسليمها، بينما كان كل ليلة يعيد قراءتها كما لو

كانت تلك اليوميات المحملة بآيات العشق موجهة من لدنها اليه هو.

وكان يتخيل مواقف تبدو فيها ماريا نوفاريزي ضحية تطاردها زمرة من المرتزقة، وتسقط واهية بين ذراعيه، بينما يشتت هو الأعداء ويقودها منهوكة إلى حديقة، حيث ينعم بلذائذ شكرها المتوحش. ويستسلم لتلك الأفكار فوق فراشه ولا يفيق منها الا بعد غياب طويل، فيأخذ حينئذ في كتابة أشعار لحبيبته.

وأطلع مرة سان سافان على واحدة من تلك القصائد، فعلق قائلا: «اعذرني ان قلت لك انني أجدها على غاية من السماجة، ولكن لا تحزن: فأغلب اولئك الذين يقولون عن أنفسهم في باريس انهم شعراء يكتبون أسوأ من هذا. لا تكتب الشعر عن حبّك، فغرامك ينتزع منك تلك البرودة الرائعة التي كانت فخر كاتولّوس».

وجد نفسه كئيبا، فكاشف بذلك سان سافان وعلّق هذا الأخير قائلا: «افرح، فالكآبة ليست روث الدم بل زهره، وتخلق الأبطال لأنها بقربها من الجنون تدفعهم إلى الأعمال الأكثر جسارة». ولكن روبارتو لم يكن يحس بنفسه مدفوعا نحو أي شيء، ويكتئب أكثر لأنه كان يجد كآبته غير كافية.

كان كالأصم لا يسمع لا الصياح ولا طلقات المدافع، بينما كانت تبلغه اصوات الأمل (المعسكر الإسباني في ازمة، يقال ان الجيش الفرنسي يقترب)، ويفرح لأن في منتصف شهر يوليو نجح لغم مضاد أخيرا في قتل العديد من الجنود الإسبان؛ ولكن مع ذلك كانت تسقط العديد من الحصون، وفي اواسط يوليو كانت فرق العدو المتقدمة تطلق النار على وسط المدينة مباشرة. وبلغه ان بعض الكزاليين يحاولون الصيد في نهر «بو» ودون ان يعبأ باجتياز طرق كانت معرضة لنيران العدو، جرى ليرى ان لم تتعرض ماريا نوفاريزي لطلقات الإمبراطوريين.

كان يمر فاتحا طريقه بين الجنود الثائرين، اذ كان عقدهم لا

يتضمن حفر الخنادق؛ ولكن الكزاليين رفضوا القيام بذلك عوضهم، فكان على تواراس ان يعدهم بزيادة في الأجر. وكان يهنىء نفسه على غرار الآخرين عندما علم ان سبينولا اصيب بالطاعون، ويسر لرؤية مجموعة من الجنود النابوليين يدخلون المدينة فارين من معسكر العدو خوفا من الإصابة بالوباء الذي تفشى فيه، ويستمع إلى الأب ايمانويل وهو يقول ان ذلك يمكن ان يصبح سببا في العدوى...

في منتصف سبتمبر ظهر الوباء في المدينة، ولكن روبارتو لم يلق بالاً لذلك، كان يخاف فقط ان تكون ماريا نوفاريزي قد أصيبت، إلى ان أفاق ذات صباح وقد تملكته حمى شديدة. تمكن من ارسال أحد لإعلام الأب ايمانويل، ونقل خفية إلى ديره، حتى لا يدخلوه احد تلك المحاجر التي خصصت ليموت فيها المصابون سريعا ودون ضوضاء حتى لا يلهون الآخرين، المنشغلين في نشر الموت بالمتفجرات.

لم يكن روبارتو يفكر في الموت: كان يظن الحمى غراما محرقا، ويحلم بلمس جسد ماريا نوفاريزي، بينما كان يفرك ثنايا الفراش، أو يلامس اطراف جسده الموجع والناضح بالعرق.

يا لقوة الذاكرة الحازّة، تلك الليلة على دافني، بينما كان الليل يتقدم والسماء تنهي دوراتها البطيئة، وتختفي نجوم «صليب الجنوب» وراء الأفق، لم يعد روبارتو يعلم ان كان يتحرق بعشق جديد نحو «ديانا» المحاربة التي عرفها في كزالي، أو نحو السيّدة البعيدة بُعد الأولى عن نظره.

أراد ان يعرف اين يمكن ان تكون قد هربت، وجرى إلى حجرة الأدوات البحرية حيث بدا له انه رأى خارطة لتلك البحار. وجدها، كانت كبيرة، ملونة وغير كاملة، لأنه في تلك الأزمنة كانت أكثر الخارطات غير كاملة بالضرورة: كان البحّار، الذي يجوب بقاعا جديدة، يرسم السواحل التي يشاهدها، ولكنه يترك الحدود غير كاملة

لأنه لا يعرف كيف وإلى أي حد وأين تنتهي تلك اليابسة؛ حتى ان خارطات المحيط الهادي كانت تبدو في الغالب تعرّجات شواطىء، وملامح دوائر، وفرضيات كتل، وكانت تبدو متمّمة فقط تلك الجزر القليلة التي وقع الطواف حولها، ووجهات الرياح التي تحددها التجربة. والبعض منهم، ليجعل الجزيرة سهلة التعرف عليها، كانوا يرسمون بدقة شكل القمم والسحب التي تغطيها، بحيث يمكن التعرف عليها كما يمكن التعرف من بعد على شخص من خلال شكل قبعته، أو من مشيته.

فوق تلك الخارطة كانت واضحة حدود ساحلين يواجه احدهما الآخر، تفصل بينهما قناة تتجه من الجنوب نحو الشمال، وأحد ذينك الساحلين كان ينتهي بدورات عديدة كأنما يصور جزيرة، يمكن ان تكون جزيرته؛ ولكن على بعد مسافة واسعة من البحر كانت هناك مجموعات اخرى من الجزر المحتملة، متشابهة في اشكالها، يمكن ان تكون المكان الذي كان يجد نفسه فيه.

ربما أخطأنا لو قلنا ان روبارتو كان يحركه حب اطلاع الجغرافيين؛ فقد علّمه كثيرا الأب ايمانويل ان يقلب المرئيّ مستعملا عدسة المنظار الأرسطوطاليسي. وكثيرا ما لقّنه سان سافان ان يوقد الرغبة من خلال الكلام، الذي يحول فتاة إلى تمّ وتمّا إلى انثى، ويحول الشمس إلى قدر وقدرا إلى شمس! في هزيع متقدم من الليل نجد روبارتو يحلم فوق خارطة تحولت إلى جسد انثوي طالما اشتاق اليه.

ان كان العشاق يخطئون عندما يكتبون اسم الحبيبة على رمل الشاطىء، لأن الأمواج شيئا فشيئا تمسحه، كان هو يشعر بأنه محب متبصر لأنه عهد بجسم الحبيبة إلى اقواس الخلجان، وشعرها إلى مهب التيارات في تعرجات الأرخبيل، والعرق الصيفي على وجهها إلى انعكاسات المياه، وسرّ العينين إلى زرقة الإمتدادات الخالية ـ فكانت الخارطة تعيد مرارا رسم جسد المحبوبة، في اضطجاعاته المتنوعة

حسب الخلجان والمرتفعات. كان يغرق، تجتاحه الرغبة، وفمه على الخارطة، يشرب من ذلك المحيط من الشوق، يدغدغ رأساً، ولا يجرؤ ان يلج مضيقاً، وخده ملتصق بالورقة يتنفس من نفس الرياح، ويود لو شرب البحيرات والعيون، لو أنضب من شدة عطشه مصبات الأنهار، لو كان شمسا ليلثم الشواطىء، مدّاً وجزراً يلين الوديان...

ولكنه لم يكن يلتذ بذلك الامتلاك، بل بالحرمان: بينما كان يتلظى بلمس تلك الغنيمة من رسم علامة، ربما كان آخرون، فوق الجزيرة الحقيقية ـ حيث تمتد في اشكال جميلة لم تتمكن الخارطة بعد من تقييدها ـ يقضمون ثمارها، ويستحمون في مياهها... آخرون، عمالقة مندهشون ومتوحشون يقربون في تلك الآونة اياديهم الخشنة إلى نهدها،بركانيّون مشوّهون يغتصبون «افروديت» الرقيقة، يلامسون شفتيها بنفس الغباوة التي يرمي بها صياد الجزيرة التي لم تكتشف، وراء آخر افق لجزر «كناري»، دون ان يدري، أثمن ما ندر من اللآلي...

هي بين ذراعي معشوق آخر... كانت هذه الفكرة تسكره سكرا لامتناهيا يتقلب فيه روبارتو متأوها، صارخا عجزه. وفي تلك الحمى، وهو يتحسّس بيديه فوق الطاولة كمن يريد على الأقل ان يتشبث بطرف فستان، انزلق نظره من صورة ذلك الجسم الوديع، ذي التموجات اللينة، إلى خارطة اخرى حيث حاول صاحبها المجهول ان يصور قنوات البراكين النارية الموجودة في الأرض الغربية: كان دليل سواحل الكرة الأرضية بأجمعها، كلها مداخن على قمم مرتفعات القشرة، وفي الباطن عروق متشابكة جافة؛ وأحس بنفسه فجأة صورة حية من تلك الكرة، وتأوه ناضحاً بالطفح من جميع مسامّه، متجشئاً ليمفا رغبته المتعطشة، إلى ان فقد اخيرا وعيه ـ وقد أضناه الاستسقاء الملتهب (هكذا كتب) ـ فوق ذلك الجسد الجنوبي الذي كان يحلم به.

14

مؤلف في علم السّلاح

في «كزالي» أيضاً كان يحلم بفضاءات مفتوحة، وبالمنخفض الفسيح الذي شاهد فيه لأول مرة ماريا نوفاريزي. ولكنه الآن لم يعد مريضا، وصار يفكر بكل وعي انه لن يلاقيها بعد ذلك أبدا، لأنه إما سيموت بعد زمن قصير، أو انها هي التي ماتت.

الا انه في الواقع لم يكن قريبا من الموت، بل كان يبرأ شيئا فشيئا، دون ان يتفطن لذلك ويستبدل وهن النقاهة على انه فقدان الحياة. وعاده سان سافان مرّات عديدة، يمدّه بتسلسل الأحداث عندما كان الأب ايمانويل حاضرا (كان يراقبه كأنما يخاف ان يسرق منه تلك الروح)، وعندما يضطر هذا الأخير لتركهما (اذ كانت المفاوضات تتعدّد في الدير) كان يتكلم بفلسفة حول الحياة والموت.

ـ «يا صديقي العزيز، ان سبينولا على وشك الموت. وأنت مدعوّ لحضور الاحتفالات التي سنقيمها عندما سيتركنا».

ـ «في الأسبوع المقبل سأكون أنا أيضاً في عداد الأموات..».

ـ «ليس هذا صحيحا، إنني أُحسن التعرف على وجه من هو على حافة الموت. ولكنني أخطىء لو أبعدتك عن فكرة الموت. بل العكس، انتهز فرصة المرض للقيام بهذا التمرين القيّم».

- «يا سيد دي سان سافان، إنك تتحدث مثل رجل كنيسة».

- «لا شيء من هذا. إنني لا أدعوك للتأهب للحياة الأخرى، ولكنني ادعوك لاستعمال هذه الحياة الوحيدة التي منحت اياها، كي تواجه، عندما تحين الساعة، الموت الوحيد الذي ستجربه. من الواجب ان تفكر قبل ذلك، ومرّات عديدة، في فن الموت، لتحسن بعد ذلك انجازه مرة واحدة».

كان يريد النهوض، ولكن الأب ايمانويل كان يمنعه من ذلك، لأنه كان لا يعتقد انه اصبح جاهزا للعودة ثانية إلى قرقعة الحرب. وأفهمه روبارتو انه متشوق لملاقاة شخص. فكان رأي الأب ايمانويل انه من الحمق ان يترك جسمه الذابل يفنى من اجل جسم آخر، وحاول ان يظهر له سلالة الإناث على انها سلالة لا تستحق الا الإزدراء، فكان يقول له: «ذلك العالم الأنثوي الباطل الذي تتقمّصه بعض تلك الأطلنطيات الحديثة، يدور حول الفضيحة ومداراه هما السرطان والجدي. والمرآة، التي هي منها المحرّك الأول، ليست أكثر عتمة الاّ عندما تعكس نجوم تلك العيون الفاسقة، التي صارت، من بخار أنفاس العاشقين الحمقى، شهبا تؤذن بمآس تصيب العفّة».

لم يستحسن روبارتو تلك الإستعارة الفلكية، كما انه لم يجد في صورة ساحرات الصالونات المدنية شيئاً من حبيبته. بقي في فراشه، ولكنه صار ينضح أكثرمن ذي قبل بأبخرة عشقه.

في الأثناء كانت تصله أخبار أخرى من قبل السيد ديلا ساليتا. كان الكزاليون يتساءلون ان لم يكن من الأفضل ان يتركوا الفرنسيين يدخلون القلعة: لقد فهموا الآن انه إن ارادوا أن يمنعوا العدو من دخولها، عليهم ان يجمعوا القوى. ولكن السيد ديلا ساليتا كان يوضح، انه الآن أكثر من أي وقت مضى، بينما كانت المدينة تبدو على وشك السقوط، يظهر الكزاليون انهم يتعاونون مع الفرنسيين، ويراوحون بينهم وبين

أنفسهم ميثاق التحالف. كان السيد ديلا ساليتا يقول: «يجب ان نظهر بمظهر الحمامة الوديعة مع السيد دي تواراس، ولكن يجب ان نكون أخبث من الثعبان ان أراد ملكه ان يبيع «كزالي». يجب ان نقاتل حتى يعود الفضل الينا أيضاً في حالة نجاة «كزالي»، ولكن دون مبالغة، حتى اذا سقطت وقع ثقل الهزيمة على الفرنسيين فقط». وأضاف، كأنه يلقن روبارتو درسا: «المتبصّر لا يشدّ نفسه إلى عربة واحدة.»

ـ «ولكن الفرنسيين يقولون إنكم تجار: لا يتفطن أحد اليكم عندما تقاتلون، بينما يراكم الجميع عندما تبيعون بالربا!»

ـ «كي يعيش طويلا من الأفضل للإنسان ان يسوى قليلا. الوعاء المشقوق هو الذي لا ينكسر أبدا بأكمله ويدوم إلى ان نسأم من طول دوامه».

ذات صباح، في أوائل سبتمبر، أمطر على «كزالي» غيث محرّر. من كان معافى أو في فترة نقاهة خرج إلى الهواء الطلق تحت المطر لغسل كل اثر من العدوى. كانت طريقة للانتعاش لا علاجا، وتواصل الداء ضارياً حتى بعد تلك العاصفة الممطرة. والأخبار الوحيدة المعزية كانت تخص ما كان الوباء يحصد في معسكر الأعداء.

الآن وقد صار قادرا على الوقوف، جازف روبارتو وخرج من الدير، وإذا به يشاهد على عتبة دار رسمت عليها علامة صليب باللون الأخضر، بمعنى ان المكان مصاب بالعدوى، أنا ماريا أو فرانشسكا نوفاريزي. كانت شاحبة هزيلة مثل صورة من «رقصة الموت» وقد تحول بياضها الثلجي وحمرتها الوردية إلى اصفرار شاحب، وان كان لا يخفي ما كان في ملامحها من جمال مندثر. وتذكر روبارتو جملة قالها سان سافان: «أتراك ستواصل عبادة ذلك الجمال عندما تجعل الشيخوخة من ذلك الجسم شبحا، لا يوحي اليك الا بقرب الموت؟»

كانت الفتاة تبكي ورأسها متكىء على كتف الراهب الكبوشي،

كأنما فقدت شخصا عزيزا، ربما حبيبها الفرنسي. والراهب، بوجهه الذي يفوق بياضه بياض لحيته، كان يسندها موجها اصبعه نحو السماء كأنما يقول: «سيأتي يوم، هنالك..».

الحب لا يصبح شيئا ذهنيا إلا عندما يرغب الجسد وتبقى رغبته مكبوتة. عندما يكون الجسد ضعيفا وغير قادر على الرغبة، ذلك الشيء الذهني يتلاشى. واكتشف روبارتو نفسه على قدر من الضعف يجعله عاجزا عن الحب. واضمحلت أنّا ماريا (فرانشسكا) نوفاريزي.

عاد إلى الدير ولزم فراشه، وقد قرر ان يموت فعلا: كان يتألم كثيرا من فقدان ما كان يؤلمه. وكان الأب ايمانويل يحرضه على الخروج لاستنشاق قليل من الهواء المنعش. الا ان الأنباء التي كانت تصله من الخارج كانت لا تشجعه على الحياة. الآن، إضافة إلى الطاعون، صارت هناك المجاعة، بل شيء أفظع من المجاعة، كانوا كلّهم يتصيّدون بوحشية قليلا من الطعام بينما كان الكزاليون يخفونه ولا يريدون إمداد حلفائهم بالغذاء. وقال روبارتو انه إن لم يتمكن من الموت بسبب الوباء فإنه كان يريد ان يموت جوعا.

في نهاية الأمر تغلب عليه الأب ايمانويل، وأخرجه من الدير. وبينما كان يسلك منعطفا، فوجىء بمجموعة من الضباط الإسبان. أراد الفرار، ولكن هؤلاء حيّوه بكل أدب. وفهم بعد ذلك انه، بعد سقوط العديد من الحصون، تمركز الأعداء في نقاط كثيرة من المدينة، بحيث يمكن القول ان الحقول المجاورة لم تكن تحاصر «كزالي»، بل «كزالي» كانت تحاصر قلعتها.

في آخر الشارع اعترضه سان سافان الذي قال له: «يا عزيزي لاغريف، لقد مرضت فرنسياً وها انك برئت اسبانياً. هذا الجزء من المدينة في حوزة العدوّ».

- «وهل بإمكاننا نحن ان نمرّ؟»

ـ «ألا تعلم انه قد أمضيت هدنة؟ ثم، إن الإسبان يريدون القلعة، نحن لا. في الجهة الفرنسية الخمر نادرة والكزاليون يخرجونها من اقبيتهم كما لو كانت دم سيدنا المسيح. لا يمكن منع النبلاء الفرنسيين من التردد على بعض الحانات في هذه الناحية، حيث يجلب أصحابها من الريف خمراً جيدة جدا. والإسبان يتقبّلوننا بما يناسب كبار الأسياد. الا انه ينبغي احترام اللياقات: ان اراد أحدنا ان يشاجر، فعليه ان يفعل ذلك في دارنا ومع أناسنا، اذ في هذه الناحية ينبغي ان يكون سلوكنا لائقا، كما تتطلب قواعد المعاملة مع الأعداء. لذا اعترف ان الجهة الإسبانية أقل تسلية من الفرنسية، على الأقل بالنسبة الينا. هيّا معنا. هذا المساء سننشد سريناد لسيّدة أخفت عنّا مفاتنها إلى ان رأيتها يوما تطل من النافذة.»

وهكذا وجد روبارتو ذلك المساء خمسة وجوه معروفة في بلاط دي تواراس. حتى القسّ كان حاضرا، وبالمناسبة لبس ثوبا كله تشابيك ودانتيلا، مع حمّالة من الساتان، وكان يقول بنفاق واضح: «الله يغفر لنا، ولكن يجب ان يتسلّى المرء قليلا ان اراد مواصلة القيام بالواجب..».

كانت الدار وسط ساحة، في الجهة التي صارت في حوزة الإسبان، ولكن الإسبان في تلك الساعة كانوا دون شك كلهم في الحانات. في رقعة السماء التي كانت ترسمها السطوح القصيرة وكتل الأشجار التي تحيط بالساحة، كان القمر يسطع هادئا، لا تشوبه الا بعض النقاط الداكنة، وينعكس في مياه نافورة كان خريرها يتوسط تلك الرقعة الحالمة.

وراح سان سافان يقول: «يا ديانا العذبة، كم تكون مدنك وقراك في هذه الآونة هادئة مسالمة، فهي لا تعرف الحروب، بما ان القمريّين يعيشون في حبور طبيعي، لا يعرفون الخطيئة..».

فأجابه القسّ: «لا تجدف يا سيد دي سان سافان، فحتى لو كان القمر مسكونا، كما هذر بذلك السيد دي موليني في روايته الأخيرة، بينما الكتب المقدّسة لا تقول ذلك، فسيكون سكانه من أتعس المخلوقات، اذ انهم لم يعرفوا تجسّد المسيح».

فردّ عليه سان سافان: «وسيكون الإله سيدنا قاسيا جدا اذ حرمهم من هذا الوحي العظيم،»

- «لا تحاول ان تنفذ إلى الأسرار الإلهية. حتى سكان امريكا لم يحظوا بحكمة من الإله بتبشير سيدنا المسيح، ولكن الرب في طيبته اللامتناهية يرسل اليهم الآن المبشرين، ليحملوا اليهم النور».

- «وإذن لماذا لا يرسل البابا المبشرين إلى القمر أيضاً؟ أم ان القمريّين ليسوا ابناء الخالق؟»

- «كفّ عن هذه الحماقات!»

- «أقبل ان تصفني بالأحمق، يا سيدي القس، ولكن اعلم ان هذه الحماقة تخفي سرا، لا يريد البابا ان يكشفه. لو اكتشف المبشرون ان في القمر سكّانا، ورأوهم ينظرون إلى عوالم اخرى في متناول انظارهم ولا نراها نحن، لسمعوهم يتساءلون ان لم يكن في تلك العوالم مخلوقات اخرى تشبهنا. ولتساءلوا ان لم تكن النجوم القارة شموسا تحيط بها اقمارها وكواكبها، وان لم يكن سكانها يرون هم الآخرون نجوما اخرى نجهل نحن وجودها، وهي الأخرى شموس مرفوقة بكواكبها، وهكذا إلى ما لا نهاية له..».

- «لقد خلقنا الإله عاجزين عن تصور المطلق، وإذن ليقنع الجنس البشري بذلك».

- «السريناد، السريناد»، كان الآخرون يهمسون «تلك هي النافذة». كان يملأ النافذة ضياء وردي متأتّ من داخل مخدع كان يدغدغ خيال كل واحد منهم. ولكن الاثنين صارا الآن هائجين.

كان سان سافان يلحّ بسخرية: «أضف إلى انه، لو كان العالم منتهيا ومحاطا باللاشيء، يكون الرب هو أيضاً منتهيا: بما ان عمله يقتضي منه، كما تقولون، ان يكون في السماء وفي الأرض وفي كل مكان، فهو لا يستطيع ان يكون حيث لا يوجد شيء. واللاشيء هو اللامكان. أو انه، لتوسيع العالم يجب ان يوسع نفسه، ويولد للمرة الأولى حيث لم يكن سابقا، وهذا يناقض خلوده المزعوم».

«كفى ايّها السيّد! انك تنفي خلود الخالد، وهذا ما لا أسمح لك به. آن الأوان ان أقتلك، حتى لا يتمكن فكرك القوي، كما يقولون، من ان يضعفنا!» واستل سيفه.

ـ «إن كان هذا ما تريد»، قال سان سافان بعد ان حيّا ووقف وقفة المتهيىء «ولكنني لن أقتلك: لا أريد ان يخسر ملكي أحد جنوده. سأكتفي بتشويهك، حتى تضطر ان تعيش بقية حياتك وأنت تحمل قناعا، كما يفعل الكوميديون الإيطاليون، اذ هذا ما يليق بك. سأحدث لك جرحا ينطلق من العين إلى الشفة، ولن أسدّد لك هذه الضربة اللائقة بخصي الخنازير الا بعد ان ألقّنك، بين ضربة وأخرى، درسا في الفلسفة الطبيعية».

وهاجمه القسّ محاولا ان يصيبه حالا بضربات قوية تشقّ الفضاء، صائحا بأنه حشرة سامة، برغوث، قملة يجب سحقها دون رحمة. وواجه سان سافان ضرباته، ثم هاجمه بدوره، مجبرا اياه على التقهقر إلى ان حصره إلى شجرة، ولكنّه كان يواصل تفلسفه مع كل ضربة.

ـ «آه، ان الضربات اليمينية والعنيفة ضربات مبتذلة يسدّدها من أعماه الغضب! تنقصك فكرة المسايفة. ولكن تنقصك أيضاً الرحمة، لأنك تحتقر البراغيث والقمل. إنك حيوان صغير لا تقدر على ان تتصور العالم حيوانا كبيرا، كما أبرز لنا ذلك افلاطون العظيم. حاول ان تتصور النجوم عوالم تسكنها حيوانات اخرى اصغر، وان تلك الحيوانات

الصغيرة هي بدورها عوالم لسكان آخرين ـ وعند ذلك لن ترى تناقضا في تصور اننا نحن أيضاً، والخيول، والفيلة عوالم للبراغيث والقمل التي تسكننا. انها لا ترانا، لضخامة حجمنا، وكذلك نحن لا نرى عوالم أكبر، لصغر حجمنا. ربما يوجد الآن شعب من القمل اتخذ من جسمك عالما، وعندما يجوب احدهم مسافة بين الجبهة والرقبة، يقول عنه رفاقه انه تجاسر وبلغ حدود الأرض المعروفة. إن هذا الشعب الصغير يرى في شعرك غابات تغطي موطنه، وعندما سأضربك سيرى في جرحك انهارا وبحارا. وعندما تمشط شعرك يرى في تلك الحركة مدّ المحيط وجزره، ومن حظه التعيس ان العالم الذي يسكنه في تغير وحركة دائمين لميلك إلى تمشيط شعرك في كل لحظة كما تفعل النساء، والآن عندما سأقطع تلك الشرابة ستبدو له صيحتك الحانقة مثل هدير الإعصار، خذ»! واقتلع له حلية، وكاد ان يمزق جبته المزخرفة.

فاستشاط القس غضبا وتحول إلى وسط الساحة، ملتفتا خلفه للتأكد من ان لديه فضاء كافيا للمراوغات التي كان يحاول القيام بها، ثم تقهقر ليحمي ظهره بالنافورة.

وكان سان سافان يرقص حوله دون ان يهاجمه: «ارفع رأسك يا سيدي القسّ، وانظر إلى القمر، وفكر ان ربك لو أمكنه ان يجعل الروح خالدة لكان بإمكانه ان يجعل العالم لا متناهيا. ولكن لو كان العالم لا متناهيا، لكان كذلك في الزمان والمكان، ولكان إذن سرمديا، وعندما يكون هنالك عالم سرمدي، لا يحتاج لخلق تصبح فكرة الخالق عديمة الجدوى. يا للسخرية، يا سيدي القسّ، لو كان الرب لامتناهيا لما كان بالإمكان تحديد قدرته: لن يمكنه ابدا ان يكفّ عن الخلق، وسيكون العالم إذن لا متناهيا ؛ ولكن إن كان العالم لا متناهيا فذلك يعني انه لن يكون هنالك رب، كما انه بعد حين لن تكون هنالك زخارف على جبتك!» وأتبع القول بالفعل مقتلعا من جديد بعض الأشرطة التي كان القس يزهو بها، ثم انقص مسافة الحذر بينه وبين القس رافعا سيفه في

الهواء؛ وبينما كان القس يحاول النيل منه، سدد ضربة حادة إلى طرف سيف المنافس. وكاد السيف ان يسقط من يد القسّ، الذي ضغط بيسراه على نبضه المتوجع.

وصاح قائلا: «يجب في النهاية ان أذبحك، ايها الكافر، ايها المجدف، يا بطن الربّ، بجميع قديسي الفردوس الملعونين، بدم المسيح!»

في تلك الآونة فتحت النافذة، وأطل أحدهم صائحا بشيء ما. كان الحاضرون قد نسوا المهمة التي جاؤوا من أجلها، وأخذوا يطوفون حول المتبارزين، اللذين كانا يصيحان ويدوران حول النافورة، بينما كان سان سافان يفاجىء منافسه بضربات دفاعية في شكل دائرة وبضربات هجومية بطرف السيف.

في الأثناء كان يتهكّم قائلا: «لا تناد لنجدتك بأسرار التجسّد، يا سيدي القس. إن كنيستك الرومانية المقدسة علمتك ان كرتنا هذه المصنوعة من الطين هي نقطة المركز في الكون، وأن هذا الأخير يطوف حولها مثل الشاعر الموسيقي، عازفا لها ألحان الكواكب. حذار، لقد التصقت كثيرا بالنافورة، وبللت طرف جبتك، كعجوز مصاب بداء الحصى... ولكن ان كانت تدور في الفراغ الكبير عوالم لانهائية، كما قال فيلسوف عظيم أحرقه امثالك في روما، والكثير من تلك العوالم آهل بمخلوقات تشابهنا، وان كانت جميعها من خلق إلهك، ماذا نفعل إذن بالخلاص».

عندئذ صرخ القس قائلا: «بل قل ماذا سيفعل بك الرب، ايها الملعون!» وتفادى بصعوبة ضربة معصم مقلوبة.

- «ترى هل تجسّد المسيح مرة واحدة؟ واذن حصلت الخطيئة الأصلية مرة واحدة فوق هذا الكوكب؟ يا له من ظلم! إما أنه ظلم تجاه الآخرين، الذين حرموا من التجسيد، أم أنه ظلم تجاهنا نحن، بما انه

في هذه الحالة يكون البشر في جميع العوالم الأخرى كاملين مثلما كان أبوانا قبل الخطيئة، متنعّمين بحبور طبيعي دون أن يثقلهم حمل الصليب. أم ان أوادم لانهائيين ارتكبوا بصفة لانهائية الخطيئة الأولى، بعد ان اغوتهم حواءات لانهائيات بتفاحات لانهائية، ممّا اضطر المسيح إلى ان يتجسد، ويبشر ويتعذب على الصليب مرات لا نهاية لها، وربما يتواصل شقاؤه إلى الآن، وان كانت العوالم لانهائية فستكون مهمته أيضاً لا نهائية. مهمته لا نهائية، وأشكال عذابه لانهائية: فلو كانت هنالك وراء المجرة أرض اخرى اين يملك البشر ستّة سواعد، كما يوجد لدينا في الأرض المجهولة، لسمّر ابن الرب لا فوق صليب بل فوق لوحة في شكل نجمة ـ وهو شيء يبدو لي جديرا بكاتب كوميديات».

فصرخ القسّ وقد طار صوابه: «كفى، سأضع أنا حدا لكوميديتك أنت!» وارتمى على سان سافان مسدداً ضرباته الأخيرة.

وتصدى لها سان سافان بضربات مضادة ناجعة، ثم حدث شيء مفاجيء. بينما كان القس رافعا سيفه بعد ان واجه ضربة سابقة، تحرك سان سافان في محاولة لتسديد ضربة دائرية مقلوبة، وتظاهر بالسقوط إلى الأمام. وتراجع القس جانبيا، مؤملا ان يصيبه اثناء سقطته. الا ان سان سافان، الذي لم يفقد التحكم في ساقيه، انتصب واقفا بسرعة مذهلة، مرتكزا على يسراه المرشوقة في الأرض، بينما ومضت اليمنى نحو الأعلى: كانت تلك «ضربة النورس». وأصاب طرف السيف وجه القس، من قاعدة الأنف إلى الشفة، شاقا الشارب الأيسر.

كان القسّ يلعن مجدفا تجديفا لا يتجرّأ عليه حتى من كان أبيقورياً، بينما كان سان سافان يقف وقفة المحييّ، والحاضرون يصفقون تنويها بتلك الضربة الجريئة.

الا انه في تلك اللحظة بالذات، ظهرت في أسفل الشارع دورية اسبانية، ربما لفتت الضجّة انتباهها. وتلقائيا مدّ الفرنسيون ايديهم إلى

سيوفهم، وعندما رأى الإسبان ستّة أعداء شاهرين السلاح نادوا بالخيانة. وصوب احد الجنود بندقيته وأطلق النار. وسقط سان سافان على الأرض وقد اصيب في صدره. ورأى الضابط ان اربعة اشخاص، عوض ان يواصلوا القتال، هرعوا نحو الجريح وقد القوا بأسلحتهم، ونظر إلى القسّ فرأى وجهه مغطى بالدم وفهم انه شوّش مبارزة، فألقى أوامره إلى رجاله، واختفت الدورية.

وانحنى روبارتو على صديقه المسكين. «أرأيت»؟ قال له سان سافان وهو ينطق بصعوبة «أرأيت تلك الضربة يا لاغريف؟ فكّر فيها وتمرّن عليها. لا أريد ان يموت سرّها معي..».

فقال روبارتو باكيا: «سان سافان، يا صديقي، لا يجب ان تموت بهذه الطريقة السخيفة!»

ـ «سخيفة؟ لقد انتصرت على رجل سخيف وها أنا اموت فوق ساحة المعركة، وبرصاص العدو. لقد اخترت في حياتي ان اعيش باعتدال متبصّر... الإفراط في جدّية القول يجلب الملل. والإفراط في الهزل يجلب الاحتقار. والتفلسف دائما يجلب الحزن. والسخرية دائما تؤدي إلى المضايقة. لقد قمت بجميع الأدوار، حسب الأوقات والظروف، وكنت احيانا مهرّج البلاط. ولكن هذه الليلة، لو أنت أحسنت رواية هذه القصة، لما كانت ملهاة، بل مأساة جميلة. ولا تحزن على موتي، يا روبارتو»، ولأول مرة دعاه باسمه، «une heure après la mort, notre âme évanouie, sera ce que'elle estoit une heure avant la vie...*» أبيات جميلة، أليس كذلك؟.

ولفظ نفسه الأخير. وقرّر الآخرون بموافقة القس أن يختلقوا كذبة نبيلة، وقيل في المدينة ان سان سافان لقي حتفه في صراع مع بعض المرتزقة كانوا يحاولون الاقتراب من القلعة. وبكاه تواراس وجميع الضباط الآخرين كما يبكى الأبطال. وقال القس انه جرح اثناء

المواجهة، واستعدّ لقبول وظيفة ذات دخل عند عودته إلى باريس.

وهكذا خسر روبارتو في زمن قصير أباه، وحبيبته وصحته وصديقه، وربما أيضاً الحرب.

لم يجد عزاء في الأب ايمانويل الذي كان منشغلا جدا بمسار المفاوضات. وعاد إلى خدمة السيد دي توراس، آخر من تبقى له من الأشخاص الذين ألفهم، يحمل أوامره ممّا جعل منه شاهدا على الأحداث الأخيرة.

في 13 سبتمبر وصل إلى القلعة مبعوثو ملك فرنسا، ودوق سافويا، والقائد مزاريني. حتى جيش الإنقاذ كان يتفاوض مع الإسبان. ومن غرائب ذلك الحصار ان الفرنسيين طلبوا هدنة لتمكينهم من الوصول في الإبان لإنقاذ المدينة ؛ وقبل الإسبان منح الهدنة لأن معسكرهم أيضاً، الذي اجتاحه الوباء، كان يعاني من ازمة حادة، فقد كثر الفارون من الجيش وسبينولا كان في الرمق الأخير. وفرض القادمون الجدد على توراس تراتيب المعاهدة، التي تسمح له بمواصلة الدفاع عن «كزالي» بينما فعليا كانت «كزالي» قد سقطت: يبقى الفرنسيون في الحصن، تاركين المدينة والقلعة نفسها للإسبان، على الأقل إلى 15 من اكتوبر. ان لم يصل في حدود ذلك التاريخ جيش الإغاثة، يترك الفرنسيون موقعهم ذلك، منهزمين نهائيا. في الحالة الأخرى يعيد الإسبان اليهم المدينة والقلعة.

وتبعا لذلك، كان على القائمين بالحصار ان يمدّوا المحاصرين بالزاد. ليست هذه دون شك الطريقة التي في تصورنا يمكن ان يقام بها حصار في ذلك الوقت، ولكنها كانت الطريقة التي كان يراد بها في ذلك الوقت ان ينتهي. لم تكن حربا، كانت مثل لعبة النرد، حيث تتوقف اللعبة عندما يذهب احد المتنافسين ليبول. أو مثل الذي يراهن على الجواد الغالب. والجواد هو ذلك الجيش، الذي كان عدده يزداد كل يوم

أكثر في الأذهان بدافع الأمل، ولكن لا أحد رآه إلى ذلك الحين. كانت الحياة تتواصل في «كزالي»، وفي «الحصن»، كما كانت تتواصل فوق دافني: وهو يتخيّل جزيرة بعيدة، بينما الدّخلاء في البيت.

وإن كان سلوك طليعة الجيش الإسباني سلوكا مرضيا، فقد دخل الآن إلى المدينة جلّ الجيش، وصار الكزاليون يواجهون الآن جماعات من المتوحشين يسلبون كل ما يقع تحت ايديهم ويغتصبون النساء ويعنفون الرجال وينغمسون في متع الحياة بعد شهور عديدة قضوها في الغابات والحقول. والشيء الوحيد الذي لم يكن ينقص المحتلّين ولا الذين وقع احتلالهم ولا اولئك المسجونين في الحصن هو الوباء.

في 25 سبتمبر ذاع خبر موت سبينولا. فشاع الفرح بين الموجودين في الحصن، وعمّت البلبلة في معسكر المنتصرين، الذين تيّتموا مثلما تيّتم روبارتو. كانت اياما احلك من تلك التي قضاها على متن دافني، إلى يوم 22 اكتوبر عندما وصل خبر اقتراب جيش الإغاثة، الذي كان بلغ «أستي». وشرع الإسبان في تسليح القلعة، وفي تصفيف المدافع على ضفاف نهر «بو»، دون احترام المعاهدة (كما كان يقول توارس وهو يجدّف)، التي تنصّ على انسحابهم من «كزالي» اذا ما وصل جيش الإغاثة. ولفت الإسبان، على لسان السيد دي سالزار، نظر الفرنسيين إلى ان المعاهدة تحدد تاريخ 15 اكتوبر كأقصى حدّ، وأنه كان على الفرنسيين ان يتركوا الحصن منذ أسبوع.

في 24 اكتوبر من أعلى اسوار الحصن لوحظت تحركات كبيرة في جيش العدوّ، وتهيأ توارس بمدافعه لمساعدة الفرنسيين القادمين ؛ في الأيام الموالية بدأ الإسبان في شحن امتعتهم على النهر لإرسالها إلى «اليساندريا»، وكان لهذا وقع حسن على اهالي الحصن. الا ان العدوّ فوق النهر بدأ يهيىء لصنع جسور يستعملها في حالة انسحابه. ولم يستحسن توارس هذه العملية فأخذ يرميهم بمدافعه. وكردّ فعل اوقف الإسبان جميع الفرنسيين الموجودين في المدينة، أما عن وجودهم إلى

ذلك الحين في المدينة فأعترف ان ذلك أمر استعصى علي فهمه، ولكن هذا ما أورد روبارتو، وصرت مستعدا لقبول كل الاحتمالات من ذلك الحصار.

كان الفرنسيون على مقربة، وكان الجميع على علم بأن مزاريني يعمل ما في وسعه للحيلولة دون مواجهة الجيشين، بتفويض من البابا. كان يتنقل من معسكر إلى آخر، ثم يعود للتفاوض في دير الأب إيمانويل، ليذهب من جديد على جواده حاملا اقتراحات طرف إلى الطرف الآخر. كان روبارتو يراه دائما وفقط من بعيد، قد غشاه الغبار، لا يبخل على أحد بتحيّة من قبعته. في الأثناء كان الطرفان متوقفين، لأن من يقوم منهما بالحركة الأولى سيمنى حتما بفشل ذريع. إلى حدّ ان روبارتو تساءل ان لم يكن جيش الإغاثة من ابتكار ذلك القائد الشاب، الذي بعث نفس الحلم في القائمين بالحصار وفي المحاصرين.

وفعلا منذ شهر يونيو كان المنتخبون الإمبراطوريون يجتمعون في «راتيسبونا»، وأرسلت فرنسا سفراءها، ومن بينهم الأب جيوزيبي. وبينما كانت تقع قسمة المدن والجهات، وصلت الأطراف إلى اتفاق حول «كزالي» منذ 13 اكتوبر. وعلم مزاريني مبكرا بذلك، كما قال الأب إيمانويل لروبارتو، ولم يبق الا اقناع الطرفين، سواء من كانوا في الطريق أو اولئك الذين كانوا ينتظرونهم. وبلغت الإسبان أخبار عديدة، ولكنها متناقضة ؛ وكان الفرنسيون هم أيضاً على علم ببعض الشيء، ولكنهم كانوا يخشون ان لا يكون ريشليو موافقا ـ وفعلا لم يكن موافقا، ولكن منذ تلك الأيام كان الكاردينال المقبل مزارينو يعمل ما في وسعه لتذهب الأمور حسب مشيئته ودون علم ذلك الذي سيصير من بعد ظهيره.

كانت الأمور على هذا النحو عندما تقابل الجيشان في 26 اكتوبر. عند المشرق على خط الهضاب ناحية «فراسّينيتو»، تمركز الجيش الفرنسي؛ وقبالته، على شمال النهر، في السهل الممتد بين الهضاب

والأسوار، وقف الجيش الإسباني، الذي كان تواراس يرميه بالمدافع من الخلف.

كانت تخرج من المدينة عربات حربية تابعة للعدو، وجمع تواراس ما تبقى لديه من الفرسان وأرسلهم خارج الأسوار، ليسدّوا الطريق أمامها. وتوسل روبارتو كي يتركوه يشارك في العملية، ولكن طلبه قوبل بالرفض. وصار الآن يحس بنفسه وكأنه فوق سفينة، لا يستطيع النزول منها، ويشاهد جزءا كبيرا من البحر ومرتفعات جزيرة منعوه من بلوغها.

وفجأة سمعت طلقات نارية، ربما التقت الوحدات المتقدمة من الجيشين: وقرر تواراس القيام بخرجة، ليشغل جند جلالته الكاثوليكية على جبهتين. كانت الوحدات على وشك الخروج من الأسوار، عندما شاهد روبارتو من أعلى الأسوار، فارسا أسود كان يجول بين الجيشين على خطّ النار، دون خوف من الطلقات الأولى، وهو يلوّح بورق صائحا ـ كما روى له الحاضرون ـ «السلام، السلام!».

كان ذلك الفارس هو القائد مزاريني. خلال تنقلاته الأخيرة بين الطرفين، توصل إلى اقناع الإسبان بقبول اتفاقات «راتيسبونا». لقد انتهت الحرب. وبقيت «كزالي» لنيفارس، وتعهد الفرنسيون والإسبان بتركها. وبينما كانت الجموع تتفرق، قفز روبارتو على صهوة جواده المخلص «بانيوفلي» وجرى إلى موقع المواجهة التي لم تقع. وشاهد النبلاء في شكاتهم المذهبة وهم منصرفون إلى التحيات المعقدة، والمجاملات، والخُطا الراقصة، بينما كانت تعدّ الطاولات الصغيرة التي أمكن العثور عليها لإمضاء الاتفاقيات.

في اليوم الموالي شرع الجميع في مغادرة المكان، سبق الإسبان ثم تبعهم الفرنسيون، ولكن في شيء من الفوضى، مع لقاءات عرضية، وتبادل للهدايا، وسط عبارات الصداقة، بينما في المدينة كانت تتعفن تحت الشمس جثث الموبوئين، ويتعالى نحيب الأرامل، وبعض

البورجوازيين وجدوا انفسهم أكثر مالا من ذي قبل وأكثر مرضا بالزهري من ذي قبل، مع أنهم لم يضاجعوا إلاّ زوجاتهم.

وحاول روبارتو أن يعثر على فلاّحيه، ولكن لا أحد كان يعرف شيئا عن جيش لاغريف. ربما مات بعضهم من جراء الوباء، وتشتت الآخرون. وفكر روبارتو انهم ربما عادوا إلى ديارهم، وقد يكونون أعلموا أمه بوفاة أبيه. وتساءل ان لم يكن من واجبه ان يكون بجانبها في هذه الفترة، ولكنه كان لا يفهم جيدا أين واجبه.

من الصعب أن نقول ما الذي زعزع عقيدته أكثر: العوالم الصغيرة إلى ما لا نهاية له أو الكبيرة إلى ما لا نهاية له، السابحة في فراغ ليس فيه رب ولا قاعدة، التي حدثه عنها سان سافان، أم الدروس في الحذر التي لقنه اياها دي ساليتا وسالزار، أم فن الأعمال البطولية التي تركها له الأب ايمانويل كعلم وحيد.

من الطريقة التي كان يذكر بها كل ذلك على دافني أظن انه عندما كان في «كزالي»، وحين فقد اباه وهويته في حرب ذات معان عديدة ودون أيّ معنى، تعلّم روبارتو ان ينظر إلى العالم الكوني كشبكة غير آمنة من الألغاز، لم يعد يوجد وراءها «مؤلف» ؛ او، إن كان موجودا، فهو تائه في اعادة صنع نفسه من زوايا تكاثر عددها.

وإن تراءى لذهنه في ذلك الحين ان العالم لا يملك نقطة دائرة، بل هو فقط خطوط دائرية، فقد كان آنذاك يحس بنفسه حقيقة في أبعد تلك الخطوط؛ لأنه، لو كانت هناك نقطة دائرة، فهي أمامه، وهو ليس الاّ كوكبها الجامد.

15

ساعات (البعض منها نائسة)

أظن انه لهذا الأمر تحدّثت منذ مائة صفحة على الأقل عن أحداث عديدة سبقت الغرق والنجاة فوق دافني، دون أن أجعل أحداثا تقع على دافني نفسها. وإن كانت الأيام فوق سفينة مهجورة أياما فارغة، فلست أنا السبب في ذلك، اذ لا أدري إلى الآن ان كانت هذه القصة تستحق ان تدوّن، كما ان اللوم ليس على روبارتو. على الأكثر، ما يمكن ان نعيب على روبارتو هو انه قضى يوما كاملا (بين أمر وآخر لم تمض اكثر من ثلاثين ساعة منذ ان تفطن إلى ان أحدهم سرق البيض) وهو يبعد عن فكره الاحتمال الوحيد الذي ربما سيجعل اقامته اكثر تشويقا. وكما اتضح له بعد فترة وجيزة، كان من العبث ان يتصور دافني سفينة بريئة. فوق ذلك المركب كان يطوف، أو يختبىء شخص أو شيء بخلاف شخصه هو. حتى فوق تلك السفينة ليس بإمكانه ان يتصوّر حصارا صرفا. العدوّ يوجد في الداخل.

كان عليه ان يرتاب منذ ليلة عناقه للخرائط. عندما عاد إلى وعيه أحس بالعطش. كانت الغرفة فارغة، فذهب للبحث عن برميل من الماء. تلك التي وضعها لجمع ماء المطر كانت ثقيلة، ولكن براميل اخرى أصغر حجما كانت توجد في المخزن. ذهب إلى هنالك، وأخذ اول برميل كان في متناول يده ـ عندما فكر في ذلك من بعد، اعترف انه كان

في متناول اليد بصفة مفرطة ـ وعندما بلغ الحجرة، وضعه على الطاولة، والصق فمه بالحنفية.

لم يكن ماء، وعندما سعل تفطن إلى ان البرميل كان يحوي عرقا. لم يكن يدري عرق ماذا، ولكن خبرته بالفلاحة جعلته يجزم بأنه ليس ماء عنب. ووجد طعم الشراب مستساغا، فأفرط منه وقد ملأه حبور مفاجىء. لم يمر بخاطره انه لو كانت جميع البراميل الصغيرة في المخزن مثل ذلك البرميل، فعليه ان ينشغل بخصوص مؤونته من الماء العذب. كما انه لم يتساءل كيف انه في الليلة الثانية شرب من البرميل الأول في المخزن ووجده مليئا بالماء العذب. ولم يتيقن الا من بعد ان شخصا وضع، بعد البرميل الأول، تلك الهدية الغادرة في متناول يده حتى يأخذها دون غيرها. شخص يريده في حالة سكر، ليخضعه لإرادته. ولكن ان كانت هذه هي الخطة فروبارتو قد تجاوب معها بحماس كبير. لا أظن انه شرب قدرا كبيرا ولكن بالنسبة إلى مبتدىء مثله فبعض الأقداح كافية ان لم نقل فوق ما يلزم.

وما يتبع من هذه القصة يجعلنا نستنتج ان روبارتو عاش الأحداث الموالية في حالة متغيّرة، وانه ظل على هذه الحالة في الأيام الموالية.

وكما يقع عادة للسكارى، غلبه النوم، ولكن عذاب العطش أصبح أكثر حدة. في هذه الغفوة المضنية عادت إلى فكره صورة أخيرة من «كزالي». قبل مغادرة المدينة ذهب لتحية الأب ايمانويل ووجده منكباً على تفكيك ولف آلته الشعرية، للعودة إلى «تورينو». ولكنه، بعد ان ترك الأب ايمانويل، اعترضت طريقه العربات التي كان الإسبان يكومون فوقها قطع آلاتهم الحربية.

كانت تلك العجلات المسننة تملأ حلمه: كان يسمع احتكاك مغالق، وصرير محاور، وكانت اصواتا لا يمكن هذه المرة ان تكون قد أحدثتها الريح، اذ ان البحر كان ساكناً كالزيت. وضايقه ذلك، كمن يستفيق وهو يحلم انه في حلم، وأجهد نفسه ليفتح عينيه، فسمع من

جديد ذلك الصوت، آتيا اما من تحت السطح أو من قاع السفينة.

عندما نهض أحسّ بوجع كبير في رأسه. وحتى يداويه لم يجد افضل من ان يشرب من جديد من البرميل وعندما تركه أحسّ بنفسه أسوأ من ذي قبل. تسلّح، بعد ان أخطأ مرّات عديدة في شدّ الموسى إلى حزامه، ورسم عدّة مرات علامة الصليب ثم نزل وهو يترنّح.

تحته، كما كان يعرف ذلك، كان يوجد مقبض الدفة. نزل أكثر، إلى ان انتهى السلم: لو اتجه نحو الجؤجؤ، لوجد نفسه في الحديقة. نحو الكوثل كان يوجد باب لم يسبق له أن فتحه. من ذلك المكان كانت تأتي، بضجة أصبحت الآن كبيرة، طقطقة متنوعة وغير متساوية، كأنها ايقاعات متعددة متراكبة، كان يميز من بينها احيانا «تك، تك»، احيانا «توك،توك» واحيانا «تاك،تاك»، وجمليا كان صوتا يقول «تيكتيك ـ توك ـ تاكتاك ـ تيك». كما لو كانت وراء ذلك الباب مجموعات من الزنابير والطنانين، في طيران هائج ومدارات مختلفة، تصطدم بالحواجز وتتراجع لتصطدم ببعضها البعض. وكان يخشى لو فتح الباب ان تهاجمه الذرات المجنونة التي تسكن تلك الخليّة.

بعد تردد طويل صمّم، وبظهر البندقية كسر قفل الباب ودخل.

كان المخزن يتلقى النور من كوة أخرى، ويؤوي ساعات.

ساعات عديدة: ساعات مائية، ساعات رملية، مزولات موضوعة قرب الجوانب، ولكن أغلبها كانت ساعات ميكانيكية موضوعة فوق رفوف مختلفة وصناديق، ساعات تحركها مثاقيل تصعد وتنزل ببطء، أو تحركها عجلات مسننة تقضم عجلات اخرى، وهذه بدورها تعض اخرى، إلى ان تصل إلى عجلة اخيرة تشد على شفرتين غير متساوتين لقضيب عمودي، وتديرهما نصف دورة في اتجاهين معاكسين، وبهذه الرقصة الفاحشة كانت تحرك قضيبا افقيا مشدودا إلى الطرف الأعلى؛ وساعات ذات زنبرك فيها مخروط مخدّد يكرّ سلسلة صغيرة، تجذبها

حركة دائرية لبرميل صغير كان يتمكن منها زريدة بعد زريدة.

كانت بعض تلك الساعات تخفي دولابها وراء زخرف قد التهمه الخز أو وراء اعمال منحوتة متآكلة، ولا تظهر الا حركة عقاربها البطيئة ؛ ولكن اغلبها كانت تكشف اسنانها الحديدية، وتذكر برقصات الموت حيث الشيء الوحيد الحيّ هو الهياكل المكشرة التي تحرك منجل الزمان.

كانت جميع تلك الساعات في حركة، تلك الرملية الكبيرة الحجم كانت لا تزال تنفث الرمل، والصغيرة كانت تكاد تكون مليئة في شطرها الأسفل، أما البقية فكنت لا تسمع الا صرير أسنان، ومضغا مربوءاً.

كان يبدو لمن يدخل لأول مرة ان تلك المجموعة من الساعات كانت تمتد إلى ما لا نهاية له: كان قاع الحجرة مغطى برسم يمثّل تتابعا لحجرات تسكنها ساعات أخرى. ولكن حتى بعد التحرر من ذلك السحر، إزاء تلك الساعات الحقيقية، من لحم ودم ان اردنا، كان هناك ما يبعث على الدهشة.

قد يبدو ذلك غريبا ـ بالنسبة اليكم أنتم الذين تقرأون هذه الواقعة بتجرد ـ ولكن غريقا، وسط ضبابات الخمر وفوق سفينة مهجورة، عندما يجد مائة ساعة تقص بتساوق تاريخ زمنه اللامتناهي، سيفكر في القصة قبل ان يفكر في مؤلفها. وهذا ما فعل روبارتو، تأمل في تلك الأُلهيات واحدة بعد الأخرى، كأنها لعب تتسلى بها مراهقته الخرفة هو المحكوم عليه باحتضار لا ينتهي أمده.

ولمع البرق في خاطره من بعد، كما كتب روبارتو، عندما خرج من ذلك الكابوس واتضحت لديه ضرورة ان يجد علة لكل ذلك: فإن كانت جميع الساعات تعمل، فذلك يعني ان أحدا شغلها: حتى وان كان تشغيلها قد صمّم ليدوم طويلا، وحتى وان شغلت قبل وصوله، فقد كان عليه ان يسمعها قبل ذلك عندما مرّ بالقرب من ذلك الباب.

لو كان الأمر يتعلق بآلية واحدة لفكّر انها متهيأة للتشغيل ويكفي

في هذه الحالة ان يعطيها أحد حركة الإنطلاق؛ وربما آنذاك انطلقت بفعل حركة السفينة، أو ان طائرا بحريا دخل من الكوة وحطّ على رافعة، أو على مساك، محدثا سلسلة من الحركات الميكانيكية. الا تحرك الريح احيانا اجراس الكنائس، ولم يحدث أحيانا ان عادت إلى الوراء، من تلقاء نفسها، اغلاق لم تدفع إلى نهاية دورتها؟

ولكن لا يمكن لطائر ان يشغل بضربة واحدة عشرات الساعات. كلا. بقطع النظر عن وجود فيرّانتي ام لا، فعلى السفينة يوجد دخيل، ما في ذلك شك.

هذا الأخير دخل إلى المخزن وشغل جميع آلياته. السؤال الأول هو ما الذي دفعه إلى ذلك، ولكن ما يهم أكثر هو اين اختبأ بعد ذلك.

يجب إذن ان ينزل إلى قاع السفينة: كان روبارتو يقول لنفسه انه لا مفرّ من ذلك، ولكنه بينما كان يعيد على نفسه عزمه القار، كان يؤخر انجازه. فهم انه لا يتحكم في نفسه تماما، صعد إلى سطح السفينة وبلّل رأسه بماء المطر، وبعد ان تلاشى الضباب من ذهنه تهيأ للتفكير حول هوية الدخيل.

لا يمكن ان يكون همجيا من سكان الجزيرة، ولا بحارا بقي على قيد الحياة، والا حاول القيام بشيء ما (ان يهاجمه في وضح النهار، أو يقتله اثناء الليل، أو يطلب العفو) ما عدا إطعام الدجاج وتشغيل آليات. من يختبيء فوق دافني هو إذن رجل مسالم ومن اصحاب العلم، ربما هو ساكن غرفة الخرائط. إذن ـ ان كان موجودا، وبما انه كان موجودا قبل وصوله ـ فهو دخيل شرعي. ولكن هذه النقيضة الجميلة لم تخفف من قلقه الغاضب.

ان كان الدخيل شرعيا، فلماذا يختبيء خوفا من روبارتو اللامشروع؟ وان كان يختبيء، لماذا يفضح وجوده بتخطيط ذلك الحفل الساعاتي؟ ربما كان رجلا ذا عقل منحرف، يخاف منه ويعرف نفسه

عاجزا عن مواجهته، يريد القضاء عليه عن طريق الجنون؟ ولكن ما نفعه من ذلك، بما انه هو أيضاً غريق فوق تلك الجزيرة الاصطناعية، ولا يمكن الا ان يستمد نفعا من موالاة رفيق في البؤس؟ كان روبارتو يقول في نفسه ان دافني ربما كانت تخفي أسرارا أخرى لا يريد الآخر ان يكتشفها أحد.

إذن جواهر وذهب، وجميع ثروات الأرض المجهولة، أو ثروات جزر سليمان التي حدثه عنها كولبار...

وكان ان حدث لروبارتو مثل الوحي عندما تذكر جزر سليمان. هو ذاك، دون شك، الساعات! ماذا تفعل كل تلك الساعات فوق سفينة تجوب البحار حيث الصباح والمساء يعرّف بهما مجرى الشمس، ولا حاجة لغير ذلك؟ لقد وصل الدخيل إلى ذلك الإستوائي النائي ليبحث هو الآخر، مثل الدكتور بيرد، عن el Punto Fijo! الأمر هو دون شكّ على هذا النحو. ومن غريب الصدف ان روبارتو، الذي انطلق من هولندا، جاسوسا في خدمة الكاردينال، ليتبع تحركات سرية لرجل انجليزي يسافر خفية أو يكاد فوق سفينة هولندية، بحثاً عن الـ«punto fijo»، يجد نفسه الآن فوق سفينة (هولندية) تابعة لشخص آخر، لا يدري احد من أي بلد كان قادما، ومنكبّ هو الآخر على اكتشاف نفس السرّ.

16

حديث حول مسحوق الانجذاب

كيف حشر نفسه في تلك الخديعة؟

لا يكشف روبارتو الا قليلا عمّا حدث في السنوات الواقعة بين عودته إلى «لاغريف» ودخوله المجتمع الباريسي. من اشارات متفرقة يتضح انه بقي بجوار امه يساندها إلى حدود سنّ العشرين، متحاورا عن كره مع المزارعين بخصوص البذر وجمع المحاصيل. وما ان تبعت أمه إلى القبر أباه، حتى اكتشف روبارتو نفسه غريبا عن ذلك العالم. ما يدلّ على ذلك انه عهد بممتلكاته إلى احد اقربائه، مقابل إيراد لا بأس به، وأخذ يجوب العالم.

كان قد بقي على اتصال بشخص معروف في «كزالي»، كان يحثّه على توسيع معارفه. لا أدري كيف وصل إلى «اكس أن بروفانس»، ولكن من المؤكد انه ذهب إلى هنالك، بما انه يذكر بشوق سنتين قضّاهما قرب أحد النبلاء أصيل تلك البقاع، مطّلع على كل العلوم ويملك مكتبة ثرية لا فقط بالكتب بل وأيضاً بالتحف الفنية، والآثار القديمة والحيوانات المقششة. وربما يكون قد تعرّف لدى مضيفه على ذلك الأستاذ، الذي يسميه دائما بإجلال «قسّ دينيو»، ويدعوه أحيانا le doux prêtre». وبرسائل من قبله تمكن اخيرا، في تاريخ غير محدد، من مواجهة باريس.

هنا اتصل فورا بأصدقاء القسّ، وسمح له بالتردد على احد الأماكن الأعلى مقاما في المدينة. كان يذكر دائما صالون الأخوين دوبوي ويتحدث عنه كمكان كانت فيه آفاق فكره تتّسع كل مساء، صحبة رجال ذوي علم. ولكنني أجد أيضاً ذكراً لصالونات أخرى كان يتردد عليها في تلك السنوات، تزينها مجموعات من الميداليات، والخناجر التركية، والعقيق، والندر الرياضية، وأصداف من الهند...

في أي وسط من الأوساط كان يطوف في ربيع أو في أوائل صيف عمره البهيج؟ في هذا الخصوص تخبرنا الاستشهادات المتكررة لتعاليم تبدو لنا في الحقيقة متنافرة. كان يقضي ايامه يتعلم عن القسّ كيف يتصور عالما متكوّنا من الذرات، حسب تعليم ابيقور، ومع ذلك فقد أرادته وسيّرته العناية الإلهية؛ ولكنه، مستجيبا لنفس حبه لأبيقور، كان يقضي الأمسيات صحبة رفاق يقولون عن انفسهم انهم أبيقوريون، ويحسنون تناوب التماش من سرمدية العالم إلى معاشرة سيدات جميلات وخليعات.

غالبا ما يذكر زمرة من الرفاق خليّي البال ولكنهم وإن كانوا في سن العشرين فقد كانوا لا يجهلون ما كان بعضهم يتفاخر بمعرفته في سن الخمسين، لينيار، شبال، داسوسي، فيلسوف وشاعر يطوف متقلدا مزهرا، بوكلان الذي كان يترجم لوقريتيوس ولكنه يحلم ان يصبح مؤلف كوميديات غنائية، هرقل سافينيانو، الذي قاتل ببسالة في حصار «أرّاس»، كان يؤلف خطابات غرامية لمعشوقين خياليين ويظهر ألفة عاطفية مع شبان من النبلاء، متباهياً بأنه اصيب من جرّائهم بالمرض الإيطالي ؛ ولكنه في الوقت نفسه كان يسخر من رفيق في الفجور «qui se plaisoit a l'amour des masles»، وكان يقول متهكما انه ينبغي ان يعذروا خجله، الذي كان يضطره إلى الاختفاء وراء اكتاف اصدقائه.

بعد ان رأى نفسه مقبولا في ذلك المجتمع من ذوي الفكر القوي، صار ـ إن لم نقل عالما ـ لا يطيق التفاهة، التي كان يلاحظها سواء في

نبلاء البلاط، أو في بعض البرجوازيين الأثرياء الذين يعرضون في نظام جميل صناديق فارغة مجلدة بسختيان مشرقي، نقشت على ظهرها بأحرف ذهبية أسماء كبار المؤلفين.

بإيجاز دخل روبارتو دائرة اولئك الأشخاص المعتبرين «honnêtes gens» الذين، وان كانوا لا ينتمون إلى نبالة الدم فقد كانوا مع ذلك من النبالة المسمّاة بـ«noblesse de robe»، ويمثلون خيار أناس ذلك العالم. ولكنه كان شابا، متشوقا إلى تجارب جديدة، وبالرغم من علاقاته العلمية وخرجاته الفاجرة، فقد كان يؤثر فيه سحر النبالة.

بقي مدة طويلة يتأمل من الخارج، عندما يتنزه في المساء عبر شارع سان توماس دي لوفر، قصر رومبوييّ، بواجهته الجميلة المزدانة بالشرفات، والنقوش، والأقواس والأعمدة، في تداول بين الآجر الأحمر، والحجر الأبيض والأردواز القاتم.

كان ينظر إلى النوافذ المنارة، ويرى الأضياف يدخلون، ويتصور جمال الحديقة الداخلية، ويتخيل أجواء ذلك البلاط الصغير الذي كانت باريس بأجمعها تتباهى به، أسّسته سيدة ذات ذوق رَفيع، كان قد بدا لها ذلك البلاط الآخر قليل الظرف، خاضعا لأهواء ملك عاجز عن تذوق دقائق الفكر.

وخمّن روبارتو في نهاية الأمر انه كزائر قادم من وراء الألب سيحظى بقبول حسن من قبل سيدة نشأت من أمّ رومية، من سلالة أعرق من روما نفسها، تعود إلى عائلة من «ألبا لونغا». وليس من الصدف، انه قبل ذلك بخمس عشرة سنة تقريبا، أنار الفارس مارينو للفرنسيين، بينما كان ضيف شرف في تلك الدار، مسالك الشعر الجديد الذي اضمحلّ أمامه فن القدامى.

وتمكن من دخول ذلك المعبد من الأناقة والفكر، الحافل بالنبلاء والسيّدات أو «precieuses» (كما كان يقال في ذلك الوقت)، وبعلماء لا

يعرفون التحذلق، وبظرفاء بعيدين عن الفسق، وبمرحين دون سوقية، وبصفائيين لا تنالهم السخرية. كان روبارتو يجد راحته في ذلك الجو: كان يبدو له انه باستطاعته ان يتنفس هنالك هواء المدينة الكبيرة والبلاط دون عناء الالتزام بقواعد الحذر التي لقنه إياها في «كزالي» السيد دي سالزار. فما كان عليه ان يستجيب لإرادة أحد من ذوي النفوذ، بل كان عليه ان يظهر تفرّده. لا ان يخفي، بل ان يتبارى ـ مع إتباع بعض قواعد الذوق ـ مع من هو أفضل منه. وما كان عليه ان يبدي الممالقة، بل التجاسر، وان يظهر مهارته في تناول الحديث بذكاء وأدب، وان يعبر برقة عن افكار عميقة... لم يكن يشعر بنفسه خادما بل مبارزا، مطالبا ان يظهر كل جسارته الفكرية.

كان يعوّد نفسه على تفادي التكلف، ويعنى في كل شيء بإخفاء الجهد والصعوبة، حتى يبدو ما يفعله أو ما يقوله هبة تلقائية، محاولا ان يصبح استاذا في ما يسمونه في ايطاليا بالطلاقة المستخفّة، وفي اسبانيا بـ «despejo».

كان متعودا على فضاءات «لاغريف» العابقة بالخزامى، وعندما دخل قصر أرتينيس صار روبارتو الآن يتحرك وسط قاعات تفوح دائما بعطور باقات لا يحصى عددها، كما لو كان الفصل دائما ربيعا. في المنازل النبيلة القليلة التي عرفها كانت القاعات منقسمة يفصل بينها مدرج وسطي؛ لدى أرتينيس وضعت المدارج في زاوية عند آخر الساحة، حتى يكون الباقي مجموعة من القاعات والصالات، ذات أبواب ونوافذ عالية، يواجه أحدها الآخر؛ ولم تكن القاعات كلها ملونة بالأحمر المملّ، أو في لون الجلد المدبوغ، ولكنها كانت ذات ألوان مختلفة، والغرفة الزرقاء، غرفة المضيفة، كانت جدرانها مغطاة بمخمل في ذلك اللون، موشحا بالذهب والفضة.

كانت أرتينيس تستقبل أصدقاءها مستلقية في غرفتها، وسط أحجبة وستائر سميكة تقي ضيوفها من البرد: كانت لا تطيق لا نور الشمس ولا

حرارة المواقد. النار وضوء النهار كانا يسخنان دمها في عروقها ويسببان لها فقدان الوعي. وقع مرة ان نسوا موقدا تحت فراشها، فأصيبت بالتهاب الجلد. كانت مثل تلك الأزهار، التي للاحتفاظ بنضارتها، لا تتحمل ان تكون دائما معرضة للنور أو للظل، وتحتاج ان يوفر لها الجنّان فصلا خصوصيا. كانت أرتينيس متحفظة، تستقبل ضيوفها وهي في فراشها، وساقاها في كيس من جلد الدب، وتغطي رأسها بالعديد من قلنسوات النوم حتى انها كانت تقول بكثير من الظرافة انها تأتي صمّاء في سان مارتينو وتستعيد سمعها في عيد الفصح.

ومع ذلك، حتى وان لم تكن صغيرة السنّ، فقد كانت تلك المضيفة صورة من اللطافة، قامتها طويلة متناسقة، وملامح وجهها رائعة. لا يمكن وصف النور الذي يشع من عينيها، فقد كان لا يدفع إلى أفكار غير لائقة بل يوحي بحب تتخلله الخشية، مطهرا تلك القلوب التي أضرمها.

في تلك القاعة كانت المضيفة تدير، دون ان تفرض نفسها، أحاديث حول الصداقة أو الحب، ولكنها كانت تتناول بنفس الظرف مسائل في الأخلاق والسياسة والفلسفة. كان روبارتو يكتشف خصال الجنس الآخر من خلال تعابيرهنّ الأكثر رقة، ويعشق من بعيد أميرات بعيدات المنال مثل الآنسة الجميلة بولي التي تدعى «اللبؤة» لشعرها الغزير، وسيدات كن يعرفن كيف يجمعن بين الحسن وذلك الفكر الذي كانت الأكاديميات البالية تنسبه فقط إلى الرجال.

بعد سنوات قليلة قضاها في تلك المدرسة اصبح جاهزا لملاقاة السيّدة.

رآها لأول مرة ذات مساء وقد بدت في ثوب داكن، متحجبة كقمر خجول يتدارى وراء مخمل السحب. «Le bruit»، ذلك الشكل الوحيد الذي كان في المجتمع الباريسي يقوم مقام الحقيقة، أخبره عنها بأشياء

متناقضة، من انها كانت تعيش ترمّلاً قاسياً، لا لموت زوج، بل لفقدان حبيب، وكانت تعلن ذلك الفقدان بمباهاة كبيرة لتؤكد سيادتها على الكائن المفقود. وهمس أحدهم في أذنه انها تخفي وجهها لأنها كانت مصرية ساطعة الجمال، قدمت من بلاد العرب.

لا يهم اين كانت الحقيقة، اذ أن روبارتو، من حركة ثوبها، وخطاها الخفيفة وسرّ وجهها الخفي، وهبها قلبه. كان يضيء بتلك العتمات الساطعة، ويتصورها طيراً فجرياً من كائنات الليل، ويرتعد امام السحر الذي يجعل النور قاتما والعتمة ساطعة، والحبر حليبا والأبنوس عاجا. كان العقيق يسطع في شعرها، والنسيج الرهيف الذي يوحي، بملامح وجهها وجسدها، بينما كان يخفيهما، كان فضيا مثل ضياء النجوم.

الا أنه بصفة فجائية، وفي ليلة لقائهما الأول بالذات، سقط الحجاب لحظة عن جبينها وتمكن من رؤية شعاع عينيها العميق تحت ذلك الهلال القمري. قلبان يتبادلان النظر ويقولان ما لا تستطيع قوله في يوم كامل لغات العالم ـ هكذا كان روبارتو يهنىء نفسه، وهو متأكد انها نظرت اليه، وانها رأته. وعندما عاد إلى البيت كتب اليها.

«سيدتي،

ان النار التي اضرمتِها فيّ ترسل دخانا هو من الرقة بحيث لا يجعلك تنكرين انه بهرك متعلّلة بتلك الأبخرة المسودّة.ان قوة نظرك وحدها اسقطت من يدي كل اسلحة الكبرياء ودفعتني إلى التوسّل اليك ان تطلبي مني حياتي. ان كل ما فعلته من اجل نصرتك، أنا الذي بدأت القتال كمن يريد ان يخسر المعركة، معرضا لهجماتك اضعف جزء من جسدي، قلبا يبكي دموعا من الدم، يدل على انك افرغت بيتي من الماء حتى يصبح فريسة لحريق كانت التفاتتك الوجيزة هي الطعم الذي شبكه!»

ووجد الرسالة مطابقة بصفة رائعة لقواعد آلة الأب ايمانويل الأرسطوطاليسية، مما يجعلها خليقة بأن تكشف للسيدة طبيعة الشخص الوحيد القادر على عواطف في تلك القوة، حتى انه لم ير ضروريا ان يمضيها. لم يكن يعرف إلى ذلك الحين ان الحسان يجمعن رسائل الحب كما لو كانت خيوط حرير ومشابك، تهمّهن معانيها اكثر من كاتبيها.

لم يحصل في الأسابيع والأشهر الموالية على اشارة تفيد الجواب. في الأثناء تركت السيدة في بادىء الأمر الأثواب القاتمة، ثم الحجاب، وبدت له أخيرا في بياض بشرتها غير الإفريقية، وفي جدائل شعرها الشقراء، وفي شعاع حدقيتها اللتين كفتا عن الهروب، وبدتا كنافذتين يلوح منهما الفجر.

ولكنه الآن عندما اصبحت انظاره تتلاقى بحرية بأنظارها، كان يعرف انه يلتقط نظراتها بينما كانت موجهة إلى غيره؛ وكانت تسعده موسيقى كلمات لم تكن موجهة اليه. لم يكن يستطيع العيش الا في نورها، ولكنه كان محكوما عليه ان يبقى في ظل جسم آخر كان يمتصّ شعاعها.

ذات مساء استرق سمعه اسمها، عندما سمع احدهم يدعوها ليليا ؛ كان دون شك الإسم النفيس لتلك النفيسة، وكان يعرف جيدا ان تلك الأسماء كانت تعطى بدافع اللهو: المركيزة نفسها اتخذت اسم Arthenice بعد صياغة جناسية تصحيفية لإسمها الحقيقي - Catherine ويقال ان اساتذي ذلك الفنّ التركيبي، راكان وملارب، ابتدعا أيضاً Eracinthe و Carinthe. ومع ذلك بدا له ان ليليا هو الإسم الوحيد الذي يمكن ان تدعى به مولاته، التي كانت بحقّ زنبقية في بياضها العاطر.

منذ ذلك الحين اصبحت السيدة بالنسبة اليه ليليا، وباسم ليليا كان

يهديها ابياتا غرامية، لا يكاد يتم كتابتها حتى يمزقها من خشيته ان لا تكون جديرة بها: «آه، يا ليليا العذبة،/ ما ان قطفت زهرة، حتى فقدتك!/ أيؤذيك ان أراك من جديد؟/ أجري وراءك فتهربين، / أكلمك فلا تجيبين..». ولكنه كان لا يحدّثها الا بأنظار ملأها حبّ مشاكس، بما انه كلما زاد حب المرء زاد ميله للمشاكسة، وصار يرتعد من برد النار، تهيجه صحة مريضة، ونفسه جذلانة كريشة من الرصاص، اجتاحته سلطة الهوى دون عاطفة الحب؛ وتمادى يكتب اليها رسائل كان يرسلها دون امضاء إلى السيّدة، وأشعارا إلى ليليا، كان يحتفظ بها لنفسه بغيرة ويعيد قراءتها كل يوم.

وبينما كان يكتب (دون ان يرسل اليها) «ليليا، ليليا، اين انت؟ اين تختبئين؟/ ليليا، يا نور السماء الساطع/ قد جئت كالبرق/ لتجرحيني، ولتتركيني»، كان يكثف من حضوره. كان يتبعها ليلا عندما تعود إلى بيتها صحبة خادمتها (عبر الغابات الحالكة،/ والأزقة المظلمة،/ أسعد وأنا أتبع، دون جدوى/ آثار القدم الرشيقة...)، حتى اكتشف مقرّ سكناها. وأخذ يختبىء قرب بيتها ساعة خروجها للنزهة النهارية، ثمّ يتبعها عندما تخرج. بعد بضعة شهور صار يحفظ عن ظهر قلب اليوم والساعة التي غيرت فيهما تصفيف شعرها (وكتب شعرا يصف فيه تلك الجدائل الحبيبة التي قيّدت روحه، تائهة فوق الجبين الناصع كالحيات المسعورة)، وكان يذكر شهر أبريل الساحر حين ارتدت فيه لأول مرة معطفاً صغيراً في لون الوزال، وهبها مشية رشيقة جعلت منها طائرا شمسيا، بينما كانت تمشي وسط هبّات الريح الربيعيّة الأولى.

أحيانا، بعد اقتفاء أثرها مثل الجاسوس، كان يعود أدراجه بسرعة كبيرة، طائفا بالحي، ثم يخفف من خطاه عند المنعطف الذي ستظهر فيه أمامه، كما لو كان ذلك من قبيل الصدفة ؛ عند ذلك كان يبادرها بتحية مرتبكة. وكانت هي تبتسم باحتشام، وقد فاجأتها تلك الصدفة، ثم ترد على تحيته باشارة خاطفة كما تتطلب قواعد الأدب. ويبقى هو وسط

الطريق كأنه تمثال من الملح، ترشه العربات في الطريق بالمياه الراكدة، وقد أضنته معركة الحب.

في ظرف أشهر عديدة تمكّن روبارتو من تحقيق خمس من تلك الانتصارات: وكان يتأثر بكل انتصار كما لو كان الأول والأخير، مقنعا نفسه، بأنه بما انها تعدّدت على ذلك النحو، فلا يمكن ان تكون من قبيل الصدفة، وأنه ربما لم يكن هو، بل هي التي مهّدت لتلك الصدف.

كان روميو تلك الأرض المقدسة المتهربة، عاشقا متقلبا، يريد لو كان هو الريح التي تعبث بشعرها، والماء الصباحي الذي يقبّل جسمها، والثوب الذي يداعبها ليلا، والكتاب الذي تداعبه نهارا، والقفاز الذي يدفىء يديها، والمرآة التي تتأمل محاسنها في كل وضع... وعلم مرة ان أحدهم أهداها سنجاباً، وتصور نفسه حيوانا صغيرا فضوليا، وبينما تداعبه يدفن خرطومه البريء وسط نهديها العذريين، بينما ذيله يربت على وجنتيها.

ويرتبك للجسارة التي يدفعه اليها الوله، ويترجم الصفاقة والإحساس بالذنب بأبيات مضطربة، ثم يقول لنفسه ان رجلا نزيها يمكن ان يكون عاشقا كالمجنون، ولكن لا كالأحمق. لن يتقرر مصيره كمحبّ الا بتقديم دلائل عن فطنته عندما يكون في الغرفة الزرقاء. كان لا يزال مبتدئا في تلك الطقوس الرقيقة، وفهم ان مثل تلك الدرة لن يمكنه الظفر بها الا بسلاح الكلام. وأخذ يستمع إذن إلى أحاديث الصالونات، حيث يتنافس النبلاء كما لو كانوا في مباراة، ولكنه لم يكن يحس بنفسه جاهزا.

وأوحت اليه ألفته بعلماء صالون دوبوي كيف ان مبادىء العلم الجديد، التي لا يزال المجتمع يجهلها، يمكن ان تكون محاكاة لخلجات القلب. وأوحى اليه لقاؤه بالسيد ديغبي بالخطاب الذي سيكون سببا في هلاكه.

السيد ديغبي، أو هكذا كانوا يدعونه في باريس، كان انجليزيا تعرّف عليه في البداية لدى آل دوبوي وبعد ذلك التقى به ذات مساء في احد الصالونات.

لم تمض ثلاثة عقود منذ ان أظهر الدوق دي بوكانكون ان أنجليزياً يمكن ان يملك le roman en teste وان يكون قادرا على اعمال جنونية لطيفة: قيل له انه توجد في فرنسا ملكة جميلة ومتكبرة، وكرس حياته كلها لذلك الحلم، إلى حد الموت بسببه، عائشا زمنا طويلا على متن سفينة نصب فوقها هيكلا إجلالا لمحبوبته. وعندما شاع القول ان ديغبي، وبتفويض من بوكانكون نفسه، قبل ذلك باثنتي عشرة سنة تقريبا قام ضد اسبانيا بحرب قرصنة، منذ ذلك الحين وجده عالم الحسان النفيسات رجلا جذّاباً.

أما لدى آل دوبوي، فقد كان الإنجليز فيه غير شعبيين: كانوا بالنسبة اليهم يتطابقون مع شخصيات مثل Robertus a Fluctibus، Medicinae Doctor، Eques Auratus وقيّم اصطبلات اكسفورد، الذين كتبت ضدّهم أهاجٍ مختلفة تدين ثقتهم المفرطة في أعمال الطبيعة الخفيّة. ولكن مع ذلك كانت تلك الأوساط تتقبل كنسيّاً ممسوساً مثل السيد قفّارال، الذي لا يغلبه أحد في مجال الاعتقاد في أغرب الأشياء، والسيد ديغبي من ناحيته بدا على العكس قادرا على التحدث بعلم واسع عن ضرورة الفراغ ـ وسط جمع من الفلاسفة الطبيعيين كانوا لا يطيقون من لا يطيق الفراغ.

الا ان الحظوة التي كان يتمتع بها ربما تصدعت قليلا لدى بعض النبيلات، اللاتي نصحهنّ باستعمال مرهم تجميل من ابتداعه، تسبب لإحدى السيدات في ظهور فقاعات، وتهامس البعض انه قبل ذلك ببضع سنوات، ذهبت زوجته الحبيبة نفسها ضحية خلاصة صنعها من إغلاء بعض الحيات. ولكن كان ذلك دون شك ثلباً من قبل بعض حساده، مجت اسماعهم احاديثه بخصوص ادوية اخرى صنعها لمداواة حصى

الكلى، متكونة من سائل مستمدّ من روث البقر وأرانب برية عقرتها الكلاب. وهي أحاديث لا يمكن ان تثير إعجابا كبيرا في اوساط كانت تختار فيها بعناية، لمخاطبة السيدات، كلمات خالية من اي مقطع يمكن صوته ان يخدش ولو قليلا سمعهنّ.

ذات مساء، في احد الصالونات، ذكر ديغبي أبيات شاعر من بلاده:

وإن كانت روحانا اثنتين

فإنهما مثل ثابتي بركار توأمين،

روحك ساقه الثابتة، تراها ساكنة،

ولكنها تتحرك لما تتحرّك الأخرى.

وحتى وان كانت في مركزها،

عندما تبتعد الأخرى أكثر،

تميل، وتتبعها محاذرة،

ثم تعود مستقيمة عندما الأخرى

تعود إلى مأواها.

وهكذا أنت بالنسبة لي، أنا الذي

مثل الآخر أسير منحرفا:

ثباتك يراقب دائرتي

ويعيدني سريعا إلى منشئي.

واستمع اليه روبارتو ونظره ثابت على ليليا، التي كانت تدير ظهرها اليه، وقرر انه سيكون لها إلى الأبد ساق البركار الأخرى، وانه يجب عليه ان يتعلم الأنجليزية لقراءة اشياء أخرى من ذلك الشاعر،

الذي كان يعبّر بذلك الكمال عن مشاعره. لا أحد في باريس كان يقبل في ذلك الوقت أن يتعلم لغة همجية مثل تلك اللغة، ولكن عندما رافق روبارتو السيّد ديغبي إلى فندقه فهم أن هذا الأخير كان يجد صعوبة في التحدّث بلغة إيطالية سليمة، رغم انه زار في سفراته شبه الجزيرة، وكان يحس بالخزي لعدم تمكنه من لغة تعتبر ضرورية لكل رجل مثقف. وقررا ان يتآلفا وان يساعد احدهما الآخر على تعلّم لغته.

هكذا نشأت الصداقة القوية بين روبارتو وذلك الرجل، الذي اتضحت له سعة معرفته في العلوم الطبية والطبيعية.

كان قد عاش طفولة رهيبة. تورط والده في «مؤامرة المساحيق»، وأعدم. ومن نادر الصدف، أو ربما نتيجة لذلك، تبرّرها خلجات النفس الخفية، أن كرّس ديغبي حياته للتفكير في شأن مسحوق آخر. كان قد سافر كثيرا، مقضّيا في البداية ثماني سنوات في اسبانيا، ثم ثلاث سنوات في ايطاليا، وهنالك شاءت صدفة أخرى أن يتعرّف على أستاذ روبارتو الكرمليّ.

وكان ديغبي أيضاً، كما يحتّمه ماضيه كقرصان، مسايفاً ماهراً، وها أنك تراه بعد بضعة ايام يتسلّى مع روبارتو في المبارزة بالسيف. وكان معهما ذلك اليوم فارس ملكي كان يتبارز مع حامل علم من فوج التلاميذ؛ كانت المبارزة بقصد التمرن وكان المتبارزان يقظين، واذا بالفارس يحاول بهجمة قوية ان يسمّر منافسه، مجبرا اياه على ردّ الهجوم جانبيا، فجرح في ذراعه جرحا كبيرا.

وعصّبه ديغبي على الفور بإحدى ربطتي ساقيه، لكي يتوقف النزيف، ولكن في ظرف بضعة ايام اصبح الجرح يهدد بالتحول إلى أكال، وقال الجراح انه يجب قطع الذراع.

عند ذلك عرض ديغبي خدمته على الجريح، محذرا مع ذلك انهم ربما سيعتبرونه خدّاعا، وطلب ان يمنحوه ثقتهم. والفارس الذي أغلقت

في وجهه ابواب الشفاء، أجابه بمثل اسباني قائلا: «Hagase el milagro, y hagalo Mahoma».

آنذاك طلب منه ديغبي قطعة من قماش مشربة بدم الجرح، وأعطاه الفارس قطعة كانت تضمده في اليوم السابق. وجيء لديغبي بوعاء به ماء كان قد طلبه ورمى فيه بمسحوق الزاج، وحله في الماء بسرعة. ثم وضع قطعة القماش في الإناء. وفجأة انتفض الفارس، الذي شرد ذهنه في الأثناء، وقبض على ذراعه؛ ثم قال ان حرق الجرح قد كف عنه، بل أضاف أنه يشعر بإحساس منعش في الجرح.

قال ديغبي: "حسنا، الآن يكفي تنظيف الجرح كل يوم بغسله بالماء والملح، كي يتلقى التأثير اللازم. وأنا سأعرّض هذا الإناء، إلى النافذة أثناء النهار، وإلى زاوية من المدفأة اثناء الليل، حتى تبقى حرارته دائما معتدلة».

وبما ان روبارتو كان يعزو التحسن المفاجىء إلى بعض العوامل الأخرى، أخذ ديغبي وهو يبتسم ابتسامة متفطن قطعة القماش وجففها امام المدفأة، وفي الحال عاد الفارس يتألم، وكان من الضروري ان تعاد الخرقة من جديد إلى المحلول.

وفي غضون أسبوع برأ جرح الفارس.

أظن انه، في زمن كانت فيه عمليات النظافة مختصرة، كان الغسل اليومي للجرح كافيا لكي يجعله يبرأ، ولكن لا يمكن ان نلوم روبارتو ان هو قضى الأيام الموالية في سؤال صديقه عن ذلك العلاج، والذي كان اضافة إلى كل ذلك يذكره بعملية الكرمليّ، التي حضرها وهو طفل. إلاّ ان الكرمليّ وضع المسحوق على السلاح الذي أحدث الجرح.

فأجاب ديغبي «صحيح، إن الجدال حول الـ«unguentum armarium» قائم منذ زمن بعيد، وكان أول من تحدث عنه هو باراسالس العظيم. كثيرون يستعملون طينة دهنية، ويؤكدون ان مفعولها

أنجع على السلاح. ولكن كما تبيّن لك، لا يهمّ إن كان السلاح الذي تسبّب في الجرح أو الخرقة التي عصّبته، لأن المستحضر يجب ان يمسّ شيئا علق به دم الجريح. كثيرون، عندما شاهدوني أعالج السلاح لمداواة آثار الضربة، ظنوا انه ضرب من السحر، بينما مسحوق الانجذاب الذي استعملته يستمدّ أسسه من تفاعلات الطبيعة»!

ـ «لماذا سمّيته مسحوق الانجذاب؟»

ـ «هنا أيضاً يمكن ان يخدعنا الإسم. تحدث الكثيرون عن تطابق أو تجاذب يربط بين الأشياء. يقول أقريبّا إن قوة الكوكب تحدث مفعولها في الأشياء التي تشابهه والتي تتقبل إذن تأثيره. ويسمّي تجاذبا تلك الجاذبية المتبادلة بين الأشياء. مثل أن يهيأ اللوح بالزفت، والكبريت وبالزيت لتقبّل النار، وهكذا باستعمال أشياء مطابقة للعملية وللكوكب، يعود نفع خاص على المادة التي هيأتها بحكمة روح الكون. للتأثير على الشمس ينبغي إذن إحداث فعل على الذهب، الذي هو شمسي بطبعه، أو على تلك النباتات التي تتجه نحو الشمس، أو التي تنحني أو تنغلق عند غروب الشمس لكي تتفتح عند شروقها، مثل اللوتس، والفوانيا، والكليدونيا. ولكن هذه خرافات، لا تكفي مقارنة من هذا النوع لشرح عمليات الطبيعة».

وكشف ديغبي سرّه لروبارتو: الفلك، أو دائرة الهواء، مليئة بالنور، والنور هو جوهر مادي وجسمانيّ؛ وتقبّل روبارتو هذا المفهوم بطيب خاطر لأنه في مجلس دوبوي كان قد سمع ان النور أيضاً ليس في الواقع الا مسحوقا دقيقا جدا من الذرات.

وكان ديغبي يضيف «من الواضح ان النور، في انبعاثه بدون انقطاع من الشمس، وانطلاقه بسرعة فائقة في جميع الاتجاهات في خطوط مستقيمة، عندما تعترض مساره حواجز متكونة من أجرام صلبة أو أكمدة، ينعكس « ad angulos aequales»، ويتخذ مسارا آخر، إلى ان

يتغير اتجاهه لاعتراض جرم صلب آخر، ويواصل على هذا النمط إلى ان ينطفىء. مثل لعبة كرة الحبل، عندما ترمى الكرة على جدار ترتدّ من ذلك الجدار إلى الجدار المواجه، وغالبا ما تقوم بدورة كاملة وتعود إلى نقطة انطلاقها. الآن ماذا يقع عندما يسقط النور على جرم؟ ترتدّ الأشعة مقتلعة بعض الذرات، بعض الأجزاء الصغيرة، مثلما تحمل الكرة معها جزءا من طلاء الحائط. وبما ان تلك الذرات متكونة من العناصر الأربعة، يدمج النور بحرارته الأجزاء اللزجة، ويحملها بعيدا. وما يثبت ذلك هو انه عندما نضع خرقة مبللة أمام النار نشاهد ان الأشعة التي تعكسها الخرقة تحمل معها شيئا مثل الضباب المائي. تلك الذرات المتنقلة هي مثل فرسان فوق خيول مجنحة تتجول في الفضاء إلى ان تسحب الشمس عند الغروب خيولها وتتركها دون مطايا. وعند ذلك تسقط في كتلة نحو الأرض التي انطلقت منها. ولكن هذه الظواهر لا تحدث فقط مع النور، ولكن مع الريح أيضاً، التي ليست الاّ نهرا كبيرا من الذرات المتشابهة، تجذبها الأجرام الأرضية الصلبة..».

فأوحى روبارتو «والدخان،».

ـ «اكيد. في لندن يستمدّون النار من الفحم الأرضي، المجلوب من اسكتلندا، والذي يحتوي على قدر كبير من الملح المتبخر الحامز جدا. ذلك الملح يحمله الدخان في الهواء، فيضرّ بالحيطان، والأفرشة والأثاث ذي الألوان الفاتحة. عندما تبقى الحجرة منغلقة بضعة أشهر، نجد فيها بعد ذلك غبارا أسود يغطي كل شيء، كما نرى غبارا أبيض في الطواحين وفي دكاكين الخبازين. وعند الربيع تبدو الأزهار كلها متسخة بالدهن».

ـ «ولكن كيف يحدث ان تضيع في الهواء تلك الكمية الكبيرة من الأجرام الضئيلة، بينما الجسم الذي تنبعث منه لا يطرأ عليه أي نقص؟»

ـ «ربما يحدث نقص، وتتفطن إلى ذلك عندما تجعل الماء

يتبخر، ولكننا لا نتفطن إلى ذلك مع الأجرام الصلبة، كما اننا لا نتفطن إلى ذلك مع المسك أو مع مواد أخرى فائحة. كل جسم، مهما كان صغر حجمه، يمكن تقسيمه إلى أجزاء جديدة، دون ان نصل أبدا إلى نهاية تجزئته. تصوّر ضآلة حجم الجسيمات التي تنبعث من جسم حيّ، والتي تمكّن كلابنا الإنجليزية، عن طريق الشمّ، من تتبع آثار حيوان. أتظن مع ذلك، ان الثعلب في نهاية سباقه، يصير أصغر من ذي قبل؟ الآن، تلك الجسيمات هي فعلا المتسببة في ظواهر التجاذب التي يسميها بعضهم «تأثير عن بعد»، والتي هي ليست عن بعد، وليست إذن سحرا، ولكنها تحدث للتجول الدائم للذرات. وهذا ما يقع في التجاذب عن طريق الامتصاص، مثل ما يحدث للماء والخمر بواسطة مشعب، وتأثير المغناطيس على الحديد، أو التجاذب عن طريق الرشح، مثل ان تضع شريطة من القطن في وعاء مليء بالماء، تاركا منها جزءا كبيرا يتدلّى خارج الوعاء، وترى ان الماء يصعد متجاوزا حافة الوعاء ويقطر على الأرض. والتجاذب الأخير هو الذي يقع بفعل النار، التي تجذب اليها الهواء الموجود حولها بما يحتويه من جسيمات طائرة: النار، حسب طبيعتها، تحمل معها الهواء الموجود حولها مثل مياه النهر التي تحمل تربة الوادي. وبما ان الهواء رطب والنار جافة، فهما يلتصقان احدهما بالآخر. وإذن، لاحتواء المكان الذي أفرغته النار، من الضروري ان يصل هواء آخر من الفضاء المجاور، والا يتكوّن الفراغ».

ـ «إذن انت تنفي وجود الفراغ؟».

ـ «أبدا. أقول إن الطبيعة ما ان يعترضها فراغ حتى تحاول ملأه بالذرات، في معركة لاحتلال كل جزء منه. وإذا لم يكن الأمر كذلك، فلا يمكن لمسحوق الانجذاب أن يؤثّر، بينما العكس هو الذي حدث مثلما أوضحت لك التجربة. النار تحدث تيارا متواصلا من الهواء وأبقراط العظيم طهر من الوباء ولاية كاملة بإشعال نيران كبيرة في جميع أرجاء المنطقة. وعند تفشي الأوبئة كذلك يقع دائما قتل القطط والطيور

وحيوانات اخرى ساخنة تنضح دائما بأنفاس، كي يأخذ الهواء مكان الأنفاس المحرّرة خلال ذلك التبخير، جاعلا تلك الذرات الموبوءة تلتصق بريش أو بشعر تلك الحيوانات، كما ان الخبز الذي يخرج ساخنا من الفرن يجذب اليه رغوة البرميل ويتلف الخمر لو وضعناه على غطاء البرميل. وكما يحدث أيضاً لو عرضت للهواء مقدار ليبرة من الملح والدردي المحمّص والمحرق جيدا، فهو يعطيك عشر ليبرات من الزيت الدردي الجيد. لقد قصّ عليّ طبيب البابا اوربانس الثامن قصة راهبة رومانية، من فرط الصيام والصلاة، حمى جسمها إلى حدّ ان عظامها جفّت. تلك الحرارة الداخلية كانت تجذب فعلا الهواء الذي كان يتجسّد في العظام كما يفعل في الملح الدردي، ويخرج من النقطة التي يوجد فيها منفذ المصالة، ومن هناك إلى المثانة، حتى ان المسكينة كانت تعطي أكثر من مائتي ليبرة من البول في أربع وعشرين ساعة، وهي معجزة لا يشك أحد في انها دليل على قداستها».

ـ «ولكن ان كان كل شيء يجذب كل شيء آخر، ماذا يجعل العناصر والأجسام تبقى منفصلة ولا تصطدم قوة ما بقوة أخرى؟»

ـ «إنه سؤال ذكيّ. ولكن بما ان الأجسام التي من نفس الوزن تتحد سهولة أكبر، والزيت كذلك يتحد سهولة أكبر مع الزيت لا مع الماء، نستنتج ان ما يشدّ الذرات من نفس الطبيعة هو ندرتها أو كثافتها، كما يمكن ان يؤكده لك الفلاسفة الذين تخالطهم.»

ـ «وأكدوا لي ذلك، مستدلين بأنواع الملح المختلفة: انه مهما كانت الكيفية التي نطحنها بها أو نخثرها بها تستعيد دائما شكلها الطبيعي، والملح العادي يظهر دائما في شكل مكعب ذي جوانب مربعة، وملح البارود في شكل اعمدة ذات ستّة جوانب، والملح النشادريّ في شكل مسدّس ذي ستّة حروف، مثل الثلج».

ـ «وملح البول يتشكل في مخمسات، وبهذا فسّر السيد دافيدسون

شكل كلّ من الثمانين حصى التي وجدها في مثانة السيد بلوّتيي. وإن كانت الأجسام ذات الشكل المشابه تختلط سهولة أكبر، فهي إذن تجذب بعضها البعض قوة أكبر. لذا عندما تحرق يدك فأنت تجد راحة من الألم عندما تعرضها قليلا أمام النار».

ـ «أذكر ان معلّمي، عندما لدغت حيّة أحد الفلاحين، وضع على الجرح رأس الحيّة..».

ـ «أكيد. السمّ، الذي كان في طريقه إلى القلب، يعود إلى المنبع الأساسي حيث يوجد بكميات أكبر. لو أنك في فترة وباء حملت معك في صندوق مسحوق علجوم، أو حتى علجوما أو رتيلاء حية، أو أيضاً زرنيخا، تلك المادة السامة تجذب اليها نجاسة الهواء. والبصل المجفف يتخمر في المخزن عندما ينبت بصل الحقول».

ـ «وهذا يفسّر أيضا الأوحام التي تظهر على الرضّع: الأم تشتهي بقوة شيئا ما..».

ـ «في هذا الخصوص من الأفضل ان لا نتسرع في الحكم. أحيانا ظواهر مماثلة تنشأ من علل مختلفة ورجل العلم لا يجب ان يصغي إلى جميع الخرافات. ولكن لنعد إلى حديثنا حول المسحوق. ماذا حدث عندما عرضت لبضعة ايام الخرقة المتسخة بدم صديقنا الجريح على تأثير المسحوق؟ قبل كلّ شيء، الشمس والقمر جذبا من بعيد ذرات الدم التي كانت موجودة في الخرقة، بفضل حرارة المكان، وذرات الزاج الموجودة في الدم لم تجد بدا من تتبع نفس المسار. ثم من ناحية أخرى كان الجرح يواصل اخراج كمية كبيرة من الذرات الساخنة والنارية، جاذبا بهذه الصفة الهواء المجاور. وهذا الهواء كان يجذب هواء آخر، كان بدوره يجذب هواء آخر وذرات الدم والزاج، المتناثرة على مسافات شاسعة، كانت في النهاية تلتقي في ذلك الهواء الذي يحمل معه ذرات أخرى من نفس الدم. الآن، ذرات الدم، تلك الآتية من الخرقة وتلك

الآتية من الجرح، تلتقي، فتطرد الهواء الذي صار عديم الجدوى، وتنجذب نحو مقرها الرئيسي الذي هو الجرح، وبرفقتها ذرات الزاج فتنفذ إلى اللحم».

ـ «ولكن ألم يكن بإمكانك ان تضع الزاج مباشرة على الجرح؟»

ـ «كان بإمكاني أن أفعل ذلك، بما ان الجريح كان أمامي. ولكن لو كان الجريح بعيدا؟ ثم لو وضعت الزاج مباشرة على الجرح لحرقته أكثر قوّته الأكّالة، بينما عندما يحمله الهواء يعطي من نفسه فقط ذلك الجزء المريح والشافي، الذي يقدر على حقن الجرح، والذي يستعمل أيضاً في القطرات لمعالجة العيون،» وهنا أرهف روبارتو السمع، مكتنزا تلك النصائح الثمينة لتطبيقها من بعد على نفسه، وهذا ما يفسّر دون شك استفحال المرض الذي اصاب عينيه.

وأضاف ديغبي: «ومن ناحية أخرى، لا ينبغي أبدا استعمال الزاج العادي، كما كان الأمر في السابق، اين كان الضرر أكبر من النفع. إنني أجلب الزاج من قبرص، وقبل استعماله أجصّصه في الشمس: التجصيص ينزع عنه الرطوبة الزائدة، فكما لو انني صنعت منه حساء مركزا؛ ثم ان التجصيص يجعل ذرات هذه المادة قابلة ان تحمل على اجنحة الهواء. وأخيرا أضيف صمغ الكثيراء، الذي يدمل الجرح بسرعة».

لقد توقفت عند الأشياء التي تلقّنها روبارتو عن ديغبي لأن هذا الاكتشاف سيقرر مصيره فيما بعد.

يجب ان أقول أيضاً، ولو ان ذلك لا يشرّف صاحبنا، وهو نفسه يعترف بذلك في رسائله، ان اهتمامه بتلك الاكتشافات الرائعة لم يكن لأسباب تتعلق بعلم الطبيعة، ولكن دائما ومرة أخرى بقصته الغرامية. بعبارات أخرى، ذلك الوصف لكون مليء بالذرات تتلاقى حسب وفاقها، بدا له مجازا لظاهرة الحب، وأخذ يتردد على مجالس المطالعة

باحثا عن كل ما يمكنه ان يجد بخصوص المرهم السلاحي، وفي ذلك الوقت يعني الكثير من الكتب، التي سيزيد عددها أكثر في السنوات الموالية. وبنصيحة من نيافة الأسقف قفّارال (بصوت خافت لئلاّ يسمعه مخالطو ديبوي الآخرون، الذين لا يؤمنون الا قليلا بهذه الأشياء) كان يقرأ «Ars Magnesia» لكيرشار، و«Tractatus de magnetica vulnerum curatione» لغوكلينيوس، الملقب بـ «Fracastoro»، و«Discursus de unguento armario» من تأليف فلود، و«Hopolochrisma spongus» لفوستر. وكان يشحذ ذهنه ليترجم علمه إلى شعر حتى يتمكن يوما من ان يسطع بالفصاحة، ليصير رسولا للتجاذب الكوني، في تلك الأماكن التي كانت فيها فصاحة الآخرين تشعره دائما بحقارته.

وطيلة شهور عديدة ـ التي دام فيها بحثه المتعنت، بينما كان لا يخطو خطوة واحدة على درب استمالة قلب حبيبته ـ مارس روبارتو نوعا من مبدأ ازدواجية، بل تعددية الحقيقة، وهي فكرة كانت في باريس تبدو لدى الكثيرين جسورة وحصيفة في نفس الوقت. كان أثناء النهار يناقش مسألة أزلية المادة، وأثناء الليل كان يستنفد نور عينيه في دراسات كانت تعده ـ ولو بعبارات العلوم الطبيعية ـ بمعجزات خفية.

في الأعمال الكبيرة ينبغي على المرء ان يحاول لا ان يخلق الفرص، بل ان يستغل الفرص التي تسنح. ذات مساء لدى أرتينيس، بعد مناقشة متحمّسة بخصوص «Astree»، حثّت صاحبة البيت الحاضرين على التمعن في ما يجمع بين الحب والصداقة. وأخذ روبارتو عندئذ الكلمة، ملاحظا ان مبدأ الحب، أكان ذلك بين صديقين أو بين محبين، لا يختلف عن المبدأ الذي يحرك مسحوق الانجذاب. وعند أول بادرة اهتمام من الحاضرين، أعاد على اسماعهم ما قصّه عليه ديغبي، ما عدا قصّة القديسة المبوالة، ثم أخذ يتكلم عن الموضوع، ناسيا الصداقة ومتحدثا فقط عن الحب.

ـ «الحب يخضع لنفس القوانين التي تحرك الرياح، والرياح تحمل

دائما معها أنفاس الأماكن التي تأتي منها، فإن هي جاءت من الجنان والحدائق، فاحت اما بعطر الياسمين، أو النعناع، أو الإكليل، فتبعث في البحارة الرغبة في النزول إلى الأرض التي تبعث اليهم بتلك الوعود. وكذلك أنفاس الحبّ تسكر أنف قلب المحبّ» (ولنغفر لروبارتو هذه الإستعارة القبيحة). «إن قلب المحبّ عود، يتناغم مع أوتار عود آخر، كما تحرّك دقّات الأجراس صفحة الماء، خصوصا أثناء الليل عند غياب جميع الأصوات الأخرى، فتسري في الماء نفس الحركة التي سرت في الهواء. يحدث لقلب المحب ما يحدث للدرديّ، الذي يفوح احيانا بماء الورد، عندما يذوّب في القبو، بعيدا عن النور، في فصل الورود، حين يمتلىء الهواء بذرات الورد، ويتحول إلى ماء بفعل جاذبية ملح الدرديّ، فيعطّر الدرديّ. ولا يمنع جفاء المحب ذلك. فبرميل الخمر، عندما تكون الكروم مزهرة، يتخمر فتبرز خارجه زهور بيضاء، تبقى إلى ان تسقط زهور الكروم. ولكن قلب المحب، الذي هو أكثر ثبراً من الخمر، عندما يزهر بأزهرار القلب المعشوق، لا يزال يعنى ببراعمه حتى بعد ان تجفّ العين».

وبدا له انه لاحظ نظرة ناعمة من قبل ليليا، وواصل: «الحبّ هو مثل استحمام قمريّ.فالأشعة الآتية من القمر هي أشعة الشمس، التي تنعكس وتصل الينا. عندما نكثف أشعة الشمس بواسطة مرآة، نزيد من قوتها التسخينية. وعندما نكثف أشعة القمر بواسطة وعاء فضي، نرى ان قاعه المقعر يعكس أشعته المنعشة لما تحويه من ندى. يبدو من غير المعقول ان يغتسل أحدهم في وعاء فارغ: ومع ذلك يجد يديه مبلّلة، وهو علاج نافع ضد الثؤلول».

فقاطعه أحد الحاضرين قائلا: «ولكن يا سيد دي لاغريف، الحب ليس دواء للثؤلول»!

فأجاب روبارتو متماديا في حديثه، دون أن يتوقف: «أوه، كلاّ، لا شك في ذلك. ولكنني ضربت أمثلة مستمدة من أبسط الأشياء للتذكير

بأن الحب أيضاً يتوقف على مسحوق واحد من الذرات. وهي طريقة أقول بها ان الحب يمتثل لنفس النواميس التي تحكم الأجرام سواء تلك الأرضية أو تلك السماوية، الا انه من تلك النواميس يمثل أنبل تظاهراتها. الحب يتولد من النظر، ويتّقد منذ النظرة الأولى: وما هو النظر ان لم يكن نورا عكسه الجسم المنظور اليه؟ عندما أراه، ينفذ إلى جسمي، أفضل جزء من جسم المحبوب، ذلك الجزء الهوائي، الذي من خلال العينين يصل مباشرة إلى القلب. والحب من أول نظرة هو إذن شرب روح قلب المحبوب. إن الخالق العظيم للطبيعة عندما صنع جسمنا وضع فيه أنفاسا داخلية، هي بمثابة الحرّاس الذين يبلغون معلوماتهم إلى قائدهم، أي إلى المخيلة، الذي هو مثل سيد العائلة الجسمية. وإن أثّر فيها شيء ما، يحدث مثلما يقع عندما نستمع إلى عزف الكمان، نحمل انغامه في ذاكرتنا، ونسمعها حتى اثناء النوم. وخيالنا يصنع من ذلك الشيء صورة، يلتذّ بها المحب، ولكنها مع ذلك تعذّبه، لأنها ليست فعلا الا صورة. لذلك عندما يفاجأ الرجل برؤية الحبيبة، يتغير لونه، فيحمرّ ويصفرّ، حسب تلك الأنفاس الداخلية في ذهابها السريع أو البطيء نحو الشيء والعودة منه نحو المخيلة. ولكن تلك الأنفاس لا تذهب فقط إلى المخ، ولكنها تذهب مباشرة إلى القلب من خلال المجرى الكبير الذي يحمل منه الأنفاس الحياتية إلى المخ وهنالك تصير اهواء حيوانية؛ ودائما من خلال نفس المجرى ترسل المخيلة إلى القلب جزءاً من الذرات التي تلقّتها من بعض الأشياء الخارجية، وهذه الذرات هي التي تحدث ذلك الغليان للأنفاس الحياتية، التي أحيانا تشرح القلب، وأحيانا تؤدي به إلى الغشيان».

- «إنك تقول لنا، يا سيدي، ان الحب يتصرف مثل حركة فيزيائية ولا يختلف في نهجه عمّا يبعث على ازهرار الخمر؛ ولكنك لا تقول لنا كيف ان الحب، خلافا لظواهر مادية أخرى، هو قوة انتقائية، يختار. لأي سبب إذن يجعلنا الحب أسرى لمخلوق دون مخلوق آخر؟»

ـ «هذا فعلا ما جعلني أرجع قوى الحب إلى المبدأ نفسه الذي هو مسحوق الانجذاب، أي ان ذرات متساوية ومن نفس الشكل تجذب ذرات مماثلة! فإن أنا بللت بذلك المسحوق السلاح الذي جرح بيلاد، فلن أشفي بذلك جرح أوراستي. الحب يجمع إذن فقط شخصين لهما بشكل ما نفس الطبيعة، روح نبيلة مع روح في نفس النبل وروح من العامة مع روح أخرى من نفس النشأة ـ بما انه يحدث ان يحب الفلاحون أيضاً، مثل الراعيات، كما تخبرنا بذلك قصّة السيّد دورفي الرائعة. الحب يكشف انسجاما بين مخلوقين كتب منذ بداية الأزمنة، مثلما جعلت الأقدار منذ البدء بيرامو وتيسبي يجتمعان في شجرة توت واحدة».

ـ «والحب التعيس؟»

ـ «إنني لا أظن انه يوجد بحقّ حبّ تعيس. هنالك فقط أشواق لم تنضج بعد، حيث لم تلتقط المحبوبة لسبب من الأسباب الرسالة الآتية من عيني المحبّ. ومع ذلك فالمحب يعرف في تلك الآونة مدى انسجام الطبيعة التي كشفت له، ومن قوة تلك العاطفة، يعرف كيف ينتظر، حتى مدى حياة كاملة. فهو يعرف ان كشف أحدهما للآخر والوصال يمكن ان يتحققا حتى بعد الموت، حيث، بعد تبخر ذرات كلا الجسدين اللذين يذوبان في التراب، يجتمعان في بعض السماوات. وربما، مثل جريح، حتى دون ان يعرف ان أحدهم هو بصدد نثر المسحوق على السلاح الذي ضربه، يتمتع بصحة جيدة، من يدري كم من قلب ولهان يتمتع الآن بسعادة روحية مفاجئة، دون ان يدري ان تلك السعادة هي من فعل قلب الحبيب، الذي بدوره خفق بالحب، فأطلق السراح لتلتقي الذرات المتماثلة».

ينبغي ان أقول ان هذه الاستعارة المعقدة تتماسك إلى حد ما، ولربما أظهرت الآلة الأرسطوطاليسية التي صنعها الأب ايمانويل عدم ثباتها. ولكن تلك الليلة اقتنع الجميع بذلك التقارب بين المسحوق،

الذي يشفي من الداء، والحب، الذي كان يؤذي أكثر مما كان يشفي.

لهذا السبب ذاعت قصّة هذا الحديث حول مسحوق الانجذاب وحول الانجذاب الغرامي ولبضعة أشهر أو أكثر تداولتها باريس بأجمعها، بما لذلك من عواقب سيأتي ذكرها.

ولهذا السبب أيضاً، عندما أنهى روبارتو حديثه، ابتسمت له ليليا مرة أخرى. كانت ابتسامة ثناء، أو على الأكثر كانت تدل على الإعجاب، ولكن لا شيء يبدو اكثر بداهة من ان يرى في ذلك علامة حب. وفهم روبارتو الابتسامة على انها قبول لجميع الرسائل التي بعثها. ومن شدة اعتياده على عذاب الفراق، ترك الجلسة، قانعاً بذلك الانتصار. وأساء الفعل، وسنرى من بعد لماذا. منذ ذلك الحين تجرأ روبارتو دون شك على مخاطبة ليليا، ولكنه لقي منها دائما سلوكا متناقضا. أحيانا كانت تهمس اليه: «فعلا كما أتى ذكره ذلك اليوم». وأحيانا أخرى كانت تقول بصوت خافت: «ولكنك قلت شيئا مختلفا تماما». وتارة أخرى كانت تعده، وهي تتركه: «سنرى ذلك من بعد، كن مثابرا».

كان روبارتو لا يفهم ان كانت، لشرود منها، تنسب اليه بين التارة والأخرى أقوال وأفعال شخص آخر، أم انها كانت تشاكسه دلعا منها.

ما حدث له بعد ذلك جعله يقحم تلك الأحداث النادرة في قصّة محيّرة أكثر بكثير.

17

شدّة الرغبة في علم خطوط الطول

كان ذلك ـ ها نحن نجد أخيرا تاريخا يرشدنا ـ مساء الثاني من ديسمبر 1642. كانا خارجين من المسرح، حيث لعب روبارتو سريّا بين الجمهور دور المحبّ. وعند باب الخروج أمسكت ليليا خفية يده وهمست اليه: "لقد صرت إذن خجولا، يا سيد دي لاغريف. لم تكن كذلك تلك الليلة. إذن، نلتقي غدا من جديد، على نفس الركح».

خرج وهو يكاد يجن من الاضطراب، لقد دعته إلى مثل ذلك الموعد في مكان لم يسبق له ان عرفه، وطلبت منه ان يعيد ثانية ما لم يتجرأ أبدا على فعله. ومع ذلك لا يمكن ان تكون استبدلته بأحد آخر لأنها نادته باسمه.

آه ـ كتب ما كان قد قال لنفسه آنذاك ـ اليوم تجري الوديان نحو عيونها، فرسان بيض يتسلقون أبراج «نوتردام دي باريس»، النار تتقد ضاحكة في الجليد، بما أنه حدث لي فعلا انها استدعتني أم لا، اليوم يسيل الدم من الصخرة، والحنش يجامع دبّة، والشمس صارت سوداء، لأن حبيبتي مدّت اليّ كأسا لا يمكنني أبدا أن أشرب منها، بما انني لا أدري أين مدّت السفرة...

وعلى بعد خطوة من السعادة جرى يائسا إلى منزله، المكان الوحيد الذي لن يجدها دون شكّ فيه.

يمكن فهم كلمات ليليا بمعنى يبدو أقلّ غموضا بكثير: كانت بكل بساطة تذكره بالحديث الذي تناوله منذ مدة حول مسحوق الانجذاب، وتحثّه على المزيد، في نفس ذلك الصالون، صالون «أرتينيس» اين سبق له ان تحدّث. منذ ذلك الحين كانت قد رأته صامتا وذائبا في العشق، وكان ذلك يخلّ بقواعد اللعبة، لعبة الإغراء، ذات القواعد الصارمة. كانت تذكّره، كما يمكن ان نقول اليوم، بواجبه الإجتماعي. هيّا، كانت تقول له، لم تكن خجولا تلك الليلة، أعد علينا نفس المشهد، فأنا في انتظارك. ولا يمكننا ان ننتظر تحديا غير هذا من قبل امرأة متحذلقة.

ولكن روبارتو فهم انها تقول له: «انك خجول، ولكنك قبل الآن ببضع ليال لم تكن كذلك، وبرهنت لي.». (أتصور ان الغيرة تمنعه وفي نفس الوقت تدفعه إلى تصور بقية الجملة). «إذا غدا من جديد، على نفس الركح، في نفس المكان الخفي».

كان من الطبيعي ـ بما ان مخيلته اتخذت أوعر المسالك ـ ان يفكر انه حدث خلط بين شخصين، وان يتصوّر شخصا قدّم نفسه على انه هو، وبتلك الصفة نال من ليليا ما كان يصبو اليه مقابل حياته. وها أن فيرّانتي يبرز من جديد وجميع خيوط ماضيه تترابط من جديد. ذاته الأخرى الماكرة، فيرّانتي أقحم نفسه حتى في تلك القصة، مستغلاّ غياباته، وتأخيراته، وذهابه المبكّر، وفي الوقت المناسب جنى ثمرة خطاب روبارتو حول مسحوق الانجذاب.

وبينما كان يتقلب همّاً وحيرة، اذ سمع دقاً على الباب. يا للأمل، حلم بأعين صاحية! وهرع إلى الباب ليفتحه وهو لا يشكّ في انه سيجدها على العتبة: الاّ انه رأى أمامه ضابط حرس الكاردينال، مع رجلين من اتباعه.

وبادره الضابط: «السيد دي لاغريف، حسب ما أعتقد،» ثم قدّم نفسه على انه القائد دي بار وأضاف: «إنني آسف لما أنا بصدد القيام به.

ولكنك، يا سيدي، موقوف لذا أرجوك ان تسلّمني سيفك. ومن الأفضل ان تتبعني عن طيب خاطر، وسنصعد العربة التي تنتظرنا كما لو كنا صديقين، دون ان يكون في ذلك ما يخجلك». وأوضح له انه يجهل أسباب الإيقاف، مؤملا ان يكون ناتجا عن سوء فهم. وتبعه روبارتو صامتا، وقد تشبث بنفس الأمل، وعند نهاية الرحلة عهد به،بعد اعتذارات شتى،إلى حارس كان يغلب عليه النعاس، وهكذا وجد نفسه في إحدى زنزانات «الباستيل».

قضى هنالك ليلتين مثلّجتين، ما من زائر له الا بعض الفئران (كأن القدر هيأه منذ ذلك الحين إلى الرحلة على متن أماريلّي) وحارس كان يجيبه عند كل سؤال انه مرّ بذلك المكان العديد من الضيوف العظام حتى انه كفّ عن التساؤل لماذا انتهى بهم المطاف هنالك؛ وبما انه يقيم هنالك سيد كبير مثل باسومبيار منذ سبع سنوات، فلا داعي ان يتشكّى روبارتو بعد بضع ساعات.

وتركوه على ذلك الحال يومين ليذوق فيهما جرعة السجن المرة، وفي ثالث يوم عاد دي بار، وبعد ان مكّنه من الاغتسال، أخبره انه دعي للمثول أمام الكاردينال. وفهم روبارتو على الأقل انه سجين الدولة.

وصلا إلى القصر في ساعة متقدمة من الليل، ومن الحركة التي كانت على الباب كان يبدو انها ليلة ليست ككلّ الليالي. كان المدرج مليئاً بأناس من طبقات مختلفة يهرعون في اتجاهات متعاكسة؛ وفي المدخل أشراف وكنسيون يدخلون مضطربين، ويتبوّلون بأدب على الجدران المطلية، ثم يتخذون هيئة متألمة ويدخلون إلى قاعة أخرى، كان يخرج منها بعض العاملين في القصر، ينادون بصوت عال خدماً لا أثر لهم، ويشيرون إلى الجميع بملازمة الصمت.

وأدخل روبارتو إلى تلك القاعة، فشاهد فيها فقط أشخاصا يولون له ظهورهم، وهم يطلّون من باب على قاعة أخرى، واقفين على

أطراف أرجلهم، دون جلبة، كمن ينظر إلى منظر محزن. وأدار دي بار نظره من حوله كأنه يبحث عن شخص، وأخيرا أشار لروبارتو ان يمكث جانبا، ثم ابتعد.

وحارس آخر كان يحاول إخراج الكثير من الحاضرين، بطرق مختلفة حسب الدرجة، عندما رأى روبارتو بلحيته الطويلة، وبثيابه التي عانت من وسخ السجن، سأله بلهجة جافة عما يفعل هنالك. وأجابه روبارتو ان الكاردينال ينتظره وردّ عليه الحارس ان الكاردينال، لسوء حظ الجميع، هو المنتظر من قبل من لا يعلوه أحد.

إلا أنه تركه هنالك لشأنه، وشيئا فشيئا، بما ان دي بار (الوجه الصديق الوحيد الذي بقي له) لم يعد، اقترب روبارتو من الجمع، وبعد شيء من الانتظار وشيء من الدفع، بلغ عتبة القاعة الأخيرة.

هنالك، في فراش قد اتكأ فوقه على وسائد ناصعة، شاهد روبارتو وتعرف على شبح الشخص الذي كانت فرنسا بأجمعها تهابه وقلّة كانوا يحبونه. كان الكاردينال العظيم محاطاً بجمع من الأطباء في لباس قاتم اللون، كانوا منشغلين عنه بنقاشاتهم، بينما كان إكليريكيّ يمسح شفتيه اللتين كان السعال ينثر عليهما رغوة محمرة اللون، وكانت الأغطية توحي بتنفس صعب صادر عن جسم أضناه المرض، بينما اليد الخارجة من كمّ القميص كانت تشدّ على صليب. وفجأة أجهش الإكليركيّ بالبكاء. فأدار ريشليو بصعوبة رأسه، وبشبه ابتسامة همس قائلا: «أكنت تظن إذن انني خالد؟»

وبينما كان روبارتو يتساءل من الذي دعاه إلى فراش رجل يحتضر، اذ حدثت من ورائه ضجة كبيرة. وتهامس الكثيرون باسم قسّ سان اوستاش، ثم فتح طريق بين المجتمعين ودخل القسّ مع اتباعه، يحمل الزيت المقدس.

وأحسّ روبارتو بأحد يلمس كتفه، وإذا به دي بار الذي قال له:

«هيّا بنا، الكاردينال ينتظرك». ودون ان يفهم، تبعه روبارتو مجتازا الرواق. وأدخله دي بار قاعة، مشيرا اليه بالانتظار، ثم تركه.

كانت القاعة فسيحة تتوسّطها كرة أرضية كبيرة الحجم، وساعة فوق منضدة صغيرة في إحدى الزوايا، من ورائها ستار أحمر اللون. على شمال السجف، تحت صورة كبيرة وكاملة تمثل ريشليو، أبصر روبارتو أخيرا شخصا يدير اليه ظهره، لابسا زيّ كاردينال، وكان واقفا يكتب شيئا ما فوق مقرأ. وأدار المطران رأسه قليلا مشيرا إلى روبارتو بالإقتراب، وعندما تقدّم روبارتو، انحنى أكثر فوق سطح المقرأ، واضعاً يده اليسرى ليحجب بها حافة الورق حتى وإن تعذر في الحقيقة على روبارتو، من المسافة التى كانت لا تزال تفصله عنه، أن يقرأ شيئا ممّا كان مكتوبا.

ثم استدار اليه الكاردينال، في جبته القرمزية وبقي بضع لحظات مستقيما، كأنما يحاكي الرسم الكبير الموجود خلفه، ويده اليمنى فوق المقرأ بينما اليسرى كانت على مستوى صدره وراحتها مفتوحة بشيء من التكلف. ثم جلس على كرسي بجانب الساعة وداعب بدلال شاربه وعثنونه، ثم سأل: «السيّد دي لا غريف؟»

كان السيد دي لا غريف مقتنعا أنه يعيش كابوسا يرى فيه ذلك الكاردينال نفسه الذي يحتضر على بعد عشرة أمتار أو أقل من هنالك، ولكنه الآن يراه قد استعاد شبابه، وصارت ملامحه أقل ذبولا، كما لو أضاف أحدهم إلى الوجه الأرستقراطي المرسوم على اللوحة ألوانا حيّة وأعاد رسم الشفتين بخطّ دقيق يكاد يتحرّك؛ ثم ذلك الصوت ذو اللهجة الأجنبية أعاد إلى ذهنه ذكرى قديمة: ذلك القائد الذي كان يركض، قبل ذلك بعشر سنوات، وسط الجيشين المتنازعين في «كزالي».

كان روبارتو أمام الكاردينال مزارينو، وفهم ان الرجل، اثناء احتضار حاميه، كان يسيطر شيئا فشيئا على مهامّ المحتضر، وان العون قد سمّاه «الكاردينال» كما لو لم يكن هنالك كاردينال آخر غيره.

همّ روبارتو بالإجابة على ذلك السؤال الأول، ولكنه تفطن سريعا إلى ان الكاردينال بينما يسأل كان في الحقيقة يؤكد، مقتنعا ان مخاطبه لا يمكنه في كل الحالات إلا ان يردّ بالإيجاب.

وفعلا أضاف الكاردينال مؤكدا: «روبارتو دي لا غريف، من عائلة أسياد «بوتسو دي سان باتريتسو». إننا نعرف القلعة، كما نعرف جيدا كامل جهة «مونفيرّاتو». وهي خصبة كما لو كانت فرنسا. لقد قاتل أبوك، ايام حصار كزالي، بولاء كبير، وكان مخلصا لنا أكثر من مواطنيك الآخرين». وكان يقول «لنا» كما لو كان في ذلك الوقت صنيعة ملك فرنسا. وأنت أيضا تصرفت تصرّفاً لائقاً، كما أبلغونا. ألا تظن ان هذا يجعلنا نأسف، وأقولها لك كما لو كنّا أبا لك، عندما نرى انك نزلت ضيفا عندنا دون ان تراعي واجبات الضيافة؟ ألا تعرف ان القانون في هذه المملكة يطبق بنفس الطريقة سواء على الرعايا أو على الضيوف؟ طبعا، طبعا لن ننسى ان النبيل يبقى دائما نبيلا، مهما كان الذنب الذي اقترفه: ستحظى بنفس المزايا التي منحناها لـ«سانك مارس»، الذي لا يبدو عليك انك تنبذ ذكراه كما كان عليك ان تفعل. ستموت أنت أيضا بشفرة المقصلة لا شنقا بالحبل».

كان روبارتو لا يجهل قصّة تتحدّث عنها فرنسا بكاملها. كان المركيز دي سانك مارس قد حاول إقناع الملك بطرد ريشليو، وريشليو أقنع الملك بأن سانك مارس كان يحبك المؤامرات ضدّ المملكة. وفي ليون وقف المتهم امام الجلاّد وقفة شرف ووقار، ولكن هذا الأخير لعب برقبته بشراسة فيها من الإهانة ما جعلت الجموع المستنكرة ترتمي عليه وتمثّل به.

وعندما أراد روبارتو أن يجيب، وقد تملّكه الرعب، أوقفه الكاردينال بحركة من يده قائلا: «كفى، يا سان باتريتسيو،» وفهم روبارتو انه استعمل ذلك الإسم ليذكره بأنه أجنبيّ؛ ومن ناحية أخرى كان يحدّثه بالفرنسية، بينما كان بإمكانه ان يخاطبه بالإيطالية. «إنك قد

استسلمت إلى رذائل هذه المدينة وهذا البلد. وكما كان يقول نيافة الكاردينال، خفّة عقل الفرنسيين المعتادة تجعلهم يرغبون في التغيير لما يشعرون به من ضيق بالأمور الراهنة. والبعض من هؤلاء النبلاء خفيفي العقل، والذين خففهم الملك من رؤوسهم، استهواك بخطاباته المخربة. إن حالتك لا تستدعي ان تهتمّ بها أي محكمة. فالدول، التي نحن لا ندخر وسعا في الحفاظ عليها، ستتعرض قريبا للخراب لو طالبنا بخصوص المؤامرات التي تدبّر ضدّها ببراهين في نفس وضوح البراهين التي تتطلبها الجرائم العادية. لقد شاهدوك منذ ليلتين تتحادث مع بعض أصدقاء «سانك مارس»، الذين تلفظوا مرة أخرى بأحاديث فيها خيانة عظمى للدولة. من رآك بينهم يملك ثقتنا، بما انه حشر بينهم بإذن منا. وهذا يكفي. هيّا إذن،» ـ وأومأ بضيق ـ «لم نطلبك لنسمع منك احتجاجات بأنك بريء، إهدأ إذن واصغ اليّ».

لم يهدأ روبارتو، ولكنه خرج ببعض الاستنتاجات: في نفس الوقت الذي كانت فيه ليليا تلمس يده، كان أحد يشاهده في مكان آخر يتآمر ضدّ الدولة. كان مزارينو مقتنعا اقتناعا يجعل الظن يصبح أمرا واقعا. كان الكثيرون يقولون ان غضب ريشليو لم يهدأ بعد، وكثيرون كانوا يخافون ان يختارهم ليجعل منهم عبرة جديدة. وروبارتو، مهما كانت الطريقة التي اختير بها، كان لا محالة هالكا.

كان بإمكان روبارتو ان يفكّر في أنه توقف مرّات عديدة، وليس فقط منذ ليلتين، للتحادث مع آخرين عند خروجه من صالون رامبويّي؛ وأنه ليس من المستحيل ان يكون من بين المتحادثين بعض من أصدقاء دي مارس؛ وأن مزارينو، ان كان يريد هلاكه لسبب ما، كان يكفيه ان يؤوّل تأويلا لئيما أي جملة نقلها اليه جاسوسه... ولكن أفكار روبارتو كانت بطبيعة الحال أفكارا أخرى تؤكد تخوّفاته: وهي ان أحدهم شارك في اجتماع تدبّر فيه الدسائس مستعملا وجهه واسمه.

وهذا يكفي لكي يعدل عن كل محاولة للدفاع عن نفسه. ما لم يفهمه إلى الآن هو لأي سبب ـ إن كان الحكم بشأنه قد صدر ـ يتحمّل الكردينال مشقّة إعلامه بالمصير الذي ينتظره. فهو ليس المتلقّي لأيّ رسالة، بل هو اللغز، والأحجية التي ينبعي على آخرين، في شكّهم حول إرادة الملك، أن يفكّوا رموزها. بقي صامتا ينتظر توضيحا.

«انظر يا سان باتريتسيو، لو لم يشرفنا البابا وإرادة الملك منذ عام بتعييننا في هذا المنصب الكنسي، لقلنا ان العناية الإلهية هي التي قادت تهوّرك. كنّا نراقبك منذ وقت غير قصير، ونتساءل كيف سيمكننا ان نطلب منك ان تقدّم لنا عملا لست مطالبا بالقيام به. وتقبّلنا الانزلاقة التي وقعت فيها منذ ثلاث ليال كهبة طريفة من السماء. الآن أنت مدين لنا، ووضعيتنا إزاءك تغيرت، ولا أتكلّم عن وضعيتك أنت».

ـ «مدين؟»

ـ «مدين لنا بالحياة. بطبيعة الحال ليس بمقدورنا ان نعفو، ولكن التوسّط لصالحك يبقى من مشمولاتنا. لنقل أنه بإمكانك ان تفلت من صرامة القانون بالهرب. بعد سنة، أو ربما أكثر، ستختلط دون شك ذاكرة الشاهد، وسيحلف دون خوف من العار ان الشخص الذي رآه منذ ثلاث ليال ليس أنت؛ وربما تأكد بعد ذلك انك كنت في تلك الساعة في مكان ما تلعب التريك تراك مع القائد دي بار. عندئذ ـ وليس هذا قرارا، انه افتراض، وربما حدث عكس هذا، ولكننا واثقون من حدسنا ـ سيعترف لك بحقك وترد اليك كامل حريتك». ثم أضاف «اجلس من فضلك. أريد أن أعرض عليك مهمّة».

جلس روبارتو مستفهما: «مهمّة؟»

ـ «مهمّة دقيقة. ولا أخفي عنك انه لن تنقصك أثناءها الفرص لكي تفقد الحياة. ولكن هذا هو الاتفاق: سنمنحك الطريقة للنجاة من الجلاّد، وستبقى لك فرص سانحة عديدة للرجوع حيّاً وبعافية، اذا ما كنت حصيفا. لنقل سنة من المحن، مقابل حياة كاملة».

فقال روبارتو، الذي رأى ان صورة الجلاد على الأقلّ بدأت تتلاشى: «يا نيافة الكاردينال، إنني فهمت انه لا جدوى لي من أن أحلف على شرفي أو على الصليب، أنه..».

ـ «سنكون عديمي الرحمة لو نفينا مطلقا براءتك أو نفينا قطعا أننا ضحية التباس. الا ان الالتباس يتفق تماما مع مشاريعنا ولا نرى داعيا لرفعه. ومن ناحية أخرى لا أظنك تقصد أننا نعرض عليك صفقة دنيئة، كمن يقول إمّا أن تكون بريئا تحت شفرة الجلاد أو مجرما معترفا بجرمه، كذبا، في خدمتنا..».

ـ «حاشا أن تكون لديّ هذه الظنون المنافية لمشاعر احترامي، يا نيافة الكردينال».

ـ «إذا نحن نعرض عليك بعض المخاطر المحتملة، ومجداً مؤكداً. وسنقول لك كيف وقع نظرنا عليك، قبل ان نعلم بوجودك في باريس. المدينة، كما تعلم، تتحدث كثيرا عمّا يقع في الصالونات، وباريس كلّها تحدّثت منذ مدّة عن سهرة تميّزت خلالها ولفتّ أنظار العديد من السيدات. باريس بأجمعها، ولا تخجل. إننا نشير إلى تلك الأمسية التي تحدّثت فيها ببراعة عن فضائل ما يسمّى بمسحوق الانجذاب، وبطريقة (هكذا يقال في تلك الأماكن، أليس كذلك؟) تضيف السخرية فيها إلى ذلك الموضوع طعما، والجناس لطافة، والحكمة وقارا، والمبالغات ثراء، والمقارنات نفاذ بصر..».

ـ «يا نيافة الكاردينال، لقد أعدت أشياء سمعتها، لا غير..».

ـ «إنني أقدّر تواضعك، ولكن يبدو لي أنك برهنت عن معرفة طيبة ببعض أسرار الطبيعة. ولذا يلزمني رجل له نفس هذا العلم، رجل غير فرنسي، ليتسلّل، دون ان يعرّض اسم الملك للشبهات، فوق سفينة ستبحر من أمستردام قصد اكتشاف سرّ جديد، له علاقة، بشكل ما، باستعمال ذلك المسحوق».

ودحض مرة أخرى اعتراضا من قبل روبارتو: «لا تخف، إننا بحاجة إلى ان تعرف جيدا عمّا نبحث، حتى تتمكن من قراءة الدلالات الأكثر غموضا. نريدك مطلعا اطلاعا كاملا على الموضوع، بما اننا نرى انك مستعدّ كامل الاستعداد لخدمتنا. سيكون لك أستاذ متميّز، ولا يخدعنّك صغر سنّه». ثم مدّ ذراعه وجذب حبلا. لم يسمع روبارتو شيئا ولكن الحركة أحدثت دون شكّ صوتا ما عن طريق جرس أو شيء آخر ـ أو هذا ما استنتج روبارتو في زمن كان فيه كبار الأسياد لا يزالون يصيحون بصوت مرتفع لمناداة الخدم.

وفعلا بعد برهة صغيرة دخل القاعة وهو ينحني بتبجيل، شاب لا يبدو عليه انه تجاوز سن العشرين.

وبادره مزارينو: «أهلا بك يا كولبار، هذا هو الشخص الذي حدثتك عنه اليوم»، ثم أضاف متحدثا إلى روبارتو: "كولبار، الذي بدأ يتعلّم شيئا فشيئا الأسرار التي تحكم إدارة الدولة، أخذ يهتمّ منذ مدة بمسألة كانت من أهمّ مشاغل الكاردينال دي ريشليو، وإذن من أهمّ مشاغلي. ربما أنت تعرف، يا سان باتريتسيو، انه قبل ان يمسك الكاردينال بدفّة هذه السفينة الكبيرة التي قبطانها هو لويس الثالث عشر، كانت البحرية الفرنسية لا اعتبار لها أمام بحريات أعدائنا، سواء كان ذلك في الحرب أم في السلم. اليوم بإمكاننا ان نفتخر بترساناتنا، وبأساطيلنا سواء في المشرق أو في المغرب، وأنت تتذكر دون شك النصر الباهر الذي حققه منذ ما لا يزيد عن ستة أشهر مركيز بريزي، عندما نشر أمام برشلونة أربعا وأربعين سفينة حربية، وأربعة عشر قادسا، ولا أذكر عدد المراكب الأخرى. ودعّمنا مستعمراتنا في «فرنسا الجديدة»، وأكّدنا سيطرتنا على المارتنيك وعلى الغوادالوب، وعلى جزر عديدة أخرى في بحر البيرو، كما كان يحلو للكاردينال ان يقول. وبدأنا في تكوين شركات تجارية، حتى وان لم نحصل بعد على نجاح كبير إلاّ أنه للأسف، في المقاطعات المتحدة، في انجلترا، وفي

البرتغال وفي إسبانيا ليست هناك عائلة من الأشراف لا تملك عضوا منها يتاجر عبر البحار؛ إلاّ في فرنسا، للأسف. وهذا دليل على أننا ربما نعرف ما فيه الكفاية عن «العالم الجديد»، ولكننا لا نعرف الا قليلا عن العالم الجديد جدا. بيّن يا كولبار لصديقنا كيف ان تلك الجهة من الكرة الأرضية لا تزال تبدو خالية من الأراضي».

فحرّك الشاب الكرة الأرضية وابتسم مزارينو بحزن: "للأسف، هذه المساحات المائية ليست فارغة لأن الطبيعة بخيلة بالأراضي؛ انها فارغة لأننا لا نعرف الاّ القليل عن سخائها. ومع ذلك، بعد اكتشاف طريق غربية نحو جزر «مولوخ»، صار الرهان متمثّلا في كامل تلك المنطقة الشاسعة والمجهولة الممتدة بين السواحل الغربية للقارة الأمريكية والامتداد الأخير الشرقي لآسيا. أتحدث عن المحيط المسمّى بالهادي، كما أراد البرتغاليون ان يسمّوه، والذي توجد فيه دون شك الأرض الجنوبية المجهولة، التي لا نعرف منها الا جزرا قليلة وبعض السواحل، ولكننا نعرف انها تحتوي على خيرات لا حدّ لها. فوق تلك البحار يجول اليوم ومنذ زمن مغامرون كثيرون لا يتكلمون لغتنا. وصديقنا كولبار يغذي الأمل، الذي لا أظنه مجرّد أحلام شبابية، في خلق حضور فرنسي في تلك البحار. إضافة إلى اننا نعتقد أن أول من وضع قدمه على تلك «الأرض الجنوبية» هو فرنسي، السيّد دي قونوفيل، وذلك قبل ستة عشر عاما من بعثة ماجلاّن. ومع ذلك، فإن ذلك الرجل النبيل أو ذلك الكنسيّ مهما أردنا أن نسمّيه، نسي أن يسجّل على الخارطات المكان الذي وصل اليه. هل يمكن ان نظن أن رجلا شريفا ونزيها مثله تغافل إلى هذا الحدّ؟ بدون شك لا، إلاّ أنه في تلك العهود الغابرة لم يعرف كيف يحلّ مسألة من المسائل حلاّ كاملا. وهذه المسألة، التي تتساءل بكل تأكيد عن طبيعتها، لا تزال إلى اليوم أمرا غامضا بالنسبة الينا نحن أيضا».

ثم توقف برهة، وفهم روبارتو أنه بما أن الكردينال وكذلك كولبار

كانا يعرفان، إن لم نقل الحلّ، فعلى الأقلّ اسم السرّ الغامض، فالاستراحة ليست الاّ دعوة موجهة اليه للتدخل. ورأى انه من الأفضل ان يلعب دور المتفرّج المفتتن، وسأل: «وما هو هذا السرّ الغامض، من فضلك؟»

عندئذ ألقى مزارينو على كولبار نظرة تواطؤ وأجاب: "إنه سرّ خطوط الطول». وأيّده كولبار بوقار.

وواصل الكردينال: «ولحلّ مسألة الـPunto Fijo هذه، وعد فليب الثاني منذ سبعين عاما بثروة عظيمة، وبعده وعد فيليب الثالث بإيراد أبدي بستة آلاف دوكا وبدخل عمري يساوي ألفين، و"الدول العامة الهولندية» وعدت بثلاثين ألف فلورينا. ولم نبخل من جهتنا بالمساعدات المالية لفائدة علماء قديرين في الفلك... بالمناسبة يا كولبار، ذلك الدكتور موران، منذ ثماني سنين وهو ينتظر..».

ـ «يا نيافة الكردينال، لقد قلتم شخصيا ان قصّة اختلاف المنظر القمري ليست الا وهما..».

ـ «صحيح، إلاّ انه للدفاع عن فرضيته القابلة جدا للشك، درس وبحث بجدّ وانتقد الفرضيات الأخرى. لنشركه في هذا المشروع الجديد، ربما أنار السيد دي سان باتريتسيو. لنمنحه جراية، لا شيء مثل المال يشجع على المثابرة. إن كانت فكرته تحتوي على حبّة من حقيقة فستمكن من التأكد منها وفي نفس الوقت نتفادى، لو أحسّ بنفسه منبوذا في بلده، أن يستجيب لدعوات الهولنديين. يبدو لي ان الهولنديين فعلا، إزاء تردّد الإسبان، بدأوا يتعاملون مع ذلك المسمّى غاليلي، ويجب ان لا نبقى خارج هذا السباق..».

عند ذلك تدخل كولبار مترددا: «يا نيافة الكردينال، أذكّر حضرتك ان غاليلي توفي في بداية هذه السنة..».

ـ «صحيح؟ نرجو من الإله ان يسعده في الآخرة، أكثر ممّا قدّر له أن يسعد في هذه الدنيا».

ـ «وعلى كل حال حتى الحلّ الذي أتى به والذي كان يبدو نهائيا، اتضح في نهاية الأمر انه ليس كذلك..».

ـ «لقد سبقت أفكارنا يا كولبار. ولكن لنفترض ان حلّ موران هو الآخر لا يساوي فلساً. لا بأس، سنسانده على كل حال، حتى تتّقد من جديد نار النقاش حول تلك الأفكار، ولنستثر فضول الهولنديين: لنُغْرِهِ بمواصلة العمل ونضع أعداءنا لمدة من الزمن في طريق خاطئة. لن نخسر على كل حال الأموال التي صرفناها. ولكننا تحدثنا عن هذا بما فيه الكفاية. واصل من فضلك، وبينما يتعلّم منك سان باتريتسو، أتعلّم أنا أيضا».

فردّ كولبار وقد احمرّ وجهه خجلا: «القليل الذي تعلّمته يعود الفضل فيه إلى حضرتكم. ولكن طيبة قلبكم تشجّعني على أن أبدأ» ربما جعلته هذه الكلمات يحسّ بنفسه في مكان أليف، لأنه رفع رأسه، بينما كان قد تركه إلى ذلك الحين منخفضا، واقترب بخفّة من الكرة الأرضية قائلا: «يا حضرات السادة، وسط المحيط ـ حيث حتى عندما تعترضنا أرض لا نعرف تحديدا أي أرض هي، وعندما نبحر نحو أرض معروفة نتقدم أياما وأياما وسط امتدادات لا تنتهي من المياه ـ لا يملك البحّار من وسيلة الاّ الكواكب لمعرفة موقعه. وبآلات اشتهر بها الفلكيون القدامى، يرسم ارتفاع الكوكب على الأفق، ومنه يستمدّ المسافة التي تفصله عن السمت وبمعرفة انحنائه، وبما ان البعد عن السمت وكثرة أو قلة الانحناء تعطينا خط العرض، فنحن نعرف على الفور على أي خط استواء نوجد، أو بالأحرى موقعنا شمالا أو جنوبا من نقطة ما معروفة لدينا. يبدو لي ان هذا واضح».

فقال مزارينو: «في متناول طفل صغير،»

وواصل كولبار: «ربما اعتقدنا أنه بمقدورنا أن نعرف أيضا موضعنا شرقا أو غربا من نفس النقطة المذكورة، أعني على أي خط طول، أو بالأحرى على أي هاجرة. كما يقول ساكروبوسكو، الهاجرة هي دائرة

تمرّ من قطبي الكرة الأرضية، وعلى خط السمت الموجود فوق رؤوسنا. ويسمّى الهاجرة، لأنه مهما كان المكان الذي يوجد فيه المرء ومهما كانت الفترة من السنة، عندما تصل الشمس إلى سمتها، في ذلك المكان وبالنسبة إلى ذلك المرء يكون منتصف النهار. ولكن للأسف، ولسرّ طبيعي خفيّ، جميع الطرق المستنبطة لتحديد خط الطول أخفقت. وربما تساءل الجاهل ما أهميّة ذلك؟ أجيبه ان لذلك أهميّة بالغة».

كانت ثقته بنفسه تزداد شيئا فشيئا، وأدار الكرة الأرضية مشيرا إلى حدود أوروبا: «خمس عشرة درجة من الهاجرة تقريبا، تفصل باريس عن براغ، أكثر من عشرين بقليل عن جزر كناري. ماذا ستقول عن قائد جيش بري يظن أنه يقاتل في الجبل الأبيض وعوض ان يقتل بروتاستيين يقتل دكاترة السربون في جبل سانت جينوفياف؟»

فابتسم مزارينو وبسط يديه إلى الأمام، كمن يأمل ان تقع أشياء من ذلك القبيل على خط الطول الصحيح.

وواصل كولبار قائلا: "المأساة هي أن مثل هذه الأخطاء تقع بسبب الاعتماد على الوسائل المستعملة حاليا لتحديد خطوط الطول. وهكذا يحدث مثلما حدث منذ ما يقرب من قرن لذلك الإسباني مندانيا، الذي اكتشف جزر سليمان، وهي أراض حباها الرب بالغلال على سطح الأرض وبالذهب في باطن الأرض. مندانيا هذا حدّد موضع تلك الأرض التي اكتشفها، ثم عاد إلى وطنه لتبليغ الخبر، وفي أقل من عشرين سنة جهزت له أربع سفن للعودة اليها وليبسط عليها نهائيا سلطة جلالتهم المسيحية كما يقال هنالك، وماذا حدث؟ لم يقدر مندانيا على العثور من جديد على تلك الأرض. والهولنديون لم يبقوا مكتوفي الأيدي، وفي بداية هذا القرن أحدثوا شركة بلاد الهند، وجعلوا من باتافيا في آسيا نقطة الانطلاق لبعثات عديدة أخرى نحو الشرق وصلت إلى هولندا الجديدة؛ بينما أراض أخرى تقع تقريبا شرقي جزر سليمان، اكتشفها في الأثناء قراصنة أنجليز، لم تتوان محكمة سان جياكومو عن منحهم ألقابا

شرقية. ولكن لم يعثر أحد على جزر سليمان، وهذا ما جعل الكثيرين يظنون انها ليست الاّ أسطورة. إلاّ أنه، أسطورية كانت أم حقيقية، فمندانيا قد بلغها حقّا، ولكنه حدّد موقعها على خط العرض تحديدا صحيحا ولكنه أخطأ في تحديد موقعها على خط الطول. وحتى إن هو حدّدها، بمعونة إلهية، بطريقة صحيحة، فالملاّحون الآخرون الذين بحثوا عن خطّ الطول ذلك (وهو نفسه في سفرته الثانية)، لم يكونوا يعرفون بوضوح موقعهم على خط الطول. وحتى إن كنّا نعرف أين توجد باريس، ولكننا لا نقدر على تحديد إن كنّا نوجد في إسبانيا أو في بلاد الفرس، فهذا يعني، يا حضرات السادة، أننا مثل عميان يقودون عميانا آخرين».

فجازف روبارتو قائلا: «غريب، إنني لا أكاد أصدّق أننا لا نعرف الاّ القليل، مع كلّ ما سمعته عن تقدّم العلوم في عصرنا هذا».

ـ «لن أحدّثكم عن كل الوسائل التي جرّبت، ايها السادة، من تلك التي تستعمل الكسوف القمري إلى تلك التي تأخذ بعين الاعتبار تغيرات الإبرة المغناطيسية، التي انكبّ عليها حديثا بالدرس صاحبنا لي توليّي، ولا أذكر منهج لوش، الذي علّق عليه صديقنا شومبلان آمالا كبيرة... ولكنه اتضح انها جميعها عديمة الجدوى، وسيبقى الأمر على هذا الحال إلى ان تجهّز فرنسا مرصدا، تجرّب فيه جميع الافتراضات. هناك بطبيعة الحال طريقة ناجعة: أن نجعل على متن السفينة ساعة تحمل توقيت هاجرة باريس، وأن نحدّد في البحر ساعة المكان، ثمّ نستنتج من الفارق ابتعاد خطّ الطول. هذه هي الكرة الأرضية التي نعيش فوقها، ويمكنكم أن تلاحظوا كيف ان حكمة القدامى قسّمتها إلى ثلاثمائة وستين درجة من خطوط الطول، وينطلق الحساب عادة من الهاجرة التي تمرّ عبر جزيرة الحديد في كناري. والشمس في تحركها عبر السماء (وإن كانت هي التي تتحرك، أو كما يقال الآن، الأرض هي التي تتحرّك، فهذا لا يهمّ بالنسبة إلى ما يشغلنا) تقطع في ظرف ساعة

خمس عشرة درجة من خطوط الطول، وعندما يكون في باريس، كما هو الآن، منتصف الليل، على بعد مائة وثمانين درجة من خط طول باريس يكون منتصف النهار. لذا يكفي ان نعرف بيقين ان الساعة في باريس تشير فرضاً إلى منتصف النهار، وان الساعة في المكان الذي نوجد فيه تشير إلى السادسة مساء، ثم نترجم فارق الساعات بحساب خمس عشرة درجة بالنسبة إلى كلّ ساعة، وسنعرف اننا نوجد على بعد تسعين درجة من باريس، وإذن، حسب التقريب، هنا،» وأدار الكرة الأرضية مشيرا إلى نقطة في القارة الأمريكية. «إلاّ أنه، إن كان من السهل تحديد ساعة المكان المسجّل، فمن الصعب جدا الاحتفاظ على متن السفينة بساعة تشير دائما إلى الساعة الصحيحة بعد شهور من السفر فوق سفينة تهزّها الرياح، وتحمل حركتها حتى أحذق الآلات الحديثة على الخطأ، ولا أتحدث عن الساعات الرملية وتلك المائية، التي لكي تعمل بطريقة صحيحة، تحتاج إلى سطح مستو وثابت».

عندئذ قاطعه الكاردينال: «لا أظن ان السيد دي سان باتريتسيو يحتاج إلى أكثر من هذه المعلومات، يا كولبار. سيحصل على توضيحات أخرى أثناء سفره نحو أمستردام. بعد ذلك لن نكون نحن معلّميه بل نأمل ان يعلّمنا هو أشياء جديدة. وفعلا، يا عزيزي سان باتريتسيو، الكاردينال، الذي كان نظره ولا يزال ـ طويلا ان شاء الله ـ أبعد من نظرنا، وضع منذ مدة طويلة شبكة من المخبرين الأوفياء، يسافرون من بلد إلى آخر، ويتردّدون على الموانئ، يسألون الربابنة الذين يستعدون للإبحار أو العائدين من السفر، للاطلاع على ما تفعله الدول الأخرى وما تعرفه ولا نعرفه نحن، بما أن البلد ـ وهذا يبدو لي واضحا ـ الذي يكتشف سرّ خطوط الطول، ويمنع ان يتفشّى ذلك السرّ، سيكون له تفوق كبير على الآخرين. الآن،» ـ وهنا توقف مزارينو مرّة أخرى، ومرّة أخرى أيضاً مسح شاربيه، ثم جمع راحتيه كمن يركّز وفي نفس الوقت يستلهم عونا من السماء.

ـ «الآن بلغنا ان طبيبا أنجليزيا، الدكتور بيرد، ابتدع طريقة جديدة وغريبة لتحديد الهاجرة، تعتمد على استعمال مسحوق الانجذاب. لا تسألنا كيف، يا عزيزي سان باتريتسيو، لأنني لا أعرف إلاّ بعناء اسم هذه البدعة الشيطانية. نعرف بكلّ تأكيد ان المعني بالأمر هو ذلك المسحوق، ولكننا نجهل المنهج الذي ينوي بيرد اتباعه، وجاسوسنا ليس عالما بالسحر الطبيعي. إلاّ أنه من المؤكد ان الأميرالية الإنجليزية سمحت له بتجهيز سفينة لعبور بحار المحيط الهادي. والأمر على قدر من الخطورة جعل الإنجليز يتحرزون من إعلان ان السفينة سفينتهم. إنها على ملك هولندي يتظاهر بالشذوذ ويزعم انه يريد اقتفاء أثر اثنين من مواطنيه، اكتشفا قبل الآن بخمس وعشرين سنة ممرّا جديدا بين الأطلنطي والهادي، فيما وراء مضيق مجلاّن. ولكن بما ان كلفة المغامرة يمكن ان تشير إلى وجود تمويل من قبل دولة لها مصلحة في ذلك، أعلن الهولندي انه يقبل على سفينته بضاعة ومسافرين، كمن يريد ان يواجه بذلك كلفة الرحلة. ومن غريب الصدف انه من بين المسافرين سيكون هناك الدكتور بيرد وثلاثة من مساعديه، يقدمون أنفسهم على انهم من جامعي النباتات الغريبة. في الحقيقة ستكون الرحلة تحت مراقبتهم الكليّة. وستكون أنت من بين المسافرين يا سان باتريتسيو، وسيهتمّ عوننا في أمستردام بكل شيء. وستتقدّم على أنك واحد من أشراف سافويا، تفتّش عنه العدالة في جميع أنحاء البلد، رأى أن يختفي مدّة طويلة في البحر. كما ترى، لن تضطرّ حتى إلى الكذب. صحّتك رقيقة جدا ـ والألم الذي تحسّ به في عينيك، كما قيل لنا، سيكون اللمسة التي ستكمل مشروعنا. أنت مسافر يقضي أغلب وقته في مكان مغلق، وعلى وجهه بعض المراهم، وما عدا ذلك لا يرى أبعد من أنفه. وبينما تتجول وأنت تهذر ذاهلا، في الحقيقة تفتح جيدا عينيك وترهف سمعك. نحن نعرف انك تفهم الإنجليزية، تظاهر بجهلك اياها، وهكذا يتحدث أعداؤنا بحرية مطلقة في حضورك. وإن كان هناك أحد على متن السفينة يفهم الإيطالية أو الفرنسية، إلق بعض الأسئلة، وتذكر الأجوبة

التي سيعطونك اياها. ولا تزدر التحادث مع رجال من السوقة، فببعض المال سيخرجون لك حتى أمعاءهم. وليكن المال قليلا، حتى يبدو هبة، لا مكافأة، وإلاّ ساورتهم الشكوك. ولا تسأل أبدا بطريقة مباشرة، والسؤال الذي ألقيته اليوم، أعده بعبارات مختلفة في اليوم الموالي، فإن كذب عليك في المرّة الأولى، فسيتّضح ذلك في تناقض أجوبته: فالسوقة ينسون الهراء الذي تلفظوا به، وفي اليوم الموالي يبتدعون أشياء تناقض أقوالهم الأولى. ومن ناحية أخرى ستتعرّف بسهولة على الكاذب: عندما يضحك تتكون في خدّيه شبه حفرتين، ويحمل أظافر قصيرة جدا؛ وحاذر كذلك من قصار القامة، لأنهم يكذبون بدافع الزهو. على كلّ حال ستكون محادثاتك مع هؤلاء قصيرة، ولا تظهر لهم أنك استمددت منها فائدة: الشخص الذي يجب أن تتحدّث معه كما ينبغي هو الدكتور بيرد، وسيبدو ذلك طبيعيا لأنه الوحيد الذي يوافقك من ناحية الثقافة. إنه رجل علم، وهو يتكلّم الفرنسية، وربما الإيطالية، وأكيدا أيضا اللاتينية. وأنت مريض، وستطلب منه بعض النصح والمساندة. لن تفعل مثل أولئك الذين يأكلون التوت أو التراب الأحمر زاعمين انهم يبصقون الدم، ولكنك ستجعله يقيس نبضك بعد العشاء، ففي تلك الساعة يبدو المرء دائما وكأنه مصاب بالحمّى، وستقول له انك لا تغمض عينا أثناء الليل؛ وهذا سيبرّر تجوالك أثناء الليل صاحيا، وسيحدث ذلك دون شك اذا ما قاموا بتجاربهم مع النجوم. بيرد هذا هو دون شك من الموسوسين، مثل جميع أهل العلم: ابتدع أشياء غريبة وحدّثه عنها، كما لو أطلعته على سرّ من أسرارك، وسترى أنه سيطلعك هو الآخر على الغرائب التي ابتدعها والتي تمثّل سرّه المكنون. بيّن له اهتمامك، ولكن تظاهر بأنك لا تفهم الا القليل أو لا شيء، بهذه الطريقة سيحدّثك عنه مرة ثانية وبتفصيل أكبر. أعد ما قاله لك كما لو فهمت، وارتكب بعض الأخطاء، حتى يسارع من غروره إلى تصويبك، مفسّرا بدقّة ما كان يجب عليه ان يكتم. لا تؤكد أبدا شيئا ما، بل لمّح دائما: التلميح مجعول لجسّ النبض، واستنطاق القلوب. اجعله يطمئن إليك:

إن كان ميالاً للضحك، اضحك معه، وإن كان صفراويّ المزاج تصرّف كما لو كنت أنت أيضا صفراوي المزاج، ولكن عبّر دائما عن إعجابك بعلمه. إن كان غضوبا وأهانك، تحمّل الإهانة، واعلم انك بدأت في عقابه قبل ان يبدأ هو في إهانتك. في البحر الأيام طويلة والليالي لا نهاية لها، ولا شيء يخفّف من السأم على انجليزي أكثر من كؤوس عديدة من تلك الجعة التي يحمل الهولنديون منها دائما ذخيرة في قاع السفينة. تظاهر بحبّك الشديد لذلك الشراب وشجّع صديقك الجديد على تناوله واجعله يشرب أكثر منك. ربما ساورته الشكوك يوما بخصوصك، وأمر بتفتيش غرفتك: لذا لن تترك أي ملاحظة مكتوبة، ولكن ستكون لك يوميّة تكتب فيها عن حظك التعيس، أو عن العذراء أو عن القديسين، أو عن المحبوبة وعن يأسك من رؤيتها يوما ما، وفي اليومية ستدوّن بعض الملاحظات حول خصائل الدكتور، وستثني عليه كالصديق الوحيد الذي تملكه على متن السفينة. ولا تنقل من أحاديثه شيئا عن الموضوع الذي يعنينا، بل اذكر ما تفوّه به من أقوال حكيمة، لا يهمّ فحواها أو طبيعتها: مهما كانت غثّة فبالنسبة اليه ليست كذلك بما أنه تفوّه بها، وسيسرّ لأنك احتفظت بها. باختصار، ليس هدفنا ان نلقنّك دروسا في علم المخابرات: ليست أشياء يتقنها رجل دين. اعتمد على حدسك، كن حذرا بتبصّر وكن بصيرا بحذر، واجعل حدّة نظرك متناسبة عكسا مع صيته ومتناسبة مع حضور بديهتك».

ونهض مزارينو، موضّحا للزّائر ان المحادثة قد انتهت، وحتى يبيّن سيطرته عليه قبل ان ينهض بدوره، أضاف «اتبع كولبار. سيضيف لك معلومات أخرى ويعهد بك إلى الأشخاص الذين سيقودونك إلى أمستردام للإبحار. انصرف وليكن حظك سعيدا».

كانا على وشك الخروج عندما ناداهما الكاردينال من جديد: «آه، لقد نسيت يا سان باتريتسيو. لقد فهمت دون شك أننا سنقتفي أثرك من هنا إلى المرفأ الذي ستبحر منه خطوة خطوة، ولكنك تتساءل كيف لا

نخشى بعد ذلك، وعند أول محطّة، أن يسترجع طائر الغاب حريّته. لا نخاف ذلك ولا نظنّه في صالحك. لن يمكنك الرجوع إلى هنا، حيث ستصبح هاربا يفتّشون عنه في كل مكان، وإن نفيت نفسك في مكان ما هنالك، ستعيش دائما مع الخوف من أن يجدك أعواننا. وفي كلتا الحالتين ستضطرّ إلى التنازل عن اسمك وعن مقامك. ولا نظن أبدا أن رجلا مثلك يمكن أن يبيع نفسه إلى الإنجليز. وماذا سيمكنك أن تبيع؟ فكونك جاسوسا هو سرّ، إن أنت أردت بيعه، فذلك يعني أن تفشيه، وإذا ما أفشيته فلن يساوي بعد ذلك شيئا، إلاّ ربما ضربة خنجر. أما إذا عدت الينا، بمعلومات حتى وان كانت متواضعة، فستستحقّ تقديرنا. لن نفعل حسنا لو طردنا رجلا أظهر قدرته على مواجهة مهمّة في مثل هذه الصعوبة. ما تبقّى هو رهين قرارك. حظوة العظام ينبغي المحافظة عليها بغيرة، حتى لا تضيع، وينبغي تطعيمها بالخدمات حتى تدوم: ستقرّر عند ذلك الحدّ ان كان اخلاصك لفرنسا من المتانة بحيث ينصحك ان تكرّس مستقبلك لملكها. يقولون انه حدث لبعضهم ان ولدوا في بلدان أخرى ووجدوا حظّهم في باريس».

كان الكاردينال يقدّم نفسه كمثال للمخلص الذي كوفىء على ولائه. ولكن بالنسبة لروبارتو لم تعد المسألة عند ذلك الحدّ مسألة مكافأة. لقد فتح الكاردينال أمامه أبواب المغامرة، وأفقاً جديداً، ونفخ في روحه حكمة الحياة التي كان جهله اياها، ربما حرمه إلى ذلك الحين من تقدير الآخرين. ربما يحسن به ان يقبل دعوة القدر، الذي يبعده عن آلامه. أما تلك الدعوة الأخرى، قبل ذلك بثلاث ليال، فقد اتّضح كل شيء لديه ما إن بدأ الكاردينال حديثه. فإن اشترك شخص آخر في تدبير مؤامرة، وظن الجميع أنه هو، فقد أوحى اليها دون شك ذلك الآخر تلك الجملة التي عذّبته فرحا وهيّمته غيرة. هناك «آخرون» كثيرون بينه وبين الواقع. وإذن، مرحبا بالانفراد فوق البحار، حيث سيمكنه ان يمتلك الحبيبة بالطريقة الوحيدة المتاحة له. وأخيرا، ليس الكمال في الحب ان تكون معشوقا، بل ان تكون عاشقا.

انحنى على احدى ركبتيه وأجاب: «إنني في خدمة نيافتكم».

أو على الأقلّ هذا ما أرجو، بما انه لا يبدو لي من اللائق ان أجعله يتسلّم تصريح أمان يقول: "بأمر مني وخدمة للدولة قام حامل هذا التصريح بما قام».

18

طرف غريبة

إن كانت دافني،مثل أماريلّي، قد أرسلت للبحث عن الـpunto fijo، فالدخيل إذن خطير. لقد أصبح روبارتو على علم بالصراع العنيف بين دول أوروبا للاستحواذ على ذلك السرّ. كان عليه أن يتهيأ جيّدا وأن يعمل بذكاء. من الواضح ان الدخيل في بداية الأمر كان يعمل أثناء الليل، ثم تحرّك في الخارج عندما بدأ روبارتو يسهر، وإن كان في حجرته، أثناء النهار. أيحسن إذن ان يدخل الفوضى على حساباته، ان يوهمه انه ينام في النهار ويبقى صاحيا أثناء الليل؟ ولماذا، سوف يغيّر عندئذ عاداته. كلاّ، من الأفضل ان يفشل جميع توقّعاته، ان يجعله حائرا بخصوص مشاريعه نفسها، ان يوهمه بأنه نائم بينما هو مستيقظ وان ينام بينما الآخر يظنه مستيقظا...

كان عليه ان يتصوّر ماذا سيظنّ الآخر أنه يظن، أو ماذا يظن انه يظن ماذا هو يظنّ... كان الدخيل إلى ذلك الحين مثل ظلّه، الآن على روبارتو ان يصبح ظلّ الدخيل، وان يتعلّم كيف يتبع أثر من يقتفي أثره هو. ولكن هذه الشباك التي ينصبها احدهما للآخر لا يمكن أن تتواصل إلى ما لا نهاية له، ينفذ احدهما من سلّم بينما ينساب الآخر من السلّم المقابل، أو ينزل الأول إلى قاع السفينة بينما الآخر يقظ على السطح،

أو يهرع احدهما تحت السطح بينما الآخر يصعد ربّما من الخارج محاذيا جوانب السفينة؟

من له شيء من التبصّر سيقرّر في هذه الحال ان يواصل استكشاف باقي السفينة، ولكن لا ننس ان روبارتو لم يعد متبصّرا. لقد استسلم من جديد لشرب العرق، مقنعا نفسه انه يفعل ذلك لتنشيط جسمه. بالنسبة لرجل ألهمه العشق دائما الانتظار، لا يمكن أن يلهمه شراب السلوان قوة العزم. كان يتقدّم إذن ببطء، بينما يظن نفسه مثل البرق. كان يبدو له انه يقفز قفزا، بينما كان في الواقع يحبو على أربع. زد على ذلك انه كان لا يجرؤ إلى ذلك الحين ان يخرج مكشوفا أثناء النهار، ويحسّ بنفسه أكثر قوة في الليل. إلا انه أثناء الليل كان يشرب، ويسلك سلوك الكسول. ما الشيء الذي يبحث عنه عدوّه، كان يتساءل في الصباح. ولكي ينفخ الشجاعة في نفسه، يعود إلى البرميل.

على كلّ حال، في مساء اليوم الخامس قرّر ان يتوغّل في ذلك الجزء من قاع السفينة الذي لم يزره بعد، تحت مخزن المؤن. ولاحظ انه على متن دافني وقع استغلال الفضاءات إلى أقصى حدّ، وبين السطح الثاني والقاع ركّبت ألواح وطوابق، تكونت منها مقاصير يؤدي بعضها إلى البعض بواسطة سلالم متزعزعة؛ ودخل إلى حفرة الحبال، متعثرا في لفائف من مختلف انواع الحبال، لا تزال مشربة بماء البحر. وواصل نزوله إلى ان وجد نفسه في غاطس ثان، وسط صناديق وطرود مختلفة الأنواع.

هنالك وجد مؤنا أخرى من الأكل وبراميل من الماء العذب. كان عليه ان يبتهج لذلك، الا ان الدافع لابتهاجه كان فقط لأنه سيكون بإمكانه مواصلة مطاردته بصفة لانهائية، مع التمتّع بلذّة تأجيلها. التي هي لذّة الخوف.

وراء براميل الماء وجد أربعة أخرى مليئة بالعرق. فصعد إلى

المخزن وتثبّت من البراميل الموجودة هنالك. كانت كلّها مليئة بالماء، ممّا يدلّ على ان برميل العرق الذي وجده في اليوم الفارط حمله أحدهم من الأسفل إلى السطح، قصد اغرائه.

وعوض ان ينشغل بالفخ الذي نصب له، نزل من جديد إلى قاع السفينة، وحمل إلى فوق برميلا صغيرا آخر من العرق، وشرب من جديد.

ثم عاد إلى قاع السفينة، ويمكننا ان نتصوّر الحالة التي كان عليها، وتوقّف عندما وصلت إلى خياشيمه رائحة العفن السائل في القاع. لم يكن باستطاعته ان ينزل أكثر.

كان عليه إذن ان يعود إلى الوراء، نحو مؤخرة السفينة، الا ان الفتيلة كانت على وشك الانطفاء وتعثر بشيء ما، ففهم انه كان يتقدم وسط الصابورة، في ذلك المكان بالضبط حيث هيأ الدكتور بيرد على متن أماريلّي موضع الكلب.

ولكنه في قاع السفينة بالذات، وسط برك من الماء وبقايا مختلفة من الطعام المحفوظ، لاحظ أثر قدم.

تأكّد له حينئذ انه يوجد على متن السفينة دخيل وتأكد له ذلك بصفة جعلت فكرته الوحيدة هي انه تحصّل أخيرا على برهان انه لم يكن مخمورا، وهو دائما البرهان الذي يبحث عنه المخمور عند كل خطوة. على كل حال كان البرهان ساطعا، ان أمكننا ان نصف كذلك تقدّمه وسط عتمة القاع وظلال الفتيلة. تأكد لديه الآن ان الدخيل موجود، ولم يمرّ بخاطره انه في ذلك الذهاب والإياب، ربما ترك هو ذلك الأثر. صعد من جديد وقد قرّر ان يمرّ إلى المواجهة.

كان الوقت عند الغروب. وكان أول غروب يشاهده روبارتو بعد خمسة أيام لم ير منها الا الليل أو الفجر أو الصبح. قليل من السحب السوداء تكاد تكون متوازية تحاذي الجزيرة الأكثر بعدا متجمّعة حول

قمّتها، ومن هنالك تتفرّع كالرماح، نحو الجنوب. وكان الساحل يبرز قاتما على صفحة الماء التي صارت في لون الحبر الفاتح، بينما باقي السماء كان يظهر في لون البابونج باهتا ومنهكا، كأن الشمس لم تكن تقيم هنالك في الأفق حفل تضحيتها، وإنما يأخذها النعاس شيئا فشيئا بينما تطلب من السماء ومن البحر ان يرافقا بهمس خافت استسلامها للنوم.

أما روبارتو فقد عادت اليه على العكس هواجسه الحربية وقرّر ان يدخل الارتباك على العدوّ. ذهب إلى موضع الساعات وحمل منها قدر المستطاع إلى سطح السفينة، مصفّفا اياها مثل أقزام البليار، واحدة حذو الصاري الرئيسي، ثلاثة في طرف المؤخرة، واحدة قرب الرحوية، وساعات أخرى حول شراع الميزان، وواحدة عند كلّ باب وعند كلّ كوّة، بطريقة تجعل من يحاول المرور من هنالك في الظلام يتعثر بها.

ثم دوّر جميع تلك الميكانيكيات (دون ان يتفطّن انه بذلك سيجعلها واضحة للعدوّ الذي يريد مفاجأته)، وقلب الساعات الرملية. وتأمّل راضيا سطح السفينة الموشّح بآلات الزمن، مزهوّا بكل تلك الضجة التي كانت تحدثها، واثقا من انها ستدخل الارتباك على العدوّ وستعثّر طريقه.

بعد أن هيأ تلك الفخاخ المسالمة، كان هو أول من سقط ضحيتها. بينما كان الليل يهبط فوق بحر هادىء مثل الزيت، كان هو ينتقل هنا وهناك بين تلك الحشرات المعدنية، ينصت إلى طنينها المعبّر عن كنه ميّت، ويتأمل في تلك القطرات من السرمدية تذوب دمعة بعد دمعة، يوجس خيفة من تلك الجيوش من السوس دون فم وهي تنهش بنهم (هذا فعلا ما كتب)، تلك العجلات المسننة التي تمزق يومه فتحيله إلى مزق من اللحظات وتفني الحياة وسط موسيقى توحي بالموت.

وتذكر جملة كان يقولها الأب إيمانويل، «يا للروعة لو تمكنّا من

رؤية حركات القلب من خلال زجاج الصدر كما نرى في الساعات!» بينما كان يتبع في نور النجوم تتابع حبات الرمل وهي تتساقط في شبه همس من إحدى الساعات الرملية، ويتفلسف حول تلك الأكداس من اللحظات، حول أشكال الزمن المتتابعة، حول تلك الشقوق التي تسيل منها الساعات سيلاناً.

الاّ أنه كان يستنتج من نسق الزمن الذي ينقضي إيحاء بموت شخصه، يقترب منه خطوة بعد خطوة، ويقرّب نظره الأحسر ليفكّ رموز لغز الزمن الهارب، وباستعارة قلقة يبدل آلة مائية إلى تابوت سائل، وفي النهاية كان يرغي ويزبد ضدّ اولئك الفلكيين اللئيمين الذين لا يعرفون الاّ تذكيره بالساعات التي انقضت.

ومن يدري ماذا سيكتب بعد هذا لولا انه أحسّ بحاجة إلى ترك روائعه الشعرية، مثلما ترك قبل ذلك روائعه الكرونوميترية ـ وليس لإرادة منه، وإنما لأن في عروقه كان يجري من ماء الحياة أكثر مما يجري فيها من حياة، فترك تلك التكتكة تصير شيئا فشيئا هدهدة مخدّرة.

في صباح اليوم السادس، عندما استفاق على صوت الآلات الأخيرة التي بقيت تعمل، رأى، وسط الساعات، التي حوّلت جميعها من مكانها، كركيان صغيران ينبشان (أكانا حقيقة كركيين؟)، وأثناء نقرهما المضطرب قلبا وكسرا ساعة مائية كانت من أجمل الآلات الموجودة هنالك.

الدخيل، الذي لم يكن خائفا البتّة (وفعلا، لِمَ يخاف وهو الذي يعرف تمام المعرفة من يوجد على متن السفينة؟)، في ردّه على حيلة سخيفة بحيلة لا تقلّ عنها سخفا، حرّر من تحت سطح السفينة الطائرين. كي يدخل الفوضى على سفينتي، كان روبارتو يبكي، كي يظهر لي انه أقوى مني...

وتساءل لماذا اختار الدخيل طائري الكركي، وقد اعتاد ان يرى في

كل حدث دلالة وفي كل دلالة رمزا. ماذا كان يريد ان يقول؟ وحاول ان يتذكر المعنى الرمزي لطائر الكركي، مستحضرا ما قرأه عن بيشينلّي أو عن فاليريانو، دون ان يجد أي جواب. الآن نعرف جيدا انه لم يكن هناك هدف معين أو معنى خفي من وراء ذلك المعرض الحيواني المذهل، وان الدخيل فقد هو الآخر صوابه مثله تماما؛ الا ان روبارتو لم يكن يعرف ذلك، فكان يحاول ان يقرأ ما لم يكن في الحقيقة الا خربشة غضوبة.

سأقبض عليك، سأقبض عليك ايها الملعون، كان يصيح. ومع انه كان لا يزال مثقلا بالنوم، فقد قبض على السيف وهرع من جديد نازلا إلى قاع السفينة، متعثرا في السلالم إلى ان سقط في مكان لم يسبق له ان اكتشفه، وسط حزم من الحطب واعواد قطعت منذ وقت غير بعيد. الا انه في سقوطه اصطدم بالأعواد، وتدحرج معها إلى ان وجد وجهه ملتصقا بدقران تنبعث من تحته رائحة الفنطاس الكريهة. ورأى بطرف عينه عقارب تتحرّك.

من المحتمل ان بعض الحشرات صعدت إلى السفينة مع الحطب الذي حمل فوقها، ولا أدري ان كانت فعلا عقارب، الا ان روبارتو رآها كذلك، قد جلبها بطبيعة الحال الدخيل قصد تسميمه. وللنجاة من ذلك الخطر أخذ يحاول جاهدا ان يصعد عبر سلم صغير؛ ولكن فوق الألواح كان لا يتقدم خطوة واحدة، بل كان يفقد توازنه وحتى لا يسقط كان يتشبث بالسلّم. في نهاية الأمر تمكن من الصعود إلى السطح ورأى انه جرح في إحدى ذراعيه.

من الأكيد انه جرح نفسه بسيفه. وها هو روبارتو، عوض ان يفكر في الجرح، يعود إلى موضع الحطب، ويبحث بلهفة بين الأعواد عن سلاحه الذي كان متسخا بالدم، فيحمله إلى طرف السفينة ويصب ماء الحياة على الشفرة. وعندما رأى ان ذلك لم يخفّف من ألمه، كذّب كلّ مبادىء العلم وصبّ الكحول مباشرة فوق ذراعه. ومن الألم سبّ وشتم

بعض القدّيسين، ثم جرى إلى الخارج حيث بدأ المطر يسقط مدراراً وغاب الكركيان طائرين في السماء. تلك الزخة من المطر أفاقته شيئا ما: تذكر الساعات وأخذ يجري هنا وهنالك ينقلها لحمايتها من المطر، وها هي قدمه تتعثر في شبكة حديدية جعلته يعود إلى حجرته من الألم وهو يقفز على ساق واحدة مثل الكركي، وهناك خلع ثيابه وكردّ فعل وحيد على كل تلك الأحداث عديمة المعنى، أخذ يكتب بينما المطر يزداد كثافة في بداية الأمر، ثم هدأ، وعادت الشمس بضع ساعات، وأخيرا هبط الليل.

ومن حسن حظنا انه واصل الكتابة، لأننا بذلك عرفنا ماذا حدث له وماذا اكتشف طيلة سفرته فوق أماريلّي.

19

فـنّ الملاحـة الساطع

انطلقت سفينة «أماريلّي» من هولاندا وتوقفت مدة قصيرة في لندن. هناك شحنت خفية شيئا ما أثناء الليل، بينما وقف النوتية في صفّ بين السطح وقاع السفينة، ولم يتمكن روبارتو من الاطلاع على سرّ كل تلك الحركة. ثم أبحرت نحو الجنوب الغربي.

ويصف روبارتو متسلّيا الرفاق الذين وجدهم على متن السفينة. ويبدو ان القبطان لم يدخر جهدا في اختيار مسافرين غريبي الأطوار، شاردي الأذهان، مستعملا اياهم كتعلّة للسفر دون الاكتراث بما يمكن ان يحدث لهم اثناء السفرة. وينقسمون إلى ثلاث فئات: اولئك الذين فهموا ان السفينة ستبحر نحو الغرب (مثل زوجين من غاليتسيا كانا يريدان الالتحاق بابن لهما في البرازيل وشيخ يهودي أقسم العهد على ان يحجّ إلى بيت المقدس متخذا أطول طريق)، ثم اولئك الذين لم تكن لهم فكرة واضحة عن امتداد الكرة الأرضية (مثل بعض المغامرين كانوا يريدون الذهاب إلى جزر «ملوخ» بحثا عن الثروة، وكان بإمكانهم ان يصلوها بطريقة أسرع عن طريق الشرق)، وأخيرا اولئك الذين خدعوا بصفة واضحة، مثل مجموعة من الهراطقة قادمين من وديان البيمونتي كانوا يريدون الالتحاق بالطهريين الإنجليز على السواحل الشمالية للعالم الجديد، ولم يكونوا يعرفون ان السفينة على العكس ستتجه مباشرة نحو

الجنوب، مع محطّة أولى في «ريسيف». وعندما تفطنوا إلى الخدعة، كانت السفينة قد بلغت فعلا تلك المستعمرة ـ كانت آنذاك في أيدي الهولنديين ـ وقبلوا على كل حال ان يبقوا في ذلك المرفأ البروتستاني خوفا من التعرض إلى أخطار أكبر بين البرتغاليين. في «ريسيف» صعد على متن السفينة فارس من فرسان مالطة على وجهه سمات القراصنة، كان يريد العثور على جزيرة، حدّثه عنها بندقيّ، أطلق عليها اسم اسكونديدا، وكان هو لا يعرف موقعها، ولا أحد فوق أماريلي سبق له أن سمع بها. وهذا يدلّ على ان القبطان اختار من المسافرين ما قلّ وندر وجود امثالهم على الأرض.

ولم يعر اهتماما لظروف عيش تلك المجموعة الصغيرة التي احتشدت تحت السطح: طالما كانت السفينة تجتاز المحيط الأطلنطي لم ينقص الغذاء، وتزودت السفينة احيانا على السواحل الأمريكية. الاّ انه بعد ابحار طويل وسط سحب طويلة قطنية وسماء باهتة، وبعد ان فاتت السفينة مضيق ماجلاّن، جميعهم تقريبا، ما عدا الضيوف ذوي المقام، بقوا مدّة شهرين على الأقلّ يشربون ماء يحدث الدوران، ويأكلون خبزا جافا له رائحة بول الفئران. وهلك بعض النوتية مع مسافرين كثيرين آخرين من داء الحفر.

وللبحث عن المؤن صعدت السفينة نحو الغرب طول سواحل «شيلي»، ورست في جزيرة خالية من السكان تطلق عليها خرائط القبطان اسم «ماس أفويرا». وهناك توقفوا ثلاثة أيام. كان طقسها سليماً، ونباتها وافراً، حتى ان فارس مالطة قال انه سيكون من حسن حظ امرء لو القت به الأمواج يوما على تلك السواحل، سيعيش فيها دون شك سعيدا ولن يرغب في الرجوع بعد ذلك إلى بلده ـ وحاول ان يقنع نفسه انها جزيرة «اسكونديدا». على كل حال أكانت «اسكونديدا» أم لا، لو بقيت فيها ـ كان يقول روبارتو لنفسه على دافني ـ الآن لن أكون هنا، خائفا من دخيل لا لشيء الا لأنني رأيت أثر قدمه مطبوعا في قاع السفينة.

ثم هبّت رياح معادية، كما كان يقول القبطان، واتجهت السفينة خلافا لكلّ منطق وجيه نحو الشمال. روبارتو لم يحسّ بتلك الرياح المعادية، بل بالعكس، عندما قرّر القبطان تغيير الوجهة كانت السفينة تسري ناشرة جميع القلوع، حتى ان تحويل الوجهة اضطر المركب إلى ان يميل. من المحتمل ان الدكتور بيرد ورفاقه كانوا في حاجة إلى ان يبقوا على نفس خط الطول للقيام بتجاربهم. على كلّ، مهما كان الأمر فقد انتهى بهم المطاف إلى جزر «غالاباغوس»، حيث تسلّوا بقلب سلاحف عظيمة على ظهرها، وبطهيها داخل دروعها. وتمعّن المالطيّ طويلا في بعض أوراقه ثم قرّر ان تلك الجزيرة ليست «إسكونديدا».

ثم أعيدت الوجهة نحو الغرب، وبعد ان نزلت السفينة إلى ما وراء الدرجة الخامسة والعشرين من خط العرض الجنوبي، تزودوا من جديد بالماء في جزيرة لا تذكرها الخرائط. لم تكن تمنح لزائرها شيئا غير الوحدة الاّ ان الفارس ـ الذي لم يكن يطيق الطعام الذي كانوا يعطونه على السفينة ويضمر كراهية لا حدّ لها للقبطان ـ قال لروبارتو كم يكون جميلا لو وجد إلى جانبه مجموعة من الشجعان، ذوي جسارة وإقدام، يستحوذ معهم على السفينة، ويترك القبطان ومن يريد اتباعه في زورق صغير، ثم يحرق أماريلّي ويستقرّ في تلك الجزيرة، بعيدا عن العالم المعروف، لإنشاء مجتمع جديد. فسأله روبارتو ان كانت تلك الجزيرة «إسكونديدا»، ولكن الآخر هزّ رأسه حزينا.

وبعد ان صعدوا نحو الشمال الغربي بمعونة من الرياح، وجدوا مجموعة من الجزر يسكنها متوحشون ذوو اجسام في لون العنبر، تبادلوا معهم الهدايا وشاركوهم احتفالاتهم، التي كانت مرحة جدا تنشطها صبايا يرقصن بتموجات تشبه بعض الحشائش على الشاطىء تميل وتتموج على سطح الماء. والفارس، الذي لم ينذر دون شكّ على نفسه نذر الطهارة، بتعلّة تصوير بعضهن (وكان يفعل ذلك بشيء من المهارة)، كانت له بالتأكيد علاقات جنسية مع البعض من تلك الفتيات. وأراد

النوتية ان يقلّدوه، فقرّر القبطان تقديم موعد الإبحار. وتردّد الفارس في البقاء: كانت تبدو له طريقة جميلة ان يختم حياته هناك مقضيا أيامه في الرسم والتصوير. ولكنه أعلن في نهاية الأمر ان تلك الجزيرة ليست «إسكونديدا».

ثم واصلوا إبحارهم بعد ذلك دائما نحو الشمال الغربي ووجدوا جزيرة ذات أهالٍ وديعين مسالمين. وتوقفوا فيها يومين وليلتين، وأخذ فارس مالطة يقصّ عليهم حكايات: كان يقصّها في لهجة حتى روبارتو لم يكن يفهمها، فما بالك بأناس الجزيرة، ولكنّه كان يستعين بالرسم على الرمال، ويقوم بحركات مثل ممثّل، مثيرا إعجاب اهل الجزيرة الذين هتفوا به على أنه «توزيتالا، توزيتالا!». وفكّر الفارس مع روبارتو قائلا كم يكون جميلا لو أنهيا أيامهما بين أولئك الأناس، يقصّان عليهم جميع أساطير الدنيا. فسأله روبارتو «ولكن أهذه هي إسكونديدا؟» وهزّ الفارس رأسه بالنفي.

لقد مات أثناء غرق السفينة، كان يفكّر روبارتو فوق دافني، وربما وجدت أنا جزيرته إسكونديدا، ولكنني لن أتمكّن أبدا من ان أقصّ ذلك عليه، ولا على أي أحد آخر. ربما لهذا السبب كان يكتب إلى مولاته. للبقاء على قيد الحياة يجب ان نقصّ الحكايات.

وكانت إحدى تخيّلات الفارس الأخيرة ذات ليلة، قبل أيام قليلة من الغرق وغير بعيد عن موقعه. كانت السفينة تحاذي أرخبيلاً، قرّر القبطان ان لا يقترب منه، بما ان الدكتور بيرد كان يبدو متلهفا لمتابعة الطريق من جديد نحو خط الإستواء. أثناء السفر كان يبدو واضحا لروبارتو ان سلوك القبطان كان مخالفا لسلوك البحارة الذين سمع عنهم انهم يسجّلون بدقة جميع الأقاليم الجديدة التي يمرّون بها، مكملين بهذه الصفة خرائطهم، ويصوّرون أشكال السحب، ويرسمون خطوط السواحل، ويجمعون أشياء محليّة... أمّا أماريلّي فكانت تتقدّم مثل مغارة عائمة يعمل فيها خيماويّ لا يهمّه الاّ ان يواصل عمله السرّي، غير

مكترثة بالدنيا العظيمة التي تنفتح أمامها.

كان الوقت عند الغروب، والسحب في لعبها مع السماء، على صفحة الظل الذي تكوّنه جزيرة، كانت ترسم من جهة مثل أسماك زمرّدية تسبح على القمم. ومن الجهة الأخرى، كانت تنبعث كرات نارية متوعّدة. ومن فوق، سحب رمادية. وفورا بعد ذلك كانت تغيب شمس محترقة خلف الجزيرة، ولون وردي فسيح كان ينعكس على السحب، التي كانت دموية في حاشيتها السفلى. بعد بضع ثوان من ذلك،من وراء الجزيرة اتّسع الحريق إلى ان جثم على السفينة. وصارت السماء موقدا عظيما فوق أفق من خطوط قليلة مزرقة. وبعد ذلك، دم في كل مكان، كما لو ان جمعا من العصاة التهمتهم مجموعة من سمك القرش.

وأضاف فارس مالطة «يكون من الحسن ان يموت المرء الآن. ألا تأخذك الرغبة في ان تعلّق نفسك إلى فوهة مدفع ثم تترك جسمك يسقط في البحر؟ سيكون الأمر سريعا، وفي تلك اللحظة سنعرف كلّ شيء..».

فقال روبارتو «صحيح، ولكن في اللحظة نفسها التي سنعرفه فيها، سنكفّ عن معرفته».

وواصلت السفينة سفرتها، متقدّمة في بحار في لون الحبّار.

كانت الأيام تمرّ، متماثلة لا تتغيّر. وكما توقّع مزارينو، لم تكن لروبارتو علاقات الا مع النبلاء. فقد كان البحارة جمعا من اللئام لا يستحسن ان يعترضهم المرء أثناء الليل فوق سطح السفينة. والمسافرون كانوا جائعين، مرضى ومتبكّين. ومساعدو بيرد الثلاثة كانوا لا يتجرّأون على الجلوس إلى مائدته، وينسحبون في صمت ممتثلين لأوامره. أما القبطان فقد كان وكأنه غير موجود: في المساء لا تجده الا مخمورا، وعلاوة على ذلك كان لا يتكلّم الاّ اللغة الفلمندية.

كان بيرد بريطانياً هزيلاً وجافّاً ذا رأس عظيم محمرّ الشعر يمكن

أن يصلح منارة لسفينة. وروبارتو، الذي كان يغتسل متى أمكنه ذلك، منتهزا سقوط المطر لغسل أثوابه، لم يره أبدا طيلة شهور عديدة من السفر يغيّر قميصه. من حسن الحظ أنه، حتى بالنسبة إلى شاب مثله اعتاد ارتياد الصالونات الباريسية، كانت رائحة السفينة نتنة إلى حدّ ان رائحة الآخرين تصير معها لا محسوسة.

وكان بيرد شرّيب جعة، وتعلّم روبارتو كيف يجاريه في ذلك، متظاهرا بالشرب بينما كان يترك الشراب في كأسه تقريبا في نفس المستوى. ولكن يبدو ان بيرد تعلّم فقط ان يملأ الكؤوس الفارغة. وبما ان كأسه كان دائما فارغا، فقد كان يملأه دائما ويرفعه على نخب الآخرين. أما الفارس فقد كان لا يشرب، كان يستمع اليه ويلقي بعض الأسئلة.

وكان بيرد يتكلّم الفرنسيّة، مثل كلّ انجليزي في ذلك الوقت ان كان يريد السفر والخروج من جزيرته، وبقي معجبا بروايات روبارتو حول زراعة الكروم في مونفيرّاتو. واستمع روبارتو بأدب إلى أحاديثه حول كيفية صنع الجعة في لندن. ثم تبادلا الحديث حول البحر. كان روبارتو يركب البحر للمرّة الأولى بينما بيرد كان يبدو انه لا يودّ الدخول كثيرا في هذا الموضوع. والفارس كان لا يلقي الاّ أسئلة تتعلق بالنقطة التي يمكن ان توجد فيها «إسكونديدا»، وبما أنه كان لا يضيف أي معلومة، فقد كان لا يحصل على أي جواب.

في الظاهر كان الدكتور بيرد يقوم بتلك السفرة لدراسة الأزهار، وامتحنه روبارتو قليلا في ذلك الموضوع. وفي الحقيقة لم يكن بيرد جاهلا بالعلوم النباتية، ممّا جعله ينطلق في شروح طويلة كان روبارتو يصغي اليها متصنعا الاهتمام. وفي كلّ من الأقاليم التي يرسون فيها كان بيرد ورجاله يجمعون فعلا أنواعا من النباتات، حتى وان لم يكن ذلك بدقّة الباحثين الذين يبحرون قصدا لذلك الغرض، وقضوا ليال عديدة في فحص الأشياء التي جمعوها.

في الأيام الأولى حاول بيرد ان يتعرّف على ماضي كلّ من روبارتو والفارس، كما لو ارتابه الشكّ فيهما. وأعطاه روبارتو الصيغة التي تمّ الاتفاق عليها في باريس: سافاويّ، قاتل في «كزالي» إلى جانب الإمبراطوريين، وجلب إلى نفسه العداء أولا في تورينو ثم في باريس من خلال سلسلة من المبارزات، إلى ان شاء حظه التعيس ان يجرح شخصا مقرّبا للكاردينال، وعند ذلك قرّر ان يبحر عبر المحيط الهادي لتفصل مساحات المياه الشاسعة بينه وبين مضطهديه. ومن جانبه أدلى الفارس بالعديد من الروايات منها ما يجري في البندقية، ومنها ما يجري في إرلندا، وأخرى تجري في أمريكا الجنوبية، ولكن لم يكن واضحا أيّها كانت الأحداث التي عاشها وأيّها تلك التي عاشها غيره.

وأخيرا اكتشف روبارتو ان بيرد يحب الحديث عن النساء. فاختلق قصص غرام ملتهبة مع مومسات ملتهبات فكانت عينا الدكتور تلمع ووعد نفسه يوما بزيارة باريس. ثم تمالك نفسه وقال ملاحظاً ان البابويين اهل فساد. ولفت روبارتو انتباهه إلى ان الكثيرين من بين السافويين يكادون يكونون هوغونوتيين. فرسم الفارس علامة الصليب، وعاد بالحديث من جديد حول النساء.

إلى حين النزول في «ماس أفويرا»، بدت حياة الدكتور بيرد وكأنها تسير على نسق منتظم، وإن قام بملاحظات فوق السفينة، فقد فعل ذلك بينما كان الآخرون على اليابسة. أثناء الإبحار كان يمضي نصيبا كبيرا من النهار على سطح السفينة، ويبقى صاحيا مع نديميه إلى ساعات متأخرة من المساء، وينام دون شك أثناء الليل. كانت حجرته بجانب حجرة روبارتو، وهما عبارة على رواقين ضيّقين يفصل بينهما حاجز، فكان روبارتو يقضي ليله صاحيا مرهف السمع.

الاّ انه ما إن دخلت السفينة المحيط الهادي حتى تغيّرت عادات بيرد. بعد الوقفة في «ماس أفويرا» لاحظ روبارتو انه يتغيّب كلّ صباح من السابعة إلى الثامنة، بينما كانت العادة قبل ذلك ان يلتقيا في تلك

الساعة لتناول فطور الصباح. بينما طوال المدّة التي اتجهت فيها السفينة نحو الشمال، إلى حدّ جزيرة السلاحف، كان بيرد يتغيّب حوالي الساعة السادسة صباحا. وما ان حوّلت السفينة وجهتها نحو الغرب حتى قدّم موعد استيقاظه إلى حوالي الخامسة، وكان روبارتو يسمع واحدا من مساعديه يأتي لإيقاظه. ثم استفاق تدريجيا على الساعة الرابعة، فالثالثة فالثانية.

كان باستطاعة روبارتو ان يراقبه لأنه حمل معه ساعة رملية صغيرة. عند الغروب، كان يتجوّل مثل المتسكّع ويمرّ بنوتي الإشارة، حيث توجد إلى جانب البوصلة العائمة في زيت الحوت لوحة كان النوتي يرسم فوقها، انطلاقا من الكشوف الأخيرة، الموقع والساعة المحتملة. فكان روبارتو يسجّل عنده ذلك، ثم يعود إلى حجرته ويقلب ساعته الرملية، ثم يعود للقيام بنفس العملية حينما يبدو له ان الساعة أوشكت ان تمرّ.وهكذا، حتى وإن بقي متأخرا بعد العشاء، فقد كان بإمكانه ان يعرف الساعة بشيء من الدقة. وبهذه الطريقة تأكّد لديه ان الدكتور بيرد كان يختفي كل يوم في ساعة مبكرة أكثر من السابقة، وان هو واصل على ذلك النسق فسيأتي يوم يختفي فيه عند منتصف الليل.

بعد الأشياء التي علمها روبارتو من مزارينو ومن كولبار لم يكن من الصعب عليه أن يستنتج ان تغيبات بيرد كانت توافق تعاقب مرور الهواجر. إذن، كان كما لو أن أحدا من أوروبا، كلّ يوم عند منتصف النهار في جزر كناري، أو في ساعة محدّدة من مكان آخر، يرسل علامة كان بيرد يتلقّاها في مكان ما. وبمعرفة الساعة على متن أماريلّي، كان بإمكان بيرد ان يعرف على أي خط طول يجد نفسه!

كان يكفي أن يتبع بيرد عندما يبتعد الاّ أن ذلك لم يكن سهلا. عندما كان يبتعد في الصباح كان من المستحيل ان يتبعه دون ان يتفطن اليه أحد. وعندما أخذ بيرد يتغيب في الساعات الحالكة، كان روبارتو يسمع جيدا انه يبتعد، الاّ انه كان لا يمكنه ان يتبعه فورا. كان إذن ينتظر

قليلا، وبعد ذلك كان عليه ان يبحث عن أثره. ولكن جميع محاولاته باءت بالفشل. ولا أذكر الحالات العديدة التي وجد فيها روبارتو نفسه، بينما يبحث عن طريقه في الظلام، وسط أسرّة النوتية، أو يتعثّر ببعض المسافرين؛ ولكنه في العديد من المرات كان يعترض شخصا كان عليه في تلك الساعة ان يكون نائما: واذن كان هناك دائما أحد صاحياً.

عندما يعترضه واحد من اولئك الجواسيس كان روبارتو يلمّح دائما إلى أرقه المعتاد ثم يصعد إلى سطح السفينة، ناجحا هكذا في ابعاد الشبهات. منذ وقت طويل ذاع صيته كإنسان غريب الأطوار يحلم في الليل بعينين مفتوحتين ويقضي يومه مغلق العينين. ولكن عندما كان يجد نفسه على السطح، حيث يعترضه البحار صاحب نوبة الحراسة ويتبادل معه اطراف الحديث، اذا ما تمكن أحدهما من فهم الآخر، تكون الليلة قد ضاعت.

وهذا يفسّر لماذا مرّت الشهور تلو الشهور، وأوشك روبارتو على اكتشاف سرّ أماريلّي، ولكنه لم يتمكّن إلى حدّ الآن من ان يحشر أنفه حيث كان يريد.

من ناحية أخرى حاول منذ البداية ان يجرّ بيرد إلى مصارحته بشيء من سرّه. وابتدع منهجا غاب عن مزارينو. لإرضاء حبّ اطّلاعه، كان يلقي في النهار أسئلة على الفارس، وهذا الأخير كان لا يقدر على ايجاد الأجوبة لها. فكان عندئذ ينبّهه إلى ان ما يريد معرفته هامّ جدا بالنسبة اليه، ان كان يريد حقا العثور على «إسكونديدا». وبهذه الطريقة كان الفارس في المساء يلقي نفس الأسئلة على الدكتور.

ذات ليلة كانوا على السطح يتأمّلون في النجوم فحدّد الدكتور الساعة على أنّها منتصف الليل. والفارس، الذي لقّنه روبارتو قبل ذلك بسويعات ما ينبغي ان يقول، تساءل قائلا: «ترى ماذا تكون الساعة الآن في مالطة..».

فانطلق الدكتور قائلا: «هذا سهل،»، ثم تراجع: «أي، ان هذا صعب جداً، يا صديقي». وتعجب الفارس كيف لا يمكن استنتاج ذلك من حساب الهواجر: «ألا تقضي الشمس ساعة لقطع خمس عشرة درجة من خط الهاجرة؟ إذن يكفي ان نقول اننا على بعد كذا درجة من هاجرة البحر الأبيض المتوسط، ثم نقسم المجموع على خمس عشرة، وبمعرفة الساعة التي نوجد فيها الآن، سنعرف الساعة الموجودة هنالك».

- «إنك تبدو مثل أولئك الفلكيين الذين قضوا حياتهم يدرسون الخرائط دون ان يركبوا أبدا البحر، وإلاّ عرفت انه من المستحيل معرفة الهاجرة التي نوجد عليها.»

وأعاد بيرد تقريبا نفس الأشياء التي كان روبارتو يعرفها، بينما الفارس كان يجهل ذلك. الاّ انه في هذا الخصوص بدا بيرد مسهبا في الحديث: «كان أجدادنا الأوائل يظنون انهم يملكون منهجا مؤكدا من خلال دراسة خسوف القمر. انت تعرف ماذا يعني الخسوف: يحدث ذلك عندما تكون الشمس والأرض والقمر على خط واحد وظل الأرض ينعكس على صفحة القمر. وبما انه بالإمكان التكهن باليوم والساعة المضبوطة للخسوفات الآتية، ويكفي ان تكون في حوزة المرء لوحات ريجيومونتانوس، افترض انك تعرف ان خسوفاً سيقع في بيت المقدس عند منتصف الليل، بينما انت تشاهده في العاشرة. ستعرف عندئذ انك بعيد عن بيت المقدس مقدار ساعتين واذن نقطة مشاهدتك توجد على ثلاثين درجة من الهاجرة شرقي القدس».

فقال روبارتو: «هذا جميل، وليكن الشكر للقدامى»!

- «صحيح، ولكن هذا الحساب يصلح إلى حدّ ما. كولومب العظيم، أثناء سفرته الثانية ضبط حسابه معتمدا على خسوف بينما كان راسيا عرض «هيسبانيولا»، وأخطأ بمقدار 23 درجة نحو الغرب، أي بفارق ساعة ونصف الساعة! وفي الرحلة الرابعة، دائما حسب الخسوف، أخطأ بمقدار ساعتين ونصف»!

فسأله الفارس: «أكان الخطأ منه أم من ريجيومونتانوس؟»

ـ «من يدري! فوق سفينة، تتحرّك دائما حتى عندما تكون راسية، من الصعب دائما القيام بكشوفات دقيقة. وربما تعلمون ان كولومب كان يريد ان يبرهن مهما كان الأمر على انه وصل إلى آسيا، وهذه الرغبة كانت تجعله يخطىء، ليبيّن انه وصل إلى مكان أبعد بكثير من المكان الذي كان فيه... والمسافات القمرية؟ لقد انتشرت كثيرا في هذا القرن الأخير. والفكرة (إن أمكنني القول) فيها شيء من الطرافة. أثناء سيره الشهري يتمّ القمر دورة كاملة من الغرب إلى الشرق مضادا لسير النجوم، إذن مثل عقرب ساعة سماوية تمسح فلك البروج. والنجوم تتحرّك في السماء من الشرق نحو الغرب بمعدل 15 درجة تقريبا في الساعة، بينما في نفس المساحة الزمنية يقطع القمر 14 درجة ونصف. وهكذا يختلف القمر، بالنسبة للنجوم، بنصف درجة في الساعة. الاّ ان القدامى كانوا يظنون ان المسافة بين القمر و fixed sterre، كما يقال، أي نجمة قارّة في لحظة معينة، هي نفسها بالنسبة لكلّ مشاهد في أي نقطة كانت من الأرض. وإذن يكفي ان نعرف، بفضل اللوحات المعتادة أو ephemerides، وأن نرصد السماء باستعمال الـ astronomers staffe، و الـ Crosse. » . . .

ـ «البلاسترية؟»

ـ «فعلا، بتلك الـcross يقع احتساب المسافة بين القمر وتلك النجمة في ساعة معينة من هاجرتنا الأصلية، فنعرف انه، في ساعة الرصد في البحر، في مدينة كذا الساعة هي كذا. وبمعرفة الفارق في الزمن، نجد خط الطول. ولكن، ولكن..». وهنا توقف بيرد قليلا ليشوّق مستمعيه أكثر، «ولكن هناك زاوية الاختلاف. إنه شيء معقّد جدا لا أجرؤ على شرحه لكما، ناتج عن اختلاف انكسار الأشعة للأجرام السماوية على ارتفاعات مختلفة فوق الأفق. وإذن مع زاوية الاختلاف لا تكون المسافة الموجودة هنا مثل التي يجدها مواطنونا الفلكيون هناك في أوروبا».

فتذكر روبارتو انه سمع من مزارينو ومن كولبار قصة زاوية الاختلاف هذه، وكيف ان أحدهم يدعى السيّد موران اعتقد انه وجد طريقة لتقديرها. وحتّى يتطلع على مقدار معارف بيرد سأله إن كان بإمكان الفلكيين تقدير زوايا الاختلاف. وأجاب بيرد ان ذلك ممكن، ولكنه شيء صعب جداً، ونسبة الخطأ فيه كبيرة جدا. ثم أضاف «وبعد هذا كلّه فأنا جاهل، وفي هذا الخصوص أعرف القليل».

عندئذ أوعز روبارتو «إذن لا يبقى الا ان نبحث عن طريقة أكثر نجاعة».

ـ «أتعرف ماذا قال صاحبكم فاسبوتشي؟ قال: أما بخصوص خط الطول فهو شيء صعب جدا لا يفهمه الا القليلون، اولئك الذين يعرفون كيف يحرمون أنفسهم من النوم لتتبع قران القمر مع الكواكب الأخرى. وقال أيضاً: ومن أجل تحديد خطوط الطول ضحيت غالبا بالنوم وقصّرت من عمري بعشر سنوات... وقت ضائع، هذا رأيي «But now behold the skie is over cast with cloudes; wherfore let us haste to our lodging, and ende our talke»...

بعد ذلك ببضع ليال طلب من الدكتور ان يريه النجم القطبي. فابتسم الآخر مفسّرا انه من ذلك النصف من الكرة الأرضية لا يمكن مشاهدته، ويجب الاعتماد على نجوم قارة أخرى. وأضاف معلقا «وهي هزيمة أخرى للباحثين عن خطوط الطول. وهكذا لا يمكنهم حتى ان يعتمدوا على تغيّرات الإبرة المغناطيسية».

ثمّ، وراء حثّ رفاقه، فرّق عليهم شيئا آخر من علمه:

ـ «إبرة البوصلة تشير عادة دائما إلى الشمال، وإذن في اتجاه النجم القطبي. ومع ذلك، ماعدا على هاجرة «جزيرة الحديد»، في جميع الأماكن الأخرى تنحرف عن نجمة القطب، مائلة طورا نحو الشرق وطورا نحو الغرب، حسب الأقاليم والمناخات. فلو تقدّمنا مثلا

من جزر كناري نحو جبل طارق، فأيّ بحّار يعرف ان الإبرة تميل ستّ درجات من رمب نحو المسترال، ومن مالطة إلى طرابلس الغرب هناك اختلاف بثلثي رمب نحو اليسار - وأنتم تعرفون جيدا ان الرمب هو وجهة الريح. الآن هذه الانحرافات، كما قلنا، تتبع قوانين لا تتغير حسب خطوط الطول المختلفة. وإذن يكفي جدول جيّد لهذه التغيرات للتعرف على الموقع الذي نوجد فيه. ولكن..».

- «لكن، مرّة أخرى؟»

- «نعم للأسف. ليست هناك لوحات جيدة تحدّد تغيرات الإبرة المغناطيسية، من حاول ذلك فشل، وأغلب الظن ان الإبرة لا تحيد بطريقة مماثلة حسب خط الطول. ومن ناحية أخرى هذه الانحرافات بطيئة جداً، وفي البحر يصعب تتبّعها، خاصّة عندما تتحرّك السفينة كثيرا فتؤثر على توازن الإبرة. من يثق في الإبرة فهو مجنون».

ذات مساء عند العشاء قال الفارس، الذي شغلت باله جملة كان قد تفوه بها روبارتو متظاهرا بعدم الاكتراث، إن «إسكونديدا» هي ربما واحدة من «جزر سليمان»، وسأل ان كانوا قريبين منها.

فهزّ بيرد كتفيه قائلا: «جزر سليمان؟ Ca n'existe pas!».

فسأله الفارس: «ألم يصل اليها القبطان دراكو؟»

- «لا معنى لهذا الحديث! دراك اكتشف «نيو ألبيون»، من جهة أخرى مختلفة تماما».

فقال روبارتو: «في كزالي كان الإسبان يتحدثون عنها كشيء معروف لدى الجميع، ويقولون انهم هم الذين اكتشفوها».

- «لقد قال ذلك المسمّى مندانيا قبل الآن بأكثر من سبعين سنة. ولكنه قال انها توجد بين الدرجة السابعة والحادية عشرة من خطوط العرض الجنوبية. كمن يقول بين باريس ولندن. ولكن على أي خط

طول؟ يقول كويروس انها على بعد الف وخمسمائة فرسخ عن ليما. هذا عبث. يكفي ان نبصق من سواحل البيرو لنلحقها. أخيرا قال اسباني انها على بعد سبعة آلاف وخمسمائة ميل من البيرو نفسه. هذا مبالغ، ربما. ولكن تفضلوا وتمعّنوا في هذه الخرائط، البعض منها تمّت إعادة رسمها منذ وقت قريب، الا انها تنقل الخرائط القديمة، والبعض الآخر منها يعتمد الاكتشافات الأخيرة. انظروا، البعض منها يحدّد موقع الجزر على الهاجرة المائتين وعشرة، وأخرى على المائتين وعشرين، وأخرى على المائتين وثلاثين، ولا أذكر من يتصوّرها على المائتين وثمانين. وحتى ان صدق أحدهم، فالآخرون يرتكبون هفوة تبلغ خمسين درجة، أي تقريبا ما يعادل المسافة التي تفصل لندن عن اراضي ملكة سبأ»!

- «إن سعة علمك يا دكتور هي بحقّ شيء يثير الإعجاب»، عقّب الفارس مرضيا هكذا رغبة روبارتو الذي كان يريد ان يقول نفس الشيء، «كأنك طيلة حياتك لم تفعل شيئا آخر ما عدا البحث عن خط الطول».

فاحمرّ فجأة وجه الدكتور بيرد، المنمّش بشامات بيضاوية، ثم ملأ كأسه بالجعة، وعبّه دفعة واحدة دون ان يسترجع نفسه قائلا «أوه، انّه مجرّد حبّ اطلاع عالم بالطبيعيات. وفعلا لا أدري من أين أبدأ لو سألني أحدهم عن موقعنا الآن».

فحاول روبارتو ان يعارض قائلا: «ولكن، قرب مقبض الدفّة رأيت لوحة سجّلت عليها..».

فقاطعه الدكتور وقد تحكّم في نفسه من جديد، «أكيد أن السفينة لا تسير حسب هواها They pricke the Carde. إنهم يسجّلون اليوم، ووجهة الإبرة وانحناءها، ومن أين تهبّ الرياح، والوقت الذي تشير اليه ساعة السفينة، وعدد الأميال التي قطعناها، وارتفاع الشمس والنجوم، واذن خطّ العرض، ومن كلّ ذلك يستنتجون خط الطول حسب التخمين. لقد رأيتم أحيانا في مؤخر السفينة بحّارا يرمي في الماء حبلا

شدّت في طرفه لوحة. أنه الـ loch، أو المسراع، كما يسميه بعضهم. يجري الحبل الذي جعلت فيه عقد تعني المسافات بين العقدة والأخرى مقاييس قارّة، وبساعة قرب المسراع يمكن التعرّف على الوقت المنقضي لقطع مسافة معيّنة. بهذه الطريقة، وان جرت الأمور بصفة طبيعية، بالإمكان دائما معرفة عدد الأميال التي قطعت منذ آخر هاجرة معروفة، وبحسابات أخرى يمكن معرفة الهاجرة التي نمرّ بها».

فهتف روبارتو بلهجة المنتصر: «أرأيت إذن هناك طريقة،» وكان يعرف ماذا سيكون ردّ الدكتور. وهو ان المسراع يستعمل عندما تنعدم طرق أخرى أفضل، بما انه لا يستطيع ان يرشدنا عن المسافة المقطوعة الا عندما تجري السفينة في خط مستقيم. ولكن بما ان السفينة تجري بما تريد الرياح، عندما تكون الرياح معاكسة تميل السفينة تارة إلى اليمين وتارة أخرى إلى الشمال.

وقال الدكتور: «ان السيّد همفري جيلبار، تقريبا في نفس وقت مندانيا، بالقرب من سواحل تيرّانوفا، بينما كان يريد ان يواصل الابحار على طول خط الإستواء السابع والأربعين، لاقى دائما رياحاً ضعيفة ـ رياحا، كيف يمكن ان أقول، كانت على غاية من الكسل والبخل حتى انه جرى على التوالي بين الحادي والأربعين والحادي والخمسين، على خمس درجات من خط العرض، ايها الأسياد، وهذا يعني انه كما لو كان حنش عظيم يسري من نابولي إلى البرتغال، ويمسّ برأسه مدينة هافِر بينما ذنبه يمسّ روما، ويجد نفسه بعد ذلك يمسّ بذنبه باريس وبرأسه مدريد! وإذن ينبغي اعتبار الانحرافات، والقيام بحسابات، وملازمة الحذر؛ وهي اشياء لا يقوم بها البحار أبدا، ولا يمكن ان يكون بجانبه فلكيّ طوال اليوم. أكيد انه يمكن الاعتماد على تكهنات، خاصّة عندما تكون الطريق معروفة، باستعمال النتائج التي وجدها السابقون. ولذا، من سواحل أوروبا إلى السواحل الأمريكية تعطي الخرائط مسافات هاجرية على شيء من الدقّة. ثم من الأرض حتى

البيانات عن الكواكب يمكن ان تعطي بعض النتائج الطيبة، واذن نحن نعرف على أي خط طول توجد ليما. ولكن حتى في هذه الحالة، يا صديقيّ»، كان يقول الدكتور بمرح، «ماذا يحدث؟» وينظر بعينين ماكرتين إلى الاثنين الآخرين. «يحدث ان هذا السيّد،» ويضرب بإصبعه على خارطة، «يضع روما على الدرجة الثلاثين شرقا من هاجرة جزر كناري، ولكن هذا الآخر،» ويحرّك اصبعه كمن يتوعّد بصفة أبويّة الشخص الذي رسم الخارطة الأخرى، «هذا السيّد الآخر يضع روما على الدرجة الأربعين! وهذا المخطوط الذي يحتوي على رسالة فلمنديّ، له خبرة كبيرة، يعلم فيها ملك اسبانيا انه لم يقع الاتفاق أبدا بشأن المسافة بين روما وطليطلة، por los errores tan enormes, como se conoce por esta l?nea, que muestra la diferencia de las ditancias إلى آخره، إلى آخره. وهذا هو الخط: لو حدّدنا الهاجرة الأولى في طليطلة (يظن الإسبان دائما انهم يعيشون في مركز العالم)، بالنسبة إلى مركاتوري توجد روما على عشرين درجة شرقا، ولكنها على اثنتين وعشرين بالنسبة إلى تيكو براهي، وعلى قرابة خمس وعشرين درجة بالنسبة إلى ريجيومونتانوس، وعلى سبع وعشرين حسب كلافيوس، على ثمان وعشرين حسب بطوليموس الطيّب، وحسب اوريغانوس على ثلاثين درجة. كلّ هذه الفوارق فقط لقياس المسافة بين روما وطليطلة. فلنتصوّر إذن ماذا يقع بخصوص مسافات مثل هذه، حيث نكون ربما نحن الأولين الذين بلغوا بعض الجزر، وملاحظات الرحالة السابقين بخصوصها على غاية من النقص. اضف إلى ذلك انه عندما يقوم هولنديّ بكشوفات صحيحة فهو لا يعلم بذلك الإنجليز، ولا هؤلاء يعلمون الإسبان. على هذه البحار حدس القبطان هو الكلّ، فهو بمسراعه الحقير يتكهّن، انه على خط الهاجرة العشرين بعد المائتين فرضاً، بينما هو ربما على ثلاثين درجة من هنا أو من هناك».

فأوعز الفارس قائلا: «إذن من يجد طريقة لتحديد خطوط الهواجر سوف يصبح سيّد البحار!»

فاحمرّ وجه بيرد مرّة أخرى، وحدّق فيه ليفهم ان كان يتحدّث عن قصد، ثم تبسّم كما لو كان يريد عضّه: «لم لا تحاول أنت؟»

فقال روبارتو رافعا يديه مستسلما: «أوّاه، لقد سلّمت أمري للّه،» وانتهت المحادثة تلك الليلة في موجة من الضحكات.

وطيلة أيام عديدة لم ير روبارتو داعياً ان يعود للحديث عن خطوط الطول. غيّر الموضوع، وكي يتمكّن من فعل ذلك أخذ قرارا جريئا. جرح كفّ يده بموساه. ثم عصبه بأمزاق قميص تآكل من فعل الماء والرياح. في المساء عرض الجرح على الدكتور: «انني بحقّ انسان غبيّ. لقد وضعت الموسى في كيسي دون ان ارجعه إلى غمده، وهكذا بينما كنت أبحث عن شيء جرحت يدي. انها تحرقني كثيرا».

فتمعّن الدكتور بيرد في الجرح بنظرة الخبير، بينما كان روبارتو يسأل اللّه ان يطلب سطلا من الماء وان يحلّ فيه الزّاج. إلاّ ان بيرد اكتفى بقول انه لا يبدو له جرحا خطيرا ونصحه ان يغسله جيّدا كلّ صباح. ولكن لحسن حظّه سارع لنجدته الفارس: «آه، يعوزنا المرهم السلاحي»!

فسأله روبارتو: «وماذا يكون؟» والفارس، كما لو قرأ جميع الكتب التي اصبح روبارتو يعرفها، اخذ يثني على فضائل تلك المادّة. وكان بيرد صامتا. وروبارتو،بعد الانطلاقة التي أعطاها الفارس، واصل ملمّحا: «ولكن هذه خرافات عجائز! مثل قصّة تلك المرأة الحامل التي رأت عشيقها مقطوع الرأس فأنجبت طفلا رأسه منفصل عن جسده. أو مثل تلك الفلاحات اللاتي يعاقبن الكلب الذي تغوّط في المطبخ بأخذ جذوة وغمسها في الوسخ، وأملهنّ ان يحسّ الحيوان بحرق النار في دبره! ايها الفارس، ليس هناك شخص ذو عقل يؤمن بهذه الخرافات»!

وأعطت حيلته ثمارها، اذ لم يتمالك بيرد نفسه من الردّ: «آه كلاّ، يا سيّدي، ان قصّة الكلب والبراز على غاية من الصحّة حتى ان أحدا

قام بنفس الشيء مع شخص كان للتنكيل به يتغوّط أمام باب داره، وأؤكد لك ان هذا الأخير تعلّم ان يخاف من ذلك المكان! بطبيعة الحال يجب اعادة العملية مرات ومرات، واذن ينبغي ان يكون لك صديق أو عدوّ يتغوّط كثيرا على عتبة الباب!». وكان روبارتو يتضاحك كما لو كان الدكتور يمزح، فكان ذلك يجعل الدكتور يضيف توضيحات أخرى. وكانت هذه التوضيحات في نهاية الأمر هي نفسها تقريبا التي كان قد ذكرها ديغبي. ولكن الدكتور صار الآن متحمّسا: «نعم، يا سيّدي، نعم، انت الذي ترى في نفسك فيلسوفا وتحتقر علم الجرّاحين. وأقول أكثر، بما اننا نتحدّث عن البراز، ان من له نفس بخر يجب ان يترك فمه مفتوحا فوق حفرة المرحاض وفي النهاية سيشفى: فنتونة كلّ تلك الأوساخ هي أكبر كثيرا من نتونة فمه، والقويّ يجذب اليه الضعيف ويمتصّه!»

- «انك تعلّمني أشياء رائعة يا دكتور بيرد، وانني مندهش من سعة علمك!»

- «ويمكنني ان اقول لك اشياء اخرى. في انجلترا، عندما يعضّ كلب أحدا، يقتل الحيوان حتى وان كان غير مصاب بالكلب. يمكن ان يصاب من بعد بداء الكلب، وبذرة الكلب تسري، وبما انها بقيت في جسم الشخص الذي عضّه الكلب، فستجذب اليها اهواء داء الكلب. أشاهدتم احيانا الفلاحات يصببن الحليب على الجمر؟ انهن يرمين عليه فورا حفنة من الملح. انه علم العامّة الكبير! عندما يسقط الحليب على الفحم يتحول إلى بخار وبفعل النور والهواء يمتدّ ذلك البخار، تصحبه ذرات من النار، إلى المكان الذي توجد فيه البقرة التي أعطت الحليب. وبما ان ضرع البقرة عضو غدّي ورقيق، فتلك النار تسخنه، وتصلبه، وتكون فيه قروحا وبما ان الضرع قريب من المثانة، فهي تؤثر فيها أيضاً، محدثة تفمّم العروق التي تصبّ فيها، ممّا يجعل البقرة تبول دما».

فقال روبارتو: «لقد حدّثنا الفارس عن هذا المرهم السلاحي على انه دواء نافع، ولكنك تجعلنا نفهم انه يمكن استعماله لأعمال شريرة».

ـ «دون شك، ولهذا السبب ينبغي ان لا تخرج بعض الأسرار إلى العامّة حتى لا يقع استعمالها في اغراض سيئة. ايه، يا سيّدي، ان الجدال حول المرهم، أو حول المسحوق، أو حول ما نسميه نحن الإنجليز Weapon Salve، ثري بالآراء المتخالفة. لقد حدثنا الفارس عن سلاح، عندما يعالج بالطريقة الصائبة، يخفف من آلام الجرح. ولكن لو أخذت نفس السلاح ووضعته قرب النار، فسيصرخ المجروح من الألم حتى ولو كان على بعد أميال. ولو غمست الشفرة، التي لا تزال ملطخة بالدم، في الماء المثلج، فسيرتجف المجروح من البرد».

لم تعط تلك المحادثة في الظاهر معلومات أخرى لم يكن روبارتو يعرفها، بما فيه ان الدكتور بيرد يعرف الكثير عن مسحوق الانجذاب. ومع ذلك فقد دار حديث الدكتور كثيرا عن مؤثرات المسحوق الأكثر سوءا، ولا يمكن ان يكون ذلك صدفة. إلاّ أن علاقة كلّ هذا بقوس الهاجرة تبقى قصّة أخرى.

إلى ان كان ذات صباح، اغتنم فيها روبارتو فرصة سقوط احد البحارة من الدوقل مكسّرا جمجمة رأسه، والفوضى التي عمّت على السطح، والدكتور الذي دعي لإسعاف المريض، وانسلّ إلى قاع السفينة.

وتلمّس طريقه إلى ان شاء الحظ ان عثر على ضالته. ربما كان الحظ أو ربما كان الحيوان ذلك الصباح يتشكّى متألّما أكثر من العادة: ووجد روبارتو نفسه، تقريبا في المكان الذي على دافني اكتشف فيه براميل ماء الحياة، أمام مشهد مريع.

في مكان مستتر عن الأنظار الفضولية، في مقصورة صنعت على قياسه، وفوق غطاء من المزق، كان هناك كلب.

ربما كان كلبا اصيلا ولكن الآلام والشقاء جعلت منه لحما على

عظم. ومع ذلك كان معذبوه يريدون ابقاءه على قيد الحياة: وضعوا بالقرب منه طعاما وماء وفيرا، وحتى انواعا من الأكل ليست للكلاب، اختلست دون شك من مؤونة المسافرين.

كان مستلقياً على جنبه، مستسلم الرأس ولسانه يتدلّى. وفي جنبه كان ينفتح جرح واسع وفظيع. كان جرحا حديث العهد وفي نفس الوقت مغنغرا، ويظهر بين حافتيه المحمرّتين، في الوسط وعلى طول الجرح، لحما متقيّحا يبدو وكأنه يسيل زبدا. وفهم روبارتو ان الجرح يظهر على تلك الحال لأن يدي جراح، عوض ان تخيط الحافتين، أبقتهما مفتوحتين متّسعتين بشدّهما إلى الجلد.

ذلك الجرح، وليد هجين أنجبه الفن، لم يكبّدوه للحيوان فحسب، بل وعالجوه بقساوة حتى لا يلتئم، وحتى يتواصل عذاب الكلب ـ ومن يدري منذ كم من الوقت. ليس هذا فقط، بل شاهد روبارتو حول الجرح وداخله بقايا مادّة بلّورية، كما لو كان هناك طبيب (وطبيب، في قساوته على غاية من الفطنة!) يرشّه كلّ يوم بملح مهيّج.

وربّت روبارتو، وهو عاجز، على الحيوان المسكين الذي تأوّه باستسلام. وتساءل ماذا بإمكانه ان يفعل ليخفّف عنه، ولكن عندما لمسه بقوة أكبر زاد من تشكّيه. ومن ناحية أخرى كانت شفقته تترك المكان لإحساس بالنصر. لم يكن هناك شكّ، ذلك كان سرّ الدكتور بيرد، وتلك كانت الشحنة السريّة التي حملت على متن السفينة في لندن.

اذا ما اعتبرنا الأشياء التي شاهدها روبارتو، فإن رجلا يعرف ما كان هو يعرف، لا يمكن الا ان يستنتج ان الكلب وقع جرحه في انجلترا وان بيرد يسهر على ان يبقى الجرح دائما مفتوحا. وهناك شخص في لندن، كان كلّ يوم وفي نفس الساعة المتفق عليها، يفعل شيئا ما للسلاح الذي أحدث الجرح، أو لخرقة مشربة بدم الحيوان، محدثا احساسا لدى هذا الأخير ـ ربما بالراحة، وربما بألم أكثر حدّة، بما ان

الدكتور بيرد قال أيضاً ان الـ Weapon Salve يمكن ان يستعمل للضرر بالغير.

بهذه الطريقة، على أماريلّي يمكن التعرّف في وقت معيّن على السّاعة الموجودة في أوروبا. وبمعرفة ساعة المرور بمكان ما، يمكن حساب خط الزوال!

لم يبق الا ان ينتظر برهان الأحداث. في تلك الفترة كان بيرد يبتعد دائما عند الساعة الحادية عشرة تقريبا: كانوا إذن يقتربون من مقابل خط الطول. يكفيه إذن ان ينتظره عند حوالي تلك الساعة مختفيا قرب الكلب.

كان الحظ حليفه ان أمكننا ان نتحدّث عن حظ سيسوق السفينة ومن فيها إلى نهاية مشؤومة. تلك العشية كان البحر مضطربا جدّا، فتذرّع روبارتو بالغثيان وبجيشان في معدته ونزل إلى فراشه، تاركا المائدة. وما ان أظلمت الدنيا، وقبل ان يفكّر أحد في القيام بدور الحراسة، حتى نزل خفية إلى قاع السفينة، وليس معه الآ فتيلة وحبل مقطرن لينير بهما طريقه. ووصل إلى حيث كان الكلب وهناك رأى بالقرب من مفرشه سدّة وضعت فوقها اكياس من التبن، كانت تصلح لتجديد مفارش المسافرين المتّسخة. ففتح لنفسه طريقا وسط تلك الأشياء، وصنع فيها مخبأ كان يحجب عنه رؤية الكلب، ولكن يمكّنه من رؤية الواقفين أمامه، ودون شكّ من سماع كلّ أحاديثهم.

ودام انتظاره ساعات، بدت له أطول مع أنين الحيوان المعذّب المسكين، ولكنه سمع في النهاية اصواتا أخرى ولمح أضواء.

بعد قليل وجد نفسه شاهدا على تجربة كانت تقع على بعد خطوات قليلة منه، بحضور الدكتور ومساعديه الثلاثة.

ـ «هل دوّنت يا كافنديش؟»

ـ «ياه، ياه، يا دكتور».

ـ «إذن فلننتظر. إنه يتألم كثيرا هذه الليلة».

ـ «إنه يحسّ باضطراب البحر».

ـ «اهدأ، اهدأ، يا هكليوت،» كان يقول الدكتور وهو يربّت على الكلب بنفاق. «لقد فعلنا سيئا بعدم تحديد سلسلة قارّة من العمليات. كان ينبغي دائما ان نبدأ بالمسكّن».

ـ «ليس الأمر دائما هكذا، يا دكتور. بعض الليالي في الساعة المحدّدة كان نائما، ولزم علينا ان نفيقه بعمليّة مهيّجة».

ـ «حذار، يبدو لي انه يضطرب... اهدأ يا هكليوت...، نعم، انه يضطرب!» كان الكلب يرسل الآن نباحا غريبا. «لقد قرّبوا السلاح من النار، سجّل الساعة يا وايترينغتون»!

ـ «الساعة الآن هنا الحادية عشرة ونصف تقريبا».

ـ «راقب الساعات. يجب ان تمرّ حوالي عشر دقائق».

وواصل الكلب عواءه المتوجّع مدّة كان يبدو انها لن تنتهي أبدا. ثم ارسل صوتا مختلفا، انتهى بلهاث مثل «ارف، ارف» كان يخفّ شيئا فشيئا إلى ان ترك المكان للصمت.

فقال الدكتور بيرد «حسنا، ما الساعة الآن يا وايترينغتون؟»

ـ «أظن ان الوقت يتطابق. تفصلنا ربع ساعة عن منتصف الليل».

ـ «لا نزده بالظفر. لننتظر المراجعة».

وتبع ذلك انتظار لا متناه، واذا بالكلب، الذي كان بدون شك قد نام عندما أحسّ ببعض الراحة، يرسل من جديد عواء كأن أحدا داس ذيله.

ـ «الساعة، يا وايترينغتون؟»

ـ «لقد مرّت الساعة، لم تبق الاّ بعض حبّات من الرمل».

وقال صوت ثالث: «الساعة تعلن منتصف الليل».

فقال الدكتور بيرد: «يبدو لي ان هذا يكفي. الآن ايها السادة، أرجو ان يكفّوا فورا عن تهييجه، فهكليوت المسكين لن يتحمّل ذلك. هات الماء والملح، يا هاولس، وكذلك الخرقة. اهدأ، اهدأ، يا هكليوت، الآن ستحسّ بالراحة... نم، نم، إن سيّدك هنا بجانبك، لقد انتهى كلّ شيء... هاولس، المنوّم في الماء..».

ـ «ياه، ياه، يا دكتور».

ـ «خذ، اشرب يا هكليوت... اهدأ، هيّا، اشرب هذا الماء اللذيذ...». وأطلق الكلب من جديد عواء خفيفا، ثم عمّ الصمت مرّة أخرى.

ـ «حسنا جداً، ايها السادة،» كان يقول الدكتور بيرد، «لو أن هذه السفينة المشؤومة لم تكن تنتفض هذا الانتفاض الشنيع لقلت اننا قضينا ليلة طيبة. صباح غد، يا هاولس ضع كالعادة قليلا من الملح على الجرح. لنخرج باستنتاجاتنا ايها السادة. في تلك اللحظة الحاسمة، كنا هنا قريبا من منتصف الليل، ومن لندن كانوا يعلموننا ان الساعة هنالك تشير إلى منتصف النهار. نحن إذن على مقابل هاجرة لندن، واذن على الخط الثامن والتسعين بعد المائة عن جزر كناري. ان كانت جزر سليمان، كما تقول الروايات، على مقابل هاجرة جزيرة الحديد، وان كنا على خط العرض الصحيح، لو سرنا نحو الغرب مع رياح ملائمة فسنصل إلى سان كريستوفال، كما سنسمّي من جديد تلك الجزيرة النحسة. ونكون قد عثرنا على الضالة التي يبحث عنها الإسبان منذ عشرات السنين وسنملك في نفس الوقت سرّ الـ Punto Fijo. هات الجعة يا كافنديش، يجب ان نشرب على نخب جلالة ملكنا، ليحفظه اللّه دائما».

فأجاب الثلاثة الآخرون في صوت واحد «ليحفظ اللّه الملك،» ـ ومن الواضح ان اربعتهم كانوا ذوي شهامة، لا يزالوا مخلصين لملك إن

لـم يكـن في تلك الأيام بصدد فقدان صوابه، فقد كان على وشك ان يفقد مملكته.

كان روبارتو يعمل فكره. عندما شاهد الكلب في الصباح، لاحظ انه عندما لمسه برقّة هدأ، وعندما لمسه في موضع ما بخشونة، عوى من الألم. يكفي القليل، فوق سفينة تهزّها الأمواج والرياح، لتحدث في جسم مريض أحاسيس مختلفة. ربما كان اولئك اللئام يظنون انهم يتسلمون رسالة من بعيد، بينما على العكس كان الكلب يتألم ويهدأ حسب الأمواج ان كانت تخضّه أو تهدهده. أو ربما هي الأفكار الصامتة، حسب قول سان سافان، إن كانت موجودة، وبحركات اليد كان بيرد يحرّك في الكلب أحاسيس حسب رغباته المكتومة. ألم يقل هو نفسه عن كولومب أنه أخطأ، لأن رغبته كانت ان يظهر انه وصل أبعد من غيره؟ إذن كان مصير العالم رهين الطريقة التي كان أولئك المجانين يؤولون بها لغة كلب؟ أيمكن لوجع بطن ذلك المسكين ان يجعل اولئك الأشقياء يقرّرون ان كانوا يقتربون أم كانوا يبتعدون من المكان الذي يطمع في الوصول اليه أشقياء آخرون من إسبان، وفرنسيين، وهولنديين وبرتغاليين؟ وهل هو نفسه متورّط في هذه المغامرة ليقدّم يوما لمزارينو أو إلى ذلك الفتى كولبار الطريقة لشحن سفن فرنسا بكلاب معذبة؟

كان الآخرون قد ابتعدوا، فخرج روبارتو من مخبئه وتوقف، في نور حبله المقطرن، أمام الكلب النائم. ثم لمسه برقّة في رأسه. كان يرى في ذلك الحيوان المسكين ألم العالم كلّه، قصّة حانقة يسردها غبيّ. لقد قادته تربيته البطيئة، منذ أيام كزالي إلى تلك اللحظة، إلى مثل تلك الحقيقة. آه لو رمت به الأمواج غريقا على الجزيرة الخالية، كما كان يريد الفارس، أو لو أحرق، كما كان يريد الفارس، أماريلّي، وأنهى رحلته على الجزيرة الثالثة، بين فتياتها المغر، أو على الجزيرة الرابعة ليصير قصّاصا شاعرا بين أهلها. لو وجد «إسكونديدا» لاختبأ فيها من جميع مجرمي هذا العالم القاسي!

لم يكن يعرف آنذاك ان القدر احتفظ له بجزيرة خامسة، ربما الأخيرة.

كانت أماريلّي تبدو وكأنها جنّت، فعاد هو متشبّثا بما أمكن له ان يتشبث به حتى بلغ حجرته، وقد نسي آلام العالم ليعاني آلام البحر. ثم كان غرق السفينة، الذي سبق ذكره. لقد انهى مهمّته بنجاح: انه الوحيد الذي بقي على قيد الحياة، وحمل معه سرّ الدكتور بيرد. الاّ انه لن يقدر على تبليغه لأحد. وبعد هذا كلّه، ربما كان سرّا لا أهميّة له البتّة.

ألم يكن عليه ان يعترف انه، بخروجه من عالم مريض، وجد السلامة الحقيقية؟ غرق السفينة منحه أسمى هبة، المنفى، ومحبوبة لن يقدر الآن أحد ان يأخذها منه...

ولكن الجزيرة ليست في حوزته وبقيت بعيدة عنه. ودافني ليست في حوزته، وشخص آخر يطالب بحقّه عليها. ربما ليواصل فيها أبحاثا لا تقلّ عنفا عن أبحاث الدكتور بيرد.

20

الفطنة وفنّ النبوغ

كان روبارتو يعمل على تضييع الوقت، وعلى ان يترك الدخيل يلعب ليكتشف بذلك لعبته. كان يعيد الساعات إلى مكانها على سطح السفينة ويملؤها من جديد كل يوم، ثم يهرع لإطعام الحيوانات ليمنع الآخر من القيام بذلك، ويرتّب كل شيء في مكانه في الحجرات وعلى السطح، ممّا يجعل الآخر حين يتحرّك يترك آثارا بيّنة على مروره. كان يقضّي النهار في الداخل، ولكن مع ترك الباب منفرجا، حتى يلتقط أقلّ حركة آتية من الخارج أو من الأسفل، ويقيم الحراسة أثناء الليل، ويشرب ماء الحياة، وينزل من جديد إلى قاع دافني.

وحدث له مرّة ان اكتشف مخبأين آخرين بعد حفرة الحبال نحو مقدّمة السفينة: كان أحدهما خاوياً، والآخر مليئا أكثر من اللزوم، مغطى برفوف محفّفة بمساطر لتمنع الأشياء من السقوط عندما يكون البحر مضطربا. وشاهد هنالك جلود عظايا مجفّفة في الشمس، وقلوب غلال فقدت هويّتها، وأحجارا مختلفة الألوان، وحصايات ملساء صقلتها امواج البحر، وقطعا من المرجان، وحشرات شدّت بدبابيس إلى لوحة، وذبابة ورتيلاء في قطعة من العنبر، وحرباء يابسة، وأوعية من الزجاج بسوائل تعوم فيها جوارن أو انقليسات، وحسكات عظيمة، ظنّها حسكات حوت، وسيفاً ربما كان يزين منخر بعض الأسماك، وقرناً

طويلا، نسبه روبارتو لوحيد القرن، ولكني أظنه قرن كركدن البحر. باختصار كانت حجرة تنمّ عن ذوق بحّاثة، كما كان يوجد في ذلك الوقت على سفن المستكشفين وعلماء الطبيعة.

في الوسط كان هناك صندوق مفتوح، فرش قاعه بالتبن، وكان فارغا. ترى ماذا كان يحتوي، ووجد روبارتو الجواب عندما عاد إلى حجرته وفتح الباب فوجد أمامه حيوانا منتصبا، وأفزعه ذلك اللقاء أكثر ممّا يمكن ان يكون لو التقى بالدخيل بلحمه وعظمه.

كان جرذا، جرذ بالوعة قبيحا، ماذا أقول، بل كان غولا، تبلغ قامته نصف قامة رجل، ذا ذيل طويل يمتدّ على الأرضية، ثابت العينين، ومنتصبا على قائمتيه الخلفيتين بينما القائمتان الأماميتان كانتا مثل ذراعين صغيرتين ممتدّتين نحوه. كان قصير الشعر، على بطنه كيس، أو فتحة، أو جيب طبيعي يبرز منه حيوان صغير من نفس الفصيلة. نحن نعلم كم كان روبارتو يخرّف عن الجرذان في الليلتين الأوليين، وإن كان ينتظر ان يجدها عظيمة الحجم متوحشة مثل ما يوجد عادة في السفن، فقد كان هذا الأخير يفوق جميع تصوراته الرهيبة. وما كان يظن ان عين انسان شاهدت أبدا جرذانا من ذلك القبيل ـ وكان على حق، اذ سنعرف من بعد، كما أمكن لي أن أستنتج، انه كان أمام جرابيّ.

بعد اللحظات الأولى من الفزع، اتضح جليّا، من جمود الزائر، ان الحيوان كان متبنا، ومتبّنا بصفة سيئة، أو احتفظ به في القاع حفظا غير ملائم: فقد كان الجلد يبعث رائحة كريهة لأعضاء متعفنة، وكانت تبرز من ظهره حزم من التبن.

كان الدخيل، قبل لحظات قليلة من دخول روبارتو إلى حجرة العجائب، قد سرق منها أروع قطعة، وبينما كان صاحبنا يتأمّل ذلك المتحف، وضع له ذلك الحيوان في بيته، مؤمّلا من ذلك ربما ان يجنّ

ويرمي بنفسه من السفينة ليبتلعه البحر. إنه يريدني ان أموت، أو ان أجنّ، كان روبارتو يعيد على نفسه، ولكنني سأطعمه جرذه قطعة قطعة، سأتبنه على تلك الرفوف، اين تختفي ايها الملعون، اين أنت، ربما انت تنظر اليّ في هذه الآونة لترى هل فقدت صوابي، ولكنني سأفقدك أنا صوابك، ايها اللعين.

ودفع الحيوان بمؤخر بندقيته إلى سطح السفينة، ثم تغلّب على اشمئزازه وحمله بيديه فألقى به إلى البحر.

وقرّر ان يجد مخبأ الدخيل فنزل من جديد إلى موضع الخشب، محتاطا كي لا ينزلق مرّة أخرى فوق قطع الخشب التي تناثرت على الأرضية. وراء المحطبة وجد موضعا، كانوا يسمّونه فوق أماريلّي (soda أو soute، أو sota) أي مخزن الخبز المجفف: تحت قطعة من الكتّان، مغلفة جيّدا ومحفوظة، وجد في بداية الأمر، منظارا عظيم الحجم، أكثر قوّة من المنظار الذي كان يحتفظ به في حجرته، ربما كان مضخّم عينين جعل لرصد السماء. الاّ ان الراصدة كانت داخل وعاء كبير من المعدن الخفيف، وبجانب الوعاء كانت هناك أدوات اخرى مختلفة النوع،مغلفة بعناية في قطع اخرى من القماش، وأذرعة معدنية، وقطعة من الكتان دائرية الشكل لها حلقات تتبع كامل محيطها، وشيء يشبه الخوذة، وأخيرا ثلاثة أوعية ذات بطن منتفخ اتضح من الرائحة التي كانت تبعث بها، انها مليئة بزيت كثيف وسنخ. ولم يتساءل روبارتو لماذا كانت تصلح كل تلك الأشياء، ما كان يهمّه هو ان يكتشف كائنا حيّا.

وتثبّت بالأحرى ان كان ينفتح تحت المخزن فضاء آخر. وفعلا، كان موجودا الا انه كان واطىء السقف جدا حتى انه لا يمكن للمرء ان يتقدّم فيه الا على ركبتيه. وعاينه موجها نور القنديل نحو الأسفل خوفا من العقارب، ومن اضرام النار في السقف. بعد زحف قصير وصل إلى نهايته، حيث اصطدم رأسه بلوح الأرزية الصلب، كانت أقصى نقطة في دافني، من ورائها كان يسمع تلاطم الأمواج ضدّ الهيكل. وإذن وراء

ذلك المصران المغلق لا يمكن ان يكون هناك فضاء آخر.

ثم توقّف، كما لو أن دافني لم تعد لديها أسرار أخرى.

لئن كان يبدو من الغريب ان روبارتو، طيلة أسبوع من الإقامة العاطلة، لم يقدر بعد ان يرى كلّ شيء، فيكفي ان نفكّر في ما يحدث لطفل يدخل إلى تسقيفة أو إلى قبو دار كبيرة وسلفية ذات رسم متضارب. عند كل خطوة تنكشف له صناديق مليئة بكتب قديمة، وملابس غابرة، وقنينات فارغة، وأكداس من حزم الحطب، وأثاث منكسر، وخزائن مغبرّة ومائلة. والطفل يتقدّم، ثم يتوقف ليكتشف كنزا من الكنوز، ثم يلوح له رواق، أو ممرّ مظلم فيتخيّل حضورا خطيرا ومفزعا، ويؤجل البحث إلى مرّة أخرى، وفي كلّ مرّة يتحرّك خطوات قصيرة، متخوّفا، من ناحية، من التوغل كثيرا، ومتذوقا من ناحية أخرى لذة الاكتشافات القادمة، بينما لا تزال تقطع أنفاسه مفاجأة الاكتشافات الأخيرة، وتلك التسقيفة أو ذلك القبو يبدو انه لن ينتهي أبدا، ويمكن ان يفتح له فضاءات أخرى جديدة تكفي لتملأ طفولته وما بعدها.

وإن أفزعت ذلك الطفل أصوات جديدة، أو انك قصصت عليه كلّ يوم أساطير مرعبة لإبعاده عن تلك الأماكن ـ وإن كان الطفل، علاوة على ذلك، مخمورا أيضاً ـ فأنت تفهم كيف ان الفضاء يتّسع عند كل مغامرة جديدة. هكذا تماما عاش روبارتو تجربة تلك الفضاءات التي كانت لا تزال عدائية.

كان ذلك في الصباح الباكر، وكان روبارتو يحلم من جديد. كان يحلم بهولاندا. وكان ذلك بينما كان رجال الكاردينال يقودونه إلى أمستردام لركوب أماريلّي. أثناء السفر توقفوا في مدينة، ودخل هو إلى الكاتدرائية. ولفت انتباهه صفاء تلك الأجنحة، مختلفا تماما في ذلك عن الكنائس الإيطالية أو الفرنسية. خالية من الزخارف، إلاّ بعض الألوية المعلقة على الأعمدة العارية، والزجاجيات نيّرة ودون صور، كانت

الشمس تبعث منها نورا كالحليب، لا تكسره في الأسفل الا أشباح المؤمنين قليلة وسوداء. في ذلك السلام كان يصل إلى مسمعه صوت واحد، نغم حزين، يبدو سابحا في الهواء العاجيّ ينشأ من رؤوس الأعمدة أو من عقود القباب. ثم تفطن في مصلّى، وسط فسحة الرواق، إلى شخص أسود الثوب، كان وحيدا في ركنٍ من الأركان، يعزف على ناي صغير الحجم ذي فم، وعيناه محدقتان في الفراغ.

بعد ذلك بقليل، عندما انتهى العازف، اقترب منه متسائلا ان كان عليه ان يهبه صدقة؛ وهذا الأخير دون ان يحدق اليه في وجهه شكره على ثنائه، وفهم روبارتو انه كان ضريرا. كان دقّاق الأجراس (der Musycin en Directeur vande Klok-werken, le carillonneur, der Glockenspieler، كما حاول ان يفسّر له)، ولكن من مشمولات مهنته كان عليه أيضاً ان يطرب بأنغام مزماره المؤمنين الذين يتسامرون في المساء على رحبة الكنيسة أو في المقبرة التي تحيط بها. كان يعرف ألحانا كثيرة، ومن نفس اللحن كان يصنع لحنين مغايرين أو ثلاثة وأحيانا حتى خمسة، دائما بتعقيد أكبر، وما كان بحاجة ليقرأ ان يقرأ العلامات الموسيقية: فقد ولد ضريرا وبإمكانه ان يتحرّك في ذلك الفضاء الساطع(هكذا قال، ساطع) فضاء كنيسته مشاهدا، كما قال، نور الشمس بجلده. وشرح له كيف ان آلته الموسيقية هي شيء حيّ، يتفاعل مع الفصول، ومع حرارة الصباح والغروب، ولكن في الكنيسة يوجد نوع من الدفء المنتشر بدوام يضمن للخشب كمالاً ثابتا ـ وبقي روبارتو يتأمل في فكرة الدفء التي يمكن ان تكون لرجل من اهل الشمال، بينما كان هو يثلج في ذلك الضياء.

وأطربه العازف مرتين اخريين باللحن الأول، وقال ان عنوانه هو «Doen Daphne d'over schoone Maeght». ورفض ان يأخذ أي هبة، ثم تحسّس بيديه وجه روبارتو وقال له، أو بالأحرى هذا ما فهمه روبارتو، ان «دافني» شيء عذب، سيرافقه طيلة حياته.

الآن، وهو على متن دافني، كان روبارتو يفتح عينيه، بينما كان يصل إلى سمعه،دون شك في ذلك، آتيا من الأسفل، من خلال شقوق الخشب، لحن «دافني»، كما لو كانت تعزفه آلة كانت أكثر معدنية، ودون التجرّؤ على ادخال تغييرات، كانت تعيد على فترات متساوية الجملة الأولى من النغم، مثل لازمة عنيدة.

وقال فورا في نفسه انه من الرموز الرائعة ان يجد نفسه فوق fluyt اسمه Daphne وان يسمع لحنا يعزف على ناي اسمه «Daphne». ومن العبث ان يتوهّم انه كان يحلم. لقد كانت رسالة أخرى من الدخيل.

تسلّح مرة أخرى، واستقى بعض القوة من البرميل الصغير، ثم اتبع الصوت. كان يبدو آتيا من مخبأ الساعات. ولكن منذ ان وزّع جميع تلك الآلات على سطح السفينة بقي المكان خاويا. زاره من جديد. كان فارغا، الا ان الموسيقى كانت تأتي من الجدار الخلفي.

ولأنه فوجىء بالساعات في المرة الأولى، وتحمّل مشقة حملها إلى السطح في المرة الثانية، فلم يفكّر ان كانت الحجرة تصل إلى حدّ هيكل السفينة. وإن كان الأمر كذلك، فالجدار في قاعها يجب ان يكون مقوسا. هل كان كذلك؟ كانت القماشة الكبيرة مع تلك المجموعة من الساعات تحدث خدعة للعين، فلا تفهم من اول نظرة ان كان قاع الحجرة مستويا أو مقوسا.

أراد روبارتو ان يمزق القماشة، وتفطن إلى انها كانت منزلقة، مثل ستار. ووراء الستار كان يوجد باب آخر، مغلق هو أيضاً بمزلاج.

متسلّحا بشجاعة المخلصين لربّ الخمر «باخوس»، وكما لو انه بضربة اسبنغوله سيهزم اولئك الأعداء، فقد سدّد سلاحه، وصاح بصوت عال (والله يدري لماذا) «!Nevers et Saint-Denis»، وركل الباب بقدمه، ثم رمى بنفسه إلى الأمام، بكلّ جسارة.

كان الشيء الذي يحتلّ هذا الفضاء الجديد أرغنا، يحمل في أعلاه

قرابة عشرين قصبة، تخرج من فتحاتها أنغام القطعة الموسيقية.كان الأرغن مثبتا في الجدار ويتكون من هيكل خشبي تدعمه بنية من الأعمدة الصغيرة المعدنية. فوق السطح الأعلى كانت توجد في الوسط المزامير، ولكن على الجانبين كانت تتحرّك آليات صغيرة. كانت المجموعة على اليسار تمثّل شبه قاعدة مستديرة فوقها سندان دون شك مجوّف، مثل جرس: حول القاعدة كانت هناك اربعة تماثيل تحرّك بنسق أذرعتها ضاربة السندان بمطارق صغيرة معدنية. والمطارق، ذات اوزان مختلفة، كانت تحدث اصواتا فضيّة الرنّة لا نشاز بينها وبين النغم الذي كانت تنشده المزامير، ولكنها كانت تلوّنه من خلال مجموعة من الائتلافات. وتذكّر روبارتو محادثاته في باريس مع اب راهب فرنسيسي، حدّثه عن ابحاثه في الإيقاع الكوني، فتعرّف من خلال وظائفهم الموسيقية اكثر من قسماتهم، انهم فولكان والسيكلوبيون الثلاثة الذين حسب الأسطورة يرمز اليهم بيتاغور عندما يؤكد ان فارق الفواصل الموسيقية يخضع للعدد، والوزن والقياس.

على يمين الأنابيب كان يوجد تمثال صغير لإله الحبّ يضرب (بعصا صغيرة فوق كتاب من الخشب بين يديه) القياس الثلاثي الذي يعتمد عليه فعلا نغم «دافني».

وفوق سطح يأتي مباشرة تحت الأول كانت توجد ملامس الأرغن، تعلو وتنخفض، بتناسق مع النغمات التي كانت تخرج من الأنابيب، كما لو ان يدا خفية كانت تجري فوقها. تحت الملامس، حيث يحرّك العازف في العادة بقدمه المنافخ، كانت توجد اسطوانة غرست فيها أسنان، أو مسامير دقيقة، في نظام ذي نسق غير متوقع أو ذي انتظام غير منتظر، كما ترتسم العلامات الموسيقية التي تنزل أو تصعد، بانقطاعات مفاجئة، وفضاءات كبيرة بيضاء وازدحامات من ذوات السنّ على ورقة موسيقية.

تحت الإسطوانة شدت لوحة أفقية تحمل رافعات صغيرة كانت،

عند دوران الإسطوانة، تمسّ على التعاقب الأسنان، وبواسطة عصيّ نصف مختفية تحرّك الملامس ـ وهذه بدورها تشغّل الأنابيب.

ولكن الأغرب من هذا كلّه هو العلّة التي تجعل الإسطوانة تدور والهواء يصل إلى المزامير. بجانب الأرغن ثبّت مثعب زجاجيّ يذكّر شكله بصلّجة دودة الحرير، يتبيّن في داخله غربالان، أحدهما فوق الآخر، يقسمانه إلى ثلاث حجرات مختلفة. كان المثعب يتلقّى سيلا من الماء بواسطة انبوب محكم في أسفله آت من كوّة مفتوحة توفّر النور لذلك الفضاء، مرسلا اليه السائل (بواسطة مضخّة خفية) الذي كان يمتصّ مباشرة من البحر، ولكن بطريقة تجعله يدخل إلى المثعب مختلطا بالهواء.

كان الماء يدخل بقوة إلى المنطقة السفلى من المثعب كأنه يغلي، ثم يحدث دردوراً على الجوانب، فيحرّر دون شك الهواء الذي يمتصّه الغربالان. وبواسطة انبوب يصل الجزء الأعلى من المثعب بقاعدة المزامير، كان الهواء يتحوّل إلى نغم بفضل حركات خداعة روحية. أما الماء الذي تجمّع في الجزء الأسفل، فقد كان يخرج من خلال انبوب صغير فيحرّك لوحات عجلة مطحنة صغيرة، ثم يسيل إلى ان ينتهي إلى وعاء معدني سفليّ ومن هناك، بواسطة انبوب آخر، يخرج من الكوّة.

وكانت العجلة تحرّك قضيبا متّصلا بالإسطوانة، فكان بدوره ينقل اليها حركته.

وبدا ذلك كلّه لروبارتو المخمور شيئا طبيعيا، حتى انه احسّ بنوع من الخيانة تجاهه عندما خففت الإسطوانة من دورانها، ونفخت المزامير أنغامها كما لو كانت على وشك ان تلفظ آخر أنفاسها، بينما العمالقة والحب الصغير يكفّون عن دقاتهم.من الواضح ـ مع ان الحديث كثر في ذلك الوقت عن الحركة المستمرّة ـ ان المضخّة الخفية التي تنظم امتصاص وتدفق الماء كانت تشتغل لمدّة معيّنة من الوقت على إثر تحريكة اولى، ثمّ تصل إلى نهاية جهدها.

كان روبارتو لا يدري أيعجب أكثر لتلك التقنية الآلية البارعة ـ اذ انه سبق ان سمع بأخرى مثلها، تقدر ان ترقص تماثيل صغيرة تمثل أطفالا صغارا أو ملائكة مجنحة، أو لأن الدخيل ـ ومن يمكن ان يكون غيره ـ شغّلها في ذلك الصباح وفي تلك الساعة.

ما هي الرسالة التي كان يريد ان يبلّغها اياه؟ ربما انه خسر منذ البداية. أيمكن ان تخفي دافني أسراراً أخرى عديدة، حتى انه سيقضي حياته في محاولة اغتصابها، دون أمل؟

لقد قال له يوما احد الفلاسفة ان اللّه يعرف العالم خيرا منّا لأنه خلقه. وكي نقترب، حتى قليلا من المعرفة الربانية، يجب ان نتصوّر العالم مثل بناية عظيمة، وان نحاول بناءه. هذا ما يجب ان يفعل. للتعرّف على دافني ينبغي عليه ان يعيد رسمها.

جلس إذن إلى الطاولة ورسم جانبية السفينة، مستوحيا رسمه من هيكل أماريلّي، وممّا رآه إلى ذلك الحين على دافني. إذن، كان يقول في نفسه، لدينا حجرات الكوثل وتحتها حجرة نوتيّ الإشارة؛ وتحتها أيضاً (دائما على مستوى السطح)، مركز الحراسة والفضاء الذي يمرّ منه مقبض الدفّة. وهذا الأخير يخرج من الكوثل، وبعد ذلك الحدّ لا يمكن ان يوجد شيء آخر. كل هذا على مستوى المطبخ في الطرف الأمامي. بعد ذلك يوجد الصاري المائل الذي يقف على سطح آخر مرتفع، وهنالك، ـ ان فهمت جيّدا تلميحات روبارتو ـ توجد تلك المواضع التي يجلس فيها المرء في ذلك الوقت، وإسته بارز نحو الخارج، لقضاء حاجته. وإذا ما نزلنا تحت المطبخ نصل إلى المخزن. وقد زاره إلى حدّ الصاري البارز نحو الخارج، إلى حافة الحيزوم، وهنا أيضا لا يمكن ان يوجد شيء آخر. تحت ذلك كان قد عثر على الحبال وعلى مجموعة الأحفورات. بعد ذلك لا يمكن المضيّ إلى الأمام.

ينبغي إذن العودة إلى الوراء واجتياز كامل الفضاء تحت السطح

حيث توجد المطيرة والحديقة. والدخيل ان كان لا يتحوّل حسب هواه إلى طائر أو نبات فلا يمكن ان يختفي هناك. تحت مقبض الدفّة يوجد الأرغن والساعات. وهناك أيضاً ينتهي المطاف إلى الهيكل.

عندما نزل أكثر وجد الفضاء الأكثر اتساعا في قاع السفينة، توجد فيه بقية المؤن، والصابورة، والخشب؛ وضرب بجمع يده على الجوانب ليتأكد انه لا يوجد فراغ يحدث صوتا خاويا. والفنطاس لا يسمح، ان كانت تلك السفينة عادية، بوجود مخبأ آخر. الاّ اذا التصق الدخيل بالصالب، تحت الماء، مثل العلقة، وينسلّ اثناء الليل فوق السطح - ولكن من جميع الاحتمالات، وكان مستعدا لقبول اكثرها - كانت يبدو له ذلك الأقل اقناعا علمياً.

في الكوثل، تحت الأرغن تقريبا، كان هناك الركن بالوعاء، والراصدة والآلات الأخرى. عند التحقق منه، كان يفكّر انه لم يتأكّد ان كان ذلك الفضاء يحدّ بالدفّة؛ ولكن من خلال الرسم الذي كان يقوم به كان يبدو له ان الورقة لا تسمح له بتصوّر فضاء آخر - ان كان رسمه لتقويس الكوثل صحيحا. تحته كان يوجد الممرّ المغلق، وهنا فقد كان متأكدا انه لا يوجد وراءه أي شيء آخر.

عندئذ قسّم السفينة إلى حجرات، وملأها كلّها ولم يبق له أي مخبأ آخر. خلاصة القول: لم يكن للدخيل موضع قارّ. كان يتحرّك حسب تحرّكه هو، كان مثل صفحة القمر المختفية، نعرف انها موجودة ولكننا لا نراها أبدا.

من يستطيع ان يرى صفحة القمر الأخرى؟ أحد سكّان النجوم القارة: كان بإمكانه ان ينتظر، دون ان يتحرّك، ويفاجيء وجهه الخفيّ بهذه الطريقة. طالما يتحرّك هو مع الدخيل أو يترك للدخيل اختيار التحرّكات، فلن يكتشفه أبدا.

كان عليه ان يصبح نجما قارّا ويجبر الدخيل على ان يتحرّك. وبما

ان الدخيل كان بكلّ تأكيد فوق السطح في الوقت الذي كان هو فيه تحت السطح، والعكس بالعكس، يجب إذن ان يوهمه انه تحت السطح لكي يفاجئه فوق السطح.

وحتى يخدع الدخيل ترك النور مضاء في حجرة القبطان، حتى يظن الآخر انه مشغول بالكتابة. ثم اختبأ في قمّة الجؤجؤ، تماما وراء الجرس، بطريقة تجعله عندما يلتفت وراءه يشاهد الفضاء تحت الصاري المائل، وأمامه يرى كامل السطح وطرف السفينة الآخر إلى حدّ فانوس المؤخرة. ووضع بجانبه البندقية ـ وكما أخشى، برميل ماء الحياة أيضا.

وقضى الليل يترصّد اقلّ حركة، كما لو كان لا يزال يتجسّس على الدكتور بيرد، ويقرص أذنيه حتى لا يأخذه النوم، إلى الفجر. دون جدوى.

عندئذ عاد إلى الحجرة، التي في تلك الأثناء انطفأ فيها النور، فوجد أوراقه مبعثرة في فوضى. لقد قضى الدخيل ليلته هنالك، ربما كان يقرأ الرسائل التي كتبها لحبيبته، بينما كان هو يقاسي من الصقيع أثناء الليل ومن الندى في الصباح!

لقد ولج العدوّ ذكرياته... تذكّر تنبيهات سالزار: بإظهار عواطفه فتح فجوة في ذاته.

جرى إلى سطح السفينة وأخذ يطلق الرصاص دون هدف معيّن، مصيبا احد الصواري، وواصل اطلاق الرصاص إلى ان تفطّن إلى انه لم يكن يصيب احدا. ومع الوقت الذي كان يلزم في تلك العصور لإعادة حشو بندقية الفتيلة، فقد كان بإمكان العدوّ ان يتفسّح بين طلقة وأخرى، ساخرا من كل ذلك الصخب ـ الذي لم يحدث أثرا إلا في الحيوانات التي انبعث صياحها من تحت.

كان يضحك منه اذن. أين كان يضحك؟ وعاد روبارتو إلى رسمه وقال في نفسه انه حقيقة جاهل بعلم صنع السفن. كان الرسم يمثّل فقط

الأعلى، والأسفل والطول، دون العرض. وكما كان يراها حسب الطول (أو كما نقول اليوم في مقطعها) كانت السفينة لا تكشف مخابىء أخرى ممكنة ولكن، حسب عرضها، بالإمكان ان تحشر بعض المخابىء بين الحجرات التي تمّ اكتشافها.

والآن فقط تبادر إلى ذهنه شيء، وهو انه على تلك السفينة لا تزال تنقص عدّة أشياء. مثلا، لم يجد فيها أسلحة أخرى. حتى ولو افترضنا ان النوتية أخذوها ـ ان هم تركوا السفينة بمحض ارادتهم. ولكن على متن أماريلّي كانت توجد في القاع كمية كبيرة من الخشب الصالح للصناعة، لتصليح الصواري، والدفّة أو الجوانب، في حالة أضرار من جراء العواصف، بينما هنا وجد ما يكفي من الحطب الرقيق، جفّف منذ وقت قريب لتزويد موقد المطبخ، اما خشب سنديان أو ارزية أو صنوبر جاف فلا شيء من كلّ ذلك. ومع خشب النجارة كانت تنقص أدوات النجارة من منشارات، وبلطات مختلفة الأحجام، ومطارق ومسامير...

أكانت هنالك مخابىء أخرى؟ أعاد الرسم، وحاول ان يمثّل السفينة لا كما يمكن ان يراها من الجانب، بل كما لو كان يراها من أعلى المصطبة. وقرّر انه في تلك الخليّة التي تصوّرها يمكن حشر فضاء، تحت حجرة الأرغن، يمكن النزول منه دون سلّم إلى الممرّ الضيق. فضاء لا يمكن ان يحتوي جميع الأشياء الناقصة، ولكنه على كل حال فضاء جديد. وان كان في سقف الممرّ المنخفض فتحة، يمكن عندئذ الصعود إلى ذلك الفضاء الجديد، ومن هنالك إلى حجرة الساعات، ومنها إلى كامل السفينة.

تأكّد لدى روبارتو الآن ان العدوّ لا يمكن ان يكون الاّ هناك. جرى إلى الأسفل، وانسلّ داخل المصران، ولكنه هذه المرّة أضاء السقف. ووجد بابا صغيرا. قاوم الرغبة في فتحه حالا. ان كان الدخيل فوقه، فسينتظر ان يخرج هو رأسه، وتكون الغلبة له. يجب ان يفاجئه من حيث لا ينتظر، كما كانوا يفعلون في «كزالي».

ان كان هنالك فراغ فهو يحدّ بفضاء الراصدة، ومن هنالك كان عليه ان يمرّ.

صعد، واجتاز المخزن، وتعدّى الآلات، فوجد نفسه أمام حاجز ـ تفطّن فقط آنذاك إلى انه لم يكن من خشب الهيكل الصلب.

كان الحاجز رهيفا نوعا ما: وكما فعل للدخول إلى المكان الذي كانت تأتي منه الموسيقى، سدّد للحاجز ركلة قوية، فانهار.

ووجد نفسه في ضوء ضعيف داخل جحر له نافذة صغيرة على جوانب السفينة المقوّسة. وهنالك، فوق فراش، وركبتاه ملتصقتان بذقنه، وذراعه ممتدّ وفي قبضته مسدّس ضخم، كان يوجد الآخر.

كان شيخا متّسع الحدقتين، نحيل الوجه وسط لحية صغيرة رماديّة، وشعره القليل الأشيب مستو على رأسه، وفمه الذي يكاد يكون خاليا من الأسنان محمرّ اللثة كالقمام الآسي، ملتحف في لحاف ربما كان في السابق أسود اللون وصار الآن ممزقا وباهت اللون.

كان يوجّه مسدّسه ممسكا به بكلتا يديه كأنما يتعلّق به، بينما كانت ذراعاه ترتعشان ويصيح بصوت ضعيف. كانت الجملة الأولى بالألمانية، أو بالهولندية، والثانية، وكان يعيد بدون شكّ ما قاله، كانت بإيطالية فقيرة ـ وهذا يدلّ على انه استنتج أصل مخاطبه من خلال قراءة أوراقه.

ـ «سأقتلك إن تحرّكت»!

ومن فرط المفاجأة التي أحدثها ذلك الظهور بقي روبارتو لحظة دون ردّ فعل. وكان ذلك حسنا، لأنه تمكّن من ملاحظة ان ديك المسدّس لم يكن مرفوعا، وان عدوّه لم يكن إذن عارفا بالفنون العسكرية.

عندئذ تقدّم بلطف، ومسك المسدّس من فوهته، وحاول ان ينتزعه من تلك اليدين الضاغطتين على المقبض، بينما كان ذلك المخلوق يطلق صيحات حانقة وتوتونيّة.

وتمكن روبارتو بصعوبة من انتزاع السلاح، وانهار الآخر مستسلما، فجثا روبارتو على ركبتيه بجانبه، وأمسكه من رأسه قائلا له: «سيّدي، انني لا أريد بك سوءاً. إنني صديق. أفهمت؟!Amicus».

وكان الآخر يفتح ويغلق فمه دون النطق بكلمة؛ كان يظهر منه فقط بياض عينيه، أو بالأحرى احمرارهما، وخشي روبارتو ان يكون على وشك الموت. فأخذه بين ذراعيه، لما كان عليه من هزال، وحمله إلى حجرته. ثم قدّم اليه الماء، وأشربه قليلا من ماء الحياة، وشكره الآخر قائلا «Gratias ago, domine,» ورفع يده كما لو كان يريد ان يباركه، وفي تلك اللحظة تفطن روبارتو، بعد ان نظر مليّا في لباسه، انه أمام رجل كنيسة.

21

نظريّة الأرض المقدّسة

لن نطيل الكلام في اعادة ما قيل بينهما طيلة يومين. والسبب في ذلك أيضاً هو انه من الآن وصاعدا تصبح اوراق روبارتو مقتضبة أكثر. بعد ان وقعت ربما تحت أنظار غريبة مسارّاته لحبيبته (لم يجرؤ أبدا على سؤال رفيقه الجديد في هذا الخصوص)، طيلة أيام عديدة أحجم عن الكتابة واكتفى بتسجيل ما عرف وما حدث له بصورة وجيزة جدا.

إذن، وجد روبارتو نفسه أمام الأب كسبار ونداردروسّال، e Societate Iesu, olim in Herbipolitano Franconiae Gymnasio, postea in Collegio Romano Mathematum Professor، وليس هذا فقط، ولكنه كان أيضاً فلكيّا، وباحثا في عدّة علوم أخرى، لدى خورية جنرال الجمعيّة. كانت دافني، بقيادة قبطان هولندي كان قد جاب تلك البحار لحساب Veerenigde Oost-Indische Compagnie، وقد تركت قبل ذلك بشهور عديدة سواحل البحر الأبيض المتوسط طائفة بإفريقيا، بهدف بلوغ جزر سليمان. تماما ما كان يريد ان يفعل الدكتور بيرد على متن أماريلّي، إلاّ ان أماريلّي كانت تبحث عن جزر سليمان متّخذة الشرق على انه غرب، بينما كان الأمر عكس ذلك على دافني، ولكن ذلك لا يهمّ: يمكن بلوغ المتقاطرات من الجهتين. على الجزيرة (وكان

الأب كسبار يشير إلى ما وراء الشاطىء، خلف الأشجار) كان عليهم ان يركّبوا المرصد المالطي. لم يكن واضحا ماذا يمكن ان يكون هذا المرصد المالطي، والأب كسبار كان يهمس بشأنه كما لو كان سرا كبيرا يتحدّث عنه العالم أجمع.

لبلوغ ذلك المكان كان على دافني ان تمضي وقتا طويلا. الجميع يعرف كيف كانت السفن في ذلك الوقت تجوب تلك البحار. بعد ان تركوا جزر «ملوخ»، بنيّة الاتجاه نحو الجنوب الشرقي لبلوغ «بورتو سان توما» في غينيا الجديدة، بما انه كان ينبغي ان يمرّوا بالأماكن التي كانت فيها لرهبانية اليسوعيين بعثاتها، دفعت العاصفة بالسفينة إلى بحار لم يسبق قط ان رأوها، ووصلوا إلى جزيرة مأهولة بجرذان عظيمة كأنها أطفال، بذيل طويل جداً، وجيب على البطن، شاهد روبارتو منها مثالا متبنا (بل وبّخه الأب كسبار لأنه رمى إلى البحر «بWunder يساوي البيرو»).

وكانت، حسب رواية الأب كسبار، حيوانات وديعة، تجتمع حول النازلين إلى البرّ وتمدّ أياديها الصغيرة تطلب القوت، بل وتجذبهم من اثوابهم، ولكنها في نهاية الأمر كانت لصّات ماكرة، سرقت الخبز المجفّف من جيوب أحد البحّارة.

واسمحوا لي ان أعلّق تأييدا للأب كسبار: جزيرة من ذلك النوع موجودة حقا، ولا يمكن الخلط بينها وبين أي جزيرة أخرى. تلك الكنغورو المزيفة تسمّى كووكّاس، وتعيش هنالك فقط، على Rottnest Island، التي اكتشفها الهولنديون منذ وقت قريب، وأطلقوا عليها اسم rottenest، وكر الجرذان. ولكن بما ان هذه الجزيرة توجد تجاه «بيرث»، فهذا يعني ان دافني بلغت الساحل الغربي لأوستراليا. واذا ما فكّرنا انها توجد إذن على الموازي الثلاثين جنوبا، وعلى غربي جزر «مولوخ»، بينما كان عليها ان تتجه نحو الشرق نازلة قليلا تحت خط الإستواء، فهذا يعني ان دافني تاهت عن الطريق.

وليت الأمر توقف عند هذا الحدّ. كان على نوتيّة دافني ان يلمحوا ساحلا على مسافة قريبة من الجزيرة، ولكنهم ربما ظنوا انها لا تعدو ان تكون جزيرة صغيرة أخرى يسكنها حيوان قاضم آخر. كانوا يبحثون عن شيء آخر أهمّ بكثير، وما عساها كانت تقول للأب كسبار تلك الأدوات المحمولة على متن السفينة. ليس هناك شكّ انهم كانوا على بعد بضع ضربات مجداف عن تلك الأرض المجهولة والجنوبية التي كانت البشرية تحلم بها منذ قرون. وما يصعب فهمه في كلّ هذا ـ اذا ما اعتبرنا ان دافني ستصل أخيرا (وسنرى ذلك) إلى سبع عشرة درجة على مستوى خط العرض جنوبا ـ هو كيف طافوا بأوستراليا، أو على الأقلّ بربعين منها، دون ان يروها: أم انهم صعدوا إلى الشمال، واذن مرّوا بين أوستراليا وغينيا الجديدة مع خطر ان ترسب بهم السفينة على هذا الشاطىء أو ذاك؛ ام انهم اخذوا البحر نحو الجنوب، مارّين بين اوستراليا وزيلاندا الجديدة، لا يرون امامهم الاّ مياه البحر الممتدّة.

قد يذهب الظن بالبعض انني بصدد سرد رواية، لو لم يحدث في نفس الشهور تقريبا التي تدور فيها أطوار قصّتنا أن وصل أبال تسمان أيضاً، انطلاقا من باتافيا إلى ارض اطلق عليها اسم «فان ديمان»، والتي نعرفها اليوم باسم «تسمانيا» ؛ ولكن بما أنه كان يبحث هو الآخر عن جزر سليمان، فقد ترك على يساره الساحل الجنوبي لتلك الأرض، دون ان يتصوّر انه توجد وراءها قارّة اكبر منها مائة مرّة، وانتهى به المطاف إلى الجنوب الشرقي من زيلاندا الجديدة، وتابع سواحلها في اتجاه الشمال الشرقي وبعد ان تركها وصل إلى «تونغا» ؛ ثم وصل تقريبا إلى حيث وصلت دافني، حسب رأيي، ولكنه هنا أيضاً مرّ عبر الحاجز المرجاني، واتجه نحو غينيا الجديدة. فكما لو كانت كرة تصطدم بحافة البليار، ولكن يبدو انه لعدّة سنين أخرى قضي على الملاّحة المستكشفين ان يصلوا على مقربة خطوتين من أوستراليا دون ان يتفطنوا اليها.

لنأخذ إذن قصّة الأب كسبار على انها صحيحة. اتّبعت دافني هوى الريّاح إلى ان تعرّضت إلى عاصفة أخرى خرجت منها في حالة يرثى لها، حتى انهم اضطروا للتوقف في جزيرة لا يعلم مكانها الا الله، دون اشجار، وكلّها رمل رسمت كأنها خاتم حول بحيرة وسطيّة. هناك اصلحوا السفينة، وهذا يفسّر لماذا لم يعد يوجد على متنها اللوح الصالح للصناعة. ثمّ استأنفوا الرحلة ووصلوا في النهاية إلى ذلك الجون حيث ألقوا المرساة. وأرسل القبطان مركبا إلى اليابسة مع بعض الرجال، واستنتجوا من ذلك انها لم تكن آهلة، وعلى كلّ حال حشا القبطان مدافعه القليلة ووجهها نحو الجزيرة، ثم بدأت ثلاث عمليّات جميعها أساسيّة.

أوّلا، جمع الماء والغذاء، لأن نقصهم من ذلك بلغ اقصى حدّ؛ ثانيا، اصطياد بعض الحيوانات وجمع بعض النباتات لحملها إلى أرض الوطن لإرضاء علماء الطبيعة التابعين للرهبانية؛ ثالثا، قطع بعض الأشجار لتكوين ذخيرة جديدة من الجذوع الكبيرة، وألواح، وغير ذلك من المعدّات الصالحة لمواجهة الكوارث القادمة؛ وأخيرا انجاز المرصد المالطي على مرتفع في الجزيرة، ومن بين جميع العمليّات كانت هذه أصعبها. كان عليهم ان يخرجوا من قاع السفينة جميع ادوات النجارة وقطع المرصد المختلفة وان يحملوها حتى الشاطىء، وجميع هذه الأشغال أخذت وقتا طويلا، وذلك لأنه لم يكن ممكنا النزول مباشرة على الشاطىء: بين السفينة والشاطىء كان يمتدّ، على سطح الماء أو يكاد، بممرّات قليلة وضيقة جداً، بربخ، أو حصن صخري، أو سطح، او Erdwall كلّه من المرجان ـ بإيجاز كان ما نعبّر عنه اليوم بحاجز مرجاني. بعد محاولات عديدة فاشلة اكتشفوا انه ينبغي في كل المرة الطواف وراء الرأس،جنوبي الجون حيث يوجد وراءه جون آخر صغير يمكن الرسوّ فيه. «ولهذا السبب نحن لا نرى المركب الذي تركه البحارة، بينما لا يزال يوجد هنالك، «heu me miserum !. كما يمكن

ان نستنج من تدوين روبارتو، كان ذلك التوتوني يعيش في روما يتحدّث اللاتينية مع إخوانه القادمين من مئات البلدان، ولكنه كان لا يتقن الكلام بالإيطالية.

بعد إتمام المرصد، بدأ الأب كسبار في القيام بتقويماته، التي تواصلت بنجاح طيلة ما يقارب الشهرين. في تلك الأثناء ماذا كان يفعل طاقم السفينة؟ كان الكسل يعتريهم يوما بعد يوم، والنظام على السفينة يضعف شيئا فشيئا. كان القبطان قد حمل على السفينة براميل صغيرة كثيرة مليئة بماء الحياة لاستعماله كمنعش أثناء العواصف، بتقتير، أو للتبادل مع سكّان الجزر؛ الا ان النوتية استهتروا بجميع الأوامر، وحملوا البراميل على السطح، واكثروا من الشرب، وحتى القبطان سلك سلوكهم. كان الأب كسبار يعمل، بينما هؤلاء كانوا يعيشون مثل الهمج، ومن أعلى المرصد كانت أغانيهم الفاحشة تصل إلى المسامع.

ذات يوم، بما ان الطقس كان حارا جداً، بينما كان الأب كسبار يعمل وحده في المرصد خلع رداءه (وكان اليسوعي الطيب، وقد غلبه الخجل، يقول انه ارتكب ذنبا لأنه لم يكن متواضعا، ويدعو الرب ان يغفر له الآن، بما انه عاقبه على الفور!) وإذا بحشرة لدغته في صدره. في البداية أحسّ فقط بوخزة، ولكنه ما أن نقل إلى السفينة لقضاء الليل حتى اصابته حمّى قوية. لم يقصّ على أحد الحادث الذي وقع له، وأثناء الليل كثر الأزيز في أذنيه وأحسّ بثقل في رأسه، وعندما فتح القبطان رداءه تصوّروا ماذا رأى؟ نافطة، مثل ما يحدثه الزنبور، ماذا أقول، لا تعدو ان تكون قرصة بعوضة كبيرة. الا ان ذلك الانتفاخ تحوّل فورا أمام عينيه إلى carbunculus، إلى دمّل مسودّ ـ باختصار ـ إلى خرّاج، علامة واضحة للطاعون pestis, quae dicitur bubonica، كما دوّن ذلك في دفتر السفينة.

وانتشر الهلع على المركب. ولم ينفع ما رواه الأب كسبار عن

الحشرة التي لسعته: المصاب بالطاعون يكذب دائما حتى لا يبعدوه، هذا معروف. ولم ينفع ان يؤكد أنه يعرف داء الطاعون معرفة جيّدة، وان ذلك لم يكن طاعونا لعدّة أسباب. كان النوتية يريدون ان يلقوه في البحر، لتفادي العدوى.

كان الأب كسبار يحاول ان يفسّر أنه، أثناء الوباء العظيم الذي اصاب ميلانو وايطاليا الشمالية قبل ذلك باثنتي عشرة سنة، أرسل مع مجموعة من إخوانه لتقديم يد المساعدة في المحاجر الصحيّة، ولدراسة تلك الظاهرة عن قرب. وإذن كان يعرف الكثير حول تلك الكارثة المعدية. هناك أمراض تصيب فقط الأفراد في أماكن وفي أوقات مختلفة، مثل Sudor Anglicus، وأخرى خاصّة بجهة معيّنة، مثل Dysenteria Melitensis أو Elephantiasis Aegyptia، وأخرى أخيرا مثل الطاعون الذي يصيب لوقت طويل جميع السكان في جهات كثيرة. إلاّ ان الطاعون تسبقه مؤشرات مثل بقع الشمس، والخسوف، والمذنّبات، وظهور الحيوانات التي تعيش تحت الأرض والتي تخرج من جحورها، والنبات الذي يجفّ من الهواء الفاسد والسامّ: ولم تظهر واحدة من هذه العلامات لا على متن السفينة ولا على اليابسة، لا في السماء ولا في البحر.

ومن جهة ثانية ينتج الطاعون حتما من الهواء الفاسد الذي يصعد من المياه الراكدة، من جرّاء عفونة الجثث الكثيرة أثناء الحروب، وحتى من اجتياح الجراد الذي يغرق بكميات كبيرة في البحر ثم ترميه الأمواج على الشواطىء. والعدوى تتمّ فعلا عن طريق تلك الروائح النتنة السامة، التي تدخل عبر الفم والرئة، وتصل عبر الوريد الأجوف إلى القلب. ولكن أثناء السفرة، بخلاف نتونة الماء والغذاء، التي تحدث داء الحفر، لا الطاعون، لم يتشكّ النوتية من أي هواء فاسد وسامّ، بل بالعكس تنفّسوا دائما هواء نقيا ورياحا نافعة جدا للصحّة.

وكان القبطان يقول ان آثار الروائح تبقى ملتصقة بالأثواب وبعدّة أشياء أخرى، وأنه ربما كان على متن السفينة شيء احتفظ لمدّة طويلة بالوباء ونشر العدوى. وتذكر قصّة الكتب.

كان الأب كسبار قد حمل معه بعض الكتب القيّمة حول الإبحار، مثل L'Arte de navegar الذي ألّفه Medina، و Typhis Batavus لمؤلفه Snellius و De rebus oceanicis et orbe novo decades tres لصاحبه Pietro d'Anghiera، وروى يوما للقبطان انه تحصّل عليها بثمن زهيد جداً، وفي ميلانو بالذات: بعد الطاعون، وعلى الأسوار القصيرة على طول «القنالات» عرضت للبيع مكتبة كاملة كانت لأحد الأسياد توفّي قبل الأجل. وكانت هذه مكتبته الصغيرة الشخصية التي كان يحملها معه حتى عندما يركب البحر.

كان واضحا بالنسبة للقبطان ان الكتب، التي كانت في السابق ملك شخص اصيب بالطاعون، هي حاملة العدوى. والطاعون كما يعرف الجميع ينتشر عن طريق دهان سامّ، وكان قد قرأ عن اشخاص لقوا حتفهم ببلّ اصابعهم بالريق وهم يتصفّحون اوراقا دهنت فعلا بالسمّ.

كان الأب كسبار يجادل: كلا، في ميلانو درس دم المصابين بالطاعون بواسطة مخترِع حديث جداً، آلة تسمّى عين صغيرة أو مجهر، ورأى في ذلك الدم مثل ديدان صغيرة تعوم، وهي فعلا عناصر ذلك الـ contagium animatum التي تتولّد بصفة طبيعية من كلّ نتونة، ثم تنتشر، propagatores exigui، عن طريق المسامّ العرقيّة، أو الفم، أو احيانا الأذن.الا ان تلك الأشياء المتحركة هي شيء حيّ، ويحتاج إلى الدم كي يتغذّى، ولا يعيش اثنتي عشرة سنة وأكثر بين ألياف الورق الميّتة.

كلّ ذلك لم يقنع القبطان وانتهت مكتبة الأب كسبار الجميلة وسط البحر تتلاقفها الأمواج. الا ان ذلك لم يكن كافيا: فبالرغم من ان الأب

كسبار أكّد مرارا ان الطاعون يمكن ان ينتشر عن طريق الكلاب والذباب ولكن، حسب علمه، لا تنقله الجرذان، فقد أخذ الطاقم بأجمعه يطارد الفئران، مطلقين الرصاص في كلّ اتجاه مغامرين بخطر احداث ثغور في قاع السفينة. وأخيرا، بما ان حمّى الأب كسبار بعد يومين من ذلك تواصلت، والدمّل بقي على حاله، اتخذ القبطان قراره: ان ينزل الجميع إلى الجزيرة وان ينتظروا هناك إمّا ان يموت الأب أو ان يشفى، وان تتطهّر السفينة من كلّ اثر وتأثير خبيث.

وأتبع القول بالفعل، ونزل جميع افراد الطاقم في القارب، مدججين بالسلاح والأدوات. وبما انهم تصوّروا انه بين موت الأب كسبار والفترة التي ستصبح فيها السفينة مطهّرة، سيمرّ شهران أو ثلاثة، قرّروا انه يلزم صنع أكواخ على الشاطىء، وجميع ما كان يجعل من دافني محرفا نقل جميعه إلى اليابسة.

دون ان ننسى اكثرية البراميل من ماء الحياة التي أخذوها معهم.

«ولم يفعلوا حسنا،» كان يعلّق الأب كسبار بمرارة، متحسّرا للعقاب الشديد الذي نالهم من السماء لأنهم تركوه وحيدا مثل روح تائهة.

وفعلا ما ان نزلوا إلى اليابسة حتى اصطادوا بعض الحيوانات داخل الغابة، ثم اشعلوا نيرانا كبيرة اثناء الليل على الشاطىء وسكروا ومرحوا لمدّة ثلاثة أيام وثلاث ليال.

من المحتمل ان تكون النيران قد جلبت انتباه المتوحّشين. حتى وان كانت الجزيرة غير آهلة بالسكان، في ذلك الأرخبيل كان يعيش اناس سود مثل الأفارقة، كان يبدو انهم يتقنون الملاحة. ذات صباح رأى الأب كسبار حوالي عشر «piragve» لا يدري أحد من اين أتت، من وراء الجزيرة الكبيرة نحو الغرب، تتجه نحو الجون الصغير. كانت زوارق محفورة في جذوع مثل قوارب هنود العالم الجديد، ولكنها

كانت مزدوجة: واحد منها يحمل الطاقم والآخر يسري على الماء مثل زلاّقة.

وخشي الأب كسبار في بداية الأمر ان يتجهوا نحو دافني، الا ان هؤلاء كان يبدو انهم يتحاشونها ووجهوا زوارقهم نحو الجون الصغير حيث نزل البحّارة. وحاول الأب كسبار ان يصيح لينبّه الرجال الموجودين على الجزيرة، ولكنهم كانوا نائمين سكارى. باختصار، وجد النوتية أنفسهم فجأة أمام المتوحّشين الذين برزوا من بين الأشجار.

نهض البحارة واقفين بينما اظهر اهالي تلك الجزر نوايا عدوانية، ولكن لا أحد فهم ما كان يحدث وأكثر من ذلك لا أحد كان يذكر اين ترك سلاحه. الاّ القبطان فقد تقدّم نحوهم وأسقط أحد المهاجمين بطلقة رصاص. عندما سمعوا الطلقة وشاهدوا رفيقهم يسقط ميتا دون ان يمسّه جسم آخر، اظهر الأهالي استعدادهم للاستسلام، واقترب واحد منهم من القبطان مقدّما له قلادة كان يحملها في عنقه. فانحنى القبطان، ثم بدا واضحا انه كان يبحث عن شيء يقدمه بدوره هدية اليهم، ودار يطلب شيئا من رجاله.

باستدارته تلك أظهر ظهره لأناس تلك البقاع.

ويظن الأب ونداردروسال انهم في البداية، وقبل ان يسمعوا الطلقة النارية، اندهشوا من هيئة القبطان، الذي كان عملاقا هولنديا ذا لحية شقراء وعينين زرقاوين، وهي خصوصيات كانوا ربما ينسبونها إلى الآلهة. ولكنهم ما ان رأوا قفاه (بما انه كان بيّنا ان اولئك الأهالي المتوحشين كانوا يظنون ان الآلهة لا تملك قفا)، حتى هاجمه زعيم المتوحشين من الخلف بهراوة وفلق رأسه، وهذا الأخير سقط على الأرض دون حراك. وانقضّ السّود على البحّارة وقبل ان يجد هؤلاء طريقة للدفاع عن أنفسهم، أبادوهم جميعا.

وبدأت مأدبة فظيعة دامت ثلاثة أيام. وتابع الأب كسبار وهو

مريض كلّ ذلك بمنظاره، دون ان يقدر على فعل أي شيء. صار الطاقم بجميع رجاله لحما في مجزرة: في البداية رآهم الأب كسبار وهم ينزعون كلّ شيء (بصيحات فرح كان المتوحشون يطلقونها وهم يتقاسمون الأثواب والأشياء)، ثم جزّأوا الأجسام، وطبخوها، وأكلوها بكلّ أناة، مع جرعات من مشروب باخر وأناشيد كانت ربما تبدو لأيّ كان مسالمة، لو لم تتبع تلك الحفلة الشنيعة.

بعد ان شبعوا، بدأوا يشيرون إلى السفينة. ربما لم يربطوا الصلة بينها وبين حضور البحارة: في هيئتها العظيمة بصواريها وأشرعتها، كانت تبدو مختلفة تماما عن قواربهم، ولم يظنوها من صنع بشر مثلهم.وحسب قول الأب كسبار (الذي يؤكد انه يعرف جيدا عقلية الوثنيين في العالم كلّه، من خلال روايات الرحالة اليسوعيين العائدين إلى روما) كانوا يظنون السفينة حيوانا، وأقنعهم في ظنهم ذلك، انها بقيت محايدة بينما كانوا يقومون بطقوسهم الآدمية. وتأكيدا على ذلك كان الأب كسبار يقول ان مجلاّن روى كيف ان بعض المتوحشين كانوا يظنون ان السفن، التي جاءت طائرة من السماء، هي الأمهات الطبيعية للزوارق، التي ترضعها وهي مشدودة إلى جوانبها، ثم تفطمها بإنزالها إلى الماء.

إلاّ انه من المحتمل الآن ان أحدهم فكّر في ان الحيوان مسالم وربما كان لحمه طيبا مثل لحوم البحارة، ولذا قد يكون حسنا ان يحاولوا الاستحواذ عليه. وهكذا اتجهوا نحو دافني. عند ذلك ولكي يمنعهم اليسوعي المسالم من الاقتراب (اذ ان رهبانيته تدعوه إلى ان يعيش ad majorem Dei gloriam لا ان يموت لإرضاء رغبات بعض المشركين cujus Deus venter est) أشعل فتيلة مدفع كان محشواً ووجّهه نحو الجزيرة، وأطلق النار. وبينما ضجّت السفينة ولفّ الدخان جانب دافني كما لو كان الحيوان ينفث من الغضب، سقطت كرة المدفع بين الزوارق وانقلب اثنان منها.

كانت المعجزة معبّرة. وعاد المتوحشون إلى الجزيرة واختفوا بين اشجار الغابة، وخرجوا منها بعد حين وجيز يحملون قلادات من الأزهار والأوراق وألقوها في الماء مصاحبين اياها بإشارات إجلال، ثم وجهوا زوارقهم نحو الجنوب الغربي واختفوا وراء الجزيرة الغربية. لقد دفعوا للحيوان العظيم الغاضب ما كان يبدو لهم خراجا كافيا، وما من شك أنهم لن يعودوا ثانية إلى تلك الشواطىء: فقد تأكّد لديهم ان المنطقة مأهولة بمخلوق سريع الغضب ومنتقم.

كانت هذه قصّة الأب كسبار ونداردروسال. لمدّة تزيد عن الأسبوع، قبل مجيء روبارتو، أحسّ بنفسه مريضا ولكن، بفضل تحضيرات من صنعه «Spiritus, Olea, Flores, und andere dergleichen Vegetabilische/ Animalische/ und Mineralische Medicamentem»، بدأ يشعر براحة النقاهة عندما سمع ذات ليلة وقع أقدام على سطح السفينة.

منذ ذلك الحين، ومن الخوف، عاد اليه المرض، فترك حجرته والتجأ إلى ذلك الركن، حاملا معه أدويته، ومسدّسا، دون حتى ان يفهم انه لم يكن محشوّاً. ومن مخبئه لم يخرج الا للبحث عن الماء والطعام. في البداية سرق البيض ليسترجع بعض القوى، ثم اكتفى بأخذ بعض الغلال. كان مقتنعا ان الدخيل (في رواية الأب كسبار كان الدخيل بطبيعة الحال هو روبارتو) رجل علم، ذو حبّ اطلاع نحو السفينة وما تحتويها، وبدأ يظن انه ليس غريقا، بل جاسوس أرسله بلد كافر للاستحواذ على أسرار المرصد المالطي. هذا ما يفسّر لماذا تصرّف بتلك الطريقة الصبيانية، بهدف دفع روبارتو إلى ترك ذلك المركب المأهول بالعفاريت.

وجاء بعد ذلك دور روبارتو ليقصّ ما حدث له، وبما انه لم يكن يعرف مدى اطلاع كسبار على أوراقه وما كتب فيها، فقد اطال الحديث بالخصوص حول مهمّته وسفرته على متن أماريلّي. وروى روبارتو قصّته،

في آخر عشية ذلك اليوم، بينما كانا يطهوان ديكا وقد فتحا آخر قنينات القبطان. كان على الأب كسبار ان يسترجع قواه وان يعطي لجسمه دما جديدا، واحتفلا إذن بما كان يبدو لكلّ منهما عودة إلى المجتمع الإنساني.

«هذا سخيف جدا!» كان يعلّق الأب كسبار بعد ان استمع إلى قصّة الدكتور بيرد الغريبة. «لم اسمع في حياتي وحشية مثل هذه. لماذا فعلوا هذا بذلك الحيوان؟ كنت أظن انني سمعت جميع الغرائب عن سرّ خطوط الطول، ولكنني لم أسمع أبدا انه يمكن البحث عنه باستعمال المرهم السّلاحي! لو كان ذلك ممكنا لاكتشفه راهب يسوعي. لا علاقة لذلك بخطوط الطول، سأشرح لك كيف أعمل أنا وسترى انه مختلف جدا..».

فسأله روبارتو: «ولكن، في نهاية الأمر، أأنت تبحث عن جزر سليمان أم تريد حلّ لغز خطوط الطول؟»

ـ «كلا الأمرين، أليس كذلك؟ عندما تعثر على جزر سليمان تكون قد وجدت الهاجرة المائة والثمانين، وعندما تعثر على الهاجرة المائة والثمانين فأنت تعرف اين توجد جزر سليمان!»

ـ «ولكن لماذا توجد جزر سليمان بالضرورة على ذلك الخط؟»

ـ «Oh mein Gott»، ليغفر لي الإله ان أنا ذكرت اسمه المقدس دون موجب. أوّلا، بعد ان شيّد سليمان الهيكل، صنع اسطولا عظيما، كما يقول كتاب الملوك، وهذا الأسطول وصل إلى جزيرة «أوفير»، حيث جلبوا له منها (كيف تقول أنت؟)... «quadringenti und viginti».

ـ «أربعمائة وعشرين..».

ـ «أربعمائة وعشرين تالانا من الذهب، وهي ثروة عظيمة جدا: الكتاب المقدّس يقول قليلا ليعني كثيرا، كمن يقول pars pro

toto. وليس هناك بلد بالقرب من إسرائيل يملك ثروة مثل هذه، quod significat ان ذلك الأسطول وصل إلى آخر حدود العالم. هنا».

ـ «ولكن لماذا هنا؟»

ـ «لأن خط الزوال هنا هو الخط المائة والثمانون وهو بالضبط الذي يفصل الكرة الأرضية إلى اثنين، ومن الجهة الأخرى تجد الخط الأول: وتعدّ واحد، اثنان، ثلاثة، إلى ثلاثمائة وستين درجة من خط الزوال، وعندما تصل إلى مائة وثمانين، تكون هنا في منتصف الليل بينما في ذلك الخط الأول يكون منتصف النهار?Verstanden .، أنت تفهم الآن لماذا سمّيت جزر سليمان بهذا الاسم؟ سليمان قال لنقسم الطفل إلى اثنين، وسليمان قال لنقسم الأرض إلى اثنين».

ـ «فهمت، لو كنّا على الخط المائة والثمانين فنحن في جزر سليمان. ولكن من يقول لك اننا على خط الزوال المائة والثمانين؟»

ـ «يا للسؤال! إنه المرصد المالطي. إن لم تكف جميع تجاربي السابقة لتبيّن أن خط الزوال المائة والثمانين يمرّ من هنا، فقد بيّنه لي المرصد». ثم جرّ روبارتو إلى سطح السفينة وأشار إلى الجون: «أرأيت ذلك المرتفع في جهة الشمال حيث توجد تلك الأشجار العظيمة التي تقف على سيقانها الضخمة وسط الماء؟ والآن أرأيت ذلك المرتفع الآخر في جهة الجنوب؟ ارسم خطّا يصل بين المرتفعين، أرأيت أن الخطّ يمرّ في الوسط بين المكان الذي نحن فيه والشاطىء، apud أكثر بقليل من الشاطىء وأقلّ apud من السفينة... أرأيت الخطّ، أقول geistige خطّ انت تراه بعيني الخيال؟ Gut، ذلك هو خطّ الزوال!»

في اليوم الموالي أعلن الأب كسبار، الذي لم ينس أبدا حساب الزمن، ان ذلك اليوم هو يوم الأحد. وأقام القداس في حجرته، مقدّسا قطعة من الخبز القليل الذي بقي له. ثمّ تابع درسه، في البداية في الحجرة بين رسوم للكرة الأرضية وخارطات، ثم على السطح. وإثر

تشكي روبارتو الذي لم يكن يتحمّل النور النهاري الساطع، أخرج من إحدى خزاناته نظارات سوداء، كان قد استعملها بنجاح لتفحّص فوهة بركان. وبدأ روبارتو يرى العالم بألوان أكثر لينا، وفي نهاية الأمر محبّذة جداً، واستأنس شيئا فشيئا بحدّة النهار.

ولكي نفهم ما سيأتي يجب ان اضيف بعض الشروح، وإن لم أفعل ذلك الآن، فأنا نفسي لن أقدر على تبيّن سبيلي. كان الأب كسبار مقتنعا تمام الاقتناع ان دافني توجد بين الدرجة السادسة عشرة والسابعة عشرة من خط العرض الجنوبي وعلى الدرجة المائة والثمانين من خط الطول. في ما يخصّ خط العرض يمكن ان نثق تماما بما يؤكد. ولنفترض أيضاً انه كان على صواب حتى بخصوص خط الطول. من ملاحظات روبارتو الغامضة نخمّن ان الأب كسبار يحسب ثلاثمائة درجة كاملة انطلاقا من جزيرة الحديد، وثمانية عشرة درجة غربيّ غرينيتش، كما كان معمولا به منذ وقت بطليموس. وإذن إن كان يعتقد انه يوجد على خط الزوال المائة والثمانين فهذا يعني في الحقيقة انه كان على الدرجة المائة واثنين وستين شرقا (من غرينيتش). والحال ان جزر سليمان توجد حول خط الزوال المائة واثنين وستين شرقا، ولكن بين الدرجة الخامسة والثانية عشرة من خط العرض الجنوبي. واذن كانت دافني توجد أكثر جنوبا، شرقيّ «ايبريد الجديدة»، في منطقة تظهر فيها فقط ارصفة مرجانية، تلك التي ستأخذ بعد ذلك اسم Recifs d'Entrecasteaux.

هل يستطيع الأب كسبار ان يحسب انطلاقا من خط زوال آخر؟ بكلّ تأكيد. كما يقول كورونيلّي في كتابه Libro dei Globi في أواخر ذلك القرن، خطّ الزوال الأوّل حدّده إيراستوتيني عند «أعمدة هرقل»، مارتينو دا تير في جزر «فورتوناتي»، بطليموس في «جغرافيته» تبع نفس الرأي، ولكن في «كتبه الفلكية» مرّره من إسكندرية مصر. من بين المحدثين، اسماعيل أبو الفداء يحدّده في قادش، ألفونسو في طليطلة، بيقافيتا وهريرّا

فعلا نفس الشيء. كوبرنيك يجعله في فرومبورغ؛ راينولدو في «مونتي ريالي»، أو كونيسبارغ؛ كيبلر في اورانيبورغ؛ لونغو مونتانو في كوبنهاغن؛ لنسبارجيوس في غاوس؛ ريتشيولي في بولونيا. يانسونيو وبلاو في أطلسيهما يحدّدانه في مونتي بيكو. ولمواصلة ترتيب «جغرافيتي» حدّدت في كتابي هذا خطّ الزوال الأول في أقصى الجهة الغربية من جزيرة الحديد، وكذلك لاتّباع مرسوم لويس الثالث عشر، الذي مع «مجلس الجغرافيا» سنة 1634، حدّده في نفس ذلك المكان».

ولكن لو قرّر الأب كسبار ان لا يحترم مرسوم لويس الثالث عشر ووضع خطّ الزوال الأول فرضا، في بولونيا، عندئذ ستكون دافني راسية تقريبا بين «تاهيتي» وجزر «تواموتو». ولكن اهل البلاد هناك ليسوا سودا مثل اولئك الذين يقول انه رآهم.

ما الّذي جعله يعتبر التقليد الذي يعتمد جزيرة الحديد صحيحاً؟ يجب الانطلاق من مبدأ ان الأب كسبار يتحدّث عن خط الزوال الأول على أنه خطّ ثابت حدّد بأمر إلهي منذ خلق الكون. من اين سيعتبر الإله طبيعيا أن يجعله يمرّ من ذلك المكان اللامحدّد، والشرقيّ دون شكّ، الذي هو جنّة عدن؟ من تولا الأخيرة؟ من القدس؟ لم يجرؤ أحد إلى ذلك الحين ان يأخذ قرارا لاهوتيا، وهذا صواب: الإله لا يفكّر مثل الإنسان. فآدم، إن شئنا، ظهر على الأرض وقد وجدت الشمس، والقمر، والليل والنهار، وإذن خطوط الزوال.

فالحلّ إذن لا يجب ان يكون بعبارات تاريخية، بل بفلكيّة مقدّسة. ينبغي ان يتطابق قول الكتاب المقدس مع المعارف التي اكتسبناها حول القوانين السماوية. الآن، حسب سفر التكوين، خلق الربّ قبل كل شيء السماء والأرض. عند هذا الحدّ كانت الظلمات لا تزال تغمر اللجّ، و spiritus Dei fovebat aquas، ولكن هذه المياه لا يمكن ان تكون تلك التي نعرفها، والتي لا يفرقها الربّ إلاّ في اليوم الثاني، فاصلا بين

المياه الموجودة في السماء (والتي تأتي منها الأمطار) وتلك الموجودة في الأسفل، أي الأنهار والبحار.

وهذا يعني ان النتيجة الأولى من الخلق هو «مادّة أولى»، عديمة الشكل والحجم، دون صفة، عديمة الخصوصية، دون اتجاه، لا حركة لها ولا راحة، سديم أوليّ بحت، hyle ليس بعد لا نوراً ولا ظلمات. كانت جرما لم يهضم بعد حيث تتداخل فيه العناصر الأربعة، اضافة إلى البرد والحرارة، والجفاف والرطوبة، ثفل يغلي وينفجر ويبعث بقطرات حامية، مثل قدر من اللوبياء، أو بطن مصاب بالإسهال، أو انبوب منسدّ، أو ماء راكد ترتسم فوقه ثم تغيب دوائر الماء عندما تطفو وتغوص فيه يرقانات عمياء. إلى حدّ ان الهراطقة استنتجوا ان تلك المادة، البليدة والمقاومة لكلّ نفس تكويني، هي سرمدية على الأقل بقدر سرمديّة الربّ.

ولكن مهما كان أمرها، كان لا بدّ من نفس إلهي حتى يتكون منها وفيها وعليها تداول النور والظلام، والليل والنهار. ذلك النور (وذلك النهار) الذي يأتي الحديث عنه في المرحلة الثانية من التكوين ليس بعد النور الذي نعرفه نحن، نور النجوم والشمس والقمر، التي لن تتكوّن الا في اليوم الرابع. كان نورا مبدعا، كان طاقة إلهية صرفة، مثل انفجار برميل من البارود، كان في البداية مجرّد حبّات صغيرة سوداء، منحبسة في كتلة كثيفة، وفجأة ينفجر في شعل، وميض مكثّف يمتدّ إلى اقصى حدوده، ومن ورائه تتكوّن بفعل التباين كتل الظلام (حتى وان حدث الانفجار لدينا أثناء النهار). كما لو أنه من نفس محبوس، من فحمة تبدو وكأنها تحمرّ بفعل نفس داخلي، من تلك goldene Quelle der Universus ينشأ سلّم من الامتيازات الساطعة تسقط تدريجيا إلى أعضل النقائص؛ كما لو ان النفس الإبداعي ينطلق من قوة الرب الساطعة اللامتناهية والمكثفة، حتى أنه يبدو من بياض حميانه ليلا مظلماً، ويسقط تدريجيا من الكمال النسبي كمال الكروبيين والساروفيميين، وعبر

كمال العروش والسلطان، إلى أحطّ الحثالة حيث تزحف الديدان وتعيش الحجرة الفاقدة الحسّ، على حدود اللاشيء. «كانت هذه الـ! Offenbarung gottlicher Mayestat»

وحتى إن نشأت في اليوم الثالث الأعشاب والأشجار والمراعي، فلأن الكتاب المقدس لا يتحدّث بعد عن المناظر التي تخلب أنظارنا، بل عن قوة نباتيّة مظلمة، ازدواج منويّ، انتفاضة جذور متألمة وملتوية تبحث عن الشمس، الاّ انها، في اليوم الثالث لم تنشأ بعد.

الحياة تنشأ في اليوم الرابع، عندما تخلق الشمس والقمر والنجوم، لإنارة الأرض ولفصل النهار عن الليل، بالمعنى الذي نفهمه نحن عندما نحسب مرور الزمن. وفي ذلك النهار تنتظم دائرة السماوات، من «المتحرّك الأول» ومن النجوم الثابتة إلى القمر، والأرض في الوسط، حجارة صلبة لا يضيئها الا قليلا نور الكوكبين، وحولها قلادة من الأحجار الثمينة.

الشمس والقمر، اللذان يحدّدان نهارنا وليلنا، كانا أوّل ساعة والمثال الذي لن تفوقه جميع الساعات الآتية، التي لا تعدو ان تكون قردة تحاكي السماء، ترسم الزمن البشري على الميناء البروجي، زمن لا صلة له البتة بالزمن الكوني: له اتجاه، ونبض مضطرب مصنوع من الأمس واليوم والغد، لا نبض السرمدية الهادىء.

لنتوقّف إذن عند هذا اليوم الرابع، كان الأب كسبار يقول: الربّ يخلق الشمس، وعندما تنشأ الشمس ـ لا قبل ذلك، بطبيعة الحال ـ تبدأ في تحرّكها. حسن، في تلك اللحظة التي تبدأ فيها الشمس دورانها لكي لا تتوقف أبدا، في ذلك الـBlitz، في ذلك الوميض الخاطف قبل ان تحرّك الخطوة الأولى، تجد نفسها شاقولياً على خط معيّن يقسم الأرض عموديا إلى شطرين.

ـ «وخط الزوال الأول هو الذي كان فيه منتصف النهار فجأة!» قاطعه روبارتو معلقا وقد ظن انه فهم كل شيء.

ولكن استاذه عارضه قائلا: «Nein!، أتظن ان الربّ غبيّ مثلك؟ كيف يمكن أن يبدأ اليوم الأول من التكوين عند منتصف النهار؟ أتبدأ أنت، في أول desz Heyls، التكوين بيوم ناقص، بـLeibesfrucht، جنين يوم شمسي ذي اثنتي عشرة ساعة؟»

دون شكّ لا. على الهاجرة الأولى تبدأ رحلة الشمس على ضوء النجوم، عند منتصف الليل وبضع لحظات، وقبل ذلك كان اللازمن.على تلك الهاجرة بدأ ـ أثناء الليل ـ اليوم الأول من التكوين.

فعارضه روبارتو قائلا إنه، إن كان الوقت على تلك الهاجرة ليلا، فهناك يوم آخر منقوص ظهر في الناحية الأخرى حيث أضاءت الشمس فجأة الأرض، دون ان يكون قبل ذلك لا ليلا ولا شيئا آخر، وإنما فقط سديما معتما دون زمن. وأجاب الأب كسبار قائلا إن الكتاب المقدّس لا يذكر ان الشمس ظهرت فجأة بطريقة سحرية، وتروق له فكرة (كما يفرضه المنطق الطبيعي والإلهي) ان الربّ خلق الشمس وجعلها تسبح في السماء، في الساعات الأولى، مثل نجمة منطفئة، ستشتعل خطوة بعد خطوة على مدى رحلتها من الهاجرة الأولى إلى متقاطراتها. ربما اشتعلت الشمس شيئا فشيئا، مثل حطب أخضر مسّته شرارة أولى، في البداية يبعث دخانا خفيفا، ثمّ يحرّضه النفخ فتنطلق منه طقطقة وأخيرا تخرج منه نار عالية وحامية. أليس جميلا ان نتصوّر أب الكون وهو ينفخ على تلك الكرة التي لا تزال بعد خضراء، ويجعلها تنشد عظمته، بعد اثنتي عشرة ساعة من ولادة الزمن، وبالضبط على الهاجرة المتقاطرة التي يجدان نفسيهما عليها في تلك الآونة؟

بقي ان يحدّد موضع الهاجرة الأولى. والأب كسبار اعترف ان هاجرة جزر الحديد تبقى المؤهلة أكثر من غيرها، بما أن ـ وقد سبق أن عرف روبارتو ذلك من الدكتور بيرد ـ إبرة البوصلة هناك لا تحيد، وذلك الخط يمرّ قريبا جدا من القطب حيث توجد أعلى جبال الحديد. وهذا دون شك دليل على الثبات.

إذن، كي نلخّص، إن قبلنا ان الأب كسبار انطلق من تلك الهاجرة، وانه وجد خط الطول الصحيح، يكفي ان نعترف انه كرحّالة أصاب في رسم الطريق، ولكنه أخفق كجغرافيّ: لم تكن دافني في جزر سليمان ولكن في مكان ما غربي «إيبريد الجديدة»، والسلام. إلاّ أنه يؤسفني ان أقصّ رواية يجب أن تدور أحداثها، كما سنرى، على الهاجرة المائة والثمانين ـ وإلاّ فقدت كلّ نكهة ـ وأن أقبل على العكس ان تدور لا أدري على كم درجة من هنا أو من هناك.

سأحاول إذن ان اقوم بافتراض وأتحدّى أي قارىء ان يتحدّاه. لقد أخطأ الأب كسبار إلى حدّ انه وجد نفسه دون ان يدري، على خط الطول المائة والثمانين الذي هو خطّنا، وأتحدّث عن ذلك الذي نحسبه انطلاقا من غرينتش ـ آخر نقطة انطلاق في العالم يمكن ان تمرّ بباله، لأنها أرض منشقّين أعداء البابا.

في تلك الحالة توجد دافني في جزر «فيجي» (حيث الأهالي فعلا شديدو السّواد)، وبالضبط في النقطة التي يمرّ منها اليوم خط الطول المائة والثمانون، أي في جزيرة «تافوني».

وأقول ان الحسابات تتطابق شيئا ما. فشكل جزيرة «تافوني» يظهر سلسلة بركانية، مثل الجزيرة الكبرى التي كان روبارتو يراها على الغرب. الا ان الأب كسبار قال لروبارتو ان الخط المحتوم يمرّ أمام جون الجزيرة بالذات. الآن، إن كان خط الطول على شرقينا، فتكون «تافوني» إذن في الجهة الشرقية، لا الغربية؛ وان كانت هناك جزيرة في الجهة الغربية تبدو وانها تتطابق مع اوصاف روبارتو، فلدينا إذن بكل تأكيد في الجهة الشرقية جزر أصغر (أميل إلى التخمين بأنها جزيرة «كاميا")، ولكن في هذه الحال يمرّ خط الطول وراء ظهر الناظر إلى الجزيرة التي تعنينا في هذه الرواية.

الحقيقة انه بالمعطيات التي يوفرها لنا روبارتو ليس من الممكن ان

نحقّق اين انتهى المطاف بدافني. ثمّ، كلّ تلك الجزر الصغيرة هي مثل اليابانيين بالنسبة للأوروبيين والعكس: تتشابه جميعها. أردت فقط ان اقوم بمحاولة. يعجبني ان أعيد يوما رحلة روبارتو، مقتفيا آثاره. ولكن جغرافيّتي أنا شيء وقصّته هو شيء آخر.

عزاؤنا الوحيد هو ان جميع هذه الدقائق لا أهميّة لها البتّة من حيث تأثيرها على روايتنا المضطربة. ما قاله الأب واندراردروسّال لروبارتو هو انهما يوجدان على خط الطول المائة والثمانين والذي هو متقاطر المتقاطرات، وهنالك على الخط المائة والثمانين لا توجد جزرنا «سليمان»، بل جزيرته «سليمان». ماذا يهمّ بعد كلّ هذا ان كانت هناك ام لا؟ هذه ربما قصّة شخصين يظنان انهما يوجدان فيها، لا أنهما يوجدان فعلا فيها، وعندما يصغي المرء إلى حكايات ـ وهذه من اكبر العقائد حريّة ـ يجب ان ينزع عنه الشكّ.

ولذا: توجد دافني أمام خط الطول المائة والثمانين، أمام جزر سليمان بالذات، وجزيرتنا كانت ـ من بين جزر سليمان ـ أكثرها سليمانية، كما ان حكمي سليماني، وبه حسمنا الأمر حسما نهائيا.

«والآن؟» سأله روبارتو بعد كلّ تلك الشروح «أتظن حقا أنك ستجد على تلك الجزيرة كلّ الثروات التي تحدّث عنها مندانيا؟»

«ولكن هذه هي Lugen der spanischen Monarchy! إننا نجد نفسينا أمام اكبر معجزة في تاريخ الإنسانية المقدس، لا تقدر بعد على فهم كنهها! في باريس كنت تنظر إلى السيّدات وتتبع la ratio studiorum الأبيقورية، عوض ان تفكّر في معجزات كوننا العظيمة، ليكن اسم خالقه المقدّس محمودا دائما وأبدا!»

إذن، كانت الأسباب التي أبحر من أجلها الأب كسبار تختلف تماما عن نوايا النهب التي كانت تحرّك رحّالة البلدان الأخرى. لقد بدأ كلّ هذا لأن الأب كسبار كان بصدد كتابة عمل عظيم حول الطوفان، عمل سيكتب له الخلود أكثر من البرونز.

كرجل كنيسة، كان يريد ان يبيّن ان الكتاب المقدّس لم يكذب، ولكن كرجل علم كان يريد ان تتطابق التعاليم المقدسة مع نتائج الأبحاث في عصره. ولذا جمع الأحفوريات، وارتاد بلدان الشرق بحثا عن أشياء فوق قمّة جبل أرارات، وقام بحسابات دقيقة جدا لتقدير حجم سفينة نوح، وما يجعلها تحمل ذلك العدد من الحيوان (تصوّر، سبعة أزواج من كلّ نوع)، وفي نفس الوقت ما يجعلها تحافظ على التوازن بين الجزء العائم والجزء المغمور، حتى لا تنتهي في القاع تحت كلّ ذلك الوزن أو ان تنقلب بفعل الأمواج، التي أثناء الطوفان، لا يمكن ان تكون هيّنة الأمر.

وقام برسم سريع ليظهر لروبارتو مقطع السفينة، مثل بناية كبيرة مربّعة ذات ستّة طوابق، الطيور في أعلاها لتصلها أشعة الشمس، والثدييات في أقفاص يمكن ان تؤوي من القطط الصغيرة حتى الفيلة، والزواحف في شبه فنطاس، حيث تتمكن القوازب من ايجاد مأوى وسط الماء. ليس هناك مكان للحيوانات العملاقة، وهذا ما يفسّر انقراضها. وأخيرا لم يهتمّ نوح بأمر الأسماك، اذ كانت الوحيدة من بين الأجناس التي لا تخشى الطوفان.

الاّ أنه، أثناء دراسته للطوفان، اعترضت الأب كسبار معضلة فيزيائية ـ هيدروديناميكية تبدو ظاهريا دون حلّ. يقول الكتاب المقدس ان الرب أمطر على الأرض مدّة أربعين يوما وأربعين ليلة، وارتفعت المياه على سطح الأرض إلى ان غطّت حتى أعلى الجبال بل وتوقّفت عندما بلغت خمسة عشر ذراعا فوق أعلى القمم، وهكذا غطّت المياه الأرض مدّة مائة وخمسين يوما. حسنا جدا.

ـ «ولكن هل حاولت أنت ان تجمع ماء المطر؟ عندما تمطر مدّة يوم كامل لا تحصل الاّ على قدر ضئيل في قاع برميل! وعندما تمطر أسبوعا كاملا لا يكاد يمتلىء البرميل! وتصوّر إن أردت مطرا ungeheuere، لا تستطيع ان تبقى تحتها، وان السماء كلّها تصبّ فوق

دماغك المسكين، مطر أكبر من الزوبعة التي أغرقتك... في أربعين يوما ist das unmoglich، ليس من الممكن ان تملأ الأرض كلّها حتى تغطّى أعلى الجبال!»

ـ «تريد أن تقول ان الكتاب المقدّس لم يصدق؟»

- «!Nein بكلّ تأكيد لا! ولكن يجب ان أبيّن من اين جلب الربّ كلّ تلك المياه، لأنه يستحيل ان يكون أسقطها من السماء! لأنها لا تكفي!»

ـ «وإذن؟»

ـ «وإذن dumm bin ich nicht، غبيّ أنا أليس كذلك! لقد فكّرت في شيء لم يسبق ان فكّر فيه أي بشر آخر قبل الآن. قبل كلّ شيء قرأت الكتاب المقدس قراءة جيّدة، عندما يقول إن الرب فتح طاقات السماء، هذا صحيح، ولكنه يقول أيضاً إنه فجّر كلّ الـ Quellen، وFontes Abyssy Magnae، كلّ ينابيع الغمر العظيم، تكوين واحد سبعة أحد عشر.بعد ان انتهى الطوفان سدّ الربّ ينابيع الغمر، تكوين واحد ثمانية اثنان! ماذا تكون ينابيع الغمر هذه؟»

ـ «ماذا تكون؟»

ـ «إنها المياه التي توجد في قاع البحار! إن الربّ لم يأخذ ماء المطر فحسب بل وأيضا المياه الموجودة في الأعماق وصبّها كلّها على الأرض! وأخذها من هنا، لأنه ان كانت أعلى الجبال توجد حول خط الطول الأساسي، بين بيت المقدس وجزيرة الحديد، فبالضرورة تكون الأغمار البحرية الأكثر عمقا هنا، على مقابل خط الطول، لأسباب توازنية».

ـ «هذا صحيح، ولكن جميع مياه البحار لا تكفي لتغطية الجبال، وإلاّ فعلت ذلك دائما. وإن صبّ الربّ مياه البحر على الأرض، فسيغطّي الأرض ولكنه سيفرغ البحر، وسيصير البحر حفرة كبيرة، وسيسقط فيها نوح بكلّ السفينة..».

ـ «إنك تقول صوابا وأكثر من الصواب. ليس هذا فحسب: لو أخذ الربّ جميع مياه الأرض المجهولة وتلك المياه صبّها على الأرض المعروفة، بدون ذلك الماء في هذا النصف من الأرض، فسيتغيّر Zentrum Cravitatis للأرض وستنقلب كلّها، وربما قفزت في السماء مثل كرة أصبتها بركلة».

ـ «إذن؟»

ـ «إذن فكّر أنت ماذا يمكن أن تفعل لو كنت أنت مكان الربّ».

أعجبت اللعبة روبارتو فقال: «لو كنت أنا مكان الرب،» ولو أنني أعتقد انه لم يعد يصرف الأفعال كما يريد ربّ اللغة الإيطالية، «فأنا أخلق ماء جديدا».

ـ «أنت نعم، أمّا الربّ فلا. الرب يقدر على خلق الماء من لا شيء، ولكن اين يضع الماء بعد الطوفان؟»

ـ «إذن احتفظ الربّ منذ البدء بكميّة كبيرة من الماء تحت الغمر، وأخفاها في وسط الأرض، ثم أخرجها في تلك المناسبة، لأربعين يوما فحسب، كما لو كانت تنبع من البراكين. هذا دون شك ما كان الكتاب المقدس يعنيه عندما يقول ان الرب فجّر ينابيع الغمر العظيم».

ـ «أتظنّ ذلك؟ ولكن من البراكين تخرج النار. مركز الأرض كلّه، قلب الـMundus Subterraneus، هو كتلة من نار! إن كانت النار تحتلّ مركز الأرض، فلا يمكن ان يكون فيه ماء! لو كان فيه الماء لكانت البراكين ينابيعَ».

ولكن روبارتو لم يستسلم: «اذن، لو كنت أنا الرب، فسآخذ الماء من عالم آخر، بما ان العوالم لانهائية، وأصبّه على الأرض».

ـ «أنت أصغيت في باريس إلى أولئك الهراطقة الذين يتحدّثون عن عوالم لانهائية. ولكن الرب خلق عالما واحدا، وهو يكفي للإنشاد

بعظمته.كلاّ، فكّر جيّدا، إن لم تكن لديك عوالم لانهائية، وليس لديك وقت لخلقها فقط للطوفان لتلقي بها بعد ذلك في اللاشيء، ماذا ستفعل؟»

ـ «عند هذا الحدّ، حقيقة لا أدري.»

ـ «لأن عقلك صغير».

ـ «ربّما عقلي صغير».

ـ «نعم، وصغير جدا. فكّر الآن. لو يأخذ الرب الماء الذي كان بالأمس على الأرض ويصبّه اليوم، وغدا يأخذ الماء الذي يوجد اليوم، واذا به الضعف، ويصبّه بعد غد، وهكذا ad infinitum، ربما يأتي يوم يقدر فيه على ان يملأ كوكبنا كله، إلى ان يغطي جميع الجبال؟»

ـ «لست بارعا في الحساب، ولكنني أظن انه في وقت من الأوقات سينجح في مسعاه».

- «Ja! في أربعين يوما يملأ الأرض بأربعين مرّة مقدار المياه الموجودة في البحار، وان أنت حسبت اربعين مرة عمق البحار، فأنت تغطي حتما الجبال: فالبحار أكثر عمقا بكثير، أو عميقة بقدر ما الجبال مرتفعة».

ـ «ولكن من اين يأخذ الربّ ماء الأمس، ان كان الأمس قد مضى؟»

ـ «ولكن من هنا! اصغ اليّ. فكّر أنك على خط الطول الأساسي. أتستطيع ذلك؟»

ـ «أستطيع».

ـ «الآن تصوّر انه هناك منتصف النهار، ولنقل انه منتصف نهار الخميس المقدّس. ما تكون الساعة في بيت المقدس؟»

- «بعد كلّ ما تعلّمته عن مسار الشمس وعن خطوط الطول، تكون الشمس في بيت المقدس قد مرّت منذ مدّة على خط الطول والمساء قد تقدّم. فهمت اين تريد ان تحملني. ليكن: على خطّ الطول الأساسي منتصف النهار وعلى خط الطول المائة والثمانين منتصف الليل، بما ان الشمس قد غربت منذ اثنتي عشرة ساعة».

- «Gut. إذن هنا منتصف الليل، وإذن نهاية الخميس المقدس. ماذا يحدث هنا فورا بعد ذلك؟»

- «تبدأ الساعات الأولى من يوم الجمعة المقدّس».

- «لا على خطّ الطول الأساسي؟»

- «لا، هنالك لا يزال مساء الخميس المقدس».

- «Wunderbar. إذن هنا نحن في يوم الجمعة وهنالك لا يزال يوم الخميس، أليس كذلك؟ ولكن عندما يصير على خطّ الطول الأساسي يوم الجمعة، هنا يكون السّبت ويكون المسيح قد بعث، اليس كذلك؟»

- «نعم، هذا صحيح، ولكنني لا أفهم..».

- «ستفهم الآن. عندما يكون الوقت هنا منتصف الليل ودقيقة، وجزء ضئيل جدا من دقيقة، أنت تقول ان الوقت هنا هو يوم الجمعة؟»

- «نعم، دون شكّ».

- «ولكن فكّر لو كنت في نفس تلك الآونة لا هنا على السفينة بل على تلك الجزيرة التي تشاهدها، على شرق خط الطول. أيمكنك ان تقول ان هناك هو يوم الجمعة؟»

- «كلاّ، هناك لا يزال يوم الخميس. إنه منتصف الليل الاّ دقيقة، الاّ لحظة، من يوم الخميس».

- «!Gut في نفس الوقت هنا هو يوم الجمعة وهناك هو يوم الخميس!»

«بكلّ تأكيد و...،» وهنا توقف روبارتو وقد صعقته فكرة. «بل وأكثر! أنت جعلتني أفهم انه لو كنت في نفس تلك اللحظة على خط الطول سيكون منتصف الليل بالضبط، ولكنني لو نظرت إلى الغرب لرأيت منتصف الليل من يوم الجمعة ولو نظرت إلى الشرق لرأيت منتصف الليل من يوم الخميس. يا إلهي!»

- «لا تذكر اسم الإله دون سبب، bitte»

- «اعذرني ايها الأب، ولكنها معجزة!»

- «وإذن أمام معجزة لا تذكر اسم الربّ دون جدوى! قل مثلا واعجباه. ولكن المعجزة الكبرى هي انه ليست هناك معجزة! كلّ شيء كان مقدّرا ! ab initio إن كانت الشمس تقضي أربعا وعشرين ساعة لإتمام دورة حول الأرض، يبدأ من غربيّ خط الطول المائة والثمانين يوم جديد، وفي شرقيّه لا يزال لدينا اليوم المنصرم. منتصف ليل الجمعة هنا على السفينة هو منتصف ليل الخميس على الجزيرة. أنت لا تعرف ماذا حدث لنوتيّة ماجلاّن عندما انهوا طوافهم حول العالم، مثل ما روى بيترو مارتيري؟ عندما عادوا كانوا يظنون انهم قبل بيوم بينما كانوا بعد بيوم، وكانوا يظنون ان الرب عاقبهم وحذف لهم يوما لأنهم لم يصوموا يوم الجمعة المقدس. ولكن كلّ شيء كان طبيعيا: كانوا يسافرون نحو الغرب. عندما تسافر من أمريكا نحو آسيا تخسر يوما، وفي الاتجاه المعاكس، تربح يوما: ولهذا السبب اتخذت دافني طريق آسيا، بينما أنتم الأغبياء اتخذتم طريق أمريكا. أنت الآن أكبر مني بيوم! ألا يضحكك هذا؟»

فقال روبارتو: «ولكنني لو رجعت إلى الجزيرة لصرت أصغر بيوم»!

ـ «أردت فقط ان ألعب قليلا معك. أنا لا يهمّني إن كنت أصغر مني أو أكبر. ما يهمّني هو انه في هذه النقطة من الأرض يوجد خطّ، في هذه الجهة منه هو بعد بيوم، وفي تلك الجهة قبل بيوم. وليس فقط عند منتصف الليل، ولكن حتى في السابعة، وفي العاشرة، وفي كلّ ساعة! كان الربّ يأخذ إذن من هذا الغمر ماء الأمس (الذي تراه هنالك) ويصبّه على عالم اليوم، واليوم الموالي نفس الشيء إلى آخره! Sine miraculo, naturaliter ! لقد جعل الربّ من الطبيعة ساعة عظيمة! كما لو كان لي ساعة لا تشير إلى الثانية عشرة بل إلى الساعة الرابعة والعشرين. وفي تلك الساعة تتحرّك العقارب أو تشير نحو الرابعة والعشرين، وعلى اليمين هي الرابعة والعشرون من الأمس وعلى اليسار من اليوم!»

ـ «ولكن كيف تفعل أرض الأمس لتبقى ثابتة في السماء، ان فرغ نصفها هذا من كل مائه؟ الا تفقد الـ Centrum Gravitatis؟»

ـ «أنت تفكّر حسب المفهوم الإنساني للزمن. بالنسبة الينا نحن البشر ما هو أمس لم يعد وما هو غد لم يأت بعد Tempus Dei, quod dicitur Aevum، مختلف جدا».

كان روبارتو يفكّر انه لو أخذ الربّ ماء الأمس ووضعه اليوم، ربّما ارتجّت الأرض بفعل مركز الثقل اللعين، ولكن ذلك لا يمكن ان يهمّ البشر: في أمسهم لم تحدث الرجّة، وإنما حدثت في أمس الإله، الذي كان من الواضح قادرا على تحريك أزمنة مختلفة وحكايات مختلفة، مثل قصّاص يقصّ روايات مختلفة، بنفس الشخصيات، ولكنه يجعلهم يعيشون أحداثا مختلفة من قصّة إلى أخرى. كما لو كانت هناك «أنشودة رولان»، حيث رولان يموت تحت شجرة صنوبر، وأخرى حيث يصبح ملك فرنسا عند وفاة شارل، مستعملا جلد غانيلّون كبساط. وهي فكرة، كما سيذكر، سترافقه حينا طويلا، وستقنعه انه ليس فقط يمكن ان تكون العوالم لانهائية في المكان، ولكنها متوازية أيضاً في الزمان. ولكنه كان لا يريد أن يقول ذلك للأب كسبار، الذي كان يجد فكرة العوالم الكثيرة

الموجودة جميعها في نفس المكان هرطيقية جدا ومن يدري ماذا سيكون ردّه على فكرته تلك. اكتفى إذن بأن سأل كيف فعل الربّ لنقل كلّ تلك المياه من الأمس إلى اليوم.

- «عن طريق هيجان البراكين الموجودة في قاع البحر، naturalich! هل فهمت؟ البراكين تنفخ رياحا نارية، وماذا يحدث عندما تغلي قدر من الحليب؟ الحليب ينتفخ، ويعلو، ثم يخرج من القدر ويسيل على الموقد! ولكن في ذلك الزمان لم يكن حليبا، بل ماء فائرا! كارثة عظيمة!»

- «وكيف رفع الربّ كلّ تلك المياه بعد الأربعين يوما؟»

- «إن كفّ المطر فلا بدّ ان تكون هناك الشمس، وإذن تبخّرت المياه شيئا فشيئا. يقول الكتاب المقدّس انه لزمت لذلك مائة وخمسون يوما. أنت تغسل جبّتك وتجفّفها في يوم واحد، إذن يمكنك ان تجفّف الأرض في مائة وخمسين يوما. ثمّ هناك كميّة كبيرة من المياه انحسرت في بحيرات عظيمة تحت الأرض، ولا تزال إلى الآن منحصرة بين سطح الأرض والنار الداخلية».

فقال روبارتو: «لقد أقنعتني أو كدت»، وما كان يهمّه كيف تحرّكت تلك المياه بقدر ما كان يشعر به وهو يجد نفسه على بعد خطوتين من الأمس. «ولكن بوصولك هنا ماذا بيّنت خلاف ما بيّنته قبل ذلك بنور العقل؟»

- «اترك نور العقل للاهوتية العتيقة. اليوم يريد العلم بيّنة التجربة. وبيّنة التجربة هي أنني هنا. ثمّ قبل أن أصل إلى هنا قمت بأسبار كثيرة، وأعرف مدى عمق البحر في هذه الجهات».

وترك الأب كسبار شروحه الجغرافية ـ الكونية وأسهب في وصف الطوفان. كان يتحدّث لاتينيّته العلميّة، وهو يحرّك ذراعيه مستحضرا أهمّ العناصر السماويّة والجحيمية، متنقّلا بخطا واسعة على سطح السفينة.

وفعل ذلك بالذات بينما كانت السماء في ذلك الخليج تسودّ بغيوم تنبىء بزوبعة فجائية كما يحدث فقط في البحر الاستوائي. الآن وقد فجّرت ينابيع الغمر وفتحت طاقات السماء، يا للمشهد الرهيب والرائع الذي تجلّى لنوح ولعائلته!

في البداية لجأ البشر إلى السطوح، ولكن ديارهم حملتها الأمواج الآتية من المتقاطرات بقوة الرياح الإلهية التي رفعتها ودفعتها؛ فتسلقوا الأشجار ولكن هذه اقتلعت كما لو كانت قشّا؛ رأوا قمم بعض أشجار البلوط العتيقة جدا فتشبثوا بها ولكن الرياح العاصفة انتزعتهم منها. الآن في البحر الذي اصبح يغطي السهول والجبال صرت ترى الجثث المنتفخة تطفو على السطح وقد اتّخذت منها الطيور القليلة المتبقية والمذعورة شبه عشّ فظيع، ولكنها سرعان ما فقدت هذا الملجأ الأخير، واستسلمت منهكة وقد ثقل ريشها بالماء وتعبت أجنحتها. «آه، horrenda justitiae divinae spectacula،» كان الأب كسبار يهتف، وهذا لا شيء ـ كان يؤكد ـ مقارنة بما سيشهد الإنسان يوم يعود المسيح ليحاسب الأحياء والأموات...

وعلى صخب الطبيعة العظيم كانت تجيب حيوانات السفينة، الذئاب تردّ على عويل الرياح، والأسود تجيب على زئير الرعود، وصأي الفيلة يتجاوب مع ارتجاف الصاعقة، ونباح الكلاب يردّ على اصوات رفاقهم المحتضرين، والنعاج تبكي لبكاء الأطفال، والغربان تنعق مع نقيق المطر على سقف السفينة، والثيران تخور مع هدير الأمواج، وجميع كائنات الأرض والسماء تشارك بصأيها الفاجع ومُوائها الحزين في حداد الكوكب.

الاّ انّه في تلك المناسبة بالذات، كان الأب كسبار يؤكد، استرجع نوح وعائلته اللغة التي تكلّمها آدم في عدن، والتي نسيها أبناؤه بعد طردهم، والتي كاد نسل نوح ان يفقدها تماما يوم البلبلة البابلية العظيمة، إلاّ أبناء غومار الذين حملوها معهم إلى غابات الشمال، حيث

احتفظ بها الشعب الألماني بأمانة. اللغة الألمانية فقط ـ والآن صار الأب كسبار يصيح بانخطاف في لغته الأمّ ـ «redet mit der Zunge, donnert mit dem Himmel, blitzet mit den schnellen Wolken»، أي، كما واصل بعد ذلك بابتكار، مازجا الأصوات الخشنة من لهجات مختلفة، اللغة الألمانية هي الوحيدة التي تتكلّم لغة الطبيعة، «وتتبلتز مع السحب، وتتبرّم مع الأيل، وتتكرنتز مع السكواين، وتسزكي مع الأنقليس، وتمعوي مع القط، وتسكنتر مع النساركل، وتكوكك مع البطّ، وتقاقي مع الدجاج، وتتكلبر مع اللقلق، وتتكارك مع الغراب، وتسغوّير مع الخطاف!» وفي النهاية جفّ حلقه من كثرة بابليّته، واقتنع روبارتو ان لغة آدم الحقيقية، التي استعادها الإنسان بعد الطوفان، لا تنبت جذورها الا في أرض الإمبراطور الروماني المقدس.

وانهى رجل الدين استشهاده وهو ينضح عرقا. والسّماء، كما لو أخافتها عواقب الطوفان، ردّت إلى الوراء الزوبعة، مثل عطاس كان على وشك ان ينطلق ثمّ انحبس في شبه نخير.

22

الحمامة البرتقالية اللون

في الأيام الموالية بات واضحا ان المرصد المالطي لا يمكن الوصول اليه، لأن الأب وانداردروسال هو الآخر لا يعرف السباحة. كان الزورق لا يزال هناك، في الجون الصغير، ولا فائدة إذن من وجوده.

الآن وقد أصبح لديه رجل شابّ وقويّ، كان بإمكان الأب كسبار ان يصنع طوفا ذا مجذاف كبير ولكن، كما فسّر سابقا، الموادّ والآلات بقيت فوق الجزيرة. بدون فأس لا يمكن قطع الصواري أو الدواقل، ودون مطرقة لا يمكن ان يخلع الأبواب، وأن يدقّها إلى بعضها البعض بالمسامير.

ومن ناحية أخرى كان الأب كسبار لا يبدو منشغلا كثيرا لذلك المكوث الذي طال، بل وانشرح لأنه تمكن من جديد من استعمال حجرته، وسطح السفينة وبعض الآلات لمواصلة أبحاثه وأرصاده.

كان روبارتو لا يزال يتساءل من يكون الأب كسبار واندارودروسال. أهو حكيم؟ دون شك، أو على الأقل هو عالم، محبّ للمعرفة سواء كانت طبيعية أو إلهية. أهو متحمّس؟ دون شكّ. فقد لمّح مرّة إلى ان تلك السفينة جهّزت لا على نفقة الرهبانية بل على نفقته هو، أو بالأحرى على نفقة أخيه، تاجر ثريّ ومجنون مثله؛ وفي مناسبة أخرى

ترك العنان لنفسه يشتكي من بعض رفاقه في الرهبانية يبدو انهم «سرقوا منه العديد من الأفكار القيّمة جدا» بعد ان تظاهروا برفضها مدّعين انها هراء. ممّا يوحي بأن أولئك الآباء المبجلين كانوا لا يأسفون لسفر ذلك الرجل السفسطائي، وبما أنه يسافر على حسابه الخاص، وأن هناك أملا كبيرا ان يفقد سبيله خلال تلك الطرق الوعرة، فقد شجعوه حتى يتخلّصوا منه.

والمخالطات التي عاشها روبارتو في بروفانسا وفي باريس كانت من نوع جعله يقف الآن متردّدا إزاء التأكيدات في الفيزياء وفي الفلسفة الطبيعية التي كان يسمعها من الشيخ. ولكننا رأينا ان روبارتو شرب العلم الذي عرض عليه كأنه إسفنجة، دون ان يهتمّ كثيرا بعدم الإيمان بحقائق متناقضة. ربما لم يكن ينقصه حبّ المنهج، كان خيارا.

في باريس بدا له العالم مثل ركح تدور عليه مظاهر خادعة، حيث كلّ متفرّج يريد كلّ مساء أن يتبع ويشاهد أحداثا مختلفة، كما لو كانت الأشياء العادية، حتى وإن كانت معجزة، لا تنير أحدا، وفقط تلك المتغيّرة بصفة غريبة أو تلك الغريبة بصفة متغيّرة هي التي تقدر على تحريك عواطفهم. كان القدامى يؤكدون ان لكلّ سؤال جوابا واحدا، بينما المسرح الباريسي العظيم منحه منظر السؤال الذي يجاب عليه بمختلف الطرق. لقد قرّر روبارتو ان يعطي فقط نصف عقله للأشياء التي يؤمن بها (أو يظن أنه يؤمن بها)، ويترك النصف الآخر مفتوحا إذا ما اتضّح ان الحقيقة هي نقيض ذلك.

إن كانت هذه استعدادات فكره فنحن نفهم لماذا لم يكن متحمّسا لرفض ما كان في تأكيدات الأب كسبار قابلا للشكّ. من بين الأشياء التي سمعها كان أغربها تلك التي صارحه بها اليسوعي دون شك. لماذا إذن سيعتبرها كاذبة؟

أتحدى أيّا كان ان يجد نفسه قد نجا من الغرق فوق سفينة

مهجورة، بين السماء والماء في مكان ناءٍ، وان لا يصبح قابلا، في تلك الفاجعة الكبيرة التي حصلت له، ان يحلم ان الحظ كان على الأقلّ معه ورماه في مكان هو في وسط الزمان.

كان بإمكانه إذن ان يتسلّى بمعارضة تلك الحكايات بمختلف الحجج، ولكنه كان في الغالب يفعل ذلك مثل تلاميذ سقراط، الذين يكادون يناشدون إخفاقهم.

ومن ناحية أخرى كيف له ان يرفض علم شخص صار الآن مثل أب، غيّر حاله فجأة من ناج من الغرق مذعور إلى مسافر فوق سفينة فيها أحد يعرفها ويديرها؟ ربما كانت سلطة اللباس الديني، ربما كانت حالة السيّد الآتي من ذلك القصر البحري، ولكن الأب كسبار كان يمثل في عينيه السلطة، وروبارتو عرف من أفكار القرن ما يكفي ليفهم ان القوّة تريد الطاعة، على الأقلّ في الظاهر.

وإذا ما أخذ روبارتو يشكّ في مضيفه، فقد كان هذا الأخير يأخذه في الحال عبر السفينة لاكتشافها من جديد مظهرا له آلات لم ينتبه لوجودها، وبهذه الطريقة كان يعلّمه أشياء جديدة وكثيرة كانت تجدّد ثقته فيه.

أراه مثلا انه توجد على السفينة شباك وصنّارات لصيد الأسماك. كانت دافني راسية في مياه وفيرة الأسماك، ولا حاجة بأن يستهلكا الزاد الموجود على السفينة في حين انه بالإمكان الحصول على سمك طازج. وروبارتو، الذي صار يتنقل الآن أثناء النهار بنظاراته السوداء، تعلّم سريعا كيف يرمي الشباك والصنّارة، وبدون صعوبة اصطاد حيوانات ضخمة الحجم حتى انها كادت أكثر من مرّة ان تجذبه معها إلى الماء.

كان يمدّدها على السطح والأب كسبار كان يبدو انه يعرف من كلّ منها طبيعتها وحتى اسمها. هل كان يسمّيها باسمها الطبيعي أم كان يبتدع أسماء حسب هواه، كان روبارتو لا يدري ذلك.

ولئن كانت الأسماك في نصف الكرة التي يعيش عليها رمادية، أو على الأكثر فضيّة لامعة، فإن هذه كانت تبدو زرقاء بزعانف ماراسكية، ذات عذبة في لون الزعفران، أو خرطوم كردينالي. واصطاد مرّة سلّوراً ضخما ذا رأسين محمّلين بعيون، في طرفي جسمه، ولكن الأب كسبار لفت انتباهه إلى ان الرأس الثاني هو في الحقيقة ذنب زيّنته الطبيعة، وعندما يحرّكه الحيوان يفزع أعداءه حتى من الخلف. ومرّة أخرى اصطاد سمكة ذات بطن مبقّع، وخطوط حبر على الظهر، وكلّ ألوان قوس قزح حول العينين، وخرطوم مثل الماعز، إلاّ ان الأب كسبار ألقى بها فورا إلى البحر، اذ كان يعرف (حكايات الرهبان رفاقه، تجربة الرحّالة، أساطير البحّارة؟) أنه أسمّ من بوليطس الموتى.

وعن سمكة أخرى، ذات عين صفراء، وفم منتفخ وأسنان حادّة مثل المسامير، قال الأب كسبار دون تردّد انها من كائنات بلزبوث. وأمر أن تترك على السطح حتى تموت ثم يرمى بها من حيث أتت. هل كان يقول ذلك عن علم تعلّمه أم كان يحكم اعتمادا على المظهر؟ ومن ناحية أخرى كلّ الأسماك التي قال عنها الأب كسبار انها صالحة للأكل تبيّن من بعد انها لذيذة جدا - بل وعن احداها ذهب حتى إلى تأكيد انها ألذّ مسلوقة ممّا لو كانت مشوية.

وفي كشفه لروبارتو عن أسرار ذلك البحر السليماني، كان اليسوعي أكثر دقّة في إعطاء معلومات عن الجزيرة، التي كانت دافني قد طافت بها، إبّان وصولها. نحو الشرق كانت لها شواطىء صغيرة، ولكنها معرّضة كثيرا للرياح. فورا بعد المرتفع الجنوبي، حيث، بعد ذلك، بلغوا بالزورق حتى الشاطىء، هناك جون صغير هادىء، إلا أن الماء كان قليل العمق ولا يمكن ان ترسو فيه دافني. والمكان الذي توجد فيه السفينة الآن هو النقطة الملائمة أكثر من غيرها: لو اقتربوا من الجزيرة لتجرّحت السفينة على القاع لقلّة عمقه، ولو ابتعدوا أكثر من ذلك لوجدوا أنفسهم وسط تيّار قويّ، كان يدفع الماء في القناة بين

الجزيرتين من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي؛ وكان من السّهل ان يبيّن ذلك لروبارتو. فقد طلب منه الأب كسبار ان يرمي سمكة بلزيبوت الميتّة بكلّ ما يملك من قوة، نحو البحر في الجهة الغربية، وإذا بجثّة الوحش، طوال الوقت الذي بقيت تطفو فيه، يجذبها بقوّة ذلك المدّ الخفيّ.

واكتشف كلّ من الأب كسبار والبحّارة الجزيرة، إن لم يكن كلّها فعلى الأقلّ أغلبها: ما يكفي لإعلان ان المرتفع، الذي اختاروه لنصب المرصد، هو الأفضل للإشراف على كلّ تلك الأرض، الفسيحة مثل مدينة روما.

داخل الجزيرة يوجد شلال، ونبات يانع جميل: لا فقط جوز الهند والموز، بل وأيضا بعض الأشجار لها جذوع في شكل نجمة، أطرافها نحيفة مثل حدّ الموسى.

أمّا الحيوانات، فقد رأى روبارتو البعض منها تحت سطح السفينة: كانت الجزيرة فردوس الطيور، وفيها حتى ثعالب تطير. ورأوا في الغابة بعض الخنازير ولكنهم لم ينجحوا في اصطياد واحد منها. وهناك أيضاً ثعابين، ولكن لم يتبيّن أن أحدا منها كان سامّا أو متوحّشا، أمّا أنواع العظايا فقد كانت لا تحصر ولا تعدّ.

إلاّ ان أثرى الأنواع الحيوانية كانت تعيش طول الحاجز المرجاني. سلاحف، سرطان، محار من كلّ شكل، يصعب مقارنتها بما يوجد في بحارنا، كبيرة مثل السلال، مثل القدور، مثل صحون كبيرة، في غالب الأحيان يصعب فتحها، ولكن اذا ما فتحتها تجد بداخلها لحما أبيض، طريّا وسمينا لذيذ الطعم شهيّه. للأسف لا يمكن حملها على السفينة: ما أن تخرج من الماء حتى تفسد بفعل حرارة الشمس.

لم يشاهدوا أيّا كان من الحيوانات العظيمة المفترسة التي تزخر بها أراض أخرى في آسيا، لا فيلة ولا نمور ولا تماسيح. ومن جهة أخرى

لا يوجد أي حيوان شبيه بالبقرة، أو بالثور، أو بالحصان أو بالكلب. كان يبدو ان الكائنات في تلك الأرض لم يصنعها مهندس أو نحات، بل جواهريّ: الطيور كانت مثل البلّور الملوّن، وحيوانات الغاب صغيرة الحجم، والأسماك نحيفة وتكاد تكون شفّافة.

لم يبد لا للأب كسبار ولا للقبطان ولا للنوتية انه في تلك المياه توجد أسماك القرش، التي يمكن رؤيتها من بعيد، بتلك الزعنفة القاطعة مثل الفأس. مع انه في تلك البحار كنت تجدها في جميع الأركان. والفكرة أنه أمام الجزيرة وحولها لا توجد اسماك القرش تبدو لي وهماً تصوّره ذلك المستكشف الغريب الأطوار، أو ربما كان صحيحا ما فسّر به ذلك، من أنه، بما ان هناك تيّارا قوياً في الجهة الغربية، كانت تلك الحيوانات تفضّل البقاء هنالك، لأنه يمكنها ان تعوّل على طعام أوفر. على كلّ حال، كان حسنا بالنسبة لبقيّة القصّة ان لا يخاف الأب كسبار أو روبارتو من حضور أسماك القرش، وإلاّ لما تشجّعا أبدا على النزول في الماء ولعجزت أنا على مواصلة القصّة.

كان روبارتو يستمع إلى ذلك الوصف، ويزداد غرامه بالجزيرة البعيدة، ويحاول ان يتصوّر الشكل، واللون، وحركة الكائنات التي كان يحدِّثه عنها الأب كسبار. والمرجان، كيف كان ذلك المرجان، الذي كان هو لا يعرفه الا كحلي له باستعارة شعرية لون شفتي امرأة حسناء؟

حول المرجان كان الأب كسبار يبقى دون كلام ويكتفي برفع عينيه إلى السماء وعليه سمات الغبطة. ذلك الذي كان يتحدث عنه روبارتو هو المرجان الميت، مثل ما هي ميّتة عفّة اولئك المومسات اللاتي يطبق الفاجرون عليهن تلك المقارنة. وعلى الحاجز يوجد الكثير من ذلك المرجان الميت، وهو الذي يجرح من يلمس تلك الأحجار. ولكنه لا يشبه لا من قريب ولا من بعيد المرجان الحيّ، الذي هو ـ كيف يمكن ان أقول ـ ازهار بحريّة، شقائق وزنابق وجنبات وحوذان وباقات من البنفسج ـ بل ماذا أقول، هذا لا شيء ـ هو حفل من العفص والعنبيّات

والبراعم وأرقطيون رأس الحمامة والفروع والمكّور والليفات ـ لا، لا، هو شيء آخر، متحرّك، ملوّن مثل حدائق أرميدا، ويحاكي جميع نبات الحقول، والبساتين والغابات، من الخيار إلى الفطر البرتقالي إلى السلطة التفاحية...

كان هو قد شاهد منه في بقاع أخرى، بفضل آلة صنعها واحد من زملائه (وبعد ان فتّش في احد الصناديق بحجرته عثر عليها): كانت مثل قناع من الجلد بنظارة كبيرة من الزجاج، والفتحة العليا محاطة ومقوّاة شدّ اليها رباطان بحيث يمكن تثبيتهما حول الرقبة وبهذه الطريقة يلتصق القناع بالوجه، من الجبين إلى الذقن. وباستعمال قارب مسطّح، حتى لا يصدم القاع المرتفع، يحني المستعمل رأسه إلى أن يلمس الماء فيرى القاع ـ بينما لو غطس رأسه عاريا، فعلاوة على الحرق في العينين، فلن يرى شيئا.

كان الأب كسبار يخمّن ان الآلة ـ التي كان يسمّيها Perspicillum، نظارة، أو بالأحرى Persona Vitrea (قناع لا يخفي، بل يكشف) ـ يمكن استعمالها حتى من قبل من يعرف السباحة بين الصخور. وهذا لا يعني ان الماء لن يدخل في نهاية الأمر داخل القناع، ولكن لمدّة قصيرة، بشدّ النفس، يمكن مواصلة النظر. بعد ذلك يجب اخراج الرأس من الماء وإفراغ القناع ثم إعادة العمليّة من جديد.

ـ «لو كنت تعرف السباحة، لأمكنك ان تشاهد كل ذلك في القاع» كان يقول الأب كسبار لروبارتو. وكان روبارتو يقلّد كلامه مجيبا: «لو أنا سبحت لكان صدري مثل القربة!» ولكنّه مع ذلك كان يشتكي من عدم قدرته على ذلك.

وإضافة إلى كلّ هذا، كان يقول الأب كسبار إنه على الجزيرة توجد الحمامة من نار.

فسأله روبارتو: «الحمامة من نار؟ ما هي؟» واللهفة التي صحبت سؤاله كانت تبدو لنا مفرطة. كما لو ان الجزيرة كانت تعده منذ مدّة

طويلة برمز غامض، لم يتجلّ بكل نوره الاّ الآن.

وفسّر له الأب كسبار انه يصعب عليه ان يصف جمال ذلك الطائر، ويجب ان يراه لكي يمكنه الحديث عنه. كان هو قد لمحه بالمنظار يوم وصولهم بالذات. ومن بعيد كان مثل كرة من الذهب المشتعل، أو من النار المذهّبة، من قمّة الأشجار العالية كانت ترشق السماء.وما ان مسّوا اليابسة حتى حاول ان يعرف عنه أكثر، وطلب من النوتية ان يجدوا مكانه.

ودام الترصّد طويلا، إلى ان تعرّفوا على الأشجار التي كان يعيش فيها. كان يطلق صوتاً خاصّاً جداً، شيء يشبه «طق، طق»، مثل الصوت الذي يحدثه اللسان على الحنك. وتبيّن للأب كسبار انه عندما يحاكي ذلك الصوت بفمه وبأصابعه، كان الطائر يجيب، وفي بعض الأحيان لم يخش ان يظهر نفسه وهو يطير من غصن إلى غصن.

وعاد الأب كسبار مرّات عديدة ليترصّده، ولكن بالمنظار، وفي مرّة على الأقلّ تمكّن من ان يراه جيّدا بينما كان الطائر واقفا، دون حراك أو يكاد: كان الرأس زيتونيّا غامقا ـ كلاّ، ربما هليونيا، مثل الساقين ـ والمنقار في لون النبات الطبّي كان يمتدّ، مثل قناع، ليحيط بالعين، التي كانت مثل حبّة الذرة، وحدقتها سوداء لامعة. وكان له بخنق قصير مذهّب مثل طرفي الجناحين، أمّا الجسم، من الصدر إلى طرف ذنبه، حيث كان الريش النحيف جدا يشبه شعر امرأة، فقد كان (كيف أقول؟) ـ لا، أحمر ليس الكلمة الملائمة...

محمرّ، مستحمر، أمغر، أشقر، أصهب، اقحواني، ارجواني، برتقالي، كان يوعز له روبارتوNein, nein . ، كان الأب كسبار يردّ بحدّة. وكان روبارتو يضيف: مثل فراولة، غرنوقي، توتة العليق، وشنة، فجلة، مثل عنبيّة البهجية، مثل بطن السمنة، أو ذيل الحميراء أو عنق ابو الحنّاء... ولكن الأب كسبار كان يقول ويعيد لا، لا، وهو في عراك

مع لغته ولغة الآخرين ليجد العبارات الملائمة: باختصار ـ ولا ندري ان كان الإسهاب من المبلّغ أو من المبلّغ اليه ـ كان يبدو مثل لون النارنج البهيج، أو تفاحة برتقالية، كان شمسا مجنّحة، بإيجاز، عندما تراه في السماء البيضاء كان مثل فجر فجّر على الثلج رمّانة. وعندما يبرق في الشمس كان يفوق الكروب إشعاعا!

هذا الطائر البرتقالي اللون، كان يؤكد الأب كسبار، لا يمكن ان يعيش الاّ في جزيرة سليمان، لأنه موجود في نشيد ذلك الملك حيث يتحدّث عن حمامة ترتفع مثل الفجر، ساطعة مثل الشمس، terribilis ut castrorum acies ordinata. كانت، مثل ما يقول مزمور آخر، بجناحين في لون الفضّة وبريش له بريق الذهب.

إضافة إلى ذلك الطائر رأى الأب كسبار طائرا آخر يكاد يكون مثله، الا ان ريشه لم يكن برتقاليا بل أزرق مخضرّاً، ومن الكيفية التي كان الاثنان يقفان بها عادة معا على نفس الغصن، يمكن التكهن بأن أحدهما أنثى والآخر ذكر. أمّا كونهما حمامتين فشكلهما يدلّ على ذلك، وكذلك أنينهما المتواصل. من من الإثنين كان الذكر فهذا ما يصعب قوله، ومن ناحية أخرى فقد أمر البحّارة بأن لا يقتلوهما.

وسأل روبارتو كم يمكن ان يوجد على الجزيرة من الحمام. وحسب ما كان يعرف الأب كسبار، الذي رأى في كلّ مرّة كرة واحدة برتقاليّة تشقّ الفضاء نحو السحاب، أو دائما نفس الزوجين بين الأغصان، على الجزيرة يمكن ان تكون هناك حمامتان فقط، وواحدة منهما فحسب في لون البرتقال. وكان هذا افتراضاً يذكي شوق روبارتو لذلك الجمال الفريد ـ الذي، إن كان ينتظره هو، فهو ينتظره دائما منذ اليوم المنصرم.

ومن جهة أخرى، كان يقول الأب كسبار، ان كان روبارتو يريد ذلك فلو بقي ساعات وساعات امام المنظار، فسيتمكن من مشاهدته

حتى ولو بقي على السفينة. على شرط ان ينزع عنه تلك النظارات السوداء. وعندما أجابه روبارتو ان عينيه لا تسمحان له بذلك، ردّ الأب كسبار ببعض الملاحظات المزدرية بخصوص ذلك المرض النسواني، ونصح باستعمال السوائل التي داوى بها دمّله (Spiritus, Olea, Flores).

لا يبدو واضحا ان كان روبارتو قد استعملها، أو انه تمرّن يوما بعد يوم على النظر حوله دون نظارات، في البداية عند الفجر والغروب ثم في وضح النهار، أو انه كان لا يزال يحملها عندما كان يحاول ـ كما سنرى ذلك ـ ان يتعلّم السباحة ولكن الثابت هو أنه منذ هذه الآونة وما بعد لم يذكر عينيه لتعليل تخوفاته أو تملّصاته مهما كان نوعها. وإذن من الجائز ان نخمّن انه شيئا فشيئا، ربما بفعل التأثير الناجع للهواء البلسمي أو لماء البحر، شفي روبارتو من داء، فعليّ أو مزعوم، كان يجعله ذؤوبا منذ أكثر من عشر سنين (هذا ان لم يشأ القارىء ان يلمّح أنني منذ هذه الآونة أريده دائما على سطح السفينة وبما أنني لم أجد بين أوراقه ما يكذب ظني، وبكل غطرسة المؤلف حرّرته من كلّ داء).

ولكن ربما كان روبارتو يريد ان يبرأ ليشاهد الحمامة مهما كلّفه ذلك. ولربما أدّاه الأمر إلى أن يلقي بنفسه من السفينة ليقضي أيامه وهو يترصّد الأشجار، لولا ان شوّشت فكره مسألة أخرى عديمة الحلّ.

بعد أن أتمّ وصفه للجزيرة وثرواتها، لاحظ الأب كسبار ان كلّ هذه الأشياء الجميلة والوافرة لا يمكن ان توجد الاّ هناك على الهاجرة المعاكسة. فسأله روبارتو عندئذ: «ولكن، أيها الأب الجليل، أنت قلت لي ان المرصد المالطي أثبت لك انك توجد على الهاجرة المعاكسة، وأنا أصدّق ذلك. ولكنك لم ترفع مرصدا في كلّ جزيرة اعترضتك أثناء سفرتك، بل في هذه فقط. وإذن كنت متأكدا بطريقة من الطرق، وقبل أن يثبت المرصد لك ذلك، من انك وجدت خط الطول الذي تبحث عنه!»

ـ «إنك تفكّر بطريقة صحيحة جدا. لو جئت إلى هنا دون ان أعرف ان هنا هو هنا، فلن يمكنني ان أعرف أنني هنا...الآن سأشرح لك. بما أنني كنت أعرف ان المرصد هو الآلة الوحيدة الصحيحة، للوصول إلى المكان الذي سأجرب فيه المرصد، كان عليّ ان أستعمل مناهج غالطة. وهذا ما فعلت».

23

آلات مختلفة واصطناعية

بما ان روبارتو كان لا يصدّق ذلك، ويريد ان يعرف ماذا كانت الوسائل المختلفة المستعملة للعثور على خطوط الطول، وإلى أي حدّ كانت عديمة الجدوى، أجابه الأب كسبار أنها غير صحيحة لو أخذت كلّ واحدة على حدة، أما اذا اعتبرناها معا فالنتائج المختلفة تتوازى، وكلّ من احداها تكمل نقائص الأخرى. «وهذه !est mathematica».

صحيح أن ساعة بعد آلاف الأميال لا تعطي بصفة مؤكدة وقت مكان الانطلاق. ولكن ساعات كثيرة ومختلفة، البعض منها صنع بصفة خصوصية ودقيقة، مثل تلك التي اكتشفها روبارتو على دافني؟ أنت تقابل اوقاتها غير الصحيحة، وتقارن يوميا أجوبة بعضها على حكم بعضها الآخر، وها انك تحصل على بعض اليقين.

والمسراع أو مسجّل السرعَة كما يسمّونه؟ تلك المعروفة لا تعطي نتائج، وانظر ماذا صنع الأب كسبار: صندوق، فيه عصاوان عموديتان، احداها تلف والأخرى تحلّ حبلا له طول محدّد يناسب عددا معينا من الأميال؛ والعصا التي تلفّ تحمل شفرات متعدّدة، مثل مروحة طاحونة تدور تحت ضغط نفس الرياح التي تدفع الأشرعة، وتزيد من سرعتها أو تخفّف منها ـ وإذن تزيد أو تنقص من لفّ الحبل ـ حسب القوة والاتجاه

المستقيم أو المنحرف للريح، مسجلا أيضاً المنعرجات الناتجة عن الذبذبة، أو السير عكس اتجاه الريح. وهي طريقة غير تامّة الصحة من بين الطرق، ولكنها طيّبة جدا لو قورنت نتائجها بنتائج كشوفات أخرى.

والخسوفات القمرية؟ من الأكيد ان رصدها في البحر يمكن ان يعطي التباسات لا حدّ لها. ولكن لنر في الأثناء ماذا يمكن القول عن تلك المرصودة على اليابسة؟

ـ «يجب ان تكون لدينا مراصد كثيرة وفي أماكن متعدّدة من العالم، ومتفرّغة للتعاون قصد اكبار قدرة الإله، لا لشتم الآخر أو لعرقلته ولتجريحه. اصغ اليّ: سنة 1612، في الثامن من نوفمبر، في ماكاو، سجّل الأب الجليل يوليوس دي أليسّيس خسوفا من الثامنة والنصف مساء إلى الحادية عشرة والنصف. فبلّغ بذلك الأب الجليل كارولوس سبينولا الذي رصد في نغازاكي، في يابونيا، نفس ذلك الخسوف في التاسعة والنصف من نفس المساء. والأب كريستوفوروس سكنايدا شاهد نفس ذلك الخسوف في انقلستادت في الخامسة مساء. الفارق بساعة يساوي خمس عشرة درجة من الهاجرة، وإذن هذه هي المسافة بين ماكاو ونغازاكي، لا ستّ عشرة درجة وعشرين، كما يقول بلاو Verstanden؟. بطبيعة الحال للقيام بهذه الأرصاد يجب تفادي الضباب الكثيف والتبغ، وان تكون لديك ساعات صحيحة، وان لا يفوتك l'initium totalis immersionis، وان تحسب جيدا المعدّل بين initium et finis eclipsis، وأن تلاحظ الفترات المتوسطة التي تسودّ فيها البقع، إلى آخره. إن كانت الأماكن بعيدة عن بعضها فخطأ خفيف جدا لا يعطي فارقا كبيرا، ولكن ان كانت الأماكن قريبة، فخطأ صغير ببضع دقائق يعطي فارقا كبيرا».

بقطع النظر انه بخصوص ماكاو ونغازاكي يبدو لي ان وجهة نظر بلاو اصوب من وجهة نظر الأب كسبار (وهذا يدلّ على حدّة معضلة

خطوط الطول في ذلك الوقت)، كلّ هذا يبيّن لنا كيف أن اليسوعيين، بجمع وربط المعلومات الآتية من اخوانهم المبشرين، أسّسوا un Horologium Catholicum، الذي لا يعني ساعة مخلصة للبابا، بل ساعة كونية. كان فعلا مثل خارطة نصفي الكرة الأرضية رسمت فوقها جميع مقرات الرهبانية، من روما إلى حدود العالم المعروف، وفي كلّ مقرّ سجّلت الساعة المحليّة. وهكذا، كان يشرح الأب كسبار، لم يكن من اللزوم عليه ان يعتبر الوقت منذ بداية السفرة، بل فقط منذ آخر مرصد مسيحي، والذي كان خط طوله لا يحتمل أي نقاش. وإذن اصبحت حدود الخطأ ضئيلة جداً، وبين محطّة وأخرى يمكن أيضا استعمال وسائل هي في المطلق ليست مضمونة النتائج، مثل تغيّرات الإبرة أو الحساب اعتمادا على البقع القمرية.

لحسن الحظ ان زملاءه كانوا فعلا منتشرين في كلّ الأنحاء تقريبا، من برنامبوك إلى غوا، من مندناو إلى بورتو سان توما وإن منعته الرياح من أن يرسو في أحد المرافىء وجد في الحال مرفأ آخر. مثل ما حدث لهم في ماكاو، آه ماكاو، يكفي ان تمرّ تلك المغامرة بخاطره حتى يفقد الأب كسبار صوابه. كانت مستعمرة برتغالية، وكان الصينيون يسمّون الأوروبيين البشر ذوي الأنوف الطويلة لأن الأوائل الذين نزلوا على سواحلهم كانوا البرتغاليين، الذين لهم فعلا أنوف طويلة جداً، وكذلك اليسوعيين الذين صاحبوهم. وإذن كانت المدينة طوقا واحدا من الحصون البيضاء والزرقاء على الهضبة، يراقبها آباء الرهبانية، الذين كانوا يهتمّون أيضا بالشؤون العسكرية، اذ ان المدينة كانت مهدّدة من قبل الهراطقة الهولنديين.

كان الأب كسبار قد قرّر ان يتجّه نحو ماكاو، حيث كان يعرف زميلا له في الرهبانية متضلّعا في العلوم الفلكية، ولكنه نسي انه كان يركب سفينة من نوع fluyt.

ماذا فعل اولئك الآباء الأجلّة في ماكاو؟ ما أن رأوا في الأفق

سفينة هولندية حتى شغّلوا المدافع والحنشيات. ولم تنفع جهود الأب كسبار وهو يحرّك ذراعيه في مقدمّة السفينة ويرفع شعار الرهبانية نحو اولئك الملاعين ذوي الأنوف الطويلة إخوانه البرتغاليين. في كلّ ذلك الدخان الحربي الذي يدعوهم إلى مجزرة مقدّسة، لم ينتبهوا اليه، وتهاطلت القذائف حول دافني. ورحمة من الإله ان رفعت السفينة أشرعتها، وحوّلت وجهتها وهربت بعناء كبير داخل البحر، مع القبطان الذي كان في لغته اللوثرية يلعن اولئك الرهبان عديمي الرصانة. وهذه المرّة كان هو على حقّ: لا بأس من أن يغرقوا سفينة هولندية، ولكن ليس عندما يكون على متنها يسوعيّ.

لحسن الحظ لم يكن من الصعب العثور على بعثات أخرى غير بعيدة، فتوجّهوا نحو المضيافة أكثر «منداناو». وهكذا محطة بعد محطّة راقبوا جيّدا خط الطول (والله يدري كيف، لأنه بوصولهم على بعد خطوة من أوستراليا فهذا يعني انهم فقدوا جميع مراجعهم).

ـ «والآن يجب ان نقوم بتجربة جديدة، لكي نثبت بصفة جليّة وقاطعة أننا على خط الزوال المائة والثمانين. وإلاّ ظنّ زملائي في المجمع الروماني أنني أبله مجنون».

فسأله روبارتو: «تجارب جديدة؟ ألم تقل لي منذ حين ان المرصد أثبت لك انك توجد على الهاجرة المائة والثمانين وقبالة جزيرة سليمان؟»

وأجاب اليسوعي أن ذلك صحيح، بل وإنه متأكد من ذلك: لقد قابل بين مختلف الوسائل المنقوصة التي وجدها الآخرون، واتفاق مناهج عديدة ضعيفة لا يمكن الاّ ان يعطي اثباتا قويّا، كما يحصل في اثبات وجود الرب عن طريق الـ **consensus gentium**، اذ ان من يؤمن بالربّ عباد كثيرون كلهم بشر ميّالون للخطأ، ولكن من المحال ان يخطئوا جميعهم، من غابات افريقيا إلى صحارى الصين. وهذا ما

يحدث عندما نؤمن بحركة الشمس والقمر والكواكب الأخرى، أو بالقوة الخفية الكامنة في بقلة الخطاطيف، أو بأن مركز الأرض فيه نار تحتية؛ منذ آلاف السنين والإنسان يؤمن بذلك، وبإيمانه بذلك قدر على العيش فوق هذا الكوكب وتحصّل فيه على فؤائد كثيرة من الطريقة التي قرأ بها كتاب الطبيعة العظيم. ولكن اكتشافا عظيما مثل هذا يجب ان تؤكده تجارب أخرى عديدة، حتى لا يبقى للمتشكّكين الا الرضوخ للواقع.

ثم انه لا يجب على الإنسان ان يطلب العلم فقط حبا للعلم، بل ليشرك فيه أمثاله. ولذا، بما ان العثور على الهاجرة الصحيحة تطلّب منه عناء كبيرا، عليه الآن ان يبحث عن تأكيد من خلال مناهج أخرى أيسر، حتى يصبح هذا العلم ثروة يتقاسمها جميع اخواننا، «أو على الأقل إخواننا المسيحيين، بل وأكثر، إخواننا الكاثوليكيين، لأن الهراطقة الهولنديين أو الإنجليز، أو أتعس منهم المرافيين، يكون من الأفضل ان لا يطّلعوا ابدا على هذه الأسرار».

الآن، من بين كلّ الوسائل لأخذ خط الطول، اثنتان تبيّن له انهما اثبت من البقية. الأولى، صالحة على اليابسة، كانت فعلا ذلك الكنز المنهجي الذي هو المرصد المالطي؛ والأخرى، صالحة للرصد في البحر، هي ذلك الـ Instrumentum Arcetricum، الذي لا يزال يقبع تحت سطح السفينة ولم يجرْ بعد استعماله، لأنه كان عليه في البداية ان يتأكّد بواسطة المرصد المالطي من موقعه، ثمّ ان يعاين بواسطة تلك الآلة ان كانت صحيحة، وبعد ذلك يمكنه ان يقول انه متيقن تمام اليقين.

كان على الأب كسبار ان يقوم بتلك التجربة منذ وقت طويل، لولا الأحداث الكثيرة التي وقعت. ولكن آن الأوان، وسيكون ذلك في تلك الليلة بالذات: فالسماء والتقويم الفلكي يقولان انها الليلة الملائمة.

ماذا كان ذلك الـ Instrumentum Arcetricum؟ هي آلة كان قد

صمّمها منذ عدّة سنين قبل ذلك غاليلي ـ ولكن انتبه، صمّمها، تحدّث عنها، وعد بها، لم يصنعها أبدا، قبل ان يقوم بذلك الأب كسبار. وردّ على روبارتو الذي سأله ان كان نفس ذلك الغاليلي الذي قام بتلك الفرضية المرذولة حول حركة الأرض، انه هو نفسه، ولكنه عندما تدخّل في الميتافيزيقية وفي الكتابات المقدّسة قال أشياء مذمومة جداً، ولكنه كميكانيكي كان رجلا نابغة، وعظيما جدا. وعند سؤاله ان لم يكن خطيئة ان يستعمل هو أفكار رجل أدانته الكنيسة، أجاب اليسوعي أنه لإكبار عظمة الإله يمكن ان تشارك حتى أفكار هرطيق، ان كانت في حدّ ذاتها غير هرطيقية. فما القول عن الأب كسبار الذي كان يقبل جميع المناهج الموجودة، دون ان يصدق واحدا منها ولكنه يجلب نفعا من مقابلاتها، كيف لا يستغلّ حتى منهج غاليلي.

بل وأكثر، كان من المفيد بالنسبة إلى العلم وإلى الدين ان يستغلّ في أقرب وقت فكرة غاليلي؛ لأن هذا الأخير حاول ان يبيعها إلى الهولنديين، ومن حسن الحظ ان هؤلاء، مثل الإسبان قبل ذلك ببضع عشرات من السنين، ارتابوا فيه.

كان غاليلي قد استنتج افكارا غريبة من مقدّمة هي في حدّ ذاتها صحيحة جداً، أي ان يأخذ فكرة المنظار المقرّب من الفلمنديين (الذين كانوا يستعملونه فقط لرصد السفن في المرفأ)، وأن يوجّهه نحو السماء. وهنالك، من بين أشياء عديدة أخرى لا يفكّر الأب كسبار حتى في ان يضعها موضع الشك، اكتشف ان المشتري، أو «جيوفي» كما يسمّيه غاليلي، له أربعة كواكب تابعة، كمن يقول أربعة أقمار، لم يسبق ان شاهدها أحد، منذ بدء العالم إلى ذلك الوقت. أربع نجوم صغيرة كانت تطوف به، بينما كان هو يطوف حول الشمس ـ وسنرى كيف أنه بالنسبة للأب كسبار، من المقبول ان يطوف المشتري حول الشمس، على شرط ان تترك الأرض في سلام.

الآن، وقد عرفنا معرفة جيدة ان قمرنا يدخل من حين إلى حين

في خسوف، عندما يمرّ في ظلّ الأرض، كما أنه من المعروف لدى جميع الفلكيين متى ستحدث تلك الخسوفات، كما يدلّ على ذلك التقويم الفلكي، فلا غرابة إذن ان تكون لأقمار المشتري أيضاً خسوفات. بل، على الأقلّ بالنسبة الينا، لها خسوفان، خسوف فعلي وانخساف.

وفعلا يحتجب القمر عن أنظارنا عندما تمرّ الأرض بينه وبين الشمس، ولكن أقمار المشتري تختفي عن انظارنا مرتين، عندما تمرّ وراءه وعندما تمرّ أمامه، فتصبح شيئا واحدا مع نوره، وبمنظار جيّد يمكن تتبّع ظهورها واختفائها. مع ميزة نفيسة جداً، وهي انه، بينما خسوفات القمر تحدث فقط مرّة في الدّهر، وتدوم وقتا طويلا جداً، خسوفات كواكب المشتري كثيرة الوقوع، وهي سريعة جدا.

لنفترض الآن ان الساعة والدقائق لخسوفات كلّ من تلك الأقمار (كلّ منها يسري على مدار مختلف الاتساع) قد تمّ تحديدها بصفة دقيقة على هاجرة معروفة، ويضمن صحتها التقويم الفلكي؛ عند هذا الحدّ يكفي ان تحدّد الساعة والدقيقة التي ظهر فيها الخسوف على الهاجرة (المجهولة) التي يوجد فيها المرء، والحساب يصبح يسيرا، وبالإمكان استنتاج خط طول المكان الذي تمّ فيه الرصد.

صحيح ان هناك عقبات صغيرة، لا جدوى من الحديث عنها إلى جاهل، ولكن العمليّة تنجح لمن كان ماهرا في الحساب، ويكون لديه مقياس للوقت، أعني **un perpendiculum**، أو رقّاص، أو **Horologium Oscillatorium**، لا يهمّ كيف يسمّونه، قادر على الحساب بدقّة مطلقة حتى الفارق بثانية واحدة؛ وكذلك، يكون لديه ساعتان عاديّتان تعطيان بوفاء ساعة ابتداء وانتهاء الظاهرة سواء على هاجرة الرّصد أو على هاجرة جزيرة الحديد؛ كما أنه، بواسطة جدول الجيوب يجب ان يعرف كيف يقيس مقدار الزاوية الناتجة عن الأجرام في العين - وهي زاوية، لو ترجمت كموقع عقربي الساعة، لأعطت بالدقائق والثواني المسافة الفاصلة بين جرمين وتغيّرها المتدرّج.

كلّ هذا، وفي الإعادة إفادة، لا يستقيم الا اذا كان لدينا ذلك التقويم الفلكي الصحيح الذي لم يقدر غاليلي، وقد اصبح شيخا مريضا،على إتمامه،والآن على يد زملاء الأب كسبار،الذين قد برعوا في حساب الخسوفات، تمّ رسمه إلى حدّ الكمال.

ماذا كانت العقبات الكبيرة، التي أثارت منافسو غاليلي؟ أن تلك الأرصاد لا يمكن القيام بها بالعين المجردة وتتطلّب منظارا مقرّبا جيّدا أو راصدة كيفما أرادوا تسميته؟ ولكن الأب كسبار يملك بعضها ومن أفضل ما صنع، ما لا يحلم بها حتى غاليلي نفسه. وهل أن القياس والحساب ليسا في متناول البحّارة؟ ولكن جميع الوسائل الأخرى لحساب خطوط الطول، ما عدا ربّما المسراع، تتطلّب على الأقلّ حضور عالم في الفلك! وإن تعلّم الربابنة استعمال الإسطرلاب، الذي هو أيضاً ليس شيئا في متناول أيّ جاهل، فسيتعلّمون أيضاً استعمال المنظار المقرّب.

ولكنَّ، يعارض المتحذلقون، أرصاداً في مثل تلك الصحّة تتطلب دقّة كبيرة، يمكن القيام بها ربما على اليابسة، لا على سفينة تتحرّك، حيث لا يستطيع أحد ان يثبت منظارا على جرم سماوي لا تمكن رؤيته بالعين المجردة... ليكن، الأب كسبار سيظهر لهم انه بقليل من الحذق في الرصد يمكن القيام بها حتى على سفينة تتحرّك.

وأخيرا احتجّ بعض الإسبان ان الكواكب التي في خسوف لا تبين أثناء النهار، ولا في الليالي العاصفة. وكان الأب كسبار يقول ساخطا: «ربّما يظن هؤلاء انه يكفي للمرء ان يصفّق وها ان الخسوفات في رمشة عين تكون تحت تصرّفه؟». ومن قال ان الرصد يجب ان يكون في كلّ وقت؟ من سافر من الهند إلى الهند يعرف ان اخذ خط الطول لا يتطلب تواترا أكثر مما يتطلّبه اخذ خط العرض، ولا حتى هذا الأخير، لا بالإسطرلاب ولا بالبلاسترية، يمكن أخذه في الفترات التي يكون البحر فيها شديد الاضطراب. ليحدّدوا جيّدا خط الطول المشؤوم هذا، حتى

مرّة واحدة كل يومين أو ثلاثة، وبين رصد وآخر يمكن احتساب الوقت والمسافة المقضّاة، كما في السابق، باستعمال المسراع. غير انه في السابق كان علينا ان نفعل ذلك فقط وطيلة شهور وشهور. ويضيف اليسوعي الطيب وقد زاد سخطه: «انهم يبدون لي مثل واحد اثناء مجاعة كبيرة، تغيثه أنت بأن تعطيه سلّة مليئة بالخبز، وعوض ان يشكرك يشتكي انك لم تضع على المائدة خنّوصا مصليا أو أرنبا. آه، وحقّ السماء! لا أظن انك ستلقي في البحر بمدافع هذه السفينة لمجرّد أنك ستتفطّن إلى أنه على مائة طلقة تسعون منها تسقط في الماء؟»

وها أن الأب كسبار يشرك روبارتو في تحضير تجربة ستتمّ في ليلة مثل تلك التي كانت تتهيأ، ملائمة فلكياً، مع سماء صاحية، ولكن مع بحر فيه شيء من الاضطراب. لو تمّت التجربة في أمسية بحرها هادىء تماما، كان يفسّر الأب كسبار، لكان مثل القيام بها على اليابسة، ونتيجتها ستكون دون شك ايجابية. بينما التجربة ستوفّر للراصد شبه هدوء على سفينة تتحرّك من الجؤجؤ إلى الكوثل ومن يمينها إلى يسارها.

قبل كلّ شيء كان من اللازم ان يجدا، من بين الساعات التي عانت الكثير في الأيام السابقة، ساعة لا تزال تعمل بصفة جيّدة. ساعة واحدة، لحسن حظ الحال، لا ساعتان: وتضبط على الساعة المحلّية بعد كشف نهاري جيّد (وتمّ القيام بذلك) وبما انه كان مؤكدا انهما يوجدان على الهاجرة المعاكسة، فلا حاجة لهما بأخرى تعطي ساعة جزيرة الحديد. يكفي ان يعرفا ان الفارق هو باثنتي عشرة ساعة بالضبط. نصف الليل هنالك، نصف النهار هنا.

لو فكّرنا مليّاً، لبدا لنا ان هذا القرار يعتمد على حلقة مفرغة. كان على التجربة ان تثبت اننا على الهاجرة المعاكسة، لا ان تعطي ذلك على انه مضمّن. ولكنَ الأب كسبار كان متأكدا من رصداته السابقة إلى حدّ جعله يرغب فقط في اثباتها، ثمّ ـ وذلك محتمل ـ بعد كل تلك الفوضى

على السفينة قد لا توجد على السفينة ساعة واحدة تشير إلى زمن الوجه الآخر من الأرض، وكان عليه ان يتعدّى هذه العقبة. ومن جهة أخرى لم يكن روبارتو ثاقبا إلى حدّ ان يلاحظ العيب المختفي في ذلك المنهج.

ـ «عندما أقول إبدأ، انظر إلى الساعة، وسجّل. ثم إعط ضربة للرقّاص».

كان الرقّاص محمولا على بنية صغيرة من المعدن كانت تصلح مثبّتا لقضيب من النحاس في طرفها رقّاص مستدير. في النقطة السفلى حيث يمرّ الرقّاص، توجد عجلة أفقية، شدّت فوقها أسنان، ولكنها صنعت بطريقة كان بها جانب من السنّ مستقيم عموديا بالنسبة إلى العجلة بينما الجانب الآخر كان منحنيا. في حركته من طرف إلى آخر كان الرقّاص ـ في ذهابه ـ يضرب، بمحراف صغير بارز، حديدة كانت بدورها تمسّ السن من الجانب المستقيم، فتحرّك العجلة؛ ولكن عندما يعود الرقّاص،تلمس الحديدة السنّ لمسا خفيفا ومن الجانب المنحني، فلا تتحرّك العجلة. وبوضع أرقام على الأسنان، عندما يقف الرقّاص يمكن حساب مقدار الأسنان التي تحرّكت، واذن احتساب مقدار الزمن الذي مرّ.

ـ «بهذه الطريقة لا تضطر في كلّ مرّة إلى عدّ واحد، اثنان، ثلاثة إلى آخره، ولكن في النهاية عندما أقول كفى، توقف انت الرقّاص وتعدّ الأسنان، أفهمت؟ ثم تسجّل كم سنّاً. بعد ذلك تنظر إلى الساعة وتسجّل الساعة كذا أو كذا. وعندما أقول من جديد ابدأ، تعطيه انت ضربة أخرى قويّة، ويبدأ هو من جديد في التأرجح. بسيط، حتى طفل صغير يفهم».

من الأكيد انه لم يكن رقّاصا كبيرا، والأب كسبار كان يعرف ذلك، ولكن في هذا المضمار لم تبدأ البحوث الاّ منذ وقت قليل ويوما ما سيتمّ صنع مثله بدقة أكبر.

ـ «أمر صعب جداً، وعلينا ان نتعلّم اشياء أخرى كثيرة، ولكن ان شاء الله ..die Wette. كيف تقول، le pari. . . ».

ـ «الرهان».

ـ «نعم. إن شاء الله، أراهن انه في المستقبل سيبحث الجميع عن خطوط الطول وعن جميع الظواهر الأخرى الأرضية بواسطة الـ perpendiculum. ولكن الصعوبة أكبر بكثير على سفينة، ويجب ان تكون على غاية من اليقظة».

وأمر كسبار روبارتو ان يضع الآلتين وما يلزم للكتابة فوق طرف المؤخرة، الذي كان أعلى مرصد على متن دافني، حيث سيركّب l'Instrumentum Arcetricum. ونقلا من العنبر إلى السطح تلك الآلات التي كان روبارتو قد لمحها بينما كان لا يزال يطارد الدخيل. كان نقلها سهلا، ما عدا الدست المعدني، الذي وقع رفعه إلى سطح السفينة وسط لعنات واخفاقات ذريعة، لأنه كان لا يمرّ عبر السلالم. ولكن الأب كسبار، رغم هزاله، الآن وقد وجب ان ينفّذ مشروعه، كان يظهر قوّة بدنيّة تعادل قوّة إرادته.

وركّب وحده أو يكاد، بآلة لكبس المسامير، هيكلا من أنصاف دوائر وقضبان صغيرة من الحديد، اتضح من بعد انه سناد مستدير الشكل، شدّت عليه بواسطة حلقات قطعة من الكتّان ذات شكل دائري، ممّا نتج عنه في النهاية حوض كبير له شكل نصف كرة مستدير، يبلغ طول قطره مترين تقريبا. وكان لا بدّ من دهنه بالقطران حتى لا ينفذ منه الزيت الكريه الرائحة الذي كان روبارتو يصبّه الآن من البراميل وهو يتشكى من نتونة الشحم القوية. ولكن الأب كسبار كان يذكره، بملائكية الكابوشيين، ان الزيت لن يستعمل لقلي البصل.

ـ «ولم سيستعمل إذن؟»

ـ «سنحاول ان نضع في هذا البحر الصغير سفينة أصغر»،

واستعان بمساعده ليضع في الحوض الكبير من الكتان دستا معدنيا، يكاد يكون مسطّح القاع وذا قطر أصغر بقليل من قطر الحاوي. «ألم تسمع أبدا انهم يقولون ان البحر هادىء مثل الزيت؟ هوذا، انظر، أرأيت انه عندما ينحني سطح السفينة نحو الشمال فإن زيت الحوض الكبير يميل نحو اليمين، والعكس بالعكس، أو بالأحرى هذا ما يبدو لك؛ في الحقيقة يبقى الزيت دائما متوازنا لا يرتفع ولا ينخفض أبدا، وموازيا للأفق. يحدث ذلك حتى لو كان ماء، ولكن فوق الزيت يكون الدست الصغير كأنه فوق بحر هادىء. لقد قمت بتجربة صغيرة في روما، بدستين صغيرين، الأكبر مليء بالماء والأصغر بالرمل، وفي الرمل رشقت مرقما صغيرا، ووضعت الدست الصغير يطفو في الكبير، وحرّكت الكبير، فكنت ترى المرقم مستقيما مثل الصومعة، لا مائلا مثل بروج «بونونيا»»!

ـ «underbar»، كان محبّ اللغات روبارتو يؤيّده. والآن؟»

ـ «الآن سنخرج الدست الصغير من الحوض، لأننا سنركّب فوقه آلة كاملة».

كان غاطس الدست يحمل في خارجه لوالب صغيرة بطريقة، كما يشرح الأب كسبار، تجعله عندما يطفو بحمولته في الحوض الكبير، يبقى بعيدا مقدار اصبع على الأقلّ عن قاع الحاوي؛ وإن دفعته حركة ضيفه بقوة نحو القاع (أي ضيف، تساءل روبارتو؛ الآن سترى، أجابه الراهب) تلك اللوالب ستمكنه من الرجوع إلى السطح دون خضّات. في قاع الدست الداخلي حكّم كرسيّ ذو ظهر منحن، يمكّن الجالس عليه من البقاء مستلقيا أو يكاد ونظره إلى السماء، بينما ترتاح القدمان على صفيحة حديدية تصلح كثقالة.

بعد ان حمل الحوض على السطح وتمّ تثبيته بواسطة اوتاد، جلس الأب كسبار على الكرسي، وفسّر لروبارتو كيف يركّب على كتفيه،

ويربطه إلى حزامه، هيكلا من المنطقات والحمّالات من الكتان والجلد، ثبّتت اليه رأسية في شكل خوذة حديدية. كانت الخوذة تترك ثقبا لعين واحدة، بينما على مستوى الأنف يرتفع قضيب ينتهي في طرفه بحلقة. في تلك الحلقة ينفذ المنظار، الذي تتدلّى منه عصا صلبة تنتهي بعقاف. ويمكن تحريك مكبّرة العينين بحريّة إلى ان يتمّ العثور على الكوكب المختار؛ ولكن، ما ان يحصل هذا الأخير وسط العدسة، حتى يتمّ تثبيت العصا إلى الأحزمة الصدرية، ومنذ تلك اللحظة تضمن رؤية ثابتة ضدّ كلّ حركة محتملة من قبل ذلك السيكلوب.

ـ «Perfecto» كان اليسوعي يهتف جذلا. عندما سنضع الدست ليطفو على صفحة الزيت الهادئة، يمكننا ان نرصد الأجرام السماوية الأكثر هروبا دون ان يبعد تموّج البحر المضطرب العين الراصدة عن النجمة المختارة!. «وهذا وصفه السيّد غاليلي، وأنا صنعته».

ـ «شيء جميل جداً،» قال روبارتو، «ولكن الآن من سيضع كلّ هذا في حوض الزيت؟»

ـ «الآن سأحلّ نفسي وأنزل، ثم نضع الدست فارغا في الزيت، ثم أصعد من جديد».

ـ «لا أظنه أمرا يسيرا».

ـ «أيسر بكثير ممّا لو وضعنا الدست في الزيت وأنا بداخله».

وبعد جهد غير يسير تمّ رفع الدست بكرسيّه ووضعه ليطفو فوق الزيت. والأب كسبار، بخوذته وهيكله، والمنظار المقرب مركّب فوق الخوذة الحديدية، حاول ان يصعد فوق الكرسيّ، مع روبارتو الذي كان بإحدى يديه يمسكه من يده وبالأخرى يدفعه من أسفل ظهره. وتكرّرت المحاولة مرارا دون نجاح.

وليس السبب ان الهيكل المعدني الذي يحمل الحوض الكبير لا يحتمل أيضاً ان يحمل ضيفا، ولكنه كان لا يوفّر له نقاط استناد معقولة.

وحتى عندما حاول الأب كسبار، في بعض الحالات، ان يضع قدما واحدا على حافة الهيكل المعدني، والأخرى فورا داخل الحوض الصغير، كان هذا الأخير، تحت ضغط الركوب، يتحرّك فوق الزيت نحو الجهة المقابلة من الحاوي، فاتحا مثل البركار ساقي اليسوعي، الذي كان يصيح مستغيثا إلى ان يشدّه روبارتو من خصره ويجذبه اليه، على اليابسة ان أردنا ان نسمّي هكذا سطح دافني - بينما كان في تلك الأثناء يلعن ذكرى غاليلي شاكرا صنيع الجلاّدين مضطهديه. فيتدخل عندئذ الأب كسبار وهو بين ذراعي منقذه مؤكدا وهو يئنّ من الجهد ان أولئك المضطهدين ليسوا جلاّدين، بل رجال كنيسة أتقياء، همّهم الوحيد هو المحافظة على الحقيقة، وانهم عاملوا غاليلي معاملة الآباء العطوفين. ثمّ بعد ذلك، دائما بدرعه ونظره نحو السماء، بالمنظار المستقيم عموديا على وجهه، مثل أنف بولشنيلاّ الميكانيكي، كان يذكّر روبارتو ان غاليلي على الأقل لم يخطىء في هذا الاختراع، وأنه يكفي فقط ان يحاول ويكرّر المحاولات. «وإذن mein lieber Robertus،» كان يضيف «ربما انت نسيتني وظننت أنني سلحفاة تمسك بها عندما تنقلب على ظهرها؟ هيّا، ادفعني من جديد، هكذا، اجعلني أمسّ تلك الحافة، هكذا، نعم، لأن الإنسان جعل ليكون واقفا».

في جميع هذه المحاولات البائسة لم يبق الزيت هادئا مثل الزيت، وبعد برهة قصيرة وجد المجرّبان الاثنان نفسيهما لزجين، وأتعس من ذلك، زيتيّ النتونة - ان سمح الظرف بهذا النحت اللغوي للراوي، دون ان ننسب اليه أصله.

وبينما كان الأب كسبار على وشك ان ييأس من امكانية الصعود فوق ذلك الكرسي، لاحظ روبارتو انه ربما من الأفضل ان يفرغ الحاوي من الزيت، ثم يوضع بداخله الدست، ويصعد فوقه اليسوعي، وأخيرا يصبّ فيه الزيت من جديد، وعندما يرتفع مستوى الزيت، يرتفع معه الدست، والراصد مع الدست.

وهذا ما تمّ فعله، والأستاذ يثني على ذكاء تلميذه، بينما كان يقترب منتصف الليل. ولم يكن المجموع يوحي باستقرار كبير، ولكن اذا ما تفادى الأب كسبار ان يتحرّك بلا رويّة، فسيكون هناك بعض الأمل.

وفي لحظة ما هتف كسبار صائحا: «الآن أراها!»، واضطرته الصيحة ان يحرّك أنفه، والمنظار، الذي كان ثقيلا نوعا ما، وأوشك ان يسقط من العينيّة، فحرّك ذراعه لكي لا يفلت، وحركة الذراع أمالت الكتف، وكاد الدست ان ينقلب. ترك روبارتو الأوراق والساعات، وهرع لشدّ كسبار، ثم أعاد التوازن للجميع وأكّد على الفلكي ان يبقى دون حراك، وان يحرّك منظاره بحذر كبير، وبالخصوص ان لا ينفعل.

الإعلان الثاني تمّ تبليغه بهمس، تضخّم في الخوذة المعدنية، فتجاوب مثل بوق تتريّ: «انني أراها من جديد،» وبحركة دقيقة حكّم المنظار المقرب في الصدرية. «آه، ! wunderbar. ثلاث نجمات صغيرة على شرقيّ المشتري، وواحدة فقط على غربيّه... الأقرب تبدو اصغرها حجما، ثم، انتظر... انها على صفر دقيقة وثلاثين ثانية من المشتري. سجّل. الآن هي على وشك ان تمسّ المشتري، بعد قليل ستختفي، انتبه وسجّل الساعة التي ستختفي فيها..».

وروبارتو، الذي كان قد ترك مكانه لإغاثة استاذه، أمسك من جديد باللوحة التي سيسجل عليها الأوقات، ولكنه جلس وقد أدار ظهره للساعات. واستدار فجأة، فأسقط الرقّاص. وانسلّت العصا من مثبّتها. فأمسك بها روبارتو وحاول ان يثبّتها من جديد، ولكنه لم ينجح. والأب كسبار كان يصيح به لكي يسجّل الوقت، فاستدار روبارتو نحو الساعة وفي تلك الحركة ضرب المحبرة بالقلم. وحاول عفويا ان يقوّمها حتى لا يخسر كل الحبر، فأسقط الساعة.

ـ «هل سجّلت الساعة؟ الآن شغّل الرقّاص!» كان يصيح به كسبار، وروبارتو كان يجيب: «لا أستطيع، لا أستطيع».

ـ «لماذا لا تستطيع، ايها الأبله؟!» وعندما لم يأته جواب واصل

صياحه قائلا «كيف لا تستطيع، ايها الغبيّ؟! هل سجّلت، هل كتبت، هل دفعت الرقّاص؟ انها ستختفي، هيّا»!

فقال روبارتو: «لقد فقدت، بل لا، لم أفقد، لقد كسرت كلّ شيء،». فأبعد الأب كسبار المنظار من الخوذة، وسرق النظر، فرأى الرقاص حطاما، والساعة مقلوبة، وروبارتو بيديه الملطختين بالحبر، فلم يقدر على كبح غضبه وانفجر بسبّة «Himmelpotzblitzscherrgottsakrament!» خضّت جسمه كلّه. في هذه الحركة الطائشة أمال الدست ميلا كبيرا فسقط الأب كسبار في زيت الحوض؛ وأفلت المنظار المقرّب من يده ومن الزرديّة، وساعده اهتزاز السفينة فتدحرج على طول طرف المؤخرة، ثم سقط من السلّم على سطح السفينة منزلقا إلى ان اصطدم بمؤخرة أحد المدافع.

واحتار روبارتو ان كان من الأفضل ان يغيث الرجل أو الآلة. كان الرجل وهو يتخبّط في تلك النتونة الزيتية يصيح به متساميا ان يهتمّ بالمنظار، فهرع روبارتو يتابع الآلة المكبّرة الفارّة، ووجدها في النهاية محدّبة وقد انكسرت عدستاها.

وعندما أخرج روبارتو في النهاية الأب كسبار من الزيت، وهو يبدو خنوصا أعدّ للمقلاة، قال له هذا الأخير ببساطة وبعناد بطولي انه لم يخسر كلّ شيء. هناك منظار مقرّب في نفس قوة الأول مركّب في أعلى المرصد المالطي. لم يبق الاّ ان يذهبا لأخذه من الجزيرة.

فسأله روبارتو: «ولكن كيف؟»

ـ «بالسباحة».

ـ «ولكنك قلت لي انك لا تعرف السباحة، ولن تتعلّمها، في سنّك..».

ـ «أنا لا. أنت نعم».

ـ «ولكنني أنا أيضا لا أعرفها، هذه السباحة الملعونة!»

ـ «ستتعلّمها».

24

حوارات حول المجموعات الكبرى

ما يتبع هو ذو طبيعة غير محدّدة: لا أفهم ان كان رواية الحوارات التي دارت بين روبارتو والأب كسبار، أم هي مدوّنات سجّلها الأول أثناء الليل ليردّ بها في النهار على الثاني. مهما كان الأمر، من الواضح أنه طيلة الفترة التي بقي فيها روبارتو على السفينة مع الشيخ، لم يكتب من جديد إلى حبيبته. كما أنه كان يمرّ شيئا فشيئا من الحياة الليلية إلى الحياة النهارية.

من مثل هذا أنه إلى حدّ الآن لم يتأمّل الجزيرة الاّ في الصباح الباكر، ولمدّة وجيزة جداً، أو في المساء، عندما يفتقد الإدراك بالحدود وبالمسافات. الآن فقط اكتشف ان تقدّم البحر وتراجعه، أو بالأحرى الحركة المتواترة للمدّ والجزر، كانت طيلة فترة من اليوم تحمل المياه حتى تلمس الشاطىء الرملي الذي يفصلها عن الغابة، وطيلة الفترة الأخرى كانت المياه تتراجع كاشفة عن منطقة صخرية هي، كما فسّر الأب كسبار، آخر امتداد للحاجز المرجاني.

بين المدّ، والتراجع، أو الجزر، كان يشرح له مرافقه، تمرّ حوالي اثنتي عشرة ساعة، وهذا هو نسق النفس البحري تحت تأثير القمر. لا، كما كان يقول بعضهم في الأزمنة الغابرة، من ان تلك الحركة ناتجة عن تنفّس وحش يعيش في الغمر العظيم، ولا أتحدّث عن ذلك الفرنسي

الذي كان يؤكد أنه، حتى وإن كانت الأرض تدور من الغرب نحو الشرق، فهي أيضاً تهتزّ، ان اردنا، من الشمال إلى الجنوب والعكس، وفي هذه الحركة الدورية من الطبيعي ان يرتفع البحر وينخفض، كما يحدث عندما يهزّ المرء كتفيه، فترتفع جبّته وتنخفض.

إن أمر المدّ والجزر هو لغز غامض، لأنه يختلف من أرض إلى أرض ومن بحر إلى بحر، حسب موقع السواحل من الهاجرة. كقاعدة عامّة، عند مولد القمر الجديد، يكون المدّ في منتصف النهار وفي منتصف الليل، ولكن يوما بعد يوم تتأخر الظاهرة بمقدار اربعة أخماس الساعة، والجاهل الذي لا يعرف ذلك، عندما يرى انه في الساعة كذا من اليوم كذا تكون تلك القناة صالحة للملاحة، ويعود اليها في نفس الساعة من اليوم الموالي، يجد نفسه في مضحل بحر. إضافة إلى التيّارات التي يحدثها المدّ والجزر، وبعضها هي من الأهميّة بحيث انه في فترة المدّ تعجز حتى سفينة عن بلوغ الشاطىء.

ثمّ، كان الشيخ يضيف، كلّما تغيّر المكان تغيّر الحساب، وتلزمك الجداول الفلكية. بل وحاول أيضاً ان يفسّر لروبارتو تلك الحسابات - مثل أن يرصد تأخر القمر، ويضرب ايام القمر في أربعة ليقسمها من بعد على خمسة - أو العكس. الاّ ان روبارتو لم يفهم شيئا من ذلك، وسنرى من بعد كيف ان تلك الخفّة ستكون بالنسبة اليه مصدرا لمشاكل خطيرة. كان في كلّ مرّة يكتفي بالتعجّب كيف ان خط الهاجرة، الذي من المفترض انه يشقّ كامل الجزيرة من طرفها إلى طرفها الآخر، كان أحيانا يمرّ عبر البحر وأحيانا على الصخر، ولم يكن يتبيّن جيّدا متى يكون الوقت المناسب. ومدعاه أيضاً هو أنه، مدّا كان أم جزرا، ذلك السرّ العظيم لم يكن يهمّه بقدر ما كانت تهمّه عظمة سرّ ذلك الخط الذي من خلفه يعود الزمن إلى الأمس.

لقد سبق ان ذكرنا أنه لم يكن يميل بصفة خاصّة إلى عدم تصديق ما كان اليسوعي يقول له. ولكنه كان غالبا ما يتسلّى بإثارته، حتى يجعله

يقصّ أشياء أخرى، فكان إذن يستعمل جميع أساليب المحاجّة التي سمعها في نوادي اولئك الرجال الشرفاء الذين كان اليسوعي يعتبرهم، ان لم نقل رسل الشيطان، على الأقل شرّيبي خمر وفجّارا جعلوا من الحانة مدرستهم. ومع ذلك، كان في نهاية الأمر يصعب عليه ان يرفض فيزياء أستاذ كان، حسب مبادىء تلك الفيزياء نفسها، يعلّمه الآن فنّ السباحة.

كردّ فعل أوّل، وبما ان ذكرى غرقه لم تزل عالقة بذهنه، أكّد أنه مهما كان الأمر فلن تكون له مع ماء البحر علاقة ثانية. فنبّهه الأب كسبار إلى أنه أثناء غرق السفينة بالذات كان الماء هو الذي رفعه، - دليل إذن على انه عنصر صديق لا عدوّ. فأجابه روبارتو ان الماء لم يرفعه هو، بل رفع اللوحة التي ربط نفسه اليها، ولم يكن من الصعب على الأب كسبار ان ينبّهه إلى ان الماء، إن استطاع رفع قطعة من الخشب، الذي هو مادّة دون روح، ميّالة إلى السقوط كما يعرف كلّ من رمى من فوق قطعة خشب، فهو اقدر على ذلك مع كائن حيّ مستعدّ للتعامل مع النزعة الطبيعية للسوائل. أفلا يعرف روبارتو أنه لو رمى كلبا صغيرا في الماء، فإن الحيوان، بتحريك أعضائه يمكنه لا فقط ان يطفو على سطح الماء ولكن ان يعود سريعا إلى الشاطىء. وكان الأب كسبار يضيف ان روبارتو، ربما لا يعرف انه، لو وضعنا الرضّع في الماء، لرأينا انهم يقدرون على السباحة، لأن الطبيعة خلقتنا سبّاحين مثل جميع الحيوانات الأخرى. الاّ انه للأسف نحن ميّالون أكثر من الحيوانات الأخرى للخطأ وللأحكام المسبّقة، وعندما ننمو نتقبّل أحكاما خاطئة عن فضائل السوائل، فتفقدنا الخشية وانعدام الثقة تلك الهبة التي كانت لدينا عند ولادتنا.

فسأله روبارتو عندئذ ان كان هو، الأب الجليل، قد تعلّم السباحة، فأجابه الأب الجليل انه لا يقول عن نفسه انه أحسن من كثيرين مثله فاتهم ان يتعلّموا أشياء مفيدة. فقد ولد في بلد بعيد جدا عن

البحر ولم تطأ قدمه سطح سفينة الآ في سنّ متأخرة عندما لم يعد جسمه الاّ سقوط شعر في أصل الرقبة، وضبابا أمام العينين، ورعاما في الأنف، وصدى في الأذنين، واصفراراً للأسنان، وتصلّبا في القذال، وارتباكا في الحنجرة، ونقرسا في القدم، وعكرشة للجلد، وبياضا للشعر، وطقطقة في الظنبوب، وارتعاشا في الأصابع، وتعثّرا في الساق، ولم يعد صدره الا مأوى للنزلات مع بصق لعابي وسعال ريالي.

ولكن، كان يحدّد على الفور، بما أن عقله كان أنشط من جثّته، فقد كان يعرف ما كان العلماء اليونانيون قد اكتشفوه، وهو انه عندما يغطس جسم في سائل، فذلك الجسم يتلقى سندا ودفعا نحو الأعلى بقدر كميّة الماء التي يحوّلها، بما أن الماء يحاول ان يحتلّ من جديد الفضاء الذي اقصي منه. وليس صحيحا انه يطفو حسب شكله، والقدامى قد أخطأوا، عندما أكدوا ان الجسم المسطح يطفو وان الجسم الحادّ يغرق؛ فلو حاول روبارتو ان يدخل بقوة في الماء، مثلا، قارورة (التي هي ليست مسطّحة) فسيحسّ بنفس المقاومة كما لو حاول ان يدخل فيه طبقا.

يكفي إذن ان يتعوّد المرء على ذلك العنصر، والباقي سيأتي بصفة طبيعية. وعرض على روبارتو ان ينزل سلّم الحبل الذي يتدلى من مقدّم السفينة، والذي يسمّونه سلّم يعقوب، وحتى يطمئن، سيربطه بحبل طويل ومتين مشدود إلى جانب السفينة. وهكذا، عندما ينتابه الخوف من الغرق، يكفي ان يجذب اليه الحبل.

ولا حاجة للقول ان ذلك الأستاذ لفنّ لم يمارسه أبدا لم يعتبر جملة كبيرة من العوارض المتطابقة، أهملها حتى علماء اليونان القدامى. مثلا، لكيّ ييسّر له حريّة التحرّك، ربطه إلى حبل طويل جداً، وهكذا في المرّة الأولى التي وجد فيها روبارتو نفسه، مثل كل من يتعلّم السباحة، تحت صفحة الماء، جذب الحبل وطال جذبه، وقبل ان يتمكّن من الخروج إلى الهواء كان قد ابتلع من ماء البحر ما يكفي لكي يرفض ان يقوم، في ذلك اليوم الأول، بأي محاولة أخرى.

كانت البداية مع ذلك مشجعة. بعد ان نزل السلمّ وما أن مسّ الماء حتى أحسّ روبارتو ان السائل كان مستحبّا. كانت قد بقيت له من غرقه ذكرى مياه مثلجة وعنيفة، واكتشاف بحر يكاد يكون ساخنا كان يدفعه إلى مواصلة الغوص، وهو متشبث دائما بالسلّم، إلى ان بلغ الماء ذقنه. وظن ان تلك هي السباحة، فترك نفسه تستمتع بينما استسلم خياله للذكريات الباريسيّة.

منذ وصوله إلى السفينة لم يقم، كما رأينا، الا ببعض الاغتسالات البسيطة، مثل قط صغير يلحس شعره بلسانه، مقتصرا على العناية بوجهه وبأسفل بطنه. ما عدا ذلك - وكلّما زادت نقمته وهو يطارد الدخيل - فقد تغشّى قدماه بغلاف من حثالة القاع والتصقت اثوابه بجسمه من العرق. وعند لمسه لذلك الدفء الذي كان يغسل في الآن نفسه جسمه وأثوابه، تذكّر روبارتو ما كان قد رآه في قصر رامبويّي، مغطسين كاملين على ذمّة المركيزة، التي كان شغفها بالاعتناء بجسمها محلّ أحاديث في مجتمع كانت فيه ممارسة غسل البدن قليلة. حتى أرقّ ضيوفها كانوا يعتبرون ان النظافة تكمن في جدّة الملابس، التي تستدعي الأناقة ان تغيّر دائما، لا في استعمال الماء. والأدهان العطرة الكثيرة التي كانت المركيزة تسكرهم بها، ليست بذخا، بل بالنسبة اليها كانت ضرورة، تمكّنها من وضع حاجز بين أنفها الرقيق ونتونتهم الزفرة.

وأحسّ روبارتو بنفسه نبيلا أكثر ممّا كان عليه في باريس فراح بإحدى يديه، بينما بالأخرى كان يمسك بالسلّم مسكا شديدا، يحكّ قميصه وسرواله على بدنه المتّسخ، ويفرك عقب احد قدميه بأصابع قدمه الآخر.

وكان الأب كسبار يتابعه بفضول، ولكنه لم ينبس بكلمة، اذ كان يريد ان يستأنس روبارتو بالبحر. ولكنه كان مع ذلك يخشى ان يتوه فكر روبارتو وراء العناية بجسمه، فكان يحاول ان يلهيه عن ذلك. فكان يحدثه عن المدّ والجزر وعن فضائل جاذبية القمر.

كان يحاول ان يثير اعجابه بحدث في حدّ ذاته يكاد لا يصدّق: وهو انه إن كان المدّ والجزر يتأثران بوجود القمر، فمن الطبيعي ان يوجدا عندما يكون هناك القمر، لا عندما يكون القمر في الجهة الأخرى من كوكبنا. إلاّ ان حركة البحر تتواصل في كلتا الجهتين من الكرة الأرضية، وكأنها تتلاحق من ستّ ساعات إلى ستّ ساعات. وكان روبارتو يصغي بأذن إلى الحديث حول المدّ والجزر، ويفكّر في القمر ـ الذي في كلّ تلك الليالي استحوذ على فكره أكثر من المدّ والجزر.

وسأل كيف أننا نحن نرى من القمر دائما نفس الصفحة، وأجابه الأب كسبار ان القمر يدور مثل كرة يشدّها خيط في يد رياضيّ يدوّرها، ولا يرى هو منها الاّ الجهة المقابلة له.

فعارضه روبارتو متحدّيا: «ولكن، تلك الصفحة يراها الهنود والإسبان على السواء؛ بينما على القمر، الذي يسمّيه البعض «فولفا»، لا يحدث نفس الشيء بالنسبة إلى قمرهم، الذي هو أرضنا. فالتحتفولفيون، الذين يسكنون الجهة المقابلة لنا، يرونها دائما، بينما الفوقفولفيون، الذين يسكنون النصف الآخر، يجهلون وجودها. تصوّر لو تحوّلوا إلى الجهة الأخرى: من يدري ماذا سيكون إحساسهم عندما يرون في الليل إشعاع دائرة أكبر خمس عشرة مرّة من قمرنا! سيتخيّلون انها ستسقط على رؤوسهم من لحظة إلى أخرى كما كان الغاليّون القدامى يخشون دائما أن تسقط السماء على رؤوسهم! ولا نتحدّث عن أولئك الذين يسكنون على الحدود بين نصفي الكرة، والذين يرون فولفا دائما على وشك ان تظهر في الأفق!»

فأظهر اليسوعي سخريته وتهكّمه من تلك الخرافة حول سكان القمر، لأن الأجرام السماوية ليست من نفس طبيعة كوكبنا، وهي لذلك غير قابلة لأن تستضيف كائنات حيّة، ولذا من الأفضل ان نتركها للكتائب الملائكية، الذين يمكنهم ان يتحرّكوا بحريّة في بلّور السماوات.

ـ «ولكن كيف يمكن ان تكون السماوات من البلّور؟ لو كانت كذلك فالمذنّبات عند المرور من خلالها ستكسرها».

ـ «ولكن من قال لك ان المذنبات تمرّ في المناطق الأثيرية؟ المذنبات تمرّ في المنطقة التحتقمريّة، وهنا، كما ترى، يوجد الهواء».

ـ «لا شيء يتحرّك دون ان يكون جرما. ولكن السماوات تتحرك. فهي إذن جرم».

ـ «أنت، لكي يمكنك ان تقول خرافات، تصبح أيضاً أرسطوطاليسيا. ولكنني أعرف لماذا تقول هذا. أنت تريد ان يكون هناك هواء أيضا في السماء بحيث يصبح لا فرق بين الفوق والتحت، كلّ شيء يدور، والأرض تحرّك عجيزتها مثل مومس».

ـ «ولكننا كلّ ليلة نرى النجوم في وضعية مختلفة..».

ـ «صحيح. هي فعلا تتحرّك».

ـ «انتظر، لم أنته. أنت تريد أن الشمس وجميع الكواكب، التي هي أجرام عظيمة الحجم، تقوم بدورة حول الأرض في اربع وعشرين ساعة، والنجوم الثابتة أو بالأحرى الحلقة الكبيرة التي تنتظم فيها تقطع أكثر من سبع وعشرين ألف مرّة مئتي مليون فرسخ؟ ولكن هذا ما يحدث لو ان الأرض لا تدور حول نفسها في اربع وعشرين ساعة. كيف تقدر النجوم الثابتة على الدوران بهذه السرعة؟ من يسكن فوقها سيشعر بالدّوار!»

ـ «إن كان فوقها ساكن. ولكن هذه est petitio prinkipii».

وكان يلفت انتباهه إلى انه من السهل ابتداع حجّة واحدة تدعم حركة الشمس، بينما هناك أكثر من حجة ضدّ حركة الأرض.

فأجاب روبارتو: «أعرف جيّدا ان سفر الجامعة يقول terra autem in aeternum stat, sol oritur، وأن يشوع أوقف السماء لا الأرض.

ولكنك أنت نفسك علّمتني اننا لو قرأنا الكتاب المقدس قراءة حرفية، لكان لدينا النور قبل ان تخلق الشمس. إذن يجب أن نقرأ الكتاب المقدس بقليل من الذكاء، وحتى القديس أغوستان كان يعرف أن الكتاب غالبا ما يتكلّم more allegorico».

فابتسم الأب كسبار وذكّره ان اليسوعيين منذ زمن طويل لم يهزموا منافسيهم عن طريق جدل الكتابات المقدسة، بل بحجج دامغة تعتمد على علم الفلك، والإدراك، والبراهين الرياضية والفزيائية.

فسأله روبارتو وهو يحكّ شحمة بطنه: «وأي براهين، من فضلك؟»

وتفضّل الأب كسبار وعارضه ملدوغا «بحجّة العجلة»: «الآن استمع اليّ. فكّر في عجلة، فهمت؟»

ـ «أفكّر في عجلة».

ـ «حسنا، هكذا أنت أيضاً تفكّر عوض ان تعيد كالقرد ما سمعته في باريس. الآن تصوّر ان تلك العجلة مرشوقة في محور كما لو كانت عجلة خزّاف، وأنت تريد ان تحرّك تلك العجلة. ماذا ستفعل؟»

ـ «أضع يدي، أو حتى اصبعي على حافة العجلة، أحرك اصبعي فتدور العجلة».

ـ «الا ترى انه من الأفضل ان تمسك المحور، في وسط العجلة، وان تحاول ان تديره هو؟»

ـ «كلاّ، يكون ذلك مستحيلا..».

ـ «هوذا! وأصدقاؤك الغاليليون والكوبرنيكيون يريدون وضع الشمس ثابتة في وسط الكون وتحرّك من حولها الدائرة الكبيرة للكواكب، عوض ان يفكّروا في ان الحركة تأتي من الدائرة الكبيرة للسماوات، بينما الأرض ثابتة في الوسط. كيف يمكن ان يضع الإله

الشمس في اسفل موضع والأرض الفاسدة والمظلمة وسط النجوم الساطعة والسرمدية؟ هل فهمت غلطتك؟»

ـ «ولكن الشمس يجب ان تكون في وسط الكون! فالأجرام في الطبيعة تحتاج إلى تلك النار الجوهرية، وأن تكون في قلب الكون، لإرضاء حاجيات جميع الأطراف. أفلا يجب ان يكون مصدر النشوء وسط كلّ شيء؟ ألم تضع الطبيعة الحويصلات المنويّة في الوسط بين الرأس والقدمين؟ والبزور ألا نجدها وسط التفاحة؟ والنواة أليس مكانها وسط الخوخ؟ وإذن الأرض، التي تحتاج إلى النور وإلى حرارة تلك النار، تدور حولها حتى تتلقى جميع جهاتها الفضائل الشمسية. سوف يكون من السخيف ان نظن ان الشمس تطوف حول نقطة لا فائدة لها منها، ويكون كمن يرى قبّرة مشوية فيظن انه لطبخها وجب ان يدور الموقد حولها..».

ـ «آه، هكذا إذن؟ وعندما يطوف الأسقف بالكنيسة ليباركها بالمبخرة أنت تريد ان تطوف الكنيسة بالأسقف؟ الشمس يمكنها أن تدور لأنها عنصر ناري. وأنت تعرف جيدا ان النار تطير وتتحرّك ولا تتوقف أبدا. هل رأيت يوما الجبال تتحرّك؟ وإذن كيف يمكن ان تتحرّك الأرض؟»

ـ «أشعة الشمس، عندما تضربها هي التي تجعلها تتحرك، كما يمكن ان ندير كرة عندما نضربها باليد، وان كانت الكرة صغيرة، نديرها حتى بالنفخ عليها... وأخيرا، أتريد من الرب ان يدير الشمس، التي هي اربعمائة واربع وثلاثون مرّة أكبر من الأرض، فقط لكي تنضج الكرمب؟»

وحتى يعطي لهذه الحجة الأخيرة أكبر فاعليّة أكثر مسرحية أراد روبارتو ان يسدّد اصبعه نحو الأب كسبار، فأطلق ذراعه وركل الماء بقدميه ليجعل نفسه على مسافة لا بأس بها من جانب السفينة. وفي هذه

الحركة أفلتت يده الأخرى،وانقلب رأسه إلى الوراء فكان ان غطس روبارتو تحت الماء، دون ان يقدر بعد ذلك، كما سبق ان قلنا، على الاستعانة بالحبل، الذي كان مرتخيا جداً، ولا يمكّنه من العودة إلى سطح الماء. وكان سلوك روبارتو عندئذ مثل سلوك جميع من كانوا في النهاية يغرقون حتما، فقد أخذ يتخبط بصفة فوضوية وابتلع أكثر ماء، إلى ان شدّ الأب كسبار الحبل شدّا محكما وجذبه إلى السلّم. وصعد روبارتو وهو يقسم أن لا يعود أبدا إلى الماء.

فواساه الأب كسبار قائلا: «غدا سنحاول من جديد. الماء المالح هو مثل الدواء، لا يذهب ببالك انك أصبت بضرر كبير،». وبينما كان روبارتو يتصالح مع البحر بالاصطياد، كان كسبار يفسّر له المزايا الكثيرة والنفيسة التي ستحصل لكليهما من بلوغه الجزيرة. ولا حاجة لذكر ما سيحصل من استعادة الزورق، الذي سيمكنهما من التحرّك بحريّة بين السفينة واليابسة، ومن الوصول إلى المرصد المالطي.

ومن الكيفية التي يتحدّث عنه بها روبارتو، يمكن ان نستنتج ان الاختراع كان يفوق طاقاته الفهمية ـ أو ان حديث الأب كسبار، مثل أحاديثه الأخرى الكثيرة، كانت تتخلّله الاضمارات والتعجّبات، كان الأب كسبار يصف من خلالها إمّا شكله، أو وظيفته، وأحيانا الفكرة التي كانت الأساس في اختراعه.

ولو أنه في حقيقة الأمر لم تكن الفكرة فكرته. علم بالمرصد وهو يبحث بين أوراق زميل له توفّي، الذي بدوره كان قد عرف ذلك عن زميل له آخر، سمع أثناء سفرة قام بها إلى الجزيرة النبيلة مالطة، أو مليطة، كثيرا من الثناء على هذه الآلة التي صنعت بأمر من جلالة الأمير يوهانس باولوس لسكاريس، قائد أولئك الفرسان المشهورين.

لا أحد رأى كيف كان ذلك المرصد: من الرفيق الأول بقي فقط كنّاش بائس فيه بعض الرسوم والملاحظات، اصبح من ناحية أخرى

مفقودا. ومن جهة أخرى، كان يتشكّى الأب كسبار، ذلك الكتيّب نفسه «كان وجيزا جداً، دون schemate visualiter patefacto، دون لوائح أو جداول، ودون تعليمات مناسبة».

واعتمادا على هذه المعلومات الفقيرة، وأثناء السفرة الطويلة على متن دافني، مشغّلا نجّاري السفينة، أعاد الأب كسبار رسم مختلف عناصر الآلية، حسب ما فهمها ربما غلطا، وركّبها بعد ذلك فوق الجزيرة مقدّرا على عين المكان خصائلها اللامحدودة ـ والمرصد يمكن إذن ان يعتبر حقيقة Ars Magna من لحم ودم، أو بالأحرى من خشب، وحديد، وكتّان وموادّ أخرى، فهو شبه ساعة عظيمة، كتاب حيّ قادر على كشف جميع أسرار الكون.

وكان الأب كسبار يفسّر وعيناه تشتعلان مثل جمرتين إنه Syntagma واحد من آلات فيزيائية ورياضية حديثة جداً، «بعجلات وحلقات منظّمة تنظيما محسوبا». ثم يرسم على سطح السفينة أو يصوّر في الهواء بإصبعه، داعيا اياه ان يتصوّر جزءا أوّل مستديرا، مثل قاعدة أو أساس، يظهر «الأفق اللامتحرّك» مع «حركة الرياح الاثنتين والثلاثين»، وجميع فن «الملاحة» مع التكهّن بكل زوبعة. «والجزء الأوسط»، كان يضيف، «الذي يرتفع على القاعدة المبنية، تصوّره مثل مكعّب ذي خمسة أضلاع ـ هل تصوّرته؟ nein، ليس بستّة أضلاع، الضلع السادس يعتمد على القاعدة وإذن أنت لا تراه. في الضلع الأول من المكعب، id est il Chronoscopium الكوني، ويمكنك ان ترى فيه ثماني عجلات منظّمة في دورات دائمة، تمثّل تقويمي يوليوس وغريغوار، وموضع الآحاد منها، وl'Epacta، و«الدائرة الشمسية»، و«الأعياد المتحرّكة» و«الفصحية»، والهلال، والبدر، وتربيع الشمس والقمر. في الضلع الثاني من المكعّب، id est das Cosmigraphicum Speculum، في المكان الأول يأتي «طالع فلكي»، بواسطته مع معرفة التوقيت العادي في مالطة، يعطيك التوقيت في بقية العالم. وتجد أيضاً

عجلة تحمل خارطتي نصفي الكرة السماوية، والأولى منهما تعطي عن «المتحرّك الأول» كلّ علم، والثانية تعطي عن «الكرة الثامنة» والنجوم الثابتة المذهب والحركة. والمدّ والجزر، أي تقدّم وتراجع البحار، التي في جميع الكون تضطرب حسب حركة القمر..».

كان ذلك الجانب هو الأكثر إثارة. من خلاله يمكن معرفة ذلك «التوقيت الكاثوليكي» الذي سبق ان تحدّثنا عنه، مع توقيت البعثات اليسوعية على كلّ هاجرة؛ وليس هذا فحسب، فقد كان يضطلع أيضاً بمهمّة اسطرلاب جيّد، اذ كان يعطي أيضاً مقدار النهار والليل، وارتفاع الشمس مع نسبة «الظلال المستقيمة»، والطوالع المستقيمة والمنحرفة، ومقدار الأغساق، وأوج الثوابت في مختلف السنوات، والأشهر والأيام. وبتكرار المحاولات على هذا الضلع تمكّن الأب كسبار من التأكد من انه يوجد أخيرا على الهاجرة المعاكسة.

ثم كان هناك ضلع ثالث يحتوي في سبع عجلات على مجمل علم التنجيم، بجميع الخسوفات والكسوفات القادمة، وجميع الرموز التنجيمية الخاصّة بفصول الفلاحة، والطبّ، والملاحة، مع الرموز الاثني عشر للدّور السماوية، وشكل الأشياء الطبيعية التابعة لكل رمز، و«الدّار» المتناظرة.

لا قدرة لي لكي ألخّص كامل تلخيص روبارتو، وأذكر الضلع الرابع، الذي كان يحتوي على جميع روائع الطبّ النباتي، والسباجيري، والكيميائي والسحري، مع الأدوية البسيطة والمركّبة، المستخرجة من الموادّ المعدنية أو الحيوانية مثل الترياق الجذّاب، والمسكّن، والمسهّل، والمسترخي، والمهضّم، والمذيب، والمخثّر، والمشهّي، والمسخّن، والمبرّد، والمنقّي، والمليّن، والمثير، والمهدىء، والمدرّ للبول، والمخدّر، والكاوي، والمقوّي.

لا أستطيع أن أشرح، وأبتدع بعض الشيء، ما يحدث على الضلع

الخامس، الذي هو مثل سطح المكعب، مواز لخطّ الأفق، الذي يبدو انه منظّم مثل قبّة سماويّة. ولكن يقع أيضا ذكر هرم، لا يمكن ان تكون قاعدته مساوية للمكعب، وإلاّ غطّت الضلع الخامس، وأغلب الظن انه كان يغطي كامل المكعب مثل خيمة ـ ولكن في هذه الحالة يجب ان يكون من مادّة شفافة. من المؤكد ان جوانبه الأربعة تمثّل جهات العالم الأربع، ولكلّ واحدة منها تذكر حروفها الأبجدية ولغات مختلف شعوبها، بما في ذلك عناصر اللغة الآدمية الأوليّة، والحروف الهيروغليفية المصـ.ـرية والحروف الصينية والمكسيكية، وكان الأب كسبار يصف الهرم على أنه «Sphynx Mystagoga، أو Oedipus Aegyptiacus، أو Monade Ieroglyphica، أو Clavis Convenientia Linguarum، أو Theatrum Cosmographicum Historicum، أو Sylva Sylvarum مـن كـلّ أبـجـديّـة طبيعية كانت أم اصطناعية، Architectura Curiosa Nova، Lampade Combinatoria، Mensa Isiaca، Metametricon، أو Synopsis Anthropoglottonica، أو Cryptographica Basilica، أو Amphiteatrum Sapientiae، أو Cryptomenesis Patefacta، أو Polygraphicum Catoptron، Verborum Gazophylacium، Steganographicae Artis Mysterium، Arithmologica Arca، Polyglotta Archetypon، Horapollinea Eisagoge، Congestorium Memoriae Artificiosae، Literarum Furtivis de Pantometron Notis، Mercurius Redivivus، وأخيرا "! Etymologicon Lustgartlein.

وأن يبقى كلّ ذلك العلم وقفا عليهما خاصّا بهما، بما أنه كتب عليهما ان لا يجدا أبدا طريق العودة ـ فذلك لم يكن يشغل بال اليسوعي، لا أدري إن كان إيمانا منه بالعناية الإلهية أو حبّا منه للمعرفة من أجل المعرفة. ولكن ما أستغربه هو أن روبارتو أيضا في تلك الآونة لم يكن يتمثّل أي فكرة واقعية، وأنه بدأ يعتبر أن بلوغه الجزيرة هو الحدث الذي سيعطي معنى، وبصفة نهائية، لحياته.

قبل كلّ شيء، ما شدّ اهتمامه بالمرصد، هو فكرة واحدة وأن ذلك المنجّم ربما يقدر ان يقول له ماذا تفعل حبيبته في تلك اللحظة. دليل على ان المحبّ، حتى عندما يكون مشغولا بتمارين بدنية نافعة، لا يهمّه ان تحدّثه عن أخبار الكواكب، ويبحث دائما عن أخبار غرامه المضني وولهه الجميل.

ومن جهة أخرى، مهما كانت الأشياء التي كان يقولها له أستاذه في السباحة، كان هو يحلم بجزيرة لا تظهر أمامه في الحاضر الذي هو أيضا موجود فيه، ولكنها بأمر إلهي كانت توجد في لا واقعية، أو في لا وجودية اليوم المنصرم.

ما كان يفكّر فيه وهو يواجه الأمواج هو الأمل في الوصول إلى جزيرة كانت في الأمس، والرمز الذي يمثّلها كانت بالنسبة اليه الحمامة البرتقالية اللون، يتعذّر إمساكها كما لو فرّت في الماضي.

كانت تحرّك روبارتو أفكار غامضة، كان يحسّ انه يريد شيئا غير الذي يريده الأب كسبار، ولكنه لم يكن يعرف بوضوح ماذا. ويجب أن نتفهّم حيرته إذ كان الإنسان الوحيد في تاريخ البشرية الذي أتيحت له الفرصة ان يسبح إلى الوراء بأربع وعشرين ساعة.

على كلّ حال اقتنع أنه يجب عليه ان يتعلّم حقيقة السباحة والجميع يعرف ان الدافع الجيّد يساعد على التغلّب على آلاف المخاوف. لذا نجده يحاول من جديد في اليوم الموالي.

في هذه المرحلة كان الأب كسبار يشرح له أنّه، لو ترك السلّم، وحرّك ذراعيه بحريّة، كما لو كان يتبع ايقاع جوقة من العازفين، محرّكا ساقيه قليلا، لحمله البحر. وحثّه على ان يحاول، وفي البداية شدّ له الحبل كي يبقى ممدودا، ثم أرخى الحبل دون ان يعلمه، أو بالأحرى أعلمه عندما وثق التلميذ بنفسه. صحيح ان روبارتو، ما ان علم بذلك، حتى أحسّ أن جسمه يغرق، ولكنه صاح وضرب الماء بساقيه فرأى ان رأسه عاد إلى سطح الماء.

ودامت هذه المحاولات قرابة نصف ساعة أو أكثر، وبدأ روبارتو يفهم انه بإمكانه ان يطفو على سطح الماء. ولكنه ما أن يحاول التحرّك بأكثر حريّة، حتى يرمي رأسه إلى الوراء. عندئذ حثّه الأب كسبار على ان يتفاعل مع تلك النزعة وأن يترك نفسه مع قشع الرأس قدر الإمكان، والجسم متصلب ومقوّس قليلا، والذراعان والساقان مفتوحة كما لو كان يريد ان يلمس محيط دائرة: سيحسّ ان جسمه مرفوع كما لو كان فوق سرير معلّق، وبإمكانه ان يبقى هكذا ساعات وساعات، وحتى ان ينام، بينما تهدهده الأمواج وتلثمه أشعة الشمس الغاربة. من أين عرف الأب كسبار كلّ هذه الأشياء، هو الذي لم يسبح قطّ؟ من النظريّة الفزيائية ـ الهيدروستاتيكية، كان هو يجيبه.

لم يكن من اليسير ان يجد الوضعية الملائمة، وأوشك روبارتو ان يختنق بالحبل ممّا جعله يتجشأ ويسعل، ولكن يبدو أخيرا انه توصّل لتحقيق توازنه.

وللمرّة الأولى أحسّ روبارتو بالبحر مثل صديق. واتّبع تعليمات الأب كسبار فأخذ يحرّك أيضا ذراعيه وساقيه: كان يرفع رأسه قليلا، ويلقيه إلى الوراء، وتعوّد على الماء في أذنيه متحملاً ضغطه. وكان بإمكانه حتى أن يتكلّم، وأن يصيح لكي يسمعه رفيقه من السفينة.

ـ «إن أنت أردت يمكنك الآن أن تنقلب،» قال له الأب كسبار. «خفّض ذراعك الأيمن، كما لو كان معلّقا تحت جسمك، وارفع رفعا خفيفا كتفك الأيسر، ها أنك تجد نفسك وبطنك من تحت!»

ولكنه لم يحدّد أنه أثناء هذه العمليّة يجب ان يشدّ نفسه، بما أنه سيجد نفسه ووجهه تحت الماء، وتحت ماء لا ينتظر الاّ ان يكتشف خياشيم الدخيل. لم تقع الإشارة إلى ذلك في كتب «الميكانيكية الهيدروبنوماتيكية. وهكذا، بسبب l'ignoratio elenchi للأب كسبار، شرب روبارتو جرعة أخرى من الماء المالح.

ولكنه تعلّم الآن أن يتعلّم. جرب مرّتين أو ثلاثا أن يدور حول نفسه وفهم مبدأ، ضروريا لكلّ سبّاح، وهو أنه عندما يكون رأسه تحت الماء لا يجب أن يتنفّس ـ ولا حتى بالأنف، بل يجب ان ينفخ بقوّة، كما لو كان يريد ان يخرج من رئتيه ذلك الهواء القليل الذي هو في حاجة أكيدة اليه. وهو شيء يبدو بديهياً، ولكنه ليس كذلك، كما يظهر ذلك من هذه القصّة.

ومع ذلك فقد فهم أنه من الأسهل بالنسبة اليه ان يستلقي على ظهره، ووجهه نحو السماء، من أن يعوم على بطنه. بالنسبة إليّ العكس يبدو لي أسهل، ولكن روبارتو تعلّم هكذا في البداية، وطيلة يوم أو يومين واصل على ذلك النحو. وفي الأثناء كان يتحاور حول المجموعات الكبرى.

عادا للحديث حول حركة الأرض وشغله الأب كسبار بحجّته حول الكسوف والخسوف. لو نزعنا الأرض من مركز الكون ووضعنا مكانها الشمس، يجب عندئذ ان نضع الأرض إما تحت القمر أو فوق القمر. لو وضعناها تحته لما حصل أبدا كسوف الشمس لأنه، بما ان القمر فوق الشمس أو فوق الأرض، لا يمكنه أبدا ان يكون بينهما. ولو وضعناها فوقه، لما كان أبدا خسوف القمر لأنه، بما ان الأرض فوقه، فلا يمكن أبدا ان يكون بينها وبين الشمس. ثمّ، إضافة إلى ذلك لن يمكن لعلم الفلك، الذي إلى حدّ الآن قام دائما بذلك على أحسن وجه، أن يتكهن بالكسوف والخسوف، لأنه يقوم بحساباته حسب حركة الشمس، فإن كانت الشمس لا تتحرّك، يكون عمله دون جدوى.

ثمّ لنتأمّل قليلا «برهان النبّال». لو كانت الأرض تدور كلّ أربع وعشرين ساعة، عندما يرمي النبّال سهما مباشرة نحو الأعلى، فذلك السهم سيسقط غربيّ النبّال وعلى عدّة أميال منه. وهذا البرهان هو في نهاية الأمر «برهان البرج». لو أسقطنا ثقلا من الجانب الغربي للبرج، فذلك الثقل لن يسقط عند أسفل البناية ولكن على مسافة بعيدة منها،

وإذن لن يمكنه ان يسقط عموديا، ولكن بانحراف، لأن البرج (والأرض معه) في الأثناء يكون قد تحرّك نحو الشرق. ولكن بما أن الجميع يعرف عن تجربة ان ذلك الثقل يسقط عموديا، فها أن حركة الأرض تصبح شيئا وهمياً.

ولا أذكر «برهان الطيور» التي، لو كانت الأرض تدور دورة كاملة في غضون يوم، فلن يمكنها أبدا ان تصمد بطيرانها أمام دوران الأرض، مهما كانت قوّتها. بينما نحن نرى ان الطيور، حتى ولو سافرنا على متن الجياد في اتجاه الشمس، كل الطيور مهما كان نوعها تلحق بنا وتتجاوزنا.

ـ «ليكن. إنني لا أملك حججا للردّ على براهينك. ولكنني سمعت أنه بدوران الأرض وجميع الكواكب بينما الشمس ثابتة، يمكن تفسير العديد من الظواهر، بينما بطليموس اضطر إلى ان يبتدع أفلاك التدوير والنواقل وعدّة خرافات لا مكان لها، فعلا، لا في الأرض ولا في السّماء».

ـ «إنني أسامحك، إن كنت تريد ان تمزح. أمّا ان كنت تتحدّث بجدّ، فأنا أقول لك إنني لست وثنياً مثل بطليموس وأعرف جيّدا أنه ارتكب أخطاء عديدة. ولذا فأنا أظن ان تيكون دي أورانيبورغ العظيم أتى بفكرة صائبة جدا: لقد فكّر أن جميع الكواكب التي نعرفها، مثل المشتري، والمرّيخ، والزهرة، وعطارد وزحل تدور حول الشمس، ولكن الشمس تدور معها حول الأرض، وحول الأرض يدور القمر، والأرض ثابتة وسط دائرة الثوابت. وهكذا يمكنك أن تفسّر جميع أخطاء بطليموس دون ان تتفوّه ببدعات هرطيقية، بينما بطليموس كان مخطئا وغاليلي كان هرطيقا. ولست مجبرا على أن تفسّر كيف يمكن للأرض، التي هي ثقيلة جداً، على ان تتفسّح في السماء».

ـ «وكيف يمكن ذلك للشمس والثوابت؟»

ـ «أنت تقول إنها ثقيلة. أنا أقول لا. إنها أجرام سماويّة، لا تحتقمريّة! الأرض فعلا ثقيلة».

«إذن كيف يمكن لسفينة تحمل مائة مدفع من ان تطوف عبر البحار؟»

ـ «هناك البحر الذي يجذبها، والريح التي تدفعها».

ـ «إذن، إن أردنا أن نقول أشياء جديدة دون أن نغضب كرادلة روما، فقد سمعت ان فيلسوفاً في باريس يقول ان السماوات هي مادّة سائلة، مثل بحر، تدور حول نفسها محدثة دوّامات بحريّة... أي tourbillons».

ـ «وما هو؟»

ـ «دردور».

ـ «Ach so, vortices, ja. ولكن ماذا تفعل هذه الـ vortices؟»

ـ «إذن، هذه الـ vortices تجذب الكواكب في دوّامتها، ودردور يجذب الأرض ويجعلها تطوف حول الشمس، ولكن الدردور هو الذي يتحرّك. الأرض ثابتة في الدوّامة التي تجذبها».

ـ «حسنا، يا سيّد روبارتو، حسنا! أنت كنت لا تريد السماوات من بلّور لأنك تخاف ان تكسرها المذنبات، ولكنك تريدها من سائل، وهكذا تغرق فيها الطيور! ثمّ، فكرة الدوّامات هذه يمكن أن تفسّر ان الأرض تدور حول الشمس، لا أنها تدور حول نفسها كما لو كانت خذروف أطفال»!

ـ «صحيح، ولكن ذلك الفيلسوف كان يقول انه حتى في هذه الحالة فإن سطح البحار وقشرة الأرض هي التي تدور، بينما النواة الداخلية ثابتة. على ما أظن».

ـ «من أتعس إلى أتعس. أين كتب هذا السيّد تلك الأشياء؟»

ـ «لا أدري، أظن انه عدل عن كتابتها، أو عن نشر الكتاب. كان لا يريد ان يغضب اليسوعيين الذين كان يحبّهم كثيرا».

ـ «في هذه الحالة أنا أفضّل السيّد غاليلي الذي كانت أفكاره هرطيقية ولكنه كشفها للكرادلة العطوفين جداً، ولا أحد منهم أحرقه. أنا لا يعجبني ذلك السيّد الآخر الذي له أفكار هرطيقية أكثر ولا يعترف بها، حتى لأصدقائه اليسوعيين. ربما سيغفر الإله يوما لغاليلي، أمّا له فلا».

ـ «على كلّ، يبدو لي انه بعد ذلك راجع فكرته الأولى. يبدو ان كلّ الركام العظيم من المادّة الذي يمتدّ من الشمس إلى النجوم الثابتة يدور في دائرة كبيرة، تحمله تلك الريح..».

ـ «ألم تقل ان السماوات من مادّة سائلة؟»

ـ «ربّما لا، ربّما هي ريح قويّة..».

ـ «أرأيت؟ أنت نفسك لا تعرف..».

ـ «حسنا، هذه الريح تحمل جميع الكواكب حول الشمس، وفي نفس الوقت تجعل الشمس تدور حول نفسها. وهناك دوّامة أصغر تجعل القمر يدور حول الأرض، والأرض تدور حول نفسها. ومع ذلك لا يمكن ان نقول ان الأرض تتحرّك، لأن التي تتحرّك هي الريح. وهذا ما يحدث لو كنت نائما على متن دافني، ودافني تتحرّك نحو تلك الجزيرة في الجهة الغربية، فأمرّ أنا من مكان إلى آخر، ومع ذلك لا يقدر أحد أن يقول ان جسمي تحرّك. وفيما يخصّ الحركة اليومية، فكما لو كنت أنا نفسي جالسا فوق عجلة خزّاف كبيرة تتحرّك، ودون شكّ سترى في البداية وجهي وبعد ذلك قفاي، ولكنني لست أنا الذي أتحرّك، بل هي العجلة».

ـ «هذه فرضيّة انسان خبيث يريد ان يكون هرطيقا دون ان يبدو كذلك. ولكن هل لك أن تقول لي الآن أين توجد النجوم. وأيضا بنات نعش الكبرى جميعها، وبارسيوس، هل تدور في نفس الدوّامة؟»

«ولكن جميع النجوم التي نراها هي ذاتها شموس أخرى، وكلّ واحدة تحتلّ نقطة المركز في دوّامتها، وجميع الكون مسرح عظيم من الدوامات بشموس لا متناهية وكواكب لامتناهية، حتّى وراء ما تقدر العين على مشاهدته، وكل منها بسكّانه».

- «آه، هذا ما كنت أنتظره منك ومن أصدقائك الهراطقة! هذا ما تريدونه أنتم، عوالم لامتناهية»!

- «اسمح لي على الأقلّ بأكثر من عالم واحد. وإلاّ أين سيضع الإله الجحيم؟ لا في وسط الأرض؟»

- «ولم لا يكون في وسط الأرض؟»

وهنا أعاد روبارتو بصفة تقريبيّة حجّة كان قد سمعها في باريس، ولا يمكنني أن أشهد بصحّة حساباته، «لأن قطر وسط الأرض يبلغ 200 ميل ايطاليّ، ولو قسنا تكعيبه لصارت لدينا ثمانية ملايين من الأميال. وإذا ما اعتبرنا ان ميلا ايطاليا يساوي مئتين وأربعين ألف قدم انجليزية، وبما ان الإله خصّص لكلّ هالك على الأقلّ ستّة أقدام مكعّبة، فالجحيم لا يقدر على أن يستوعب أكثر من اربعين مليون هالك، وهذا يبدو لي غير كاف، إذا ما اعتبرنا جميع البشر الأشرار الذين عاشوا في عالمنا منذ آدم إلى يومنا هذا».

فأجابه الأب كسبار دون حتّى أن يجهد نفسه بالتأكّد من صحّة الحسابات: «هذا إذا كان الهالكون في الجحيم بأجسامهم. ولكن لن يقع ذلك الاّ بعد البعث ويوم الحساب! وعند ذلك لن تكون هناك لا الأرض ولا الكواكب، ولكن سماوات أخرى وعوالم أخرى!»

- «صحيح، إن كانوا فقط أرواحا ملعونة، فيمكن لألف مليون منها ان تقف فوق رأس دبّوس. ولكن هناك نجوما لا نراها بالعين المجرّدة، ولكنّنا نراها بالمنظار. حسنا، ألا يمكن ان نفكّر في منظار أقوى مائة مرّة يمكّننا من رؤية كواكب أخرى، ثمّ في منظار أقوى الف

مرّة من سابقه نشاهد به كواكب أخرى أكثر بعدا، وهكذا إلى ما لا نهاية له؟ أتريد أن تضع حدّا للكون؟»

ـ «الكتاب المقدس لا يذكر ذلك».

ـ «الكتاب المقدّس لا يتحدّث أيضا عن المشتري، ولكنك شاهدته تلك الليلة بمنظارك الملعون».

ولكنّ روبارتو كان يعرف في قرارة نفسه ماذا ستكون حجّة اليسوعي الحقيقية. مثل حجّة القسّ ذلك المساء الذي تحدّاه فيه سان سافان إلى المبارزة: أنه بحجّة العوالم اللامتناهية تفقد فكرة الخلاص كلّ معنى، ونضطرّ إلى التفكير إمّا في شقاء سرمدي، وإمّا في أن حديقتنا الأرضية نقطة مفضّلة من الكون، سمح الربّ لابنه أن ينزل فيها ليخلصنا من الإثم، بينما العوالم الأخرى لم تحظ بنفس الرحمة ـ خلافا لما يذكر عن واسع رحمته. وفعلا كان ذلك ردّ فعل الأب كسبار ممّا سمح لروبارتو أن يهاجمه من جديد.

ـ «متى تقول ان آدم ارتكب الخطيئة الأولى؟»

ـ «إخواني في الرهبانية قاموا بحسابات رياضيّة لا شكّ في صحّتها، معتمدين على الكتابات المقدسة: ارتكب آدم الخطيئة قبل مجيء المسيح بثلاثة آلاف وتسعمائة وأربع وثمانين سنة».

ـ «حسنا، ربّما كنت تجهل ان الرحّالة الذين وصلوا إلى بلاد الصين، ومن بينهم العديد من إخوانك، وجدوا قائمات ملوك وأسر مالكة في الصين، يستنتج منها ان مملكة الصين موجودة منذ ستّة آلاف من السنين، وإذن قبل خطيئة آدم، وإن كان الأمر هكذا بالنسبة للصين، ما القول بخصوص شعوب أخرى. وإذن خطيئة آدم، وخلاص اليهود، والحقائق الجميلة لكنيستنا الرومانية المقدسة التي جاءت منها، لا تخصّ الاّ جزءا من البشريّة. ولكن هناك جزءا آخر من الجنس البشري لم تمسّه الخطيئة الأصلية. هذا لا ينقص من رحمة الإله الواسعة، والذي تصرّف

إزاء الآدميين مثل تصرّف الأب في مثل «الابن الشاطر»، مضحيًا بابنه فقط من أجلهم. ولكن، بذبحه العجل السمين من أجل «الابن الضال»، لا يعني ان حبّ ذلك الأب لأبنائه الطيبين والأتقياء كان أقلّ، كذلك ربّنا الذي خلقنا يحبّ حبّا جمّا الصينيين وجميع أولئك الذين ولدوا قبل الخطيئة الأصلية. وإن كان هذا ما حدث على الأرض، فلماذا لا يكون قد حدث أيضا على النجوم؟»

فصاح الأب كسبار ساخطا: «ولكن من قال لك كلّ هذه السخافات؟»

ـ «كثيرون قالوا هذه الأشياء. وهناك عالم عربيّ قال انه يمكن استنتاج ذلك من القرآن».

ـ «وأنت تريد أن تقول لي ان القرآن هو دليل على صحّة حقيقة شيء ما؟ آه، يا الهي العظيم، أستجير بك ان تصعق هذا الثائر المتغطرس المغرور الصلف الضال، هذا البشر الحيوان، هذا الكلب الشيطان، هذا اللعين المريض الملعون، لن تطأ قدماه بعد اليوم هذه السفينة!»

ورفع الأب كسبار الحبل وفرقعه مثل سوط، ضاربا روبارتو على وجهه، قبل ان يتركه. فانقلب روبارتو ورأسه إلى أسفل، ثم بدأ يقاوم الماء لاهثا، دون أن يقدر على جذب الحبل بما يكفي لمدّه، وأخذ يستغيث وهو يشرب الماء، بينما الأب كسبار كان يصيح انه يريد أن يراه يشهق احتضارا وأن يلفظ أنفاسه الأخيرة، حتى ينحدر إلى الجحيم كما يجدر بأمثاله الملاعين.

ثمّ غلبته شفقته المسيحية، وعندما بدا له ان روبارتو نال عقابا كافيا، جذبه إلى السطح. وانتهى ذلك اليوم درس السباحة وكذلك درس علم الفلك، وذهب كلاهما للنوم كلّ من جهته دون ان يتبادلا كلمة.

وتصالحا في اليوم الموالي. اعترف روبارتو انه لا يؤمن بتاتا بتلك

الفرضية حول الدوّامات، وأنه يظنّ ان العوالم اللامتناهية هي ربما من فعل دوران الذرة في الفراغ، وان ذلك لا يمنع فكرة وجود قدرة إلهية تتحكّم في تلك الذرة وتوجّهها وتنظمها حسب إرادتها، كما علّمه قاضي «دينيو». ولكن الأب كسبار كان يرفض أيضاً هذه الفكرة، التي تفترض فراغا تتحرّك فيه الذرات، ولكن روبارتو لم تعد به رغبة في النقاش باستسلام سخيّ إلى حدّ انه عوض ان يقطع الحبل الذي يشدّه إلى الحياة، كان يزيد كثيرا في طوله.

وبعد الحصول على الوعد بأن لا يهدّد ثانية بالموت، استعاد محاولاته. وكان الأب كسبار يحاول اقناعه بأن يتحرّك في الماء، اذ انه المبدأ الأساسي لكلّ فنون السباحة، ويوحي اليه ببعض الحركات الخفيفة لليدين والساقين، الاّ أن روبارتو كان يفضّل التكاسل على سطح الماء.

كان الأب كسبار يتركه يتكاسل ويستغلّ الفرصة ليمرّر حججه الأخرى ضدّ حركة الأرض. وأوّلها، برهان الشمس. وهو انه، ان كانت ثابتة، ونحن في منتصف النهار بالضبط ننظر اليها من وسط قاعة من خلال النافذة، وان كانت الأرض تتحرّك بالسرعة التي يتحدّثون عنها ـ ولا بدّ ان تكون عظيمة للقيام بدورة كاملة في اربع وعشرين ساعة ـ فالشمس عندئذ ستختفي في لحظة عن أنظارنا.

ثم تأتي حجّة البرد. فهو يسقط أحيانا مدّة ساعة كاملة ولكن، مهما كان اتجاه السحب نحو الشرق أو نحو الغرب، نحو الشمال أو نحو الجنوب، فالبرد لا يغطي أبدا أكثر من أربع وعشرين أو ثلاثين ميلا. ولكن ان كانت الأرض تدور، حتى وان حملت الرياح السحب عكس اتجاه دورانها، فإن البرد سيغطي على الأقلّ ثلاثمائة أو أربعمائة ميل من الحقول.

ثم تتبع ذلك حجّة السحب البيضاء، التي تسبح في الفضاء عندما

يكون الطقس هادئا، ويبدو دائما انها تتحرّك بنفس البطء؛ بينما، لو كانت الأرض تتحرّك، تلك التي تتحرّك نحو الغرب يجب ان تسير بسرعة فائقة.

ويختم بحجّة الحيوانات البريّة، التي ستملي عليها غريزتها ان تتجّه دائما نحو الشرق تماشيا مع حركة الأرض التي تتحكّم فيها؛ وستكره ان تسير نحو الغرب، لأنها ستحسّ ان تلك الحركة هي مخالفة للطبيعة.

وكان روبارتو يقبل بعض الوقت كلّ تلك الحجج،ولكنّه بعد ذلك يبغضها، ويعارض كلّ تلك البراهين العلميّة بحجّته التي تعتمد على الرغبة.

فكان يقول: «ولكن في نهاية الأمر، اتركني أسعد بالتفكير أنني لو ارتفعت في الجوّ لرأيت مدى أربع وعشرين ساعة الأرض وهي تدور تحتي، ولرأيت وجوها مختلفة تمرّ أمامي، بيضا وسودا وصفرا وزيتونية، تحمل القلنسوة أو العمامة، ومدنا بصوامع مذبّبة أو مستديرة، رشق فوقها صليب أو هلال، ومدنا ذات أبراج من الخزف وقرى ذات أكواخ من القصب، والمتوحشين وهم يستعدّون لأكل سجين الحرب حيّاً ونساء أرض «تيسّو» وهنّ يطلين شفاههنّ بالأزرق لمتعة أبشع رجال الأرض، ونساء كامول اللاتي يهبهنّ أزواجهنّ لأول غريب، كما يروي كتاب السيّد «مليون..».

ـ «أرأيت؟ كما أقول، أنتم عندما تتفلسفون في الحانة تأتيكم دائما أفكار شهوانيّة! ولو أنك لم تخضع لمثل هذه الأفكار، لكان بإمكانك ان تقوم بهذه الرحلة لو منّ اللّه عليك بأن تدور أنت حول الأرض، وهي منّة لا تقلّ على ان يتركك معلّقا في السماء».

لم يكن روبارتو مقتنعا ولكنّه لم يكن يدري كيف يردّ عليه. فكان إذن يسلك أبعد السبل، منطلقا من حجج سمعها، كانت هي أيضا تبدو له غير منافية لفكرة ربّ مدبّر، وكان يسأل الأب كسبار ان كان متفقا

معه على اعتبار الطبيعة مثل مسرح عظيم، حيث نحن لا نشاهد الاّ ما يريد المؤلف ان يضع على الركح. نحن من مكاننا لا نرى المسرح كما هو في الحقيقة: الديكور والآلات أعدّت لكي تعطي منظرا جميلا عن بعد، بينما العجلات والثقالات التي تحدث الحركات قد أخفيت عن أنظارنا. ومع ذلك لو كان هناك في القاعة رجل مسرح، لاستطاع ان يتعرّف على الكيفية التي بواسطتها أمكن أن يرتفع طائر ميكانيكي في الفضاء. وهذا ما يجب أن يفعل الفيلسوف إزاء مشهد الكون. أكيد أن مهمّة الفيلسوف أصعب، لأن حبال الآلات في الطبيعة أحكم إخفاؤها حتى أن البشر تساءلوا منذ وقت طويل من كان يحرّكها. ومع ذلك، حتى في مسرحنا هذا، لو صعد «فيتون» نحو السماء فلأن بعض الحبال تجذبه ولأن ثقالة تنزل نحو الأسفل.

ـ «أستنتج (كان يقول روبارتو بنبرة انتصار، الآن وقد وجد السبب الذي من أجله بدأ يخرّف على ذلك النحو)، ان الركح يرينا الشمس وهي تدور، ولكن طبيعة الآلة هي غير ذلك تماما، ولا يمكننا أن نتفطّن إلى ذلك من أوّل وهلة. نحن نرى المشهد، ولكننا لا نرى البكرة التي تحرّك «فيبو»، بل نحن نعيش على عجلة تلك البكرة ـ وعند هذه النقطة كان روبارتو يتيه، لأنه إذا قبل مجاز البكرة كان يفقد مجاز المسرح، واستدلاله كلّه يصبح من الدقّة ـ كما يقول سان سافان ـ بحيث يفقد كلّ دقّة.

وأجاب الأب كسبار ان الإنسان لكي يجعل الآلة تغني كان عليه ان يسخّر الخشب أو المعدن، وأن يجعل فيها ثقوبا، أو يشدّ الأوتار ويحكّها بالقوس، أو حتى أن يخترع ـ كما فعل هو على دافني ـ آلة مائية، بينما لو فتحنا حلق بلبل لما وجدنا فيه أيّ آلة من هذا النوع، وهذا دليل على ان الرب يتبع سبلا غير سبلنا نحن.

وسأل بعد ذلك، بما أن روبارتو يميل كثيرا إلى فكرة المجموعات الشمسية اللامتناهية، لماذا لا يقبل ان تكون كلّ من هذه المجموعات

جزءا من مجموعة أكبر تدور هي نفسها داخل مجموعة أكبر منها، وهكذا دواليك ـ بما أنه لو انطلقنا من هذه المقدّمات، يصبح الأمر مثل حالة عذراء تسقط ضحية مغوٍ، فتسمح له في البداية بالقليل ولكنها سرعان ما يطلب منها أكثر، ثم أكثر، وعلى هذا النحو لا يمكن ان تعرف إلى أي حدّ يمكن أن تصل.

من الأكيد، أضاف روبارتو، انه يمكن التفكير في شتى الفرضيات. في دوامات خالية من الكواكب، أو في دوامات تصطدم احداها بالأخرى، وفي دوامات غير مستديرة وإنما مسدّسة الأضلاع، وفي كلّ ضلع أو جانب تندمج دوامة أخرى، تشكّل جميعها ما يشبه بيوت النحل، أو متعدّدة الأضلاع وفي استناد أحدها للآخر تترك فراغات، وتلك الفراغات تملأها الطبيعة بدوامات أخرى أصغر، متشابكة جميعها مثل دواليب الساعات ـ والمجموعة كلّها تتحرّك في السماء الكونية مثل عجلة كبيرة تدور وتغذّي في داخلها عجلات أخرى تدور، كلّ منها بعجلات أصغر تدور في نطاقها، وتلك الدائرة الكبيرة تقوم في السماء بدورة عظيمة جدا تدوم آلاف السنين، ربما حول دوامة دوامة أخرى... وعند ذلك الحدّ كان روبارتو يوشك أن يغرق من فرط الدّوار الذي كان يصيبه.

وكان آنذاك ان حقّق الأب كسبار انتصاره. إذن، أخذ يفسّر له، إن كانت الأرض تدور حول الشمس، ولكن الشمس تدور حول شيء آخر (بقطع النظر ان كان هذا الشيء الآخر يدور هو أيضاً حول شيء آخر)، لدينا مشكل الـ - roulette الذي ربما قد سمع عنه روبارتو في باريس، بما أنه من باريس جاء إلى إيطاليا وانتشر بين الغاليليين، الذين لا يعدلون عن أي فكرة من شأنها أن تشوّش العالم.

فسأله روبارتو: «وما هي هذه الـ roulette؟»

ـ «يمكنك أن تسمّيها أيضاً دويلباً أو دويرياً، ولكن هذا لا يغيّر شيئا. تصوّر أنت عجلة».

ـ «تلك السابقة؟»

ـ «كلاّ، الآن تصوّر عجلة عربة. وتصوّر ان على دائرة تلك العجلة ثبّت مسمار.الآن تصوّر ان العجلة واقفة لا تتحرّك، والمسمار فوق الأرض بالضبط. الآن تصوّر ان العربة تسير وان العجلة تدور.ماذا تظنّ انه سيحدث للمسمار؟»

ـ «إذن، عندما تدور العجلة، في وقت ما سنجد المسمار في الأعلى، ولكن بعد ان تكون العجلة قامت بدورة كاملة سيصبح المسمار من جديد قريبا من الأرض».

ـ «وإذن أنت تظن ان ذلك المسمار قام بحركة مثل دائرة؟»

ـ «نعم، هو كذلك. من الأكيد انها ليست مثل مربّع».

ـ «الآن اصغ اليّ، ايها الطائش. أنت تقول ان ذلك المسمار سيعود من جديد إلى الأرض في نفس النقطة التي كان فيها؟»

ـ «انتظر لحظة... كلاّ، ان كانت العربة تسير إلى الأمام، سيعود المسمار إلى الأرض، ولكن أمام المكان الأول بكثير».

ـ «إذن لم يقم بحركة دائرية».

ـ «كلاّ وحقّ قدّيسي الفردوس».

ـ «أنت لا يجب ان تقول وحقّ قديسي الفردوس».

ـ «اطلب العفو. ولكن ما نوع الحركة التي قام بها؟»

ـ «لقد قام بحركة مدارية، وحتى تفهم ما أقول فهو مثل حركة كرة ترميها أنت أمامك، ثم تسقط على الأرض، ثم تقوم بقوس دائرة، ثم من جديد ـ الاّ أنه بينما الكرة عند حدّ ما تقوم بأقواس دائما أصغر، فالمسمار يقوم بأقواس منتظمة، ان كانت العجلة تدور بنفس السرعة».

فسأله روبارتو، وقد تراءت له هزيمته: «وماذا يعني هذا؟»

ـ «هذا يعني أنك تريد ان تثبت ان هناك دوامات مختلفة وعوالم لامتناهية، وأن الأرض تدور، وها أن أرضك لا تدور، ولكنها تسري في السماء اللامتناهية مثل كرة، طنف، طنف، طنف ـ ach يا للحركة الجميلة التي يقوم بها هذا الكوكب النبيل! وإن كانت نظريّة دوّاماتك صحيحة، فكلّ الأجرام السماوية تفعل طنف، طنف طنف ـ والآن اتركني أضحك لأن هذه هي حقيقة أجمل تسلية عشتها في حياتي!»

من الصعب الردّ على حجّة في هذه الدقّة وفي هذا الكمال الهندسي ـ وزيادة على ذلك مع كامل سوء النيّة، لأن الأب كسبار كان يعرف ان شيئا من هذا النوع يمكن أن يحدث حتى وان كانت الكواكب تدور مثلما يريد «تيكون». وذهب روبارتو إلى فراشه مبلّلا وذليلا مثل الكلب. أثناء الليل بقي يفكّر ان كان من الأفضل عند ذلك الحدّ أن يترك جميع أفكاره الهرطيقية حول دوران الأرض. وكان يقول في نفسه، حتى لو افترضنا ان الأب كسبار على صواب وان الأرض لا تتحرّك (وإلاّ تحرّكت أكثر من اللازم، ولن يقدر أحد بعد ذلك على ايقافها)، هل ان هذا يعارض اكتشافه للهاجرة المعاكسة، ونظريّته حول الطوفان، وفي الآن نفسه كون الجزيرة هناك، تعيش يوما قبل اليوم الذي هو هنا؟ بتاتا.

إذن، قال في نفسه، ربما من الأفضل بالنسبة اليّ أن لا أناقش آراء أستاذي الجديد الفلكية، وأن أجتهد في السباحة، حتى أحصل على ما يهمّني حقيقة، وليس هو اثبات ان كان كوبارنيك أو غاليلي على حقّ أو ذلك المعتوه الآخر تيكون دي أورانيبورغ ـ وإنما هو رؤية الحمامة ذات اللون البرتقالي، وأن تطأ قدماي اليوم المنصرم ـ وهو شيء لم يحلم به لا غاليلي، ولا كوبارنيك، ولا تيكون ولا أساتذتي وأصدقائي في باريس.

وإذن في اليوم الموالي تقدّم روبارتو إلى الأب كسبار مثل تلميذ مطيع، سواء في أمور السباحة أو في تلك الفلكية.

ولكن الأب كسبار، بتعلّة ان البحر مضطرب، وانه يجب ان يقوم بحسابات أخرى، بالنسبة إلى ذلك اليوم أجّل درسه. وفي المساء فسّر له أنّه، لتعلّم السباحة، يجب التركيز والصمت، لا ان يتيه الفكر بين السحاب. وبما ان روبارتو كان يسلك عكس ذلك تماما، فقد استنتج انه غير مؤهل لفن السباحة.

وتساءل روبارتو عمّا حدا بأستاذه، المعتزّ كثيرا بمؤهلاته التعليمية، أن يتراجع بهذه الصفة الفجائية عن مشروعه. وأظن ان الجواب الذي استنتجه هو فعلا الجواب الصائب. وهو ان الأب كسبار بات يفكّر ان الاسترخاء وحتى التحرّك في الماء، وتحت الشمس، من شأنه ان يحدث لدى روبارتو غليانا دماغيا، يحمله إلى أفكار خطيرة. وأن تواجده وجها لوجه مع جسمه، والغوص في الماء، الذي هو أيضاً مادّة، كان إلى حدّ ما يبلّد ذهنه، ويجرّه إلى تلك الأفكار التي هي خليقة بالطبائع اللاإنسانية والمخبولة.

كان إذن على الأب كسبار واندردروسّال أن يجد وسيلة أخرى لبلوغ الجزيرة، وسيلة لا تكلّف روبارتو سلامة روحه.

25

تقنية عجيبة

عندما قال له الأب كسبار أنه من جديد يوم الأحد، تفطّن روبارتو إلى أنه قد مضى على لقائهما أسبوع. وأقام الأب كسبار القدّاس ثم توجّه اليه بنبرة حازمة:

ـ «إنني لا أستطيع أن أنتظر أن تتعلّم السباحة».

فأجاب روبارتو انها ليست غلطته. وأقرّ اليسوعي انها ربما ليست غلطته هو، ولكن في هذه الأثناء فإن تقلّبات الجوّ والحيوانات المتوحّشة كانت تضرّ بالمرصد الذي على عكس ذلك يتطلّب عناية يوميّة. ولذا، ultima ratio، لم يبق الاّ حلّ واحد: سيذهب هو إلى الجزيرة. وإجابة على السؤال كيف سيمكنه ذلك، قال الأب كسبار انه سيحاول القيام بذلك بواسطة «الجرس المائي».

وفسّر له أنه منذ وقت طويل وهو يدرس طريقة للتنقّل تحت الماء. وفكّر حتى في مركب من اللوح المقوى بالحديد مزدوج الهيكل، كما لو كان علبة ذات غطاء. طول المركب اثنتان وسبعون قدما، وارتفاعها اثنتان وثلاثون، وعرضها ثمان وثقيلة بما يكفي لكي تغوص تحت سطح الماء. وتحرّك المركب عجلة ذات ألواح، يشغّلها من الداخل رجلان،

مثلما تفعل الحمير بناعورة الطاحونة. ولرؤية الإتجاه يتمّ إخراج tubospicillum، وهو منظار يمكّن من الداخل بواسطة علبة من المرايا الداخلية من اكتشاف ما يجري في الخارج.

لماذا لم يصنعها؟ لأن هذه هي الطبيعة ـ أجاب ـ إذلالاً لضعفنا: هناك أفكار تبدو على الورق كاملة ثمّ عند امتحان التجربة تتجلّى عيوبها، ولا يدري أحد لأي سبب.

ولكن الأب كسبار صنع الجرس المائي: «والناس الجهّل، لو قلت لهم انه يمكن لإنسان أن ينزل في قاع نهر «الران» وأن يحتفظ بأثوابه جافّة، بل وأن يحمل في يده نارا في موقد، سيقولون انه جنون. ولكن برهان التجربة أكّد ذلك، ومنذ ما يقارب القرن في مدينة طليطلة بإسبانيا. وإذن سأصل الآن إلى الجزيرة بجرسي المائي، وأنا أمشي تحت الماء، كما تراني أمشي هنا».

واتجه نحو المخزن الذي اتضّح جليّا انه مستودع لا ينضب: إضافة إلى الآليات الفلكية، كانت لا تزال هناك أشياء أخرى. واضطرّ روبارتو إلى أن يحمل فوق السطح قضبانا أخرى وأنصاف دوائر معدنية وصرّة عظيمة من الجلد لا تزال تحمل رائحة صاحبها المقرّن. ولم ينفع أن ذكّره روبارتو بأنه يوم الأحد، وانه لا يجب ان يشتغل في يوم الربّ. فقد أجابه الأب كسبار ان ذلك ليس شغلا، وبالخصوص ليس شغلا عبودياً، بل هو ممارسة لأنبل الفنون، وأن جهودهما ستنمّي معرفة كتاب الطبيعة العظيم. وإذن فهو مثل التأمّل في النصوص المقدّسة، التي لا يبتعد عنها كتاب الطبيعة.

فكان على روبارتو ان يعمل، بينما الأب كسبار كان يحثّه، متدخلا في الفترات الأكثر دقّة، حيث كان ينبغي جمع القطع المعدنية حسب تركيبات مهيأة. وبعد صبحيّة كاملة من العمل تمّ تركيب نوع من القفص له شكل جذع مخروط، أعلى بقليل من قامة إنسان، متكوّن من ثلاث

دوائر، أعلاها هي أصغرها قطرا، والوسطية والسفلى تتسّع تدريجيا، وهي متوازية جميعها بواسطة أربع لاطات منحنية.

في الدائرة الوسطية ثبّتت عدّة من الكتّان يمكن لرجل أن يلبسها، ولكن بواسطة شبكة من القدّات تلفّ الكتفين والصدر، بحيث لا تشدّ المستعمل من ثنية الفخذ فحسب، حتى تمنع ان يسقط، ولكن تشدّه أيضاً من كتفيه ورقبته حتى لا يمسّ رأسه الدائرة العليا.

وبينما كان روبارتو يتساءل عن وظيفة ذلك المركّب، فتح الأب كسبار الصرّة من الجلد، فاتضح انها الغلاف الأمثل لذلك الهيكل المعدني، مثل قفّاز أو ختاع اصبع، الذي لم يكن من الصعب الباسه اياه، وغلقه من الداخل بواسطة مشابك، بطريقة تجعل الشيء، إثر إتمامه، مستحيل السلخ. وبعد إتمامه ظهر الشيء فعلا مثل مخروط منقوص الشوكة، مغلق من فوق ومفتوح في قاعدته ـ إن أردنا التشبيه، فهو فعلا مثل جرس. وفي الجرس، بين الدائرة العليا والوسطية، شبّاك صغير من الزجاج. وفوق السطح الصغير للجرس حلقة صحيحة أحكم تركيبها.

عند ذلك الحدّ تمّ سحب الجرس نحو الرافعة وبعد ان شدّ إلى ذراعها الذي، بواسطة نظام دقيق من البكرات، يمكن له ان يرفعه، وينزله، ويحوّله خارج السفينة، وأن ينزله إلى الماء أو يخرجه، كما يقع عادة مع كلّ نوع من الطرود أو من الحزم التي تشحن أو تنزل من السفن.

وكانت الرافعة قد صدئت من عدم الاستعمال طيلة أيام، ولكن روبارتو في نهاية الأمر تمكّن من تشغيلها ورفع الجرس إلى ارتفاع متوسّط، كان يكشف عن أحشائه.

كان الجرس لا ينتظر الآن الاّ ان يدخله مسافر وأن يشدّ نفسه إلى العدّة، بشكل يجعله يتدلّى في الهواء مثل ضرّابة.

وكان بإمكان أي رجل أن يدخله مهما كانت قامته: يكفي ان يكيّف الأحزمة بشدّ المشابك والعقد أو بإرخائها. وها ان ساكن الجرس، بعد ان يوثق جيّدا ربطه إلى العدّة، يمكنه ان يمشي ناقلا معه مسكنه، بينما الأحزمة تجعل وجهه دائما في مستوى النافذة الصغيرة، والحافة السفلى تصل تقريبا إلى مستوى ربلة الساق.

والآن، كان يفسّر الأب كسبار، لم يبق لروبارتو الا ان يتصوّر ماذا سيحدث عندما تنزل الرافعة الجرس في البحر.

وكان استنتاج روبارتو مثل استنتاج أي شخص عادي: «سيحدث ان المسافر سيغرق،». فأجابه الأب كسبار متهما اياه بأنه لا يعرف الا القليل عن «توازن السوائل».

ـ «ربما أنت تظن انه في مكان ما يوجد الفراغ، كما تقول مواشط كنيسة الشيطان التي كنت تتحادث معها في باريس. ولكنك ربما تقرّ أنه داخل الجرس لا يوجد الفراغ، بل الهواء. وعندما تنزل أنت في الماء جرسا مليئا بالهواء، فالماء لا يدخل. إما هو أو الهواء».

هذا صحيح، كان يقرّ روبارتو. وإذن مهما كان عمق البحر، فالإنسان يقدر ان يمشي فيه دون أن يدخل الماء، على الأقلّ طالما لم يستهلك المسافر بتنفسّه كلّ الهواء، محوّلا اياه إلى بخار(كما يحدث عندما نتنفّس أمام مرآة) وهذا الأخير، بما أنه أقل ثقلا من الماء، في النهاية سيترك له المكان ـ دليل قاطع، كان يعلّق الأب كسبار بنبرة الظافر، ان الطبيعة تنفر من الفراغ. ولكن بجرس في ذلك الحجم، حسب حسابات الأب كسبار، يستطيع المسافر ان يطمئن على الأقلّ لثلاثين دقيقة تقريبا من التنفّس. كان الشاطىء يبدو بعيدا جداً، لو حاول أحدهم بلوغه بالسباحة، ولكن بالمشي سيكون ذلك مثل نزهة، لأنه تقريبا في وسط الطريق بين السفينة والساحل يبدأ الحاجز المرجاني ـ ممّا جعل الزورق يعدل عن اتخاذ ذلك الطريق وكان لا بدّ من قطع مسافة

أطول إلى ما وراء المرتفع. وفي بعض الأماكن كان المرجان يكاد يكون على سطح الماء. وإذا بدأوا الرحلة في فترة الجزر، فالسير تحت الماء سيصبح أقلّ طولا. يكفي الوصول إلى تلك الأراضي العائمة، وما أن يصعد المسافر حتى نصف ساق فوق سطح الماء، سيمتلىء الجرس من جديد بالهواء النقيّ.

ولكن كيف سيمكن المشي على القاع، الذي هو محفوف بالمخاطر، وكيف سيمكن الصعود على الحاجز المرجاني، المتكوّن من صخور ناتئة ومن مرجان قاطع أكثر من الأحجار؟ ومن ناحية أخرى، كيف سينزل الجرس دون أن ينقلب في الماء، أو ان يرفعه الماء إلى أعلى لنفس الأسباب التي يعود بها جسم الإنسان الغائص إلى السطح؟

فأضاف الأب كسبار بابتسامة الداهية ان روبارتو نسي الاعتراض الأكثر أهميّة: أنه لو دفع تحت الماء الجرس وحده مليئا بالهواء لتحرّكت كميّة من الماء تعادل حجمه، وهذا الماء سيكون له ثقل أكبر بكثير من الجرم الذي يحاول ولوجه، ولذا ستكون مقاومته له شديدة. ولكن في الجرس ستكون هناك ليبرات عديدة من جسم الإنسان، وأخيرا هناك «الكوثرنان المعدنيّان». وكمن فكّر في كلّ شيء أخرج من المخزن الذي لا ينضب زوجا من سويقات ذات نعلين من حديد يزيد ارتفاعهما عن خمسة أصابع، يحكم شدّهما إلى الركبتين. الحديد يصلح كصابورة ثم يحمي أيضاً قدمي السائر. سيجعل سيره بطيئا، ولكنه سيحرّره من كلّ المخاوف بسبب وعورة المسلك التي تجعل الخطا مرتبكة.

ـ «ولكن من المنحدر الموجود هنا تحتنا يجب عليك ان تصعد إلى الشاطىء، وستكون المسيرة كلّها صعودا!»

ـ «أنت لم تكن معنا عندما ألقوا المرساة! إنني قبل ذلك سبرت القاع. ليست هناك حفر! لو تقدّمت دافني قليلا لانتشبت في الرمل!»

فسأله روبارتو: «ولكن كيف ستقدر على حمل الجرس، الذي

سيثقل فوق رأسك؟». فذكّره الأب كسبار انه في الماء لن يحسّ بذلك الوزن، وروبارتو دون شك يعرف ذلك لو حدث له مرّة ان يدفع قاربا في الماء، أو ان يخرج بيده كرة حديدية من حوض، فالجهد سيلزمه كلّه عندما تكون الكرة خارج الماء، لا عندما تكون في الماء.

وروبارتو، تجاه عناد الشيخ، كان يحاول تأخير هلاكه، فكان يسأله «ولكن لو أنزلنا الجرس بالرافعة، كيف سيتحرّر من الحبل؟ وإلاّ شدّه الحبل ومنعه من الابتعاد عن السفينة».

فأجابه كسبار قائلا أنه عندما سيلمس القاع سيتفطّن روبارتو إلى ذلك لأن الحبل سيرتخي: وعند ذلك ينبغي قطعه.أو أنّه يظنّ أنه سيعود من نفس الطريق؟ كلاّ، عندما يصل إلى الجزيرة سيذهب لاسترجاع القارب، وبواسطته سيعود، إن شاء اللّه.

ولكن ما أن يصل إلى اليابسة، وعندما سيحلّ نفسه من الأحزمة، إن لم تكن هناك رافعة لحمل الجرس، فإن هذا الأخير سيسقط على الأرض ويبقى هو سجينا بداخله. «أتريد أن تقضّي بقية حياتك فوق جزيرة سجينا داخل جرس؟» فأجابه الشيخ أنه عندما سيحلّ نفسه من تلك الأربطة، لن يبقى له الا ان يمزّق الجلد بالموسى التي معه، وسيخرج منه مثلما خرجت «مينارف» من فخذ «جوبيتار».

وإن اعترضه تحت الماء حوت عظيم، من تلك التي تلتهم العباد؟ فضحك الأب كسبار: حتى أكثر الحيتان وحشية عندما يعترضها جرس متحرّك، من شأنه أن يدخل الرعب حتى على الإنسان، فسيصيبها ذعر شديد يجعلها تفرّ هاربة.

فقال روبارتو في نهاية الأمر، وهو منشغل انشغالا صادقا من أجل صديقه: «باختصار، أنت شيخ وضعيف، ان كان لا بدّ من ذلك فاتركني أحاول أنا!». فشكره الأب كسبار ولكنه فسّر له أنه هو، روبارتو، قد أعطى أكثر من دليل على طيشه، ومن يدري ماذا سيحدث منه بعد

ذلك؛ وأنه هو، كسبار، يعرف قليلا ذلك الجزء من البحر والحاجز المرجاني، وكان قد زار قبل ذلك أماكن أخرى شبيهة، على متن قارب مسطّح؛ وأن ذلك الجرس صنعه هو ويعرف إذن عيوبه ومزاياه؛ وأنه يملك معارف جيّدة في الفيزياء الهيدروستاتيكيّة وسيعرف كيف يخرج من المآزق الفجائية؛ وأضاف أخيرا، كأنه يذكر آخر الحجج في صالحه، «وأخيرا لأنني أملك الإيمان وأنت لا».

وفهم روبارتو ان تلك الحجّة لم تكن الأخيرة من بين الحجج، بل الأولى، ودون شكّ أجملها. كان الأب كسبار واندادروسّال يؤمن بجرسه كما يؤمن بمرصده، ويؤمن بأنه يجب ان يستعمل الجرس لبلوغ المرصد، ويؤمن بأن كلّ ما كان يفعله انما كان يفعله لتعظيم جلال الربّ. وبما أن الإيمان يمكن أن يهدّ الجبال، فلا شكّ انه يقدر على اجتياز المياه.

لم يبق الاّ ان يوضع الجرس على سطح السفينة وأن يهيّأ للغوص. وهي عمليّة شغلتهما إلى حدود المساء. ولدبغ الجلد بطريقة تجعل لا الماء ينفذ منه ولا الهواء يخرج منه، كان من اللازم ان يستعملا عجينة طبخت فوق نار بطيئة متكوّنة من ثلاث ليبرات من الشمع، وواحدة من تربنتين البندقية، وأربع أوقيات من طلاء آخر يستعمل في النجارة. وكان ينبغي أن يتشرّب الجلد من تلك المادّة، بتركه هكذا إلى اليوم الموالي. وأخيرا بعجينة أخرى مصنوعة من الزفت والشمع سدّت جميع الثغرات على حوافّ النافذة الصغيرة، حيث ركّب الزجاج وشدّ بالمعجون، الذي طلي هو الآخر بالزفت.

«جميع الشقوق سدّت بعناية» كما قال، وقضّى الأب كسبار ليلته في الصلاة. عند الفجر عاينا من جديد الجرس، والأحزمة، والأقفال. وانتظر كسبار اللحظة المناسبة التي يمكنه ان يستغلّ فيها أكثر ما يمكن جزر المياه، وان تكون فيها الشمس أيضاً عالية في السماء بما يكفي لتنير البحر أمامه، ملقية بالظلال وراء ظهره. ثم تعانقا.

وقال الأب كسبار من جديد انها ستكون نزهة ممتعة سيشاهد أثناءها أشياء عجيبة لم يسبق ان شاهدها أحد،ولا حتى آدم أو نوح، وكان يخشى ان يرتكب خطيئة الغرور ـ معجبا كما كان بنفسه لأنه أول انسان ينزل إلى العالم البحري. وأضاف قائلا: «ولكن ما يقوم به هو أيضاً برهنة على حقارته: فسيّدنا المسيح مشى فوق الماء، وأنا تحت الماء سأمشي، كما يليق بآثم مثلي».

لم يبق الا ان يرفع الجرس، وأن يضعه فوق الأب كسبار، وان يتثبّت من انه قادر على التحرّك بحريّة.

وطيلة بضع دقائق تفرّج روبارتو على مشهد حلزون ضخم، ماذا أقول، على فقع ذئب، على أغاريقون رحّال، يتقدّم بخطوات بطيئة ومضحكة، متوقّفا مرّات عديدة للقيام بنصف دورة حول نفسه عندما كان الأب يريد ان ينظر على يمينه أو على شماله. لم يكن سيرا، ذلك الإسكيم المتحرّك كان يبدو انه يقوم بغافوتة، أو ببورية جعلها انعدام الموسيقى أكثر سماجة.

أخيرا بدا الأب كسبار راضيا عن محاولاته، وبصوت كان يبدو أنه يخرج من نعليه، قال انه يمكن بدء الرحلة.

وتحوّل بالقرب من الرافعة، وشدّه روبارتو اليها، ثم أخذ يدفع الرافعة، وتأكّد ثانية،عند رفع الجرس، من أن قدمي الشيخ تتدلّيان وأنه لا يسقط من الجرس أو ان هذا الأخير لا ينسلّ من فوق. وكان الأب كسبار يدقّ ويخبّط من الداخل صائحا ان كلّ شيء على ما يرام، وانه ينبغي التعجيل: «إن هذين النعلين الحديديين يجذبان ساقيّ ويكادان يقتلعانهما من بطني! أسرع، أنزلني في الماء»!

وصاح روبارتو من جديد ببعض الجمل المشجّعة، ثم أنزل برفق المركبة بمحرّكها الآدمي. ولم يكن ذلك سهلا، لأنه كان يقوم وحده بعمل نوتيّة كثيرين. لذا بدا له ذلك النزول وكأنه لا ينتهي أبدا، كما لو

كان البحر ينخفض أكثر كلّما ضاعف هو من جهوده. ولكنه في النهاية سمع صوتا على الماء، وأحسّ ان جهده خفّ، وبعد بضع لحظات (بدت له دهرا) أحسّ ان الرافعة تدور الآن في الفراغ. لقد مسّ الجرس القاع. عندئذ قطع الحبل وجرى إلى حافة السفينة لينظر إلى تحت. لم ير شيئا.

لم يبق أثر من الأب كسبار ومن الجرس.

فقال روبارتو في نفسه مبهورا: «يا لهم من عقول، هؤلاء اليسوعيين! لقد نجح! تصوّر، في قاع البحر هناك يسوعيّ يمشي، ولا أحد يمكن ان يتكهن به. جميع أودية المحيطات يمكن ان تمتلىء بيسوعيين، ولا أحد يدري بهم!»

ثم عاد إلى أفكار أكثر رويّة. كون الأب كسبار تحت الماء، فذلك شيء لا شكّ فيه.أمّا أن يعود إلى السطح، فذلك غير مؤكد.

وبدا له ان الماء بدأ يضطرب. كانا قد اختارا ذلك اليوم بالذات لأنه فعلا يوم جميل؛ الاّ أنه، بينما كانا يتمّان العمليات الأخيرة، قامت ريح كانت على ذلك المستوى تخدّد قليلا سطح الماء، ولكن على الشاطىء كانت تحدث أمواجا من شأنها أن تعرقل،فوق الصخور التي صارت عارية، عمليّة الخروج إلى اليابسة.

نحو الطرف الشمالي، حيث يرتفع جدار يكاد يكون مسطّحا ويغوص عموديا في الماء، كان يلحظ هبّات من الزبد كانت تصفع الصخور، متلاشية في الفضاء مثل راهبات نواصع. كان ذلك دون شك من فعل أمواج تضرب بعض الحواجز المرجانية التي كانت متوارية عن أنظاره، ولكن من السفينة كان يبدو ان تنّيناً ينفخ من الأعماق تلك اللّهبات البلّورية.

ولكن الشاطىء كان يبدو أكثر هدوءا، والإزباد كان في وسط

الطريق، وكان هذا بالنسبة لروبارتو مؤشرا طيبا، لأنه يشير إلى المكان الذي كان فيه الحاجز المرجاني يبرز من الماء ويرسم الحدّ الذي من ورائه سيسلم الأب كسبار من الأخطار.

أين الشيخ الآن؟ لو بدأ مسيرته فورا بعد لمسه القاع، يكون قد قطع...ولكن كم مضى من الوقت؟ كان روبارتو قد فقد الإحساس بمرور اللحظات، اذ كانت كلّ لحظة يحسبها تبدو له ردحا من الزمن، فكان إذن ينقص من النتيجة المفترضة، ويقنع نفسه بأن الشيخ نزل لتوّه، وأنه ربما لا يزال تحت الغاطس، يستدلّ طريقه. الاّ أنه عند هذا الحدّ خامره الشكّ ان الحبل، بدورانه حول نفسه أثناء الإنزال، أدار الجرس نصف دورة، والأب كسبار دون أن يدري وجد نفسه ونافذته الصغيرة متجهة نحو الغرب، وهو الآن يسير نحو عرض البحر.

ثمّ كان روبارتو يقول لنفسه انه لو اتجه أحد نحو عرض البحر فسيشعر أنه ينزل عوض أن يصعد، وسيغيّر وجهته. ولكن لو كانت في تلك النقطة صعدة صغيرة نحو الغرب، ومن يتسلّقها يظن انه يسير نحو الشرق؟ الاّ ان اشعة الشمس ستدلّ على الإتجاه الذي يسير فيه الكوكب... ولكن، هل يمكن رؤية الشمس من الأعماق؟ فكأن أشعتها تنفذ من زجاجيات كنيسة، في حزم ضوئية كثيفة، أو تتلاشى منكسرة في قطرات، بطريقة تجعل من يسكن هنالك يرى النور مثل ضوء عديم الإتجاه؟

كلاّ، كان يتراجع بعد ذلك: الشيخ يعرف جيّدا اين يجب ان يذهب، ربما هو الآن في منتصف الطريق بين السفينة والحاجز المرجاني، بل، قد يكون وصل، هوذا، ربّما هو بصدد الصعود بنعليه الكبيرين من الحديد، وبعد قليل سأراه...

وخامره ظن آخر: في الواقع لم يسبق قبل اليوم أن نزل أحد إلى قاع البحر. من يقول لي ان هنالك على بعد بضعة أذرعة لا يدخل في

الظلام المطلق، لا تسكنه الا كائنات تبعث عيونها ببريق غريب...ومن يقول انه في قاع البحر يحتفظ المرء بإدراك الطريق الصحيحة؟ هو ربما الآن يدور في حلقة، معيدا دائما نفس الطريق، إلى ان يتحوّل هواء صدره إلى رطوبة، تدعو الماء الصديق اليها داخل الجرس...

وكان يلوم نفسه لأنه لم يفكّر في حمل ساعة مائية معه على سطح السفينة: كم ترى مضى من الوقت؟ ربّما أكثر من نصف ساعة، هذا كثير، واحسرتاه، وكان يحسّ انّه هو الذي يختنق. عندئذ كان يتنفّس ملء رئتيه، فيحسّ وكأنه يولد من جديد، ويظن ان ذلك دليل على ان اللحظات التي مرّت قليلة وان الأب كسبار كان لا يزال يتمتّع بهواء نقيّ جدّا.

ولكن لعلّ الشيخ انحرف عن الطريق، لا جدوى إذن من أن ينظر أمامه كما لو أنه سيظهر على مسار قذيفة قريبة. يمكن ان يكون قد قام بمنعرجات كثيرة، بحثا عن أفضل ممرّ يقوده إلى الحاجز المرجاني. ألم يقل، بينما كانا يركّبان الجرس، انه من حسن الحظ ان تضعه الرافعة في تلك النقطة بالذات؟ على بعد عشر خطوات نحو الشمال ينحدر الحاجز فجأة مكوّنا جانبا وعراً اصطدم به مرّة القارب، بينما أمام الرافعة يوجد مسلك، مرّ منه القارب إلى أن رسب فوق الصخور التي كانت شيئا فشيئا تقترب من السطح.

الآن، ربما أخطأ في الاحتفاظ بالإتجاه الصحيح، ووجد نفسه أمام جدار، وهو بصدد محاذاته نحو الجنوب باحثا عن المسلك. أو ربّما حاذاه نحو الشمال. يجب أن يدير نظره على طول الساحل، من طرف إلى طرفه الآخر، ربما سيظهر هنالك، متوجا بالأعشاب البحرية... كان روبارتو يجوّل نظره من طرف الخليج إلى طرفه الآخر، وهو يخشى لو نظر نحو الشمال ان تفوته رؤية الأب كسبار وهو يخرج من الناحية اليمنى. ومع ذلك كان بالإمكان التفطن فورا إلى وجود شخص حتى من تلك المسافة، فما بالك بجرس من الجلد يقطر ماء تحت أشعة

الشمس، مثل قدر كبيرة من النحاس غسلت لفورها...

الحوت! قد يكون حقا في الماء حوت مفترس، لا يخيفه بتاتا الجرس، والتهم اليسوعي في لقمة واحدة. كلاّ، لو كان هناك مثل ذلك الحوت لظهر في الماء خياله الداكن: لو كان موجودا فمكانه بين السفينة والصخور المرجانية، لا أبعد. ولكن ربّما وصل الشيخ إلى الصخور، والأشواك الحيوانية أو المعدنية ثقبت الجرس، وأخرجت منه الهواء القليل المتبقّي...

وخاطر آخر: من يثبت لي ان الهواء في الجرس يكفي فعلا لكلّ ذلك الوقت؟ لقد قال هو ذلك، ولكن حدث أن أخطأ بينما كان متأكدا ان حوضه سيعمل على أحسن وجه. في نهاية الأمر اتضح ان هذا الأب الطيّب كسبار مهلوس، وربما كلّ هذه الحكايات عن مياه الطوفان، والهاجرة، وجزيرة سليمان ليست الا كوما من الخرافات. ثمّ، وحتى وإن كان على حقّ فيما يخصّ الجزيرة، يمكن ان يكون أخطأ في تقدير كميّة الهواء اللازمة. وأخيرا، من يقول ان كلّ تلك الزيوت، والمراهم، قد سدّت فعلا جميع الشقوق؟ لعلّ داخل الجرس في هذه الآونة قد أصبح مثل تلك المغارات التي ينبع الماء من كلّ جوانبها، ربما الجلد كلّه يرشح مثل اسفنجة، اليس جلدنا فعلا مثل غربال من الثقوب الدقيقة لا نراها، ولكنها موجودة، ومنها يخرج العرق؟ وإن كان هذا ما يقع بجلد الإنسان يمكن أن يحدث أيضا حتى بجلود الثيران؟ أو أن الثيران لا تعرق؟ وعندما تمطر، أترى الثور يحسّ انه مبلّل حتى من الداخل؟

وكان روبارتو يفرك يديه، ويلعن تسرّعه. كان من الواضح انه يتصوّر ان الوقت الذي مرّ طويل بينما هو لا يتعدّى بضع نبضات. وقال في نفسه انه لا وجوب لأن يرتعد هو، بل لأن يرتعد ذلك الشيخ الشجاع. ربّما عليه هو ان ييسّر رحلته بالصلاة، أو على الأقلّ بالأمل وتسبيق الخير.

وبعد كلّ هذا، كان يقول في نفسه، انني تصوّرت بواعث مأساوية كثيرة ومن طبيعة السوداويين فعلا ان يخلقوا أشباحا لا يقدر الواقع على

الإتيان بمثلها. الأب كسبار يعرف القوانين الهيدروستاتيكية، وسبر قاع ذلك البحر، ودرس الطوفان حتى من خلال الأحفورات التي تسكن جميع البحار.لنتريّث إذاً، يكفي ان أقتنع ان الوقت الذي مرّ قليل جداً، وان اعرف كيف أنتظر.

وتفطّن إلى أنه صار يحبّ الآن ذلك الذي كان في وقت ما «الدخيل»، وأنه يبكي لمجرّد خاطر أن يكون حدث له مكروه. هيّا أيها الشيخ - كان يهمس بينه وبين نفسه - ارجع، عد إلى الحياة، واللّه لأذبحنّ لك أسمن دجاجة، أتريد حقّا أن تذهب وتترك مرصدك المالطي؟

وفجأة تفطّن إلى انه لم يعد يرى الصخور القريبة من الساحل، دليل على أنّ البحر بدأ يرتفع؛ والشمس، التي كان يراها دون أن يرفع رأسه، صارت الآن فوقه عموديا. وإذن منذ ان اختفى الجرس مرّت لا دقائق بل ساعات.

وأعاد على نفسه تلك الحقيقة عدّة مرّات بصوت عال، قبل أن يؤمن بها. لقد حسب ثواني تلك التي كانت في الحقيقة دقائق، وأقنع نفسه ان في صدره ساعة مجنونة، ذات نبضات متسرّعة، بينما ساعته الداخلية هي التي أبطأت سيرها. ترى منذ كم من الوقت، بينما كان يقول لنفسه ان الأب كسبار لم يلبث ان نزل، وهو ينتظر كائنا أعوزه الهواء منذ وقت طويل. ترى كم من الوقت مضى وهو ينتظر جسما ممدّدا فاقد الروح في مكان ما من تلك الأعماق.

ماذا يمكن أن يكون قد حدث؟ كلّ شيء، كلّ ما فكّر فيه هو - والذي شاء خوفه المشؤوم ان يحدث، هو حامل الحظ البائس. ربما كانت مبادىء الأب كسبار الهيدروستاتيكية وهميّة، ربّما يدخل الماء إلى الجرس فعلا من الأسفل، خاصّة عندما يركل ساكنه الهواء خارجا، ماذا كان روبارتو يعرف فعلا عن توازن السوائل؟ أو ان الاصطدام بالقاع كان عنيفا، وانقلب الجرس. أو ربّما تعثّر الأب كسبار في وسط الطريق. أو

أنه تاه السبيل. أو ربّما قلبه ذو السبعين عاما أو أكثر، كان دون همّته، ولم يتحمّل. وأخيرا، من قال انه في ذلك العمق لا يسحق ثقل الماء جلد الجرس كما لو كان ليمونا يعصر أو فولاً يقشّر.

ولكن لو أنه مات لطفا جسمه على سطح الماء؟ لا، كان يشدّه إلى القاع النعلان الحديديان، اللذان لن يتركا ساقيه المسكينتين الا عندما تجعل مياه البحر والأسماك الصغيرة الجشعة من جسمه هيكلا عظميا.

وفجأة لمعت في ذهنه فكرة. ولكن لماذا يحيّر باله بهذه الصفة؟ أكيد، لقد قال له الأب كسبار ان الجزيرة التي يراها أمامه ليست جزيرة اليوم، بل هي جزيرة الأمس. في الجهة الأخرى من خط الهاجرة لا يزال هناك اليوم المنصرم! هل يمكن أن ينتظر الآن أن يرى على ذلك الشاطىء، حيث لا يزال هناك الأمس، شخصا غاص في الماء اليوم؟ دون شكّ لا. لقد غاص الشيخ في اول صباح الإثنين، ولكن، إن كان اليوم على السفينة هو الإثنين فعلى تلك الجزيرة لا يزال اليوم يوم الأحد، وإذن لن يتمكّن من رؤية الشيخ وهو يصعد إلى الجزيرة الاّ في أوّل صباح غده هو، عندما يبدأ على الجزيرة يوم الإثنين...

يجب أن أنتظر إلى يوم الغد، كان يقول في نفسه. ثمّ: ولكن كسبار لا يقدر أن ينتظر يوما كاملا، لن يكفيه الهواء! وشيء آخر: ولكن أنا هو الذي يجب ان ينتظر يوما، هو دخل بكلّ بساطة في يوم الأحد ما ان اجتاز خط الهاجرة. آه يا إلهي، إذن الجزيرة التي أراها هي جزيرة الأحد، وإن وصلها يوم الأحد، فقد كان عليّ ان أراه! كلاّ، إنني أخطىء كلّ شيء. الجزيرة التي أراها هي جزيرة اليوم، من المستحيل ان أشاهد الماضي كما لو كان في كرة سحريّة. هناك على الجزيرة، هناك فقط هو يوم الأمس. ولكن ان كنت أرى جزيرة اليوم، فيجب إذن ان أراه، بما انه موجود في أمس الجزيرة، ويتهيأ ليعيش يوم أحد آخر...وبعد هذا كلّه، ان كان قد وصل الأمس أو اليوم، فيجب ان يكون قد ترك على الشاطىء الجرس الممزق، ولكنني لا أراه. ولكن

يمكن ان يكون حمله معه داخل الغابة. متى؟ أمس. إذن: لنفترض ان الجزيرة التي أراها هي جزيرة الأحد. يجب أن أنتظر الغد لأراه يصل يوم الإثنين...

يمكن أن نقول ان روبارتو فقد نهائيا كلّ صواب، وليس ذلك غريبا: كيفما حسب، لا تعطيه حساباته جوابا مقنعا. فمفارقات الزمن من شأنها ان تفقدنا نحن أيضاً صوابنا. كان من الطبيعي إذن ان لا يعرف ماذا يجب ان يفعل: وانتهى به الأمر ان فعل ما يفعله كلّ من يتبع خيطا من الأمل. قبل ان يستسلم لليأس، قرّر أن ينتظر اليوم المقبل.

كيف أمكنه ذلك، هذا ما يصعب قوله. جيئة وذهابا فوق سطح السفينة، دون ان يمسّ طعاما، متحدثا إلى نفسه، إلى الأب كسبار وإلى النجوم، ملتجئاً ربما من جديد لشرب ماء الحياة. على كلّ حال نجده في اليوم الموالي، بينما الليل يبيضّ والسماء تتلوّن، ثم عند مطلع الفجر، وقلقه يزيد مع مرور الساعات، ثم نجده مضطربا بين الحادية عشرة ومنتصف النهار، وكالمخبول بين منتصف النهار والغروب، إلى ان اضطرّ اخيرا إلى الخضوع للأمر الواقع ـ وهذه المرّة دون أدنى شكّ. يوم أمس، وبكلّ تأكيد يوم أمس، غاص الأب كسبار في مياه المحيط الجنوبي ولا أمس ولا اليوم خرج منها. وبما ان سحر الهاجرة المعاكسة يحوم كلّه بين الأمس والغد، وليس بين الأمس وبعد الغد، أو الغد والأمس الآخر، فقد بات الآن مؤكدا ان الأب كسبار لن يخرج أبدا من ذلك البحر.

وبيقين رياضيّ، بل كسموغرافي وفلكي، اتضح ان صديقه المسكين قد هلك. ولا يمكن حتى ان يعرف اين انتهى جثمانه. في مكان غير محدّد هناك تحت الماء. ربما توجد تيّارات عنيفة تحت سطح الماء، حملت ذلك الجسم إلى عرض البحر.أم لا، تحت دافني توجد هوّة، أو وهد، حطّ عليه الجرس، ومن هناك لم يقدر الشيخ على الصعود، مستنفدا الهواء القليل، المتحوّل إلى ماء، وهو يطلب النجدة.

ربما حاول ان يفلت من سجنه، وأن يحلّ الأربطة التي كانت تشدّه، والجرس الذي لا يزال فيه الهواء قفز إلى أعلى، ولكن أجزاءه الحديدية كبحت تلك الانطلاقة الأولى وجعلته يبقى بين مائين، والله يعلم اين. وربما حاول الأب كسبار ان يتخلّص من نعليه الحديديين، ولكنه لم يتمكن من ذلك. والآن، في ذلك الوادي، يتمايل جسمه الخالي من الحياة، وهو مزروع في الصخر، مثل أشنة.

وبينما كان روبارتو يفكّر في كلّ هذا، كانت شمس الثلاثاء قد صارت وراء ظهره، واللحظة التي خطف فيها الموت الأب كسبار واندراردروسّال كانت تصبح شيئا فشيئا بعيدة.

كان الغروب يصوّر سماء يرقانيّة وراء اخضرار الجزيرة الداكن، وبحرا قاتما. وفهم روبارتو ان الطبيعة حزينة لحزنه ومثلما يحدث احيانا لمن يفقد شخصا عزيزا عليه، شيئا فشيئا لم يعد يبكي كارثة التعيس، ولكن كارثته هو، ووحدته هو التي عاد اليها.

لقد أفلت منها مدّة أيام قلائل، وصار الأب كسبار بالنسبة اليه الصديق، والأب، والأخ، والعائلة والوطن. الآن تفطّن إلى انه عاد من جديد وحيدا منفيا. وهذه المرّة للأبد.

الاّ انه وسط كلّ ذلك الشجن كان حلم آخر ينشأ في خاطره. الآن بات متأكدا ان الطريقة الوحيدة للخروج من منفاه لا يجب ان يبحث عنها في «الفضاء» المتعذّر عبوره، بل في «الزمن».

الآن يتعيّن عليه حقيقة ان يتعلّم السباحة وأن يبلغ الجزيرة. وليس همّه الأكبر ان يعثر على بقايا الأب كسبار التائهة في طيّات الماضي، بل أن يمنع تقدّم غده الرهيب.

26

مسرح الرموز

بقي روبارتو طيلة ثلاثة أيام وعينه ملتصقة بمنظار السفينة (ساخطاً لأن المنظار الآخر، والأكثر قوّة، صار الآن غير صالح للاستعمال)، يراقب قمم الأشجار على الشاطىء. كان ينتظر ان يلمح الحمامة البرتقالية اللون.

في اليوم الثالث ثاب إلى رشده. لقد فقد صديقه الوحيد، وها هو تائه على أكثر خطوط الزوال بعدا، ويكفيه مواساة ان يرى طائرا ربّما لم يرفرف الآ في رأس الأب كسبار!

قرّر أن يزور من جديد ملجأه ليفهم كم سيمكنه أن يعيش على متن السفينة. كانت الدجاجات تواصل بيضانها، ونشأت مجموعة من الكتاكيت. من بين النباتات التي جمعت لم يبق الكثير، لقد جفّت ويبست، بينما كان يجب ان تصلح لتغذية الطيور. كانت لا تزال هناك بعض البراميل من الماء، ولكن بجمع ماء المطر يمكن حتى الاستغناء عنها. وأخيرا، لن ينقصه السمك.

ثمّ فكّر أنه بدون أكل النبات الطازج يمكن للمرء ان يموت بداء الحفر. هناك نباتات الدفيئة، ولكنها لن تحصل على الماء بصفة طبيعية الا عندما تمطر: لو جاءت فترة طويلة من الجفاف لتعيّن ان يسقيها من الماء المخزون للشرب. وإن جاءت عاصفة ودامت أياما وأياما، سيكون لديه الماء، ولكن لن يمكنه ان يصطاد.

وحتى يهدىء من روعه عاد إلى قاعة الأرغن المائي، الذي كان الأب كسبار قد علّمه كيف يشغّله: كان يستمع دائما وفقط للحن «دافني»، لأنه لم يتعلّم كيف يعوض الأسطوانة؛ الاّ انه لم يكن يضجره ان يستمع ساعات وساعات إلى نفس النغم. ذات يوم ماثل دافني السفينة، بجسم المرأة المحبوبة. أليست دافني مخلوقة تحوّلت إلى غار - إلى مادّة شجريّة، إذن، شبيهة بالمادة التي صنعت منها السفينة؟ فالنغم كان إذن يحدّثه عن ليليا. كما نرى، سلسلة الأفكار مضطربة تماما - ولكن هكذا كان روبارتو يفكّر.

ولام نفسه لأنه تلهّى بقدوم الأب كسبار، ولأنه تبعه في نزواته الميكانيكية، ولأنه نسي العهد الذي قطعه على نفسه كمحبّ. تلك الأغنية الوحيدة، التي يجهل كلماتها، ان هي وجدت يوما ما، كانت تتحول إلى الصلاة التي كان يريد ان تهمس بها الآلة كل يوم، «دافني» تعزفها المياه والرياح في أعماق دافني، ذاكرة التحول القديم لدافني إلهية. كل مساء، بينما ينظر إلى السماء، كان ينغّم ذلك اللحن بصوت خافت، مثل ترجيعة كئيبة.

ثمّ يرجع إلى حجرته ويعود للكتابة إلى ليليا.

وأثناء القيام بذلك تفطّن إلى انه قضى الأيام الفارئتة في الهواء الطلق وفي النهار، وأنه يلتجىء من جديد إلى نصف العتمة تلك التي كانت في الحقيقة وسطه الطبيعي ليس فقط على متن دافني، قبل ان يلتقي بالأب كسبار، وإنما طيلة عشر سنوات أو أكثر، منذ زمن جرح «كزالي».

في الحقيقة، لا أظن انه طيلة كلّ ذلك الوقت، عاش روبارتو، كما يريد بإلحاح ان يوهمنا بذلك، حياة ليلية فقط. أن يكون تفادى ساعات القيلولة، فذلك محتمل، ولكنه عندما كان يقتفي آثار ليليا فقد كان يفعل ذلك اثناء النهار. أظن ان ذلك المرض ناتج من السويداء أكثر

ممّا كان ناتجا فعلا من اضطراب الرؤية: كان روبارتو يتفطّن إلى ان النور يؤذيه في الفترات الأكثر سوداوية، ولكن عندما يكون فكره متفرّغا لأشياء أخرى أكثر انشراحا، فقد كان لا يقيم له وزنا.

على كلّ، مهما كان الأمر الآن أو في السابق، لقد وجد روبارتو نفسه وهو يتأمل للمرّة الأولى في سحر الظلال. بينما كان يكتب، أو يرفع الريشة ليغمسها في المحبرة، كان يرى النور مثل هالة ذهبيّة على الورق، أو مثل هدب شمعي يكاد يكون شفّافا، يرسم تقاطيع أصابعه الداكنة. كما لو كان يسكن داخل يده نفسها ويظهر فقط على أطرافها. من حوله كلّه كان مغلفا في عباءة راهب كبوشي عطوفة، بكلمة أخرى بشيء يشبه نورا رماديا أحمر، ما ان يمسّ العتمة حتى يموت فيها.

وكان ينظر إلى شعلة المصباح، فيرى فيها نارين تتولّدان منها: في الأسفل كانت حمراء، حيث تكوّن جسما واحدا مع المادّة الزائلة، ولكنها عندما ترتفع كانت ذات بياض يخطف البصر،وتتبخّر في لسان طرفه في لون العناقية. هكذا حبّه، كان يقول لنفسه، يغذّيه جسم زائل، ويولّد شبح حبيبته السماوي.

أراد ان يحتفل، بعد بضعة أيام من الخيانة، بتلك المصالحة مع العتمة وصعد فوق سطح السفينة بينما كانت الظلال تمتدّ في كلّ النواحي، على السفينة، على البحر، على الجزيرة، حيث لا يرى منها الآن الاّ اسوداد الهضاب السريع. بحث، وقد عادت له ذكرى من ريفه، ليلحظ على الشاطىء وجود الحباحب، شرارات حيّة مجنّحة تطير وسط ظلام الأدغال. لم يرها، وبقي يتأمّل في ضديدات المتقاطرات، حيث الحباحب لا تضيء دون شك الا عند الزوال.

ثم استلقى للنوم على طرف المؤخرة، يهدهده تمايل السطح، وبقي ينظر إلى القمر، بينما كان يصله من الجزيرة صوت ارتداد الأمواج يتخلّله صرير الجداجد أو أمثالها في هذا النصف من الكرة الأرضية.

كان يفكّر ان جمال النهار هو مثل جمال أشقر، بينما جمال الليل هو جمال أسمر. واستلذ تباين عشقه لآلهة شقراء وتمتّعه به في سمرة الليالي. وعندما تذكّر ذلك الشعر في لون القمح الناضج الذي كان يطمس كل الأنوار الأخرى في صالون «أرتينيس»، أراد ان يكون القمر جميلا حتى يحلّ في رقّته اشعة شمس خفيّة. ومنّى نفسه على ان يجعل من النهار المستعاد مناسبة جديدة ليقرأ في انعكاس النور اللاعب على الأمواج مديح الذهب في شعرها والزرقة في عينيها.

الاّ أنه كان يستمتع بجمال الليل عندما كان كلّ شيء يبدو هادئا، والنجوم تسبح بصمت أعمق من الشمس ـ فتظنّ انك في الكون كلّه الشخص الوحيد الذي يحلم.

كان تلك الليلة على وشك ان يقرّر انه سيبقى طوال كلّ الأيام المقبلة على السفينة. ولكنه عندما رفع عينيه إلى السماء رأى مجموعة من النجوم بدت فجأة وكأنها ترسم له صورة حمامة مفتوحة الجناحين، تحمل في منقارها غصن زيتون. صحيح أن في السماء الجنوبية، على مسافة غير بعيدة من الكلب الأكبر، كان قد تمّ منذ اربعين سنة على الأقلّ رصد كوكبة نجوم الحمامة. ولكنني لست متأكدا تماما ان روبارتو، من موقعه، في تلك الساعة وفي ذلك الفصل كان بإمكانه ان يشاهد فعلا تلك النجوم. على كلّ، بما أنه من رأى فيها صورة حمامة (مثل يوهانس باير في Uranometria Nova، وبعده بمدّة طويلة كورونيلّي في كتابه Libro dei Globi) كان خياله يبدو أقوى من خيال روبارتو، يمكن ان أقول ان أي تركيبة نجميّة، في تلك الآونة، كانت تبدو لروبارتو حمامة، أو طورانيّاً، أو ورشاناً أو يماماً، أو ترغلة، كيفما أردتم ان تسمّوها: ومع انه في الصبّاح كان قد داخله الشكّ في وجودها، فالحمامة البرتقالية اللون ولجت دماغه مثل مسمار ـ أو، كما سنرى ذلك، مثل مسمار منجّد مذهّب.

وعلينا فعلا ان نتساءل لماذا، عند أوّل إشارة من الأب كسبار،

ومن بين العجائب الكثيرة التي كانت الجزيرة تمنّيه بها، لم ينشغل بال روبارتو إلى ذلك الحدّ الاّ بالحمامة.

سنرى، كلّما تقدّم بنا الحديث عن هذه القصّة، كيف انه في فكر روبارتو (الذي جعلته الوحدة يصير يوما بعد يوم اكثر هيجانا)، ستصبح تلك الحمامة التي لمّح اليها في الحديث تلميحا خاطفا ستصبح حيّة أكثر كلّما استعصى عليه ان يشاهدها، مجمل لامرئي من هيام نفسه العاشقة، إعجاب، تقدير، إكبار، أمل، غيرة، حسد، انشداه وحبور. لم يكن واضحا لديه (ولن يكون واضحا لدينا) أنّها اصبحت الجزيرة، أو ليليا، أو الإثنتين معا، أو الأمس الذي نفيت فيه ثلاثتها، لذلك المنفيّ في حاضر لا ينتهي، لا مستقبل له الا الوصول، في غد ما، إلى اليوم المنصرم.

يمكننا ان نقول ان كسبار ذكر له نشيد سليمان، ومن غرائب الصدف، ان استاذه الكرملي كان قد أعاده عليه مرّات ومرّات إلى ان حفظه عن ظهر قلب: ومن عهد الشباب وهو يصبو في انتظار رقيق إلى كائن ذي عيني حمامة، إلى حمامة يرقب وجهها وصوتها بين شقوق الصخور...ولكن هذا لا يقنعني الاّ إلى حدّ ما. أظن انه يتعيّن علينا ان ندخل في «شرح الحمامة»، أي ان نضع بعض السطور لدراسة مقبلة يكون عنوانها Columba Patefacta وهذا المشروع لا يبدو لي عديم الفائدة بالمرّة، بما ان آخرين خصّصوا باباً كاملا للتساؤل عن «معنى الحوت» ـ التي هي حيوانات قبيحة سوداء أو رمادية (والبيض يوجد منها على الأكثر واحد)، بينما نحن نجد أنفسنا أمام rara avis وأندر منها هو لونها، وبشأنها فكّرت البشريّة أكثر بكثير ممّا فكّرت في الحوت.

هذه هي فعلا النقطة الأساسية. مهما كان من أمره إن تحدّث في ذلك مع الكرملي أو تناقش فيه مع الأب إيمانويل، إن هو تصفّح كتبا عديدة كانت في وقته ذلك تعتبر من امهات الكتب، أو انه استمع في باريس إلى مقالات حول تلك التي يسمّونها هناك رموزا أو صورا ملغزة، فروبارتو ـ حول الحمام ـ كان لا بدّ على علم ببعض الشيء.

لنذكّر ان تلك كانت عصورا تبتدع فيها أو تكتشف فيها من جديد صور من كل نوع يرى الناس من خلالها معاني خفيّة وموحية. يكفي ان يشاهد احد لا أقول زهرة جميلة، أو تمساحا، بل وحتى سلّة، أو سلّما، أو غربالا أو عمودا ليبني حوله شبكة من الأشياء، لا تبين لأحد آخر من أول وهلة. لا أريد أن اطيل الحديث هنا في الفرق بين الرمز والشعار، والطرق المختلفة التي تلتحم بها الأبيات والكلمات بهذه الصور (يكفي ان اشير إلى ان الشعار، من وصف شيء معيّن، لا يعبّر عنه بالضرورة من خلال صورة، يستخرج معنى شاملا، بينما الرمز ينطلق من الصورة الفعليّة لشيء ما إلى ميزة أو قول شخص منفرد، كما لو قلت «سأكون ناصعا أكثر من الثلج» أو «أدهى من الأفعى»، أو أيضاً «افضّل أن أموت على أن أخون»، إلى ان نصل إلى الشهيرة جدّا Frangar non Flectar e Spiritus durissima coquit، ولكن أناس تلك العصور كانوا يعتقدون انه من الضروري ان يترجموا العالم كلّه إلى غابة من الرموز، والإشارات، والألعاب الفرسانية، والأقنعة، والرسوم، والأسلحة السيّادية، والنصب، وشعارات الشرف، والصور الساخرة، والمنحوتات على قفا القطع النقدية، والأساطير، والاستعارات، والأمثال، والأهاجي، والحكم، والالتباسات، والقسائم، والرسائل المقتضبة، والقبّريات، والذيول، والمنقوشات الحجرية، والدروع، والنذور، والقنويات، وعند هذا الحدّ أتوقّف، ان سمحتم ـ لأنهم كانوا لا يتوقّفون. وكلّ رمز جيّد كان لا بدّ ان يكون مجازيا، شعريا، فيه دون شكّ روح ينبغي الكشف عنها، ولكن قبل كلّ شيء هو متكوّن من جسم حسّاس يذكّر بشيء موجود في الكون، ويجب ان يكون نبيلا، رائعا، جديدا ولكن يمكن التعرّف عليه، ظاهرا ولكنه فاعل، مفرد، متناسب مع الفضاء، ثاقب ووجيز، ملتبس وصريح، شائع الإلغاز، مناسب، لبق فريد وبطل.

باختصار، كان اللغز موازنة غامضة، وتعبيرا عن تطابق؛ قصيدة لا

تغنّى، ولكنها متكوّنة من صورة صامتة ومن كلمة تتحدّث باسمها إلى البصر؛ نفيس لأنه لا محسوس، روعته كامنة في الدرر والألماس التي لا يظهرها الاّ حبّة بعد حبّة. يقول الكثير بأقلّ ضجّة، وحيث تتطلّب القصيدة الحماسية أساطير ومشاهد، أو التاريخ مداولات وخطبا، يكفي خطّان ومقطع للغز: عطوراته تسيل فقط قطرة قطرة لا تحسّ، وعند ذلك فقط تمكن رؤية الأشياء في ثوب مدهش، مثلما يحدث مع الغرباء أو مع الأقنعة. إنه يخفي أكثر ممّا يكشف. لا يملأ الفكر بالمادة ولكنه يغذّيه بالجوهر. إنه يجب ان يكون (بعبارة كانت آنذاك كثيرة الاستعمال وسبق ان استعملناها) زائرا، ولكن زائرا يعني غريبا عن المكان، وغريب عن المكان يعني غريبا.

وهل أغرب من حمامة برتقالية اللون؟ بل، هل أرحل من حمامة؟ ايه، كانت الحمامة صورة ثريّة بالمعاني، وهي ثاقبة بقدر ما يتخالف كلّ معنى مع الآخر.

أوّل من تحدّث عن الحمامة كان، كما هو طبيعي، المصريون، منذ الهيروغليفيا القديمة جدا المنسوبة لهورابولّو، ومن بين الأشياء العديدة الأخرى، كان هذا الحيوان يعتبر أطهر المخلوقات، حتى انه عندما يكون هناك الطاعون ويسمّم البشر والأشياء، كان ينجو منه اولئك الذين اقتصروا في طعامهم على أكل الحمام. وهذا يبدو جليّا، اذ ان هذا الحيوان هو الوحيد من بين جميع الحيوانات الأخرى الخالي من المرّة (اي السمّ الذي نجده لدى الحيوانات الأخرى ملتصقا بالكبد)، وكان بلينيو يقول انه عندما تمرض الحمامة، تقطف ورقة رند وتشفى بها. وان كان الرند هو الغار، والغار هو دافني، أظنكم قد فهمتموني.

ولكن، رغم طهارته، فالحمام هو أيضاً رمز الخبث، لأنه يستنفد نفسه في الشبق: انه يقضي اليوم كلّه في التقبيل (مضاعفا من التقبيل ليسكت أحدهما الآخر) مع تشبيك اللسان، ومن هنا جاءت عبارات كثيرة داعرة مثل لعب بالشفاه مثل الحمام وقبل حماميّة، مثل ما يقول

الذمميّون. وحمحم مثل ما يقول الشعراء بمعنى المضاجعة مثل الحمائم، وبنفس كثرة الإقبال عليه. ولا ننسى ان روبارتو كان دون شك يعرف تلك الأبيات التي تقول: «عندما استفاق الشوق في المضجع/ وألهبت نار الحب قلب المتيّمين / مثل الحمائم تجيب نداء القلبين / قطف أحدهما من الآخر قبلة أو قبلتين». ولنلاحظ انه ـ بينما الحيوانات الأخرى لها فصل معيّن للسفاد ـ ليس هناك وقت في السنة لا تتجامع فيه الحمائم.

وحتى نبدأ، فالحمائم أصلها من قبرص، وهي جزيرة مقدّسة لدى فينوس. أبوليو، ولكن آخرين أيضا قبله، يذكرون ان عربة فينوس تجرها حمائم ناصعة البياض، تسمّى فعلا طيور فينوس لشبقها المفرط. وآخرون يذكّرون بأن اليونانيين يسمّون الحمامة بيريستيرا لأن إيروس من فرط الغيرة حوّل إلى حمامة الحورية بيريستيرا ـ التي كانت فينوس تحبّها كثيرا ـ لأنها ساعدتها في التغلب عليه في مسابقة لجمع الأزهار. ولكن ماذا يعني ان فينوس كانت تحبّ بيريستيرا؟

يقول ايليانو ان الحمائم منذورة لفينوس لأنه على جبل ايريتشي في صقليّة كان يقام حفل عندما كانت الألهة تمرّ فوق ليبيا؛ في ذلك اليوم، في صقليّة جميعها لا ترى حمامة واحدة، لأنها عبرت جميعها البحر للمشاركة في موكب الآلهة. ولكن بعد ذلك بتسعة ايام من سواحل ليبيا جاءت إلى تريناكريا حمامة حمراء مثل النار، كما يقول أناكريونت (وأرجوكم ان تنتبهوا إلى هذا اللون)؛ وكانت فينوس نفسها، التي تدعى فعلا ارجوانة، ومن ورائها كانت تأتي كوكبة الحمائم الأخرى. وإيليانو دائما يقول انها فتاة اسمها فيتيا أحبها جوبيتر وحوّلها إلى حمامة.

وكان الأشوريون يمثّلون سميراميس في شكل حمامة، والحمائم هي التي ربّت سميراميس، ثمّ حوّلتها إلى حمامة. وجميعنا يعرف انها لم تكن امرأة ذات سلوك طاهر، ولكنها كانت على قدر من الجمال حتى ان سكوروبات ملك الهنود شغف بها شغفا لا حدّ له، بينما كانت

هي خليلة ملك أشوريا، ولا يمرّ يوم واحد دون ان تزني، والمؤرخ يوبا قال انها كانت ولهة أيضاً بحصان.

ولكن لرمز الحبّ تغفر عدّة أشياء، دون ان ينقص ذلك من فتنة الشعراء به: ومن ذلك (ولا أتصوّر ان روبارتو يجهل ذلك) بترارك الذي يتساءل «اي رقّة، أي حبّ أو أي حظّ - يعطيني ريشا مثل الحمام؟»، أو بانديلّو: «هذه الحمامة مثلي في الوله/ تذوب حبّا في نار الوجد/ وتمضي بحثا في كلّ مكان/ عن خليلها، ومن الشوق تموت».

ولكن الحمائم هي شيء أحسن وأفضل من امرأة مثل سميراميس، ويحبّها المرء لأن لها هذه الخصوصية الأخرى اللطيفة، وهي أنها تبكي، أو تنوح، عوض ان تشدو، كما لو ان العشق كلّه الذي ارضته لا يشبع رغبتها Idem cantus gemitusque، كان يقول مجاز لكاميراريوس؛ Gemitibus Gaudet، كان يقول مجاز آخر بشهوانية تحيّر أكثر. ما يكفي العقل ليجنّ.

ومع ذلك فهذه الطيور التي لا تفتأ تقبّل بعضها البعض والتي هي شهوانية إلى هذا الحدّ - وفي هذا تناقض جميل يميّز الحمامة - هو أيضاً دليل على انها وفيّة جدّا، ولذا هي في نفس الوقت رمز للعفّة، على الأقلّ بمعنى الأمانة الزوجية. وكان بلينيو قد أكّد ذاك: مع أنها عاشقة جدا فهي تملك حسّا كبيرا بالعفّة ولا تعرف الزنا. ويشهد بأمانتها الزوجية سواء بروبارتسيو الوثني أو ترتوليان. ويقال، هذا صحيح، انه في الحالات النادرة التي يشتبه فيها الزنا، يصبح الذكر مستبدّا، ويمتلىء صوته باللوم وتصير ضربات منقاره قاسية.ولكن فورا بعد ذلك، وكأنه يريد ان يصلح الضّرَر، يغازل الذكر الأنثى، ويتودّد اليها بالطواف حولها مرّات عديدة. دليلا على ان الغيرة المجنونة تحرّك الحبّ، وهذا الأخير يولّد اخلاصا جديدا - ومن جديد بالتقبيل والتقبيل إلى ما لا نهاية له وعلى مدى كلّ الفصول - وهذا يبدو لي جميلا وكما سنرى، هو جميل جدا بالنسبة لروبارتو.

كيف لا يحبّ المرء صورة تعده بالوفاء؟ وفاء حتى بعد الموت، لأنه عندما يفقد أحد الطائرين رفيقه فهو لا يرتبط برفيق آخر. لذا اتخذت الحمامة رمزا للترمّل العفيف، حتى وان روى «فيرّو» قصّة أرملة، من حزنها الشديد على موت زوجها، اتّخذت بجوارها حمامة بيضاء فلاموها على ذلك، فكان ردّها Dolor non color، ما يهمّ هو الحزن لا اللون.

باختصار، شهوانية كانت ام لا، هذا الإخلاص للحبّ جعل أوريجين يقول ان الحمائم هي رمز للرحمة. لذا، يقول سان سيبريان، يأتينا الروح القدس في شكل حمامة، لأن هذا الحيوان ليس فقط هو خال من المرّة، ولكن لأنه لا يخدش بمخالبه، ولا يعضّ، ومن طبيعته ان يستأنس ببيوت البشر، ولا يعرف الا بيتا واحدا، ويطعم صغاره ويقضي حياته في حوار مشترك، متبادلا مع رفيقه في وئام - عفيف جدا هذه المرّة - أحاديث القبل. ممّا يبين ان التقبيل يمكن ان يدلّ على حبّ كبير للغير، والكنيسة تمارس طقس قبلة السلام. والتقبيل كان من عادة الرّوم في مقابلاتهم واستقبالاتهم، حتى بين الرجل والمرأة. وبعض المعلّقين القدامى ذوي النيّة السيئة يقولون انهم يفعلون ذلك لأنه كان ممنوعا عن النساء شرب الخمر، وبتقبيلهن يراقب ذلك من رائحة الفم، ولكن باختصار، كان النوميديون يعتبرون متعجرفين لأنهم لا يقبلون الاّ صغارهم.

وبما ان الشعوب جميعها تعتبر الهواء نبيلا جداً، فقد قدّسوا الحمامة لأنها تطير في الهواء أعلى من غيرها من الطيور، ومع ذلك تعود دائما بأمانة إلى عشّها. وهو ما يفعله أيضاً الخطاف، ولكن لا أحد استطاع ان يجعل منه صديقاً لجنسنا وأن يأنّسه، بينما الحمامة نعم. سان بازيليو يذكر مثلا ان زاجلي الحمام كانوا يرشّون الحمامة ببلسم معطّر، فتجذب اليها الحمام الآخر الذي يتبعها في مجموعة كبيرة Odore trahit. ولا أدري ان كان لهذا دخل مع ما سبق ذكره، ولكن شغفتني هذه الرقّة المعطّرة، هذه الطهارة الذكيّة، هذه العفّة الفاتنة.

ومع ذلك ليست الحمامة عفيفة ومخلصة فقط، بل هي أيضاً بسيطة columbina simplicitas: (كن حذرا مثل الثعبان وبسيطا مثل الحمامة، هكذا يقول الكتاب المقدّس)، ولذا هي أحيانا رمز الحياة الرهبانية والزاهدة ـ ورجائي ان لا تسألوني ما دخل هذا مع كلّ تلك القبل.

ومن دواعي الافتتان الأخرى بالحمامة هو : la trepiditas فاسمها اليوناني هو trenon ويأتي دون شك من treo، «أفرّ مرتعدة». وفي هذا الخصوص يقول هوميروس، أوفيديوس وفرجيل ("مرتعدين مثل الحمائم في عاصفة قاتمة")، ولا ننسى ان الحمائم تعيش في خوف دائم من العقاب أو، شرّ من ذلك، من النسر. ونقرأ في فاليريانوس انها فعلا لهذا السبب تبني عشّها في اماكن صعبة المنال لتحمي نفسها (ومن هنا قول Secura nidificat)؛ وإرميا كان قد ذكر ذلك، بينما المزمور الخامس والخمسون يبتهل «لو كان لي ريش مثل الحمامة... لابتعدت هاربا!»

ويقول اليهود ان الحمام واليمام هي الطيور المضطهدة أكثر من غيرها، لذا هي جديرة بالتقديس، لأنه من الأفضل للمرء ان يكون مضطهدا من ان يضطهد غيره. ولكن بالنسبة لأريتينو، الذي هو أقلّ وداعة من اليهود، من يجعل من نفسه حمامة، يفترسه الصقر. الاّ ان إبيفانيو يقول ان الحمامة لا تحتمي أبدا من المخاطر، وأغوستين يضيف انه ليس فقط لا تحمي نفسها من الحيوانات الكبيرة التي لا تقدر ضدّها شيئا، بل وحتى من العصافير.

وتروي أسطورة انه كان في الهند شجرة كثيفة الأوراق وخضراء يانعة تدعى باليونانية Paradision. في الجهة اليمنى منها كانت تسكن الحمائم ولا تبتعد أبدا عن الظلّ الذي يمتدّ منها؛ لو ابتعدت عن الشجرة لأضحت فريسة لتنين كان عدوّها اللدود. ولكن عدوّ التنين كان ظلّ الشجرة، وعندما يكون الظلّ على اليمين كان هو يتصيّدها على اليسار، والعكس بالعكس.

ولكن، مع أنها خوّافة، فالحمامة لها شيء من حذر الثعبان، وإن كان هناك في الجزيرة تنين، فالحمامة في لون البرتقال ستعرف كيف تدافع عن نفسها: وفعلا يقال ان الحمامة تطير دائما على سطح الماء، لأنه عندما ينقضّ عليها الصقر، ترى هي خياله في الماء. ولكن في نهاية الأمر، هل تدافع عن نفسها من المخاطر أم لا؟

مع جميع هذه الصفات المختلفة والمتناقضة، كان للحمامة ان تصير أيضاً رمزا صوفيا، ولا فائدة من أن أضجر القارىء بقصّة الطوفان، وبالدور الذي عهد للحمامة في التبشير بالسلام وبهدوء العناصر، وببروز أراض جديدة من الماء. ولكن بالنسبة لعديد المؤلفين في التاريخ المقدّس هي أيضاً رمز الأمّ المتألمة، وأنّاتها العاجزة. ويقال في شأنها انها Intus et extra، لأن داخلها ناصع مثل خارجها. ويمثّلونها احيانا وهي تقطع الحبل الذي يشدّها أسيرة، Effracto libera vinculo، وتصير صورة للمسيح المبعث من الموت. وهي اضافة إلى ذلك، ويبدو هذا مؤكدا، تصل عند العصر، كي لا يفاجئها الليل، وإذن تتفادى ان يغدرها الموت قبل ان تغسل وصمات الخطيئة. حتى لا نذكر، وقد سبق ان قلناه، ما جاء في يوحنّا: «إني قد رأيت الروح نازلا مثل حمامة من السماء فاستقرّ عليه».

أمّا عن الرموز الحمامية الأخرى، فمن يدري كم كان روبارتو يعرف منها: مثل Mollius ut cubant، لأن الحمامة تنزع ريشها لتفرش به العشّ وتجعله ألين لصغارها؛ Luce lucidior، لأنها تسطع عندما ترتفع نحو الشمس؛ Quiescit in motu، لأنها تطير دائما بجناح مطوي حتى لا تكلّف نفسها عناء كبيرا. وهناك جنديّ، لتبرير حبّه المفرط، اتخذ لنفسه كشعار خوذة عشّش فيها زوج من الحمام، مع هاتين العبارتين Amica Venus.

قد يبدو لمن يقرأ ان الحمامة تحمل معاني لا تحصى ولا تعدّ. ولكن من يريد ان يختار رمزا أو هيروغليفا، ويغلق نفسه عليه، يجب ان تكون معانيه كثيرة، وإلاّ يغدو كمن يسمّي الخبز خبزا والخمر خمرا، أو الذرّة ذرّة والفراغ فراغا. وهذا يمكن ان يحلو للفلاسفة الطبيعيين الذين كان روبارتو يلاقيهم عند دوبوي، ولكن ليس للأب إيمانويل ـ ونحن نعرف ان صاحبنا كان تارة يميل إلى هذه أو إلى تلك من النزعتين. أخيرا، الجميل في الحمامة، على الأقل (حسب ظني) بالنسبة لروبارتو، انها ليست فقط، مثل كل رمز أو شعار، رسالة، ولكنها رسالة رسالتها هي لا نفاذية الرسائل الثاقبة.

عندما كان على إينيا ان ينزل إلى «أفارنو» ـ وان يلتقي هو أيضاً بطيف والده، وإذن اليوم أو الأيام المنصرمة ـ ماذا فعلت سبيلاً؟ قالت له، صحيح ان يذهب ويدفن ميسان، وان يقدّم القرابين من ثيران وحيوانات أخرى، ولكن ان كان يريد حقا ان يقوم بعمل لم يسبق لأحد قبله ان ساعده الجأش، أو القدر، على القيام به، هو ان يجد شجرة ظليلة مورقة فيها غصن من ذهب. الغاب يكتنفها وتحيط بها وهاد مظلمة، ولكن، بدون ذلك الغصن «auricomus»، لا يمكن النفاذ إلى أسرار الأرض. ومن يساعد إينيا على اكتشاف الغصن؟ حمامتان، أي ـ وقد اصبحنا نعرف ذلك ـ طيور أمومية. والباقي يعرفه حتى الأرمص والحلاق. باختصار، فرجيل لا يعرف شيئا عن نوح، ولكن الحمامة تحمل رسالة، تشير إلى شيء معين.

ومن ناحية أخرى كانت الحمامة تقوم بوظيفة وسيط وحي في معبد جوبيتر، حيث كان هو يجيب بواسطتها. ثم طارت واحدة إلى معبد هامون والأخرى إلى معبد دالف، لذا يتبيّن لنا كيف ان المصريين أو اليونانيين على السواء يروون نفس الحقائق، حتى وان كان وراء أحجبة غامضة. لا وحي، دون حمامة.

ولكننا لا نزال هنا نتساءل عن معنى الغصن الذهبي. وهو دليل

على ان الحمام يحمل رسائل، ولكنها رسائل مرموزة.

لا أدري مدى معرفة روبارتو بقبلانية اليهود مع انها كانت متداولة في تلك الفترة من الزمن ولكنه، ان كان يخالط السيّد غفّارال، فقد بلغ إلى علمه شيء منها: والواقع ان اليهود بخصوص الحمامة بنوا قصورا كاملة. لقد ذكرنا ذلك، أو بالأحرى كان قد ذكره الأب كسبار: في المزمور الثامن والستّين يأتي ذكر أجنحة حمامة مغشّاة بفضّة، وريشها بصفرة الذهب. لماذا؟ ولماذا تعود في الأمثال صورة مشابهة كثيرا «لتفاحات من الذهب في شبكة منسوجة من الفضّة»، مع هذا التعليق «تلك عبارة استعملت في إبّانها»؟ ولماذا في نشيد سليمان، عندما يتوجّه إلى الفتاة «التي عيناها مثل عيني حمامة» يقول لها «آه يا حبيبتي، نصنع لك سلاسل من ذهب مع جمان من فضّة»؟

ويفسّر اليهود ان الذهب هو ذهب الكتابات، والفضّة هي الفضاءات البيضاء بين الحروف أو الكلمات. وواحد منهم، ربما لم يكن روبارتو يعرفه، ولكنه كان لا يزال يؤثر على أحبار كثيرين، قال ان التفاحات من ذهب في شبكة من الفضّة المنسوجة بدقّة تعني ان في كل جملة من الكتابات (ولكن دون شك في كل شيء أو في كلّ حدث في العالم) وجهان، أحدهما ظاهر والآخر خفيّ، والوجه الظاهر هو الفضّة، ولكن الوجه النفيس أكثر لأنه من ذهب هو الوجه الخفيّ. ومن ينظر إلى الشبكة من بعيد، مع التفاحات المغشّاة بخيوطها الذهبية، يظن ان التفاحات من فضّة، ولكنّه عندما ينظر فيها مليّا يكتشف روعة الذهب.

كلّ ما تحتويه الكتابات المقدّسة di prima facie يلمع مثل الفضّة، ولكن معناه الخفيّ يسطع مثل الذهب. وطهارة كلمة الإله، الخفيّة عن أعين الجهّال، كأنها مغشّاة بحجاب من العفّة، تبقى في ظلّ السرّ. فهي تقول انه لا يجب ان تلقى الدّرر للخنازير. ومن له عينا حمامة يعني انه لا يجب ان يتوقّف عند المعنى الحرفي للكلمات ولكن ان يعرف كيف ينفذ إلى المعنى الروحي.

الاّ ان هذا السرّ، مثل الحمامة، يختفي ولا يعرف أحد اين يوجد. الحمامة تعني ان العالم يتحدّث من خلال حروف هيروغليفية واذن هي نفسها هيروغليف يرمز إلى هيروغليفات اخرى. والهيروغليف لا يقول ولا يخفي، يظهر فقط.

ويهود آخرون قالوا ان الحمامة وسيط وحي، وليس من قبيل الصدف ان تسمّى الحمامة بالعبرانية tore، التي تذكّرنا بالتوراة، الذي هو كتابهم المقدّس، ومصدر كلّ وحي.

والحمامة،عندما تطير في الشمس تبدو ساطعة مثل الفضّة، ولكن فقط من يعرف كيف ينتظر طويلا لاكتشاف وجهها الخفي يرى ذهبها الحقيقي، أو بالأحرى لون البرتقالة الساطع.

ومنذ إزيدور الجليل حتى المسيحيون فكّروا في الحمامة قائلين انها تعكس في طيرانها أشعة الشمس التي تضيئها فتبدو لنا مختلفة الألوان. إنها تخضع للشمس، ومن هنا قولهم «من نورك أستمدّ حليتي»، أو «لأجلك أتزيّن وأسطع». وعنقها في النور يسطع بألف لون، ومع ذلك فهو دائما نفسه لا يتغيّر. ولذا يحذّر من ان لا يثق المرء بالظواهر، ولكن أيضاً ان يبحث عن الحقيقة الظاهرة تحت تلك الخادعة.

كم تحمل الحمامة من لون؟ كما يقول كتاب حيوان قديم

لئن كان قولكم عن الحمام

إنها بيضاء وفي لون الرماد:

فإن منها ما هي برونزيّة،

وأخرى غيرها حديديّة؛

ومنها ما هي سوداء، وأخرى صهباء،

ومنها ما هي حمراء، وأخرى رماديّة،

ومن بين الحمام كثير

يجمع بين كلّ هذه الألوان

ماذا تكون إذن الحمامة البرتقالية اللون؟

أخيرا، وأفترض ان روبارتو يعرف بعض الشيء عن هذه القصّة، وجدت في التلمود ان اهل الحول والطول في إيدوم اتخذوا قرارا ضدّ إسرائيل بقلع مخّ من عثر عليه يحمل عصابة مكتوبة. وها أن إيليزي يخرج يوما إلى الشارع حاملا العصابة فلمحه أحد الحرّاس ولاحقه بينما ولّى هو هاربا. وعندما لحق به، نزع العصابة وأخفاها بين يديه. فسأله خصمه: «ماذا تحمل في يديك؟» فأجابه: «جناحي حمامة». ففتح له الآخر يديه واذا بهما جناحا حمامة.

انني لا أدري ماذا تعني هذه الحكاية، ولكنني أجدها جميلة جدا. وربّما وجدها روبارتو أيضاً جميلة جدا.

أيتها الحمامة الوديعة،

من أين، من أين أنت قادمة؟

أيّ شيء وهو طائر

في السماء العالية،

ينشر مثلك عطرا شذيّا؟

من يسكب مثلك

مرهما طيّبا ذكيّا؟

اريد أن أقول ان الحمامة دلالة هامّة، ويمكننا ان نفهم لماذا قرّر رجل تائه في المقاطرات ان يحقّق النظر جيّدا ليفهم ماذا تعني بالنسبة اليه.

هي ذي الجزيرة مستحيلة المنال، وليليا مفقودة تماما، وآماله

جميعها حبطت، لماذا إذن لا تتحول الحمامة اللامرئية في لون البرتقال إلى اللبّ الذهبي، إلى حجر الفلاسفة، إلى هدف الأهداف، طائرا مثل كلّ شيء يرغب فيه بجنون؟ اليست قمّة الرغبة الأكثر جودا ان يصبو الإنسان إلى ما لا يمكن له الحصول عليه؟

هذا الأمر يبدو لي من الوضوح (luce lucidior) بحيث قرّرت ان لا أذهب إلى أبعد من هذا في شرح الحمامة.

لنعد إلى قصّتنا.

27

أســرار المـدّ والجـزر

في اليوم الموالي، إبّان بزوغ الشمس، تعرّى روبارتو تماما من أثوابه. مع الأب كسبار، كان من الحياء ينزل إلى الماء بلباسه، ولكنه فهم ان الأثواب كانت تثقله وتعطّل حركاته. هو ذا الآن عار. ربط الحبل إلى حزامه، ونزل سلّم يعقوب، وها هو من جديد في البحر.

بقي مستلقياً على سطح الماء، اذ كان قد تعلّم ذلك. عليه الآن ان يتعلّم كيف يحرّك ذراعيه وساقيه، مثل ما تفعل الكلاب بقوائمها. حاول بعض الحركات، وواصل ذلك بضع دقائق، فرأى انه ابتعد عن السلّم أذرعا قليلة جدا. إضافة إلى انه احسّ بالتعب.

كان يعرف كيف يرتاح، واستلقى على ظهره بعض الوقت، مستسلماً لملامسة الماء والشمس.

شعر بأن قواه عادت اليه. إذن عليه ان يتحرّك إلى ان يتعب، ثم يرتاح كأنه ميّت بضع دقائق، ويعيد الكرّة. ستكون المسافات التي سيقطعها قصيرة جداً، والوقت الذي سيمضيه طويلا جداً، ولكن هكذا يجب ان يفعل.

بعد بعض المحاولات اتّخذ قراراً جريئاً. كان السلّم ينزل على

يمين الصاري المائل، من ناحية الجزيرة. الآن سيحاول ان يصل إلى الجهة الغربية من السفينة. ثم سيرتاح ويعود أدراجه.

لم يكن المرور تحت الصاري المائل طويلا، وأحسّ بالانتصار عندما تمكّن من رؤية الجانب الآخر من الجؤجؤ. واستلقى ووجهه إلى أعلى، مفتوح الذراعين والساقين، مع الإحساس ان الأمواج في تلك الناحية تهدهده أكثر من الناحية الأخرى.

وفجأة أحسّ بقوّة تجذبه من حزامه. لقد امتدّ الحبل إلى أقصاه. فعاد إلى الوضعية الكلبية وفهم شيئا: وهو ان البحر حمله نحو الشمال، محوّلا اياه إلى يسار السفينة، على بعد أذرعة كثيرة من طرف الصاري المائل. بعبارة أخرى، ذلك التيّار الذي يسري من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي ويصبح عنيفاً عند غربيّ السفينة، كان فعلا واضح المعالم في الخليج. لم يحسّ به عندما كان يقوم بالغوص على يمين المركب، اذ كان جرم السفينة يحميه، ولكنه عندما صار في الجهة اليسرى جذبه وكان سيحمله بعيدا لو لم يشدّه الحبل. بينما كان هو يظن انه ثابت، تحرّك مثل الأرض في دوّامتها. لذا كان من السهل ان يطوف بالجؤجؤ: لا لأن مهارته زادت، بل لأن البحر كان يساعده.

شغله ذلك وأراد ان يجرّب ان يعود نحو دافني بقواه الفردية، وتفطّن إلى انه ما ان يتحرّك على الطريقة الكلبية حتى يقترب شبرا أو بعض شبر ولكنه ما ان يتوقّف قليلا ليتنفّس حتى يمتدّ الحبل من جديد، دليلا على انه عاد إلى الوراء.

تمسّك بالحبل وجذبه اليه، دائراً حول نفسه ليلفّه حول حزامه، بحيث وجد نفسه بعد برهة قصيرة قرب السلّم. بعد ان صعد على متن السفينة قرّر ان محاولة الوصول إلى الشاطىء سباحة هو شيء خطير. عليه ان يصنع لنفسه رمثاً. ونظر إلى تلك الخزينة من اللوح التي تمثّلها دافني، وفهم انه لا يملك شيئا يقدر ان يقطع به أصغر عمود، اللّهم إلاّ ان يقضي سنوات ينجّر بالموسى احد الصواري.

ولكن، ألم يصل إلى دافني وهو مربوط إلى لوحة؟ اذن، يكفي ان يخلع باباً من الأبواب وان يستعمله مثل مركب، يدفعه ان لزم الأمر بقوة اليدين. استعمل مقبض سيفه كمطرقة، وادخل النصل على طريقة الرافعة، حتى تمكّن في النهاية من خلع أحد ابواب القاعة الكبرى. اثناء العمليّة، انتهى الأمر بأن كسر النصل. لا بأس، ليس همّه ان يكافح ضدّ البشر، بل ضدّ البحر.

ولكن لو نزل إلى البحر فوق الباب، اين سيحمله التيّار؟ جذب الباب نحو جانب السفينة من الجهة اليسرى وتمكّن من إلقائه في البحر.

وطفا الباب في البداية بأناة، ولكن بعد أقلّ من دقيقة ابتعد عن السفينة وجذبه التيّار في أوّل الأمر نحو الجهة اليسرى من المركب، تقريبا في الإتجاه الذي اتخذه هو نفسه، ثم نحو الشمال الشرقي. وكلّما ابتعد اكثر عن طرف الجؤجؤ، زادت سرعته إلى ان اتخذ ـ على مستوى الرأس الشمالي للخليج ـ حركة مسرعة نحو الشمال.

الآن أصبح يسري كما يمكن ان تفعل دافني لو سحبت المرساة. وتمكّن روبارتو من ان يتبعه بالعين المجردة إلى ان تجاوز الرأس، ثم اضطرّ لاستعمال المنظار، ورآه يمضي سريعا جدا إلى ما وراء المرتفع على مدى مسافة طويلة. كانت اللوحة تهرب إذن بسرعة، في مجرى نهر واسع ضفافه وحدوده وسط بحر كان يبدو هادئا على جانبي السفينة.

وفكّر انه، ان كان خط الطول المائة والثمانون يمتدّ على طول خط مثالي يربط،على مستوى وسط الجون، بين المرتفعين، وإن كان ذلك النهر يميل بمجراه فورا بعد الجون متجها نحو الشمال، فهو وراء المرتفع يجري بالضبط على طول الهاجرة المعاكسة!

ولو كان هو فوق تلك اللوحة، فسيسير على طول ذلك الخط الذي يفصل بين اليوم والأمس ـ أو الأمس عن غده...

الاّ انّه في تلك اللحظة كانت أفكاره مغايرة. لو كان فوق اللوحة،

لما استطاع ان يقاوم التيّار، ما عدا ببعض حركات اليدين. وان كانت تلزم جهود كبيرة لدفع جسمه فما بالك بباب دون جؤجؤ ودون مؤخرة ودون دقّة.

ليلة وصوله حملته اللوحة تحت الصاري المائل بفضل ريح ملائمة أو تيّار ثانوي. ولكي يتاح له شيء من هذا القبيل، كان عليه ان يدرس بدقّة حركات المدّ والجزر، طيلة أسابيع وأسابيع، ربما طيلة أشهر، ملقياً في الماء بالعشرات والعشرات من الألواح - ومن يدري ماذا أيضاً...

هذا مستحيل، على الأقلّ في المستوى الذي كانت عليه معارفه، هيدروستاتيكية كانت أو هيدروديناميكية. من الأفضل ان يثق مجدّدا في السباحة. من الأيسر ان يصل إلى الساحل، من وسط التيّار، كلب يحرّك قوائمه أفضل من كلب وسط سلّة.

عليه إذن ان يواصل تمرّنه. ولن يكفيه ان يتعلّم السباحة بين دافني والشاطىء. حتى في الجون، في فترات مختلفة من اليوم، حسب المدّ والجزر، كانت تظهر تيّارات ثانوية: وإذن في اللحظة التي سيتقدّم فيها بثقة نحو الشرق، سيلعب به التيّار جاذبا ايّاه في البداية نحو الغرب ثم مباشرة نحو الرأس الشمالي. لذا يجب ان يتدرّب أيضاً على السباحة ضدّ التيّار. وبمعونة الحبل، لن يتراجع عن مجابهة حتى المياه على يسار المركب.

في الأيام الموالية، بينما كان في الجهة التي يوجد فيها السلّم، تذكّر انه في لاغريف لم يشاهد فقط الكلاب تسبح، بل الضفادع أيضاً. وبما ان جسم الإنسان في الماء بالذراعين والساقين مفتوحة يذكّر أكثر بشكل الضفدعة منه بشكل الكلب، فقد قال في نفسه انه ربما بالإمكان ان يسبح مثل ضفدعة. واستعان حتى بصوته. كان يصيح «كرا، كرا» ويطلق ذراعيه وساقيه. ثم كفّ عن النقيق، بما ان بعث تلك الأصوات الحيوانية كان يعطي قوّة مفرطة إلى قفزه ويضطرّه إلى فتح فمه، مع العواقب التي يمكن ان يتوقّعها سبّاح مبتدىء.

تحوّل إذا إلى ضفدعة عجوز ورصينة، وقورة الصمت. وعندما كان يحسّ بكتفيه متعبتين، من الحركة المتواصلة التي كانت يداه تقومان بها نحو الخارج، كان يعود إلى الطريقة الكلبية. ومرّة رأى الطيور البيضاء وهي تتابع صائحة تمارينه، وأحيانا تهوي عموديّة على بعد بضعة أذرع منه لتخطف سمكة (ضربة النورس!) فحاول ان يسبح على منوال طيرانها، بحركات جناحية واسعة للذراعين؛ الاّ انه تفطّن ان الإبقاء على الأنف والفم مغلقين أصعب من غلق المنقار، وعدل عن ذلك التمرين. الآن لم يعد يعرف ايّ حيوان هو، ان كان كلبا أو ضفدعا؛ ربما كان علجوما مشعّراً، رباعيّ أقدام قازباً، قنطورس بحار، أو عروس بحر ذكراً.

ولكن، بين مختلف تلك المحاولات، رأى انه، بالرغم من كلّ شيء، كان يتحرّك شيئا ما: وفعلا كان قد بدأ رحلته من الجؤجؤ والآن يجد نفسه قد تجاوز نصف جانب السفينة. ولكنه عندما أراد ان يعود أدراجه وان يرجع إلى السلّم، تفطّن إلى ان قواه قد نفدت، واضطرّ إلى ان يجذب نفسه إلى الخلف بواسطة الحبل.

ما كان يعوزه هو النفس المناسب. كان بمقدوره ان يذهب ولكن لا ان يعود... لقد صار سبّاحا، ولكن مثل ذلك السيّد الذي سمع عنه انّه قام بالحجّ من رومة إلى بيت المقدس، نصف ميل في اليوم، جيئة وذهابا في حديقة بيته. لم يكن أبدا رياضيّا، ولكن الشهور على متن أماريلّي، دائما في حجرته، ومحنة الغرق، والانتظار على متن دافني (ما عدا التمارين القليلة التي فرضها عليه الأب كسبار)، كل ذلك أوهن قواه.

لا يبدو ان روبارتو كان يعرف انه بالسباحة سينمّي قواه، بل يبدو انه كان يظن انه يجب ان يتقوّى لكي يقدر على السباحة. فها هو إذن يزدرد بيضتين أو ثلاثا أو أربعا في دفعة واحدة، ويلتهم دجاجة كاملة قبل ان يرمي بنفسه من جديد في الماء. من حسن الحظ ان الحبل كان

موجودا. ما إن لمس الماء حتى تملّكته اختلاجات قويّة حتى انه كاد ان يعجز عن الصعود إلى السفينة.

وها هو في المساء يفكّر في هذا التناقض الجديد. قبل ذلك، عندما كان لا يأمل حتى في الوصول اليها، كانت الجزيرة تبدو في متناول يده. الآن، وهو يتعلّم ذلك الفنّ الذي سيمكنه من بلوغها، كانت الجزيرة تبتعد.

بل وأكثر، كان يراها لا بعيدة في المكان فحسب، بل وأيضاً (ورجوعا إلى الوراء) في الزمان، ومنذ هذه اللحظة كلّما ذكر روبارتو هذا البعد بدا انه يخلط المكان والزمان، ويكتب قائلا «الجون للأسف هو منصرم كثيرا»، و«كم يصعب الوصول إلى هنالك مع انه باكر جدا»؛ أو «كم مسافة بحرية تفصلني عن اليوم المنقضي»، وحتى «هناك سحب مهدّدة قادمة من الجزيرة، بينما هنا هدأ الطقس..».

ولكن ان كانت الجزيرة تبتعد دائما أكثر، فهل من المجدي ان يتعلّم كيف يبلغها؟ في الأيام الموالية ترك روبارتو محاولاته في السباحة وعاد إلى البحث بالمنظار عن الحمامة في لون البرتقال.

كان يرى ببغاوات بين اوراق الشجر، ويلمح غلالا، ويتبع من الفجر إلى الغروب ضياء ألوان مختلفة وانطفاءها وسط الخضرة، ولكنه لا يرى الحمامة. فيعود اليه الظن انّ الأب كسبار كذب عليه، أو انه كان ضحيّة احدى دعاباته. في بعض الأحيان كان يقنع نفسه انه حتى الأب كسبار لم يوجد أبدا ـ ولا يجد أيّ أثر من حضوره على السفينة. لم يعد يؤمن بوجود الحمامة، ولكنه، عند ذلك الحدّ، لم يعد يؤمن أيضاً انه على الجزيرة يوجد المرصد. ويعزي نفسه قائلا انه لا يليق ان تلوّث آلة نقاء ذلك المكان. ويعود ليفكّر في جزيرة على مستواه، أو بالأحرى على مستوى أحلامه.

إن كانت الجزيرة موجودة في الماضي، فهي إذن المكان الذي

يجب ان يبلغه مهما كان الثمن. في ذلك الزمن الخارج عن طوره كان عليه لا ان يجد بل ان يستنبط من جديد وضع الإنسان الأول. ليست الجزيرة مسكن الينبوع الذي يجري منه الشباب السرمدي، بل هي نفسها منبع، مكان يمكن لكلّ كائن بشري، قد نسي معرفته الكئيبة، ان يجد فيها، مثل طفل تركوه وحيدا في غابة، لغة جديدة قادرة ان تولد من اتصال جديد مع الأشياء. ومعها سيتولّد العلم الحقيقي والوحيد، من التجربة المباشرة مع الطبيعة، دون ان تلوّثه ايّ فلسفة (كما لو لم تكن الجزيرة أباً، يعلّم ابنه كلمات الشريعة، بل أمّاً، تعلّمه ان ينطق بالأسماء الأولى).

هكذا فقط يمكن لغريق ان يكتشف القوانين التي تحكم سير الأجرام السماوية ومعنى التطريزات التي ترسمها في السماء، دون ان ينقّب بين المجسطيات ورباعيّات الأجزاء، بل بالقراءة المباشرة لحدوث الكسوفات والخسوفات، ولمرور الشهب ذوات الذيول الفضّية واطوار الكواكب. يكفيه انف يسيل دماً من جرّاء سقوط غلّة ليفهم بصفة فعلية وفي دفعة واحدة سواء القوانين التي تجذب الأثقال نحو مركز جاذبيتها، أو حركة القلب والدم في الحيوانات. ويكفيه ان يتأمل صفحة مستنقع وان يدخل فيه غصنا، أو قصبة، أو واحدة من تلك الصفائح الطويلة والصلبة من المعدن، لكي يلتقط نرسيس الجديد ـ دون أي حساب انعكاسي وضوئي ـ التنافس المتعاقب بين النور والظلال. وربما تمكّن من فهم كيف ان الأرض مرآة معتمة تطلي بالحبر ما تعكسه، وكيف ان الماء جدار يجعل الظلال التي ترتسم فوقه شفافة، بينما في الهواء لا تجد الصور أبدا صفحة تنعكس فوقها، وتنفذ منه هاربة إلى ابعد حدود الأثير، وربما رجعت أحيانا في شكل سراب أو أعجوبة أخرى.

ولكن هل استحواذه على الجزيرة يعني استحواذه على ليليا؟ وعندئذ؟ لم يكن منطق روبارتو مثل منطق اولئك الفلاسفة المعوّجين واللّجوجين، المتطفلين على العلم، والذين يريدون دائما الشيء، إن

كان في تلك الحالة، ان لا يكون أيضا في الحالة المعاكسة. والخطأ، أو بالأحرى تيهان الخيال الخصوصي لدى المحبّين، كان يجعله يعرف ان امتلاك ليليا سيكون في نفس الوقت منبع كلّ اكتشاف. واكتشاف القوانين التي تحكم الكون من خلال المنظار سيبدو له فقط الطريق الأطول لبلوغ حقيقة ستظهر له في نور المتعة الساطع لو امكنه ان يسلم رأسه إلى حضن الحبيبة، في حديقة تكون فيه كلّ جنبة شجرة الخير.

ولكن بما انه ـ مثلما يجب ان نعرف ـ عندما يرغب المرء في شيء بعيد عنه يثير فيه شبح أحد يريد اختطافه منه، خشي روبارتو ان يكون انساب ثعبان في طيبات ذلك الفردوس. وخامره الظن انه يوجد في الجزيرة، مغتصب سبّاق ينتظره، فيرّانتي.

28

حـول مصدر الروايـات

العاشقون يحبّون شقاءهم أكثر ممّا يحبّون سعادتهم. كان روبارتو لا يرى نفسه الا مبعداً إلى الأبد عن الحبيبة ولكن، بقدر ما كان يحسّ بنفسه يقاسي من الفراق، بقدر ما كانت تقضّه الظنون ان أحدا آخر كان لا يقاسي ذلك.

لقد رأينا ان روبارتو، عندما اتهمه مزارينو بأنه ارتاد مكانا لم يكن قد ذهب اليه، استحوذت عليه فكرة ان فيرّانتي موجود في باريس وانه أخذ في بعض المناسبات مكانه. ان كان ذلك صحيحا، فالكاردينال قبض على روبارتو، وأرسله على متن أماريلّي، ولكن فيرّانتي بقي في باريس، وبالنسبة للجميع (بما فيهم هي!) هو روبارتو. لم يبق إذن الا ان يفكّر فيها وهي بجانب فيرّانتي، وها ان ذلك المطهر البحري يتحوّل إلى جحيم.

كان روبارتو يعرف ان الغيرة تتكوّن دون ادنى مراعاة لما كان، أو لما لم يكن، أو ربما لما لن يكون ابدا؛ وانها فورة تستمدّ ألما حقيقيا من شقاء خيالي؛ وان الغيور هو مثل موسوس يصير مريضا من خوفه من المرض. وإذن حذار، كان يقول لنفسه، من الاستسلام لهذه الترّهات الكئيبة التي تضطرك ان تتصوّر الأخرى مع الآخر، ولا شيء يستثير الشكّ مثل الوحدة، ولا شيء يحول الشكّ إلى يقين مثل التخيّل

الجامح. ولكن، كان يضيف بينه وبين نفسه، بما انه لا يمكنني ان أتفادى الحبّ فلا يمكنني ان أتفادى الغيرة وبما انه لا يمكنني ان اتفادى الغيرة فلا يمكنني ان أتفادى ان أتخيّل.

وفعلا فالغيرة هي من بين جميع المخاوف أشدّها قسوة: ان كنت تخاف الموت، فإنك تستمدّ عزاء من فكرة انك، على العكس، ربما ستعيش حياة طويلة أو أنك أثناء احدى رحلاتك ستجد نبع الفتوة السرمدية؛ وان كنت فقيرا ستستمدّ تسلية من فكرة انك ستعثر على كنز؛ ولكلّ شيء تخافه تجد ضدّه أملا يحثّك. ليس الأمر هكذا عندما يحبّ المرء في غياب حبيبته: الفراق في الحب هو مثل الريح للنّار: يطفىء الصغيرة ويهيج الكبيرة.

ان كانت الغيرة تنشأ من الحبّ القويّ، فإن من لا يحسّ بالغيرة على الحبيب فليس بمحبّ، أو انه يحبّ بخفّة قلب، حتى اننا نجد محبّين، من خوفهم اذ تخمد نار حبّهم، يغذّونها بإيجاد بواعث على الغيرة مهما كلفهم ذلك.

فالغيور إذن (الذي مع ذلك يريد أو يأمل ان تكون حبيبته طاهرة ومخلصة) لا يريد ولا يقدر ان يفكّر فيها الاّ مثيرة لغيرته، واذن مقترفة لخيانة، مضرماً بهذه الطريقة في الشقاء الحاضر لذّة الحب الغائب. اضافة إلى انه عندما تفكّر في نفسك وأنت تمتلك الحبيبة البعيدة ـ بينما تعرف جيّدا ان ذلك ليس حقيقيا ـ لا يعيد اليك ذكراها حيّة، وذكرى دفئها، واحمرار وجنتيها، وعطرها، مثل تصوّر ان تلك الهبات نفسها يلتذّ بها على العكس شخص آخر: وبينما انت متأكد من غيابك، فيقينك من حضور منافسك ان لم يكن تامّا فهو ليس بالضرورة منعدما. الوصال الغرامي، الذي يتصوّره الغيور، هو الطريقة الوحيدة التي يمكنه ان يتصوّر بها بصفة قريبة من الحق وصال الغير الذي، وان كان غير أكيد، فهو على الأقلّ ممكن، بينما وصاله هو مستحيل.

ولذا فالغيور ليست له القدرة، ولا الإرادة، ان يتصوّر نفسه نقيض ما يخشاه، بل انه لا يستمدّ اللذة الاّ من خلال تعظيم آلامه، ويتألم من اللذّة العظيمة التي يعرف انه محروم منها. لذّات الحبّ آلام يرغب فيها المحب، حيث تتزامن العذوبة مع اللوعة، والحبّ هو جنون ارادي، فردوس جهنّمي وجحيم سماوي - باختصار وفاق أضداد مشتهاة، ضحك متألم وألماس قصوم.

وهكذا بينما كان يتوجّع، كان مع ذلك يفكّر في تلك العوالم اللامتناهية التي تبادل حولها النقاش في الأيام السابقة، وجاءت لروبارتو فكرة، بل فكرة عظيمة، إشراقة عبقرية عظيمة ومشوّهة.

فكّر انه بإمكانه ان يبني قصّة، ليس هو بطلها، بما لا تدور في هذا العالم، ولكن في دنيا الروايات، وهذه الأحداث ستدور بصفة موازية لأحداث العالم الذي يعيش فيه، دون ان يحصل ان تتلاقى أو ان تتطابق.

ماذا سيجني من ذلك روبارتو؟ الكثير. باختلاقه قصّة عالم آخر، لا يوجد الاّ في مخيّلته، كان هو سيّد ذلك العالم، وبإمكانه ان يتدخّل حتى لا تتجاوز الأحداث قدرته على التحمّل. ومن ناحية أخرى، بما أنه قارىء الرواية التي هو مؤلفها، سيشارك في أحزان الشخصيات: ألا يحدث لقرّاء الروايات ان يحبّوا دون غيرة تيسبي، جاعلين من بيرام ممثّلهم، وان يتألموا من أجل أستري من خلال سيلادون؟

العشق في دنيا الروايات لا يعني الإحساس بأي غيرة: هنالك ما هو ليس لنا هو بشكل من الأشكال ملكنا، وما هو في هذا العالم ملكنا، وانتزع منّا، هنالك لا يوجد - حتى وان كان ما يوجد فيه شبيها بما هو موجود وليس لنا أو بما هو موجود وفقدناه...

واذن، كان ينبغي لروبارتو ان يكتب (أو ان يتصوّر) رواية فيرّانتي وعلاقاته الغرامية مع ليليا، وبناء ذلك العالم الروائي فقط هو الذي سيجعله ينسى اللدغات التي تسبّبها له الغيرة في العالم الواقعي.

وإضافة إلى ذلك، كان روبارتو يفكّر، كي أفهم ما حدث لي وكيف سقطت في الفخّ الذي نصبه لي مزارينو، يجب ان اعيد تركيب قصّة تلك الأحداث، لأجد مسبّباتها وعللها الخفيّة. ولكن هل هناك شيء أدعى للشكّ من التواريخ التي نقرأها، حيث نجد انه عندما يروي لنا مؤرخان أحداث معركة واحدة، فالتناقضات التي تعترضنا من شأنها ان تجعلنا نفكّر اننا أمام معركتين مختلفتين؟ وهل هناك شيء اكثر ثباتا من الرواية، حيث يجد كلّ لغز حلّه حسب قوانين الاحتمال؟ الرواية تقصّ أشياء ربما لم تحدث في الواقع، ولكن من المحتمل جدا ان تقع. تفسير محني في شكل رواية، يعني انني اضمن لنفسي انه في هذه المتاهة هناك على الأقلّ طريقة لحلّ الحبكة، وانني لست إذن ضحية كابوس. وهذه فكرة في تناقض ماكر مع الأولى، بما أنه في هذه الحالة فإن القصّة المروية هي التي تتطابق مع قصّته الواقعية.

وأخيرا، كان روبارتو يعلّل دائما، قصّتي هي قصّة غرام بامرأة: الآن، الرواية فقط، لا التاريخ، تهتمّ بشؤون الحبّ، والرواية فقط (لا التاريخ) تهتمّ بشرح ماذا تفكّر وماذا تحسّ بنات حواء اللاتي، منذ الفردوس الأرضي إلى جحيم البلاطات في أزمنتنا الحاضرة، كان لهنّ أكبر الأثر في أحداث البشرية.

كلّها حجج معقولة لو اعتبرناها كل واحدة على حدة، ولكن لو اخذناها في جملتها فالأمر يختلف. هناك فعلا فارق بين من يقوم بفعل شيء وهو يكتب رواية ومن يتألم من الغيرة. الغيور يتلذّذ وهو يتصوّر ما كان لا يودّ ان يكون قد حصل - ولكنه في نفس الوقت يرفض ان يصدّق انه وقع بحقّ - بينما الراوي يلتجىء إلى كلّ حيلة ليجعل القارىء لا فقط يلتذّ بتصوّر ما لم يقع، ولكن عند حدّ ما ينسى انه يقرأ ويظن ان كلّ شيء وقع حقّا. وهو فعلا مصدر آلام شديدة بالنسبة لغيور ان يقرأ رواية ألفها آخرون، حيث مهما كانت الأشياء التي كتبوها، فهي تبدو له انها تعنيه هو. فما بالك بغيور يتظاهر بأنه يبتدع قصّته. الا يقال

في الغيور انه يعطي جسما للأشباح؟ وإذن حتى وان كانت مخلوقات الروايات لا تعدو ان تكون اشباحا، بما ان الرواية هي اخت التاريخ، فتلك الأشباح تبدو للغيور ذات اجسام، وأكثر من ذلك ان كانت ـ عوضا عن أشباح شخص آخر ـ أشباحه هو.

ومن ناحية أخرى كان روبارتو يعرف ان الروايات، بالرغم من خصالها، لها أيضاً نقائصها. مثل الطب الذي يدرس أيضاً السموم، والميتافيزيقيها تربك بجدل غير مناسب اركان الدين، والأخلاق تنصح بالتعظيم (الذي هو ليس صالحا للجميع)، وعلم الفلك يرعى المعتقدات، وعلم البصريات يخدع، والموسيقى تهيج مشاعر الحبّ، والهندسة تشجع السلطة الظالمة، والرياضيات البخل ـ هكذا فنّ الرواية، مع انه يحذّرنا انه يقدّم الينا أوهاما، فهو يفتح باباً في قصر اللامعقول، ان تخطيناه دون رويّة، فهو ينغلق خلفنا.

ولكن ليس في مقدورنا ان نمنع روبارتو من ان يقوم بهذه الخطوة، لأننا نعرف بكلّ تأكيد انه تخطّاها.

29

روح فيرّانتي

من اين سيواصل قصّة فيرّانتي؟ رأى روبارتو انه من المستحسن ان ينطلق من ذلك اليوم الذي،بعد ان خان فيه فيرّانتي الفرنسيين الذين كان يتظاهر انه يقاتل معهم في «كزالي»، وبعد ان قدّم نفسه على انه القائد غمبيرو، التجأ إلى المعسكر الإسباني.

ربما استقبله بحفاوة سيّد من اولئك السّادة الكبار ووعده ان يحمله معه، عند انتهاء تلك الحرب، إلى مدريد. ومن هنالك بدأ ارتقاء فيرّانتي في حاشية البلاط الإسباني، حيث تعلّم ان ميزة الملوك هي ارادتهم، وان السلطة وحش لا يشبع، ويجب ان يخدمه المرء مثل عبد وفيّ، حتى يتسنى له ان يحظى بأدنى فتات يسقط من تلك المائدة، وان يستغلّه في ذلك الارتقاء البطيء والمتعرّج ـ في البداية كشرطي ثم كقاتل مستأجر فمؤتمن على الأسرار، ليتظاهر اخيرا بأنه من طبقة النبلاء.

لا يمكن ان يكون فيرّانتي الاّ صاحب ذهن حاضر،حتى وان كان متفرّغا للشرّ، وفي تلك الأوساط تعلّم فورا كيف يجب ان يتصرّف ـ يعني انه أنصت (أو انه تكهن) إلى تلك المبادىء في العلم البلاطي التي حاول السيّد دي سالازار ان يلقّنها لروبارتو.

لقد نمّى دناءته (وحقارة نشأته اللاشرعية)،دون ان يخاف من ان يكون فائقا في الأشياء الحقيرة، كي يتفادى يوما ان يكون حقيرا في الأشياء الراقية.

لقد فهم انه، عندما لا يمكنه ان يلبس ثوب الأسد فليلبس إذن ثوب الثعلب، لأنه من الطوفان نجت ثعالب أكثر من الأسود. كلّ كائن له درايته وهو قد فهم من الثعلب ان كشف اللعبة لا يؤتي لا منفعة ولا متعة.

لو دعاه أحد ان يذيع نميمة بين الخدم حتى تصل شيئا فشيئا إلى إذن سيّدهم، بينما هو يعرف انه يحظى بنعم احدى الخديمات، كان يسارع ليقول انه سيحاول مع الحوذي في الحانة ؛ أو، ان كان الحوذي زميله في الفسق في الحانة، كان يؤكد بابتسامة خبيثة انه يعرف كيف يبلغ ذلك إلى أذن احدى الخديمات. وبما ان سيّده لا يعرف بأي طريقة يعمل أو كيف سيعمل، كان يخسر ضدّه نقطة، بينما هو يعرف ان من لا يكشف حالاً ورقاته يترك الغير معلّقين؛ وبهذه الصفة يحيط نفسه بالأسرار، وتلك الأسرار نفسها تجلب له الاحترام.

وفي التخلّص من منافسيه، الذين كانوا في البداية غلمانا وسوّاساً، ثم نبلاء كانوا يظنونه ندّهم، ثبت لديه انه ينبغي دائما ان يسدّد الضربة جانبيا، لا مواجهة: فالحذق يصارع مستعملاً حيلاً مدروسة ولا يتصرّف أبدا بالطريقة المتوقعة. إن قام بحركة فذلك فقط لخداع الآخر، وان رسم في الهواء حركة دقيقة، فهو يتبعها بشيء غير متوقع، وهمّه ان يكذّب النيّة التي اظهرها في البداية. كان لا يهاجم أبدا عندما يكون المنافس في أوج قوّته (بل كان على العكس يظهر له الصداقة والاحترام) بل فقط عندما يظهر ضعفه، وعندئذ كان يقوده للهاوية بينما يتظاهر بأنه يهرع لمساعدته.

كان غالبا ما يكذب، ولكن ليس بصفة عشوائية. كان يعرف انه كي

يصدّقه الآخرون يجب ان يظهر انه يقول الحقيقة بينما هي لا تخدم مصلحته، ويسكتُ عنها حينما كان يمكن ان تجلب له الاستحسان. ومن ناحية أخرى كان يحاول ان يذيع صيته بين اصحاب الطبقة الدنيا كرجل صادق، حتى يبلغ ذلك مسمع اولي الحول والطول. لقد اقتنع ان التصنّع مع الأنداد نقيصة، ولكن عدم التصنع مع الكبار تهوّر.

ولكنه لم يكن يعمل بكامل الصدق، أو على الأقلّ ليس دائما، من خوفه ان يتفطّن الآخرون إلى انتظامه وان يسبقوا يوما تحرّكاته. الاّ انه لم يكن مع ذلك يفرط في الازدواجية، خوفا من ان تكتشف بعد الكرّة الثانية خدعته.

لكي يصبح حكيما كان يتمرّن على تحمّل الحمقى، الذين كان يجمعهم حوله. لم يكن عديم التبصّر إلى حدّ ان يحمّلهم جميع هفواته، ولكن عندما يكون الرهان عالياً كان يعمل ما في وسعه ليكون إلى جانبه هزأة (يدفعه طموحه الباطل إلى ان يضع نفسه دائما في الصفّ الأول، بينما هو يبقى دائما في الظل) ينسب اليه الآخرون، لا هو، مسؤولية العمل الدنيء.

باختصار، كان يظهر انه يفعل ما من شأنه ان يعود عليه بالمنفعة، ولكنه كان يوكل إلى غيره تلك الأعمال التي ربما ستجلب اليه البغض.

وفي إظهار خصاله (التي من الأفضل ان نسميها حذقا شيطانيا) كان يعرف ان كشف نصفها والتلميح إلى نصفها الآخر أفضل من كشف الكلّ كشفا كاملا. وكان في ذلك يستعمل الصمت الفصيح، أو اللامبالاة في إبراز حذقه، وكان ماهرا في ان لا يكشف أبدا شخصه في مرّة واحدة.

وفي صعوده التدريجي سلّم الدرجات الاجتماعية وفي مواجهته لأشخاص من طبقة عالية، كان ماهرا في تقليد حركاتهم وكلامهم، ولكنه كان لا يفعل ذلك الاّ مع أشخاص من رتبة أدنى بقصد فتنتهم

لبلوغ بعض الأهداف غير المشروعة؛ أمّا مع من هم أرفع مقاما فقد كان يجتهد ليظهر انه جاهل امام علمهم، ويبدي دهشته لعلمهم وهو أعلم منهم.

كان يقوم بكل مهمّة دنيئة يكلّفه بها مؤتمنوه، ولكن فقط ان كان الضرر الذي يسبّبه ليس بالقدر الذي يمكن ان يستفزّ فيهم الشعور بالتقزّز؛ وإن طلبوا منه اقتراف جرم بتلك الأهميّة، كان يرفض، أوّلاً حتى لا يظنوا انه قادر ربما في يوم آخر ان يفعل ضدّهم نفس الشيء، وثانيا (ان كان الجرم يطلب الثأر من عند الله يوم القيامة) لكي لا يصبح الشاهد المكروه على ندمهم.

كان يظهر، علانية، علامات واضحة للرحمة، ولكنه كان لا يؤمن الاّ بسوء النيّة، وانتهاك الفضيلة، وحبّ النفس، ونكران الجميل، وازدراء الأشياء المقدسة؛ ويجدّف في دخيلة نفسه وهو يظن ان العالم خلق صدفة، ولكنه كان يؤمن بقدر يغيّر مجراه في صالح من يعرف كيف يثنيه ليجعله مواتيا لمنفعته.

وللتسلّي في أوقات فراغه النادرة، كان لا يراود الاّ البغايا المتزوّجات، والأرامل الداعرات، والفتيات الوقحات. ولكن كلّ ذلك باعتدال كبير، اذ انّه في أعماله، كان فيرّانتي يعدل أحيانا عن نفع مباشر ان وجد نفسه منجذبا نحو فعل آخر، كما لو ان نفسه الشريرة لا تترك له ابدا وقتا للراحة.

باختصار كان يعيش يوما بيوم مثل مجرم مختبىء وراء ستار، حيث لا تبعث شفرات الخناجر ضياء. كان يعرف ان القاعدة الأولى للنجاح هي انتظار الفرصة السانحة، ولكنه كان يتألم لأن الفرصة كانت تبدو له بعيدة.

هذا الطموح العنيد والقاتم كان يحرمه من راحة البال. كان في اعتقاده ان روبارتو سرق منه المكانة التي كانت من حقّه لا يرضى بأي

مكافأة، والشكل الوحيد الذي كان الخير والسعادة يتّخذانه في نظره هو بؤس شقيقه، في اليوم الذي يكون فيه هو مسبّبه. في ما عدا ذلك كان يحرّك في مخيّلته عمالقة من دخان تتقاتل، وليس له بحر أو أرض أو سماء يجد فيها ملجأ أو راحة. ما كان يملكه كان يغيظه، وما كان يطمح اليه كان السبب في عذابه.

كان لا يضحك أبدا، الاّ في الحانة ليسكر أحد مخبريه وهو لا يعلم. ولكنه في سرّ غرفته كان يراقب نفسه كلّ يوم أمام المرآة، ليرى ان كانت الطريقة التي يتحرّك بها تشي بما يختلج فيه من قلق، وإن كانت النظرة تبدو شديدة الوقاحة، وإن كان الرأس المنحني أكثر ممّا يجب لا ينمّ عن تردّد، أو ان كانت التجاعيد العميقة على جبينه لا تجعله يظهر ساخطا.

وعندما يتوقّف عن هذه التمارين ويترك متعبا في أعقاب الليل أقنعته، كان يرى نفسه مثلما هو في الحقيقة ـ آه، لا يبقى عندئذ لروبارتو الا ان يهمس لنفسه بعض الأبيات كان قد قرأها قبل ذلك ببضع سنوات:

في العيون حيث يسكن الحزن والموت،

نور يتّقد مضطربا قرمزيا،

والنظرات المنحنية والحدقات المعوجّة

تبدو نجوما، وقناديل تبدو الأهداب،

والأنّات رعودا يائسة، حانقة متكبّرة،

والأنفاس بوارق.

وبما ان الكمال ليس لأحد، حتى وإن كان في الشرّ، وبما انه لم يكن قادرا على التحكّم في شرّه المفرط، لم يقدر فيرّانتي على تفادي القيام بزلّة. كان سيّده قد كلّفه بخطف فتاة طاهرة من عائلة شريفة،

كانت شارعة في الزواج من رجل نبيل وفاضل، فأخذ يكاتبها برسائل غرامية كان يمضيها باسم محرّضه. ثمّ، وبينما كانت هي تصدّه، نفذ إلى حجرة نومها وبعد ان جعلها ضحية إغراء شديد، هتك عرضها. وفي ضربة واحدة خانها، وخان خطيبها، وخان من أمره باختطافها.

وبعد ان افتضح الجرم، اتّهم به سيّده، الذي مات في مبارزة مع خطيبها المهان، ولم يبق لفيرّانتي الاّ ان يهرب إلى فرنسا.

وفي لحظة من المرح جعل روبارتو فيرّانتي يغامر في ليلة من شهر جانفي عبر جبال «البيريني» راكبا بغلة مسروقة، تبدو انها كرّست نفسها لرهبانية متزمّتات الموهف البروتستاني، من شعرها المنتوف مثل شعر الناسك، وكانت حكيمة، زاهدة، صبورة وقنوعة، حتى انها اضافة إلى عذاب الجسد، الذي يبدو واضحا من بروز الضلوع، وعند كلّ خطوة كانت تقبّل الأرض جاثية على ركبتيها.

وكانت منحدرات الجبل تبدو مليئة باللبن الرائب، وجميعها مجصّصة بالإسفيداج. والأشجار القليلة التي لم تغطّها الثلوج تماما كانت تبدو في بياضها كأنها خلعت قميصها وبقيت ترتعد من البرد أكثر مما ترتع من الريح. والشمس قد لزمت قصرها ولا تجرؤ حتى على الخروج إلى البلكون. وحتى ان أظهرت قليلا وجهها، فقد كانت تجعل حول أنفها عثنونا من السحب.

والعابرون القليلون الذين كانوا يعترضون طريقه كانوا مثل رهبان صغار من دير مونتي اوليفوتو يتقدّمون منشدين «ستغسلني وسأصير اكثر بياضا من الثلج..». وفيرّانتي نفسه وهو يرى نفسه في مثل ذلك البياض، كان يحسّ انه تحوّل إلى صفحة أكاديمية ناصعة.

وذات ليلة كانت تسقط من السماء ندائف قطنية كثيفة وغزيرة جعلته، مثل اولئك الذين صاروا تماثيل من الملح، يحسّ أنه أصبح تمثالا من الثلج. والخبل، والخفافيش، والحنظب، والطاووسيّات،

والبوم ترقص من حوله كأنها تريد ان تشرّكه. وانتهى به الأمر ان اصطدم أنفه برجلي مشنوق كان يتأرجح من شجرة جاعلا من نفسه هزأة في حقل رمادي.

ولكن فيرّانتي ـ حتى وان تطلّبت الرواية أوصافا مشوقة ـ لا يمكن ان يكون شخصية كوميدية. كان يتطلّع إلى غاية، متصوّرا على قياسه مدينة باريس التي كان يقترب منها.

لذا كان يتأوّه من التوق: «آه باريس، جون لا حدّ له، الحيتان فيه صغيرة مثل الدلفين، بلد عرائس البحر، متجر البذائخ، حديقة الشهوات، متاهة الدسائس، نيل الممالقين ومحيط المتصنّعين.

وهنا، أراد روبارتو ان يبتدع شيئا لم يخطر إلى حدّ الآن على بال أي كان من الروائيين لكي يصف مشاعر ذلك الجشع الذي كان يتهيأ للاستيلاء على المدينة التي تتلخّص فيها أوروبا من حيث الحضارة، وإفريقيا من حيث الغرابة، وأمريكا من حيث الثراء، اين اختارت الحداثة عالمها، والخدعة مكانها، والبذخ مركزه، والجرأة ساحتها، والجمال نصف دائرته، والموضة مهدها، والفضيلة قبرها، فوضع على لسان فيرّانتي قولة متعجرفة: «باريس، ها أنا»!

على الطريق من غاسكونيا إلى بواتو، ومن هنالك إلى جزيرة فرنسا، قام فيرّانتي ببعض الأعمال الشنيعة التي مكّنته من تزويد جيبه بثروة صغيرة من جيوب بعض الأغبياء الذين اعترضوه، وبلغ العاصمة في زيّ سيّد شاب، محتشم ولطيف، السيّد دل بوتسو. وبما انه لم تبلغ بعد هنالك اخبار صنائعه الخبيثة في مدريد، اتّصل ببعض الإسبان المقرّبين إلى الملكة، الذين اعجبوا فورا بقدراته في القيام بخدمات سريّة، لفائدة ملكة، حتى وان كانت مخلصة لزوجها وتحترم ظاهريا الكردينال، كانت مع ذلك على اتصال ببلاط العدوّ.

وذاع صيت إخلاصه في تقديم الخدمات وبلغ ذلك سمع ريشليو

الذي، في درايته الكبيرة بالطبيعة الإنسانية، فهم ان رجلا عديم الذمّة يخدم الملكة، ويعرف الجميع ان المال يعوزه، أمام عرض مكافأة أكبر يمكنه ان يخدمه هو، وأخذ في استعماله بطريقة سريّة حتى ان اقرب مساعديه كانوا يجهلون وجود ذلك العون الشاب.

إضافة إلى التمرين الطويل الذي كان قد قام به في مدريد، كانت لفيرّانتي ميزة نادرة في تعلّم اللغات سريعا وتقليد اللهجات. لم يكن من عاداته ان يتبجّح بمواهبه، ولكنه ذات يوم بينما كان ريشليو يستقبل بحضوره جاسوسا انجليزيا، اظهر فيرّانتي انه يعرف التحادث مع ذلك الخائن. وإذا بريشليو، في احدى الفترات الأكثر تأزّما بين فرنسا وإنجلترا، يرسله إلى لندن، حيث كان عليه ان يتنكّر في زيّ تاجر مالطي، وان يأخذ معلومات حول تحركّات السفن في الموانئ.

الآن توّج فيرّانتي جزءا من حلمه: إنه الأن جاسوس، لا في خدمة سيّد من الأسياد، ولكن في خدمة لوياثان الكتاب المقدس، الذي تبلغ ذراعاه كلّ مكان.

جاسوس (كان يعيد روبارتو على نفسه مرتاعا ومشمئزا)، الوباء الأكثر عدوى في البلاطات، «أربيا» تنقضّ على موائد الملوك بوجه مزيّن ومخالب مذبّبة، تطير بجناحي خفّاش وتصغي بأذنين ذات صماخ عظيم، وطواط يبصر في الظلمات، أفعى بين الورود، بنت وردان على الأزهار تحوّل إلى سمّ الرحيق العذب الذي تشربه منها، رتيلاء قابعة في الأروقة تحوك خيوط أحاديثها الدقيقة لتتصيّد كلّ ذبابة تطير، ببغاء معقوف المنقار ينقل كلّ ما يسمعه محرّفا الحقيقة فيجعلها كذبا والكذب فيجعله حقيقة، حرباء تتلوّن بجميع الألوان وتلبس من كلّ ثياب الاّ ثوبها الحقيقي. جميعها خصال يخجل منها ايّ كان، الاّ بطبيعة الحال من جعلته العناية الإلهية (أو الشيطانية) في خدمة الشرّ.

الاّ ان فيرّانتي لم يكن ليقنع بأن يكون جاسوسا، وان يجعل تحت

سلطته اولئك الذين كان ينقل خواطرهم، ولكنه كان يريد ان يكون، كما يقال في ذلك الوقت، نمّاماً عظيما مزدوجا، ومثل وحش الأسطورة كان يريد ان يسير بحركتين متعاكستين. ان كانت الحلبة التي تتواجه فيها السلطات متاهة من الدسائس، من يكون المينوتور الذي تتطعّم فيه طبيعتان متناقضتان؟ الجاسوس المزدوج. إن كان الميدان الذي تدور فيه المعركة بين البلاطات يشبه جحيما في مجرى الكفران يجري فيه «فليجيلون» النسيان في فيضان عنيف، حيث يغلي ماء الأهواء العكر، من يكون «سربار» ذو الأشداق الثلاثة، الذي ينبح بعد ان اكتشف واشتم رائحة من ولجها ليقطع لحمه اربا؟ الجاسوس المزدوج...

ما ان وصل إلى انجلترا، وبينما كان يتجسّس لفائدة ريشليو، حتى اعتزم فيرّانتي ان يُثري من تقديم بعض الخدمات إلى الإنجليز. وبانتزاع بعض المعلومات من الخدم وصغار الموظفين أمام اكواب عظيمة من الجعة وسط حانات مليئة مدخّنة بشحوم الخرفان، تقدّم إلى الأوساط الكنسية قائلا انه كاهن اسباني قرّر ترك الكنيسة الرومانية، التي صار لا يتحمّل قذاراتها.

كان ذلك مثل العسل في آذان أعداء البابا، اولئك الذين كانوا يتحيّنون كل فرصة لتسجيل دناءات الإكليروس الكاثوليكي. ولم يكن حتى من اللازم ان يعترف فيرّانتي بما كان لا يعرف. كان الإنجليز يملكون اعترافا مجهول الإسم، كاذبا أو صادقا، لكاهن آخر. فتقدّم عندئذ فيرّانتي ضامنا صدق تلك الوثيقة، وممضيا باسم أحد مساعدي أسقف مدريد، كان في السابق قد عامله بعجرفة وحلف ان يثأر لنفسه منه.

وفي حين كان الإنجليز يكلفونه بالرجوع إلى اسبانيا لالتقاط تصريحات اخرى من كهنة مستعدين لثلب «العتبة المقدسة»، التقى في احدى حانات المرفأ بمسافر جنوي، جعله فورا يأنس اليه، ليكتشف في وقت وجيز انه كان في الحقيقة يدعى محمود، وهو مرتدّ اعتنق في

المشرق الديانة المحمّدية الاّ أنه الآن كان متنكرا في زيّ تاجر برتغالي، وكان بصدد جمع معلومات حول البحرية الإنجليزية، بينما جواسيس آخرون في خدمة «الباب العالي» كانوا يفعلون نفس الشيء في فرنسا.

وكشف له فيرّانتي انه كان قد خدم الجواسيس الأتراك في ايطاليا، واعتنق نفس ديانته، متخذا اسم جنّات أوغلو. وباع له في الحال معلومات حول التحرّكات في الموانىء الإنجليزية، وتحصّل على مكافأة لحمل رسالة إلى رفاقه في فرنسا. وبينما كان الكنسيون الإنجليز يظنونه قد رحل إلى اسبانيا، لم يرض لنفسه ان تعرض عن امكانية الحصول على ربح آخر من اقامته في انجلترا، واتصل ببعض رجال الأميرالية وتقدّم اليهم على انه بندقيّ، يدعى غرانشيولا (اسم اختلقه متذكّرا القائد غمبيرو)، كان قد قام بمهمّات سريّة لحساب مجلس تلك الجمهورية، بالخصوص على مستوى البحرية التجارية الفرنسية. الآن، هو مطارد من أجل مبارزة، ويبحث عن ملجأ في بلد صديق. ولكي يظهر صدق نواياه، اعلن انه بإمكانه ان يخبر أسياده الجدد ان فرنسا كانت بصدد جمع معلومات في المرافىء الإنجليزية عن طريق محمود، جاسوس تركي، يعيش في لندن متظاهرا بأنه برتغالي.

وفي حوزة محمود، الذي تمّ ايقافه على الفور، عثروا على مذكّرات تخصّ الموانىء الإنجليزية، وفيرّانتي، أو بالأحرى غرانشيولا، اعتبر شخصا جديرا بالثقة. وبعد ان وعدوه بإقامة نهائية في انجلترا، ومنحوه مقدارا اوليا وهامّا من المال، تمّ ارساله إلى فرنسا ليلتحق بالأعوان الإنجليز الآخرين.

وما ان وصل إلى باريس حتى سلّم إلى ريشليو المعلومات التي افتكّها الإنجليز من محمود. ثم اتّصل بالأصدقاء الذين أعطاه المارق الجنوي عناوينهم، وتقدّم اليهم على انه شارل دي لابراش، كان في السابق راهبا ثم دخل في خدمة الكفار، وانه دبّر مؤخرا مؤامرة في لندن تلحق الشين بطائفة المسيحيين أجمعهم. وصدّقه اولئك الجواسيس،

خصوصا بعد ان سمعوا بكتيّب نشرت فيه الكنيسة الأنغليكانية رذائل كاهن اسباني - حتى انه في مدريد، ما ان بلغهم الخبر، حتى ألقوا القبض على الأسقف الذي اتّهمه فيرّانتي بالخيانة، والآن ينتظر الموت في سجون محكمة التفتيش.

وتلقّى فيرّانتي من الجواسيس الأتراك المعلومات التي جمّعوها في فرنسا، وأرسلها إلى الأميرالية الإنجليزية، متحصّلا على مكافأة جديدة. إثر ذلك عاد إلى ريشليو وأعلمه بوجود مؤامرة تركية في باريس. ومرّة أخرى أعجب ريشليو بحذق فيرّانتي وبإخلاصه، حتى انه دعاه للقيام بمهمّة أكثر عسرا من السابقة.

منذ وقت طويل والكردينال يهتمّ بما كان يدور في صالون المركيزة دي رومبويّي، وخامره الظن انه من بين احرار التفكير اولئك هناك من كان يتهامس بشأنه. وقد أخطأ عندما ارسل إلى دي رومبويّي أحد أوفيائه، الذي طلب بكلّ حماقة معلومات حول تهامسات محتملة ضدّ الكردينال. وأجابته أرتينيس ان ضيوفها كانوا يعرفون جيدا مدى اخلاصها للكردينال، وحتى ان كان هناك من يسيء الظن به، فلن يجرؤ أبدا على التحدث عنه في حضورها الاّ بكلّ خير.

كان ريشليو يريد الآن ان يعرّف في باريس بشخص أجنبيّ، ويجعله قادرا على ان يقبل في تلك الأوساط. باختصار، كان روبارتو لا يرغب في التعرّض إلى كلّ الحيل التي توصّل بها فيرّانتي إلى دخول الصالون، ولكنه كان يرى من المناسب ان يجعله يصل اليه، تسانده بعض التوصيات ومتنكّرا: شعر مستعار ولحية بيضاء، ووجه اعطته المساحيق والأدهان مسحة السنين وعصابة على العين اليسرى، وها انت أمام القسّ دي مورفي.

لم يكن روبارتو يتصوّر ان فيرّانتي، الذي كان يشبهه تماما في كلّ شيء، يمكن ان يكون بجانبه في تلك السهرات التي بعد بها الزمن،

ولكنه كان يتذكر انه رأى قسّا مسنّا يحمل عصابة سوداء على العين، وقرّر ان ذلك الشخص هو فيرّانتي، الذي ـ وبعد ما يزيد عن عشر سنوات ـ وفي ذلك الوسط الإجتماعي بالذات، تمكن من العثور على روبارتو! لا يمكن التعبير عن الفرحة الحاقدة التي كان ذلك اللئيم يلاقي بها أخاه البغيض. وبوجه كان يبدو متغيرا ومشوها من العدوانيّة، لولا ان القناع أخفاه، كان يقول في نفسه ان الفرصة سنحت له أخيرا ليقضي على روبارتو، ويستحوذ على اسمه وعلى ثرواته.

وبدأ بأن تجسّس عليه، أسابيع تلو الأسابيع خلال تلك السهرات، مستقرئا وجهه لينفذ إلى اقلّ خاطر يمرّ في ذهنه. واذ كان ماهرا في اخفاء امره فقد كان ماهرا جدا في كشف امور الآخرين. ومن ناحية أخرى فإن الحبّ لا يمكن اخفاؤه: مثل كلّ نار، يفضحها الدخان. متّبعا إذن انظار روبارتو فهم فيرّانتي على الفور انه يحبّ السيّدة. وقال عندئذ في نفسه ان أول ما سيبدأ به هو ان يفتكّ من روبارتو أغلى شيء عنده.

كان فيرّانتي قد تفطّن إلى ان روبارتو، بعد ان جلب انتباه السيّدة بمقولته، لم يجرؤ بعد ذلك على الاقتراب منها. كان ارتباك أخيه يلعب في صالحه: كانت السيّدة ربما فهمت ذلك على انه عدم اكتراث، وازدراء الشيء هو افضل وسيلة للحصول عليه. كان روبارتو يفتح الطريق أمام فيرّانتي. وفيرّانتي ترك السيّدة تنتقع في انتظار مليء بالشك، ثمّ ـ مستغلاّ الفرصة السانحة ـ تقدّم اليها بالثناء والإطراء.

ولكن هل يمكن لروبارتو ان ينسب إلى فيرّانتي غراما على قدر غرامه؟ بكلّ تأكيد لا. كان فيرانتي يعتبر المرأة صورة للخيانة، أميرة الخداع، ذلقة اللسان، بطيئة الخطا وسريعة النزوات. وبما انه تربّى على ايدي نساك شديدي الارتياب كانوا يذكّرونه في كلّ لحظة ان «الرجل هو النار والمرأة هي التبن، ينفخ الشيطان فتشتعل»، فقد تعوّد على ان يعتبر كلّ بنت من بنات حوّاء حيوانا منقوصا، هفوة من الطبيعة، عذابا للعينين

ان كانت دميمة، ولوعة للقلب ان كانت جميلة، متجبّرة على من يعشقها، لدودة لمن يبغضها، مضطربة في اهوائها، قاسية في جفائها، تسحر بفمها وتقيّد بعينيها.

وكان فعلا ذلك الازدراء هو الذي يحثّه على الإغواء: من بين شفتيه كانت تخرج كلمات التملّق، ولكنه كان في قلبه يحيي سقوط ضحيّته.

كان فيرانتي إذن يتهيأ ليضع يديه على ذلك الجسم الذي لم يجرؤ هو (روبارتو) على مسّه ولو بالخاطر. وهو، ذلك الحاقد على كلّ ما هو بالنسبة لروبارتو شيء مقدس، هو الآن على وشك ان يختطف منه ليليا ليجعل منها عشيقة تافهة في ملهاته؟ يا للعذاب. ويا له من واجب مضن، كاتباع منطق الروايات الأخرق، الذي يلزم المشاركة في العواطف الأكثر قبحا، عندما يجب عليه ان يخلق كابن مخيّلته نفسها أمقت ما يوجد من بين الشخصيات.

ولكن لم يكن بالإمكان ان يفعل شيئا آخر. كان على فيرانتي ان يأخذ ليليا ـ والاّ، لماذا يتصوّر قصّة خيالية ان لم تكن سبب موته؟

كيف وماذا حدث، ذلك ما كان روبارتو عاجزا عن تصوّره (لأنه لم يقدر ابدا على محاولة القيام بذلك). ربما نفذ فيرانتي عندما تقدّم الليل إلى حجرة ليليا، متسلّقا بطبيعة الحال لبلابة (متينة العناق، كأنها دعوة ليلية لكلّ قلب عاشق)، متعرّشة إلى حيث مرقدها.

هي ذي ليليا، تظهر علامات الطهارة المدنسة، إلى حدّ ان أيّا كان يمكنه ان يصدّق سخطها، الا رجلا مثل فيرانتي، يعتبر البشر جميعا ميّالين للخداع. وهو ذا فيرّانتي وهو يسقط جاثيا عند قدميها، ويتحدّث اليها. ماذا يقول لها؟ يقول، بصوت خدّاع، كلّ ما كان روبارتو يريد لا فقط ان يقوله، بل وما قاله لها، دون ان تعلم هي من كان يقوله لها.

كيف أمكن لذلك اللعين، كان يتساءل روبارتو، ان يطلع على

فحوى الرسائل التي بعثها اليها؟ وليست تلك فحسب، بل وتلك التي املاها عليه سان سافان في كزالي، مع انه مزّقها! وحتى فحوى تلك التي كان يكتبها الآن على هذه السفينة! ومع ذلك فليس هناك شكّ، فيرّانتي ينطق الآن بنبرات صادقة جملا كان روبارتو يعرفها معرفة جيّدة:

«سيّدتي، في هندسة الكون الرائعة، كتب منذ اليوم الأول من الخلق انني سألاقيك وسأحبك... اعذري جنون هذا اليائس، بل الأفضل ان لا تكترثي له، لم يسمع قط ان على الملوك ان يحاسبوا على موت عبيدهم... الم تجعلي من عينيّ انبيقين تقطرين فيهما الحياة وتحولينها إلى ماء صاف؟ ارجوك، لا تديري عني وجهك الجميل: بدون عينيك فأنا أعمى لأنك لا ترينني، بدون كلمة منك فأنا أبكم لأنك لا تتحدّثين اليّ، ودون ذاكرة سأكون لو لم تتذكريني... آه، ليجعل الحبّ مني على الأقلّ شظية فاقدة الحسّ، يبروحاً، عينا من الصخر تذرف مع دموعها جميع الكروب!»

ما من شك ان السيّدة ترتعد الآن بكلّ فرائصها وفي عينيها يتّقد كلّ الحبّ الذي أخفته إلى ذلك الحين، وبكلّ القوى التي يكسر بها السجين قضبان التحفّظ، ويمدّ سلّم الفرص الحريري. لم يبق الاّ ان يحثّها من جديد، ولم يكتف فيرانتي بإعلان ما كان روبارتو قد كتب اليها، ولكنه كان يعرف كلمات اخرى يسكبها في مسمعيها وهي مسحورة، ساحرا أيضاً روبارتو، الذي لم يكن يتذكر انه سبق له ان كتبها:

«يا شمسي الشاحبة، امام شحوبك الرقيق يفقد الفجر المحمرّ الوان نيرانه! أيتها العينان الجميلتان، منك لا اطلب الاّ ان ترمياني فأضحي سقيما. ولا ينفعني ان اهرب عبر الحقول أو الغاب قصد ان انساك. لا يمتدّ غاب على الأرض، ولا تنبت نبتة في غاب، ولا ينمو غصن في نبتة، ولا يورّق ورق في غصن، ولا يضحك زهر بين ورق، ولا تولد غلّة من زهر لا أرى فيها ابتسامتك..».

وما ان يحمرّ وجهها حتى يضيف «آه، ليليا، لو تعرفين! لقد أحببتك دون ان اعرف وجهك ولا اسمك. كنت أبحث عنك، ولا أدري اين مكانك. ولكنك رشقتني يوما بسهمك كالملاك... آه، اعرف ذلك، تسألينني لماذا لا يبقى حبي هذا طاهرا في الصمت، عفيفا في البعد...ولكنني أموت، يا فؤادي، ها انت ترينني الآن، ان روحي تتركني، لا تجعليها تتيه في الفضاء، اسمحي لها بأن تجعل من فمك مسكنا لها!»

كانت نبرات فيرّانتي صادقة إلى حدّ ان روبارتو نفسه اصبح يريدها ان تسقط في ذلك الفخّ الجميل. هكذا فقط سيتأكد لديه انها تحبّه.

وهكذا انحنت ليليا لتقبّله، ثم تراجعت، كانت تريد ولا تريد، ثلاث مرات قرّبت شفتيها من الأنفاس المتشوقة، وثلاث مرات تراجعت، ثم صاحت: «آه أجل، أجل، إن لم تجعلني سجينتك فلن اكون ابدا طليقة، ولن أكون طاهرة ان انت لم تأخذني»!

وأخذت يده فقبّلتها ثم وضعتها على صدرها؛ وجذبته اليها فخطفت بحنان انفاسه من شفتيه. وانحنى فيرانتي على تلك الكأس الطافحة بالحبور (والتي أوكل اليها روبارتو رماد فؤاده) والتحم الجسمان في روح واحدة، والتحمت الروحان في جسم واحد. وبات روبارتو لا يعرف من يوجد بين تلك الذراعين، بما انها كانت تظن انها بين ذراعيه هو، وفي تقريب شفتي فيرانتي كان يحاول ان يبعد شفتيه، حتى لا يهب إلى الآخر تلك القبلة.

وهكذا،بينما كان فيرانتي يقبّل، وكانت هي تقبّل، ها ان القبل تتلاشى في لا شيء، ولم يبق لروبارتو الا اليقين بأن كلّ شيء قد سرق منه. ولكنه لم يكن يقدر على ان يمنع نفسه من التفكير في ما كان يعدل عن تصوّره: كان يعرف ان المغالاة هي من طبيعة الحبّ.

من تلك المغالاة المذلّة، ناسيا انها كانت تعطي لفيرانتي، وهي

تظنه روبارتو، البرهان الذي اشتاق اليه طويلا، صار يكره ليليا، ويجري عبر السفينة صائحا: «ايتها الشقية، سأشتم جنس الإناث بأجمعه لو سميتك أنثى! ما فعلته لا تفعله انثى بل شرّيرة، وحتى الشرّيرة أشرف من وحش جهنميّ مثلك! انك أشرّ من الصلّ الذي لدغ كليوباترة، وأدهى من المقرّنة التى تجذب العصافير بحيلها لتشبع بها نهمها، وأتعس من القهيقران الذي مهما كانت الفريسة التي ينقضّ عليها يفرغ فيها من السمّ ما يجعلها تموت على الفور، وأشرّ من اللّبس المسلّح بأربع اسنان مسمومة تفسد الأجسام التي تعضّها، وأشرّ من البواء الذي يرتمي من الشجر ويخنق ضحاياه، وأشرّ من المتوّجة التي تنفث سمّها في عيون الماء، وأشرّ من المليكة التي تقتل بنظرها! ايتها الشرّيرة الجهنمية التي لا تعرف لا السماء ولا الأرض، لا الجنس ولا الدين، وحش نشأ من الحجر، من الصخر، من السنديان!»

ثم يتوقّف، ويتفطّن من جديد إلى انها تهب نفسها إلى فيرّانتي وهي تظنه روبارتو، واذن فهي لا تستحقّ اللعنة بل ان ينجّيها أحد من تلك المكيدة: «حذار يا حبي العزيز، انه يتقدّم اليك متّخذا سيمات وجهي، لأنه يعرف انك لن تهبي حبّك إلى أحد غيري! ماذا يجب ان أفعل الآن غير ان أكره نفسي لكي أقدر على كرهه؟ هل يمكنني ان أقبل ان يخدعك، فتنعمي بعناقه وانت تظنينه عناقي؟ أنا الذي رضيت بسجني هذا كي أكرّس ايامي ولياليّ لذكراك، ايمكنني ان أرضى ان تظني انك سحرتني بينما أنت اسيرة سحره؟ آه ياحبيبتي، يا حبيبتي، يا حبيبتي، الم يكفك العقاب الذي عاقبتني، اليس هذا موتا دون الموت؟»

30

حول مرض الحب أو السويداء الجنسية

طيلة يومين هرب روبارتو من جديد من النور. كان في منامه لا يرى الا الموتى. والتهبت لثّته وفمه. من أحشائه امتدّت الآلام إلى صدره، ثم إلى ظهره، وتقيأ مادّة حامضة، رغم انه لم يتناول أي طعام. والسويداء، التي نهشت والتهمت جسمه كلّه، كانت تتخمّر بفقاعات مثل الفقاعات التي يفرزها الماء عندما يعرض لحرارة قوية.

انه سقط دون شك ضحيّة (ومن الغريب انه لم يتفطن إلى ذلك الا الآن) ما كان الجميع يسمّونها السويداء الجنسية. ألم يشرح خلال تلك المسامرة لدى أرتنيس كيف ان صورة الشخص المحبوب تحدث الوجد بنفاذها مثل الخيال عبر حدقتي العينين، بوابتي الروح وجاسوسيها؟ ولكن، بعد ذلك، يتغلغل الإحساس بالحب شيئا فشيئا عبر العروق وينفذ إلى الكبد، محدثا الشبق، الذي يحمل الجسم كله على التمرّد، ويمضي مباشرة ليستحوذ على قلعة القلب، ومن هناك يغير على قوى العقل النبيلة ويخضعها لإرادته.

أي انه يجعل ضحاياه كأنهم مجانين، حواسهم تتيه، وعقولهم تخمد، ومخيّلتهم تفسد، والمحب المسكين يهزل، ويتجوّف، وعيناه تغرقان في حفرتيهما، ويتنهد، ويذوب من الغيرة.

كيف الشفاء؟ كان روبارتو يظن انه يعرف دواء الدواء، الذي حرم منه على كلّ حال: امتلاك المحبوب. لم يكن يعرف ان ذلك لا يكفي لأن المصابين بالسويداء لا يصيرون هكذا من أجل الحب، ولكنهم يحبّون ليتمكنوا من التعبير عن سويدائهم - مفضّلين الأماكن المنعزلة للاجتماع روحيا مع المحبوبة الغائبة وللتفكير فقط في الطريقة التي توصلهم اليها؛ ولكن، ما ان يبلغوا ذلك حتى يحزنوا اكثر ممّا سبق، ويريدوا بلوغ هدف آخر جديد.

كان روبارتو يحاول ان يتذكّر ما سمعه من اهل العلم ممن درس السويداء الجنسية. يبدو انها منجرّة من البطالة، من النوم على الظهر ومن الحبس المفرط للمنيّ. وهو منذ ايام عديدة مجبر على البطالة، اما الحبس المفرط للمنيّ فقد كان يفضّل ان لا يفكّر في أسبابه أو ان يتدبّر الطريقة لعلاجه.

قد سمع ان الخروج للصيد يعين على النسيان، وصمّم ان يكثّف من عمليّاته السباحية، ودون ان يرتاح على ظهره؛ الاّ انه من بين الموادّ المثيرة للحواس هناك الملح، ومن الملح، خلال السباحة، كان يبتلع ما فيه الكفاية... ومن ناحية أخرى فقد سمع ان الإفريقيين، المعرضين أكثر للشمس، كانوا اكثر فجورا من اهل الشمال.

ربما كان الطعام هو الذي اغرى نزعاته الزحلية؟ كان الأطباء يحجرون لحم الطرائد، وكبد الإوز، والفستق، والكمأ أو الزنجبير، ولكنهم لا يذكرون انواع السمك التي لا يستحسن اكلها. ويحذّرون من اللباس الناعم مثل فروة الزبلين أو المخمل، وكذلك من المسك والعنبر وجوزة الطيب والمسحوق القبرصي، ولكن ماذا يعرف عن التأثير المجهول الذي تحدثه مئات العطور الآتية من المنبت المكيّف، أو من تلك المحمولة مع الرياح من الجزيرة؟

كان بإمكانه ان يكافح العديد من تلك التأثيرات المضرّة بالكافور

والحمحم والحمّيض؛ وباستعمال الحقن الشرجية، والمقيئات من ملح الزّاج المحلول في الحساء؛ وأخيرا بفصد الوريد المتوسّط في الذراع أو في الجبين ؛ ثم بالاقتصار على اكل الهندباء، واللعاعة، والخسّ، والبطيخ الأصفر، والعنب، والكرز والبرقوق والإجاص، وبالخصوص النعنع الطازج... ولكن لا شيء من كلّ هذا في متناوله على دافني.

وعاد إلى تمارينه فوق الأمواج، محاولا ان لا يبتلع كثيرا من الملح وان يرتاح أقل ما يمكن.

كان لا ينفكّ عن التفكير في القصّة التي ذكرها، ولكن الغضب ضدّ فيرانتي كان يتحوّل الآن إلى وثبات ثورية، وينازل البحر كما لو أراد من خلال اخضاعه لإرادته إخضاع غريمه.

بعد بضعة ايام، في إحدى العشيّات اكتشف لأول مرّة اللون العنبري الذي اكتسبه شعر صدره و- كما يقول بدورات لغوية طويلة - شعر عانته؛ وتفطّن إلى ان لونه يبرز بتلك الطريقة لأن جسمه اسمرّ ؛ لا فحسب وكذلك لأنه تقوّى، بما انه يرى الآن على ذراعيه عضلات تتموّج لم يكن قد انتبه اليها في السابق. وظن انه قد اصبح هرقلا وفقد معنى الحذر. في اليوم الموالي نزل إلى الماء دون حبل.

كان عليه ان يترك السلّم، متنقّلا طول السفينة من الجهة اليمنى، إلى ان يصل إلى الدفّة، ثم يدور مع مؤخر السفينة، ويصعد من الجهة الأخرى بعد ان يمرّ تحت الصاري المائل. وعمل بكلّ قوة ذراعيه وساقيه.

لم يكن البحر هادئا تماما وموجات صغيرة كانت دائما ترميه على جانبي السفينة، ممّا جعله يضاعف من جهده ليتقدّم طول السفينة مع البقاء على مسافة منها. وصارت أنفاسه ثقيلة، ولكنه واصل التقدّم بشجاعة إلى ان قطع نصف الطريق، أي وصل إلى مؤخر السفينة.

وهنا تفطن إلى انه استنفد كلّ قواه. لم يبق له ما يكفي لقطع

الجانب الآخر من السفينة، ولا للرجوع من حيث أتى. وحاول ان يمسك بالدفة، الاّ ان التمسّك بها كان صعبا لأنها كانت مغطّاة بلعاب النبات، وبقي يتأوه تحت صفعات الأمواج المتواترة.

كان يرى فوق رأسه المقصورة، ويتصوّر من وراء زجاجها ركن مسكنه الآمن. وكان يقول في نفسه انه لو حدث ان انفصل السلّم الصغير في مقدّم السفينة، لبقي ساعات وساعات ينتظر الموت وهو يتشوّق إلى ذلك السطح الذي اراد عديد المرّات ان يتركه.

وغطّت سحابات خفيفة الشمس فبدأ يحسّ بأطرافه تثلج. ألقى رأسه إلى الوراء كما لو اراد ان ينام، وبعد قليل فتح عينيه من جديد، ودار على نفسه، فتفطّن إلى انه اصبح يصير له ما كان يخشاه: وهو ان الأمواج كانت تحمله بعيدا عن السفينة.

جمّع كلّ قواه وعاد قريبا من جانب السفينة، لامسا اياها كأنه يريد ان يستمدّ منها مزيدا من القوة. فوق رأسه كان يرى احد المدافع يبرز من الكوّة. لو كان معه الحبل، كان يقول في نفسه، لجعل فيه ربقة ورماها نحو المدفع ليشدّها إلى فوّهته ثم يرفع نفسه شادا بقوة على الحبل ومركّزا ساقيه في جانب السفينة... ولكن ليس فقط لا يوجد لديه حبل، بل لن تكون لديه لا الشجاعة ولا الساعدان للصعود إلى ذلك الإرتفاع... لا معنى لأن يموت هكذا وهو على مقربة من مأواه.

واتخذ قرارا. الآن بعد ان جاوز المؤخر، إن هو عاد أدراجه طول الجانب الأيمن أو تابع طول الجانب الأيسر، فالمسافة التي تفصله عن السلم هي نفسها. وكمن يقترع اختار ان يسبح من الجهة اليسرى، محاذرا ان لا يبعده التيّار عن دافني.

وأخذ يسبح كازّا على اسنانه، مشدود العضلات، لا يجرؤ على ان يستريح، عازما عزما صارما على ان يبقى على قيد الحياة حتى ولو كلّفه ذلك ـ كما كان يقول ـ ان يموت.

وبصيحة حبور وصل إلى الصاري المائل، ومسك بالمقدّم، ووصل إلى سلّم أيوب ـ ليكن عليه السّلام وعلى جميع آباء الكتابات المقدّسة القدّيسين، وحق رب الملائكة.

لم تبق له أي قوة، وبقي معلّقا إلى السلَّم طيلة قرابة نصف الساعة. ولكنه في نهاية الأمر تمكّن من الصعود إلى سطح السفينة، حيث حاول ان يستخرج العبرة من تجربته.

أولا، أنه يستطيع السباحة، ما يمكّنه من الذهاب والعودة من طرف السفينة إلى طرفها الآخر؛ ثانيا، أن مثل تلك العمليّة تحمله إلى أقصى حدود طاقاته البدنيّة؛ ثالثا، ان المسافة بين السفينة والساحل هي أكبر مرّات ومرّات من محيط دائرة دافني كلّه، حتى في اوقات الجزر، لا أمل له ان يسبح إلى ان يمسّ شيئا يمكنه ان يستند اليه؛ رابعا، ان الجزر يقرّب اليه فعلا اليابسة، ولكن بفعل تيارها المرتدّ يصعّب عليه التقدّم؛ خامسا؛ انه لو أمكنه ان يبلغ منتصف الطريق ثم يعجز عن المضيّ إلى الأمام، فلن يقدر حتى على الرجوع إلى الوراء.

عليه إذن ان يواصل مستعملا الحبل، وهذه المرّة بحبل أطول بكثير. سيسبح نحو الشرق ما مكّنته من ذلك قواه، ثم يعود جاذبا على الحبل. وبإعادة هذه التمارين اياما واياما سيمكنه من بعد ان يحاول دون الاستعانة بالحبل.

اختار عشية هادئة، عندما صارت الشمس وراء ظهره. وحمل معه حبلا طويلا جداً، شُدّ شدّا محكما من احدى طرفيه إلى الصاري الأكبر، وضع على السطح في لفائف كثيرة، تنحلّ شيئا فشيئا حسب الحاجة. وأخذ يسبح بهدوء، دون ان يتعب نفسه كثيرا، مرتاحا مرّات عديدة. كان ينظر إلى الشاطىء وإلى المرتفعين. الآن فقط، ومن الأسفل، تبيّن له كم كان بعيدا ذلك الخطّ التصوّري الذي يمتدّ من الطرف إلى الطرف الآخر من الجنوب إلى الشمال، والذي من ورائه سيدخل في اليوم السابق.

ولأنه فهم غلطا ما قاله له الأب كسبار، كان مقتنعا ان الحاجز المرجاني لا يبدأ الاّ حيث تظهر بعض الموجات البيضاء التي تعلن وجود الصخور الأولى. ولكن حتى خلال الجزر يبدأ الحاجز المرجاني قبل ذلك. وإلاّ لأمكن لدافني أن ترسو أكثر قربا من الجزيرة.

وهكذا اصطدم بساقيه العاريتين بشيء كان يتراءى وسط الماء، لم يتبينه الا عندما صار فوقه. وفي الآن نفسه انتبه إلى حركة اشكال ملوّنة تحت سطح الماء، وبحرقة لا تطاق في فخذه وظنبوبه. كان كما لو ان شيئا عضّه أو خدشه بمخالب. وللابتعاد عن ذلك الرصيف المرجاني ضرب برجله وانتهى به الأمر ان جرح قدمه أيضاً.

عندئذ شدّ على الحبل وأخذ يجذب بما أوتي من قوة حتى انه عندما صعد إلى سطح السفينة كانت يداه مجرّحتين؛ ولكن ما يشغله اكثر كان الألم في ساقه وفي قدمه. كانت فيهما مجموعات من البثرات مؤلمة جدا. غسلها بالماء الحلو، وخفّف ذلك قليلا من الحرق. الاّ انه عند المساء، وطوال كامل الليل، صاحب الحرق حكّة شديدة، وربما أثناء النوم حكّ نفسه، لأنه في الصباح الموالي أخرجت البثرات دما ومادّة مبيضّة.

عندئذ التجأ إلى تحضيرات الأب كسبار(كحول، زيوت، وزهور) التي هدّأت قليلا من الإصابة، ولكنه طيلة يوم كامل أحسّ بحاجة ملحّة إلى ان يغرس أظافره في ذلك الدّمل.

ومرّة اخرى استمدّ العبر من تجربته، وخرج بأربعة استنتاجات: أن الحاجز المرجاني أقرب ممّا يوحي به الجزر، وهذا يشجّعه على ان يحاول من جديد القيام بتلك المغامرة؛ إن بعض المخلوقات التي تعيش فيه، سراطنة وسمك وربما المرجان، والصخور المدبّبة، كانت قادرة على ان تسبّب له داء يشبه الطاعون؛ وأنه ان اراد ان يعود ثانية فوق تلك الصخور، فعليه ان يحتذي نعلين ويلبس اثوابا، وهذا سيعطّل حتما

حركاته في الماء؛ وأنه، بما انه في كلّ الحالات لن يتمكّن من ان يحمي بدنه كلّه، فعليه ان يتمكّن من الرؤية تحت الماء.

والاستنتاج الأخير ذكّره بالإنسان الزجاجي، أو بالكمامة التي تسمح بالرؤية في البحر، الذي أراه اياه الأب كسبار. وحاول ان يربطها إلى رقبته، واكتشف انها تنغلق على وجهه وتتركه كمَنْ يرى من خلال نافذة. حاول ان يتنفّس، وأحسّ ان قليلا من الهواء كان ينفذ. ان كان الهواء ينفذ فالماء أيضاً سينفذ. يجب إذن استعماله مع الامتناع عن التنفّس ـ بقدر ما فيه من الهواء بقدر ما سيمنع دخول الماء ـ وأن يعود إلى السطح ما ان يمتلىء بالماء.

لا يمكن ان تكون عمليّة سهلة، وقضّى روبارتو ثلاثة ايام وهو يحاول جميع الأطوار وهو في الماء، ولكن بالقرب من دافني. وبالقرب من مراقد النوتية وجد مداسين من الكتّان يحمي بهما قدميه دون ان يثقلهما، وسروالا طويلا ربطه إلى ربلتي ساقيه. وقضى نصف يوم كاملا ليقوم بتلك الحركات التي تعلّمها على احسن وجه وهو عاري الجسم.

ثم سبح مستعملا الكمامة. في الماء العميق لم يكن يرى الكثير، ولكنه شاهد مجموعة من الأسماك الذهبية، على بعد عدّة أذرع تحته، كما لو كانت تسبح في حوض.

مرّت ثلاثة ايام، حسب ما قيل. تعلّم خلالها روبارتو في البداية ان ينظر تحت الماء حابسا تنفّسه، ثم ان يتحرّك وهو ينظر، ثم ان يخلع الكمامة وهو في الماء. اثناء هذه العمليّة الأخيرة تعلّم فطريا وضعية جديدة، وهي ان ينفخ صدره ويخرجه، وان يتحرّك بساقيه كأنما يمشي بسرعة، ويرفع ذقنه إلى أعلى. ما كان اصعب، على عكس ذلك، هو ان يحافظ على ذلك التوازن ويضع من جديد الكمامة على وجهه ويربطها إلى رقبته. ولكنه قال في نفسه انه من ناحية أخرى عندما سيصل إلى الحاجز المرجاني، لو اتخذ تلك الوضعية العمودية فسيصطدم

بالصخور، وإن احتفظ بوجهه خارج الماء فلن يرى ماذا ستضرب قدماه. لذا اعتبر انه من الأفضل ان لا يربط الكمامة، بل ان يضغط عليها أمام وجهه بكلتا يديه. الاّ ان ذلك سيضطره إلى التقدّم بحركة الساقين فحسب، ولكن بجعلهما ممتدّتين في وضعية افقية، حتى لا تصطدما بالقاع؛ وهي حركة لم يتمرّن عليها قطّ وتطلبت منه محاولات طويلة قبل ان يقدر على القيام بها بشيء من الثقة.

أثناء هذه المحاولات كان يحوّل كلّ اندفاع غضوب إلى باب من «رواية فيرانتي».

وأعطى لقصّته توجّها أكثر ضغينة، يجد فيه فيرّانتي عقابا محقّاً.

31

مرجع السياسيين

من ناحية أخرى كان لا بدّ له من أن يواصل كتابة قصّته. صحيح ان الشعراء، بعد ان يذكروا حدثا مشهودا، يهملونه بعض الوقت، ليستفزّوا فضول القارىء ـ وفي هذه المهارة نتعرّف على جودة خلق الرواية؛ ولكن لا يجب ان يترك الموضوع جانبا لمدّة طويلة، حتى لا يتيه القارىء في احداث اخرى كثيرة موازية. ينبغي إذن ان يعود إلى فيرّانتي.

كان افتكاك ليليا من روبارتو واحدا من مخطّطين اثنين اراد فيرانتي تنفيذهما. مخطّطه الثاني كان زوال حظوة روبارتو لدى الكردينال. وهو مشروع غير سهل بما أن الكردينال كان يجهل تماما وجود روبارتو.

ولكن فيرانتي كان يعرف كيف يستغلّ الفرص السانحة. كان ريشليو يقرأ ذات يوم رسالة في حضوره وسأله قائلا:

ـ «ان الكردينال مزارينو يحدّثنا عن أمر يخصّ الإنجليز، يتعلّق بما يسمّونه «مسحوق الانجذاب». هل سمعت عن هذا شيئا في لندن؟»

ـ «وما هو يا نيافة الكردينال؟»

ـ «يا سيّد بوتسو، أو لا أدري ما اسمك، تعلّم انه لا يجب ابدا ان تجيب عن سؤال بسؤال آخر، خاصّة عندما تكون بحضور من هو

أعلى مقاما منك. لو كنت أعرف ما هو لما سألتك. على كلّ حال، ان لم يكن بخصوص هذا المسحوق، هل سمعت شيئا عن اكتشاف جديد يمكّن من معرفة خطوط الطول؟»

ـ «أعترف انني أجهل كلّ شيء بخصوص هذا الموضوع. لو أردتم ان تنيروني، لربما استطعت ان..».

ـ «يا سيّد بوتسو، لولا وقاحتك لكنت مسليًا. لن أكون سيّد هذه البلاد لو أنرت الآخرين حول اسرار لا يعرفونها ـ الاّ اذا كان اولئك الآخرون ملك فرنسا، ولا أظن ان هذا شأنك. وإذن اكتف بأن تفعل ما انت قادر على فعله: افتح مسمعيك واكتشف اسراراً لا تعرف عنها شيئا. ثمّ اخبرني بما اكتشفت، وبعد ذلك حاول ان تنسى ما اكتشفته».

ـ «ذلك ما فعلته دائما، يا نيافة الكردينال. أو على الأقلّ، هذا ما أظنّه، لأنني نسيت انني فعلت ذلك».

ـ «هذا ما اريده منك. يمكنك ان تذهب».

بعد ذلك بمدّة سمع فيرّانتي روبارتو، في تلك الليلة المشهودة، وهو يتحدّث فعلا عن المسحوق. لم يصدّق نفسه وهو يفكّر انه بإمكانه ان يعلم ريشليو بأن احد النبلاء الإيطاليين، ممّن له خلطة بذلك الإنجليزي ديغبي (المعروف عنه انه كان على علاقة في السابق بدوق دي بوكانكون)، يبدو انه يعرف الكثير عن ذلك المسحوق.

في اللحظة التي بدأ يرمي فيها الشبهة على روبارتو، كان فيرانتي يتهيأ ليأخذ مكانه. لذا اعترف للكردينال انه هو، فيرانتي، كان يقدّم نفسه على انه السيّد دل بوتسو بما ان عمله كجاسوس يتطلب منه ان يخفي هويّته، ولكنه في الواقع هو روبارتو ديلا غريف الحقيقي، المكافح الشجاع إلى جانب الفرنسيين زمن حصار «كزالي». والآخر، الذي يتحدّث بمكر عن ذلك المسحوق الإنجليزي، كان مغامرا نصابا استغلّ

شبهه به، وانه سبق ان اتخذ اسم محمود العربي ليعمل جاسوسا في لندن في خدمة الأتراك.

بهذه الطريقة كان فيرانتي يتهيأ للحظة التي، بعد ان يهلك أخاه، سيأخذ فيها مكانه مقدّما نفسه على انه روبارتو الوحيد والحقيقي، لا فقط لدى الأقرباء الذين بقوا في لاغريف، ولكن أيضاً لدى اهل باريس جميعهم ـ كما لو ان الآخر لم يوجد قطّ.

في تلك الأثناء، بينما كان يتّخذ ملامح روبارتو للاستحواذ على ليليا، علم فيرانتي، مثلما علم الجميع، بمصيبة سنك مارس، وحتى ان كانت المجازفة خطيرة جدا وبما انه كان مستعدا للتضحية بحياته لتحقيق انتقامه، أظهر نفسه أمام الجميع، دائما في زي وهيأة روبارتو، صحبة أصدقاء ذلك المتآمر.

إثر ذلك أوعز للكردينال ان روبارتو ديلاغريف المزيّف، ذلك الذي يعرف الكثير عن ذلك السرّ الثمين بالنسبة للإنجليز، هو بكلّ وضوح من بين المتآمرين، وحمل اليه شهودا اثبتوا انهم رأوا فعلا روبارتو صحبة هذا أو ذاك.

كما نرى، كان قصرا من الأكاذيب والأقنعة يفسّر الفخ الذي سقط فيه روبارتو. ولكن روبارتو سقط فيه لأسباب وبطرق كان يجهلها فيرانتي نفسه، الذي قلب موت ريشليو مخطّطاته.

ماذا حدث بالضبط؟ ريشليو، في ريبته الشديدة من الجميع، كان يستعمل فيرانتي دون اعلام أحد بذلك، ولا حتى مزارينو الذي كان واضحا انه يرتاب فيه لأنه يراه يحوم مثل العقاب حول جسمه المريض. الاّ انه، عندما أحسّ ان المرض يستفحل، اخبر ريشليو مزارينو ببعض المعلومات، دون ان يذكر له مصدرها:

ـ «بالمناسبة، يا عزيزي جوليو»!

ـ «نعم، يا نيافة الأب الجليل..».

ـ «راقب واحدا يدعى روبارتو ديلاغريف. في المساء تجده لدى السيّدة دي رومبويّي. يبدو انه يعرف الكثير بخصوص ذلك الذي تسمّيه مسحوق الانجذاب... ومن جهة أخرى، حسب مخبري، ذلك الشاب يخالط أيضاً مجموعة من المتآمرين..».

ـ «لا تجهد نفسك، يا نيافة الكردينال. سأهتمّ بكلّ شيء».

وها ان مزارينو يبدأ تحقيقا لفائدته حول روبارتو، إلى ان عرف ذلك القليل الذي أظهر انه يعرفه ليلة إلقاء القبض عليه. ولكن كلّ هذا دون ان يعرف شيئا عن فيرانتي.

في تلك الأثناء توفّي ريشليو. ماذا يمكن ان يكون حدث لفيرانتي؟

بعد موت ريشليو فقد كلّ سند. كان عليه ان يربط اتصالات مع مزارينو، بما ان ذلك الشقي هو مثل عبّاد الشمس يدور دائما ناحية من هو أكثر سلطة. ولكنه لا يقدر على مقابلة الكاهن الجديد دون ان يمدّه ببرهان يثبت قدرته. عن روبارتو لا يعثر على أي أثر. ربما هو مريض، أو مسافر؟ فيرانتي يفكّر في كلّ احتمال، الاّ ان تكون اتهاماته الكاذبة قد اعطت نتيجتها، وان روبارتو قد ألقي عليه القبض.

لا يجرؤ فيرانتي ان يظهر الآن بين الناس وهو في هيأة روبارتو، حتى لا يوقظ الظنون لدى من كان يعرفه بعيدا. ومهما يكن ما حدث بينه وبين ليليا، فقد أوقف كلّ علاقة معها، غير مبال كمن يعرف ان كل انتصار يتطلّب وقتا طويلا. كان يعرف انه يجب ان يعرف كيف يستغلّ البعد؛ فالخصال تفقد من بريقها عندما يكثر اظهارها والخيال يرى أبعد ممّا تراه العين؛ حتى العنقاء تتخيّر الأماكن السريّة لتبقي على اسطورتها دائما حيّة.

ولكن الوقت ضيّق، وقبل ان يعود روبارتو يجب ان يكون مزارينو قد ارتاب به، وأراد موته. عندئذ يستشير فيرانتي اصدقاءه في البلاط ويكتشف انه بإمكانه ان يصل إلى مزارينو عن طريق الشاب كولبار،

فيرسل اليه رسالة يلمّح له فيها إلى خطر يمثّله الإنجليز، وإلى مسألة خطوط الطول (دون أن يعرف عنها شيئا، فمرّة واحدة سمع ريشليو يتحدّث عنها). وفي مقابل معلوماته يطلب مبلغا ماليا هامّا جداً، ويحصل على مقابلة، يذهب اليها متنكرا في زي قسّ شيخ، بعصابته السوداء على عينه.

ولكن كلبار ليس غبيّا. ذلك القسّ له صوت يبدو له انه سمعه من قبل، والأشياء القليلة التي ذكرها اثارت ريبته، وها هو ينادي على حارسين ويقترب من الزائر فينزع عنه العصابة واللحية، ومن يجد أمامه؟ روبارتو ديلاغريف بعينه، ذلك الذي أمر أعوانه ان يأخذوه ليركبوه على سفينة الدكتور بيرد.

وبينما كان روبارتو يقصّ على نفسه هذه الحكاية كانت نفسه تطير من الجذل. فيرّانتي بمحض ارادته حشر نفسه في الفخّ. «أنت، يا سان باتريتسيو؟» صاح كولبار على الفور. وبما ان فيرانتي اخذ يرتعد دون جواب، رمى به في احدى الزنزانات.

واستمتع روبارتو وهو يتصوّر الحوار الذي دار بين مزارينو وكولبار، بعد ان أعلمه هذا الأخير فورا بما حدث.

ـ «أظن ان الرجل مجنون، يا نيافة الكردينال. يمكنني ان أفهم أنه عدل عن القيام بمهمّته، ولكن ما لا أفهمه هو ان يأتي الينا ليبيعنا ما اعطيناه نحن، هذه علامة جنون».

ـ «كولبار، اظن انه من المستحيل ان يجنّ انسان إلى حدّ ان يعتبرني غبيّا. وإذن رجلنا يلعب بينما يعرف انه يملك اوراقا لا تغلب».

ـ «وماذا يعني؟»

ـ «يعني مثلا انه ركب تلك السفينة واكتشف فورا ما كان يجب ان يكتشفه، ورأى انه لا لزوم للبقاء عليها».

ـ «ولكنه لو أراد ان يخوننا لذهب إلى الإسبان أو إلى الهولنديين. لا ان يأتي الينا لتحدّينا. ثم، ليطلب ماذا، في نهاية الأمر؟ نقودا؟ انه يعرف جيدا انه لو تصرّف معنا بإخلاص لتحصّل حتى على منصب في البلاط».

ـ «من الواضح انه متأكد من انه اكتشف سرّا تفوق قيمته منصبا في البلاط. صدّقني، انني اعرف جيدا طبيعة البشر. لم يبق لنا الاّ ان نسايره في لعبته. أريد ان اقابله هذا المساء».

قابل مزارينو فيرانتي وهو يضع اللمسات الأخيرة، بنفسه، لمأدبة كان يعدّها لضيوفه، مأدبة تزخر بأشياء تبدو اشياء أخرى. على المائدة كانت تلمع فتائل تخرج من كؤوس من الثلج، وقنينات مليئة بخمور ألوانها غير ألوان الخمر، بين سلال من الخسّ المزيّنة بزهور وغلال مزيفة زيّفت عطورها.

ومزارينو، الذي كان يظن ان بحوزة روبارتو، أي فيرانتي، سرّا يجب عليه ان يستمدّ منه اكثر ما يمكن من المنفعة، عزم على ان يتظاهر بأنه يعرف كلّ شيء (أعني، كلّ ما كان يجهله) بطريقة تجعل الآخر يمدّه عفوا ببعض الإشارات.

ومن ناحية أخرى فإن فيرانتي ـ عندما وجد نفسه أمام الكردينال ـ فهم ان روبارتو كان على علم بسرّ، عليه هو ان يستمدّ منه اكثر ما يمكن من المنفعة، وعزم على ان يتظاهر بأنه يعرف كلّ شيء (أعني، كلّ ما كان يجهله) بطريقة تجعل الآخر يمدّه عفوا ببعض الإشارات.

وهكذا نجد أمامنا رجلين، كلاهما يجهل ما يظن ان الآخر يعرف، ولكي يخدع احدهما الآخر يتكلّمان بالتلميح، وكلاهما يأمل ان يكون لدى الآخر مفتاح اللغز. ويا لها من قصّة جميلة، كان يقول روبارتو في نفسه، بينما كان يحاول ان يحلّ العقدة التي شبكها.

«يا سيّد دي سان باتريتسيو،» قال مزارينو بينما كان يقرّب طبقا من

سرطان البحر حيّاً كان يبدو مطبوخا إلى طبق آخر من سرطان البحر مطبوخا كان يبدو حيّاً، «قبل الآن بأسبوع أركبناك البحر في أمستردام على متن أماريلّي. لا يمكن ان تكون قد تركت المهمّة: أنت تعرف ان ذلك سيكلّفك حياتك. وإذن فأنت قد اكتشفت ما كان ينبغي ان تكتشفه».

عندما وجد فيرانتي نفسه في ذلك المأزق فهم انه ليس في صالحه ان يقول انه ترك المهمّة. وإذن لم يبق له الاّ طريق واحد فقال: «ان كانت هذه رغبة جنابك، فبإمكاني ان أقول انني أعرف ما تريد حضرة جنابك أن أعرف،» وأضاف بينه وبين نفسه: «في الأثناء اعرف ان السرّ يوجد على متن سفينة تسمّى أماريلّي، وانها أبحرت منذ اسبوع من أمستردام..».

ـ «هلمّ اذن، لا تكن متواضعا. إنني أعرف جيدا انك علمت أكثر ممّا كنت أنتظر. منذ ان سافرت بلغتني أخبار أخرى، لأنه لا يمكن ان تتصوّر انه لا أعوان لي غيرك. أعرف إذن ان ما اكتشفته يساوي الكثير، ولست هنا لأبيع وأشتري. ولكنني أتساءل لماذا جئت اليّ مستعملا هذه الطرق الملتوية». وفي الأثناء كان يشير إلى خدمه اين يجب ان يضعوا لحوما صففت في قوالب من الخشب في شكل سمك، سكب فوقها الجلاّب وليس المرق.

واقتنع فيرانتي مرّة أخرى بأن السرّ لا ثمن له، ولكنه كان يقول في نفسه انه من الأسهل ان يضرب عصفورا يطير في خط مستو، من ان يضرب ذلك الذي ينحرف باستمرار. واذن كان يربح الوقت ليسبر غور منافسه أكثر: «جنابك يعرف ان أهميّة الرهان يتطلّب وسائل ملتوية».

«يا للماكر»، كان يقول مزارينو في نفسه، «أنت لست واثقا من قيمة معلومتك وتنتظر ان أحدّد أنا السعر. ولكن يجب ان تتكلّم أنت الأول». وحوّل إلى وسط المائدة مثلّجات صنعت لتبدو كأنها خوخ لا

يزال مشدودا إلى اغصانه، ثم قال بصوت عال: «إنني أعرف ماذا تملك. وأنت تعرف انه لا يمكنك ان تعرضه الاّ عليّ. هل يبدو لك من السانح ان توهمنا ان الأبيض أسود وان الأسود أبيض؟»

«آه، ايها الثعلب اللعين،» كان يقول فيرانتي في نفسه، «أنت لا تدري فعلا ماذا يجب ان أعرف، ولكن المشكل هو انني أنا أيضاً لا أعرفه». وأضاف بصوت عال: «إن حضرة جنابك يعرف جيّدا ان الحقيقة يمكن ان تكون احيانا خلاصة المرارة».

ـ «العلم لا يؤذي أبدا».

ـ «ولكنه احيانا يؤلم».

ـ «آلمني اذن. لن أتألم أكثر ممّا تألمت عندما بلغني انك شوّهت نفسك بتهمة الخيانة وانه كان عليّ أن اتركك بين يدي الجلاّد».

وفهم فيرانتي أخيرا انه لو واصل لعبة التظاهر بأنه روبارتو، فسيكون مآله الإعدام. من الأحسن ان يظهر نفسه على حقيقتها، سيكون عقابه على الأكثر الضرب بالعصا من قبل خدّامه.

قال: «حضرة الجناب، لقد أخطأت لمّا أخفيت عنكم الحقيقة منذ البداية. ان السيد كولبار خلط وظنّ انني روبارتو ديلاغريف، وخطأه ربما أثر على دقّة فراسة حضرتك. ولكنني لست روبارتو، أنا اخوه الطبيعي فيرانتي. لقد تقدّمت اليكم لأقدّم لكم معلومات كنت أظن انها ستهمّ حضرتك، بما ان حضرتك كان اول من ذكر للفقيد الذي لا ينسى الكردينال مكيدة الإنجليز، حضرة جنابك يعرف ماذا أقصد... مسحوق الانجذاب ومشكلة خطوط الطول..».

عندما سمع مزارينو ذلك الكلام ندّت عنه حركة غضب، وكاد ان يسقط حسائية من الذهب المزيف، مزخرفة بطرائف نحتت برقّة في الزجاج. وألقى اللوم في ذلك على أحد الخدّام، ثمّ همس إلى كولبار: «ارم بهذا الرجل حيث كان».

إنه فعلا صحيح ان الآلهة تعمي اولئك الذين تريدهم ان يكونوا من الخاسرين. كان فيرانتي يظن انه سيثير الاهتمام عندما سيظهر انه يعرف أسرارا كانت على غاية من الأهمية بالنسبة للكردينال المتوفّى، وتجاوز الحدود، لغرور النمّام الذي يريد ان يظهر انه يعرف ما لا يعرفه سيّده. ولكن لم يقل أحد لمزارينو (وسيكون من الصعب ان يبرهن له احد على ذلك) ان بين فيرانتي وريشليو كانت هناك علاقات. كان مزارينو يرى أمامه رجلا، ربما هو روبارتو أو أحد آخر، ليس فقط على علم بما قال هو لروبارتو، ولكن أيضاً بما كتب هو إلى ريشليو. من أخبره بذلك؟

بعد خروج فيرانتي، قال له كولبار: «حضرة جنابك يصدّق ما قاله هذا الرجل؟ لو كان توأما للآخر لاتضح كل شيء. يكون روبارتو الآن في البحر و..».

ـ «كلاّ، لو كان هذا أخاه، لتعقّد الأمر أكثر. كيف فعل للاطلاع على ما كنّا نعرفه نحن فقط أنا وأنت وجاسوسنا الإنجليزي، واخيرا روبارتو ديلاغريف؟»

ـ «ربّما حدّثه بذلك أخوه».

ـ «كلاّ، أخوه عرف كلّ شيء منّا في تلك الليلة فقط، ومنذ ذلك الوقت لم يغب عنّا لحظة، إلى ان أبحرت تلك السفينة. لا، لا، هذا الرجل يعرف أشياء كثيرة لا يجب ان يعرفها».

ـ «ماذا نفعل به؟»

ـ «سؤال وجيه، يا كولبار. إن كان هذا الرجل روبارتو، فقد اطّلع على ما يوجد في السفينة، ويجب إذن ان يتكلّم. وإن لم يكن هو، فيجب ان نعرف حتما من اين استقى معلوماته. في كلتا الحالتين، فكرة جرّه أمام المحكمة غير واردة، لأنه سيتكلّم كثيرا وأمام الكثير من الحاضرين، وليس بإمكاننا حتى ان نمحو وجوده ببعض بوصات من

خنجر في ظهره: لا تزال لديه اشياء كثيرة يجب ان يقولها لنا. وان لم يكن روبارتو، بل، كما قال، فرّاند أو فرناند..».

ـ «فيرّانتي، حسب ما أظن».

ـ «مهما يكن. ان لم يكن روبارتو، فمن يمكن ان يكون وراءه. حتى قلعة باستيّ ليست موضعا موثوقا. نعرف ان اشخاصا من داخلها بعثوا أو تقبّلوا رسائل. يجب ان ننتظر ان يتكلّم، وان نجد الطريقة لكي نجعله يفتح فمه، ولكن في هذه الأثناء ينبغي ان ننفيه في مكان لا يعرفه أحد، وان نمنع من ان يتعرّف عليه أحد».

وكان عند ذلك الحدّ ان جاءت لكولبار فكرة رائعة وان كانت قاتمة.

قبل ذلك ببضعة أيام قبضت سفينة حربية فرنسية في سواحل بريطانيا على سفينة قراصنة. كانت، من غرابة الصدف، عتادية هولندية من نوع fluyt، ذات اسم مستحيل النطق بطبيعة الحال، Tweede Daphne، أي دافني الثانية، وذلك دليل ـ لاحظ مزارينو ـ على انه في مكان ما توجد دافني الأولى، وهذا يبرهن من جديد على ان اولئك البروتستان ليسوا فقط ضعفاء الدين بل هم أيضاً ضعفاء الخيال. كان النوتية خليطا من كلّ الأجناس. كلّهم يستحقّون الشنق، ولكن من المستحسن ان نحقق اذا ما كانوا في خدمة انجلترا، وممّن سرقوا تلك السفينة، ولربّما امكن ان نستفيد من تبادل مع مالكيها الشرعيين.

تقرّر إذن ان توضع السفينة في مرسى غير بعيد عن مصبّ نهر «السّان»، في جون صغير يكاد لا يرى، محجوب حتى عن انظار حجّاج سان جياكومو الذين يمرّون قريبا من هنالك آتين من «فلاندر». فوق لسان من اليابسة يغلق الجون كانت هناك قلعة صغيرة استعملت في الماضي سجناً، ولكنها صارت الآن مهجورة أو تكاد. وهنالك ألقي بالقراصنة، في الزنزانات، يحرسهم ثلاثة رجال فحسب.

«هذا يكفي»، قال مزارينو «خذ عشرة من حراسي وضع على رأسهم قائدا محنكا لا ينقصه الحذر..».

- «بيسكارا. لقد تصرّف دائما بإخلاص منذ ان كان يبارز بالسيف ضدّ الحراس الملكيين دفاعا عن شرف الكردينال..».

«حسنا. خذوا السجين إلى القلعة، وضعوه في مسكن الحرّاس. بيسكارا يتناول معه الطعام ويصطحبه عندما يخرج ليأخذ قليلا من الهواء. واجعلوا حارسا على باب حجرته حتى أثناء الليل. السجن يضعف أقوى العزائم، لن يكون لذلك المغرور من رفيق غير بيسكارا يتحدّث اليه، وربما زلق لسانه ببعض الأسرار. وبالخصوص، لا يجب ان يتعرّف عليه أحد، لا أثناء السفر ولا في القلعة..».

- «وعندما يخرج لتنفّس الهواء..».

- «استعمل مخيّلتك، يا كولبار. اجعل له قناعاً».

- «لدي اقتراح... نجعل له قناعا من الحديد، ونغلقه بقفل ثم نرمي بالمفتاح في البحر..».

- «هلمّ يا كولبار، هل تظن اننا في عالم الروايات؟ لقد تفرّجنا مساء أمس على اولئك الممثلين الإيطاليين، بتلك الأقنعة من الجلد وبتلك الأنوف الطويلة، التي تغيّر ملامحهم، ومع ذلك تترك مجال الفم خاليا. خذ قناعا مثلها واجعله على وجهه بطريقة لا يمكنه معها ان يخلعه، وضع له مرآة في الحجرة، حتى يموت من الخزي كلّ يوم. أراد ان يتنكّر في هيأة أخيه؟ لننكّره في زيّ مهرّج! وألحّ من جديد، من هنا حتى القلعة، في عربة مغلقة، لا وقوف الا في الليّل وفي الخلاء، ولا تتركوه يظهر نفسه في محطات الإبدال. وان سألكم أحد قولوا انكم تقودون سيّدة عظيمة الشأن إلى الحدود، لأنها تآمرت ضد الكردينال».

كان فيرّانتي، وهو متضايق من قناعه المضحك، يحدق الآن منذ ايام (من خلال شباك حديدي يعطي قليلا من النور إلى حجرته) في

مدرج رمادي اللون تحيط به ربوات وعرة، والسفينة توييد دافني راسية في الجون.

كان يراقب نفسه بحضور بيسكارا، موهما اياه احيانا بأنه روبارتو، وأحيانا أخرى بأنه فيرانتي، بطريقة تجعل التقارير التي كان يرسلها إلى مزارينو دائما غامضة. كان يلتقط بعض أحاديث الحراس وفهم ان هناك قراصنة في دهاليز القلعة مشدودين بالسلاسل.

كان يودّ لو ثأر من روبارتو لذنب لم يقترفه، ويجهد فكره ليجد الطريقة لإحداث ثورة، وتحرير اولئك الملاعين، ثم الاستحواذ على تلك السفينة ليقتفي بعد ذلك أثر روبارتو. كان يعرف من اين سيبدأ، سيجد في أمستردام من يدلّه على الوجهة التي قصدتها أماريليّ. سيلتحق بها، وسيكتشف السرّ الذي يحتفظ به روبارتو، ثم يتخلّص من ذلك الشبيه المضايق في البحر، وعند ذلك سيمكنه ان يبيع ما عنده للكردينال بأغلى ثمن.

أو ربما لا، عندما يحصل على السرّ سيكون حرّا في ان يبيعه إلى آخرين. بل ولماذا سيبيعه؟ حسب ما فهم يتعلّق سرّ روبارتو بخريطة جزيرة فيها كنز عظيم، أو ربما سرّ الألمبرادوس أو سرّ جماعة روزاكروتشي، الذين يدور الحديث عنهم منذ عشرين سنة. سيستغل الاكتشاف لصالحه الخاصّ، لن يكون جاسوسا في خدمة سيّد، ستكون له جواسيس في خدمته. وعندما يصير لديه نفوذ ومال، لا فقط يرث اسم العائلة، بل وستكون السيّدة من نصيبه.

لا شكّ أن فيرانتي، الذي نحت مزاجه من عواطف متباينة، غير قادر على ان يحبّ ولكن، كان يقول روبارتو في نفسه، هناك اشخاص لا يحبون طالما لم يسمعوا أحدا يتحدّث عن الحب. ربما وجد فيرانتي في زنزانته رواية، فقرأها، واقتنع انه يحب لا لشيء الاّ ليحسّ بنفسه في مكان آخر.

ربما تكون هي في اللقاء الأول أعطت مشطها إلى فيرانتي، عربونا عن حبّها. الآن هوذا فيرانتي يقبّله وفي تقبيله يغرق، ناسيا، في الجون الذي شقّ الحيزوم العاجي عبابه.

ربما، من يدري، حتى ماكر من تلك الطينة يمكن ان يخضع لذكرى ذلك الوجه... كان روبارتو يرى الآن فيرانتي جالسا أمام المرآة التي، لمن هو جالس على الجانب، لا تعكس الاّ الشمعة الموضوعة تجاهها. وفي تحديقه في ذينك النورين اللذين يقلّد أحدهما الآخر، تقف العين، وينخطف العقل، وتبرز رؤى. وعندما يحوّل فيرانتي رأسه قليلا يرى ليليا، بوجهها في لون الشمع الناصع، ينضح بالنور حتى انه يمتصّ كل الأنوار الأخرى، ويترك شعرها الأشقر ينساب في كتلة قاتمة تتجمّع في شكل مغزل وراء كتفيها، وصدرها لا يتراءى الاّ قليلا تحت فستان ناعم نصف مقوّر...

الاّ ان فيرانتي (أخيرا، كان يهتف روبارتو) كان يريد ان يحصل على جزاء أوفر من أباطيل حلم، فإذا به يقف ساخطا أمام المرآة، فلا يرى من وراء الشمعة المنعكسة الاّ الخرنوبة التي تغطي بالخزي سحنته.

وكالوحش الذي لا يرضى بخسران هبة لا يستحقّها، يعود دنيئا فيلمس مشطها، ولكنه الآن، في دخان بقايا الشمعة الهزيلة، كان ذلك الشيء (الذي بالنسبة لروبارتو كان يمكن ان يكون أعزّ تذكار) يبدو له مثل شدق مسنّن يتأهب لتمزيق قنوطه.

32

حديقة الملذّات

عند التفكير في فيرّانتي وهو سجين فوق تلك الجزيرة، ينظر إلى تويبد دافني التي لن يتمكّن أبدا من الوصول اليها، بعيدا عن السيّدة، كان روبارتو يحسّ، ولا نقدر ان نلومه على ذلك، برضى غير جميل ولكنه شرعي، فيه أيضاً شيء من رضى الراوي، بما انه ـ باستقلاب عكسي جميل ـ نجح في ان يحبس منافسه في سجن مختلف انعكاسيا عن سجنه.

أنت من جزيرتك، بكمامتك الجلدية، لن تتمكّن أبدا من بلوغ السفينة. أمّا أنا، من السفينة، بكمامتي الزجاجية، فإني على وشك أن أبلغ جزيرتي. هكذا كان يقول في نفسه (ويقول له)، بينما كان يتهيأ لسفرته الجديدة عبر الماء.

كان يتذكّر المسافة التي قطعها من السفينة إلى أن جرح، وإذن سبح في البداية بهدوء وهو يحمل الكمامة مشدودة إلى حزامه. وعندما بدا له انه وصل قريبا من الحاجز المرجاني وضع الكمامة على وجهه وانطلق في اكتشاف قاع البحر.

على امتداد مسافة معينّة لم ير الاّ بقعا غير واضحة، كمن يصل على سفينة في ليلة ضباب أمام جدار صخري، يظهر فجأة عموديا أمام

البحّار، هكذا بانت له حافة الهاوية التي كان يسبح فوقها.

نزع الكمامة وأفرغها من الماء ثم وضعها من جديد على وجهه ضاغطا عليها بيديه، وبضربات خفيفة من قدميه تقدّم نحو المشهد الذي بان له منذ قليل.

هذا هو المرجان إذن! كانت انطباعاته الأولى، حسب ما تبين من ملحوظاته، كلّها حيرة واندهاش. كان يبدو له انه يجد نفسه في دكّان تاجر للأقمشة، يبسط أمام عينيه شفّا وتفتة، ديباجا وأطلس، دمقسا ومخملا، وكبّات وأهدابا وشرائط، وأيضاً بطراشل وغفّارات وحللا ودلماسيات. الاّ ان الأقمشة كانت تتحرّك من تلقاء نفسها بتغنّج الراقصات الشرقيات.

في ذلك المنظر، الذي لم يكن روبارتو يعرف كيف يصفه، لأنه يراه لأول مرّة، ولا يجد في مذكّرته صورا يترجمه بها إلى كلمات، ها إنه يصطدم فجأة بمجموعة من المخلوقات كان يعرفها، أو على الأقلّ كان بإمكانه ان يقارنها بشيء رآه من قبل. كانت أسماكا تتقاطع مثل النجوم الهاوية في سماء أغسطس، ولكن في تصميم رسومها وتركيب ألوانها يبدو ان الطبيعة أرادت ان تظهر مدى التنوّع الموجود في الكون ومدى اجتماعها في مكان واحد.

منها من كان مخطّطا بعدّة ألوان، إمّا بالطول أو بالعرض، أو بالمنحرف، وأخرى في شكل موجات. ومنها من كان مرصّعا بحبّات صغيرة مرصّفة بمختلف الطرق، بعضها محبّبة وبعضها مبقّعة، وأخرى شطرا بشطر، وأخرى متدرّجة ومنقّطة بنقاط نحيفة، أو معرّقة بخطوط مثل المرمر.

وأخرى أيضا ذات رسوم ملتوية، أو متشابكة بعدّة سلاسل. وهناك منها من كان مرصّعا بالميناء، ومنها من كان موشّى بتروس ووريدات. وواحد من بينها، كان أجملها على الإطلاق، كان يبدو مغلّفا بخيوط

تشكّل صفّين من عنب وحليب؛ ومن المعجز بحقّ هو ان الخيط الذي التفّ من تحت لا يخطىء ولو مرّة في العودة إلى فوق، كما لو كان من عمل فنّان ماهر.

في تلك الآونة فقط، اذ كانت الأشكال المرجانية إلى ذلك الحين تتراءى له من خلف مجموعات الأسماك دون ان يتمكّن من التعرّف عليها من اول وهلة، وجد روبارتو نفسه أمام اعذاق موز، وسلال من الخبز الرقيق، وقفاف من الزعرور البرونزي تمرّ فوقها الكناريات والعظايا والطنّانين.

كان يجد نفسه فوق بستان، لا، لقد أخطأ، الآن تبدو غابة محجّرة، صنعت من خرائب من فطر ـ كلاّ، لقد خدعه المنظر، الآن هي هضاب، ومنحنيات، ووهاد، وحفر ومغارات، وانهيار واحد لأحجار حيّة، نما فوقها نبات ليس بالأرضي في أشكال مسطّحة، مستديرة أو مفلّسة، تبدو كأنها لبست زردا من الغرانيت، أو في اشكال معقودة أو ملتفّة حول نفسها. ولكن، مهما كان اختلافها، فقد كانت جميعها رائعة في أناقتها وفي فتنتها، حتى ان تلك التي كانت تبدو كأنها صنعت بإهمال زائف، كأنها عمل مسفسف، كانت تظهر خشونتها بجلال، كانت تبدو وحوشا، ولكن من جمال.

أو أيضاً (كان روبارتو يفسخ ما كتب ويصلح ما قال، ولا يقدر ان يعبّر، كمن يريد ان يصف لأول مرّة دائرة مربّعة، أو صعدة افقية، أو صمتاً صاخباً، أو قوس قزح ليليّاً) ما كان يراه كانت شجيرات من الزنجفر.

ربما، من شدّة الاحتفاظ بتنفّسه، تغشّى نظره، والماء الذي كان يغزو شيئا فشيئا فضاء الكمامة كان يخلط الأشكال والألوان. أخرج رأسه من الماء ليملأ رئتيه، وأخذ يسبح على طول الحاجز، متبعا تجوّفاته وثغراته، حيث تنفتح أروقة من الكريتون يتسلّل داخلها مهرّجون

سكارى، بينما فوق منحدر كان يرى، سرطاناً جاثما، يحرّكه تنفّس خفيف واضطراب كمّاشتين، مبقّعا بزهرات من حليب، فوق شبكة من المرجان (شبيه بما كان يعرفه، الاّ انه كان موضوعا مثل جبن القديس ستيفانو، الذي لا ينتهي أبدا).

ما كان يراه الآن ليس سمكة، ولا حتى ورقة، من الأكيد انه شيء حي، مثل جزئين عريضين من مادّة بيضاوية، يحيط بها خيط قرمزي، ومروحة من الريش؛ وحيث كان يجب ان تكون هناك العينان، كان يتحرك قرنان من شمع اللك.

مديخات عينيّة الشكل، في رقصاتها الدوديّة الشهوانية كانت تظهر شفة كبيرة ورديّة اللون، وتلامس مزروعات من البظر مبيضّة ذات حشف في لون عرف الديك؛ وسميكات ورديّة ذات نقاط زيتونية تحتكّ بكرنبات رماديّة ذات بقع قرمزية، وعساقل مخطّطة بعروق سخاميّة... ثم كان يرى كبدا مساميا وسرنجانيا لحيوان عظيم، أو اسهما نارية لتوريقات زئبقية، وأجمات من الأشواك بقطرات في لون الدم وأخيرا كان يرى مثل كأس من الصدف الرخو...

وبدا له ذلك الكأس وكأنه مرمدة، وفكّر انه بين تلك الصخور ربما كان مدفونا جثمان الأب كسبار. لا يظهر منه شيء، بما انه بفعل الماء تغطّى في البداية بغضاريف مرجانية، الاّ ان المرجان، بعد ان امتصّ الأخلاط الأرضية التي كانت موجودة في ذلك الجسم، تفتّح في اشكال زهور وغلال. ربما سيتعرّف بعد قليل على ذلك الشيخ المسكين الذي تحوّل إلى كائن بقي إلى ذلك الحين غريبا في هذا العالم التحتي، كرة الرأس من جوزة هند مغطّاة بالصوف، وتفاحتان جافّتان في موضع الخدين، والعينان والجفنان من مشمشتين خضريين، والأنف، كوسى مشوّهة الشكل مثل براز حيوان؛ وتحت ذلك، في موضع الشفتين، تينتان مجفّفتان، وبنجر بعليقته القميّة في موضع الذقن، وحرشف خشن يقوم مقام الحلق؛ وفي الصدغين غلافا كستناء جعلا خصلتين من

الشعر، ومكان الأذنين قشرتا جوزة قسمت إلى اثنين؛ ومكان الأصابع جزر؛ وبطيخ في موضع البطن؛ وسفرجلتان مكان الركبتين.

كيف يمكن لروبارتو ان ينطوي على خواطر كئيبة مثل هذه بشكل فيه كلّ هذه السخرية؟ ولكن وبشكل مختلف تماما سيهتف جثمان صديقه العزيز في ذلك المكان بقولته المحتمة «ها أنا في الأركاديا...

هناك، ربما تحت هيأة تلك الجمجمة من ذلك المرجان المرمّل... كان ذلك الشبيه الحجري يبدو له منفصلا عن مفرشه البحري. ولا ندري ان كان بدافع الشفقة، وتذكراً لأستاذه الفقيد، أو انه أراد ان يفتكّ من البحر احد كنوزه، فها إنه يأخذه، وبما انه شاهد ذلك اليوم ما فيه الكفاية، ضمّ تلك الغنيمة إلى صدره وعاد إلى السفينة.

33

عوالم تحت أرضية

كان المرجان بالنسبة لروبارتو تحدّيا. بعد ان اكتشف كم ان الطبيعة قادرة على الإبداع، أحسّ وكأن أحدا يدعوه إلى مباراة. لا يمكن ان يترك فيرّانتي في ذلك السجن، ويترك قصّته منقوصة: صحيح انه يشفي حقده على غريمه، ولكنه لا يشفي غروره كراوٍ. ماذا يمكنه ان يحدث لفيرانتي؟

وجاءت الفكرة لروبارتو ذات صباح وقد أخذ مكانه، كالعادة، منذ الفجر يترصّد على الجزيرة الحمامة ذات اللوّن البرتقالي. منذ أول الصباح والشمس تضرب العينين، حتى ان روبارتو حاول ان يصنع، حول العدسة النهائية للمنظار، شبه واقية مستعملا ورقة من اوراق يومية السفينة، ولكنه في بعض الأحيان كان لا يرى الاّ انبهارا. وعندما طلعت الشمس فوق الأفق، صار البحر مثل المرآة العاكسة، تجعل من كلّ شعاع شعاعين.

ولكن ذلك اليوم كان روبارتو مقتنعا انه رأى شيئا يرتفع من الأشجار نحو الشمس، ويختلط بدائرتها المشعة. ربما كانت وهما. كلّ طائر، في ذلك الضياء، يمكن ان يبدو ساطعا... كان روبارتو مقتنعا انه رأى الحمامة، وخائبا لأنه ربما كان مخطئا. وفي هذه الحالة النفسية المتشكّكة، كان يحسّ بنفسه مرّة أخرى محبطا.

بالنسبة لمخلوق مثل روبارتو، بلغ به الأمر إلى حدّ انه لا يستمتع بغيرة الاّ من الشيء الذي يفتكّ منه، يكفيه القليل كي يحلم على العكس ان فيرانتي تحصّل على ما حرم هو منه. ولكن بما ان روبارتو هو مؤلف القصّة، ولا يريد ان يتنازل أكثر لحساب فيرانتي، فقد قرّر أن لا يتعامل هو الاّ مع الحمامة الأخرى، تلك الخضراء الزرقاوية. وهذا لأن روبارتو، الذي كان عديم اليقين، قرّر على كلّ حال أنه من بين الزوجين، فالمخلوق البرتقالي لا يمكن ان يكون الاّ الأنثى، أي هي. وبما أنه في قصّة فيرّانتي لا تمثّل الحمامة الغاية، بل وسيلة الاستحواذ، في الوقت الراهن لن يحصل فيرانتي الاّ على الذكر.

هل يمكن لحمامة خضراء زرقاوية، تطير وحيدة فوق بحار الجنوب، ان تذهب لتحطّ على حافة ذلك الشباك الذي من ورائه كان فيرانتي يتوق إلى الحرّية؟ في عالم الروايات، نعم. ثمّ، ألا يمكن ان تكون تويِيد دافني قد عادت لحينها من تلك البحار، وأن حظها كان أوفر من حظ كبيرتها، حاملة في مخازنها الطائر، الذي تحرّر من سجنه؟

على كلّ حال لم يكن فيرانتي، في جهله للمتقاطرات، قادرا على ان يطرح تلك التساؤلات. رأى الحمامة، فأطعمها في البداية بفتات الخبز، لا لشيء الاّ لقضاء الوقت، ثم تساءل ان كان بالإمكان ان يستعملها لقضاء اغراضه. كان يعرف ان الحمام يصلح أحيانا لحمل الرسائل: من المؤكد ان تكليف ذلك الحيوان بحمل رسالة لا يعني أنه سيصل بكل دقّة إلى حيث يريد، ولكن في ذلك السأم الذي يعانيه لن يخسر شيئا لو قام بالمحاولة.

بمن سيستغيث، هو الذي عادى الجميع، وعادى نفسه ذاتها، فلم يجعل من حوله الاّ أعداء، والأشخاص القليلون الذين خدموه كانوا أوباشا مستعدّين ان يتبعوه فقط في أوقات اليسر، ولن يفعلوا ذلك دون شك في اوقات الشدّة؟ وقال لنفسه: سأطلب عون السيّدة، التي تحبني

(«ولكن كيف يمكن ان يكون متأكدا من ذلك؟» كان روبارتو يتساءل بحسد، وهو يبتدع ذلك الادّعاء).

كان بيسكارا قد ترك له ما يلزم للكتابة، عسى ان يكون الليل نصيحا فيقرّر ان يكتب اعترافا للكردينال. لذا كتب على حافة الورقة عنوان السيّدة، مضيفا ان من يبلغ اليها الرسالة سيحصل على مكافأة. وعلى الجانب الآخر من الورقة ذكر المكان الذي يوجد فيه (كان قد سمع سجّانيه يذكرون احد الأسماء)، قائلا انه سقط ضحية مؤامرة دنيئة دبّرها الكردينال، واستغاث بها لتنجده. ثمّ لفّ الورقة وربطها إلى ساق الحيوان، وحرّضه لكي يطير.

في واقع الأمر، بعد ذلك نسي أو كاد ذلك الفعل. كيف يمكن ان يكون مرّ بخاطره ان الحمامة الزرقاء ستطير فعلا إلى ليليا؟ تلك أشياء تقع في الخرافات، ولم يكن فيرّانتي رجلا يعتقد في الخرافات. ربما ضرب أحد الصيادين الحمامة، فسقطت بين أغصان شجرة فضاعت الرسالة...

ولكن فيرانتي لم يكن يعلم ان الحمامة، على العكس، سقطت في دبق أحد الفلاحين، وهذا الأخير فكّر انه بإمكانه ان يربح بعض المال ممّا بدا له دون شكّ إشارة أرسلت إلى شخص ما، ربّما إلى قائد جيش من الجيوش.

وها أن الفلاّح يحمل الرسالة إلى الشخص الوحيد في القرية الذي يعرف القراءة، أي إلى القسّ، وهذا الأخير نظّم كلّ شيء كما ينبغي. بعد ان تعرّف على السيّدة، أرسل اليها أحدا من ثقاته يساوم كيفية التسليم، متحصّلا على صدقة سخيّة لكنيسته وعلى بخشيش للفلاّح. وقرأت ليليا الرسالة، وبكت، ثم استنجدت ببعض الأصدقاء الأوفياء طالبة منهم النصح. هل تستعطف الكردينال؟ لا شيء أيسر من هذا بالنسبة إلى سيدة بلاط جميلة، الاّ ان هذه السيدة تتردّد على صالون

أرتينيس، الذي كان مزارينو يرتاب به اشدّ الارتياب. كانت قد انتشرت ابيات قدحية في الحبر الجديد، وأوعز اليه أحدهم انها صادرة من تلك القاعات. ولو ذهبت متحذلقة إلى الكردينال تطلب عطفه على صديق، فإنها ستجلب إلى ذلك الصديق عقابا أشدّ.

كلاّ، يجب حشد مجموعة من الرجال الجريئين والقيام معهم بغارة. ولكن إلى من ستلتجىء؟

وهنا لم يعد روبارتو يعرف كيف يتقدّم. لو كان هو فارسا من الفرسان الملكيين، أو تلميذا في غاسكونيا، لاستنجدت ليليا بأولئك الشجعان، الذين اشتهروا بروح التكاتف. ولكن من يجرؤ على إثارة غضب حبر كنيسة، وربما غضب الملك نفسه، من اجل أجنبي يتردّد على الكتبيين وعلى الفلكيين؟ وعن اولئك الكتبيين والفلكيين من الأفضل ان لا يتحدّث: ورغم اصراره على كتابة رواية، فقد كان روبارتو لا يقدر ان يفكّر في قسّ دينيو، أو في السيد غفّارال وهما يسابقان الريح على جواديهما متّجهين إلى سجنه ـ أي بالأحرى سجن فيرانتي، الذي صار بالنسبة للجميع روبارتو.

بعد أيام قليلة من ذلك جاءت لروبارتو فكرة. كان قد ترك جانبا قصّة فيرانتي، وعاد يستكشف الحاجز المرجاني. ذلك اليوم كان يتبع مجموعة من الأسماك ذات خوذ صفراء على خطومها، كأنها فيلق من مقاتلين مرفرفين. كانت بصدد ولوج شقّ بين برجين من الصخور كان فيها المرجان مثل قصور متداعية لمدينة مغمورة.

وفكّر روبارتو ان تلك الأسماك كانت تتجوّل بين آثار تلك المدينة «إيس» التي سمع عنها حكايات، والتي يقولون إنها تمتدّ إلى الآن على بعد اميال غير كثيرة من سواحل بريطانيا، حيث كانت الأمواج قد أغرقتها. هوذا، ذلك السمك الكبير هو ملك المدينة القديم، تتبعه حاشيته، وجميعهم يمتطون انفسهم بحثا عن كنوزهم التي ابتلعها البحر...

ولكن لماذا التفكير في اسطورة قديمة؟ لماذا لا يعتبر الأسماك سكانا لعالم له غاباته، وقممه، وأشجاره وأوديته، عالم يجهل كلّ شيء عن عالم السطح؟ كما نعيش نحن دون ان نعرف ان جوف السماء يخفي عوالم أخرى، حيث الناس لا يمشون ولا يسبحون، بل يطيرون أو يرفرفون في الهواء؛ إن كانت تلك التي نسميها كواكب هي غواطس سفنهم لا نرى نحن منها الاّ قاعها الساطع، كذلك يرى أبناء نبتون فوقهم ظلال سفننا، ويظنونها أجراما سماوية، تدور في فلكها المائي.

وإن كان ممكنا ان تعيش مخلوقات تحت الماء، فيمكن إذن ان توجد كائنات تعيش تحت الأرض، شعوب من السمندلات قادرة على ان تبلغ عبر أنفاقها النار الوسطية التي تحيي الكوكب؟

وبينما كان روبارتو يفكّر في كلّ ذلك اذ تذكّر برهنة لسان سافان: نحن نظنّ انه يصعب العيش على سطح القمر لأننا لا نرى عليه ماء، ولكن ربما يوجد الماء هنالك في مغارات ديماسيّة، والطبيعة حفرت فوق القمر آبارا، هي تلك البقع التي نراها. من يقول ان سكان القمر لا يجدون مأوى في تلك الدهاليز هروبا من قرب الشمس الذي لا يطاق؟ ألم يكن المسيحيون الأوائل يعيشون تحت الأرض؟ هكذا يعيش القمريون دائما في دواميس، تبدو لهم مألوفة.

ولا يعني هذا انهم يعيشون في الظلام. ربما توجد هناك ثغرات عديدة على قشرة الكوكب، وداخله يتلقّى النور من آلاف المنافس، هو ليل تشقّه حزمات ضوئية، لا يختلف عمّا يحدث لنا داخل كنيسة، أو على متن دافني تحت سطح السفينة. لكن لا، ربما توجد على السطح أحجار فوسفوريّة تتشبّع أثناء النهار من نور الشمس ثم تخرجه أثناء الليل، والقمريون يجمعون هذه الأحجار عند كلّ غروب، فتكون دهاليزهم دائما مشعّة مثل قصور الملوك.

وباريس، كان روبارتو يفكّر. أليست، مثل روما، مثقوبة كلّها بدواميس يقولون انه يجتمع فيها أثناء الليل الأشرار والمتسوّلون؟

المتسوّلون، هي ذي الفكرة لإنقاذ فيرانتي! المتسوّلون، الذين يقال عنهم انه يحكمهم ملك منهم ويخضعون لقوانين حديدية، المتسوّلون، مجتمع من الأوباش الحاقدين يعيشون من الأعمال الشريرة والسرقات والدناءات، من الجرائم وأعمال العنف الفظيعة، من القذارات والاحتيال والشناعات، بينما يتظاهرون بالعيش من صدقات المسيحيين الطيبين!

فكرة لا يمكن ان تخطر الاّ على بال امرأة عاشقة! ليليا ـ كان روبارتو يقصّ على نفسه ـ لم تلجأ إلى أناس البلاط أو إلى الأشراف، بل إلى أدنى خديماتها، كانت على علاقة خسيسة مع سائق عجلة كان يعرف الحانات المحيطة بنوتردام، حيث يجتمع عند الغروب المتسوّلون الذين قضوا يومهم تحت بوابات الكنيسة يطلبون الصدقة... هي ذي الطريق.

وقادتها دليلتها عند الليل إلى كنيسة سان مارتان دي شون، فرفعت بلاطة تغطي ارضية الخورس، وأنزلتها إلى دواميس باريس متقدّمة معها، على ضوء شعلة، بحثا عن ملك الصعاليك.

وها هي ليليا، متنكرة في زي رجل نبيل، خنثي يتثنّى بين انفاق، وسلالم وثقوب، بينما تلحظ في العتمة، هنا وهناك بين الأمزاق والخرق، اجسادا ملقاة منخلعة الأفخاذ مجرّحة الوجوه من الثؤلول، والتجعّد، والحمرة، والجرب، والحصف، والدمّل والسرطان، يكشّرون بأياد ممدودة، لا ندري ان كانت تطلب الصدقة أو تقول ـ بحركة شريف بلاط ـ : «اذهبا، اذهبا، سيّدنا هناك ينتظركما».

وسيدهم كان هنالك، وسط قاعة على عدّة فراسخ تحت سطح المدينة، جالسا فوق برميل، يحيط به قطّاع طرق، ولئام، ومزوّرون ومشعوذون، وأنذال برعوا في كلّ اعمال العنف والاحتيال.

كيف يمكن ان يكون ملك الصعاليك؟ كان ملتفًا في عباءة بالية، تغطي الحديبات جبينه، وقد أكل السّهام أنفه، وكانت عيناه مثل المرمر،

عين خضراء والأخرى سوداء، ونظره كان مثل نظر النمس، والحواجب مدلاّة نحو الأسفل، والشفة العليا مشقوقة تبرز من تحتها أسنان مدبّبة مثل اسنان الذئب، وشعره جعد، وبشرته رملية، وأصابع يديه قصيرة ذات أظافر معقوفة...

بعد ان استمع للسيّدة قال انه يملك جيشا، يبدو إزاءه جيش ملك فرنسا حامية ولاية. وبالمقارنة لا يتكلّف الاّ قليلا: لو كوفئوا مكافأة مناسبة، أي ضعف ما يحصلون عليه بالتسوّل في نفس الفترة، لقدّموا حياتهم فداء لمؤجر في هذا السخاء.

فخلعت ليليا من اصبعها ياقوتة (كما هي العادة في تلك الحالات) وسألته بنبرة ملكيّة: «هل يكفي؟»

«يكفيني،» أجاب ملك الصعاليك وهو يمسح الياقوتة بنظرته الثعلبية. «قولي لنا أين». وعندما عرف المكان أضاف: «إن رجالي لا يركبون الخيول أو العربات، ولكن يمكن الوصول إلى ذلك المكان فوق الزوارق، متّبعين مجرى السان».

كان روبارتو يتصوّر فيرانتي، وهو يتبادل الحديث عند الغروب فوق برج الحصن مع الكابيتان بيسكارا، عندما رآهم فجأة يبرزون. ظهروا في البداية فوق الكثبان، ثمّ امتدّ سيلهم نحو السهل.

- «حجّاج سان جياكومو،» لاحظ بيسكارا بازدراء، «ومن أحطّ ملّة، أو من أتعسها، يبحثون عن دواء لعللهم بينما ساقهم في القبر».

وفعلا كان الزائرون في صفّ طويل جدا يقتربون دائما أكثر من الضفّة، فكنت ترى جمعا من العميان ممدودي الأيادي، من الكتعان على عكاكيزهم، من المجذومين، والرّمص، والمتقرّحين والسّلعان، كانت عصابة من الكسحان، والعرجان والمعوجّين، لابسين خرقا وأمزاقا.

قال بيسكارا: «لا أريدهم ان يقتربوا كثيرا، وان يطلبوا مأوى

لقضاء الليل، لن يحملوا بين هذه الجدران الاّ القذارة». وأطلق في الهواء ضربات من بندقيته، ليفهمهم ان تلك القليعة ليست مكانا مضيافا.

ولكن تلك الطلقات كانت بالنسبة اليهم بمثابة النداء. فبينما كانت مجموعات أخرى تظهر من بعيد، كان الأولون يقتربون دائما أكثر إلى القلعة وقد صار لغطهم الحيواني مسموعا.

فصاح بيسكارا: «اللعنة! لا تتركوهم يقتربون،» وأمر ان يلقى اليهم بالخبز إعلاما ان سخاء صاحب المكان لا يمكن ان يتعدّى ذلك. ولكن تلك الكتلة القذرة، التي تضخّمت في رمشة عين، دفعت بطليعتها إلى أسفل الأسوار، تدوس بأقدامها تلك الهبة وتنظر إليها كأنها تبحث عن شيء أفضل.

الآن بالإمكان ان يراهم واحدا واحدا، وليست لهم بتاتا سيمات الحجيج، ولا ملامح المساكين الذين يطلبون الشفاء من برصهم. وكان بيسكارا يقول بانشغال انهم دون شكّ جمع من الأشقياء، متسكّعون مغامرون. أو على الأقلّ هكذا ظهروا له لمدّة قصيرة، وقد أوشكت الشمس على الغروب، والسهول والكثبان لم تعد تبدو الا هيجانا رماديا لكتائب من الجرذان.

«إلى السلاح، إلى السلاح!» صاح بيسكارا، وقد تكهّن بأنه ليس حجّا أو تسوّلا، وإنما هجوم. وأطلق الرصاص ضدّ أولئك الذين بلغوا أسوار الحصن. ولكنه، كان كما لو أطلق الرصاص فعلا على مجموعة من القوارض، فقد كان اللاحقون يدفعون دائما الأولين، ويدوسون بأقدامهم اجساد الذين سقطوا فإذا هي مرتكز للذين يدفعون من الوراء، وها ان الأوائل قد تشبثوا بشقوق تلك البناية القديمة، وأقحموا اصابعهم في الثقوب، وأحكموا أقدامهم في الفجوات، ثم تعلقوا بقضبان النوافذ الأولى، وأدخلوا أعضاءهم الحقوية في الكوّات. في الأثناء كان جزء آخر من اولئك الرعاع يهيج ويموج في الأسفل، مرتميا بالأكتاف ضدّ البوابة.

وكان بيسكارا قد أمر ان يرتج من الداخل، ولكن ألواح المصراعين رغم صلابتها كانت تطقطق تحت ضغط ذلك الجمع من أبناء الزواني.

وواصل الحراس اطلاق النار، ولكن المهاجمين القليلين الذين يسقطون كان يجتازهم فورا جمع جديد، وصرت لا ترى الآن الاّ هيجانا بدأت تظهر منه مثل أحنشة من حبال رميت في الهواء، تحقّق من بعد انها كلاّبات من حديد، وبعضها كان قد تعلّق بالشرّافات. وما أن ينحني احد الحراس في محاولة نزع تلك الأسنان الحديدية، حتى يضربه المتسلّقون الأوائل بالحربات والعصيّ، أو يشبكون حوله الحبال ويجذبونه فيسقطونه إلى أسفل، حيث يختفي في زحمة اولئك البشعين الذين تملكهم الشيطان، دون ان تفرّق بين احتضار الواحد وزمجرة الآخرين.

باختصار، لو أمكن لأحد من فوق الكثبان ان يتتبع ما كان يقع، لما رأى الحصن، بل تهافت كتلة من الذباب على جيفة، أو هيجان ثول من النحل على بيت عسل، أو هجوم خثرم من الطنّان.

في تلك الأثناء سمع من تحت دويّ البوابة وهي تنهار، تبعته بلبلة عظيمة في الساحة. فانتقل بيسكارا مع حرّاسه إلى الناحية الأخرى من البرج - ولم يهتمّوا بفيرّانتي، الذي التصق بفجوة الباب الذي يفتح على السلّم، ولم يكن في الحقيقة خائفا أكثر من اللزوم، كما لو أحسّ ان اولئك هم بصفة من الصفات أصدقاء.

وأولئك الأصدقاء كانوا قد بلغوا وتجاوزوا الأسوار المسنّنة، غير عابئين بالطلقات الأخيرة التي كانت تصرع البعض منهم، مستهترين بالسيوف التي كانت تخترق صدورهم، مثيرين الرعب في الحرّاس بعيونهم الشيطانية، وبوجوههم الكريهة. وإذا بحراس الكردينال، وإن كانوا متعوّدين على القتال، يرمون السلاح، ناشدين الرحمة من السمّاء

لتنقذهم من تلك التي بدت لهم فيالق الجحيم، وهؤلاء كانوا في البداية يطيحون بهم بالهراوات، ثم ينقضّون على المتبقّين بالصفعات واللكمات، بالخنق والعضّ، يذبحون بأسنانهم ويمزّقون بأظافرهم، قد فاض عنفهم فأطلقوا العنان للحقد الذي يملأ قلوبهم، واذا بهم يمثّلون بالموتى، ورأى فيرانتي من بينهم من فتح صدر الميت، وأخرج قلبه، ثمّ أكله وهو يبعث بصيحات عالية.

ولم يبق على قيد الحياة الاّ بيسكارا، الذي قاتل مثل الضرغام. وعندما رأى نفسه مهزوما، وقف وظهره إلى الدرابيزين ثم رسم بسيفه الدامي سطرا على الأرض وصاح: «هنا سيموت بيسكارا، الوحيد من بين من كانوا معه!».

ولكن في تلك اللحظة برز من السلّم أعور ذو ساق من الخشب، وهو يلوّح بقطّاعة، وبإشارة وضع حدا للمجزرة، آمرا ان يوثقوا بيسكارا. ثم انتبه إلى فيرانتي، وقد تعرّف عليه فعلا بسبب ذلك القناع الذي كان من المفروض ان يجعل التعرّف عليه مستحيلا، فحيّاه بحركة واسعة من يده المسلّحة، كما لو أراد ان يمسح الأرض بريشة قبّعة، وقال له: «سيّدي، أنت طليق».

وأخرج من صدريته رسالة تحمل خاتما ما ان رآه فيرانتي حتى تعرّف عليه، وقدمها اليه.

كانت رسالتها، تقول له فيها ان يتصرّف في ذلك الجيش المخلص وان كان شنيعا، وأن ينتظرها هناك، حتى تأتي اليه عند الفجر.

وفيرانتي، بعد ان تخلّص من قناعه، أطلق قبل كلّ شيء سراح القراصنة، وأمضى معهم اتفاقا. بمقتضاه يستردّون السفينة ويبحرون بها تحت أوامره دون ان يلقوا أسئلة. المكافأة، جزء من كنز عظيم مثل قدر رهبان ألتوباسيو. وكما هي عادته، لم يكن فيرانتي ينوي ابدا الوفاء بوعده. ما ان يعثر على روبارتو، سيكفيه ان يشي بنوتيّته في اول مرفأ يعترضه، وسيكون جزاؤهم الشنق بينما يبقى هو سيّد السفينة.

لم تعد به حاجة إلى الصعاليك، ورئيسهم، الذي كان رجلا صادقا، قال انهم حصلوا على أجرهم مسبقا مقابل تلك الخدمة. كان يريد ان يترك ذلك المكان في اقرب وقت ممكن. وهكذا انتشروا داخل البلاد وعادوا إلى باريس متسوّلين من قرية إلى قرية.

كان من السهل الركوب في زورق غير محروس في حوض الحصن، والوصول إلى السفينة وإلقاء الرجلين اللّذين كانا يحرسانها في البحر. وشدّ بيسكارا بالسلاسل في قعر السفينة، بما انه كان رهينة يمكن التجارة بها فيما بعد. وأخذ فيرانتي قسطا من الراحة، ثم عاد إلى الشاطىء قبل الفجر، في الموعد لاستقبال عربة نزلت منها ليليا، وقد زاد جمالها في ذلك الزيّ الرجّالي.

ورأى روبارتو ان عذابه سيكون أكبر لو فكّر انهما تبادلا التحيّة بتجرّد، دون ان يخونا نفسيهما أمام القراصنة، الذين يجب ان يظنوا انهم أركبوا فتى شابّا.

صعدا فوق السفينة، وتأكّد فيرانتي من ان كلّ شيء كان جاهزا للإبحار، وما ان جذبوا المرساة، حتى نزل إلى الحجرة التي أعدّت للضيف.

وهنا كانت تنتظره بعينين لا تطلبان الاّ ان يحبّها، في حبور شعرها المنسدل حرّا على كتفيها، مستعدّة لأحلى التضحيات. آه، أيتها الضفائر التائهة، ايتها الضفائر الذهبيّة المشتهاة، ايتها الضفائر المتموّجة التي تطير وتمزح وفي مزاحها تتيه - كان روبارتو يتأوّه عوضا عن فيرّانتي...

واقترب وجهاهما لحصاد موسم من القبل من بذر قديم من التأوهات، وفي تلك اللحظة غرف روبارتو بالخيال من تلك الشفاه الورديّة. كان فيرانتي يقبل ليليا، وروبارتو يتصوّر نفسه بالفعل والارتعاشة بصدد عضّ ذلك المرجان الحقيقي. ولكن، عند ذلك الحدّ، كان يحسّ انها تهرب منه مثل هبّة من الريح، فيفقد ذلك الدفء الذي كان يظن

طيلة لحظة انه يحسّ به، ويراها جامدة في مرآة، بين ذراعين آخرين، فوق فراش بعيد في سفينة أخرى.

ولستر المحبّين كان قد أنزل رداء بخيلا بالشفافية، فكان ذانك الجسدان اللذان صارا عاريين، مثل كتابين من السحر الشمسي، لا تنكشف حروفه الاّ لمختارين وحيدين، كانا يهجّيانها بالتناوب من فم إلى فم.

كانت السفينة تبتعد سريعة، وكانت الغلبة لفيرانتي. كانت هي تحبّ فيه روبارتو، الذي كانت تلك الصور تسقط على قلبه مثل جذوة فوق حزمة من العلّيق.

34

مونولوج حول تعدّدية العوالم

نحن نتذكّر ـ ارجو ذلك ـ لأن روبارتو أخذ من رواة عصره العادة في ان يقصّ حكايات عديدة في نفس الوقت حتى انه عند حدّ ما يصعب متابعة تسلسل الأحداث ـ انه منذ زيارته الأولى إلى عالم المرجان حمل بطلنا معه «الشبيه الحجري»، الذي بدا له جمجمة، ربما جمجمة الأب كسبار.

الآن، لنسيان غرام ليليا وفيرانتي، هوذا جالس فوق السطح عند الغروب، يتأمّل ذلك الشيء ويدرس نسيجه.

لم يكن يبدو جمجمة. كان بالأحرى خليّة معدنية متكونة من مضلّعات غير متّسقة، الا ان المضلّعات لا تكوّن الوحدات الأولية لذلك النسيج: كلّ مضلّع يظهر في داخله اشعاعا متوازيا لخطوط نحيفة جدا تظهر بينها ـ لو دقّقنا النظر ـ فواصل كانت تكون ربما مضلعات أخرى ولو أمكن ان يتعمّق النظر أكثر، لرأى ان جوانب تلك المضلعات الصغيرة كانت متكونة من مضلعات أخرى أكثر نحافة، إلى ان نصل ـ بعد ان جزّأنا الأجزاء إلى أجزاء من أجزاء ـ إلى اللحظة التي سنتوقف فيها أمام تلك الأجزاء التي لا تتجزّأ، التي هي الذرات. ولكن بما أن روبارتو لم يكن يعرف إلى أي حدّ يمكن تقسيم المادة، فلم يكن واضحا إلى أي حدّ يمكن لعينه ـ التي لم تكن للأسف ثاقبة، اذ انه لم

يكن يملك تلك العدسة التي تمكن بواسطتها الأب كسبار من رؤية حتى دويبات الطاعون - ان تتعمّق في مواصلة اكتشاف أشكال جديدة داخل الأشكال المخمّنة.

حتى رأس القسّ، كما كان يهتف تلك الليلة سان سافان أثناء المبارزة، يمكن ان يكون عالما بالنسبة لقمله - آه، كيف أنّه عند تلك الكلمات فكّر روبارتو في العالم الذي كان يعيش فيه، حشرات سعيدة جداً، قمل أنّا ماريا (أو فرانشسكا) نوفاريزي! ولكن بما ان القمل أيضاً ليس ذرّة، وإنما كون لا متناه للذرات التي تكوّنه، ربما داخل جسم القملة توجد أيضاً حيوانات أخرى أصغر تعيش فيه كما لو كانت في عالم فسيح. وربما لحمي أيضاً - كان يفكّر روبارتو - ودمي ليسا الاّ أنسجة من حيوانات صغيرة جداً، وهي في تحرّكها تعطيني الحركة، تاركة إرادتي تقودها كما لو كانت بالنسبة إليها سائق عربة. ودويباتي تتساءل الآن دون شكّ إلى اين سأحملها، معرّضا اياها تارة إلى برودة النسمة البحرية وتارة اخرى إلى حرارة الشمس، وهي حائرة في هذا الغدوّ والرواح وسط طقوس متقلّبة، وهي دون شكّ متحيّرة حول مصيرها بقدر حيرتي أنا.

ثم من يقول انه ليست هناك حيوانات أخرى أصغر تعيش في عالم تلك الحيوانات التي تحدّثت عنها وتحسّ هي أيضاً بنفسها في فضاء لا متناه بقدر لانهائية الفضاء الأول؟

لماذا لا أتصوّر ذلك أيضا؟ فقط لأنني أجهل كلّ شيء عنها؟ كما كان يقول لي أصدقائي في باريس، من يقف فوق برج نوتردام وينظر من بعيد إلى ضاحية سان دوني لا يمكن ان يتصوّر ان تلك البقعة اللامحدّدة تسكنها مخلوقات مثلنا. نحن نرى كوكب المشتري، الذي هو كبير جداً، ولكن من المشتري لا يروننا، ولا يمكن ان يفكّروا حتى في وجودنا. وحتى إلى يوم أمس لم اكن اتصور ان تحت البحر - لا فوق

كوكب بعيد، أو فوق قطرة ماء، بل في جزء من عالمنا نفسه ـ يوجد عالم آخر.

ومن ناحية أخرى قبل بضعة أشهر ماذا كنت أعرف أنا عن الأرض الجنوبية؟ ربما قلت انها اوهام بعض الجغرافيين الهراطقة، ومن يدري انه في هذه الجزر في العصور الماضية لم يحرقوا أحد فلاسفتهم لأنه أكّد بصوت حنجريّ وجود مونفيرّاتو وفرنسا. ومع ذلك فأنا موجود هنا، ولا يسعني الاّ ان أعتقد في وجود المتقاطرات ـ وأنه، خلافا لمعتقدات رجال كانوا في السابق ذوي حكمة، لا أمشي ورأسي إلى أسفل. بكلّ بساطة، سكان هذا العالم يحتلّون الكوثل، ونحن نحتلّ الجؤجؤ من نفس السفينة التي، دون ان يعلم أحدنا بوجود الآخر، نحن جميعنا مسافرون على متنها.

كذلك فنّ الطيران لا يزال مجهولا ومع ذلك ـ لو صدّقنا ما يقوله أحدهم يدعى السيّد غودوين كان يحدّثني عنه الدكتور ديغبي ـ سيذهب الإنسان ذات يوم إلى القمر، كما ذهب إلى أمريكا، وإن لم يتصوّر أحد قبل كولومب ان تلك القارة موجودة، وأنه سيمكن يوما ان تسمّى بذلك الإسم.

كان الغروب قد ترك المكان للمساء، ثم لليل. وكان روبارتو يرى الآن القمر وسط السماء، ويرى البقع التي كان الأطفال والجهّال يعتقدون انها عينا وفم وجه وديع.

وحتى يستفزّ الأب كسبار (بأي طريقة، وفوق أي كوكب صادقين يوجد الآن الشيخ العزيز؟)، كان روبارتو قد حدّثه عن سكّان القمر. ولكن هل يمكن ان يكون القمر مسكونا؟ لم لا، كان مثل سان دوني: ماذا يعرف البشر عن العالم الذي يمكن ان يوجد هنالك؟

وكان روبارتو يعلّل: لو كنت فوق القمر ورميت في الهواء حجرة، أتراها تسقط على الأرض؟ كلاّ، ستسقط على القمر. إذن القمر، مثل

جميع الكواكب أو النجوم لا يهمّ، هو كون له مركزه ومحيط دائرته، ومركزه ذلك يجذب جميع الأجسام التي تعيش في دائرة سلطة ذلك العالم. مثلما يحدث على الأرض. وإذا لماذا لا يحدث للقمر جميع ما يحدث أيضاً للأرض؟

وهناك هواء يحيط بالقمر. في يوم أحد الشعانين منذ اربعين عاما مضت ألم يشاهد شخص، قيل لي، سحبا على القمر؟ ألا نرى على ذلك الكوكب اضطرابا كبيرا عند اقتراب الخسوف؟ وماذا يعني هذا ان لم يكن الدليل على ان هنالك هواء؟ الكواكب تبعث بخارا، والنجوم أيضاً ـ وإلاّ ماذا تكون البقع التي يقال إنها فوق الشمس، والتي تتكوّن منها النيازك؟

وعلى القمر يوجد دون شكّ الماء. وإلاّ فكيف نفسّر البقع الموجودة فوقه، ان لم تكن رسم بحيرات (حتى ان بعضهم أوعز ان تلك البحيرات اصطناعية، من عمل يكاد يكون انسانيا، لدقّة رسومها ولتوزّعها على مسافات متماثلة)؟ ومن جهة أخرى، لو أنِ القمر جعل فقط ليصلح مرآة تعكس على الأرض نور الشمس، ما الذي دفع الخالق إلى تشويه تلك المرآة بالبقع؟ البقع ليست إذن نقائص، بل كمال، وهي إذن مستنقعات، أو بحيرات، أو بحار. وإن كان هنالك ماء وهواء فهناك حياة.

حياة ربما تختلف عن حياتنا. ربما ذلك الماء له طعم (من يدري؟) عرق السوس، أو طعم الهال، أو ربما طعم البهار. إن كانت هناك عوالم لا متناهية، فهذا دليل على لانهائية إبداع مبدع كوننا، وإذن فليست هناك حدود لهذا الشاعر. يمكن أن يكون خلق عوالم مسكونة في كل مكان، ولكن بكائنات دائما مختلفة. قد يكون سكّان الشمس أكثر شمسيّة، وأكثر ضياء وسطوعا من سكان الأرض، الذين تثقلهم المادة، وسكان القمر هم بين بين. على الشمس تعيش كائنات كلها شكل، أو فعل كما نريد، وعلى الأرض كائنات مصنوعة من قوى بحتة

تتحرّك، وعلى القمر مخلوقات in medio fluctuantes، كمن يقول متغيّرة جدا...

هل يمكن ان نعيش في هواء القمر؟ ربما لا، سيصيبنا بالدوار؛ من جهة أخرى فالأسماك لا تقدر أن تعيش في عالمنا، ولا الطيور في عالم الأسماك. ذلك الهواء هو دون شك أنقى من هوائنا، وبما ان هواءنا، من جرّاء كثافته، يقوم مقام عدسة طبيعية تخفّف أشعّة الشمس، فالقمريون يشاهدون الشمس بوضوح أكبر. الفجر والغروب، اللّذين ينيراننا قبل ان تبزغ الشمس أو بعد ان تختفي، هما هبة من هوائنا الغنيّ بالتلوثات، الذي يمتصّ النور ثمّ يبلغه الينا؛ إنه نور ما كان علينا ان نحصل عليه وهو موفّر لنا بسخاء. ولكن، بهذه الصفة، تلك الأشعة تهيئنا لاستقبال النور ولفقدانه شيئا فشيئا. ربما على القمر، لأن الهواء أخفّ، يصل النهار والليل بصفة فجائية. تظهر الشمس في الأفق دفعة واحدة مثلما يرتفع الستار. ثم، من النور الأشدّ سطوعا، ها إنهم يسقطون فجأة في أحلك الظلمات. والقمر ينقصه قوس قزح، الذي هو نتيجة اختلاط البخار بالهواء. ولكن ربما لنفس الأسباب ليست لديهم لا أمطار ولا رعود ولا صواعق.

وكيف يمكن ان يكون سكان الكواكب الأقرب إلى الشمس؟ ذوي طبيعة نارية مثل العرب، ولكن أكثر روحانية منّا. ما هو عظم الشمس التي يرونها؟ وكيف يتحمّلون نورها؟ ربما تذوب المعادن هناك في الطبيعة وتجري في أنهار؟

ولكن هل هناك فعلا عوالم لامتناهية؟ من أجل مسألة مثل هذه نشأت في باريس مبارزة. كان قسّ دينيو يقول إنه لا يعرف. أو بالأحرى ان الدراسات الفيزيائية تميل إلى الإجابة بالإيجاب، متّبعة خُطا أبيقور العظيم. لا يمكن ان يكون العالم الاّ لامتناهيا. ذرّات تزدحم في الفراغ. وأن الأجسام موجودة، فذلك ما يشهد به العقل. وإلاّ فكيف وأين ستتحرّك الذرات؟ لو لم يكن هناك فراغ، لما كانت هناك حركة، الاّ اذا

تداخلت الأجسام بعضها في بعض. يكون من المضحك ان نتصوّر ان الذبابة عندما تدفع بجناحها ذرّة من الهواء، فهذه الأخيرة تحرّك أمامها ذرّة أخرى، وهذه الأخيرة تدفع أخرى، ممّا يجعل اضطراب سويقة برغوث، يدفع ويدفع، إلى ان يحدث حدبة في الطرف الآخر من العالم!

ومن ناحية أخرى لو كان الفراغ لامحدودا، وعدد الذرات محدودا، فإنّ هذه الأخيرة لا تنفكّ عن التحرّك في كلّ الإتجاهات، ولا تصطدم أبدا ببعضها (مثل شخصين لا يلتقيان أبدا، الاّ بمحض الصدفة، عندما يتجوّلان في صحراء لا حدود لها)، ولا تنتج مكوّنات لها. وإن كان الفراغ محدودا، والمادّة لا محدودة، فلن يكون كافيا لاحتوائها.

بطبيعة الحال، يكفي ان نفكّر في فراغ محدود يوجد فيه عدد من الذرات محدود. كان القسّ يقول لي ان هذه هي وجهة النظر الأكثر حكمة. لماذا نريد ان يكون الإله مضطرا مثل رئيس مهرّجين ان يخلق مشاهد لامتناهية؟ إنه يظهر حريّته، بصفة سرمدية، من خلال خلق وتغذية عالم واحد. ليست هناك حجج ضدّ تعدّدية العوالم، ولكن ليست هناك أيضاً حجج تؤكد ذلك. الربّ، الذي وجد قبل وجود العالم، خلق عددا كافيا من الذرات، في فضاء فسيح بما فيه الكفاية، ليؤلّف عمله العظيم. وهندسة المحدود أيضاً جزء من كماله اللامتناهي.

ولكي يرى كم وهل توجد عوالم في شيء ميت ذهب روبارتو إلى متحف دافني الصغير، وصفّف على السطح أمامه مثل أكعاب عديدة، جميع الأشياء الميتة التي وجدها، من أحفورات وحصى وحسكات؛ وكان ينقل نظره من واحدة إلى أخرى، وهو يفكّر عرضا في العارض وفي العوارض.

ولكن من يقول (كان يتساءل) ان اللّه يميل إلى الحدّ، إن كانت

التجربة تظهر لي دون توقف عوالم أخرى وجديدة، أكانت فوقا أو تحتا؟ اذا هل يمكن ان لا يكون الربّ بل العالم هو السرمدي واللانهائي وكان وسيكون دائما هكذا، في تركيب لامتناه لذراته اللامتناهية في فراغ لامتناه، حسب قوانين لا زلت أجهلها، حسب تحرّكات غير منتظرة ولكن منتظمة للذرات، وإلاّ كانت حركتها جنونية. وإذن يكون العالم هو الربّ. والربّ يكون من السرمدية مثل كون لا سواحل له، وأكون أنا خاضعا لقوانينه، دون ان أعرف ما هي.

أحمق أنت، يردّ البعض: يمكنك ان تتحدّث عن لانهائية الربّ لأنك لست مطالبا أن تتصوّرها بعقلك، ولكنك مطالب فقط بالإيمان بها، مثلما يؤمن المرء بالسرّ. ولكن إن كنت تريد ان تتحدّث عن الفلسفة الطبيعية، هذا العالم اللانهائي لا يسعك الاّ ان تتصوّره، ولكنك لا تستطيع.

ربما. ولكن لنتصوّر إذن ان العالم ممتلىء وأنه منته. لنحاول إذن ان نتصور اللاشيء الذي سيعقب انتهاء العالم. عندما نفكّر في ذلك اللاشيء، أترى يمكننا ان نتصوّره كما لو كان ريحا؟ كلاّ، لأنه يجب ان يكون حقيقة لا شيء، لا حتى ريحا. هل يمكن ان نتصوّر، بعبارة الفلسفة الطبيعية ـ لا المعتقد ـ لا شيء غير محدود؟ من الأيسر جدا ان نتصوّر عالما يمتدّ على مدى النظر، مثلما يتصوّر الشعراء بشرا ذوي قرون أو سمكا بذيلين، بتركيب أجزاء معروفة لديهم من قبل: يكفي ان نضيف إلى العالم، حيث نظن انه ينتهي، أجزاء أخرى (امتدادا مصنوعا هو أيضا ودائما من ماء وأرض، وكواكب وسماوات) شبيهة بتلك التي نعرفها. دون حدود.

وإن كان العالم منتهيا، ولكن اللاشيء، كلاشيء، لا يمكن أن يكون، ماذا سيبقى وراء حدود العالم؟ الفراغ. وها أننا لرفض اللانهائية نؤكد الفراغ، الذي لا يمكن ان يكون الاّ لامنتهيا، وإلاّ عند بلوغ حدوده يجب أن نتصوّر من جديد امتدادا جديدا ولا معقولا من لا

شيء. وإذن من الأفضل ان نفكّر منذ البداية وبحرية في الفراغ، وأن نملأه بالذرات، اذا ما تعذّر علينا ان نفكّر فيه كفراغ لا فراغ أكبر من فراغه.

كان روبارتو يجد نفسه يستمتع بامتياز عظيم، كان يعطي معنى لمصيبته. ها إنه يملك الدليل الواضح على وجود سماوات أخرى، وفي نفس الوقت، دون ان يضطرّ للصعود إلى ما وراء الأفلاك السماوية، ها انه يخمّن وجود عوالم أخرى في قطعة مرجان. أكان من الضروري ان نحسب في كم صورة يمكن ان تتركب ذرات الكون ـ وأن نعدم على المحرقة أولئك الذين كانوا يقولون ان عددها لا منته ـ بينما كان يكفي ان نتأمل لسنوات عديدة واحدا من تلك الأشياء البرية لنفهم كيف ان انحراف ذرة واحدة، أكان بإرادة من الربّ أم بدافع من الصدفة، يمكن ان يولّد مجرّات لم تكن في الحسبان؟

والخلاص؟ حجّة باطلة، بل وأكثر ـ كان يحتجّ روبارتو، الذي كان لا يريد الوقوع في نزاع مع اليسوعيين الآتين الذين سيعترضون طريقه ـ حجّة من لا يقدر على التفكير في قدرة اللّه اللامحدودة. من يمكنه ان ينفي انه في رسم التكوين تحقّقت الخطيئة الأصلية في نفس الوقت في جميع العوالم، بطرق مختلفة وغير متوقعة، ومع ذلك فورية، وان المسيح مات على الصليب من أجل الجميع، ومن أجل القمريين والسيريين والمرجانيين الذين يعيشون على ذرّات هذه الحجرة المثقوبة، عندما كانت لا تزال حيّة؟

في الحقيقة لم يكن روبارتو مقتنعا بحججه؛ كان يصنع أكلة متكونة من عناصر كثيرة، أو بالأحرى كان يكدّس في فكرة واحدة أشياء سمعها من جهات متعدّدة ـ ولم يكن غبيا إلى درجة ان لا يتفطّن لذلك. ولذا، بعد دحض منافس محتمل، كان يعطيه الكلمة ويتماثل مع اعتراضاته.

ذات مرّة، بخصوص الفراغ، أسكته الأب كسبار بقياس لم يعرف كيف يجيب عنه: الفراغ هو عدم الكون، ولكن العدم لا يكون، أستنتج الفراغ لا يكون. كان البرهان جيّدا، لأنه كان ينفي الفراغ وإن قبل ان نفكّر فيه. وفعلا بالإمكان جيّدا ان نفكّر في أشياء غير موجودة. هل يمكن لخيمر يطنّ في الفراغ ان يأكل مقدّمات صغرى؟ كلاّ، لأن الخيمر غير موجود، وفي الفراغ لا يسمع أي طنين، والمقدّمات الصغرى هي اشياء فكريّة ولا يتغذّى أحد بإجّاصة فكريّة. ومع ذلك أفكّر في خيمر حتى وإن كان وهميا، أي غير موجود. وهذا ما يقع مع الفراغ.

كان روبارتو يتذكّر جواب شاب في التاسعة عشرة دعي يوما في باريس إلى ملتقى مع اصدقائه الفلاسفة، لأنه حسب ما كان يقال كان بصدد ابتكار آلة قادرة على القيام بحسابات رياضية. لم يفهم روبارتو جيّدا الكيفية التي ستعمل بها تلك الآلة، وبدا له ذلك الفتى (ربما بشيء من الجفاء) كثير الشحوب، كثير الكآبة وكثير التحذلق بالنسبة إلى سنّه، بينما كان أصدقاؤه الملحدون يعلّمونه انه يمكن تعاطي العلم بطريقة مرحة. وما لم يتحمّله أكثر هو، عندما جاء الحديث عن الفراغ، أن الشاب أراد ان يعطي وجهة نظره، وبشيء من الصفاقة: «لقد كثر الحديث حول الفراغ، إلى اليوم. الآن يجب إثباته عن طريق التجربة». وكان يقول ذلك كما لو أن ذلك الإثبات سيكون يوما مناطا له.

وسأله روبارتو في ايّ تجارب كان يفكّر، فأجابه الشاب انه كان لا يزال يجهل ذلك. وروبارتو، حتى يخزيه، عرض عليه جميع الحجج الفلسفية التي تلقنها: إن كان الفراغ موجودا، فلن يكون مادّة (لأنها مليئة)، لن يكون روحا، لأنه لا يمكن تصوّر روح يكون فارغا، لن يكون الربّ، لأنه سيكون خاليا حتى من نفسه، لن يكون لا جوهرا ولا عرضا، سينفذ النور دون ان يكون شفافا... ماذا سيكون إذن؟

فأجاب الفتى بثقة متواضعة، وقد خفّض أنظاره: «قد يكون شيئا

بين المادّة واللاشيء، لا ينتمي لا للأولى ولا للثاني. يختلف عن العدم بحجمه، وعن المادّة بجموده. يكون شبه لا وجود. ليس افتراضا، ليس تجريدا. يكون. يكون (كيف يمكن ان أقول؟) فعلا بسيطا وصرفا».

ـ «وماهو الفعل البسيط والصرف، الخالي من كلّ تحديد؟» سأله روبارتو بعجرفة الفيلسوف الكلامي، مع انه لم يكن يملك عن الموضوع حكما مسبقا، وكان يريد هو الآخر ان يتعلم.

ـ «لا أستطيع ان أعرّف ما هو بسيط وصرف،» أجاب الشاب «ومن ناحية أخرى، يا سيّدي، كيف ستعرّف الكينونة؟ للتعريف بها، يجب ان تقول انها شيء ما. وإذن للتعريف بالكينونة يجب ان نقول أنها كائن، وهكذا نستعمل في التعريف العبارة التي نريد ان نعرّف بها. إنني أظن ان هناك عبارات يستحيل التعريف بها، والفراغ هو ربما واحدة منها. ولكني ربما أخطىء».

ـ «لست مخطئا. الفراغ هو مثل الزمان،» أجاب أحد أصدقاء روبارتو الملحدين. «الزمان ليس تعداد الحركة، لأن الحركة هي التي تخضع للزمان، وليس العكس؛ إنه لامتناه، لامخلوق، متواصل، وليس عرضا من أعراض المكان...الزمان هو الزمان، وكفى. المكان هو المكان، وكفى. والفراغ هو الفراغ، وكفى».

فاعترض أحدهم قائلا ان شيئا هو ذلك وكفى، دون ان يكون له جوهر يمكن تعريفه، فكما لو انه لم يكن. عندئذ تدخل قسّ دينيو قائلا: «أيها السّادة، صحيح ان المكان والزمان ليسا لا مادّة ولا روحا، انهما لا ماديّان، إن أردتم، ولكن هذا لا يعني انها ليست حقيقة. ليسا عرضا وليسا جوهرا، ومع ذلك فقد وجدا قبل التكوين، قبل أي جوهر وقبل أي عرض، وسيوجدان أيضاً بعد اضمحلال كلّ جوهر. انهما لا يتغيّران ولا يتبدّلان، مهما كان الشيء الذي نضع بداخلهما».

ـ «ولكن»، اعترض روبارتو، «المكان هو على كلّ حال امتداد، والامتداد هو خصوصية الأجسام..».

ـ «كلاّ،» ردّ عليه الصديق الملحد، «كون جميع الأجسام ممتدّة لا يعني ان كلّ ما هو ممتدّ جسم ـ كما كان يريد ذلك السيّد، الذي لن يتكرّم بالإجابة عن سؤالي لأنه حسب ما يبدو لم يعد يريد العودة من هولندا. الامتداد هو حالة كلّ ما هو موجود. الفضاء هو امتداد مطلق، سرمدي، غير مخلوق، غير محدود، غير مغلق. مثل الزمان، الذي هو دون نهاية، غير متوقّف، لا يتبدّد، إنه عنقاء، ثعبان يعضّ ذنبه..».

عندئذ قال قسّ دينيو: «يا سادتي، لا يجب مع ذلك ان نضع المكان موضع الربّ..».

فأجابه الملحد: «سيّدي، لا يمكنك ان توحي لنا أفكارا نعتقد كلّنا انها صحيحة، ثم تريد ان لا نستمدّ منها أقصى الاستنتاجات. أظن انه عند هذا الحدّ لم نعد بحاجة إلى الربّ وإلى لا نهائيته، بما اننا نملك ما يكفي من اللانهائيات حتى اننا صرنا ظلاّ لا يدوم غير لحظة دون رجوع. لذا أقترح ان نترك جانبا كلّ خشية وان نذهب جميعا إلى الحانة».

فهزّ القسّ رأسه ثمّ استأذن وانصرف. وكذلك الشاب الذي بدا متزعزعا من كلّ تلك الأحاديث، اعتذر منخفض الرأس ثم استأذن في الانصراف إلى بيته.

ـ «يا للفتى المسكين»، قال الملحد، «هو يصنع آلات لعدّ المنتهي، ونحن صدمناه بالصمت السرمدي للانهائيات كثيرة Voila، هكذا قضينا على موهبة جميلة».

فعقّب آخر من بين البيرّونيين: «لن يتحمّل ذلك، سيحاول ان يعيش في سلام مع العالم، وسينتهي به المطاف بين اليسوعيين»!

كان روبارتو يفكّر الآن في ذلك الحوار الذي مرّت عليه بضع سنوات. الفراغ والفضاء هما مثل الزمان، أو الزمان هو مثل الفراغ والفضاء؛ ألا يمكن التفكير إذن أنه، مثلما توجد فضاءات فلكية يبدو

فيها كوكبنا الأرضي مثل نملة، وفضاءات مثل عوالم المرجان (نملات داخل عالمنا) ـ ومع ذلك بعضها داخل البعض الآخر ـ توجد أيضاً أكوان تخضع لأزمنة مختلفة؟ الا يقولون ان فوق كوكب المشتري يدوم اليوم عاما كاملا؟ توجد إذن اكوان تعيش وتموت في ظرف لحظة، أو تعيش أكثر من قدرتنا على عدّ الأسر المالكة الصينية وزمن الطوفان. أكوان لا تدوم فيها الأحداث والجواب عن الأحداث وقت ساعة أو دقيقة بل وقت آلاف السنين، وأكوان أخرى تنشأ فيها الكواكب وتموت في رمشة عين.

ألا يوجد ربما، على مسافة غير بعيدة، مكان الزمن فيه هو الأمس؟

قد يكون دخل هو في أحد تلك الأكوان حيث، منذ اللحظة التي بدأت فيها ذرّة من الماء في قرض قشرة مرجان ميّت، وبدأ هذا الأخير في التفتّت شيئا فشيئا، انقضت من الأعوام قدر ما مرّ منذ خلق آدم إلى الخلاص. وألا يعيش هو الآن حبّه في هذا الزمن، حيث ليليا، مثل الحمامة ذات اللون البرتقالي، صارتا الآن شيئا للاستحواذ عليه اصبح لديه من الوقت ضجر القرون؟ ألا يتأهب الآن ليعيش مستقبلا لامتناهيا؟

إلى مثل هذه التأملات العديدة وجد رجل نبيل نفسه منقادا بعد ان اكتشف منذ قليل المرجان...ومن يدري إلى اين سيصل لو كان لديه فعلا عقل فيلسوف حقيقي. ولكن روبارتو لم يكن فيلسوفا، وإنما كان عاشقا تعيسا لم يلبث ان نجا من سفرة، لم تتوّج بعد بالنجاح، نحو جزيرة كانت تهرب منه وسط ضبابات اليوم المنصرم الصاقعة.

الاّ ان هذا العاشق، رغم ثقافته الباريسية، لم ينس الحياة التي عاشها في الريف. لذا وجد نفسه يستنتج ان الزمن الذي كان يفكّر فيه يمكن تمديده بألف طريقة مثل الطحين المعجون بمحّ البيض، مثلما رأى النساء يفعلن في لاغريف. لا أدري لماذا خطرت على بال روبارتو

تلك المشابهة ـ قد تكون كثرة التفكير أذكت شهيّته أو أن الصمت السرمدي لكلّ تلك اللانهائيات زعزعه، وودّ ان يجد نفسه في المنزل في مطبخ أمّه. الاّ انه لم يلبث ان مرّ إلى ذكرى أطباق شهيّة أخرى.

إذن، كانت هناك الفطائر المحشوّة بالفراخ والأرانب والديكة البريّة، فكأنما قلنا ان هناك عوالم كثيرة احدها بجانب الآخر أو أحدها داخل الآخر. ولكن أمّه كانت تصنع أيضا تلك الكعكات التي كانت تسمّيها «على الطريقة الألمانية»، بأكثر طبقات من الغلال، تتوسّطها الزبدة، والسكّر والقرفة. ومن تلك الفكرة مرّت إلى ابتداع كعكة مملّحة، حيث كانت تضع بين طبقات العجين أحيانا طبقة من الجنبون، وأحيانا اخرى بيضا مسلوقا ومقطّعا إلى صفائح، أو خضرا. وأدّى هذا بروبارتو إلى التفكير في ان الكون يمكن ان يكون مقلاة تطهى فيها في آن واحد قصص مختلفة، كلّ منها لها زمنها، وربما جميعها بنفس الأشخاص. وكما في الفطيرة لا تعرف البيضات الموجودة في الأسفل ماذا يقع وراء ورقة العجين إلى أخواتها أو إلى الجنبون الموجود فوقها، هكذا في طبقة من الكون هناك احد يدعى روبارتو لا يعرف ماذا يفعل روبارتو الآخر.

صحيح، ليست هذه أفضل طريقة للتفكير، وعلاوة على ذلك باستعمال البطن. ولكن من الواضح انه كان يعرف النقطة التي يريد الوصول اليها: في نفس تلك اللحظة اشخاص كثيرون يدعون روبارتو ربما يقومون بأعمال مختلفة، وربما تحت اسماء مختلفة.

ربما أيضاً تحت اسم فيرّانتي؟ وإذن، تلك التي كان يظنها قصّة ابتدعها هو حول أخ عدوّ، الا يمكن ان تكون رؤية غامضة لعالم كانت تقع فيه له، أي روبارتو، أحداث أخرى غير تلك التي كان يعيشها في ذلك الزمان وفي ذلك العالم؟

هيّا، كان يقول لنفسه، انت تودّ دون شك ان تعيش أنت ما عاشه

فيرّانتي عندما نشرت تويد دافني أشرعتها وأبحرت. ولكن هذا، كما هو معروف، لأنه توجد، كما يقول سان سافان، أفكار لا نفكّر فيها بتاتا، تؤثر في القلب دون ان يتفطّن القلب (ولا حتى العقل) إليها؛ ولا مفرّ من ان البعض من تلك الأفكار ـ التي هي احيانا ليست الاّ رغبات غامضة، وربما ليست بكلّ ذلك الغموض ـ تدخل في عالم رواية تظن انك تتصوّرها بقصد خلق مشاهد بأفكار الآخرين...ولكنني أنا هو أنا، وفيرّانتي هو فيرّانتي، والآن سأثبت ذلك بأن أجعله يعيش مغامرات لا يمكن ان اكون أنا بطلها ـ وإن هي دارت في عالم ما، فهو عالم الخيال، الذي ليس موازيا لأيّ عالم آخر.

والتّذ، كامل تلك الليلة، ناسيا المرجان، بتصوّر مغامرة ستحمله مع ذلك مرّة أخرى إلى أقسى متعة، وإلى أشهى عذاب.

35

عزاء الملاّحين

كان فيرّانتي قد قصّ على ليليا، التي صارت الآن مستعدّة لتصديق كلّ الأكاذيب التي تتفوّه بها تينك الشفتان الحبيبتان، حكاية تكاد تكون حقيقية، الاّ أنه كان يلعب فيها دور روبارتو، وروبارتو يلعب فيها دوره هو؛ وأقنعها بأن تنفق جميع الحلي التي حملتها معها في صندوق صغير للعثور على الغاصب واسترجاع وثيقة منه على غاية من الأهميّة بالنسبة لمصير البلاد، كان ذلك المغتصب قد افتكّها منه، وباستعادتها سيتمكّن من الحصول على عفو الكردينال.

بعد الفرار من السواحل الفرنسية، كانت أوّل محطّة توقّفت فيها تويد دافني هي أمستردام. هنالك كان بإمكان فيرّانتي، الذي كان مثال الجاسوس المزدوج، ان يجد من يعطيه معلومات عن سفينة تدعى أماريلّي. ومهما كانت المعلومات التي استقاها فها إننا نجده، بعد بضعة أيام في لندن يبحث عن شخص. وهذا الشخص الذي سيعتمد عليه لا يمكن ان يكون الاّ غادرا من نفس طينته، مستعدا ان يخون أولئك الذين خان من أجلهم.

وها أن فيرّانتي، بعد ان تسلّم من ليليا ألماسا على غاية من الصفاء، يدخل اثناء الليل إلى خربة استقبله فيها مخلوق غير محدّد

الجنس، ربما كان في السابق خصيّا لدى الأتراك، أمرد الوجه ذا فم صغير جدا حتى انه يبدو كأنه يبتسم بتحريك أنفه.

والحجرة التي كان يختبىء فيها كانت تثير الرعب بسبب كومة قاتمة من العظام كانت تحترق في نار ذابلة. وفي ركن من الأركان كانت جثة مشنوقة من قدميها تتأرجح عارية، يسيل من فمها سائل في لون الحرّيق وسط قشرة من الأوريكالك.

وتعرّف الخصيّ في شخص فيرّانتي على أخ في الجريمة. استمع للسؤال، رأى حجر الماس وخان أسياده. سبق روبارتو (فيرّانتي) إلى حجرة أخرى، كانت تبدو دكّان صيدلي، مليئة بأوان من خزف، وزجاج، وقصدير، ونحاس. كانت كلّها موادّ يمكن أن يستعملها المرء للظهور خلافا لما هو عليه في الحقيقة، سواء كانت عجوزا قبيحة تريد ان تظهر بمظهر شابّة جميلة، أو كان لئيما يريد ان يغيّر هيأته: مساحيق، وملّينات، وجذور البروق، ولحاء التنّينية، وموادّ أخرى تنعّم الجلدة، مصنوعة من نخاع اليحمور ومياه زهر العسل. وكانت لديه معاجين لشقر الشعور، مصنوعة من البلوط الأخضر، والجودر، والباذورد، وملح البارود، والشبّ والهتونية المنقعية؛ أو لتغيير البشرة من بقر، ودبّ، وفرس، وجمل، وحنش، وأرنب، وحوت، وواق، وأيّل، وسنّور أو قضاعة. وأيضا زيوت للوجه، من اصطرك، وليمون، ونواة صنوبر، ودردار، وترمس، وبيقة، وحمّص، ورقًا من المثانات كي تبدو المذنبات عذارى. ولمن يريد ان يسقط أحدا في شباك الهوى كانت لديه ألسنة أفاع، ورؤوس سمّان، ونخاع حمير، وفول مغربي، وسيقان غرير، واحجار عشّ عقاب، وقلوب من الشحم مرشوقة بإبر منكسرة، وأشياء أخرى مصنوعة من الطين والرصاص، تتقزّز النفس من رؤيتها.

وسط الحجرة كانت هناك طاولة فوقها طشت تغطّيه خرقة ملطخة بالدم، أشار اليها الخصيّ بعلامة اتفاق. لم يفهم فيرانتي، فأفهمه الآخر

انه وصل إلى الشخص الذي كان هو، فيرانتي، يبحث عنه. وفعلا، لم يكن الخصيّ الاّ ذلك الذي جرح كلب الدكتور بيرد، والذي كان كلّ يوم، في الساعة المتفق عليها، يبلّل الخرقة في ماء الزاج، أو يعرّضها للنّار، مرسلا إلى أماريلّي العلامات التي كان بيرد ينتظرها.

وقصّ عليه الخصيّ كلّ شيء عن رحلة بيرد، والمواني التي كان دون شك قد رسى فيها. فيرّانتي، الذي كان فعلا لا يعرف الاّ قليلا أو لا شيئا عن مسألة خطوط الطول، لم يكن يتصوّر ان مزارينو أرسل روبارتو فوق تلك السفينة فقط لاكتشاف شيء كان يبدو له الآن واضحا، واستنتج ان روبارتو في الحقيقة كان عليه ان يكشف من بعد للكردينال عن موقع جزر سليمان.

كان يعتبر ان تويد دافني أسرع من أماريلّي، وكان واثقا من حظه، وكان يظن انه سيلحق سريعا بسفينة بيرد وعندما تكون قد بلغت الجزر، سيفاجىء بسهولة نوتيّتها على اليابسة، ويقضي عليهم (بما فيهم روبارتو)، ثم سيتصرّف حسب هواه في تلك الأرض، التي سيكون هو مكتشفها الوحيد.

كان الخصيّ هو الذي أرشده إلى طريقة للمضيّ دون ان يفقد الاتجاه: يكفي ان يجرح كلبا آخر، وأن يؤثر هو كلّ يوم على عينة من دمه، كما كان يفعل مع كلب أماريلّي، وسيتسلّم روبارتو نفس المعلومات اليومية التي كان يتلقّاها بيرد.

فقال فيرانتي أنه سيرحل على الفور، وعندما ذكّره الآخر انه يجب قبل ذلك ان يعثر على كلب أجابه: «عندي كلب من نوع آخر فوق السفينة». وقاد الخصيّ إلى السفينة؛ كان قد تأكّد من وجود حلاّق بين النوتية، متخصّص في الفصاد وفي اعمال اخرى مماثلة. «أنا، يا قبطان،» كان قد أجابه واحد منهم نجا من مائة مشنقة ومن ألف حبل، «عندما كنّا نقرصن، قطعت من السيقان والسواعد لزملائي أكثر من التي جرحتها للأعداء!»

ونزل فيرانتي إلى قاع السفينة وشدّ بيسكارا بالأغلال إلى قاطع ومقطوع من الألواح ثمّ، بيده نفسها، أخذ الموسى وجرحه جرحا عميقا في جنبه. وبينما كان بيسكارا يتأوّه، جمع الخصيّ الدم السائل بخرقة من القماش ووضعها في كيس صغير. ثمّ شرح للحلاّق كيف يجب ان يفعل ليبقي الجرح مفتوحا طوال كامل الرحلة، دون ان يموت الجريح، ولكن دون ان يبرأ أيضاً.

بعد هذه الجريمة الجديدة، أمر فيرّانتي بنشر القلاع في اتجاه جزر سليمان.

بعد ان كتب هذا الباب من روايته، شعر روبارتو بالإشمئزاز، وأحسّ بنفسه منهكا، وحزينا، كأنما يرزح تحت عبء تلك الأعمال الشنيعة.

رفض ان يتصوّر ما يتبع، وعوضا عن ذلك كتب ابتهالا للطبيعة، كي ـ مثل امّ، تريد ان تجبر ابنها على النوم في المهد، تسدل فوقه غطاء وتلفّه في ليل صغير ـ تنشر الليل الكبير على الكوكب. وسأل الليل، بحجب كلّ شيء عن رؤيته، أن يدعو عينيه لكي تنغلقا؛ وأن يحلّ، مع الظلام، الصمت؛ وكما انه عند بزوغ الشمس تهرع الليوث والدببة والذئاب (التي هي مثل اللصوص والمجرمين، تكره النور) إلى الاختفاء في مغاراتها حيث تجد المأوى والأمن، هكذا، على العكس، عندما تختفي الشمس وراء الغرب، يهدأ هيجان واضطراب الأفكار. وأن تموت بداخله، ما ان يموت نور الشمس، جميع الأشباح التي تعيش من النور، ويستقرّ الهدوء والصمت.

وعندما نفخ على المصباح أضاء يديه شعاع من القمر كان ينفذ من الخارج. وارتفع ضباب من معدته صاعدا إلى مخّه وفي سقوطه على الجفنين أغلقهما، كي لا يرى العقل أي شيء من شأنه ان يشتّته. ونامت منه لا العينان والأذنان فقط، بل وأيضاً اليدان والقدمان ـ الا القلب، الذي لا يتوقّف أبدا.

أتغفو الروح أيضاً اثناء السبات؟ للأسف لا، انها تبقى يقظة، الاّ انها تختفي وراء ستار، وتمثّل: عندئذ تخرج الأشباح المهرّجة فوق الركح وتقدّم ملهاة، ولكن كما تلعبها فرقة من الممثلين السكارى أو المجانين، لما عليه الوجوه من تشويه، والأزياء من غرابة، والسلوكات من وقاحة، والمواقف من شذوذ، والكلمات من إفراط.

مثلما يحدث عندما نقطع إلى أجزاء أمّ أربع وأربعين، فتنطلق الأجزاء المتحرّرة دون ان تعرف إلى اين، لأنه، ما عدا الجزء الأول، الذي يحتفظ بالرأس، فإن الأجزاء الأخرى لا ترى؛ وكلّ جزء، مثل دودة سليمة، يذهب فوق تلك الخمس أو الستّ قوائم التي بقيت له، ويحمل معه ذلك الجزء من الروح الذي هو ملكه. كذلك في الأحلام، نرى على ساق زهرة ينبت عنق كركي ينتهي برأس قردح، ذي اربعة قرون حلزون تنفث النار، أو يزهر في ذقن رجل عجوز ذيل طاووس عوضا عن اللحية؛ وشخص آخر تبدو ذراعاه كروما متشابكة، وعيناه قبسين داخل قوقعة، أو يبدو انفه مزمارا...

روبارتو، الذي كان نائما، رأى إذن في الحلم رحلة فيرانتي التي تواصلت، الاّ انه كان يحلم بها في شكل حلم.

أريد أن أقول، حلما موحيا. كأنما روبارتو، بعد تأمّلاته حول العوالم اللانهائية، صار لا يريد ان يواصل تصوّر حكاية تدور احداثها في بلد الروايات، بل حكاية حقيقية في بلد حقيقي، حيث يسكن هو أيضاً الاّ انه ـ مثلما توجد الجزيرة في الماضي القريب ـ يمكن ان تدور حكايته في مستقبل غير بعيد يرضي فيه رغبته في فضاءات اكثر اتساعا من تلك التي يضطره اليها غرق سفينته.

وإن هو كان قد بدأ قصّته بخلق شخصية تقليدية لفيرانتي، مثل شخصيّة «ياغو»، نشأت من ضغينته لإهانة لم تلحقه أبدا، الآن، بما أنه لم يعد يحتمل ان يرى الآخر بجانب حبيبته ليليا، ها هو يأخذ مكانه ـ

ومتجرّئاً على قبول أفكاره الغامضة ـ ها هو يعترف دون مراوغة انه هو فيرّانتي.

وبما أنه اقتنع الآن انه بالإمكان ان يعيش المرء عالمه من زوايا مختلفة لانهائية، اذا كان في البداية قد اختار ان يكون العين الفضولية التي ترقب اعمال فيرّانتي في بلد الروايات، أو في ماض كان هو أيضاً ماضيه هو (ولكنه احتكّ به دون ان يشعر هو بذلك، محدّدا حاضره)، الآن صار هو، روبارتو، عين فيرّانتي. كان يريد ان يستمتع مع الغريم بالأحداث التي كان ينبغي ان تقدّر له.

كانت السفينة الآن تمخر عباب السهول المائية وكان قراصنتها هادئين، يسهرون على رحلة ذينك العاشقين، مكتفين باكتشاف بعض الوحوش البحرية وقبل ان يبلغوا السواحل الأمريكية، صادف ان رأوا تريتونا. في الجزء الذي كان ظاهرا للعيان فوق الماء، كان له شكل آدمي، الاّ ان الذراعين كانا بالغي القصر بالنسبة إلى الجزم: كانت يداه عظيمتين، وشعره رماديا كثيفا، وكانت لحيته طويلة تبلغ معدته. وعيناه كانتا واسعتين وكان جلده خشنا. عندما اقتربوا منه، بدا مطيعا واقترب من الشباك. ولكن ما أن أحسّ انهم يجذبونه إلى السفينة، وقبل ان يظهر من جسمه ما هو تحت الصرّة ليكشف ان كان له ذيل جنيّة البحر، حتى قطع الشباك بضربة واحدة، واختفى. بعد مهلة رأوه يستحمّ فوق صخرة، ولكن مخفيا دائما الجزء الأسفل من جسمه. كان ينظر إلى السفينة ويحرّك ساعديه كأنه يصفّق.

بعد دخولهم المحيط الهادي وصلوا إلى جزيرة كانت الليوث فيها سوداء، والدجاج مغطى بالصوف، والأشجار لا تزهر فيها الاّ في الليل، وكانت اسماكها مجنّحة، وطيورها محرشفة، والأحجار فيها كانت تطفو واللوح كان يرسب في القاع، والفراش كان يسطع في الليل، ومياهها كانت تسكر مثل الخمر.

وفي جزيرة ثانية رأوا قصرا مصنوعا من الخشب النخر، مطليا بألوان تزعج العين. دخلوا القصر فوجدوا أنفسهم في قاعة مفروشة بريش الغراب. على كلّ جدار كانت هناك كوى فيها، عوضا عن نصفيّات من الحجر، مسوخ بوجوه شاحبة ولدت مقعدة بعارض من الطبيعة.

فوق كرسي قذر كان يجلس الملك، وبإشارة من يده بدأ عزف من المطارق والبرّيمات تحدث صريرا حادا فوق لوحات من الحجر، وسكاكين تحدث صريفا فوق اطباق من الخزف الصيني، ظهرت على موسيقاه مجموعة من الرجال كانوا جميعهم لحما على عظم، تزيدهم بشاعة عيونهم الحول.

وظهرت قبالتهم مجموعة من النساء، لا يفوقهن أحد في السمنة: وبعد ان انحنين امام رفاقهن، بدأن رقصة كانت تبرز العرج والدمامة. ثمّ اقتحم القاعة ستّة شبّان يتصنّعون الشجاعة، يبدو انهم خلقوا من بطن واحدة، بأنوف وأفواه عظيمة، وأكتاف محدبة، حتى انهم كانوا يبدون، عوضا عن مخلوقات، هزءا من الطبيعة.

بعد الرقصة، بما أنهم لم يسمعوا أحدا يتكلّم وظنوا ان على تلك الجزيرة يتكلّم الناس لغة مختلفة عن لغتهم، حاول بحّارونا ان يلقوا عليهم أسئلة عن طريق الحركات، التي هي لغة شاملة يمكن استعمالها حتى مع المتوحشين. ولكن الرجل أجاب في لغة كانت أشبه باللغة المفقودة التي كانت تتكلّم بها الطيور، متكوّنة من زغاريد وزقزقة، وفهموها هم كما لو أنه تحدّث في لغتهم. وهكذا عرفوا انه، بينما في جميع الأماكن الأخرى يعجب الناس بالجمال، في ذلك القصر ما يستحقّ الإعجاب هو الغرابة. وأن ما ينتظرهم لو واصلوا رحلتهم، هو أن يجدوا انفسهم في أماكن ما هو في بقاع أخرى يحتلّ الفوق ففيها هي يحتلّ التحت.

بعد ان واصلوا السفرة، بلغوا جزيرة ثالثة كانت تبدو خالية من

السكان، وتوغّل فيرّانتي، وحده مع ليليا، داخل الجزيرة. بينما كانا سائرين سمعا صوتا ينبّههما ان يهربا: تلك كانت جزيرة البشر الخفيّين. في تلك اللحظة كان الكثيرون منهم يحيطون بهما، ويشيرون احدهم للآخر إلى ذينك الزائرين اللذين كانا يعرضان نفسيهما على انظارهم دون حياء. وفعلا، بالنسبة إلى أولئك القوم من يراه الآخرون يصبح ضحية أنظار الآخرين، ويفقد طبيعته، متحوّلا إلى نقيض نفسه.

في جزيرة رابعة وجدوا رجلا ذا عينين غائرتين، وصوت خافت، وكان وجهه جعدة واحدة، ولكنها ذات الوان زاهية. كانت لحيته وشعره في نحافة القطن، وكان جسمه منكمشا إلى حدّ انه عندما يريد ان يلتفت خلفه كان يدور حول نفسه دورة كاملة.وقال ان له من السنين ثلاثمائة وأربعين عاما، وأنه إلى ذلك الوقت جدّد شبابه ثلاث مرّات بالشرب من ماء عين بوريقا، التي توجد فعلا في تلك البقاع وتطيل العمر، ولكن لا أكثر من ثلاثمائة وأربعين عاما ـ لذا سيموت هو عن قريب. ودعا الشيخ المسافرين إلى عدم البحث عن العين: العيش ثلاث مرات، مضاعفا في البداية ثم مثلّثا نفسه، لهو من دواعي آلام عظيمة، وفي النهاية لا يعود الإنسان يعرف من هو. وليس ذلك فحسب: أن يعيش المرء ثلاث مرّات تباعا نفس الأتراح فذلك مؤلم بحقّ، ولكن المؤلم أيضاً هو ان يعيش تكرارا نفس الأفراح. فرحة الحياة تنشأ من الإحساس بأنّ كلا السعادة أو الكرب لا يدومان الاّ قليلا، والويل لو عرفنا اننا سنستمتع بحبور سرمديّ.

الاّ ان عالم المتقاطرات جميل لتنوّعه وبعد قطع ألف ميل وصلوا إلى جزيرة خامسة، كانت مليئة ببرك من المياه؛ وكلّ ساكن كان يقضي حياته على ركبتيه وهو يتأمّل صورته فيها، معتبرين ان من لا يرى نفسه فكأنه لا وجود له، وأنه لو حوّلوا نظرهم، وانعدمت رؤية انفسهم في الماء، لماتوا.

ثمّ نزلوا في جزيرة سادسة، أكثر غرابة من سابقتها، حيث كان

السكان يتحادثون دون انقطاع أحدهم إلى الآخر، ويقصّ كلّ منهم على الآخر ما كان الآخر يحب ان يكون وأن يفعل، والعكس بالعكس. سكان تلك الجزيرة كانوا فعلا لا يعيشون الاّ من خلال ما يروى عنهم؛ وعندما يقصّ مخالف عن الآخرين قصصا مكدّرة، مكرها اياهم على ان يعيشوها، كان الآخرون يكفّون عن قصّ ايّ شيء عنه، وهكذا يموت.

ولكن المشكلة هي ان يختلقوا لكلّ واحد قصّة مختلفة: وفعلا، لو كانت لجميعهم نفس القصّة لما أمكن ان تفرّق بينهم، لأن كلّ واحد منّا هو ما صنعت منه وقائعه. ولذلك صنعوا عجلة كبيرة، كانوا يسمّونها Cynosura Lucensis، وأقاموها في ساحة القرية. كانت متكونة من ستّ دوائر متراكزة تدور كلّ واحدة منها بصفة مستقلّة. والدائرة الأولى مقسّمة إلى اربع وعشرين خانة أو نافذة، والثانية إلى ستّ وثلاثين، والثالثة إلى ثمان واربعين، والرابعة إلى ستين، والخامسة إلى اثنتين وسبعين والسادسة إلى اربع وثمانين. وفي الخانات المختلفة، حسب مقياس لم تقدر ليليا وفيرّانتي على فهمه في ظرف وجيز من الزمن، كانت مكتوبة أعمال (مثل ذهب، جاء أو مات)، وأحاسيس (مثل كره، أحبّ أو برد)، ثم كيفيّات مثل حسن وسيِّئ، محزن ومفرح، وأمكنة وأزمنة، كمن يقول في بيته أو في الشهر الموالي.

وعندما يديرون العجلة كانوا يحصلون على قصص من نوع «ذهب يوم أمس إلى منزله واعترضه خصمه وهو يعاني، فقدّم له يد المساعدة»، أو «رأى حيوانا ذا سبعة رؤوس فقتله». وكان سكان الجزيرة يؤكدون انه بفضل تلك العجلة يمكن تأليف أو تصوّر سبعمائة واثنين وعشرين مليونا من الملايين من القصص المختلفة، وهناك ما يعطي معنى لحياة كلّ واحد منهم طيلة القرون المقبلة. واستحسن روبارتو ذلك، لأنه بصنع عجلة مثل هذه سيمكنه ان يتصوّر حكايات مختلفة حتى لو بقي عشرة آلاف سنة على متن دافني.

كانت بقاعا كثيرة وغريبة تلك التي كان روبارتو يودّ اكتشافها.

ولكنه عند حدّ ما من تخيّلاته أراد ان يجد للعشيقين مكانا أقلّ سكانا، حتى يتمكّنا من التمتّع بحبّهما.

وهكذا أوصلهما إلى شاطىء سابع وديع تزينه غابة صغيرة ارتفعت اشجارها على ساحل البحر. وعندما اجتازاها وجدا نفسيهما في حديقة ملكية، حيث كانت تنبجس، على حافتي مسلك مشجّر يخترق مروجا مزدانة بالأزهار، عيون كثيرة.

ولكن روبارتو، كما لو كان الاثنان يبحثان عن ملجأ بعيد عن الأنظار، وكما لو كان هو يبحث عن عذاب جديد، جعلهما يمرّان تحت قوس مزهر، كان من ورائه واد يأتي منه حفيف سهام مقصبة غديرية تحت هبّات نسيم عليل محمّل بشذى عطورات مختلفة ـ ومن بحيرة صغيرة كان يسيل خيط رقيق من المياه الصافية كأنها عقد من اللآلي.

أراد ـ وأظن ان تصوّر المشهد كان يحترم جميع القواعد ـ ان يشجّع ظلّ سنديانة مورقة الحبيبين على الاستسلام للهوى، وأضاف اشجار دلب مرحة، وشجيرات قطلب متّضعة، وعرعراً لاذعاً، وطرفاء رقيقة وزيزفوناً ليّناً، كانت كالتاج تحيط بمرج، مزدان مثل بساط شرقي. بأي شيء زخرفته الطبيعة، فنّانة الكون؟ بالبنفسج والنرجس.

وترك العشيقين يستسلمان أحدهما للآخر، بينما كان خشخاش بريّ يرفع من النسيان الثقيل بفتور رأسه المثقل بالنوم، ليشرب من تلك التأوهات النديّة. ثم فضّل، وقد غلبه ذلك الجمال، ان يحمرّ من الخجل والذلّ. وكذلك أيضاً روبارتو ـ وينبغي ان نقول انه استحقّ ذلك.

عندئذ، وحتى لا يرى ذلك الذي من اجله كان يرغب أشد الرغبة في ان يراه الآخرون، صعد روبارتو، بعلم يضاهي علم «مورفي»، ليشرف من أعلى على كامل الجزيرة، حيث كانت الينابيع الآن تعلّق على المعجزة الغرامية التي كانت شاهدة عليها.

كانت هناك أعمدة صغيرة، وقماقم وقوارير ينبع منها الماء في دفقة

واحدة ـ أو دفقات عديدة من عدد كبير من المواسير ـ وأخرى كانت في قمّتها مثل قوس، يسيل من نوافذه نهر، يكوّن عند سقوطه صفصافا مزدوج البكاء. وأخرى، مثل جذع واحد اسطواني الشكل، يولّد في قمّته اسطوانات عديدة اخرى صغرى موجّهة إلى اتجاهات مختلفة، كما لو كانت قلعة أو حصنا أو سفينة حربية مسلحة بأفواه من نار ـ الاّ انها كانت مدفعية من الماء.

ومنها ما كانت مريّشة، ومشعّرة وملتحية، كانت في تنوعها تضاهي نجوم ملوك المجوس في مغارات الميلاد، وكان غليان مياهها يحاكي الأذناب. فوق أخرى كان يقف تمثال طفل يمسك بيده اليسرى مظلّة من ضلوعها تتدفق المياه؛ ولكن الطفل كان يمسك بيمناه ذكره الصغير، ويخلط في حوض صغير بولته بالماء المتدفق من القبّة.

وفي واحدة أخرى كان يقف على تاج العمود حوت له ذيل عظيم يبدو انه ابتلع لحينه يونس، يخرج الماء من فمه ومن فتحتين كانتا فوق عينيه. وعلى ظهره كان يجلس طفل يمثّل الحبّ مسلّح بشوكة ثلاثية. وعين في شكل زهرة كان تدفّق مياهها يحمل كرة؛ وأخرى أيضا كانت مثل شجرة كانت أزهارها الكثيرة تدير كل منها كرة، وكانت تبدو كواكب عديدة تطوف الواحد حول الآخر في كرة الماء. وهناك من بينها ما كانت بتلات الزهرة نفسها متكونة من الماء الذي ينبع من شقّ مستدير يحيط بعجلة موضوعة على العمود.

ومنها ما كانت تعوض الهواء بالماء بقصبات مثل قصبات الأرغن، الاّ انها لم تكن تبعث اصواتا بل أنفاسا مائية، ومنها ما عوضت الماء بالنار في شكل شمعدان، حيث تشتعل في وسط الركيزة شعلات تلقي اضواءها على زبد المياه المتدفّقة من كل مكان.

وأخرى كانت شبيهة بالطاووس، بطرّة فوق رأسه، وذيل كبير مفتوح، تضفي عليه السماء ألوانها. ولا نتحدّث عن بعضها الآخر التي

كانت مثل حاملات شعر مستعار، مزدانة بشعور متهافتة. وفي واحدة اخرى، كان عبّاد شمس ينبسط في صبر واحد. وواحدة أخرى كان لها وجه الشمس نفسها منقوشا بدقّة، بأفواه صغيرة على الدائرة، فكان الكوكب لا يرسل أشعة، بل نداوة.

وفي واحدة كانت هناك اسطوانة تدور وتبعث الماء من مجموعة من خديدات لولبية. ومنها ما كانت في شكل شدقي أسد أو فهد، أو مثل منقار عنقاء أو لسان ثعبان، وحتى مثل أنثى تبكي من عينيها ومن ثدييها. وما تبقّى فقد كان تقيؤ فونات، وجريان مخلوقات مجنّحة، وانبجاس إوزّات عراقية، ورشّ خراطيم فيلة نيليّة، وانسكاب قلال مرمريّة، ونزف قرون الخصب.

كانت كلّها رؤى جعلت روبارتو ـ اذا ما تأمّلنا جيدا في ذلك ـ يهرب من القطرة ليسقط تحت الميزاب.

أثناء ذلك، في الوادي، كان يكفي العشيقان، وقد نهلا من الحبّ ما روى غلّتهما، ان يمدّا يديهما إلى كرمة محمّلة بالعنب ليقطفا من خيراتها، وتينة، غلبها البكاء من الحنان عند تلك الرؤية المختلسة، أسالت دمعة من العسل، بينما على شجرة لوز، توشّحت اغصانها بالأزهار، كانت تئنّ الحمامة في لون البرتقال...

إلى أن استفاق روبارتو، مبلّلا بالعرق.

«كيف،» كان يقول لنفسه، «لقد استسلمت لرغبة العيش من خلال فيرّانتي، ولكنني الآن أتفطّن إلى ان فيرّانتي هو الذي عاش من خلالي، وبينما كنت أنا أصنع قصورا من أوهام كان هو يعيش حقيقة ما أردت أنا ان يعيش!»

ولتسكين حنقه، والتمتّع برؤى كانت ـ هذه على الأقلّ ـ محرّمة على فيرّانتي، انطلق باكرا في الصباح، والحبل في حزامه والقناع الزجاجي على وجهه، نحو عالمه المرجاني.

36

الإنــسان عند النـقـطة

كان روبارتو، بعد ان بلغ حدّ الحاجز المرجاني، يسبح ووجهه غارق بين تلك الغرف السرمديّة، ولكنه لم يكن يستطيع ان يتأمّل في تلك الحجارة المتحرّكة لأن مدوسة شلّت حركته. في الحلم كان روبارتو قد رأى النظرات التي كانت ليليا ترميها إلى المغتصب: تلك النظرات، إن هي أحرقته في الحلم، فهي الآن عند ذكراها كانت تجمّده.

أراد ان يستعيد ما هو ملكه، حبيبته ليليا، وسبح غارسا وجهه في الماء أكثر ما أمكنه ذلك، كما لو ان ذلك العناق مع البحر سيمنحه النصر الذي أعطاه في الحلم إلى فيرّانتي. ولم يصعب كثيرا على ذهنه المتعوّد على خلق افكار، أن يتصوّر ليليا في كلّ نسق متموّج في تلك الحديقة المغمورة، وأن يرى شفتيها في كل زهرة كان يودّ لو غرق في رحيقها مثل نحلة نهمة. وفي بساتين شفّافة كان يرى خمار الكريب الذي كان يغطي وجهها في الليالي الأولى، وكان يمدّ يده يريد ان يرفع ذلك الحجاب.

في نشوة العقل هذه كان يأسف ان لا تقدر عيناه على الرؤية بقدر ما يريد قلبه، وبين المرجان كان يبحث عن تاج المرأة المحبوبة، عن شبكة شعرها، عن النوط الذي يليّن شحمة أذنها، عن القلائد الرائعة التي تزين جيدها النحيف الناعم.

وتاه في صيده، إلى ان جذبت انتباهه عند حدّ ما حلية كانت تبدو له وسط شقّ في الصخر، فخلع الكمامة، وقوّس ظهره، ثمّ رفع بقوة ساقيه ودفع بجسمه نحو القاع. كانت الدفعة مفرطة، وأراد ان يتشبث بحافة منحدر، وكانت لحظة قبل ان يغلق اصابعه حول حجر مقشّر بدا له انه رأى فيه عينا تنفتح سمينة ونعسانة. في تلك اللحظة تذكّر ان الدكتور بيرد حدّثه عن سمكة الحجر، التي تختبىء بين الحفر المرجانية لتفاجىء كل كائن حيّ يقترب منها بسمّ حراشفها.

ولكن بعد فوات الأوان: كانت يده قد لمست ذلك الشيء وألم حادّ سرى في ذراعه إلى ان بلغ كتفه. وبحركة قويّة من الظهر تمكّن بمعجزة من ان لا يسقط بوجهه وبصدره فوق الوحش، ولكنه ليجمّد سقوطه ضربه بالكمامة، التي انكسرت من جرّاء الضربة، وكان عليه في كلّ الحالات ان يتركها. وبعد ان ركّز قدميه بقوة على الصخرة التي كانت تحته، دفع بنفسه نحو سطح الماء، بينما كان يرى لمدّة ثوان قليلة القناع الزجاجي يغوص حيث لا يدري.

كانت اليد اليمنى وساعده كلّه منتفخين، وكان كتفه مخدّرا؛ وخشي ان يغمى عليه؛ ثمّ وجد الحبل وبصعوبة شديدة تمكّن من جذبه طرفا بعد طرف بيد واحدة. وصعد السلّم الصغير، وهو يكاد يكون مثل ليلة وصوله، دون ان يعرف كيف، ومثل تلك الليلة سقط بكامل جسمه على سطح السفينة.

ولكن الشمس كانت الآن عالية في السماء. كانت اسنانه تصطكّ وهو يتذكّر ما رواه له الدكتور بيرد، من ان اكثرية من لاقى سمكة الحجر لم ينج من الهلاك، والقليل منهم بقوا على قيد الحياة، ولا يعرف احد الترياق ضدّ ذلك السمّ. ورغم عينيه المظلمتين، حاول ان يتفحّص الجرح: لم يكن الاّ خدشة، ولكنها كانت كافية لتمرير المادّة القاتلة في العروق. ثمّ غاب عن وعيه.

استفاق بعد ذلك وقد اشتدّت به الحمّى وأحسّ بحاجة قويّة إلى شرب الماء. وفهم انه في ذلك الشبر من السفينة، وهو معرّض إلى العناصر، وبعيد عن الطعام وعن الماء، لن يمكنه ان يقاوم طويلا. زحف إلى ان بلغ تحت السطح ووصل إلى الحدّ الفاصل بين غرفة المؤن وسور الدجاج. وشرب بلهفة من برميل صغير من الماء، ولكنه أحسّ ان معدته تنقبض. فقد الحواس من جديد، وفمه نحو الأرضية وسط قيئه.

أثناء ليلة تقضّها أحلام نحسة، كان ينسب أوجاعه إلى فيرّانتي، الذي كان الآن يخلط بينه وبين سمكة الحجر. لماذا كان يريد منعه من الوصول إلى الجزيرة وإلى الحمامة؟ أيكون تقفّى أثره لهذا الغرض؟

كان يرى نفسه مستلقيا ينظر إلى آخر كان شخصه هو جالسا قبالته، بجانب موقد، يرتدي مبذلا، وهو غارق في التفكير ان كانت اليدان اللتان يلمسهما والجسم الذي يحسّه هما يداه وجسمه. وكان هو، الذي يرى الآخر، يحسّ بثيابه عرضة للنار، بينما كان الآخر لابسا، وكان هو عاريا ـ ولم يعد يفهم من من بين الاثنين يعيش في اليقظة ومن يعيش في المنام، وفكّر ان الاثنين كانا بكلّ تأكيد صورتين ولّدتهما مخيّلته. هو لا، لأنه كان يفكّر، وإذن كان موجودا.

وعند حدّ ما نهض الآخر (ولكن من؟)، ولكنه كان دون شكّ القدوة السيئة التي كانت تحوّل له العالم إلى حلم، لأنه لم يعد هو، بل الأب كسبار. «لقد عدت!» همس اليه روبارتو مادّاً اليه ذراعيه. ولكن الآخر لم يجبه، ولم يتحرّك. كان ينظر اليه. كان دون شكّ الأب كسبار، ولكنه كان كما لو ان البحر ـ عندما أعاده ـ نظّفه وأعاد اليه شبابه. كانت لحيتهَ مهذبة، ووجهه ريّان ومورّدا مثل وجه الأب إيمانويلي، وكان ثوبه خاليا من الرقع والمزق. ثمّ، ودائما دون ان يتحرّك، مثل ممثّل يقوم بإلقاء، وفي لغة مثالية، كأنه خطيب متمرّس، قال له بابتسامة قاتمة:

«من العبث أن تقاوم. لم يعد الآن للعالم الاّ غاية وحيدة، وهي الجحيم».

ثم واصل بصوت مرتفع كأنه يتحدّث من منبر كنيسة: «نعم، الجحيم، الذي لا تعرفون عنه الاّ القليل، أنت والذين معك ممّن يسيرون اليه بخُطا حثيثة وعقل مجنون! أنتم تظنون انه في الجحيم ستجدون سيوفا وخناجر وعجلات تعذيب ومواسي وانهارا من الكبريت، وشرابا من الرصاص المذاب، ومياها مثلّجة، ومراجل ومشاوي، ومناشير وهراوات ومخارز لفقأ العيون، وكلاّبات لقلع الأسنان، وأمشاطا لتمزيق الخواصر، وسلاسل لتحطيم العظام، وحيوانات تقضم، وإبرا تثقب، وحبالا تخنق، ومنصبات تعذيب، وصلبانا، وخطاطيف وقطّاعات؟ كلاّ! هذا عذاب قاس، صحيح، ولكنه في مقدور المخيّلة الإنسانية ان تتصوّره، بما أننا استطعنا أن نتصوّر الثور البرونزي، والكراسي من الحديد أو ثقب الأظافر بقصبات مدبّبة...أنتم تأملون ان يكون الجحيم حاجزا مرجانيا مصنوعا من سمك الحجر. كلاّ، عذاب الجحيم شيء آخر، لأنه لا ينشأ من فكرنا المحدود، بل من فكر لامحدود لإله غضوب منتقم، لا يرى بدّا من ان يظهر شدّة عقابه وان يبرز أنه بقدر ما هو رحمان رحيم، هو أيضاً شديد العقاب! وينبغي ان يكون عذابه من الشدّة بحيث يتجلّى واضحا الفارق بين عجزنا وقدرته اللامحدودة!»

«في هذا العالم»، كان رسول التوبة ذاك يضيف، «أنتم تعوّدتم أنه لكلّ داء دواء، وأنه ليس هناك جرح دون بلسم، ولا سمّ دون ترياق. ولكن لا يذهب بكم الظن ان الأمر كذلك في الجحيم. هنا، صحيح، الحروق معذّبة جدّا، ولكن ما من مسكّن يخفّف منها؛ والعطش محرق، ولكن ما من ماء يبرّد منه؛ والجوع جوع ذئاب، ولكن ما من طعام يشبع منه؛ والخزي لا يطاق، ولكن ما من غطاء يواريه. هل من موت على الأقلّ، يضع حدّا لكلّ هذه المحن، هل من موت، هل من

موت...ولكن هذا هو الأدهى، إنكم هنا لا يمكنكم حتى ان تأملوا في عفو وإن كان حزينا مثلما يكون الفناء! ستبحثون عن الموت، ولن يسعفكم الحظ بالعثور عليه. ايها الموت، ايها الموت، أين أنت (ستصيحون دون هوادة)، من الشيطان الذي سيكون رحيما ويعطينا اياه؟ وستفهمون آنذاك ان هنالك لا نهاية للعذاب!»

عند ذلك الحدّ توقّف الشيخ، ومدّ ذراعيه إلى السماء، مصفّرا بصوت خافت، كأنه يبوح بسرّ مريع لا ينبغي ان يخرج من تلك السفينة. «لن ينتهي أبدا عذابنا؟ أيعني هذا اننا سنتعذّب طيلة ما يكفي لحسّون، عاد ليشرب قطرة كلّ عام، كي يفرغ جميع البحار؟ بل أكثر In saecula. أم أننا سنتعذب طيلة ما يكفي لعثّة نبات، عادت لتقضم قضمة واحدة في العام، كي تنتهي من التهام جميع الغابات؟ بل أكثر In saecula. ستعذّب إذن طيلة ما يكفي لنملة صغيرة، تقطع خطوة واحدة في السنة، كي تكمل دورة حول الأرض؟ بل أكثر In saecula. وإن كان هذا الكون كلّه صحراء من الرمل، وكلّ قرن تنزع منه حبّة من الرمل، أترى ينتهي عذابنا عندما يصبح الكون كلّه فارغا من الرمل؟ ولا حتى ذلك In saecula. لنتصوّر أن هالكا بعد ملايين من القرون يذرف دمعتين وحيدتين، هل سينتهي عذابه عندما يتكوّن من دمعه طوفان أعظم من ذلك الذي ذهب ضحيّته في العهود الغابرة الجنس البشري؟ هلّم، اذن، لنكفّ عن ذلك، لسنا أطفالا! إن أردتم ان أقول لكم ذلك: in saecula, in saecula سيتعذّب الهالكون، in saecula، كمن يقول قرونا لا تحصى، دون نهاية، دون حساب».

صار الآن وجه الأب كسبار مماثلا لوجه الراهب الكرملي الذي كان في لاغريف. كان يرفع عينيه إلى السّماء كأنه يبحث فيها عن أمل وحيد في الرحمة: «ولكن الربّ،» كان يقول بصوت تائب يستحقّ الشفقة: «ولكن الربّ ألا يتألّم عند رؤية عذابنا؟ ألن يحدث يوما ان تتحرّك فيه الرأفة، ألن يحدث في النهاية أن يتجلّى لنا، حتى نتعزّى على

الأقلّ ببكائه؟ واحسرتاه، ويا لكم من ساذجين! صحيح للأسف ان الربّ سيتجلّى، ولكنكم لا تتصوّرون بعد كيف! عندما سنرفع ابصارنا سنرى أنه (أيجب ان أقول ذلك؟) سنرى انه صار بالنسبة الينا نيرون، لا ظلما منه بل صرامة منه، لا فقط لن يريد أن يواسينا، أو أن يسعفنا، أو أن يشفق علينا، ولكنه بمتعة لا يمكن تصوّرها سيضحك! تصوّروا إذن الحالة النفسية التي سنكون عليها! نحن نحترق، سنقول، والربّ يضحك؟ نحن نحترق، والرب يضحك؟ آه يا للربّ القاسي! لماذا لا تقذفنا بصواعقك، عوض ان تهيننا بضحكك؟ ضاعف إذن، أيها القاسي، من نيرانك، ولكن لا تستمتع بذلك! آه من هذه الضحكة التي هي أمرّ من بكائنا! آه من هذه البهجة التي هي أشدّ ألما من محننا! لماذا لا يملك جحيمنا مغارات نفرّ فيها من وجه ربّ ضاحك؟ لقد خدعنا كثيرا من قال لنا ان عقابنا سيكون رؤية ربّ غاضب. بل رؤية رب ضاحك، كان ينبغي ان يقولوا لنا، رب ضاحك... ولكي لا نرى ولا نسمع تلك الضحكة سنبتغي ان تهوي الجبال على رؤوسنا، وأن تبتلعنا الأرض. ولكن لا، لأننا للأسف سنرى ما يعذّبنا، وسنكون عمياً وصمّاً لكلّ شيء ما عدا ذلك الذي نودّ ان نكون له صمّاً عمياً»!

كان روبارتو يشتمّ زنخ علف الدجاج من وراء شقوق الألواح، وكانت تصل إلى مسمعيه من الخارج صيحات الطيور البحرية، التي كانت تبدو له ضحكة الربّ.

«ولكن لماذا الجحيم لي أنا،» كان يسأل، «ولماذا للجميع؟ ألم يخلّصنا المسيح لكي يبقى الجحيم نهاية أقليّة من البشر فقط؟»

عندئذ ضحك الأب كسبار، مثل ربّ الهالكين: «ولكن متى خلّصكم؟ فوق أي كوكب، في أي كون من الأكوان تظن أنك تعيش الآن؟»

وأخذ روبارتو من يده، رافعا اياه بعنف من مرقده، وساقه معه بين

منعرجات دافني، بينما كان المريض يحسّ بقرض في أمعائه وكان يبدو له ان في رأسه ساعات حبلية عديدة تدقّ. الساعات، كان يفكّر، الزمن، الموت...

وجرّه كسبار إلى خلوة لم يسبق له ان اكتشفها، ذات جوانب مبيضّة حيث كان يوجد تابوت مغلق، فيه عين مستديرة على احد جوانبه. أمام العين، فوق مسطرة مخددة، أدخلت مسطرة صغيرة من الخشب حفرت فيها عيون من نفس الحجم تحيط بدوائر زجاجية تبدو معتمة. وبزلق المسطرة الصغيرة يمكن مقابلة عيونها بعين الصندوق. وكان روبارتو يتذكّر أنه رأى في بروفانس مثالا مصغّرا من تلك الآلة التي، حسب ما يقال، كانت قادرة على إحياء النور بفضل الظلّ.

وفتح كسبار جانبا من الصندوق، فظهر، فوق منصب ذي ثلاث قوائم، مصباح كبير، كانت له في الجانب المقابل للصنبور، عوضا عن المقبض، مرآة مستديرة ذات انحناءة خاصّة. عند اشعال الفتيلة، كانت المرآة تعكس الأشعة الضوئية داخل أنبوب، كان عبارة عن منظار قصير عدسته النهائية هي العين الخارجية. من هنالك (ما أن أغلق الأب كسبار العلبة)، كانت الأشعة تمرّ عبر زجاج المسطرة الصغيرة، متّسعة في شكل مخروط ومظهرة على الجدار صورا ملوّنة، بدت لروبارتو كأنها تتحرّك لما كانت عليه من اللمعان والدقّة.

كانت الصورة الأولى تمثّل رجلا، له وجه وحش، كان مشدودا بالسلاسل إلى صخرة وسط البحر، تصفعه الأمواج. ومنذ تلك الرؤية لم يقدر روبارتو على ان يبعد عنها نظره، وخلطها مع الرؤى التي توالت (بينما كان كسبار يمرّرها الواحدة تلو الأخرى بزلق المسطرة)، ثم ركّبها ـ حلم داخل حلم ـ دون تمييز بين ما كان يقال له وبين ما كان يشاهد.

إلى تلك الصخرة اقتربت سفينة تعرّف فيها على تويد دافني؛ ونزل منها فيرّانتي، الذي أطلق الآن سراح السجين. كان كلّ شيء واضحا.

أثناء سفرته عبر البحر، التقى فيرّانتي ـ كما تؤكد لنا الأسطورة ـ بيهوذا المنفي في عرض المحيط، تكفيرا عن ذنبه.

«شكرا،» قال يهوذا لفيرّانتي ـ ولكن بالنسبة لروبارتو كان الصوت آتيا دون شك من شفتي كسبار. «منذ أن سجنت هنا، في الساعة التاسعة من هذا اليوم، وأنا آمل في إمكانية اصلاح خطيئتي... أشكرك، ايها الأخ..».

«أنت هنا منذ يوم، أو أقلّ من يوم؟» سأله فيرّانتي. «ولكن ذنبك ارتكبته في السنة الثالثة والثلاثين من عمر سيّدنا المسيح، وإذن منذ ألف وستمائة وعشر سنين..».

«آه، ايها الرجل الساذج،» أجابه يهوذا، «إنها بكلّ تأكيد الف وستمائة وعشر من سنواتكم انتم منذ ان سجنت فوق هذه الصخرة، ولكنها لا تعادل ولن تعادل أبدا يوما من سنواتي. أنت لا تعرف أنك، بدخولك في البحر الذي يحيط بجزيرتي، قد دخلت في عالم آخر يعيش بجانب وداخل عالمكم، وهنا تدور الشمس حول الأرض مثل سلحفاة عند كلّ خطوة تقطعها يزيد بطؤها. وهكذا في عالمي هذا كان يومي في البداية يدوم يومين من ايامكم، ثم ثلاثة، وهكذا أكثر فأكثر، إلى الآن، حيث بعد الف وستمائة وعشرة اعوام من اعوامكم أنا أجد نفسي دائما ولا أزال في الساعة التاسعة. وبعد قليل سيصير الزمن اكثر بطئاً، ثم أكثر فأكثر، وسأبقى أنا دائما في الساعة التاسعة من السنة الثالثة والثلاثين منذ ليلة بيت المقدس..».

«ولكن لماذا؟» سأله فيرّانتي.

«ولكن لأن الربّ أراد ان يكون عقابي هو أن أعيش دائما في يوم الجمعة المقدس، وأن أذكر دائما وكلّ يوم آلام الإنسان الذي خنته. في اليوم الأول من عقابي، بينما بالنسبة لبقية الإنسانية كان يقترب الغروب، ثم الليل، ثم فجر السبت، بالنسبة لي انقضت ذرّة من ذرّة من دقيقة منذ

تاسعة تلك الجمعة. ولكن بسبب التباطؤ الفوري والمتواصل لمسار الشمس، عندكم أنتم بعث المسيح، بينما أنا لا زلت على بعد خطوة من تلك الساعة. والآن، وقد مرّت بالنسبة اليكم قرون وقرون، أعيش أنا دائما على بعد لمحة من الزمن من تلك اللحظة..».

ـ «ولكن شمسك تتحرّك على كلّ حال، وسيأتي يوم، حتى وان كان بعد عشرة آلاف من السنين أو أكثر، تدخل فيه انت أيضاً في سبتك».

ـ «نعم، وسيكون ذلك أتعس. سأخرج من مطهري لأدخل جحيمي. لن ينتهي عذاب ذلك الموت الذي تسبّبت فيه، ولكنني لن أفقد الإمكانية، التي بقيت لي، لأمنع ما حدث من أن يحدث».

ـ «ولكن كيف؟»

ـ «أنت لا تعرف انه غير بعيد من هنا يمرّ خط الهاجرة المعاكسة. وراء ذلك الخط، سواء في عالمك أو في عالمي، يوجد اليوم المنصرم. لو أمكنني أن أتحرّر الآن، وأن أتجاوز ذلك الخط، لوجدت نفسي في خميسي المقدس، بما ان هذه الكتفيّة التي تراها فوقي هي الرّباط الذي يجبر شمسي على أن تتبعني مثل ظلّي، وحيث أذهب يدوم كلّ زمن مثل زمني. يمكنني عندئذ ان اصل إلى بيت المقدس مسافرا في خميس طويل جداً، وأن أصل قبل ان تتمّ خيانتي. وسأنقذ معلّمي من مصيره».

فعارضه فيرّانتي قائلا: «ولكن، لو منعت آلام المسيح لما كان هناك خلاص، وسيبقى العالم إلى الآن ضحية الخطيئة الأصلية».

فصاح يهوذا باكيا: «آه، وأنا الذي أفكّر فقط في نفسي! وإذن ماذا يجب أن أفعل؟ لو تركت ما فعلته كما فعلته، لبقيت هالكا. لو أصلحت غلطتي، لعارضت رسم الإله، وسيعاقبني على ذلك وأكون من الهالكين. أكان مقدّرا إذن منذ البداية أن أكون ملعونا؟»

وانطفأ تتابع الصور على بكاء يهوذا، بنفاد زيت الفتيلة. الآن عاد

الأب كسبار يتكلّم من جديد، بصوت بدا لروبارتو انه لم يعد صوته هو. والقليل من النور صار ينفذ الآن من شقّ في أحد جوانب الخلوة ويضيء نصف وجهه فحسب، مشوّها خط الأنف ومشكّكا في لون اللحية، التي كانت ناصعة من جهة وقاتمة من الجهة الأخرى. وصارت العينان حفرتين، لأنه حتى العين المعرضة للنور كانت تبدو معتمة. وتفطّن روبارتو عندئذ فقط انها كانت مغطاة بعصابة سوداء.

«وكان عند ذلك الحدّ،» كان يقول الشخص الذي كان الآن بكلّ تأكيد رئيس دير مورفي، «كان عند تلك اللحظة ان ابتكر أخوك فكرته العظيمة. لو استطاع هو ان يقوم بالرحلة التي كان يريد يهوذا القيام بها، لأمكنه ان يمنع ان تتمّ آلام المسيح وأن نحظى نحن بالخلاص. دون خلاص، تبقى البشرية جمعاء ضحية الخطيئة الأولى، جميعها مؤهلة للجحيم، أخوك مذنب، ولكن مثل باقي البشر، وبالتالي معذور».

«ولكن كيف سيمكنه ذلك، كيف أمكنه ذلك، كيف تجرّأ على ذلك؟» سأله روبارتو.

فأجابه رئيس الدير مبتسماً ببهجة مريعة: «آه، كان يكفيه شيء قليل. كان يكفي ان يخدع الربّ أيضاً، الذي لا يقدر ان يتصوّر جميع الأقنعة التي تواري الحقيقة. كان يكفيه أن يقتل يهوذا، كما فعلت على الفور فوق تلك الصخرة، ثم لبست كتفيّته، بينما تقدّمتني سفينتي إلى الجهة المقابلة من هذه الجزيرة، وأن أصل إلى هنا متنكّرا لأمنع أن تتعلّم القواعد الصحيحة للسباحة وأن تسبقني إلى الجزيرة، مجبرا اياك ان تصنع معي الجرس المائي لتمكيني من بلوغ الجزيرة». وبينما كان يتكلّم، ولكي يظهر الكتفيّة، كان يخلع ببطء سترته كاشفا عن زيّ قرصاني، ثم دائما ببطء نزع عنه اللحية، وخلع شعره المستعار وبدا لروبارتو أنه يرى نفسه في مرآة.

عندئذ صاح روبارتو: «فيرّانتي!»

ـ «بعينه، يا أخي. أنا هو، وبينما كنت أنت تنهك نفسك مثل الكلب أو مثل الضفدع، على الضفّة الأخرى من الجزيرة لاقيتُ سفينتي وأبحرتُ في خميسي المقدّس الطويل جدا نحو بيت المقدس، ووجدت يهوذا وهو على وشك ان يخون فشنقته إلى تينة، وهكذا منعته من ان يسلّم ابن الإنسان إلى ابناء الظلمات، ودخلت إلى جبل الزيتون مع رجالي واختطفت سيّدنا، منقذا اياه من الصليب! والآن أنت، وأنا، والجميع نعيش في عالم لم يعرف ابدا الخلاص!»

ـ «ولكن المسيح، المسيح، أين هو الآن؟»

ـ «ولكن الا تعرف إذن ان النصوص القديمة تقول ان هناك حماما في حمرة النار لأن المسيح، قبل ان يصلب، لبس قميصا قرمزيّا؟ ألم تفهم إلى الآن؟ منذ الف وستمائة وعشرة اعوام والمسيح سجين في تلك الجزيرة، ويحاول أن يهرب منها في شكل حمامة برتقالية اللون، ولكنه لا يقدر على ان يترك ذلك المكان، حيث تركت بالقرب من المرصد المالطي كتفيّة يهوذا، وحيث الآن هو دائما وفقط نفس اليوم. الآن لم يبق لي الاّ أن أقتلك أنت، وأعيش بعد ذلك حرّا في عالم لا يوجد فيه شعور بالذنب، الجحيم مؤكد للجميع، وهنالك يوما ما سأكون أنا إبليس الجديد!» واستلّ خنجرا كبيرا، مقتربا من روبارتو، ليتمّم آخر جرائمه.

فصاح روبارتو: «كلاّ، لن أسمح لك بذلك! سأقتلك، وأخلّص المسيح. فلا زلت اتقن فنون المبارزة، بينما أنت لم يعلّمك أبي ضرباته السريّة!»

«كان لي أب واحد وأمّ واحدة، مخيّلتك المريضة،» أجاب فيرّانتي بابتسامة حزينة. «أنت لم تعلّمني الاّ الحقد. أتظنّ انها هديّة عظيمة، أن تهبني الحياة فقط لأن في بلد رواياتك يجب ان أمثّل المشبوه فيه؟ طالما أنت حيّ، وتفكّر فيّ بالطريقة التي أنا نفسي يجب أن أفكّر بها في

شخصي، فلن أكفّ أبدا عن احتقار ذاتي. إذن، أن تقتلني أنت أو أن أقتلك أنا، فالنهاية هي نفسها. هلمّ بنا».

«سامحني، يا أخي»، صاح روبارتو وهو يبكي. «نعم، هلمّ بنا، من العدل أن يموت واحد منا»!

ماذا كان يريد روبارتو؟ أن يموت، أن يحرّر فيرّانتي بأن يجعله يموت؟ أن يمنع فيرّانتي من أن يمنع الخلاص؟ لن نعرف ذلك أبدا، لأنه حتى هو كان لا يعرف ذلك. ولكن هكذا هي الأحلام.

صعدا إلى سطح السفينة، وبحث روبارتو عن سيفه إلى أن عثر عليه (كما نتذكّر) ولم يبق منه الاّ شطره؛ ولكنه كان يهتف ان الربّ سيكون في عونه، وان سيّافا بارعا بإمكانه ان يبارز حتى بسيف مشطور.

ووقف الأخوان لأول مرّة وجها لوجه، ليبدآ مواجهتهما الأخيرة.

وأرادت السماء ان ترافق ذلك القتال بين الأخوين. سحابة حمراويّة مدّت فجأة بين السفينة والسماء ظلاّ محمرّاً، كما لو أنهم ذبحوا هنالك خيول الشمس. وانفجر حفل عظيم من بوارق ورعود، تبعه تهاطل عنيف للمطر، والسماء والبحر كانا يصمّان سمعي المبارزين، ويبهران أنظارهما، ويصفعان ايديهما بماء مثلج.

ولكن الاثنين كانا يتتابعان بين سهام الصواعق التي كانت تتهاطل حولهم، يهاجم أحدهما الآخر بالضربات والطعنات، متراجعين طورا، وطورا متشبّثين في أحد الحبال كأنهما يطيران لتفادي طعنة سيف، يتقاذفان اللعنات، ويصاحبان كل هجوم بصيحة، مع ولولة الرياح التي تصفّر من حولهما.

فوق ذلك السطح الزلق كان روبارتو يقاتل لكي يصلب المسيح، ويستنجد بالمعونة الإلهية؛ وفيرّانتي لكي يمنع ان يعذّب المسيح، مناديا اسماء كل الشياطين.

وكان عندما نادى الدخيل (الذي صار أيضاً دخيلا في رسم الإله) عشتروت لمعاضدته أن عرّض نفسه دون ان يريد إلى ضربة النورس. أو ربما كان يريد ذلك، ليضع حدّا لذلك الحلم المشوّش.

تظاهر روبارتو بالسقوط، فارتمى عليه الآخر يريد إعطاءه الضربة القاضية، عندئذ اعتمد هو على يسراه ووجّه السيف المنشطر إلى صدر غريمه. لم ينهض بخفّة سان سافان، ولكن فيرّانتي كان قد دفع نفسه بقوة، ولم يستطع ان يتفادى السيف الموجّه نحوه، بل رشق صدره بنفسه فوق قرمة السيف. واختنق روبارتو بدم عدوّه الذي تدفّق غزيرا من فمه.

كان يشعر بمذاق الدم في فمه، وربما في هذيانه كان قد عضّ لسانه. وها هو الآن يسبح في ذلك الدم، الذي كان يمتدّ من السفينة إلى الجزيرة؛ لم يكن يريد ان يتقدّم أكثر خوفا من سمك الحجر، ولكنه أنهى فقط المرحلة الأولى من مهمّته، كان المسيح ينتظر فوق الجزيرة ليسيل دمه، وكان هو قد بقي مخلّصه الوحيد.

ماذا كان يفعل الآن في حلمه؟ بسيف فيرّانتي أخذ يمزّق أحد الأشرعة إلى شرائط طويلة، كان يربطها إلى بعضها البعض مستعينا بالحبال؛ وبحبال أخرى أمسك تحت سطح السفينة بأقوى الطيور من بين طيور البلشون واللقلق، وربطها من سيقانها مثل خيول لحمل بساطه الطائر.

وارتفع بسفينته الجوية طائرا نحو الأرض التي صارت الآن في متناوله. تحت المرصد المالطي وجد الكتفيّة، وأتلفها. وعندما حرّر الزمان، رأى الحمامة تنزل فوقه، وتمكن أخيرا من رؤيتها مسحورا وهي في تمام روعتها. وكان طبيعيا - بل، وفوق طبيعيا - أن تبدو له الآن لا برتقالية بل ناصعة البياض. لا يمكن ان تكون حمامة، لأنه لا يجدر بذلك الطائر ان يمثّل الشخص الثاني، ربما كان بجعا ورعا، كما ينبغي

ان يكون الإبن. وهكذا صار لا يعرف في نهاية الأمر أي طائر جعل من نفسه شراعا مربّعا لسفينته المجنّحة.

كان يعرف فقط أنه كان يطير إلى فوق، وكانت الصور تتلاحق مثل الخيالات المجنونة. كانوا الآن يطيرون نحو العوالم المتعدّدة اللامتناهية، في كلّ كوكب، في كلّ نجمة، حتى يتمّ على كلّ واحد منها، وفي نفس الوقت تقريبا، الخلاص.

وكان الكوكب الأول الذي بلغوه هو القمر الناصع، في ليلة يضيئها منتصف النهار على الأرض. وكانت الأرض هنالك، على خط الأفق، مثل عصيدة من دقيق الذّرة عظيمة متوعّدة ولامتناهية، عصيدة لا تزال تطهى في السماء وتكاد تسقط فوقه وهي تقرقر في حميم حمّاها الحامية المحمومة محمّة بحمّى في فقّاعات تغلي في غليانها، مغليّة غليانا فائرا، تبقبق بقبقة بق بق بق. ذلك انك عندما تكون مصابا بالحمّى، تصبح انت «بولنتا»، والأضواء التي تراها تأتي كلّها من الغليان الذي في رأسك.

وهنالك، فوق القمر صحبة الحمامة...

لم يكن مرادنا، كما نعترف، أن نبحث عن الترابط المنطقي والاحتمال في جميع ما نقلنا إلى الآن، لأنه لا يعدو ان يكون حلما مزعجا لمريض سمّمه سمك الحجر. ولكن ما أتهيّأ الآن لروايته يفوق كل ما كنّا ننتظره. كان فكر روبارتو أو قلبه، أو على كل حال ما له من قوة خيال، كانت تعدّ لمسخ مدنّس: فوق القمر كان يرى الآن نفسه لا مع سيّده، بل مع سيّدته، ليليا التي افتكّها أخيرا من فيرّانتي. كان روبارتو يحظى بالقرب من البحيرات القمرية بما كان أخوه قد سلبه بين مستنقعات جزيرة العيون. كان يقبّل وجهها بعينيه، ويتأمّلها بفمه، كان يمتصّ، ويعضّ ويعضّ ثانية، وكان لساناهما العاشقان يمزحان في رقصة دائرية.

عند ذلك الحدّ فقط، ربما لأن الحمّى كانت تخفّ، عاد روبارتو

إلى نفسه، بينما بقيت نفسه متعلّقة بما عاشه، مثلما يحدث بعد حلم يترك لا فقط روحنا بل وأيضاً جسدنا مهتاجين.

كان لا يدري أيبكي من الحبور للحبّ المستعاد، أو من الندم لأنه قلب ـ بتواطؤ من الحمّى التي لا تعرف قواعد الأجناس ـ ملحمته المقدّسة إلى مهزلة فاسقة.

في تلك اللحظة، كان يقول في نفسه، ستؤديني حقّا إلى الجحيم، لأنني دون شكّ لست أفضل لا من يهوذا ولا من فيرّانتي ـ بل لست شيئا غير فيرّانتي، ولم أفعل شيئا إلى الآن سوى استغلال السوء الذي في نفسه لأحلم بأنني فعلت ذلك الذي منعني دائما جبني من أن أفعله.

ربما لن أطالب يوما بالتكفير عن ذنبي، لأنني لم أذنب أنا، بل سمك الحجر هو الذي كان يجعلني أحلم على طريقته. ولكن، لو أنّ الأمر بلغ بي إلى حدّ هذا الجنون، فذلك دون شك علامة على أنني على وشك أن أموت. وانتظرت سمك الحجر لأفكّر أخيرا في الموت، بينما ينبغي ان يكون الواجب الأول للمسيحي الطيب.

لماذا لم أفكّر أبدا في الموت، وفي غضب ربّ ضاحك؟ لأنني كنت أتبع تعاليم أساتذتي الفلاسفة، الذين يعتبرون الموت ضرورة طبيعية، ويعتبرون الربّ هو الذي أدخل في فوضى الذرّات القوانين التي تركّبها في الانسجام الكوني. وهل يمكن لربّ مثله، ماهر في الهندسة، ان يخلق فوضى الجحيم، حتى وإن كان جزاء، وأن يضحك من هدم ذلك الهدم؟

كلاّ، الربّ لا يضحك، كان روبارتو يقول لنفسه. إنه يخضع للقانون الذي أراده هو نفسه، والذي يريد ان ينحلّ نظام جسمنا، كما ينحلّ الآن دون شك جسمي في هذا الانحلال. وكان يرى الديدان قريبة من فمه، ولكنها لم تكن من صنع هذيانه، بل كانت كائنات تولّدت ذاتيا من عفونة الدجاج، سلالة رفيعة من برازها.

وكان يرحّب آنذاك بنذيري التحلّل وقد فهم ان ذلك الذوبان في المادة اللزجة يجب ان يعيشه مثل نهاية لكلّ ألم، في انسجام مع إرادة الطبيعة والسماء التي تديرها.

لن يكون انتظاري طويلا، كان يهمس لنفسه كأنه يصلّي. في ظرف ايام قليلة فإن جسمي، الذي لا يزال الآن سليم التكوين، بعد ان يتغيّر لونه سيصير شاحبا مثل حمصة، ثمّ سيسودّ من طرف رأسي إلى أخمص قدمي وستغطّيه حرارة قاتمة. ثم سيبدأ في التورّم، وفوق ذلك الانتفاخ ستنشأ عفونة نتنة. ولن يمضي وقت طويل قبل ان يبدأ البطن في الانفجار هنا وفي التمزّق هنالك - وسيخرج من كل ذلك عفن، وسنرى هنا نصف عين ديدانية تتموّج وهنالك جزءا من شفة. في ذلك الطين ستتولّد بعد ذلك مجموعة من الذبابات الصغيرة ومن دويبات أخرى ستتجمّع في دمي وتلتهمني قطعة بعد قطعة. وجزء من تلك الكائنات سيبرز من الصدر، وأخرى مع شيء يشبه المخاط ستسيل من الأنف؛ وأخرى، سجينة تلك العفونة، ستدخل وتخرج من الفم، والأكثر شبعا منها ستقرقر داخل الحلق... وهذا بينما ستصير دافني شيئا فشيئا مملكة الطيور، وجراثيم آتية من الجزيرة ستولّد فيها دويبات نباتية، ستغذي أخلاط جثماني عروقها المتشبثّة بقاع السفينة. وأخيرا، عندما يتحوّل كامل مصنعي الجسماني إلى هيكل عظمي صاف، أثناء الشهور والسنوات - وربما الآلاف من السنوات - حتى ذلك البناء سيصير شيئا فشيئا غبارا من الذرّات ستطأه أقدام الأحياء دون ان يفهموا ان الكرة الأرضية كلّها، وبحارها، وصحاريها، وغاباتها وأوديتها، ليست الاّ مقبرة حيّة.

ليس هناك شيء أفضل لتيسير الشفاء من تمرين على موت طيب، يخلق من استسلامنا هدوء الخاطر. هكذا قال له يوما الكرملي، وهكذا يجب أن يكون، لأن روبارتو أحسّ بالجوع والعطش. كان أضعف ممّا كان عليه وهو يحلم بمبارزته فوق السطح، ولكن أقلّ ضعفا ممّا كان

عندما استلقى بجانب الدجاج، ووجد القوة ليشرب بيضة. كان السائل النازل في حلقه لذيذا. وألذّ منه كان عصير الجوزة التي فتحها في المخزن. بعد كلّ ذلك التأمّل في جسمه الميّت، كان الآن يميت في جسمه، ليشفيه، الأجسام السليمة التي كانت الطبيعة تعطيها الحياة كل يوم.

لذلك، ما عدا بعض النصائح التي كان يسديها اليه الكرملي، في لاغريف لم يعلّمه أحد ان يفكّر في الموت. في أوقات المحادثات العائلية، دائما تقريبا عند الغداء وعند العشاء (بعد ان يكون روبارتو قد عاد من استكشافاته في البيت القديم، حيث كان يتباطأ أحيانا في احدى القاعات المظلّلة حيث تعبق رائحة التفاح المفروش على الأرض لينضج)، لا يأتي الحديث الاّ عن لذّة البطيخ الأصفر، عن حصاد القمح وعن الآمال في قطاف العنب.

كان روبارتو يتذكّر أمّه عندما كانت تعلّمه كيف يمكنه ان يعيش سعيدا ومرتاحا لو استغلّ جميع الخيرات التي كانت توفّرها له أراضي لاغريف: «ويكون من النافع ان لا تنسى ان تدّخر اللحم المملّح من بقر، ونعجة أوخروف، وعجل أو خنزير، لأنها تبقى صالحة طويلا وتستعمل كثيرا. قطِّع اللحم إلى شرائح غير كبيرة جداً، وضعها في إناء مع كثير من الملح، واتركها ثمانية أيام، ثم علّقها إلى عارضات المطبخ قرب المدفأة، لتجفّ في الدخان، وافعل هذا في طقس جافّ، بارد وجبلي، بعد عيد سان مرتينو، لأنها هكذا تصبر قدر ما تريد. ثم في سبتمبر تأتي الفراخ، والحملان كامل الشتاء، إضافة إلى الديك الخصي، وإلى الدجاجات المسنّة، والبطّ وغيرها. ولا تستصغر حتى الحمار الذي انكسرت قائمته، اذ تصنع منه نقانق مستديرة عندما تجرّحها بالسكين وتقلّيها، فهي لقمة أسياد. وفي فترة الصوم، لا تنس ان يكون لديك الفطر، والحساء، والجوز، والزبيب، والتفاح وكل الخيرات الأخرى التي يهبها الإله. ودائما في فترة الصوم جهّز ما يلزم من الجذور،

والأعشاب الطيبة التي، بعد لفّها بالدقيق وقليها في الزيت، هي ألذ من الشلق؛ ثم اصنع شيئا من الرافيولي أو من لوزيّات الصوم، بعجينة مصنوعة من الزيت والدقيق وماء الورد والزعفران والسكر، ومع قليل من الملفوازي، وتقطع إلى قطع مستديرة مثل زجاجيات النافذة، ثم تملأ بمسحوق الخبز، والتفاح، وكبش القرنفل والجوز المرحي، ثم ترشّ بقليل من الملح وتوضع في الفرن، وستأكل أفضل من رئيس دير. بعد عيد الفصح يأتي موسم الجديان، والهليون، وفرخ الحمام... بعد ذلك تأتي الريقوتة والجبن الطريّ. ولكن يجب ان تعرف كيف تستمدّ النفع من الجلبان أو من الفاصولياء المغلاّة والملفوفة في الدقيق والمقلية، والتي هي جميعها اطعمة ممتازة تثري المائدة...هذه، يا ابني، لو عشت كما عاش أسلافنا، ستكون حياة سعيدة لا يشوبها شقاء..».

هوذا، في لا غريف لم تكن تدور أحاديث تتناول الموت، والحساب، والجحيم أو الفردوس. الموت، رآه روبارتو في كزالي، وفي بروفانس وفي باريس تعلّم التفكير فيه، بين مقولات فاضلة وأخرى ماجنة.

سأموت بكلّ تأكيد، كان يقول لنفسه الآن، ان لم يكن الآن بسبب سمك الحجر، سيكون على الأقلّ بعد الآن، بما انه بات من الواضح انني لن أخرج ابدا من هذه السفينة، الآن وقد فقدت ـ بفقدان الشخص الزجاجي ـ حتى امكانية الاقتراب دون ضرر من الحاجز المرجاني. وماذا كنت أتصوّر؟ سأموت، ربما بعد مدّة، حتى ولو لم أصل إلى هذه السفينة الحطام. لقد دخلت الحياة وأنا عارف ان القانون هو أن أخرج منها. كما قال سان سافان، كلّ منّا يلعب دوره، هناك من يلعب دورا طويلا، وهناك من يلعب دورا قصيرا، ثم نخرج من الركح. رأيت الكثيرين يمرّون أمامي، وآخرون سيرونني أمرّ، وبدورهم سيعطون نفس المشهد إلى أخلافهم.

ومن جهة أخرى، كم مرّ من الزمن ولم أوجد، وكم سيمرّ بعد أن

أفنى! إنني أحتلّ فضاء ضئيلا جدا في هوّة السنوات. هذه المساحة الضئيلة لا تقدر على ان تميّزني عن اللاشيء الذي سأغيب فيه. لم أجيء إلى الدنيا الاّ لأكون عددا لا غير. ودوري كان من الضآلة حتى انني لو بقيت في خلفيّة المسرح، لقال المتفرّجون مع ذلك ان المهزلة كانت رائعة. كما في الزوبعة: هناك من يغرق على الفور، وآخر ينكسر على الصخور، وهناك من يبقى متشبثاً بلوحة عائمة، ولكن لمدّة غير طويلة. الحياة تنطفيء من تلقاء نفسها، مثل شمعة التهمت مادّتها. ويجب ان نعتاد على ذلك، لأننا مثل الشمعة بدأنا نفقد ذرّات منذ اللحظة الأولى التي اشتعلنا فيها.

معرفة هذه الأشياء ليست بالعلم الكبير، كان يقول روبارتو في نفسه، هذا صحيح. ينبغي ان نعرف ذلك منذ اللحظة التي نولد فيها. ولكننا في العادة نفكّر دائما وفقط في موت الآخرين. أي نعم، جميعنا يملك القوة الكافية لتحمّل محن الآخرين. ثم يأتي يوم نفكّر فيه في الموت عندما تصيبنا نحن المحن، وعندئذ نتفطّن إلى أنه لا الشمس ولا الموت يمكن التحديق فيهما. الاّ عندما يكون قد أعوزنا اساتذة قديرون.

أنا لم يعوزوني. وأحدهم قال لي أنه في الحقيقة لا يعرف الموت الاّ القليلون. في العادة نتحمّله غباء منّا أو اعتيادا منّا، لا عزما منّا. نموت لأنّه لا يمكننا ان نهرب من الموت. الفيلسوف فقط يعرف كيف يفكّر في الموت على انه واجب، يجب ان نقوم به عن طيب خاطر، ودون خوف: ما دمنا موجودين، فالموت غير موجود بعد، وعندما يأتي الموت، نحن نكون قد ذهبنا. وإلاّ لماذا قضّيت أوقاتا طويلة وأنا أتناقش في الفلسفة إن لم أكن قادرا على أن أجعل من موتي أعظم عمل في حياتي؟

بدأ يستعيد قواه. وشكر أمّه، التي دفعه ذكراها إلى ترك فكرة النهاية. وهل يمكن ان تفعل غير ذلك، هي التي وهبته البداية.

وأخذ يفكّر في ولادته، التي كان يعرف عنها أقلّ ممّا يعرف عن موته. وقال لنفسه ان التفكير في المصدر هو شأن الفيلسوف. من اليسير للفيلسوف أن يبرّر الموت: أن يغيب المرء في الظلمات فذلك هو من الأشياء الأكثر وضوحا في العالم. ما يقضّ الفيلسوف ليست طبيعيّة النهاية، بل سرّ البداية. بإمكاننا أن لا نهتمّ بالسرمديّة التي ستأتي بعدنا، ولكننا لا نستطيع ان نهرب من السؤال المقلق عن السرمديّة التي سبقتنا: سرمديّة المادّة أم سرمديّة الربّ؟

لهذا السبب رمت به المقادير على دافني، كان روبارتو يقول في نفسه. في تلك العزلة المريحة فقط كان بإمكانه ان يفكّر في السؤال الوحيد الذي يحرّرنا من كلّ خشية من عدم الوجود، مسلّما ايانا إلى انشداه الوجود.

37

تمارين في شكل مفارقات حول طريقة تفكير الحجارة

ولكن كم انقضى من الوقت وهو مريض؟ أيام، أسابيع؟ أم أنه في أثناء ذلك انقضّت عاصفة على السفينة؟ أو أنه، قبل ان يلتقي بسمك الحجر، كان مشتغلا بالبحر أو بروايته ولم يتفطّن إلى ما كان يقع حوله؟ منذ متى فقد إلى ذلك الحدّ كنه الأشياء؟

لقد صارت دافني سفينة أخرى. كان السطح متّسخا والماء يسيل من البراميل التي بدأت تتلف؛ وبعض الأشرعة انفكّت وتحوّلت إلى مزق تتدلّى من الصواري مثل أقنعة تلمح أو تسخر من خلال ثقوبها.

وكانت الطيور تنوح وهرع روبارتو لفوره ليعنى بها. بعضها كان قد مات. من حسن الحظ ان النباتات، التي كانت تغذّيها الأمطار والهواء، نمت وبعضها تسرّب إلى الأقفاص، موفّرا الغذاء إلى أكثريتها، بينما لبعضها الآخر توفّرت الحشرات. بل والحيوانات التي بقيت على قيد الحياة خلّفت، والقليل الذي مات عوّض بكثير من الأحياء.

الجزيرة بقيت على حالها؛ ما عدا انها بالنسبة إلى روبارتو، الذي فقد الكمامة، قد بعدت أكثر وقد حملها التيّار. والحاجز المرجاني،

الذي صار يعرف انه محميّ بسمك الحجر، قد أصبح اجتيازه مستحيلا. كان بإمكان روبارتو أن يواصل السباحة، ولكن فقط حبّا في السباحة، ومع اجتناب الاقتراب من الصخور.

«آه منك ايتها الآلات الإنسانية، كم أنت وهميّة،» كان يهمس روبارتو. «إن كان الإنسان ليس الاّ ظلاّ، فأنت دخان. إن هو ليس الاّ حلما، فأنت شبح. إن هو ليس الا صفرا، فأنت نقاط. إن هو ليس الاّ نقطة، فأنت أصفار».

كلّ هذه الأحداث، كان يقول روبارتو لنفسه، لأكتشف أنني صفر. بل وأكثر صفرا ممّا كنت عليه عند وصولي إلى هذا الحطام. لقد خضّني الغرق وجعلني أكافح من أجل الحياة، الآن لم يبق لي شيء أكافح من أجله وأكافح ضدّه. لقد حكم عليّ براحة طويلة. إنني هنا أتأمّل لا فراغ الفضاءات، بل فراغي: ولن ينشأ منه الاّ السأم، والكآبة والقنوط.

بعد وقت قليل لا أنا فحسب، بل ودافني نفسها لن نكون من الموجودين. أنا وهي سنتحوّل إلى شيء أحفوري مثل هذا المرجان.

لأن الجمجمة المرجانية كانت لا تزال هناك فوق سطح السفينة، لم يمسّها التلف الشامل وإذن، بما انها منيعة من الموت، فهي الشيء الحيّ الوحيد.

والصورة الفريدة أعطت قوّة لأفكار ذلك الغريق الذي تعوّد ان يكتشف أراضي اخرى فقط من خلال منظار الكلمات. إن كان المرجان شيئا حيّا، قال لنفسه، فهو الكائن الوحيد المفكّر حقّا في فوضى الأفكار الأخرى. لا يمكن الا ان يفكّر في تعقّده المنظّم، الذي يعرف عنه مع ذلك كلّ شيء، ودون انتظار تغيّرات مفاجئة على هندسته.

هل الأشياء تعيش وتفكّر؟ كان القسّ قد قال له يوما إنه، لتبرير الوجود وتطوّره، يجب ان يكون في كلّ شيء زهور المادّة، ? spor، بذور. والجزيئيات هي تنظيمات من الذرّات محدّدة في شكل محدّد،

وإن كان الرب قد ضبط قوانين لفوضى الذرّات، فمكوّناتها لا يمكن ان تولّد الاّ مكوّنات مماثلة. هل من الممكن ان تكون الأحجار التي نعرفها هي نفسها التي بقيت بعد الطوفان، وانها لم تصبح شيئا آخر، ومنها لم تتولّد أخرى؟

إن كان الكون ليس الاّ مجموعة من الذرات البسيطة تتصادم لتولّد مركّباتها، فلا يمكن ـ بعد ان تكون تركّبت في المركّبات ـ أن تكفّ الذرات عن التحرّك. يجب أن تستمرّ في كلّ شيء حركته المتواصلة: دوّامة في الرياح، سائل ومنظّم في الأجسام الحيوانية، بطيء ولكن محتوم في تلك النباتية، ودون شكّ أكثر بطئاً، ولكنه موجود، في تلك المعدنية.

حتى ذلك المرجان، الذي فقد الحياة المرجانية، كان يحظى بحركة ذاتية تحتية، خاصّة بالحجر.

كان روبارتو يفكّر. لنفترض ان كلّ جسم متكوّن من ذرّات، حتى الأجسام التي هي فقط وبكلّ بساطة ممتدّة والتي يتحدّث عنها «المهندسون»، وان هذه الذرات لا يمكن ان تتجزّأ. من الأكيد ان كل مستقيم يمكن تجزئته إلى جزئين متساويين، مهما كان طوله. ولكن ان كان طوله لا يهمّ، هل من الممكن ان نقسم إلى اثنين مستقيما متكوّنا من عدد فردي من اللامتجزّئات. هذا يعني، إن لم نرد ان يكون الجزءان غير متساويين، أننا قسمنا إلى اثنين اللامجزّأ الأوسط. ولكن هذا الأخير، بما أنه بدوره ممتدّ، وإذن بدوره مستقيم، حتى وإن كان بقصر لا يدرك، يجب ان يكون بدوره قابلا للتجزئة إلى قسمين متساويين. وهكذا إلى ما لا نهاية له.

كان القسّ يقول إن الذرّة هي أيضاً متكونة من اجزاء، الاّ انها متماسكة بكثافة تجعلنا لا نقدر أبدا على تجزئتها أكثر ممّا تتحمّل. نحن. ولكن الآخرين؟

لا يوجد معدن صلب أكثر سماكة من الذهب، ومع ذلك لنأخذ أوقية من ذلك المعدن، ومن تلك الأوقية سيستمدّ منها طرّاق الذهب الف رقاقة، ونصف تلك الرقاقات سيكفي لتذهيب كامل مساحة نسيكة من الفضّة. ومن نفس الأوقية من الذهب أولئك الذين يصنعون خيوط الذهب والفضّة للتطريز يستطيعون بسلاّكاتهم ان يجعلوه في سمك شعرة وذلك الخيط الرقيق سيكون طويلا قدر ربع فرسخ وربما أكثر. وعند حدّ ما يتوقّف الحرفي لأنه لا يملك الآلات المناسبة، ولن يتمكّن بالعين من ان يرى الخيط الذي سيحصل عليه. ولكن هناك حشرات ـ صغيرة إلى حدّ اننا لا نراها، وتفوق في النشاط والمهارة أقدر الحرفيين من جنس بني آدم ـ بإمكانها ان تطيل أكثر ذلك الخيط إلى حدّ يجعله يمتدّ من تورينو إلى باريس. وإن كانت هناك حشرات لتلك الحشرات، فمن يدري إلى أي قدر من النحافة ستبلغ بذلك الخيط؟

لو أمكنني بعين «أرغو» أن ألج داخل مضلّعات هذا المرجان وداخل الخيوط التي تشعّ فيه، وداخل الخيط الذي يتكوّن منه الخيط، يمكنني أن أبحث عن الذرّة إلى ما لا نهاية له. ولكن ذرّة قابلة للتجزّؤ إلى ما لانهاية له، مولّدة أجزاء دائما أصغر ودائما قابلة للتجزّؤ، يمكنها ان تؤديني إلى حيث لا تكون المادّة الاّ تجزّؤا لامتناهيا، وصلابته جميعها وملؤه لا يقومان الاّ على هذا التوازن البسيط بين الفراغات. وعوض ان تنفر من الفراغ، فالمادّة إذن تعشقه وتتكوّن منه، وهي نفسها فراغ، فراغ مطلق. والفراغ المطلق يكون في قلب النقطة الهندسية اللامتصوّرة، وتلك النقطة ليست الا تلك الجزيرة الوهمية التي نحلم بها في محيط مصنوع دائما وفقط من مياه.

في افتراض امتداد للمادّة متكوّن من ذرّات، إذن، نصل إلى حيث تنعدم الذرّة. ماذا يبقى؟ تبقى دوّامات. الاّ ان الدوّامات لا تجذب اليها شموسا وكواكب، مادّة مليئة تعارض رياحها، لأن الشموس والكواكب أيضاً دوّامات، وتجذب في دورانها دوّامات أصغر. وإذن الدوّامة الكبرى

التي تحدث دوّامات المجرّات، تكون في نقطة مركزها دوّامات أخرى، وهذه بدورها هي دوّامات من دوّامات، دردورات متكوّنة من دردورات أخرى، وهاوية الهوّة الكبرى المتكوّنة من هوى المتكونة هي أيضاً من هوى ستهوي في اللامتناهي القائم على اللاشيء.

ونحن، سكّان مرجان الكون العظيم، نتصوّر مادّة مليئة الذرّة (التي لا نقدر على رؤيتها)، بينما هي أيضاً، مثل كل الباقي، تطريز من فراغات في الفراغ، ونسمّي كائنا، كثيفا وحتى سرمديا، ذلك الازدحام من فراغات، ذلك الامتداد اللامتناهي، الذي يتطابق مع اللاشيء المطلق، والذي يولّد من عدم وجوده نفسه وهميّة الكلّ.

وإذن أنا هنا أتوهّم وهما من وهم، أنا وهم من نفسي؟ ويجب ان افقد كلّ شيء، وأن أنتهي على هذا الحطام التائه في المتقاطرات، لأفهم أنه ليس هناك ما يمكن أن أفقده؟ ولكن عندما أفهم ذلك ألا أربح ربما كلّ شيء، لأنني أصبح النقطة المفكرة الوحيدة التي يتعرّف فيها الكون على وهميّته؟

ولكن، إن كنت أفكّر، الا يعني أن لي روحا؟ آه، يا للبلبلة. كلّ شيء متكوّن من لا شيء، ومع ذلك لفهمه يجب ان تكون هناك روح وهي، مهما كانت ضآلتها، فليست لا شيء.

ماذا أكون أنا؟ عندما أقول أنا بمعنى روبارتو دي لاغريف، فلأنني ذاكرة جميع اللحظات الماضية، مجموع كلّ ما أتذكّره. وعندما أقول أنا، بمعنى شيء يوجد هنا في هذه الآونة، وليس الصاري الكبير أو هذا المرجان، فأنا إذن مجموع ما أحسّ الآن. ولكن ما أحسّ الآن ماذا هو؟ إنه مجموع العلاقات بين تلك اللامتجزّئات المفترضة التي هي منظّمة في ذلك المركّب من العلاقات، في ذلك النظام الخصوصي الذي هو جسمي.

روحي إذن ليست، مثلما يريد أبيقور، مادّة متكوّنة من أجسام

أصغر من الأخرى، نفسا مختلطا بحرارة، ولكن الكيفية التي نحسّ بها بتلك العلاقات على انها كذلك.

يا له من تكاثف رقيق، ويا لها من لامحسوسية مكثّفة! لست أنا الاّ علاقة بين أجزائي التي يحسّ بعضها بالبعض الآخر بينما هي في علاقة بعضها مع الآخر. ولكن هذه الأجزاء بما انها بدورها قابلة للتجزئة في علاقات أخرى (وهكذا دواليك) إذن كل نظام من علاقات، له إحساس بذاته، بل هو إحساس ذاته، فهو إذن نواة مفكّرة. أنا شعور بذاتي، بدمي، بأعصابي؛ ولكن كل قطرة من دمي هي شعور بنفسها.

هل شعورها بنفسها مثل شعوري بنفسي؟ أكيد لا، في الطبيعة يشعر الإنسان بنفسه بشكل معقّد جداً، الحيوان بتعقيد أقل (يحسّ بالشاهية مثلا، ولكن ليس بالندم)، والنبتة تحسّ بنفسها تنمو، ودون شكّ تحسّ عندما يقطعونها، وربما تقول أنا، ولكن بمعنى أكثر غموضا بكثير ممّا أفعل أنا. كل شيء يفكّر، ولكن حسب مقدار تعقيده.

إن كان الأمر هكذا، إذن، حتى الحجارة تفكّر. حتى هذه الحجرة، التي هي في الحقيقة ليست حجرة، ولكنها كانت نباتا (أو حيوانا؟) كيف تفكّر؟ كحجرة. إن كان الربّ، الذي هو العلاقة الكبيرة من جميع علاقات الكون، يفكّر في نفسه مفكّرا، مثلما يريد الفيلسوف، هذه الحجرة تفكّر في نفسها محجّرة. الربّ يشعر بالوجود الكامل وبالعوالم اللانهائية التي يخلقها والتي يجعلها توجد من خلال شعوره، أنا أفكّر في حبي التعيس، في وحدتي فوق هذه السفينة، في والديْ اللذين فقدتهما، في ذنوبي وفي موتي القادم، وهذه الحجرة ربما تفكّر فقط أنا حجرة، أنا حجرة، أنا حجرة. بل ربما لا تعرف حتى كيف تقول أنا. تفكّر: حجرة، حجرة، حجرة.

إنه لشيء مملّ. أم أنني أنا الذي يحسّ بالملل، أنا الذي أقدر على التفكير أكثر، بينما هو (أو هي) راض تماما بكينونته الحجرية، سعيد

بقدر سعادة الربّ ـ لأن الربّ يسعد بكونه كلّ شيء وهذه الحجارة تسعد بكونها تكاد تكون لا شيء، ولكن بما انها لا تعرف طريقة أخرى تكون عليها، فهي راضية على حالها رضى أبديا...

ولكن هل هو فعلا صحيح ان الحجارة لا تحسّ شيئا آخر بخلاف حجريّتها؟ كان القسّ يقول لي ان الأحجار أيضاً أجسام وفي بعض الحالات تحترق وتصير شيئا آخر. وفعلا، تسقط حجرة في بركان، وبفعل الحرارة الشديدة لذلك السائل الناري، الذي كان القدامى يسمّونه صهارة، تذوب مع أحجار أخرى، وتصبح جرما واحدا مشتعلا، ثم تروح، وبعد وقت قصير (أو طويل) تجد نفسها جزءا من حجارة أكبر. هل يمكن، عندما ينتهي وجودها في حالة تلك الحجارة، وعند تنقّلها لتصبح حجارة أخرى، أن لا تحسّ استحماءها، ومع ذلك الاستحماء ان لا تشعر بقرب موتها؟

كانت الشمس تضرب بأشعتها سطح السفينة، ونسمة خفيفة كانت تليّن من حرارتها، وكان العرق يجفّ على جلد روبارتو. منذ وقت طويل وهو غارق في التأمّل مثل حجرة حجّرتها «المدوسة» الرقيقة التي سحرته بأنظارها، عزم على ان يحسّ ويفكّر مثلما تفكّر الأحجار، ربما ليتأهب لليوم الذي سيصير فيه كدساً من العظام الناصعة معرّضا إلى نفس هذه الشمس، إلى نفس هذه الريح.

خلع ثيابه وبقي عارياً، ثمّ استلقى مغمض العينين، واصبعاه في اذنيه، حتى لا يشوشه أي ضجيج، مثلما يحدث دون شك لحجرة، لا تملك أعضاء حسّية. وحاول ان يزيل من ذاكرته أدنى ذكرى، وأن ينسى أدنى متطلبات جسمه الإنساني. لو أمكنه، لأزاح جلده نفسه، ولأنه لا يقدر على ذلك فقد حاول قدر المستطاع ان يجعله فاقد الحسّ.

أنا حجرة، أنا حجرة، كان يقول لنفسه. ثمّ، ولكي يمتنع حتى عن التحدّث إلى نفسه: حجرة، حجرة، حجرة.

ماذا سأحسّ لو كنت حقيقة حجرة؟ قبل كلّ شيء سأحسّ بحركة الذرّات التي أتكوّن منها، أو بالأحرى التذبذب المستمرّ للوضعيات التي تتّخذها أجزاء أجزاء أجزاء نفسي بعضها إزاء البعض. سأشعر بأزيز تحجّري. ولكنني لن أستطيع أن أقول أنا، لأنني كي أقول أنا يجب ان يكون هناك آخرون، شيء آخر أقابل به نفسي. مبدئيا لا تقدر حجرة ان تعرف ان هناك شيئا آخر بخلاف نفسها. تطنّ، تحجّر نفسها متحجّرة، وتجهل الباقي. إنه عالم. عالم يعالم وحده.

ومع ذلك، لو لمست هذا المرجان، لأحسست ان سطحه احتفظ بحرارة الشمس على الجزء المعرّض، بينما الجزء الذي يرتكز على السطح هو أكثر برودة؛ ولو قسمته إلى جزئين لأحسست ان الحرارة تنقص تدريجيا من القمّة إلى القاعدة. الاّ أنه، في الجسم الساخن، تتحرّك الذرات بهيجان أكبر، وإذن هذا الحجر، إن أحسّ بنفسه حركة، فلا يمكن الاّ أن يحسّ بداخله فارقا في الحركة. لو بقي دائما معرضا إلى الشمس في نفس الوضعية، فلربما سيبدأ في التمييز في شيء ما مثل فوق وتحت، على الأقلّ كنوعين مختلفين من الحركة. وبما انه لايعرف ان سبب ذلك الاختلاف هو عنصر خارجي، فسيفكّر على ذلك النحو، كما لو ان تلك الحركة هي طبيعته. ولكن لو حدث انهيار وانحدر الحجر إلى الوادي متّخذا وضعية أخرى، فلربما سيحسّ ان أجزاء أخرى من أجزائه تتحرّك الآن، وهي التي كانت بطيئة، بينما الأولى، التي كانت سريعة، صارت الآن تتحرّك بخُطا بطيئة. واثناء انهيار الأرض (ويمكن ان يتمّ ذلك بطريقة بطيئة جداً) فربما سيحسّ ان الحرارة، أو بالأحرى الحركة التي تنتج عنها، تمرّ طورا بطور من جزء إلى جزء آخر منه.

وكان روبارتو، وهو يفكّر في كلّ ذلك، يعرّض ببطء أنحاء مختلفة من جسمه إلى أشعّة الشمس، متدحرجا على السطح، إلى ان يصل إلى منطقة في الظل، فيعتم قليلا، مثلما يحدث تماما للحجرة.

من يدري، كان يتساءل، أن الحجرة في هذه التحرّكات لا تتولّد فيها، إن لم نقل فكرة المكان، على الأقل فكرة الناحية: بكل تأكيد، على كل حال، فكرة التحوّل. ولكن لا الانفعال، لأنها لا تعرف نقيضها، الذي هو العمل. أو ربما العكس. لأنها كحجرة، متكوّنة على ذلك النحو، فهي تحسّ به دائما، بينما ان تكون تارة ساخنة وطورا باردة فهي تحسّ به بطريقة متناوبة. إذن بطريقة من الطرق فهي قادرة على تمييز نفسها كجوهر عن أعراضها. أم لا: لأنها لو أحسّت نفسها كعلاقة، فتشعر بنفسها كعلاقة بين أعراض مختلفة. ستحسّ بنفسها كجوهر في صيرورة. وماذا يعني ذلك؟ هل أحسّ بنفسي بطريقة مختلفة؟ من يدري إن كانت الحجارة تفكّر مثل أريسطو أو مثل القسّ. كلّ هذا على كلّ حال يمكن ان يتطلّب منها آلاف السنين، ولكن المسألة ليست هذه: هي إن كانت الحجارة قادرة على ان تكتنز التصوّرات المتعاقبة التي تتصّور بها نفسها. لأنها إن أحسّت بنفسها تارة ساخنة في أعلاها وباردة في أسفلها، ثم العكس بالعكس، ولكنها في الطور الثاني لا تتذكّر الطور الأول، فستظنّ دائما ان حركتها الداخلية هي نفسها لا تتغيّر.

ولكن لماذا، إن كان لها شعور بنفسها، لا تكون لها ذاكرة؟ الذاكرة هي قوّة من الرّوح، ومهما كانت ضآلة روح الحجرة، فلها ذاكرة على مقدار حجمها.

الذاكرة تعني إدراك القبل والبعد، وإلاّ أنا أيضاً سأظن ان الحزن والفرح اللذين أتذكّرهما حاضران في اللحظة التي أتذكّرهما فيها. ولكنني أعرف انها احساسات ماضية لأنها أضعف من تلك الحاضرة. المشكلة هي إذن الإحساس بالزمن. وربما أنا أيضا لا أملك ذلك، إن كان الزمن شيئا يستوجب التلقين. ولكن ألم أقل لنفسي، منذ بضعة ايام، أو أشهر، قبل إصابتي بالمرض، ان الزمن هو شرط الحركة، لا نتيجتها؟ إن كانت أجزاء الحجرة في حركة، هذه الحركة سيكون لها نسق له، حتى وإن كان لا يسمع، مثل ضجيج الساعة. الحجرة، هي ساعة نفسها. إحساسها

بحركتها يعني الإحساس بزمنها وهو يدقّ. والأرض، الحجرة العظيمة في السماء، تحسّ بزمن حركتها، بزمن تنفّس مدّها وجزرها، وما تحسّ به أراه أنا مرسوما في القبّة المرصّعة بالنجوم: الأرض تحسّ بنفس الزمن الذي أراه.

إذن، الحجرة تعرف الزمن، بل إنها تعرفه قبل ان تحسّ بتغيّرات الحرارة كحركة في المكان. حسب ما أعرف، قد لا تدرك ان تغيّر الحرارة يخضع لوضعيتها في المكان: يمكن ان تفهمه على أنه ظاهرة تغيّر في الزمان، مثل المرور من الإغفاء إلى الصحو، من النشاط إلى الوهن، مثلي أنا الآن، أحسّ، في الجمود الذي أنا فيه، بتنمّل في قدمي اليسرى. ولكن لا، إنها تحسّ دون شكّ أيضاً بالفضاء، إن كانت تدرك الحركة حيث كان هناك قبل ذلك هدوء، وتدرك الهدوء، حيث كانت هناك قبل ذلك حركة. فهي إذن تعرف التفكير في ما هو هنا وهناك.

ولكن لنتصوّر الآن أن أحدهم أخذ هذه الحجارة وحشرها بين أحجار أخرى لبناء حائط. وإن هي قبل ذلك كانت تحسّ بلعبة وضعياتها الداخلية فلأنها كانت تحسّ ذرّاتها وهي متحالفة في جهد تركيبها مثل بيوت عشّ نحل، مدفوعة إحداها تجاه الآخرى ومحشورة إحداها بين الأخريات، مثلما يمكن أن تحسّ أحجار قبّة كنيسة، حيث الواحدة تدفع الأخرى وجميعها تدفع نحو عقد القبّة، والأحجار القريبة من العقد تدفع الأخرى نحو الأسفل ونحو الخارج.

ولكن، في تعوّدها على تلك اللعبة من دفع ودفع معاكس، فإن القبّة بأجمعها ستحسّ بنفسها تشارك في الحركة الخفيّة التي تحدثها أحجارها وهي تتدافع ؛ وستحسّ كذلك بالجهد الذي يبذله أحدهم عند هدمها وتفهم ان وجودها كقبّة سينتهي في اللحظة التي سيسقط فيها الحائط من تحتها، مع أعمدته.

وإذن فالحجارة، في الضغط القويّ الذي حشرت به بين الأحجار الأخرى حتى انها تكاد تكون على وشك ان تتحطّم (وإن تقوى الضغط فستتشقّق)، تشعر دون شكّ بهذا الضغط، ضغط في البداية لا تحسّ به، ضغط يؤثر بشكل ما على حركتها الداخلية. أليست هذه اللحظة التي تحسّ فيها الحجرة بوجود شيء خارج عنها؟ يكون اذا للحجرة عندئذ ادراك بالعالم. أو ربما ستفكّر في ان القوّة التي تقهرها هي شيء أقوى منها، فيتطابق لديها العالم بالربّ.

ولكن في اليوم الذي سيسقط فيه ذلك الجدار، وينتهي الضغط، هل ستحسّ الحجرة بشعور الحريّة ـ كما سأحسّ به أنا، لو عزمت على الخروج من السجن الذي حبست نفسي فيه؟ الاّ أنه يمكنني أنا أن اريد انهاء الحالة التي أجد نفسي فيها، بينما الحجرة لا. الحريّة هي إذن عاطفة، بينما إرادة الحريّة هي عمل، وهذا هو الفارق بيني وبين الحجارة. أنا يمكنني أن اريد. الحجارة على أكثر تقدير (لم لا؟) يمكن أن تحاول ان تعود كما كانت قبل الحائط، وتشعر بالراحة عندما تستعيد حريّتها، ولكنها لا تستطيع ان تقرّر ان تعمل لتحقيق ما يحلو لها.

ولكن هل بإمكاني أنا حقّا أن اريد؟ في هذه اللحظة احسّ بالمتعة وأنا حجرة، فالشمس تدفئني، والريح تلطّف من حرارة جسمي، وليست لديّ أيّة نيّة في العدول عن ان اكون حجرة. لماذا؟ لأن ذلك يعجبني. إذن أنا أيضاً عبد لعاطفة، لا تنصحني ان اريد بحريّة ما هو ضدّها. ولكنني، لو أردت، لاستطعت أن اريد. ومع ذلك لا أفعل شيئا. كم أنا حرّ بالمقارنة مع حجرة؟

ليست هناك فكرة اكثر هولا، خاصّة بالنسبة إلى فيلسوف، من فكرة حريّة الإختيار. وبدافع من جبن فلسفي، أبعدها روبارتو عنه على أنها فكرة خطيرة جدا ـ بالنسبة اليه، دون شكّ، فما بالك بالنسبة إلى حجرة، منحها العواطف ولكنه منع عنها كلّ امكانية عمل. على كل حال، حتى دون القدرة على التفكير ان كان بإمكانها أم لا ان تهلك

نفسها بطريقة ارادية، فقد تحصّلت الحجارة على قدرات كثيرة ونبيلة، أكثر ممّا منحها أبدا الجنس البشري.

الاّ ان روبارتو كان يتساءل الآن إن كان للحجرة، عند سقوطها في البركان، إحساس بموتها. بكل تأكيد لا، لأنها لم تعرف أبدا ماذا يعني الموت. ولكن عندما تضمحلّ تماما في الصهارة، هل يمكن ان تدرك حدوث موتها؟ كلاّ، لأنه لم يعد هناك وجود لذلك المركّب الفردي الذي هو الحجارة. ومن ناحية أخرى، أعرفنا أبدا شيئا عن إنسان أدرك أنه مات؟ لو كان هناك شيء لديه فكرة عن نفسه فهو الآن الصهارة: أنا أصهر، أنا أصهر، أنا أصهر، بلق بلق، فلق فلق، بلف بلف، وأغلي، وأرغي بفقاعات حامية، وأقلي، وأستقلي وأشوي وأشتوي وأقذف بالشرارات والطفح، شلق، شلق. وفي تظاهره بأنه طفح كان روبارتو يبصق مثل كلب مصاب بداء الكلب ويحاول ان يقرقر بكامل أمعائه. كان على وشك ان يفرغ أمعاءه. لا، لم يخلق لأن يكون طفحا، من الأفضل ان يعود إلى التفكير في أنه حجرة.

ولكن ماذا يهمّ الحجرة التي كانت، ان يفكّر الطفح في نفسه طافحاً؟ ليست هناك للأحجار حياة بعد الموت. ليس هناك لأحد وعد ومنح بعد الموت، أن يتحوّل نبتة أو حيوانا. ماذا سيحدث لو متّ وجميع ذرّاتي تكوّنت من جديد، بعد ان ذاب جسمي وتفرّق في الأرض وتصفّى عبر الجذور، في شكل نخلة جميلة؟ سأقول أنا نخلة؟ ستقول النخلة ذلك، اذ لا تقلّ قدرة على التفكير عن حجرة. ولكن عندما ستقول النخلة أنا، هل ستعني أنا روبارتو؟ ليس حسنا ان نحرمها من حقّها في أن تقول أنا نخلة. وأي نخلة تكون لو قالت أنا روبارتو أنا نخلة؟ ذلك الخليط الذي كان بمقدوره ان يقول أنا روبارتو، لأنه كان يحسّ بنفسه ذلك الخليط، لم يعد. وإن لم يعد، فمع فقدان إدراكه بنفسه سيفقد ذاكرة نفسه. لن يمكنني حتى أن أقول أنا نخلة وكنت روبارتو. لو كان ذلك ممكنا، لوجب الآن أن أكون أعرف أنني أنا

روبارتو كنت في السابق...من يدريني؟ شيئا ما. ولكنني لا أتذكر ذلك بتاتا. ما كنت في السابق لم أعد أعرفه، تماما مثلما لا أتذكر ذلك الجنين الذي كنت في بطن أمّي. إنني أعرف أنني كنت جنينا لأن الآخرين قالوا لي ذلك، ولكن لو اقتصر الأمر عليّ يمكنني أن لا أكون قد كنت ذلك أبدا.

يا إلهي، يمكن أن أحظى بالروح، وأن تحظى بها حتى الحجارة، وفعلا من روح الحجارة أتعلّم ان روحي لن تعيش بعد زوال جسمي. في ماذا أفكّر، ولم ألعب دور الحجارة، إن تعذّر عليّ أن أعرف مصيري؟

ولكن في نهاية الأمر، ما هو هذا الأنا الذي أظن أنه يتأمّل نفسه؟ ألم أقل انه ليس الاّ إدراك الفراغ، المماثل للامتداد، بوجود نفسه في ذلك المكوّن الخصوصي؟ وإذن لست أنا الذي أفكّر، ولكن الفراغ، أو الامتداد اللذان يدركان نفسي. وعندئذ يكون هذا المكوّن عرضا، استقرّ فيه الفراغ والامتداد لحظة من زمان، ليعودا بعد ذلك في إدراك نفسيهما إدراكا مختلفا. في هذا الفراغ العظيم للفراغ، فإن الشيء الوحيد الذي هو حقيقة موجود، هو هذا التحوّل في مركّبات وقتيّة لا يحصى عددها... مركّبات من أي شيء؟ من اللاشيء العظيم والوحيد، الذي هو جوهر الكلّ.

والضرورة العظيمة التي تنظّمه،تجعله يخلق ويفني عوالم، وينسج خيوط حياتنا المتواضعة. وإن قبلت هذه الضرورة، وإن استطعت ان أحبّ هذه الضرورة، وأن أعود اليها، وأن أخضع لإرادتها المستقبلية، فهذا هو سرّ السعادة. لن أجد حريّتي الاّ في قبول قانونها. والرجوع اليها يكون فيه النجاة، الهروب من الأهواء في الهوى الوحيد، الحبّ الفكري للإله.

وإن استطعت ان أفهم حقيقة ذلك، فسأكون فعلا الإنسان الوحيد الذي عثر على الفلسفة الحقيقية، وسأعرف كلّ شيء عن الربّ الذي

يختفي. ولكن من يجسر على ان يذهب عبر العالم معلناً هذه الفلسفة؟ هذا هو السرّ الذي سأحمله معي في قبر المتقاطرات.

لقد سبق أن قلت ذلك، وهو ان روبارتو لم يكن يملك طينة الفلاسفة. عندما بلغ إلى هذا التجلّي، الذي شحذه العقل بهمّة النظّاراتي الذي يصقل عدسته، كان له ـ من جديد ـ ارتداد غرامي. وبما ان الحجارة لا تعشق، استقام جالسا ليعود انسانا عاشقاً.

ولكن اذن، كان يقول في نفسه، لو قدّر علينا ان نعود كلّنا إلى بحر تلك الماهية الوحيدة العظيم، هناك في السماء، أو هنالك في اعماق الأرض، أو في أي مكان آخر، فسألتقي بذاتي مع السيّدة! سنكون جزءا وكلاً من نفس الكون. سأكون أنا هي، وهي ستكون أنا. أليس هذا هو المعنى العميق لأسطورة هرمافروديت؟ ليليا وأنا، جسم واحد وخاطر واحد...

وأنا، ألم أسبّق ربّما وقوع هذه الحادثة؟ منذ أيام (منذ أسابيع، أشهر؟) وأنا أجعلها تعيش في عالم كلّه لي، وإن كان من خلال فيرانتي. لقد صارت هي خاطرا من خاطري.

قد تكون هذه، كتابة الروايات: أن نعيش من خلال شخصياتنا، وأن نجعلها تعيش في عالمنا، وأن نودع انفسنا ومخلوقاتنا إلى افكار الأجيال اللاحقة، حتى عندما يستحيل علينا ان نقول أنا...

ولكن إن كان الأمر هكذا، فلا يتوقّف الاّ على ان أمحو فيرّانتي نهائيا من عالمي، وأن أجعل من العدالة الإلهية الأداة للقضاء عليه، وأن أخلق الظروف التي ستمكّنني من الالتقاء بليليا.

وبهذا الحماس الجديد تأهّب روبارتو للتفكير في الباب الأخير من قصّته.

لم يكن يعرف انه، خاصة عندما يكون المؤلفون قد عزموا على الموت، غالبا ما تكتب الروايات نفسها بنفسها، وتذهب إلى حيث تريد هي.

38

حول طبيعة الجحيم ومكانه

روى روبارتو لنفسه ان فيرانتي، في إبحاره من جزيرة إلى جزيرة، وقد غلب البحث عن متعته بحثه عن الوجهة الصحيحة، عاجزا عن استمداد معلومات من الإشارات التي كان الخصي الهولندي يبعث بها إلى جرح بيسكارا، قد انتهى به الأمر ان فقد كلّ فكرة عن المكان الذي كان يوجد فيه.

والسفينة كانت مع ذلك تسير، وقد تلفت المؤن القليلة، وتعفّن الماء. وحتى لا يتفطّن النوتية إلى ذلك، أجبر فيرانتي البحارة على ان ينزلوا افرادا مرّة واحدة في اليوم إلى قاع السفينة ليأخذوا في الظلام ما يلزم لسدّ الرمق، دون ان يؤلمهم منظر ما يأكلون.

الا ليليا، فقد كانت لا تدرك أي شيء، وتتحمّل بصبر جميل كلّ عذاب، ويبدو انها تعيش من قطرة ماء وشيء قليل جدا من الخبز الجاف، ليس لها من همّ الاّ ان ينجح حبيبها في مسعاه. أمّا فيرّانتي، الذي كان لا يحسّ من ذلك الحبّ الا ما يستمدّه من متعة، فقد كان لا يكفّ عن تحريض نوتيّته، ملوّحا اليهم بالثروات العظيمة التي سيحصلون عليها. وهكذا كان أعمى أعماه الحقد يقود عميانا آخرين أعماهم الطمع، يمسك سجينة في حباله جميلة أعماها الحبّ.

الاّ ان الكثير من النوتية، من جرّاء العطش كانت لثّاتهم تنتفخ، حتى انها بدأت تغطّي كامل السنّ؛ والدمّل انتشر على سيقانهم، وافرازاته الموبوءة بدأت تصعد لتمسّ الأعضاء الحيويّة.

ولهذا السبب، عندما نزلوا تحت الدرجة الخامسة والعشرين من العرض الجنوبي، كان على فيرّانتي ان يواجه فتنة قامت ضدّه. وتمكن من قمعها بمعونة مجموعة من خمسة قراصنة كانوا أخلصهم نحوه (اندرابودو، بوريدي، اوردونيو، سافار وأسبراندو)، وأنزل المتمرّدون فوق زورق مع قليل من المؤن وتركوا لمصيرهم. ولكن بهذه الطريقة حرمت توييد دافني من وسيلة نجاة. ماذا يهمّ، كان يقول فيرّانتي، بعد قليل سنصل إلى حيث يحملنا تعطّشنا البائس للمال. ولكن الرجال صاروا لا يكفون لقيادة السفينة.

وحتى الرغبة في ذلك ذهبت عنهم، فبعد ان مدّوا يد المساعدة إلى رئيسهم، صاروا الآن يريدون ان يكونوا أندادا له. وواحد من الخمسة تجسّس على ذلك الشابّ الغامض، الذي كان لا يصعد الاّ نادرا على السطح، واكتشف انه كان في الحقيقة امرأة. عندئذ واجه المجرمون المتبقّون فيرّانتي وطلبوا منه المسافرة. وفيرّانتي، الذي كان له مظهر أدونيس، ولكن روح فولكان، كان يهمّه بلوتون اكثر ممّا تهمّه فينوس، ومن حسن الحظ ان ليليا لم تسمعه بينما كان يهمس للمتمرّدين انه سيرضي رغباتهم.

ولكن روبارتو كان لا يستطيع ان يسمح لفيرّانتي بالقيام بهذه الفعلة الشنيعة. وأراد عندئذ ان يغضب نبتون لأن هناك من اجتاز حقوله دون خوف من غضبه. أو بالأحرى، إن لم نرد ان نتصوّر هذه الواقعة بطريقة وثنية، وان كانت خدّاعة: وتصوّر انه من المستحيل (ان كان على الرواية ان تبلغ أيضاً رسالة اخلاقية) ان لا تعاقب السّماء ذلك المركب المشحون بالإثم. ويبتهج في داخله وهو يتصوّر «نوت» و«جنوب» و«شمأل»، ألدّ أعداء هدوء البحر، الذين تركوا إلى ذلك الحين

للنسمات الهادئة مهمّة فتح الطريق أمام تويبد دافني لتواصل رحلتها، مغلقين حجراتهم التحتأرضية على انفسهم، وهم يتأهبون وقد نفد صبرهم.

وأخرجهم كلّهم من مخابئهم في وقت واحد. وكان أنين الألواح يردّ على شكوى البحّارة، والبحر يتقيأ مياهه عليهم وهم يتقيأون أمعاءهم فيه، ومن حين لآخر كانت تلفّهم موجة تجعل من يراهم من السواحل يظن سطح السفينة تابوتا من الجليد، تشتعل من حوله الصواعق مثل الشموع.

في البداية قابلت العاصفة الغيوم بالغيوم، والمياه بالمياه، والرياح بالرياح. ولكن سرعان ما خرج البحر عن حدوده المألوفه وتضخّم متعاليا نحو السماء، وتهاطل المطر مهتاجا، واختلط الماء بالهواء، فكان على الطير ان يسبح، وعلى السمك ان يطير. لم تعد معركة الطبيعة ضدّ الملاّحين، بل معركة العناصر في ما بينها. لم تعد هناك ذرّة من هواء لم تتحوّل إلى حجرة من برد، ونبتون كان يصعد لإطفاء البروق في يدي جوبيتر، حتى يمنعه من ان يحرق اولئك الآدميين، الذين كان يريد هو أن يغرقهم. وكان البحر يحفر قبرا في صميمه حتى ينتزعهم من الأرض وما ان يرى ان السفينة كانت تتجه تائهة نحو الصخور حتى يقلب فجأة مسارها نحو وجهة أخرى.

وكانت السفينة تغوص في الماء، تارة بمؤخرتها وتارة أخرى بمقدّمتها، وفي كلّ مرّة تغطس فيها كانت تبدو كأنها تطير من قمّة برج: كان الكوثل يغوص إلى ان تختفي المقصورة، ومن جهة الجؤجؤ كان الماء يبدو كأنه يريد ان يبتلع الصاري المائل.

وأندرابودو الذي كان يحاول ربط أحد الأشرعة، اقتلعته العاصفة من الصاري وبينما كان يهوي نحو الماء اصطدم ببوريد الذي كان يشدّ حبلا من الحبال، وخلع رأسه.

أما المركب فقد صار الآن لا يطيع نوتيّ الدفّة أوردونيو، وهبّة أخرى قوية من الرياح مزّقت صاري المؤخرة. وكان سافار يحاول جاهدا ان ينزل الأشرعة بينما كان فيرّانتي يحرّضه متفوّها بأشنع الشتائم، ولكنه لم ينته بعد من شدّ الشراع الكبير حتى عرّضت السفينة جنبها للأمواج وتلقّت ثلاث موجات عظيمة رمت بسافار من فوق السطح إلى البحر. وانقسم الصاري الكبير فجأة وسقط في الماء، بعد ان حطّم السطح وهشّم رأس أسبراندو. وأخيرا تحطّمت الدفّة، بينما أودت ضربة عنيفة من المقبض بحياة أوردونيو. الآن صار ذلك الجذع من اللوح دون نوتية، بينما خرجت الفئران قافزة من سطح السفينة، وسقطت في المياه التي كانت تريد النجاة منها.

يبدو من المحال ان فيرّانتي، في كلّ تلك الفوضى، كان قد فكّر في ليليا، بما أننا لا نتصوّره الاّ مهتمّاً بإنقاذ نفسه. لا أدري ان كان روبارتو قد تفطّن إلى انه كان يخالف قواعد الاستحالة ولكنه، حتى لا يترك تلك التي وهبها قلبه تموت، كان عليه ان يعطي قلبا حتى لفيرّانتي ـ وإن كان لمدّة لحظة.

وها أن فيرّانتي يحمل ليليا فوق السطح، وماذا يفعل؟ كانت التجربة علّمت روبارتو انه كان على فيرّانتي ان يوثقها وثاقا محكما إلى لوحة، وأن يعهد بها إلى البحر آملا ان لا ترفض وحوش الأعماق رحمتها لمخلوق في ذلك الجمال.

بعد ذلك أخذ فيرّانتي أيضا لوحة أخرى وتأهب لشدّها حول نفسه. ولكن في تلك اللحظة، فوق سطح السفينة، والله يدري كيف أمكن له ان يتحرّر من قيوده، ربما نتيجة الفوضى التي شملت قاع السفينة، ويداه لا تزالان مقيّدتين بالأغلال، أشبه بميّت منه بحيّ، ولكن بعينين تتقدان حقدا، ظهر فجأة بيسكارا.

بيسكارا الذي بقي طول الرحلة، مثل كلب أماريلّي، يتعذّب مقيّدا

إلى أغلاله بينما كانوا كلّ يوم يفتحون جرحه من جديد ثم يداوونه قليلا ـ بيسكارا، قضّى تلك الشهور لا يفكّر الاّ في شيء واحد: ان ينتقم من فيرّانتي.

Deux ex machina، ظهر بيسكارا فجأة خلف فيرّانتي، الذي كان قد وضع أحد قدميه على حافة السطح، ورفع ذراعيه ثم مرّرهما، جاعلا من السلاسل ربقة، أمام وجه فيرّانتي، إلى ان ضغط على رقبته. وصاح «هيّا معي، هيّا معي أخيرا إلى الجحيم!» وكنت تراه ـ وتكاد تسمعه ـ وهو يضغط بقوة على رقبة فيرانتي ويكسرها بينما يتدلّى لسانه من بين تلك الشفتين المجدّفتين مشاركا في تلك النقمة الأخيرة. إلى ان سقط جسم المعدوم فاقد الروح جاذبا معه، مثل معطف، جسم الجلاّد وهو لا يزال حيّا، وقد ذهب منتصرا لملاقاة الأمواج العاتية وقد وجد قلبه اخيرا السلام.

لم يقدر روبارتو على ان يتصوّر ما أحسّت به ليليا عند رؤية ذلك المنظر، وأمل أن لا تكون قد رأت شيئا. وبما انه كان لا يتذكّر هو نفسه ماذا حدث له منذ اللحظة التي سقط فيها في دوّامة العاصفة، كان عاجزا عن تصوّر ما يمكن ان يكون حدث لها.

في الحقيقة كان في اصراره على ارسال فيرّانتي إلى جزائه العادل قد قرّر ان يتبع قبل كلّ شيء مصيره في عالم الموتى. وترك ليليا في الغمر العظيم.

في الأثناء كان البحر قد رمى بجسم فيرّانتي الفاقد للحياة على شاطىء خال. كان البحر هادئا، مثل ماء في طست، وعلى الساحل لم يكن هناك أدنى ارتداد للأمواج. وكان كلّ شيء يغلّفه ضباب خفيف، مثلما يحدث عندما تغيب الشمس ولكن الليل لم يستحوذ بعد على السماء.

حالا بعد الشاطىء، ودون ان ترسم أشجار أو أدغال حدوده، كان

هناك سهل معدنيّ كلّه، حتى ان ما كان يبدو من بعيد سرواً، كان يتضّح من بعد انها مثل مسلاّت من الرصّاص. في الأفق، نحو الغرب، كان هناك مرتفع جبليّ، صار لمن ينظر اليه معتما، لو لم تكن تظهر على جوانبه شعلات من نار كانت تجعله يبدو مقبرة. ولكن فوق ذلك المرتفع كانت تجثم سحابات طويلة ذات جوف من فحم ينطفىء، لها شكل صلب ومتماسك، مثل عظام الحبّار التي نراها في بعض اللوحات أو الرسوم، والتي عندما ننظر اليها جانبيا تتكمّش في شكل جمجمة. بين السحابات والجبل كانت السماء ذات ظلال صفراوية ـ ويمكن ان نقول ان ذلك كان الفضاء الهوائيّ الأخير الذي كانت لا تزال تمسّه الشمس المحتضرة، لو لم يكن هناك الإحساس بأن ذلك الغثيان الأخير من الغروب لم تكن له أبدا بداية، ولن تكون له أبدا نهاية.

وحيث ينتهي السهل ليصبح شيئا فشيئا منحدرا، لمح فيرّانتي مجموعة صغيرة من البشر، وسار نحوهم.

كانوا بشراً، أو على كلّ حال مخلوقات بشرية، كما تدلّ هيأتهم من بعيد ولكن ـ عندما وصل اليهم فيرّانتي ـ رأى انهم، ان كانوا في السابق بشرا، فقد صاروا الآن ـ أو هم على وشك ان يصيروا ـ أدوات لمدرّج في علم التشريح. هكذا كان يريدهم روبارتو، لأنه يذكر انه زار يوما أحد تلك الأمكنة حيث كانت مجموعة من الأطبّاء ذوي ملابس قاتمة ووجوه محمرّة، بعروق نحيفة تشتعل فوق انوفهم ووجناتهم، في وضعية كانت تبدو وضعية جلاّدين، وكانوا يحيطون بجثّة يخرجون منها ما كان بداخلها، ويكتشفون في الأموات أسرار الأحياء. كانوا ينزعون الجلد، ويقطعون اللحم، ويعرّون العظام، ويحلّون اربطة الأعصاب، ويفكّون عقد العضلات، ويفتحون اعضاء الحواسّ، ويمدّون كلّ الأغلفة بعد ان فصلوها، وجميع الغضاريف بعد ان فكّكوها، وجميع المعالق بعد ان فرّقوها. كلّ ليفة على حدة، جميع الشرايين مقسّمة، كلّ نخاع مكشوف، ويظهرون للحاضرين المصانع الحيوية: انظروا، كانوا

يقولون، هنا يطهى الطعام، وهنا يتطهّر الدم، وهنا يتوزّع الأكل، وهنا تتكوّن الأخلاط، وهنا تنشط العقول... وأحدهم كان بالقرب من روبارتو لاحظ هامسا انه، بعد موتنا الأرضي، لن تفعل الطبيعة غير ذلك.

ولكن ربّاً مشرّحاً لمس بطريقة مختلفة سكّان تلك الجزيرة، الذين كان فيرّانتي يراهم الآن من مسافة دائما أقرب.

كان الأول جسما خاليا من الجلد، وكتلات عضلاته مشدودة، والذراعان في حركة ارتخاء، ووجهه المتألم نحو السماء، كلّه جمجمة ووجنات. والثاني كان جلد يديه لا يزال يتدلّى معلّقا إلى أنامله مثل قفاز، وعند ساقيه كان الجلد مشمّرا تحت الركبتين مثل جزمة ليّنة.

ولثالث فتح لا فقط جلده بل وأيضاً لحمه حتى ان الجسم كلّه، وخاصة منه الوجه، كان يبدو كتابا مفتوحا. كما لو أراد ذلك الجسم ان يظهر الجلد، واللحم والعظم في الآن نفسه، ثلاث مرّات بشراً وثلاث مرّات فانياً؛ ولكنه كان يبدو حشرة وتلك الأشلاء أجنحته، لو كانت على تلك الجزيرة ريح تحرّكها. ولكن تلك الأجنحة لم تكن تتحرّك من قوّة الهواء، الذي كان ساكنا في ذلك الغسق: كانت تتحرّك قليلا لحركة ذلك الجسم المنحّف.

غير بعيد عنه كان هيكل عظمي يستند إلى رفش، ربما ليحفر لنفسه قبرا، وقد رفع محجري عينيه إلى السماء، بتكشيرة في قوس اسنانه المنحني، ويده اليسرى مرفوعة إلى السماء كأنها تطلب رحمة وإصغاء. وهيكل آخر كان منحنيا مظهرا من الوراء عموده الفقري مقوّسا، ويمشي بقفزات ويداه العظميتان على وجهه المنحني.

واحد آخر، كان فيرّانتي يراه من الوراء فقط، كان لا يزال يحمل نتفة من الشعر فوق الجمجمة العارية من اللحم، مثل قلنسوة حشرت فيها بقوّة. ولكن الثنية (التي كانت شاحبة ووردية مثل قوقعة بحرية)، أو

اللبد الذي يحمل الفرو، كانت متكوّنة من الجلدة، التي قطعت على مستوى الرقبة وثنيت نحو الأعلى.

وكان هناك آخرون قد انتزع منهم كلّ شيء تقريبا، وبدوا مثل منحوتات مصنوعة من الأعصاب فقط؛ ومن اسفل الرقبة، التي صارت خالية من الرأس، كانت تتموّج تلك التي كانت في وقت سابق مشبّكة إلى مخّ. وكانت السيقان تشبه ضفائر من السوخر.

وآخرون، ببطونهم المفتوحة، كانوا يظهرون أمعاء في لون السورنجان تختلج، مثل شرهين بؤساء تخموا بكروش لم يهضموها، وحيث كانوا يحملون قضيباً، قد جرّد وصار ذنيباً، بقيت تتأرجح فقط الخصي اليابسة.

وشاهد فيرّانتي من بينهم من صار فقط عروقا وشرايين، مثل مخبر خيمياوي متجوّل، قنوات وأنابيب في حركة دائمة، تقطّر الدم القليل لتلك اليراعات المنطفئة في نور تلك الشمس الغائبة.

كانت تلك الأجسام في صمت ثقيل مؤلم. وكانت تبدو لدى بعضها علامات تحوّل بطيء جدّا كان ينحفها ليجعلها تتحوّل من تماثيل من لحم إلى تماثيل من ألياف.

والأخير من هؤلاء، مسلوخ مثل القديس برتلماوس، كان يحمل جلده عاليا في يده اليمنى وهو لا يزال يقطر دما، وقد صار رخواً مثل مشلح معلّق إلى مشجب. كان لا يزال بالإمكان ان تتعرّف فيه على وجه، بفتحات العينين والمنخرين، ومغارة الفم، وكلّ ذلك كان يبدو سيلاناً أخيراً لقناع من الشمع عرّض فجأة للحرارة.

وذلك الرجل (أو بالأحرى فم جلده الخالي من الأسنان والمشوّه) خاطب فيرّانتي قائلا:

«لا مرحبا بك، في أرض الأموات التي نسميها نحن «جزيرة

فيساليا». بعد قليل أنت أيضاً ستتبع نفس المصير، ولكن لا تظن ان كلّ واحد منّا يفنى بالسرعة التي يسمح بها القبر. حسب العقاب الذي ينالنا، كلّ واحد منّا يقاد إلى مستوى معيّن من الإنحلال، كأنما يراد ان نتذوّق الفناء، الذي سيكون بالنسبة لكلّ واحد منّا أعظم فرحة. آه يا للسعادة، أن نتصوّر أنفسنا مخاخاً ما أن تلمس حتى تتفتّت، رئات تنفلق عند اول نفس من الهواء يلجها، جلودا تتحطّم تحت أدنى شيء، لحوما رخيّة ترتخي، شحوما تذوب! واحسرتاه، لا. كما تشاهدنا في هذه الحالة، كلّ واحد منّا قد بلغ الحالة التي هو عليها دون ان يتفطّن، من خلال تحوّل لا محسوس يذوب أثناءه كلّ عرق منّا في ظرف ألف ألف ألف سنة. ولا يدري أحد إلى أيّ حدّ يصل الفناء بكلّ منّا، حتى أن أولئك الذين تراهم هنالك، ولم يبق منهم الاّ العظام، يأملون دائما أن يموتوا قليلا، وربما قضوا آلاف السنين في ذلك الانتظار؛ وآخرون، مثلي أنا، هم على هذه الحالة منذ زمن لا يعرف مداه أحد ـ لأنه في هذا الليل الوشيك دائما قد فقدنا الإحساس بمرور الزمن ـ ومع ذلك فأنا لا زلت آمل في فناء يطيء جدّا. وهكذا كلّ واحد منّا يتوق إلى انحلال لن يكون ـ ونعرف ذلك جيّدا ـ أبدا تامّا، آملين دائما ان لا تكون السرمدية قد بدأت بالنسبة الينا، ومع ذلك نخاف ان نكون قد دخلناها منذ وصولنا القديم جدّا إلى هذه الجزيرة. كنا نظن ونحن أحياء أن الجحيم هو مكان اليأس السرمدي، لأن ذلك ما قيل لنا. واحسرتاه، لا، اذ هو مكان الأمل الذي لا ينطفىء ابدا، والذي يجعل كلّ يوم أتعس من سابقه، لأن هذا العطش، الذي بقي فينا دائما حيّا، لا يروى أبدا. باحتفاظنا بشبح جسم، وكلّ جسم يتوق إمّا إلى النموّ أو إلى الموت، نحن لا نعدل عن الأمل ـ ولا يتمّ الاّ بهذه الطريقة العقاب الذي نطق به محاسبنا وهو أن نتعذّب in saecula.

فسأله فيرّانتي: «ولكن ماذا تأملون؟»

«قل ماذا تأمل أنت أيضاً... سيكون أملك أن هبّة خفيفة من الريح، أو أن مدّا من المياه ضئيلا، أو أن علقة واحدة جائعة، ترجعنا ذرّة بعد ذرّة إلى الفراغ الكوني العظيم، حيث سيمكننا ان نشارك بشكل ما في دورة الحياة. ولكن الهواء هنا ساكن لا يتحرّك، والبحر هنا هادىء لا يضطرب، ونحن لا نحسّ أبدا لا بردا ولا حرّا، ولا نعرف فجرا أو غروبا، وهذه الأرض ميّتة أكثر من موتنا ولا تعطي أي حياة حيوانية. آه، الديدان، التي وعدنا بها يوما الموت! آه تلك الديدان العزيزة، أمهات روحنا التي يمكن لها يوما ان تولد من جديد! عندما تمتصّ مرّتنا فهي ترشّنا مشفقة بحليب البراءة! وعندما تعضّنا فهي تداوي عضّات خطايانا، وعندما تهدهدنا بمداعبات الموت فهي تعطينا حياة جديدة، لأن القبر بالنسبة الينا يساوي حجر الأمومة... ولكن لا شيء من كلّ هذا سيحدث. نحن نعرف ذلك، ومع هذا فجسدنا ينسى ذلك عند كلّ لحظة».

فسأله فيرّانتي «والربّ، الربّ، هل الربّ يضحك؟»

فأجاب المسلوخ «واحسرتاه كلاّ، لأنه حتى المذلّة ستحمّسنا. سيكون جميلا لو رأينا على الأقلّ ربّاً ضاحكاً، يستهزىء بنا! كم سيسلّينا منظر الإله على كرسيّه يحيط به قدّيسوه وهو يتهكّم علينا. سنشاهد فرحة الآخرين، التي هي مفرحة بقدر ما يفرح مشهد غضب الآخرين. كلاّ، هنا لا يغتاظ أحد، لا يضحك أحد، لا يتجلّى أحد. هنا لا يوجد الربّ. ليس هناك الاّ أمل دون غاية».

«اللعنة على جميع القدّيسين، وحقّ الرب» حاول فيرّانتي ان يصيح ثائرا، «إن كنت هالكا، فلي الحقّ ان يتركوني أعرض على نفسي مشهد هيجاني!» ولكنه تفطّن إلى ان صوته كان يخرج ضعيفا من صدره، وأن جسمه كان واهنا، وأنه لا يستطيع حتى ان يثور.

«أرأيت؟»، قال له المسلوخ، دون ان يقدر فمه على الابتسام، «إن

عذابك قد بدأ. لن تقدر حتى على الحقد. هذه الجزيرة هي المكان الوحيد في الكون حيث لا يسمح فيه بالألم، حيث لا فارق بين أمل دون قوّة وسأم دون قرار».

واصل روبارتو إعداد نهاية فيرّانتي، وهو دائما على سطح السفينة، عارياً مثلما جلس ليجعل من نفسه حجرة، وفي الأثناء كانت الشمس قد أحرقت وجهه، وصدره وساقيه، معيدة اياه إلى تلك الحرارة المحمومة التي خرج منها منذ وقت غير بعيد. الآن صار متهيئاً لأن يخلط لا فقط بين الرواية والواقع، بل وأيضاً بين اضطرام الروح واضطرام الجسد، وأحسّ من جديد بنار الحبّ. وليليا؟ ماذا حدث لليليا، بينما كانت جثة فيرّانتي في طريقها إلى جزيرة الموتى؟

وبإشراقة غير غريبة لدى قصّاصي الروايات، عندما يعجزون عن كبت جماح التلهّف، ولا يراعون وحدة المكان والزمان، اجتاز روبارتو بقفزة واحدة الأحداث ليجد ليليا بعد ايام، متشبثّة بتلك اللوحة، بينما كانت تحملها مياه بحر صار الآن هادئا ومشعّاً تحت الشمس ـ وتقترب (وهذا، يا عزيزي القارىء، لم يكن ليخطر على بالك ابدا) إلى الساحل الشرقي من جزيرة سليمان، أي من الجهة المعاكسة للمكان الذي كانت دافني راسية فيه.

هنا، وكان روبارتو قد عرف ذلك من الأب كسبار، كانت الشواطىء اقلّ وداعة من تلك الموجودة في الجهة الغربية. واللوحة، التي صارت عاجزة عن المقاومة، انكسرت عند اصطدامها بصخرة. فاستفاقت ليليا وتشبّثت بتلك الصخرة، بينما كانت أشلاء اللوحة تضيع في اللجّ تحملها التيارات.

ها هي الآن هنالك، فوق حجرة لا تكاد تتّسع لاحتوائها، وشرم من المياه وجيز ـ ولكنه بالنسبة اليها مثل محيط ـ يفصلها عن الساحل. الإعصار حطّمها، والصوم أضناها، والعطش ألهبها، فعجزت حتى عن

أن تجرّ نفسها من الصخرة إلى الشاطىء الرملي، الذي كانت من ورائه تتراءى لنظرها المكدّر ألوان باهتة من أشكال نباتية.

ولكن الصخرة كانت محرقة تحت جنبها الغضّ وعندما تتنفّس بصعوبة، عوض ان تبرّد من الحرقة الباطنية، كانت تزيد اليها حرقة الهواء.

كانت تودّ لو كانت هنالك جداول رقراقة تنساب بين الصخور المظللة، ولكن هذه الأحلام كانت لا تهدّىء من عطشها بل تزيد من التهابه. كانت تريد أن تستغيث بالسماء، ولكن لسانها الجاف بقي ملتصقا بحنكها، فباءت صيحاتها آهات مختنقة.

كان الوقت يمرّ، وصفعات الريح كانت تخدشها مثل مخالب القوانص، وكانت تخاف (أكثر من خوفها من الموت) أن تعيش إلى أن تشوّهها تأثيرات العناصر، جاعلة منها شيئا يثير النفور عوضا عن الحبّ.

لو أمكنها أن تبلغ عيناً، أو جدولا من الماء الحيّ، وأن تقرّب شفتيها لتشرب لرأت عينيها، اللتين كانتا في الماضي مثل نجمتين تعدان بالحياة، قد صارتا الآن في كسوف مريع؛ وذلك الوجه، الذي كان مرتعا لآلهة الحبّ، صار الآن مقاما بشعا سكنه الاشمئزاز. لو أمكنها حتى أن تبلغ مستنقعا، لذرفت مقلتاها دموعاً، من الشفقة على نفسها، أكثر ممّا ستشرب شفتاها من ماء.

هذه على الأقلّ الأفكار التي جعلها روبارتو تخامر ليليا. ولكن ذلك جعله يحسّ بالضيق. ضيق منها هي، التي في اقترابها من الموت، كانت تنزعج لما سيؤول اليه جمالها، كما يحدث في الغالب في الروايات؛ وضيق من نفسه، الذي كان لا يقدر ان يرى في ذلك الوجه، دون مبالغات فكرية، حبّه الذي كان يموت.

كيف يمكن أن تكون ليليا، فعلا، عند ذلك الحدّ؟ كيف ستظهر له لو خلع عنها ثوب الموت الذي نسجته الكلمات؟

من جرّاء معاناة السفر والغرق، سيكون شعرها قد تحوّل إلى قشّ، مخدّد بخيوط بيضاء؛ ونهدها يكون قد فقد زنابقه، ووجهها يكون قد حرثه الزمن. وستكون رقبتها وصدرها تجاعيد وضغونا.

ولكن لا، في وصفه اياها وهي تذبل على هذه الطريقة خضوع من جديد لآلة الأب ايمانويل الشعرية... كان روبارتو يريد أن يرى ليليا كما هي عليه في الواقع. رأسها منقشع إلى الوراء، وعيناها تائهتان، قد صغّرهما الألم، فبدتا بعيدتين عن منشأ الأنف ـ الذي صار الآن نحيفا مدبّبا ـ قد ثقّلهما الانتفاخ، وارتسمت في الزوايا خطوط من التجاعيد النحيفة، مثل آثار تركها عصفور على الرمل. والمنخران منفتحان قليلا، أحدهما لحميّ اكثر من الآخر. والفم مجرّح، في لون الجمشت، قد صار تجعيدتين تقوّستا في الزاوتين، والشفة العليا بارزة قليلا، قد ارتفعت لتظهر سنّين فقدا بياضهما العاجي. وجلدة الوجه مرتخية برفق، مع طيّتين متدلّيتين تحت الذقن، كانتا تشوّهان رسم العنق...

ومع ذلك، تلك الثمرة الذابلة، كانت أغلى لديه من جميع ملائكة السماء. كان يحبّها حتى على تلك الحالة، وما كان يدري أنها على خلاف ذلك عندما أحبّها وأرادها كما هي، وراء ستار خمارها الأسود، ذات ليلة من تلك الليالي البعيدة.

كان فكره قد تاه أثناء الأيام التي قضّاها غريقاً، وأرادها منسجمة مثل نظام الكواكب؛ ولكنهم كانوا قد قالوا له (ولم يجرؤ أن يعترف بذلك أيضا للأب كسبار) أن الكواكب ربّما لا تقوم بطوافها حسب خطّ دائري كامل، بل حسب دورات حوليّة تقوم بها حول الشمس.

إن كان الجمال واضحاً، فالحب غامض: كان يكتشف أنه يحبّ لا الربيع، بل جميع فصول المحبوبة، وصار يرغب فيها أكثر في أفولها الخريفي. كان قد أحبّها دائما كما هي وكما يمكن أن تكون، وفي هذا المعنى فقط يكون الحبّ عطاء للنفس، دون انتظار مقابل.

كان قد ترك نفسه تسكر باغترابها الهادر، باحثا دائما عن كينونة أخرى: شرّيرة جدا في فيرّانتي، ممتازة في ليليا، التي من مجدها كان يريد تمجيد نفسه. الاّ أن حب ليليا كان يعني أن يريدها كما كان هو نفسه، كلاهما مستسلم لتأثير الزمن المتواصل. كان إلى ذلك الحين قد استعمل جمالها لإثارة القذارات التي تسكن فكره. كان يجعلها تتحدّث وقد وضع على فمها الكلمات التي كان هو يريدها، وإن كان غير راض عنها. الآن كان يريدها قريبة منه، وكان يريد نفسه هائما بجمالها المتألم، بنحولها المثير، بلطافتها الممتقعة، برشاقتها الواهنة، بتعرّياتها الهزيلة، ليداعبها، متشوقا، وليستمع إلى كلماتها، كلماتها هي، لا تلك التي منحها إياها.

كان عليه أن يمتلكها منتزعا ذاته.

ولكن فات الأوان لكي يقدّم لحبيبته المريضة ما تستحقّ من ثناء.

في الجهة الأخرى من الجزيرة، كان يسري ذائبا في عروق ليليا، الموت.

39

تطواف لدنيّ سماوي

أهذه هي الطريقة المثلى لإتمام رواية؟ الروايات لا تشحذ فقط الحقد لتجعلنا في النهاية نلتذّ بهزيمة أولئك الذين نكنّ لهم الكره، ولكنها تدعونا أيضاً إلى الشفقة لتجعلنا بعد ذلك نكتشف بعد النجاة من المخاطر أولئك الذين نكنّ لهم الحبّ. وروايات بهذه النهاية التعيسة لم يسبق قط لروبارتو أن قرأها.

إلاّ إذا كانت الرواية لم تنته بعد، واحتفظ الراوي ببطل خفيّ، قادر على القيام بعمل لا يمكن تصوّره الاّ في بلد الروايات.

من أجل الحبّ، قرّر روبارتو أن يقوم بذلك العمل، مدخلا نفسه في قصّته.

لو وصلت إلى الجزيرة، كان يقول في نفسه، لأمكنني الآن أن أنقذها. كسلي فقط هو الذي شدّني إلى هذا المكان. الآن، ها إن كلينا سجين اعتقله البحر، وها إن كلينا يشتاق إلى الضفّة المعاكسة من نفس الأرض.

ومع ذلك فالأمر ليس ميؤوسا منه. إنني أراها تحتضر في هذه الآونة بالذات، ولكن لو أنني في نفس هذه الآونة بلغت الجزيرة، لكنت هنالك يوما قبل أن تصل هي، مستعدّا لانتظارها ولإنقاذها.

لا يهمّ لو انتشلتها من البحر وهي تلفظ نفسها الأخير. وفعلا من المعروف ان الجسم عندما يصل إلى ذلك الحدّ، يمكن لعاطفة قوية ان تعطيه روحا جديدة، وقد شوهد محتضرون، عندما بلغهم أن سبب مصيبتهم قد زال، عادوا من جديد للحياة.

وهل هناك عاطفة أقوى، بالنسبة إلى تلك المحتضرة، من أن تلتقي من جديد بالمحبوب حيّاً! وفعلا ليس لزاما عليّ ان أعترف اليها بأنني لست الشخص الذي أحبّته، لأنها وهبت نفسها اليّ لا للآخر؛ سأستعيد فقط المكان الذي هو من حقّي منذ البداية. ليس هذا فحسب، بل ستحسّ ليليا دون أن تتفطّن لذلك بحبّ مختلف من خلال نظراتي، التي ستكون خالية من كلّ شهوانية، مرتعشة من فرط الإخلاص.

هل يعقل، سيتساءل كلّ منّا، أن روبارتو لم يفكّر في أن هذه الانتفاضة لن تكون الاّ إذا بلغ حقيقة الجزيرة في ظرف ذلك اليوم أو على أكثر تقدير في الساعات الأولى من الصبيحة الموالية، وهذا شيء صار بعيد الإحتمال بعد تجاربه الأخيرة؟ أيعقل أنه لم يتفطّن إلى أنه كان يعتزم بلوغ الجزيرة للالتقاء بتلك التي ستصل اليها فقط بموجب قصّته؟

ولكن روبارتو، وكنّا قد رأينا ذلك، بعد أن أخذ يفكّر في «بلد روايات» خارج تماما عن عالمه هو، جعل في النهاية العالمين يلتقيان أحدهما بالآخر دون صعوبة، فخلط قوانينهما. كان يظنّ أنه سيتمكن من الوصول إلى الجزيرة لأنه كان يتصوّر ذلك، وكان يتصوّر أنها ستصل إلى الجزيرة عندما يكون هو قد بلغها قبلها، لأنه هكذا كان يريد. ومن ناحية أخرى، تلك الحريّة في إرادة الأحداث وفي مشاهدة وقوعها، التي تجعل الروايات مليئة بالمفاجآت، كان روبارتو ينقلها إلى عالمه: أخيرا سيصل إلى الجزيرة لسبب بسيط هو أنه ـ لو لم يصل اليها ـ لما عرف ماذا سيقصّ على نفسه.

حول هذه الفكرة، التي سيعتبرها من لم يتبعنا إلى هذا الحدّ جنوناً

أو خبالاً كيفما أردنا أن نقول (أو كيفما أرادوا آنذاك ان يقولوا)، كان روبارتو يركّز بطريقة رياضية، دون أن تخفى عليه أي فرضية يمليها عليه العقل أو البصيرة.

ومثل جنرال يعدّ في الليلة السابقة للمعركة التحرّكات التي ستقوم بها جيوشه في اليوم الموالي، ويتصوّر لا فحسب الصعوبات التي يمكن ان تطرأ والأحداث التي يمكن أن تعرقل خطّته، بل ويدخل في عقل الجنرال المعادي، ليتنبّأ بتحرّكاته وبالتحرّكات المعادية، ويتصرّف في المستقبل متحرّكا تبعا لما يمكن أن يقوم به الآخر تبعا لتلك التبعات ـ هكذا كان روبارتو يزن الوسائل والنتائج، والعلل والمعلولات، والإيجابيات والسلبيات.

كان عليه أن يترك فكرة السباحة نحو الحاجز المرجاني واجتيازه. لم يعد باستطاعته أن يرى المسالك المغمورة، ولن يمكنه أن يبلغ الجزء البارز من الماء الاّ بمجابهة مخاطر خفيّة، دون شكّ قاتلة. وأخيرا، حتى ولو افترضنا انه سيتمكّن من الوصول اليه ـ لا يهمّ إن كان تحت الماء أو فوقه ـ فليس مؤكدا أنه سيتمكّن من السير فوقه بمداسه الخفيف، وأنه لا يخفي حفراً ربّما سيسقط فيها دون ان يقدر بعد ذلك على الخروج منها.

لذا لا يمكن بلوغ الجزيرة الاّ بإعادة المسار الذي سلكه الزورق، أي بالسباحة نحو الجنوب، محاذيا على مسافة ما الجون على مستوى دافني تقريبا، ثمّ يميل نحو الشرق بعد ان يتعدّى الرعن الجنوبي، إلى أن يبلغ الجون الصغير الذي كان قد حدّثه عنه الأب كسبار.

لم تكن هذه الفكرة حكيمة، وذلك لسببين. الأول هو أنه لم يستطع إلى ذلك الحدّ أن يبلغ الحاجز المرجاني سباحة الاّ بالجهد الجهيد، وعند بلوغه كانت قواه تعوزه؛ ولذا لم يكن من المعقول ان يفكّر في أنه سيقدر على قطع مسافة أطول بأربع أو خمس مرّات على الأقلّ ـ ودون حبل، لا لأنه لا يملك حبلا بذلك الطول، ولكن لأنه

هذه المرّة، سيذهب للذهاب، وإن هو لم يصل فلا معنى للرجوع إلى الوراء. والثاني أن السباحة في اتجاه الجنوب تعني التحرّك عكس التيّار: وبما أن قواه لا تكفي لمقاومته الاّ قدرا قليلا، فسيحمله التيّار دون شكّ نحو الشمال، وراء الرأس الشمالي، مبعدا اياه أكثر فأكثر عن الجزيرة.

بعد أن تحسّب تحسّبا صارما لتلك الاحتمالات (وبعد ان اعترف لنفسه ان الحياة وجيزة، والفن شاسع، والفرصة خاطفة والتجربة غير متأكدة) قال في نفسه إنه لا يجدر بالرجل النبيل أن ينقاد لحسابات بتلك الحقارة، مثل برجوازي يحسب الاحتمالات التي تتوفّر لديه وهو يغامر بماله الشحيح في لعبة النرد.

أو بالأحرى، كان يقول في نفسه، يجب أن يقرأ حسابا، ولكن حسابا ساميا، إن كان الرهان ساميا. ماذا كان يلعب في تلك المراهنة؟ الحياة. ولكن حياته، اذا لم يقدر أبدا على ترك السفينة، شيء قليل، وخاصّة الآن وقد انضاف إلى وحدته الإدراك بأنه سيفقدها هي إلى الأبد. وفي المقابل ماذا سيربح لو نجح في مهمّته؟ كلّ شيء، السعادة بلقياها وبإنقاذها، وفي كل الحالات الموت فوقها ميّتة، ليلفّ جثمانها في كفن من القبل.

صحيح، المراهنة ليست متساوية. كانت الاحتمالات في أن يلقى حتفه أثناء المحاولة أكثر من إمكانية الوصول إلى اليابسة. ولكن حتى في تلك الحالة كانت المجازفة مجزية: كما لو أنهم قالوا له ان هناك ألف إمكانية في أن يخسر مبلغا من المال حقيرا ضدّ إمكانية واحدة في أن يربح كنزا عظيما. من لا يقبل المجازفة؟

وأخيرا خطرت بباله فكرة أخرى، كانت تذلّل كثيرا خطر تلك المجازفة، بل، كانت تجعل منه رابحا في كلتا الحالتين. لنفترض فعلا ان التيار سيجذبه إلى الإتجاه المعاكس. حسنا، بعد ان يكون قد فات الرأس الآخر (وكان يعرف ذلك لأنه جرّب بواسطة لوحة الخشب) فالتيار سيحمله على مستوى الهاجرة...

ولو استلقى على سطح الماء، وعيناه إلى السماء، فلن يرى أبدا الشمس وهي تتحرّك: سيطفو على ذلك الخطّ الذي يفصل اليوم عن اليوم المنصرم، خارج الزمن، في منتصف نهار دائم. وبتوقّف الزمن لديه، سيتوقّف أيضاً على الجزيرة، مؤجلا إلى ما لا نهاية له وفاتها هي، بما أن كلّ ما يحدث الآن لليليا هو رهين ارادته كراو. إذن، بما انه معلّق، فما يحدث على الجزيرة أيضاً معلّق.

ما عدا ذلك فهو عكاس حادّ جدا. ستجد هي نفسها في نفس الوضعية التي بقي هو فيها زمنا صار لا يحصى، على بعد ذراعين من الجزيرة، وبتيهانه وسط المحيط فسيهب لها ذلك الذي كان أمله، وسيجعلها هو معلّقة على تلك الحافة من شوق لا ينتهي ـ كلاهما دون مستقبل وإذن دون موت قادم.

ثم توقّف ليتصوّر كيف ستكون رحلته، وطبقا لالتحام الأكوان الذي كان قد أقرّه، كان يراها مثلما لو كانت أيضاً رحلة ليليا. كانت قصّة روبارتو العجيبة هي التي ستضمن لها أيضاً خلودا ما كانت شبكة خطوط الطول لتسمح لها به.

سيتّجه نحو الشمال بسرعة هادئة ومتساوية: على يمينه وعلى شماله ستتعاقب الأيام والليالي، والفصول، والكسوف تلو الكسوف والمدّ والجزر تلو المدّ والجزر، وشهب جديدة ستخترق السماوات حاملة أوبئة وفتنا تقلب امبراطوريات، وسيشيب ملوك وبابوات ويضمحلّوا في هبّات من الغبار، وجميع دوّامات الأكوان ستكمل دوراتها الريّحة، ونجوم جديدة ستتولّد من محرقات القديمة... وحوله سيزبد البحر ثم يعود من زيت، والرياح ستقوم بدواويرها، وبالنسبة اليه لن يتغيّر شيء في ذلك الأخدود الهادىء.

هل سيتوقّف يوما؟ ما كان يتذكّره من الخرائط هو أنه ليست هناك أرض، بخلاف جزيرة سليمان، تمتدّ على تلك الهاجرة، على الأقلّ إلى

أن تلتقي، في القطب، بالأراضي الأخرى. ولكن، إن كانت سفينة مدفوعة بالريح ومحمّلة بالأشرعة، تقضّي شهورا وشهورا وشهورا لقطع مسافة تساوي المسافة التي سيقطعها هو، كم سيقضّي من زمن؟ ربما أعواما، قبل ان يصل إلى المكان الذي سينسى فيه النهار والليل، ومرور القرون.

ولكنه في الأثناء سيجد راحة في حبّ رقيق لا يهمّه فيه أن يفقد شفتيه ويديه ومقلتيه. سيفرغ جسده من كلّ الأخلاط، من الدم، من المرّة أو النخامة، وسينفذ الماء من جميع مسامّه، ويدخل من أذنيه ليغرّي مخّه بتنوّر ملحي، وسيأخذ مكان الرطوبة الزجاجية في العينين، وسيغمر المنخرين ليمحو كلّ أثر من العنصر الأرضي. في نفس الوقت ستغذّيه أشعّة الشمس بذرات نارية، وسترقّق هذه الأخيرة السائل لتجعله قطرة واحدة من هواء ونار ستحملها قوّة الانجذاب إلى أعلى. وهو، بعد أن صار خفيفا طائرا، سيصعد ليحلّق في البداية مع أنفاس الهواء، ثم مع أنفاس الشمس.

وسيحدث لها نفس الشيء، في ضياء تلك الحشفة الثابت. وستنبسط مثل الذهب المطرّق إلى ان تصير سبيكة هوائية.

وهكذا على امتداد الأيام سيلتقيان في ذلك الوفاق. ولحظة بعد لحظة سيكونان فعلا أحدهما للآخر مثل توأمي البركار، كلاهما يتحرّك حسب حركة رفيقه، مائلا عندما يزيد الآخر في البعد، ومستقيما من جديد عندما يلتقي به الآخر.

وعندئذ سيواصل الاثنان رحلتهما في الحاضر، نحو الكوكب الذي ينتظرهما، غبار من ذرّات وسط غبار الكون، دوامة وسط الدوامات، قد صارا سرمديين مثل العالم لأنهما نسجا من فراغ. قد تصالحا مع مصيريهما، لأن حركة الأرض تحمل شقاء ومخاوف، بينما اضطراب الكواكب بريء.

إذن سيكون رهانه في كلّ الحالات رابحا. لا يجب ان يتردّد. ولكن لا يجب من جهة أخرى ان يتهيأ لهذه التضحية الانتصارية دون ان يصاحبها بالطقوس الملائمة. وهكذا عهد روبارتو إلى ورقاته بالأعمال الأخيرة التي كان يستعدّ للقيام بها، وما عدا ذلك يترك لنا حرّية تصوّر الحركات، والأزمنة، والإيقاعات.

وكغسل خلاص أوّلي، قضّى ساعة وهو يرفع جزءا من الشبكة التي تفصل سطح السفينة عمّا تحته. ثم نزل وأخذ في فتح جميع الأقفاص. وبينما كان ينزع الحلقات الواحدة تلو الأخرى، كانت الأجنحة تلفّه بضربة واحدة، وكان عليه ان يدافع عن نفسه رافعا ذراعية أمام وجهه، وصائحا في نفس الوقت «شو، شو!» مشجّعا المساجين دافعا بيديه حتى الدجاجات، التي كانت تضرب بأجنحتها دون أن تجد منفذا للخروج.

إلى أن شاهد، بعد ان صعد فوق السطح، ذلك السرب الكثيف يرتفع بين الصواري، وتراءى له لبضع لحظات ان الشمس توشّحت بكلّ ألوان قوس قزح، يخترقها بياض الطيور البحرية، التي هرعت بفضول لتشارك في تلك الحفلة.

ثم رمى إلى البحر بجميع الساعات، ولم يبد له ذلك ضياعا لوقت ثمين: كان يمحو الزمن ليكون السعد إلى جانبه في رحلته ضدّ الزمن.

وأخيرا، حتى لا يترك الجبن يتغلّب عليه، جمّع على السطح، تحت الشراع الكبير، قرما وألواحا وبراميل فارغة، ثمّ رشّها بزيت جميع المصابيح، وأشعل فيها النار.

ارتفعت شعلة أولى، لحست في الحال الأشرعة والحبال. وعندما تأكّد لديه ان النار صارت تتغذّى من نفسها، تهيأ للوداع.

كان لا يزال عاريا، منذ أن بدأ يموت متحوّلا إلى حجرة. وتعرّى حتى من الحبل الذي كان ينبغي أن لا يعرقل رحلته، ثم نزل إلى البحر.

ركّز قدميه على الخشب، ودفع بنفسه نحو الأمام مبتعدا عن دافني، وبعد أن حاذى جانبها إلى حدّ المؤخرة، ابتعد عنها إلى الأبد، نحو إحدى السعادتين التي هي دون شكّ في انتظاره.

وقبل أن يكون القدر، والمياه، قد قرّرت مصيره، أودّ أن يكون توقّف من حين لآخر ليتنفس قليلا، وأن يكون قد سرح بنظره من دافني، محيّيا إياها، إلى الجزيرة.

هنالك، فوق الخطّ الذي كانت ترسمه قمم الأشجار، بعينين صارتا الآن نافذتين، أظنّه شاهد وهي ترتفع طائرة ـ مثل سهم يريد ان يضرب الشمس ـ الحمامة ذات اللون البرتقاليّ.

40

ذيــل

هوذا. أمّا ما حدث بعد ذلك لروبارتو، فأنا لا أدري ولا أظن انه بالإمكان ان نتعرّف عليه أبدا.

كيف يمكن ان نستمدّ رواية، من قصّة روائية إلى هذه الدرجة، إن كنّا لا نعرف نهايتها ـ أو بالأحرى، بدايتها الحقيقية؟

الاّ اذا كانت القصّة التي نريد روايتها ليست قصّة روبارتو، بل قصّة أوراقه ـ حتى وان وجب علينا هنا أيضاً ان نلجأ إلى التخمينات.

إن كانت الأوراق (التي هي من ناحية اخرى غير متكاملة، والتي استمددت منها قصّة، أو سلسلة من القصص المتشابكة والمتداخلة) قد وصلت الينا فهذا يعني ان دافني لم تحترق تماما، وهذا يبدو لي واضحا. من يدري، ربما أحرقت النيران جزءا من الصواري، ثم انطفأت من تلقاء نفسها في ذلك اليوم الخالي من الرياح. كما أنه، لا شيء يمنع ان تكون هطلت بعد ذلك ببضع سويعات أمطار ساحية، أطفأت النار...

كم قضّت دافني من وقت هنالك قبل ان يعثر عليها أحد ويكتشف أوراق روبارتو؟ أقوم بافتراضين، كلاهما عجيب.

مثلما كنت قد أشرت سابقا، فإن أباب تاسمان، قبل تلك الأحداث ببضعة شهور، وبالتحديد في فبراير من سنة 1643، بعد

انطلاقه من بتافيا في أغسطس 1642، وإثر بلوغه تلك الأرض المعروفة بأرض فان ديمان، والتي ستّتخذ بعد ذلك اسم تسمانيا، وبعد أن أبصر فقط من بعيد زيلاندا الجديدة، وجّه بعد ذلك مركبه نحو جزر تونغا (التي كان قد بلغها في 1615 فان شوتان ولومار، وسمّيت جزر نارجيلة والخونة)، ثم تقدّم نحو الشمال واكتشف سلسلة من الجزر الصغيرة المحاطة بالرمال، سجّلها على 19، 17 درجة على خط العرض الجنوبي وعلى 35، 201 على خط الطول. لن نناقش مسألة خط الطول، ولكن تلك الجزر التي سمّاها Prins Willelms Ejilanden، ان كانت افتراضاتي صحيحة فهي لا يمكن ان تكون بعيدة عن الجزيرة التي تتحدّث عنها قصّتنا.

ويقول تسمان إنه أنهى رحلته في يونيو، وإذن قبل ان تكون دافني قد بلغت تلك الجهات. ولكن ليس من المؤكد ان يوميّات تاسمان صادقة (ومن ناحية اخرى افتقد الأصل)[1]. لنحاول إذن ان نتصوّر انه، خلال

احدى تلك الانعطافات العرضية التي كانت رحلاته ثريّة بها، عاد إلى تلك الجهة، لنقل في سبتمبر من ذلك العام، وأنه عثر هناك على دافني. وفي الحالة التي كانت عليها، دون صواري ودون أشرعة، كان

---

(1) يمكن لأي كان ان يتأكّد من صحّة ما أقول في P.A.Leupe, «De handschriften der ontdekkingreis van A.J.Tasman en Franchoys Jacobsen Vische 1642-3»، في Bijdragen voon vaderlansche geschiedenis en oudheidkinde , N.R. 7, 1872, pp. 254-93. ولا يشكّ انها ليست قابلة للنقاش تلك الوثائق المجمّعة مثل Generale Missiven، حيث يوجد مقطع من «Daghregister van het Casteel Batavia» بتاريخ 10 يونيو 1643، يذكر فيه خبر عودة تاسمان. ولكن ان كان الافتراض الذي أتقدّم به مقبولا، فيكفي القليل للتخمين انه لحفظ سرّ مثل ذلك حول خطوط الطول، حتى وثيقة مثل هذه يمكن ان تكون قد زيّفت. مع أخبار كانت من بتافيا تصل إلى هولندا، ومن يدري متى كانت تصلها، لا أحد يتفطّن إلى فارق بشهرين. ومن جهة أخرى لست متأكدا بالمرّة ان روبارتو وصل إلى تلك الجهات في شهر أغسطس وليس قبل ذلك.

من المستحيل اصلاحها. وإذن زارها ليتعرّف على مصدرها، فوجد أوراق روبارتو.

وحتى ان كانت معرفته باللغة الإيطالية قليلة فقد فهم انه يأتي فيها الحديث عن خطوط الطول، وها ان تلك الأوراق تصبح وثيقة سرّية جدا ينبغي تسليمها إلى «شركة الهند الهولندية». لذا تكتّم في يومياته على كلّ شيء، وربّما زوّر حتى التواريخ ليمحو كلّ أثر من مغامرتها، وانتهت أوراق روبارتو إلى بعض الأرشيفات السرّية. إضافة إلى أن تاسمان قام برحلة أخرى في السنة الموالية، واللّه يعلم ان كان قد ذهب إلى حيث قال[1].

لنتصوّر الجغرافيين الهولنديين وهمّ يورّقون تلك الوثائق. نحن نعرف انه ليست هناك اشياء ذات أهميّة ما عدا ربما المنهج الكلبي الذّي اتبعه الدكتور بيرد، والذي أراهن بشأنه ان جواسيس كثيرين تعرّفوا عليه بطرق مختلفة. صحيح انه يذكر فيها المرصد المالطي، ولكنني أذكّر انه، بعد تاسمان، مرّت مائة وثلاثون سنة قبل ان يكتشف كوك تلك الجزر، وباتباع اشارات تاسمان لم يكن بالإمكان الوصول اليها.

ثم، في نهاية الأمر، ودائما بعد قرن من أحداث قصّتنا، وضع اكتشاف الكرونومتر البحري من قبل هارّيسون حدّا للأبحاث الجنونية بخصوص الـ «punto fijo». لم يعد مشكل خطوط الطول مشكلا، وها إن احد موظفي أرشيف الشركة، رغبة منه في إخلاء الخزائن يلقي، أو يهدي، أو يبيع ـ من يدري ـ أوراق روبارتو، التي لم تعد الآن الاّ طرفة صالحة لبعض المغرمين بالمخطوطات.

الافتراض الثاني هو من الناحية الروائية أكثر جاذبيّة. في ماي 1789 مرّت بتلك الجهات شخصيّة لامعة: هو القبطان بليق، الذي أنزله

(1) بخصوص هذه الرحلة الثانية لم يعثر بالمرّة على يومية السفينة. لماذا؟

متمرّدو Bounty فوق قارب مع ثمانية عشر من رجاله المخلصين، وعهدوا به إلى رحمة الأمواج.

وذلك الرجل الفذّ، مهما كانت عيوب طباعه، استطاع ان يقطع أكثر من ستة آلاف كيلومتر ليصل أخيرا إلى تيمور. وللقيام بهذه الرحلة مرّ بأرخبيل جزر فيجي، وكاد ان يصل إلى فانويا ليفو واجتاز مجموعة يازاوا. هذا يعني انه، لو انحرف قليلا نحو الشرق، كان بإمكانه ان يصل إلى حيث توجد جزيرة تافوني، التي أخمّن انها الجزيرة التي تعنينا ـ وان كان هناك لزوم لشواهد على هذا لتصديقي أو لعدم تصديقي، فلا بأس، اذ هناك من أكّد لي ان حمامة برتقالية اللون، أو Orange Dove، أو Flame Dove، أو أفضل من هذا Ptilinopus Victor، موجودة هناك فقط ـ الاّ أنه، وقد أفسد كلّ القصّة، تلك البرتقالية هي الذكر.

الآن، لو عثر شخص مثل بليق على دافني في حالة تكاد تكون معقولة، وبما انه وصل إلى هناك فوق قارب بسيط، فسيعمل ما في وسعه لإصلاحها. ولكنه كان قد مضى عليها ما يقارب القرن ونصف القرن. بعض العواصف قد تكون أضرّت كثيرا بذلك المركب، واقتلعته من مرساه، ورمت به على الحاجز المرجاني ـ أو ربما لا، صار تحت رحمة التيار الذي حمله نحو الشمال ورماه على شاطىء آخر أو على صخور جزيرة أخرى قريبة، حيث بقيت عرضة لتأثيرات الزمن.

من المحتمل ان يكون بليق قد صعد على متن السفينة الشبح، التي صارت جوانبها مرصّعة بالقواقع واخضرّ لونها من الطحلب، وأصبحت المياه الراكدة في قاعها المبقور ملجأ لرخويّات ولأسماك سامّة.

ربما بقي قائما من السفينة، متقلقل التوازن، طرف المؤخرة، وفي حجرة القبطان عثر بليق على أوراق روبارتو، جافّة ومغبرّة، أو ربما العكس، رطبة ومنقّعة، ولكن لا تزال قابلة لأن تقرأ.

لم تكن تلك الفترة تهتمّ كثيرا بمشكل خطوط الطول، ولكن من

المحتمل ان ما جذب اهتمامه هي الإشارات، في لغة مجهولة، إلى جزر سليمان. قبل ذلك بعشر سنوات تقريبا كان أحدهم يدعى السيّد بواش، جغرافيُّ ملك فرنسا والبحريّة الفرنسية، قد قدّم مذكرة إلى أكاديمية العلوم حول وجود جزر سليمان وحول موقعها، وأكّد انها ليست الاّ ذلك الجون المسمّى «شوازول» الذي كان قد وصله بوغانفيل سنة 1768 (والذي كانت أوصافه تبدو متطابقة مع تلك القديمة التي قام بها مندانيا)، و«أراضي أرساسيد» التي وصل اليها سورفيل سنة 1769. حتى أنه، بينما كان بليق لا يزال مبحرا، كان مجهول، ربما هو السيّد دي فلوريو، يتهيأ لنشر كتاب يحمل عنوان اكتشافات الفرنسيين سنتي 1768 و1769 في الجنوب الشرقي لغينيا الجديدة.

لا أدري ان كان بليق قد قرأ ما تقدّم به السيّد بواش، ولكن ما من شكّ انه في اوساط البحرية الإنجليزية كانوا يغتاظون من عجرفة أبناء عمومتهم الفرنسيين، الذين يتباهون بأنهم وجدوا ما كان غير موجود. كان الفرنسيون على حقّ، ولكن ربما بليق كان لا يعرف ذلك، أو لا يريده. ويمكن إذن ان يكون غذّى الأمل في انه عثر على وثيقة لا تكذّب فحسب الفرنسيّين، بل وتكرّسه هو كمكتشف جزر سليمان.

أتصوّر انه، قبل ذلك، شكر في دخيلته فليتشر كريستيان والمتمرّدين الآخرين لأنهم وضعوه بالعنف على طريق المجد، ثم قرّر، كمواطن مخلص، ان يكتم عن الجميع انحرافه الخفيف نحو الشرق واكتشافه، وأن يسلّم بسريّة مطلقة الأوراق للأميراليّة البريطانية.

ولكن حتى في هذه الحالة، اعتبر بعضهم انها قليلة الأهميّة، خالية من كلّ قيمة اثباتية و- من جديد - نفاها بين حزم من الوثائق العلمية الصالحة لأهل الأدب. ويعدل بليق عن جزر سليمان، ويرضى بتسميته اميرالاً لمناقبه المؤكّدة الأخرى في الملاحة، ليموت مع ذلك راضيا، دون ان يعرف ان هوليود ستجعله ممقوتا لدى الأجيال اللاحقة.

وهكذا، حتى وإن كان أحد افتراضيّ صالحا لمواصلة السرد، فلن تكون له خاتمة خليقة بأن تروى، وستترك كلّ قارىء مستاء وغير راض. وحتى على هذا الشكل لا تصلح قصّة روبارتو لأي وعظ اخلاقي ـ وسنبقى دائما نتساءل لماذا حدث له ما حدث ـ مستنتجين انه في الحياة تحدث الأشياء لأنها تحدث، وليس الاّ في «بلد الروايات» تبدو انها تحدث لهدف ما أو لسبب ما.

فإن كان عليّ ان أستمدّ من كلّ هذا خاتمة، فعليّ ان أرجع من بين أوراق روبارتو إلى ملحوظة، تعود دون شكّ إلى تلك الليالي التي كان لا يزال يتساءل فيها عن دخيل محتمل. كان روبارتو ذلك المساء يتأمل من جديد في السماء. كان يتذكّر كيف انه في «لاغريف»، عندما انهار المصلّى العائلي تحت ثقل السنين، نصح أستاذه الكرمليّ الذي كانت له بعض التجربة في الشرق، بأن يعيدوا بناء ذلك المصلّى الصغير على الطريقة البيزنطية، في شكل دائري مع قبّة وسطية، دون علاقة البتّة مع الأسلوب الذي اعتادوا عليه في «مونفيرّاتو». ولكن بوتسو الشيخ كان لا يريد ان يتدخّل في شؤون الفنّ والدين، واستمع إلى نصائح ذلك الرجل الطاهر.

عندما شاهد سماء المتقاطرات، تفطّن روبارتو ان في «لاغريف»، في منظر تحيط به الهضاب من كلّ جهة، كانت السماء تبدو له مثل قبّة المصلّى، محدودة بخطّ الأفق الوجيز، مع مجموعة أو مجموعتين من النجوم كان قادرا على التعرّف عليها، حتّى انه مع علمه ان المنظر يتغيّر من اسبوع إلى آخر، وبما أنه كان يذهب باكرا للنوم، فلم يتمكّن من التفطّن إلى أنه كان يتغيّر حتى اثناء الليلة نفسها. ولذا كانت تلك القبّة تبدو له دائما ثابتة ومستديرة، وبالتالي تصوّر عالما كونيا في مثل ثباتها واستدارتها.

في «كزالي»، وسط سهل، تبيّن له ان السماء أوسع ممّا كان

يتصوّر، ولكن الأب إيمانويل كان يقنعه بأن يتصوّر النجوم حسب ما تصفها المفاهيم، عوض ان ينظر إلى تلك الموجودة فوق رأسه.

الآن، وقد صار مشاهدا في النصف المعاكس من الأرض ذي الامتداد اللامتناهي للمحيط، كان يرى أفقا لا حدود له. وهناك فوق رأسه كان يرى مجموعات من النجوم لم يسبق ان شاهدها أبدا. تلك التي كانت في منتصف الكرة التي كان يعيش فيها كان يقرأها حسب الصورة التي حدّدها لها القدامى، هنا التناظر المتعدد الزوايا للدبّ الأكبر، هنالك الدقّة الأبجدية لكاسيوبيا. ولكن فوق دافني لم تكن لديه صور معدّة سلفا، كان بمقدوره ان يجمع أي نقطة بأي نقطة أخرى، وأن يستمدّ صورا لثعبان، أو عملاق، أو ضفيرة أو ذيل حشرة سامّة، ليفكّكها من جديد ويحاول اشكالا أخرى.

في فرنسا وفي ايطاليا كان يشاهد أيضاً في السماء منظرا رسمته يد ملك، حدّد خطوط الطرقات والمصالح البريدية، تاركا بينها بقع الغابات. هنا، على العكس، كان رائدا في أرض مجهولة، وكان عليه ان يقرّر أي مسالك ستصل بين قمّة مرتفع وبحيرة، دون معيار في اختياره، لأنه لا توجد بعد مدن وقرى على منحدرات الأول وعلى ضفاف الثانية. كان روبارتو لا ينظر إلى الكواكب: كان محكوما عليه أن يؤسّسها. وكان يرتاع عندما تنتظم المجموعة في شكل لولب، أو قوقعة حلزون، أو دوّامة.

عند ذلك الحدّ كان يتذكّر كنيسة، حديثة العهد، رآها في روما ـ وهي المرّة الوحيدة التي يتركنا فيها نتصوّر انه زار تلك المدينة، ربما قبل سفره إلى بروفانسا. بدت له تلك الكنيسة مختلفة جدا عن قبّة «لاغريف» وعن الأجنحة، المنظمة هندسيا في اقواس قوطية ومتقاطعة، في الكنائس التي شاهدها في «كزالي». الآن فهم لماذا: كان مثلما لو أن قبّة الكنيسة كانت سماء جنوبية، ترغب العين في ان تجرّب دائما نقاط انطلاق جديدة، دون ان تستقرّ أبدا في نقطة مركزية. تحت تلك

القبّة، مهما كان موضع المشاهد، من ينظر إلى أعلى كان دائما يحسّ بنفسه على الحاشية.

صار يفهم الآن انه، أحسّ من قبل بطريقة اكثر التباسا، وبطبيعة الحال اقلّ فخامة، من خلال مفاجآت صغيرة يوما بعد يوم، بذلك الشعور بالراحة التي حرم منها في بروفانسا ثمّ في باريس، حيث كان كلّ واحد يهدم بطريقة من الطرق احدى الثوابت التي كانت له ويدلّه على كيفيّة محتملة لرسم خارطة العالم، الاّ ان الإيعازات التي كانت تأتيه من جهات مختلفة لم تكن تنتظم في رسم متكامل.

كان يسمع بآلات قادرة على تغيير مجرى العناصر الطبيعية، بطريقة تجعل الثقيل يميل إلى أعلى والخفيف يهوي نحو الأسفل، ويجعل النار تبلّ والماء يحرق، كما لو ان خالق الكون نفسه صار قادرا على ان يصلح نفسه، وان يتمكّن اخيرا من إكراه النباتات والأزهار على معارضة الفصول، واجبار الفصول على الدخول في عراك مع الزمن.

لو ان الخالق وافق ان يغيّر رأيه، هل كان لا يزال يوجد نظام فرضه على الكون؟ ربما فرض انظمة مختلفة، منذ البداية، وربما كان مستعدا لتغييرها يوما بعد يوم، ربما كان يوجد نظام سرّي يتحكم في ذلك التغيير للأنظمة وللإمكانيات، ولكننا نحن حكم علينا ان لا نكتشفه ابدا، وان نتّبع اللعبة المتغيّرة لتلك الظواهر من انظمة تنتظم من جديد عند كل تجربة جديدة.

وإذن لن تكون قصّة روبارتو دي لاغريف سوى قصّة عاشق تعيس، حكم عليه ان يعيش تحت سماء شاسعة، لم يقدر ان يقبل فكرة ان الأرض تسبح على طول قطع ناقص ليست فيه الشمس الاّ واحدا من المشاعل.

وهذا، كما يوافقني في ذلك الكثيرون، هو من الضآلة بحيث يجعل من الصعب ان نستمدّ منه قصّة ذات رأس وذيل.

وأخيرا، لو أردت ان أصنع من هذه القصّة رواية، لأثبتت مرّة اخرى انه لا كتابة من غير عودة لمخطوط وقع العثور عليه ـ دون التمكّن ابدا من التحرّر من قلق التأثير. كما انني لن أنجو من فضول القارىء الصبياني، الذي سيريد ان يعرف هل ان روبارتو كتب حقيقة الصفحات التي تحدّثت عنها طويلا. أجيبه بنزاهة انه ليس مستحيلا ان يكون كتبها أحد آخر، متظاهرا انه لا يقول الاّ الحقيقة. وهكذا سأفقد كلّ التأثير الروائي: حيث، وهذا صحيح، يتظاهر من يكتب انه يقصّ اشياء حقيقية، ولكن لا يجب ان يقول بجدّية انه يتظاهر.

وليس بإمكاني حتى أن اختلق من خلال أي صدفة اخيرة وصلت الرسائل إلى ايدي من سلّمها إليّ، مستخرجا اياها من متفرّقات أصول شاحبة ومخدوشة.

«المؤلف مجهول»، ولكنني أتوقّع انه سيقول لي، «الكتابة جميلة، ولكنها كما ترى شاحبة، والورقات لا تعدو أن تكون الاّ مرهة واحدة. اما بخصوص المحتوى، ومن القليل الذي اطلعت عليه، فهو عبارة على تمارين اصطلاحية. انت تعرف كيف كانوا يكتبون في ذلك القرن... كانوا اناسا دون روح».

فهرس الكتاب

أحمد الصمعي يدرّس اللغة الإيطالية والأدب الإيطالي المعاصر بكلّية الآداب منوبة-جامعة تونس.

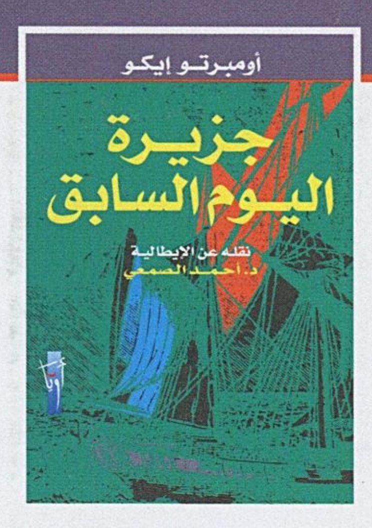
ترجم من الأدب الإيطالي

- إيطلو كالفينو، خرافات إيطالية، منشورات فانزي، تونس 1986.

- أومبرتو إيكو، اسم الوردة، دار التركي للنشر، تونس 1991، الطبعة الثانية، دار أويا، طرابلس ليبيا، 1998.

- جيوزيبي بونافيري، خياط الشارع الطويل، فانزي للنشر والإبتكار الفني، تونس 1998.

- جزيرة اليوم السابق، دار أويا، طرابلس، ليبيا، الصيف، حزيران يونيو 2000.



من منّا لم يحلم بجزيرة نائيةٍ، واقعة في أطراف الدنيا، نائمة بين زرقة السماء ولازورد البحر؟ «أين منّي جزيرة نائية لم تطأها قدم رجل؟» كما يقول أحد أبطال نجيب محفوظ.

كل منّا يبحث عن جزيرته، وكل منّا يريدها ويتصورها حسب الآمال التي يجري وراءها، دون الفوز بها، فمثلنا مثل «الفارس المالطي» في هذه الرواية، الذي يبحث عن جزيرة «إسكونديدا» وكلما بدا له أنه عثر عليها، بقي شيء في دخيلته يتنازعه ويجعله يقطع بأن تلك الجزيرة ليست «إسكونديدا» التي يبحث عنها، أو أولئك الذين يبحثون عن جزيرة سليمان للظفر بالكنز العظيم الذي يقال إن سيدنا سليمان جمعّه فيها، فيقضون حياتهم وراء هذا الأمل ويموتون من أجله. وجميعنا يقضى كامل العمر في البحث عن جزيرته دون بلوغها، وكثيرون تقف مراكبهم أمام الجزيرة المأمولة، دون القدرة على النزول إليها، فتمر بهم الآيام بين الحسرة على الأمس وحيرة اليوم والرجاء في الغد.

إن هذا الكتاب رحلة ينبغي أن يستعد لها القارىء وتلك الصفحات المشبعة بالتعاليق والهواجس والأفكار هي مثل الحركات التسخينية التي تهيء اللاعب لمباراة صعبة. هي فعلاً رحلات شاقة ولكنها جعلت من روايات إيكو غلّة غريبة ونادرة لا يلتذ بها إلاّ المغرمون بالألوان المجهولة من الطعام.



ISBN 9959-29-031-X
9789959290311

دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية
زاوية الدهماني - السوق الأخضر هاتف: 3338571 ● 4449903 ● 4448750-21-218+
فاكس: 4442758-21-218+ ص.ب: 13498 طرابلس - الجماهيرية العظمى

توزيع: دار الكتاب الجديد المتحدة
أوتوستراد شاتيلا - الطيونة - شارع هادي نصر الله - بناية فرحات وحجيج - طابق 5
خليوي: 933989-03 هاتف وفاكس: 542778-1-961+